

نسيم الرياض

في شرح شفاء القاضي عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩هـ

ضبطه وقدم له وعلق عليه

محمد عبد القادر عطا

الجزء الثاني

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فصل) [فى نظافة جسمه ﷺ]

هو رابع الفصول السابق ذكرها. **(وأما نظافة جسمه)** عطف على قوله أما الصورة إلى آخره في الفصل الذى قبله، أى تفاوته من نظف بالضم ضد قذر.

(وطيب ريحه) المراد بالريح هنا الرائحة التى تدرك بالشم، وروى: «رائحته» وهما بمعنى.

(وعرقه) بفتحتين وهو ما يترشح من البدن وقد يستعار لغيره كماء الورد المستقر منه.

(ونزاهته عن الأقذار) أى بعده وخلوه منها وتنزيهه عنها، والضمائر للجسم أو لصاحبه المعلوم التزاما، والأقذار جمع قذر والقذر والقذار ضد النظافة هو مؤكد لما قبله وكالتفسير له.

(وعورات الجسد) أى البدن، وعورات بسكون الواو وقد تحرك، وبه قرئ جمع عورة وهو كل ما يوجب خللا فيه أو يستر ويستحى منه مما يشين وينقص، ولذا قيل: إنها مشتقة من العار الذى يذم بسببه، يقال: عورات الجسد والكلام.

(فكان صلى الله تعالى عليه وسلم) الفاء تفصيلية **(وقد خصه اللّه تعالى)** وفضله وميزه عمن سواه **(فى ذلك)** المذكور **(بخصائص)** أى فضائل لا توجد فى غيره كما أشار إليه بقوله:

(لم توجد فى غيره) من الأمم أصلا، أو لم توجد فى الأكثر وهذه صفة مخصصة أو مبنية مؤكدة. **(ثم تممها سبحانه)** تنزيه اللّه تعالى المنزه له واقع فى محزه والضمير للخصائص.

(**بنظافة الشرع**) متعلق بتممها، أى: تمم ما فطر عليه من ذلك وما خصه به مما شرعه له من النظافة الدينية كالوضوء، وإضافة النظافة للشرع لملابستها له وكونها بسببه فهى لامية، قيل: المراد أنه جعل بعضا منها فى جبلته بحصوله فيها أو باقتضاء طبعه وعقله مما لم يعط لغيره، ثم أمره بما لم تكن كذلك كالطهارات، ووقفه لاتباعه على أكمل الوجوه فاتصف بالنظافة الكاملة، سواء كان الشرع شرعه أو شرع من قبله، إن قلنا باتباعه له مع أنه صار شرعًا له، وأما ما نسخ فقد زال، فما قيل من أن هذا إنما يستقيم إن لم يكن متعبدًا بشرع من قبله، أو المراد بالنظافة عدم الإصر والأغلال تكلف من غير داع، وبالجملة فشرعه صلى الله تعالى عليه وسلم شامل لكل ما ينبغى على الوجه الأكمل.

(**وخصال الفطرة العشر**) من عطف الخاص على العام، والفطرة أصل معناها فى اللغة الطبيعة، والجبلة التى خلق عليها مركوزة فيه من فطر بمعنى خلق، ومنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١] وأصل معنى الفطر الشق كما قاله الراغب، وفسرها المحدثون هنا بالسنة، وأعترض عليهم ابن الصلاح بأنه لا يناسب المعنى اللغوى، ووجه ذلك بعضهم بأن مرادهم أن فى الكلام مضافا مقدرًا، أى سنة الفطرة بمعنى الصفة الناشئة عن الفطرة السليمة، ورد بأنه وقع تفسيرها بها فى صحيح البخارى، والقول ما قالت حزام فلا عبرة بمن أنكره من اللغويين كصاحب المغرب، أقول: السنة الطريقة المألوفة المعتادة والإنسان لاسيما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إنما يألفون ما تقتضيه فطرتهم السليمة المبنية على النظافة والنزاهة، وما يعتاد مما يقتضيه الطبيعة ملحق بها فلا بعد فى تسميته باسمها، كما قالوا العادة طبيعة ثانية. فالقول بأنه لا مناسبة بينهما غير صحيح، والجواب المذكور إقناعى لا يجدى نفعا، وللسيد هنا كلام لا محصل له رأينا تركه خيرًا من ذكره وردهِ، وأول من سن هذه السنن إبراهيم الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم وكونها عشرًا رواه مسلم فى حديث مرفوع: «عشرة من الفطرة؛ قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتفاص الماء»(١). قال مصعب: نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. وروى أبو داود «المضمضة والختان» بدل من إعفاء اللحية. وقال المصنف رحمه الله تعالى: المنسى الختان. وروى أيضا فى الحديث الصحيح: «خمس من الفطرة» فالحصر غير مقصود أو أن السنن كانت تزيد شيئا فشيئا. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]، أنه أمر بعشر خصال ثم عدهن كما مر،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٦/٢٦١)، وأبو داود (٥٣)، والنسائى (١٢٦/٨)، والترمذى (٢٧٥٧)، وابن ماجه (٢٩٣)، وأحمد (١٣٧/٦)، والبيهقى (٣٦/١، ٥٢، ٣٠٠)، والدارقطنى (٩٥/١).

وأشار بقوله: «من الفطرة» إلى أنها غير منحصرة فيهما ذكر وهذه كلها ظاهرة والسنة المراد بها الطريق كما مر فيشمل السنة والواجب.

والختان سنة عند الأكثر فى حق الرجال وهو قطع جلدة الكمرة، وفى حق النساء مكرمة، ويسمى خفاضًا بكسر الخاء المعجمة والفاء والضاد المعجمة، وهو قطع جلدة في أعلى الفرج على ثقب البول، وقطع أدنى شىء منه كاف، واستحسن مالك رحمه الله تعالى ختان الصبى من سبع إلى عشر، وكرهه فى اليوم السابع لأنه عادة اليهود. ولم يعين له أبو حنيفة رحمه الله زمانًا.

وقص الشارب سنة وقيل: حلقه أحسن وتقصير اللحية حسن كما مر، وهيئته تحصل بقص ما زاد على القبضة ويؤخذ من طولها أيضًا على ما يأتى. وأما حلقها فمنهى عنه لأنه عادة المشركين.

وأما السواك فسنة مطلقا. وقيل: إنه سنة فى الوضوء. وقيل: هو سنة للرجال دون النساء لضعف أسنانهن فأقيم العلك لهن مقامه، ولذا كره للرجال إلا فى الخلوة لعذر. والمضمضة والاستنشاق من سنن الوضوء.

وانتفاض الماء هو استنجاء ويكون واجبًا وسنة كما بينه الفقهاء، وهو بالفاء والمهملة أو المعجمة، والمذكور فى اللغة أنه بالقاف والمهملة، وأما بالفاء فنضحه على الذكر، وقد ورد الاستنقاض بقاف ومعجمة بمعنى الاستنجاء، قال فى المغرب: والقاف والصاد غير المعجمة تصحيف، وفيه أن رواية القاف هى المشهورة. وقال الصاغانى: انتفاض الماء بالفاء والمهملة رشه على الذكر، وقيل: الانتقاص بالقاف تصحيف، وأشعر بأن ما فى المغرب ضعيف.

وقص الأظافر وتقليمها سنة ورد النهى عنه فى يوم الأربعاء، وأنه يورث البرص. وحكى عن بعض العلماء أنه فعله فنهى عنه فقال: لم يثبت هذا فلحقه البرص من ساعته، فرأى النبى عليه السلام فى منامه فشكى إليه ما الله أصابه، فقال له: ألم تسمع نهى عنه؟ فقال: لم يصح عندى. فقال: يكفيك أنه سمع ثم مسح بدنه بيده الشريفة فذهب ما به فتاب عن مخالفة ما سمع.

وغسل البراجم إزالة وسخها بالماء، والبراجم عقد أصابع من ظهر الكف، والرواجب عقدها من بطنها وهما بالجيم الموحدة. وقال التجانى: البراجم مفاصل الأصابع فعمم.

ونتف شعر الإبط معلوم ولا بأس بحلقه، وحلق العانة وهى ما حول الذكر والفرج، وإذا قص أظافره وحلق شعر إبطه وعانته أو حجم أو افتصد فينبغى دفن ظفره وشعره

لحديث: «ادفنوا الأظافر والشعر والدم»[١] فإنه سنة، فإن ألقاه فلا بأس به ولا يترك السبال وإن طال. وفى الإحياء: اختلف السلف فيما طال من اللحية، فقيل: يقص ما تحت القبضة وكرهه الحسن وقتادة لحديث: «اعفو اللحى» أى اتركوها على حالها، وأصل خلقتها، ورجحه النووى. وما ورد من أنه عليه السلام كان يأخذ من طول لحيته وعرضها ضعيف لا يحتج به، وإن احتج به بعضهم فهو مكروه.

وأما المرأة إذا نبتت لها لحية وشارب وعنفقة فيستحب حلقها، وقيل: لا ينبغى تغيير خلقتها.

أقول: إنه صح فى لفظ الانتقاص فى الحديث ثلاث روايات؛ الأولى: انتفاض بفاء وضاد معجمة، والثانية: انتفاص بفاء وصاد مهملة. والثالثة: انتقاض بقاف وضاد معجمة. ومعناه الاستنجاء أو رش الفرج بالماء دفعا للوسواس، وروى انتضاح فلا وجه لما فى المغرب، وتفصيله فى شرح الحديث.

وأما تقليم الأظافر وكيفيته وتفصيله فقد أفرده السيوطى رحمه الله تعالى بالتأليف فلا حاجة للتطويل بذكره كما فى بعض الشروح. ويكره ترك العانة والأظافر أكثر من أربعين يوما.

(قال): إن كان معطوفا على تمم فالمعنى قال الله لرسوله، وإن كان مستأنفا أو حالا بتقدير قد فالمعنى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤيده أنه وقع فى نسخة. **(صلى الله تعالى عليه وسلم بنى الدين على النظافة)** النظافة مصدر نظف وهى ضد الدنس، وفى قوله «بنى الدين» استعارة مكنية وتخييلية بتشبيه الدين ببيت قائم على أعمدة أو أساس حفظه لأهله. وقيل: إنه تشبيه مضمر أو منسى الأداة، والمراد النظافة الحسية من الحدث والخبث والدنس، والمعنوية كالعقائد الفاسدة والأخلاق الردية والتهاون بالعبادة، والمراد أنه مما بنى عليه فلا يعارض «بنى الإسلام على خمس»[٢]. وقد أورد هذا الحديث فى القوت وفى الإحياء فى كتاب العلم، وقال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجده هكذا.

وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها: «تنظفوا فإن

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٢٣/١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٩٨/٢).

(٢) أخرجه البخارى (٤٥١٥)، ومسلم (١٦/٢٠)، والترمذى (٢٦٠٩)، وأحمد (٢٦/٢، ٩٣، ١٢٠، ٣٦٣/٤، ٣٦٤)، والحميدى (٧٠٣)، وابن خزيمة (٣٠٨)، والبيهقى (٣٥٨/١)، والطبرانى فى الكبير (٣٧١/٢).

الإسلام نظيف»[١]. وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنهما: «النظافة تدعو إلى الإيمان»[٢]. انتهى. وفى الترمذى: «إن اللّه نظيف يحب النظافة» وهو بعض حديث ذكره فى كتاب الاستئذان عن سعد بن أبى وقاص أحد العشرة رضى اللّه تعالى عنهم، وقال: إنه حديث غريب فى سنده خالد بن إياس أو إياس وهو ضعيف. وقال السيوطى فى تخريجه هنا بعد ما ساق كلام العراقى. قلت: رواه الترمذى عن سعد بن أبى وقاص مرفوعًا: «إن اللّه نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتكم»[٣] وروى الرافعى فى تاريخ قزوين بسنده عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه مرفوعا: «تنظفوا بكل ما استطعتم فإن اللّه بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف». انتهى.

وبما ذكرناه من أن الحديث روى من طرق متعددة تجبر ضعفه، علم أنه خرج من الضعف إلى مرتبة الحسن ومعناه صحيح موافق للشرع، فلا يرد على المصنف ماقيل إن الحديث الضعيف لا يؤتى فيه بصيغة الجزم كقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونحوه، لأنه يقتضى صحته والجزم به فينخرط فى سلك «من كذب علىّ»[٤] وهو تساهل قبيح، فينبغى أن يقول: قيل أو روى ونحوه من صيغ التمريض، وأما إضمار صيغة التمريض أو قصد معناها اعتمادًا على القرينة، فلا يتأتى مع الجزم وبقية الكلام عليه مستوفاة فى أصول الحديث، فلا يلتفت لما ذكره بعض الشراح هنا من الخرافات المزخرفة، ثم إن إطلاق النظيف على اللّه فى الحديث السابق و لم يذكره أحد فى أسمائه تعالى كما قيل، وقع للمشاكلة والمتقدمون يسمونها ازدواجًا أيضًا فلا وجه للاعتراض عليه لتوهم أنه الازدواج المذكور فى بديع المفتاح فإنه من قصور النظر. وقيل: إنه لا حاجة للمشاكلة فيه لأنه بمعنى القدوس وكفى لثبوته هذا الحديث.

(حدثنا سفيان بن العاصى) سفيان بتثليث السين والعاصى بعين وصاد مهملتين، وهو سفيان بن أحمد بن العاصى بن سفيان بن عيسى أبو بحر الأسدى، ولد سنة تسع وثلاثين

---

(١) انظر: كشف الخفا (٣٤١/١)، والأسرار المرفوعة (١٥٣).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٣٦/١)، وأبو نعيم تاريخ أصفهان (١٨٣/١).

(٣) أخرجه الدولابى فى الكنى والأسماء (١٦/٢)، وأورده العجلونى فى كشف الخفا (٣٤١/١)، والسيوطى فى الدرر المنتثرة (٦٠).

(٤) أخرجه البخارى (٣٨/١، ١٠٢/٢، ٢٠٧/٤)، ومسلم (٣/٣)، والترمذى (٢٦٥٩، ٢٦٦١)، وأحمد (١٦٥/١، ٢٩٣، ٣٢٣، ٤٠٥)، والدارمى (٧٦/١)، وابن حبان (١٤٦١، ١٨٤٤)، والحميدى (١١٦٦)، والبيهقى (٢٧٦/٣)، والحاكم (٧٧/١، ١٠٢).

أو أربعين وأربع مائة، وتوفى بقرطبة لثلاث بقين من جمادى الآخرة وقد جاوز الثمانين سنة أو دونها سنة عشرين وخمسمائة، و فيها توفى ابن رشد.

(وغير واحد) تنبيه على أنه رواه عن غيره أيضا. **(قالوا: حدثنا أحمد بن عمر)** هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى صاحب كتاب الإعلام بإعلام النبوة: ولد ليلة السبت لأربع خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وتوفى سنة ثمان وسبعين وأربع مائة بالمرية.

(قال: حدثنا أبو العباس الرازى) نسبة إلى الرى بزيادة زاى معجمة فى النسبة على خلاف القياس، كما قالوا مروى فى النسبة لمرو، وهو أحمد بن الحسين بن بندار الخراسانى.

(قال: حدثنا أبو أحمد الجلودى) بضم الجيم وفتحها نسبة لجلود قرية ببغداد أو الشام، أو محلة بنيسابور، أو إفريقية، أو لبيع الجلود، وهو محمد بن عيسى بن عمرويه الشيخ الصالح كان على مذهب سفيان الثورى قاله التلمسانى. ولا وهم فيه كما توهم، وفى اسمه ونسبه اختلاف لا حاجة لنا به. وقال النووى: الجلودى بضم الجيم وليس هو منسوبا إلى جلود بفتح الجيم قرية. وهو قول ابن السكيت، وابن قتيبة، ثم قال: الجلودى بالفتح، وأن العوام يقولونه بالضم إنما قالاه فى المنسوب إلى القرية لا فى هذا الجلودى راوى صحيح مسلم، وهذا الذى نبهت عليه لا خلاف فيه.

(قال: حدثنا ابن سفيان) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن سفيان بن محمد المروزى الفقيه الزاهد، توفى سنة ثمان وثلاث مائة وكان زاهدا مجاب الدعوة، روى عن مسلم صحيحه قرأه عليه إلا ثلاث مواضع رواها إجازة أو وجادة.

(قال: حدثنا مسلم) بن الحجاج القشيرى النيسابورى وطنا، صاحب الكتاب المشهور الذى تلقته الأمة بالقبول وشهرته تغنى عن تفصيل حاله، توفى سنة إحدى وستين ومائتين.

(قال: حدثنا قتيبة) علم منقول من مصغر القتبة وهى الإمعاء، وهو قتيبة بن سعيد بن حميد بن ظريف بن عبد الله الثقفى، يكنى أبا رجاء، من الليث ومالك وابن عيينة وغيرهم، وتوفى سنة أربعين ومائتين، وولد ببلخ يوم الجمعة لست مضين من رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

(قال: حدثنا جعفر بن سليمان) البصرى الضبعى بالضم لنزوله فى بنى ضبعة الزاهد الأمى، وهو كما فى التقريب صدوق وإن كان يتشيع، والأصح قبول رواية من يتشيع إن لم يكن متعصبا ولا داعيا.

(**عن ثابت**) البصرى أبو محمد بن سلم، قال الذهبى: وهو ثقة كان من أعبد أهل زمانه، وكان يلبس الثمينة.

(**عن أنس**) بن مالك الصحابى السابق ذكره وترجمته رضى الله تعالى عنه. (**قال: ما شممت عنبرا**) شممت بكسر الميم وفتحها من باب علم ونصر، والعنبر: طيب معروف طاهر بلا كلام، وقال الماوردى: أكثر العلماء على طهارته وفيه إشعار بأن فيه خلافا، والأصح أنه شمع عسل ببلاد الهند يجمد وينزل للبحر، ونحله يرعاه من الزهور الطيبة فيكتسب طيبه منها، وليس نباتا ولا روث دابة بحرية، وأجوده الأبيض وما قرب إلى البياض، والأسود منه غير مرغوب فيه، وفى النسائى: «أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تطيب به».

(**قط**) بفتح القاف وتشديد الطاء المضمومة المبنية وفيه لغات ذكرها النحاة، وأصل معناه ما انقطع من الزمان أى مضى، ولذا اختص بالماضى المنفى فى الأشهر، وذكر ابن مالك رحمه الله تعالى أنه أكثرى وأنه سمع فى المثبت فى أحاديث عدة، وأما استعماله فى المستقبل فقال فى الدرة: إنه لحن وفيه كلام لنا فى شرح الدرة، وقيل: معناه الدهر والأبد وفيه نظر.

(**ولا مسكا**) هو طيب معروف، وهو فى الأصل دم يتجمد عند سرة بعض الظباء فى زمن معين بناحية من أقصى بلاد الترك تسمى تبت، بمثناتين فوقانيتين أولاهما مضموم بينهما موحدة مشددة بزنة سكر، والصحيح أنه طاهر وإن كان دما لاستحالته كخل الخمر، قيل: إنه خصهما لأنهما أشرف الطيب وأشهره، وقدم الأعز الأشرف منهما وعمم بقوله:

(**ولا شيئا**) وإن علم حال غيرهما منهما بالطريق الأولى، فشمل الشىء غيرهما من كل ذى ريح طيبة مفردا كالورد والنرجس، أو مركبا كالغالية، وقد يكون المركب أطيب رائحة، والمراد: ما شممت رائحة عنبر إلى آخره، مع أن العرب تجعل ذا الريح نفسه مشموما من غير تجوز فيه عرفا، ولذا كانت رائحته صلى الله تعالى عليه وسلم مس طيبا أولا، حتى أنه كان إذا مر فى بعض أزقة المدينة علم مروره صلى الله تعالى عليه وسلم به برائحته، وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى موضعين؛ أحدهما كما ذكره المصنف رحمه الله، فمن قال الذى فى مسلم عن ثابت رضى الله تعالى عنه: «ما شممت عنبرا ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا مسست قط ديباجا ولا حريرا ولا شيئا ألين مسا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم» فزيادة قط فى كلام المصنف رحمه الله تعالى بعد العنبر ليست فى

محلها، أو هو رواية بالمعنى اقتصر على أحد الموضعين، والعنبر بالنون الموحدة وكونه بباء موحدة ومثناة تحتية وهو أخلاط طيب مخصوصة تصحيف، ثم إنه قيل إنه ترق على حد ما مر فى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والمعروف أن يبتدأ بالأدنى ثم الأعلى فى الإثبات ويعكس فى النفى، ليكون الكلام مقيدًا فيقول: أعطيته درهمًا ودينارًا وما أعطيته دينارًا ولادرهمًا، ولو قدم نفي الدرهم علم نفى الدينار بالطريق الأولى إلا أنه قد يراعى الترتيب الوجودى.

أقول: هذا هو المشهور، وهى قاعدة كلية إلا أن التحقيق فيها أنه إن ذكر فى الكلام أدنى وأعلى، وقصد إثباتهما فى نفسهما من غير إثبات شيء آخر فالأمر كما ذكر، فإن أضيف إلى ذلك شيء وقيد آخر فالترقى والتدنى بحسبه لا بالنظر لذلك كما فى الآية، فإن المنفى فيها الأخذ وهو بمعنى الغلبة، وغلبة السنة دون غلبة النوم، فإذا قيل: لا تغلبه السنة يتوهم أن النوم الأقوى قد يغلبه فنفى غلبته، وهذا ترتيب مفيد بقطع النظر عن الترتيب الوجودى، فإن لم ينظر لهما بل أريد بنفيهما التعميم، فلك البداءة بأيهما شئت فتقول لا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا كبيرًا ولا صغيرًا، كما فصله فى المثل السائر وبيناه فى حواشى القاضى، وهذا هو المقصود هنا، فإن المراد أنه لا طيب كطيبه صلى الله تعالى عليه وسلم مع أن طيب العنبر دون طيب المسك، كما قالوا: ليس الطيب إلا المسك وعزته وكونه أغلى منه لا دخل له فيما نحن فيه، ثم إن وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بلين الملمس لا ينافى ما ورد كما سبق من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان شثن الكفين والقدمين، فإن المراد غلظ جلدهما وعظمهما؛ لأنه أقوى له ولا ينافى ذلك ملامسته، فإن فسر بغلظ فى خشونته فإما أن يخص بهما ولين الملمس فى غير ذلك من جسده الشريف، أو هذا بالنسبة لأصل الخلقة وذاك لمزاولة الأعمال والأسفار كما مر والأول أصح.

(**أطيب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**) ولا مثله ولا قريب منه كما مر، من أن نفى الأفضلية يقصد بها نفى المساواة بطريق الكناية، وليس المراد أيضًا نفى شمه له بل نفى وجوده، فلا يرد أن نفى الشم لا يدل عل نفى الأطيبية وهو المقصود، على أنه قد يراد بنفى العلم ونفى الوجدان نفى المعلوم والموجود، والمراد رائحته صلى الله تعالى عليه وسلم الذاتية لا المكتسبة؛ لأنها لا مدح فيها بل لا يصح إرادة المكتسبة لا وحدها؛ لأن المكتسب منه مثله، ولا مع رائحته الذاتية لأن المركب ليس مثل ريحه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل.

(**تنبيه**) قد عرفت ما اعترض به على المصنف رحمه اللّه تعالى من أنه غير الحديث

وجوابه، وعلى هذا قيل: إنه اختصر الحديث وقد اختلف فى جوازه، والصحيح جوازه إن يكن المذكور يتوقف فهم معناه على ما قبله بحيث يختل المعنى كالشرط والاستثناء، وما فيه ضمير راجع لمعنى و لم يكن قرينة معينة، وأما النقل بالمعنى فممنوع لمن لم يكن عالما بالعربية ودقائقها، فإن علم بذلك جاز على الصحيح، وفى «جامع الأصول» له تفصيل ولعل هذا كله فى غير الأمثال وما جرى مجراها نحو «أخوك البكرى» و «من أعدى الأول» وله تفصيل فى ابن الصلاح وشروحه.

(وعن جابر بن سمرة) بضم الميم وقد تقدمت ترجمته رضى اللّه تعالى عنه **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده)** هذا الحديث أخرجه مسلم أيضًا، واقتصر المصنف رحمه اللّه تعالى على بعضه لمناسبته للفصل بناء على جواز الاختصار فى الحديث كما مر، وأما مسح الخد بيده فإنما ذكره توطئة لما بعده، وكان من عادته صلى الله تعالى عليه وسلم مسح وجوه الأطفال تأنيسًا لهم وتطييبا لقلوب والديهم وشفقة عليهم، فإن إحضارهم عنده يمنًا وتبركًا به صلى الله تعالى عليه وسلم مشهور، وأول الحديث: «صليت مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم خرج وأنا معه فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدى أحدهم واحدًا واحدًا، وأما أنا فمسح خدى فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جونة عطار». كذا فى مسلم «أو ريحا» بأو بدل الواو الآتى وكثيرًا ما يوجد بدونها، قيل: ولعله رواية فيه والتقدير أو قال جابر.

(قال) أى جابر **(فوجدت)** أى أحسست **(ليده)** أى كفه وما قاربها **(بردا)** وفى صحيح البخارى: «فإذا هى أبرد من الثلج» وهذا يدل على أن البرد على حقيقته وأنه ليس بعارض لمس ماء ونحوه. وقيل: إنه عند العرب ممدوح لاسيما فى زمن الحر، ولا بعد فى عده من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم مع كمال حرارته الغريزية، وقيل: إنه عبارة عن لين كفه ورطوبته، والأقرب أنه بمعنى الراحة واللذة والطيب، وقد فسر قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ [النبأ: ٢٤] براحة لاشتهاره بهذا المعنى، كما قال:

تبسمت بالرضى مواعده فقلت يا بردها على كبدى

وفى النهاية: «كل محبوب عندهم بارد» و «برد الظل طيب العيش» و «الغنيمة الباردة الهنية» واللام للاختصاص والجار والمجرور حال من النكرة التى كانت صفة لها قبل تقدمها، لا يقال إذا كان البرد بمعنى الراحة يكون من باب وجدت للمريض راحة، فيكون المعنى ذو الراحة يده كما أن المريض كذلك؛ لأنا نقول اللام تعليلية أى وجدت راحة لأجل وضع يده فإن كان على ظاهره فهى اختصاصية.

(وريحا كأنما أخرجها) أى اليد لأنها مؤنثة سماعية. **(من جونة عطار)** الجونة بضم الجيم

وسكون الهمزة، ويقال: بواو ساكنة يليها نون وهاء تأنيث، وهى شبه صندوق صغير مغشى بأدم وزند مستديرة يضع فيها العطار عطره، واختلفوا هل الواو أصلية تبدل همزة لضم ما قبلها كما قالوا فى موسى مؤسى تنزيلاً لضم ما قبله منزلة ضمه، أو الهمزة أصل أبدلت واوًا على القياس كما قرئ يؤمنون ويومنون وكأن أداة تشبيه وما كافة،وهل هى مركبة أو بسيطة خلاف مشهور؟ أى كان ريحها ريح ما أخرج من جونة العطار مضمخا بالعطر، والجملة صفة ريح أو مستأنفة، وعطار للنسبة كجمال لا للمبالغة وهو بائع العطر وهو كل ما طابت رائحته.

وفى البخارى: عن أبى حنيفة رضى اللّه تعالى عنه «خرج رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بالهاجرة فى الأبطح فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة يمر المار من ورائها، وقام فجعل الناس يأخذون يده الشريفة فيمسحون بها وجوههم، فأخذت بيده الشريفة فوضعتها على وجهى، فإذا هى أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك» وهذا ظاهر فى أن البرد حقيقى وأن برده لمسه الماء إن كانت الواقعتين واحدة، أو هو مأول كما مر ووضع اليد المذكورة من حسن أخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم وتواضعه للصغير والكبير.

وورد فى حديث رواه ابن العماد عن أنس رضى اللّه تعالى عنه: أن ظهور نفحات الطيب منه صلى الله تعالى عليه وسلم ظهر بعد الإسراء وهو ظاهر، لأنه طيب العنصر لكنه لما اتصل بالملأ الأعلى والجنان وهبت عليه نفحات القدس ازداد طيبًا، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم طيب لا يشبه طيب الدنيا، فله طيب ذاتى وطيب مكتسب من العالم الأقدس لا يفارقه وهو أطيب الطيب، ولا ينافيه حديث: «حبب إلىَّ من دنياكم الطيب» كما مر ويأتى، لأن الطيبات للطيبين والزائد قابل للزيادة.

(وعن غيره) أى روى عن غير جابر بن سمرة، وفى نسخة وقال غيره، وفى بعضها قال بدون عاطف، وهذا الحديث رواه البيهقى وأبو نعيم بسند فيه ضعف، وفى لفظه اختلاف فلذا أبهمه.

(مسها بطيب أو لم يمسها) المس واللمس متقاربان إلا أن لمس يقال لما معه إدراك بحاسة السمع واللمس إدراك بظاهر البشرة ويتجوز به عن الطلب، ومنه التماس وضمير مسها للكف واليد، وفيه قلب إذ الظاهر مس بها طيبا أو لم يمس، وأول الحديث: «فكأن كفه كف عطار» ولما كان قوله: «كأنما أخرجها من جونة عطار» بمعناه اكتفى به عن سياق أول الحديث فلا خلاف فيه، وليس متعلقا بما بعده ولا اختصار فيه كما توهم، و إنما هو رواية بالمعنى وهذا إشارة إلى أن طيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ذاتى،

والقول بأن الكلام فى الخلقى فلا حاجة لهذا لغو من الكلام.

(يصافح) أو يمس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بصفحة يده **(المصافح)** مفعوله وهو بفتح الفاء اسم مفعول وهو من يريد مصافحته فإنها سنة عند الملاقاة، وفى رواية: «يصافحه المصافح» بكسر الفاء والرفع على أنه فاعل، والمصافحة مفاعلة بمعنى جعل كل من المتصافحين يده على يد الآخر، وفى النهاية أنها إلصاق صفح الكف بالكف عند الملاقاة، وفى معناه قول التلمسانى: وضع باطن الكف على باطن الكف مع ملازمة على قدر ما يقع منه من سلام أو كلام إن عرض.

واختطاف اليد وتقبيلها وضربها مكروه، وقد يشد كل واحد يد صاحبه، وقيل: لا ينبغى فعله وهى بعد الصلاة بدعة عندنا، والأصح أنها مباحة لما فيها من الإشارة إلى أنه كأنه قدم من غيبة؛ لأنه كان عند ربه يناجيه فافهم.

(فيظل يومه) يظل بفتح الظاء المشالة مضارع ظللت بكسرها وظللت بفتحها ويقال: ظلت بحذف إحدى اللامين، قال الراغب: يعبر به عما يفعل بالنهار ويجرى مجرى صرت، قال تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه:٩٧] فهو فعل ناقص لثبوت الخبر فى جميع النهار كما قاله الرضى، لأنه لوقت فيه ظل الشمس من الصباح للمساء أو من الطلوع للغروب، فإذا كانت بمعنى صار عمت النهار وغيره، وكذا إذا كانت تامة بمعنى الدوام. وقوله فى القاموس: يظل نهاره يفعل كذا وليله يسمع فى الشعر لا وجه له، ويومه منصوب على الظرفية ولا توكيد فيه ولا تجريد لاسيما مع دلالته على الاستغراق.

(يجد ريحها) أى يجد المصافح من طيب يده وإضافة ريحها للعهد، أى ريحها الطيبة طيبا خلقيا خصه اللّه به مكرمة ومعجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ويضع يده على رأس الصبى فيعرف) مبنى لما لم يسم فاعله **(من بين الصبيان بريحها)** هذا بعض من حديث طويل، رواه أبو نعيم والبيهقى مسندًا عن عائشة رضى اللّه عنها قالت: «كان رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم عبل الذراعين والعضدين، طويل الزندين، سبط العصب، شثن الكفين، رحب الراحة، سائل الأطراف، كأن أصابعه قضبان الفضة، وكانت كفه ألين من الحرير، وكأن كفه كف عطار مسها بطيب أو لم يمسها، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضعها على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح على رأسه»[١]. والمخرج رحمه اللّه تعالى ظن هذا حديثا مستقلا فبيض له، وليس المراد بالصبى معينا، والمراد بريحها رائحتها

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٣٠٥).

التى حصلت بمسه والباء للسببية، والمراد أنه يعرف بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مسه فيتميز من بينهم، وفى نسخة: «لريحها» باللام التعليلية والمعنى واحد، وفى رواية: «من ريحها» وذلك إما فى يومه كما مر فيؤكد أو أنه يستمر مدة طويلة، والمضارع فى موضع الماضى لنكتته المشهورة، ثم إنه ذكر بعضا من حديث رواه مسلم واقتصر منه على ما يناسب المقام اختصارًا فقال:

(**ونام رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى دار أنس**) بن مالك الصحابى رضى اللّه تعالى عنه السابق ذكره (**على نطع**) بسط له، وكان النطع لأمه رضى اللّه تعالى عنها، قيل: والإضافة لأدنى ملابسة؛ لأن الدار كانت لأمه كما فى صحيح مسلم ولا خلل فيه لأنه كان ساكنًا معها، ولأنه لو قال دار أم أنس احتمل أن يكون كنية لغيرها فلا تعلم الجائية بالقارورة، مع ما فى هذا من الدلالة على أن رواية أنس رضى اللّه تعالى عنه الحديث بغير واسطة.

(**فعرق صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءت أمه**) وهى أم سليم بضم السين المهملة والتصغير، واسمها سهلة أو غيرها، قال النووى رحمه اللّه تعالى: وهى أم أنس بلا خلاف، وقول الغزالى وغيره أنها جدته غلط بالاتفاق، توفيت فى خلافة عثمان رضى اللّه تعالى عنه، وهى أخت أم حرام بنت ملحان الصحابية المدفونة بجزيرة قبرص، سيدة الشهداء من النساء، وهى التى روت حديث غزاة البحر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مشهور، وهذا الحديث فى صحيح مسلم عن ثابت عن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال: «دخل علينا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عندنا فعرق، فجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق، فاستيقظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: ما هذا الذى تصنعين يا أم سليم؟ قالت: هذا عرقك نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب»[١]. وله روايات من وجوه أخر فيها أنه كان كثيرًا ما يقيل فى بيتها وينام على فراشها، وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم من وجهه الشريف ومن نطعها وتعصره فى قارورة لها.

وفى رواية: أنها قالت: «نرجو بركته لصبياننا وكانت تجعله فى سك لها»[٢] وهو بضم السين وتشديد الكاف طيب معروف مركب مع غيره، وكانت تبسط للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نطعا من آدم فيقيل عليه عندها وروى فى الوفاء «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل بيتها فينام على فراشها وليست فيه، فأتت فقيل لها هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣١/٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١/٨٤).

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نائم على فراشك، فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه قطعة آدم ففتحت عتيدتها وجعلت تنشف ذلك العرق وتعصره، وأخذت من عرقه وشعره فجمعته فى قارورة، فلما حضرت أنسًا رضى اللّه تعالى عنه الوفاة أوصى أن يجعل فى حنوطه من ذلك» وقد استشكل ذكر الشعر فيه، والواقع فى سائر الأحاديث العرق فقط، وأجيب بأنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما حلق رأسه بمنى أخذ أبو طلحة رضى اللّه تعالى عنه شعره وأتى به أم سليم، فجعلته فى سكها فالمعنى أنها كانت تضيف بعد ذلك ما أخذته من العرق للقارورة التى فيها الشعر، ثم إن نوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندها وعند أختها أم حرام استشكل بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن خلوة الرجل بغير ذى محرم وهو يقتدى بفعله، فلا يدفعه كونه معصوما، وأجاب ابن عبد البر وغيره بأنهما كانتا خالتاه من الرضاع فهما محرماه، فلذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم ينام عندهما ويخلو بهما ويفليان رأسه الشريف. وقيل: هذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لملكه إربه وليس هذا قبل نزول آية الحجاب كما توهم، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخل بهما لأن عنده خادمًا ونحوه غير مسلم.

(بقارورة تجمع فيها عرقه) صلى الله تعالى عليه وسلم، تقدم الحديث وأن أم سليم رضى اللّه تعالى عنهما لم تكن فى بيتها لما جاء صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يدل عليه قوله فجاءت ووقع فيه بدل القارورة ففتحت عتيدتها ولا منافاة بينهما، ولا حاجة للجمع بتعدد القصة؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعتاد القيلولة عندنا، لأن العتيدة الصندوق الذى فيه القارورة وهى إناء من زجاج يوضع فيه الطيب ونحوه، وقد يطلق على غير الزجاج، وجملة تجمع صفة قارورة أو مستأنفة لا حال لتكلفه، ومن فسر العتيدة بالحقة جنح لتعدد الواقعة ولا بعد فيه.

(فسألها رسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك) كما فى صحيح مسلم أنه قال لها: «ما هذا الذى تصنعين؟» وفى رواية: «ما هذا» وفى أخرى: «ما تصنعين؟» والسؤال ليعلم غرضها وقصدها بفعلها إما حقيقة أو ليظهره لغيرها. **(فقالت:)** هذا عرقك **(نجعله فى طيبنا)** وفى رواية «لطيبنا» أى نخلطه كما روى «أذوف» أى أخلط وتقدم رواية «نرجو بركته لصبياننا» والواقعة متعددة أجيب فى كل منها بجواب، فإن كانت واحدة فهو من تصرف الراوى وروايته بالمعنى والمآل واحد، وقد قال لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصبت.

(وهو) أى عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم **(من أطيب الطيب)** قيل: يحتمل أن يكون ذلك من مقولها، ويحتمل غير ذلك، والواقع الأول، ووقع فى مسلم: «أطيب» بدون من

وهى أولى، فإن كان الضمير للمخلوط من عرقه وغيره فظاهر، لأن خالص عرقه أطيب منه، ولا شك فى طيبه وأطيبيته كما مر «ما شممت عنبرًا ولا مسكًا أطيب» فليس خلطه بالطيب لتطييبه أو للتبرك فقط كما توهم.

فإن قلت: إذا كان أطيب الطيب فلم خلط بالطيب؟!.

قلت: لأن ما اجتمع من عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كثيرا يكفى لطيبهم فخلط بكثير منه ليكون كثيرًا.

(وذكر البخارى) رحمه اللّه تعالى إمام أهل السنة السابق ذكره **(فى تاريخه الكبير)** وهو تاريخ ذكر فيه رواة الحديث وأحوالهم وليس كغيره من التواريخ كما يتوهم، بل كتاب من كتب الحديث معنى، ورواه أيضا الدارمى والبيهقى بالمعنى. **(عن جابر)** بن عبد اللّه الصحابى رضى اللّه تعالى عنهما الجليل الأنصارى، شهد المشاهد إلا بدرًا واستغفر له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خمسًا وعشرين مرة لما قضى دين أبيه، وهو آخر صحابى مات بالمدينة سنة سبعين وشىء، وروى ألفًا وخمس مائة حديث.

(لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يمر فى طريق) فى رواية البزار وأبى يعلى بسند جيد عن أنس رضى اللّه تعالى عنه «كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا مر فى طريق من طرق المدينة وجد فيه رائحة المسك؛ فيقال: مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هذا الطريق»[1] **(فيتبعه)** بالرفع **(أحد)** أى يأتى بعد ذهابه منه لا يمشى تابعًا له، والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا للطريق، كما قيل: إن معناه يتبع الطريق ويدل عليه قوله: «إلا عرف أنه سلكه»، وذكر ضمير الطريق وهى مؤنثة لشرفها بمروره كما قيل:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا مضافا لأرباب الصدور تصدرا

والمراد: علوق تلك الرائحة بالمكان الذى يمر صلى الله تعالى عليه وسلم فيه وهو توهم لا يساعده اللفظ ولا المعنى. ويتبع كيعلم أو بالتشديد، وجوز فيه النصب، والمراد أنه يمشى بعده بزمان قليل فالفاء للتعقيب، والقول بأن الفاء لعدم المهلة عرفا وحكما بقرينة الحال لا وجه له، وقوله أحد فاعل يتبع على حال من الأحوال. **(إلا)** على حال أنه **(عرف أنه)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(سلكه)** أى دخله ومر فيه، والضمير للطريق فإنه يذكر ويؤنث فلا حاجة لتأويله كما توهم. **(من طيبه)** أى عرف من طيب الطريق مروره صلى الله تعالى عليه وسلم به، أو من أجل طيب الطريق برائحته الطيبة

---

(١) أخرجه أبو يعلى والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٨٢).

المخصوصة به الباقية فيه، وهذا لا يكون إلا منه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وذكر إسحاق بن راهويه) هو أبو يعقوب المروزى الإمام الزاهد الثقة المجتهد، أمير المؤمنين فى الحديث كما قاله ابن حنبل رحمه الله تعالى، وهو الذى أحيا السنة بالمشرق، ما سمع شيئًا إلا حفظه وما حفظ شيئًا فنسيه، قال: «كأنى أنظر إلى مائة ألف حديث فى كتبى وثلاثين ألف حديث أسردها» وراهويه لقب أبيه إبراهيم بن مخلد التميمى الحنظلى لقب به لأنه ولد بطريق مكة، وراه بالفارسية معناه الطريق، وهو بالهاء والواو المفتوحتين والمثناة التحتية الساكنة والهاء المكسورة فى المشهور، ويقال: بضم الهاء وسكون الواو وتحتانية مفتوحة كنفطويه، وهو أحب عند المحدثين آخره هاء والتاء خطأ، فما فى بعض النسخ من التاء المفتوحة على أنه ممنوع من الصرف خطأ **(أن تلك)** الرائحة التى كانت تشم منه وتبقى فى الطريق. **(كانت رائحته)** الذاتية المدركة منه صلى الله تعالى عليه وسلم **(بلا طيب)** يمسه ويتطيب منه من خارج **(صلى الله تعالى عليه وسلم)** وقد تقدم ما يدل عليه من الأحاديث، فما قيل إنه لم يظهر من رواه والظاهر ثبوته عندهم من قلة التتبع، ولا ينافيه كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستعمل الطيب ويحبه لأنه لتكثيره والمبالغة فيه كما مر.

(وروى المزنى) بالضم ثم فتح نسبة لمزينة قبيلة مشهورة، وهو أبو إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنى المصرى الزاهد كان مجاب الدعوة، وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه. وله تصانيف مشهورة، ولد سنة خمس وسبعين ومائة، وتوفى لست بقين من رمضان سنة أربع وستين ومائتين، ودفن بالقرافة بالقرب من قبر الشافعى.

(والحربى) هو فى بعض النسخ وهو إبراهيم بن إسحاق الحربى الحنبلى نسبة إلى الحربية محلة من بغداد، وهى تنسب لحرب بن عبد الله صاحب المنصور، مات سنة سبع ومائة **(عن جابر)** بن عبد الله السابق، فقد قيل: إنه المراد إذا أطلق وهذا مما وقع فى بعض النسخ وكأنه من إلحاقه بالأصل.

(قال: أردفنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) أى أركبنى **(خلفه)** أى وراء ظهره وهو راكب، يقال: أردفه وردفه ويقال: أردفه أعم، فعلى ذلك قوله خلفه لدفع توهم المعنى الأعم أو تأكيد، قال البرهان الحلبى: جمع الحفاظ أرداف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فبلغوا نيفًا وثلاثين ولم يذكر فيهم جابر. وقال الشمنى: جمع بعضهم من أردفه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على فرس أو غيره فبلغوا نيفًا وأربعين وما ذكره من التأليف لم نقف عليه، والذى عدوه ممن أردفه صلى الله تعالى عليه وسلم أسامة بن

زيد أردفه فى مرجعه من عرفة على إكاف، والصديق رضى اللّه تعالى عنه فى الهجرة، وعثمان رضى اللّه تعالى عنه فى قدومه من بدر، وعلىّ كرم اللّه وجهه فى حجة الوداع، وعبد اللّه بن جعفر، وقثم، وعبد اللّه بن عباس وأخواه عبيد اللّه والفضل فى نزوله من مزدلفة، والحسن والحسين رضى اللّه تعالى عنهما، ومعاوية، ومعاذ بن جبل على حماره عفير، وأبو ذر، وزيد بن حارثة، وثابت بن الضحاك، والشريد بن سويد، وسلمة بن الأكوع، وزيد بن سهل، وسهيل بن بيضاء، وعلى بن العاصى، وعبد اللّه بن الزبير، وغلام من بنى عبد المطلب، وأسامة بن عمر، وصفية بنت حيى، وأبو الدرداء، وأمية الغفارى، وأبو قاسم، وأبو هريرة، وقيس بن سعد، وخوات بن جبير، وجبريل عليه الصلاة والسلام على البراق فى الإسراء، والعباس، وصفية الجهنية، وعقبة بن عامر، وآخرون لعل النوبة تفضى لذكرهم على التفصيل.

(فالتقمت خاتم النبوة بفمى) الالتقام أخذ الشيء وجعله فى فيه سواء ابتلعه أم لا، والابتلاع والاستراط بمعنى، ولذا سمى الطريق سراطا ولقما كأنه يبتلع السابلة، وخاتم بفتح التاء وكسرها وسيأتى تفصيله، وقوله: «بفمى» تأكيد لدفع توهم المجاز؛ لأنه يقال: ألقم كفه ركبته، وفى العبارة ما يقتضى أن خاتم النبوة كان ذاتيا مرتفعا حتى تمكن من التقامه وهو بين كتفيه، وفيه روايات، فقيل: كان كأثر المحجم، وقيل: كبيضة الحمامة أو التفاحة، أو الجمع بضم الجيم وسكون الميم وهو ضم الأصابع للكف، يقال ضربه بجمع كفه، وقيل: كركبة العنز، وقيل: كزر الحجلة، وعلى هذه الروايات يمكن التقامه، وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه بضعة ناشرة هكذا ووضع سبابته على مفصل إبهامه أو دونه بقليل، وأما على رواية أنه شامة خضراء محتفرة فى اللحم إن صحت فالتقامه مجاز عن إخفائه بوضع فمه عليه، وزر الحجلة بيضة طائر معروف، وقيل: إن الحجلة حكمة السرير التى تسميها العامة الناموسية وزرها ما يدخل فى عروتها، وصححه فى الروض الأنف وقال: تفسير الترمذى له ببيضة الطائر وهم. وقال التجانى: إنما هو على هذا رز بتقديم المهملة على المعجمة ومعناه البيض، ومنه رز الجراد لبيضه، وكان الخطابى الذى فسره به وحده فى رواية، وتفسير الحجلة ببياض بين عينى الفرس لا وجه له، فإن كان مجازًا عن التحجيل فبعيد جدًا، قال: ووضع هذا الخاتم لهذا الفاتح الخاتم هل هو من ابتداء خلقه أو من بعد ما ولد أو بعد ما نبئ.

وروى ابن أبى الدنيا عن أبى ذر رضى اللّه تعالى عنه مرفوعا أنه قال: قلت: يا رسول اللّه كيف علمت أنك نبى واستيقنت؟ قال: «يا أبا ذر أتانى ملكان وأنا ببطحاء مكة فوقع أحدهما بالأرض والآخر بين السماء والأرض، فأخرج قلبى وأزال منه مغمز

الشيطان وعلق الدم فطرحهما وخاط بطنى، وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن ووليا عنى، فكأنى أعاين الأمر معاينة»[١] وفيه بيان لوقت الوضع وكيفيته إلا أنه قيل: إن قوله: «ببطحاء مكة» وهم من الراوى، لأن ذلك كان فى بنى سعد وهو مع حليمة كما سيأتى، وقول المصنف: إنه أثر الشق بين كتفين موافق لهذا الحديث سواء قرئ أثر بفتحتين أو بكسر فسكون، أما على الثانى فظاهر، وأما على الأول فلأنه لما وقع بعده وبسببه جعل أثرًا له، فقول النووى رحمه اللّه تعالى إنه باطل لأن الشق إنما كان فى صدره وبطنه، وكذا قال القرطبى، وأثره إنما كان خطًا واضحًا من صدره إلى مراق بطنه كما فى الصحيحين، ولم يثبت قط أنه بلغ بالشق حتى نفذ من وراء ظهره، ولو ثبت كان مستطيلا بين كتفيه فى محاذاة صدره، قال: فهذا غفلة منه. انتهى غير متجه.

وكذا قال ابن حجر فى شرح البخارى، وذكر أنه مروى من طرق أخر فالوهم إنما هو فى فهم كلامه، قال: وهذا أصح ما قيل أنه ولد به، وظاهر كلامهم أنه مختص به صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى كتاب «القيافة» أنه موجود فى كل نبى وأنه من علامات النبوة، وكان أهل الكتاب يعرفونه صلى الله تعالى عليه وسلم به. وقال البرهان الحلبى: لا أستحضر فيه شيئا، والذى يظهر أنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين، وما رواه ابن حبان من أنه كبيضة النعامة نسب فيه إلى الوهم، والصواب الحمامة، وقيل: إنه شامة سوداء أو خضراء مكتوب عليها محمد رسول اللّه، أو سر فأنت المنصور، أو اللّه وحده لا شريك له ونحوه. ولم يثبت فيه ما يعتد به، وفى رواية «كسلعة أو غدة أو بندقة عند غضروف كتفه اليسرى ورفع عند موته صلى الله تعالى عليه وسلم» وإنما وضع هناك لأن الشيطان إذا وسوس وضع خرطومه ثمة، وقد رآه بعضهم فى صورة ضفدع له خرطوم كخرطوم البعوضه أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه ووسوس له فإذا ذكر اللّه خنس.

وقوله: **(وكان ينم على مسكا)** اسم كان المستتر ضمير الخاتم ويتم من قولهم نمت الريح إذ جلبت الرائحة. قال البرهان رحمه اللّه تعالى: وهو مستعار من النميمة، ومنه سمى الريحان نماما لطيب رائحته وهى استعارة لطيفة شائعة، وقد استعير نمام للريحان ثم للعذار، كما قال بعض المولدين:

لافتضاحى فى عوارضه سبب والناس نيام
كيف يخفى ما أكابده والذى أهواه نمام

وينم روى بضم النون وكسرها، وعن المزى رحمه اللّه الكسر فى اللازم والضم فى

---

(١) أخرجه الدارمى (٩/١)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (٧١/١).

المتعدى. وفى القاموس: نم المسك سطع، والمتعدى بمعنى ينقل أو يحكى، واللازم بمعنى يظهر، ومسكا تمييز محول عن الفاعل، ومن قال محول عن المفعول فقد وهم، وروى يثج بضم المثلثة لا بالفتح كما قيل وتشديد الجيم، وهو متعدد ولازم والضمير فيه للخاتم أو للفم، أو تندفع رائحته مرة بعد مرة من ثج الماء، وهو خروجه متدفقا بسرعة. قال التجانى: وفى بعض النسخ بكسر المثلثة والجيم أى يسيل. والذى فى الصحاح أنه بالضم لا غير، فإنه متعد من الثج بمعنى التسييل أى كأنه يسيل منه المسك فمسكا منصوب تمييز أو مفعول به.

(**وقد حكى بعض المعتنين بأخباره**) أى المهتمين بنقل أخباره وأحواله صلى الله تعالى عليه وسلم. (**وشمائله**) أخلاقه وصفاته اعتناء تتبع وعلم وأعلام، وهو البيهقى عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها (**أنه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**كان إذا أراد أن يتغوط**) أى يأتى الغائط وهو المكان المنخفض من الأرض على عادتهم فى البراز لأنه أستر، قال اللّه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣] ثم كنى به عما يقع فيه، ومنه الغائط للبستان، ويقال: غيط للفرق بينه وبين غيره. (**انشقت الأرض فابتلعت غائطه وبوله وفاحت لذلك**) المذكور من البول والغائط (**رائحة طيبة**) وهذا الحديث رواه البيهقى عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها وقال: إنه موضوع وسنبينه لك.

(**وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدى**) الإمام الكبير الحافظ الثقة، وهو أبو عبد اللّه محمد مولى بنى هاشم صاحب «الطبقات» مات سنة ثلاث ومائتين، والواقدى هو محمد ابن عمر بن واقد قاضى العراق، مات فى ذى الحجة سنة إحدى عشرة ومائتين.

(**فى هذا**) أى فى أن الأرض تبتلع ما يخرج منه صلى الله تعالى عليه وسلم ويفوح له رائحة طيبة. (**خبرًا عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنها قالت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنك تأتى الخلاء**) بالمد أى المكان الخالى البعيد عن البيوت؛ لأنهم كانوا قبل وضع المراحيض فيها يأتونه لقضاء الحاجة، ثم عبر به بعد ذلك عن محل التغوط مطلقا، ثم صار عرفًا اسما للبناء المعد لذلك. (**فلا نرى منك شيئا من الأذى**) بالذال المعجمة والقصر أصله ما يضر، ثم أريد به هنا ما من شأنه أن يكره، فالمراد هنا الغائط.

(**فقال لها: يا عائشة أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يرى منه شىء**) تبتلع تفتعل من البلع إدخال الطعام والشراب فى الحنجرة والمرئ فاستعير لمطلق الإخفاء كما فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود:٤٤] وقوله: فلا يرى منه شىء تفسير للمراد من البلع وتأكيدًا وبيان لحكمته فليس بمستدرك كما توهم، وإخفاؤه مع طيبه وعدم استقذاره، قيل: لأنه لعدم الإنكار بمحله الخارج منه

أو لتبرك الأرض به. والظاهر أنه لأنه ينبغى ستره لأنه من المروة أو لأنه يخشى من أخذ الناس له.

(وهذا الحديث) وفى نسخة الخبر. **(وإن لم يكن مشهورًا)** قال ابن دحية :سنده ثابت وهو أقوى ما فى هذا الباب، فلذا نفى المصنف عنه الشهرة دون الصحة، فلا وجه للاعتراض عليه بأنه لا يلزم من نفى الشهرة نفى الصحة.

(فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحدثين منه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قول بعض أصحاب الشافعى) المراد بالحدثين الخارجين كناية للعذر من ذكر ما يستهجن، وظاهر أن القول بالطهارة مبنى على هذين الحديثين فكأنه من وصفهما بالطيب، وأما ابتلاع الأرض فلا يدل عليه بل على خلافه، وتحقيقه ما فى الخصائص للخيضرى وهو كتاب لم يصنف فى بابه مثله كما مر. قال الرافعى فى كتاب الطهارة لما تكلم على نجاسة الفضلات: وهل هى كذلك من رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وجهان؛ فقيل: لا لأن أبا طيبة الحجام شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم و لم ينكر عليه، وأم أيمن شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم و لم ينكر عليها. وقال: «إذن لا تلج النار بطنك» ويروى: «شرب علىّ كرم اللّه وجهه وابن الزبير رضى اللّه تعالى عنهما دمه» وقال معظم الأصحاب: حكمهما منه صلى الله تعالى عليه وسلم كحكم غيره وحمل الأخبار على التداوى، وروى أنه قال للحجام: «لا تعد فإن الدم كله حرام» أى على ما يأتى.

وقال النووى رحمه اللّه تعالى: حديث شرب البول صحيح حسن. وذلك كاف فى الاحتجاج إذ لم ينكر عليها ولا أمرها بغسل فمها ولا نهاها عن العود لمثله. وقال القاضى حسين: الأصح القول بطهارة الجميع، واختاره كثير من المتأخرين، وجواب التداوى يرده.

(لن يجعل اللّه تعالى شفاء أمتى فيما حرم عليها) والسر فيه غسل الملكين لجوفه وتطهيره ولا خلاف فى طهارة شعره، والأحاديث فى هذا الباب كشرب ابن الزبير دمه وشرب أم أيمن بوله الذى كان فى قدح يوضع تحت سريره ليبول فيه بالليل كثيرة.

فإن قلت: ما الحاجة لوضع هذا القدح والأرض تبتلعه فلا يرى له أثر؟. **قلت:** لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكره الخروج ليلا من بيته وبيته مصلى نافلته ومحل نزول الوحى والملائكة، فلا يليق أن يمس باطنه وظاهره شىء من الفضلات ولو كانت طاهرة تعظيما لعبادة ربه وتأدبا، ألا ترى إلى قول القائل:

من عظم الناس عظموه ... وفاز بالعز و الرياسة
ومزدريهم لو كان مسكا ... لقيل فى أصله نجاسة

وأما التداوى بالحرام كالخمر، فقيل: يجوز إذا أخبره ثقة بنفعه و لم يجد دواء غيره، وقيل: إنه لا يجوز لحديث: «لن يجعل اللّه شفاء أمتى فيما حرم عليها»[1] وقيل: إنه لا يأباه لأنه يكون حلالاً له غير محرم عليه. وقيل: إن اللّه تعالى إذا حرم شيئا أبطل نفعه، وكون علىّ كرم اللّه وجهه شرب دمه لم يثبت كما أشار إليه الدميرى فى منظومته فى الفقه بقوله:

غريبة فضلة سيد البشر ... طاهرة على خلاف انتشر
وابن الزبير بدم الهادى البشير ... نال الذى رام كما له أشير
وهو الذى خص بويل الناس ... وهم بويله من الإبلاس
فى مسند البزار ثم البيهقى ... والطبرانى رواه فثق
والدارقطنى وقول ابن الصلاح ... ليس له أصل يفى فى الاصطلاح
وأم أيمن استزادت شرفا ... إذ شربت بول النبى المصطفى
وسقيت إذ هاجرت للسنة ... ماء رويا من شراب الجنة
فبعده ما مس جوفها ظما ... و لم تذق إلى الممات الماء
صححه الحاكم والمروى فى ... شرب علىّ دمه لم يعرف
وابن الصلاح قال فى شرب أبى ... طيبة أنه ضعيف السبب
قال ابن سبع ويقينا كانت ... تبلعها الأرض ومنها ازدانت
ولم تبل من تحته بهيمة ... ولم تر الدهر به سقيمه

وهذه فائدة تفرد بها، وهى أن الدواب لم تبل وهو صلى الله تعالى عليه وسلم راكب عليها، و لم تسقم دابة ركبها فى حياته، ثم وقع فى فقه الشافعية أيضًا أن حكم جميع فضلات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذلك طاهرة لحديث عائشة رضى اللّه عنها بذلك، وفى بعض نسخ الشفاء هنا.

(حكاه الإمام أبو نصر الصباغ فى شامله) وهو الإمام البحر أبو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر الصباغ الذى انتهت إليه رياسة الشافعية فى عصره، وكان ورعا تقيا زاهدًا، وله كتاب الشامل فى الفقه لم يؤلف فيه مثله، وهو أول من درس بالمدرسة النظامية التى بناها نظام الملك للشيخ أبى إسحاق رحمه اللّه تعالى فامتنع وأبى أن يخرج من مسجده، فلما ألحوا عليه أذن لأبى نصر هذا فى التدريس بها،

---

(١) أخرجه أحمد فى الأشربة (٣٢)، والبيهقى (٥/١٠)، وانظر فتح البارى (١/٣٣٩، ١٣/٢٦١).

وتوفى أبو نصر رابع جمادى الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة بعد ما كف بصره.

(وقد حكى القولين عن العلماء فى ذلك) أى فى فضلات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحكمها فى الطهارة وضدها، وقيل: قوله العلماء شامل الحنفية وغيرهم.

(أبو بكر بن سابق المالكى) أى العالم المقلد لمذهب الإمام مالك، وسابق بباء موحدة وقاف. قال البرهان: وفى بعض النسخ مصححًا أبو بكر وهو أبو الحسن محمد بن سابق الصقلى المالكى لا النسب. **(فى كتابه البديع فى فروع المالكية وتخريج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية)** يعنى أنه ألف كتابه المسمى بالبديع فى فروع فقهية لم يذكرها علماء المالكية، فخرجها على حكم ما ذكره الشافعية فيها لتصريحهم بها، وليس هذا تقليدًا لهم وإنما هو نظر فى دليلهم وإثبات لذلك الحكم بالدليل، فهو اجتهاد مذهبى ويقع مثله لغيرهم من الفقهاء أيضًا، والتخريج فى اصطلاح الفقهاء أن ينص صاحب المذهب على حكمين مختلفين فى صورتين متشابهتين لم يظهر فارق بينهما، فينقلون نصه فى كل صورة إلى أخرى، كمسئلتى الاجتهاد فى الأوانى والقبلة إذ منع فى الأول العمل بتغيير الاجتهاد وجوز فى الثانية، فنقلوا منعه فى تلك لهذه وتجويزه فى هذه لتلك، فصار فى كل قولان منصوص ومخرج المنصوص فى كل هو المخرج فى الأخرى، والتخريج عند المحدثين أن يجد حديثًا فى كتاب فينقله مسندًا مبينا حاله فى الصحة وضدها أو غير مسند.

(وشاهد هذا) أى دليل القول بالطهارة **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن منه شىء يكره ولا غير طيب)** أى فإن النجاسة للاستقذار وكراهة التلوث، ولم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم شىء مكروه عند الطباع السليمة، وهذا دليل عقلى مؤيد لنظر أهل الشرع فلا يرد عليه أنه لا يدل على مدعاه، لأن من المستقذر ما هو غير نجس ومن النجس ما هو غير مستقذر.

(ومنه) أى من الشاهد على أنه لم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم شىء يكره ولا غير طيب **(حديث علىّ رضى اللّه تعالى عنه)** الذى رواه ابن ماجه وأبو داود فى مراسيله **(غسلت النبى ﷺ)** بتشديد السين؛ لأنه المستعمل فى الميت ويخفف فى غيره كالثياب.

(فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئا) ذهب هنا من أفعال المقاربة، أى جعلت أنظر ومثله كثير فى كلامهم، فالقول بأنه بمعنى أردت، استعير للذهاب بمعنى

المرور للإرادة بجامع التلازم بينهما تكلف مفسد للمعنى، لأن قوله: «فلم أجد» لا وجه لتفريعه ويكون تامة بمعنى يوجد، وما يوجد من الميت تغير رائحة وخروج فضلات، وهذا من أعلام النبوة وطهارة عنصر طينته، وقد مكث صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته يومين فلم يتغير منه شيء ما وهذا مما يستأنس به، لأن طيبه يدل على طيب ما يحصل منه، وكل إناء بالذى فيه يرشح. وليس برهانا عقليا كما يرشدك إليه تعبيره بالشاهد، فلا يرد عليه أن عدم وجوده كيف يدل على ما نحن فيه من طهارة الفضلات، ويأتى قريبا أن الذى غسَّل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علىّ والعباس وابنه أى الفضل يعينانه وقثم وأسامة وشقران يصبون الماء، وغسلوه وأعينهم معصوبة تأدبا، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه»[1] كما سيأتى. وروت عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنهم ترددوا فى تجريده للغسل، فسمعوا قائلا لم يروا شخصه يقول: لا تجردوا نبيكم من ثيابه فغسلوه وعليه قميصه بسبع قرب من بئر غرس ثلاث مرات، الأولى بماء قراح، والثانية بماء وسدر، والثالثة بماء وكافور، وإنما قال علىّ رضى اللّه عنه فذهبت أنظر بناء على العادة لتأخير دفنه؛ لأنه مات يوم الاثنين ودفن يوم الأربعاء لاشتغالهم بأمر الخلافة ولدفع وهم بعضهم أنه لم يمت.

(**فقلت: طبت**) بفتح تاء الخطاب (**حيا وميتا**) والمخاطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على عادتهم فى مخاطبة الأموات عند التوجع والثناء، كما ورد فى المراثى، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كغيره فيسمع كما يسمع فى قبره من يصلى عليه كما سيأتى.

(**قال: وسطعت منه ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط**) أى ظهرت وارتفعت، وأصل السطوع فى النور فاستعمل فى مطلق الظهور، وروى ابن بكير فى سيرته أن أم سلمة رضى اللّه تعالى عنها وضعت يدها على صدر رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فمكثت جمعا لا تأكل ولا تتوضأ إلا وجدت ريح المسك بين يديها.

(**ومثله**) أى مثل قول على رضى اللّه عنه هذا (**قال أبو بكر الصديق**) رضى اللّه تعالى عنه (**حين قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته**) إشارة إلى ما فى الصحيحين عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها: «أن أبا بكر رضى اللّه تعالى عنه لما نُعى له رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمسكنه بالسنح بضم السين المهملة وضم النون وقد تسكن ثم حاء مهملة، بعوالى المدينة على مقدار ميل من المسجد النبوى، جاء فدخل المسجد ولم يكلم أحد حتى دخل بيت عائشة رضى اللّه تعالى عنها والنبى صلى الله

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٢٦١).

تعالى عليه وسلم مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه الشريف وأكب عليه يقبله وهو يبكى ويقول: بأبى أنت وأمى يا نبى الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد ذقتها، فسل عمر رضى الله تعالى عنه سيفه وجعل يتوعد من يقول إنه صلى الله تعالى عليه وسلم مات، ويقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه الصلاة والسلام فلبث أربعين ليلة ثم رجع، وإنى والله لأرجو أن يرجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما رجع موسى ويقطع أيدى رجالا وأرجلهم». وفى رواية: «أن الصديق لما كشف عن وجهه بكى وقال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا» والصحابة منهم من خبل، ومنهم من أخرس، ومنهم من أقعد، فلما خرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه قال لعمر: أيها الحالف على رسلك، فجلس فصعد أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله سبحانه وتعالى حى لا يموت، وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤] الآية، فنشج الناس يبكون. وروى: «أنه لما قبل وجهه وقال طبت حيا وميتا، زاد: وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختيارًا لجدنا لموتك بالنفوس اذكرنا يا محمد عند ربك عز وجل ولنكن من بالك، وجعل يقول، وهو يبكى: واخليلاه واصفياه وانبياه» وتقدمت الإشارة لشىء من ذلك فى الفصل السابع.

(ومنه) أى من الشواهد على ما ذكر ما رواه البيهقى والطبرانى فى معجمه الأوسط عن أبى سعيد الخدرى، والأول دليل عقلى وهذا نقلى. **(شرب مالك بن سنان دمه يوم أحد ومصة إياه)** مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر بموحدة وجيم، وهو أبو أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنهما وقد تقدم الكلام على ترجمتهما ونسبهما، وهو من كبار الصحابة، قتل شهيدًا يوم أحد رضى الله تعالى عنه، وأحد بضمتين اسم جبل وقعت فيه الواقعة العظيمة بعد قدومه صلى الله تعالى عليه وسلم من نجران، وقد غزاه كفار قريش فى شوال سنة ثلاث وقدموا بنسائهم وحلفائهم، وقصدوا المدينة فنزلوا قرب أحد على شفير الوادى بقناة مقابل المدينة، فرآى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثلمة وأن بقرًا له تذبح، وأنه أدخل يده فى درع له حصينة، فتأولها بأن رجالا من أصحابه يقتلون، وأن رجلا من أهل بيته يصاب، وأن الدرع الحصينة هى المدينة، ورؤيا الأنبياء وحى، فأشار على أصحابه أن لا يخرجوا من المدينة ويتحصنوا بها، فإن قربوا منها قوتلوا، ووافقه على رأيه عبد الله بن أبى بن سلول وأبى

كثير من الأنصار إلا الخروج ليكرم اللّه من شاء بالشهادة، فلما رأى صلى الله تعالى عليه وسلم عزيمتهم، دخل بيته يوم الجمعة ولبس لامته وخرج، فقال قوم ممن ألح فى الخروج: إن شئت فارجع: فقال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل»(١) فخرج فى ألف من أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم رضى اللّه تعالى عنه على الصلاة بمن بقى بالمدينة، فلما سار صلى الله تعالى عليه وسلم إلى القوم انصرف عنه ابن أبى بثلث الناس مغاضبا لمخالفة رأيه، فنهض صلى الله تعالى عليه وسلم لما عزم عليه وذكر له قوم من الأنصار الاستعانة بحلفائهم من اليهود، فأبى وسلك على حرة بنى حارثة، وشق أموالهم حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى، وجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس أن يقاتلوا حتى يأمرهم، وسرحت قريش الظهر والكراع فى زروع المسلمين بقناة، وتعبى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم للقتال فى سبع مائة والمشركين ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس، وقيل: كان فى المسلمين خمسون فارسا ورماة المسلمين خمسين رجلا أمر عليهم عبد اللّه بن جبير رضى اللّه تعالى عنه وهو معلم بثياب بيض، فرتبهم رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم، وظاهر رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بين درعين، ودفع اللواء لمصعب بن عمير رضى اللّه تعالى عنه أخى بنى عبد الدار، وأجاز سمرة بن جندب والفزارى ورافع بن خديج بالخروج، وكان سن كل واحد منهما خمسة عشر سنة، وكان رافع راميا وجماعة ورد من لم يبلغ، وقيل: الإجازة استحقاق السهمين والرد عدم ذلك، وجعلت قريش على ميمنتهم فى الجبل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وأعطى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم سيفه إلى أبى دجانة وكان شجاعا يختال فى الحرب، وكان أبو عامر المعروف بالراهب وسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق سيدًا فى الأوس تنسك وترهب فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء ففر عن المدينة لبغضه لرسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج إلى مكة فى جماعة من الأوس، وشهد يوم أحد مع الكفار ووعدهم بانحراف قومه إليه، فكان أول من خرج فى عبدان أهل مكة والأحابيش، فلما نادى قومه وعرفهم بنفسه قالوا له: لا أنعم اللّه بك عينا يا فاسق، فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر، ثم قال: لما التقى الجمعان قاتل المسلمون قتالا شديدًا وأبلى يومئذ على وحمزة وأبو دجانة وأبو طلحة رضى اللّه تعالى عنهم بلاء حسنا وكذا جماعة، وأصيب

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/١٢٩)، والبيهقى فى الكبرى (٧/٤١)، وفى دلائل النبوة (٣/٢٠٥)، وانظر فتح البارى (١٣/٣٤١).

منهم مقبلين غير مدبرين، وقاتلوا قتالا شديدا ببصائر ثابتة، فانهزمت قريش واستمرت الهزيمة عليهم، فلما رآى ذلك الرماة قالوا: قد هزم اللّه تعالى أعداء اللّه فما لنا ههنا قاعدون، فذكرهم ابن جبير أميرهم رضى اللّه تعالى عنه أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لهم أن لا ينزلوا من مواضعهم فلم يلتفتوا لقوله، وقالوا: قد انهزموا وقاموا فتولى المسلمون وقد كر المشركون عليهم ففروا، وثبت من أكرمه اللّه بالشهادة، وإنما خالفوا لظنهم الأمر مقيدًا ببقاء العدو، فإذا انهزموا سقط الخطاب فغلطوا فى التأويل، فوصلوا إلى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم منهزمين وقاتل دونه مصعب بن عمير رضى اللّه تعالى عنه حتى قتل، وجرح رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وهشمت البيضة برأسه، وكان الذى يتولى ذلك عمرو بن قميئة الليثى وعتبة بن أبى وقاص، وقد قيل: إن عبد اللّه بن شهاب هو الذى شجه، وأكب الحجارة على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم حين سقط فى حفرة كان أبو عامر الراهب حفرها مكيدة فى المسلمين فخر عليه السلام على جنبه، فأخذ علىّ كرم اللّه وجهه بيده واحتضنه طلحة حتى قام، ومص مالك بن سنان من جرح رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم علاجًا ومداواة له حتى لا يختم الجرح قبل التصفية من الدم، ولذا لم يقل له صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال لابن الزبير حين شرب دمه كما يأتى، وتشبثت حلقتان من درع المغفر فى وجهه الشريف، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح رضى اللّه تعالى عنه وعض عليهما بثنيتيه فسقطتا وكان اهتم يزينه هتمه.

وقد اختلف فى هذا هل كان قبل الوعد من العصمة أو بعدها، والعصمة إنما هى عصمة النفس من القتل لا الجرح ونحوه، وبقى له ثوابها والتأسى به فيها، وقد تقدم ما فى ذلك، وأعطى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم الراية حين قتل مصعب بن عمير رضى اللّه تعالى عنه عليا كرم اللّه وجهه، فأخذها علىّ كرم اللّه تعالى وجهه وصار رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم تحت راية الأنصار، وقتل صاحب لواء المشركين فسقط لواؤهم فرفعته عمرة بنت علقمة الحارثية، فاجتمعوا إليه وحملوا على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، فكر دونه نفر من الأنصار سبعة أو عشرة فقتلوا كلهم، وأصيبت عين قتادة رضى اللّه تعالى عنه فسالت على وجنته، فردها رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى محلها فكانت أجمل عينيه وأصحهما، ولذا قال بعض ولده لعمر بن عبد العزيز لما قدم عليه وقال له: من أنت؟ فقال:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر:

تلك المكارم لا قيعـــان مـن لـبـن

وأحسن جائزته، وانتهى أنس بن النضر إلى جماعة من الصحابة وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم. قال: فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه، وأول من ميز رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الجرح له كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: معشر المسلمين، هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأشار إليه رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم أن انصت الناس، فلما عرفوه صلى الله تعالى عليه وسلم مالوا إليه ونهضوا معه نحو الشعب فيهم أبو بكر، وعمر، وعلىّ، وطلحة، والزبير وغيرهم رضى اللّه عنهم، فلما أسند فى الشعب أدركه أبى بن خلف فتناول صلى الله تعالى عليه وسلم حربة الحارث بن الصمة وطعنه بها فى عنقه فمات عدو اللّه مرجعه بسرف. وقصة أحد مفصلة فى السير بأبسط من هذا، وما يتعلق بأبى بن خلف سيأتى الكلام عليه مطولا فى كلام المصنف رحمه اللّه تعالى فى قوله: فصل وأما الشجاعة إلى آخره.

وأشار بقوله: شربه ومصه إلى أنه كان يفيض أولا، فلذا جعل أخذه بفيه وابتلاعه إياه شربًا، ثم لما قل وجعل يجذب ما قل منه بالمشقة لما فيه جعله مصًا، فإن المص بالميم والصاد المهملة أخذ المائع القليل بجذب النفس، فقال رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم: «من مس دمه دمى لم يخالطه ذنب»[1] وهكذا من مازج بدنه شيئا منه، وكان فيه إشارة إلى أنه يستشهد وقد كان كذلك، وقد علمت أن هذا رواه البيهقى والطبرانى فى الأوسط وكذا أصحاب السير، وضمير إياه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ووجه دلالته على ما قاله المصنف، أن الدم غير طاهر من غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، فلو كان دمه الشريف طاهرًا لنهاه عن ازدراده، إلا أنه لا يدل على طهارة بقية الفضلات منه قياسا لفرق الماوردى رحمه اللّه تعالى بين الدم والشعر وغيرهما بأنهما من أجزاء بدنه بخلافها.

وقوله: (**وتسويغه صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك**) أى شرب دمه ومصة (**له**) أى لمالك بن سنان رضى اللّه عنه، وتسويغه بالسين المهملة والغين المعجمة بمعنى تجويزه له من غير إنكار ومدحه له، وهو مستعار من ساغ الشراب فى الحلق إذا سهل انحداره فيه.

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٧٠)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦/١١٢).

ومنه: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] والتعبير بـه هنـا فـى غايـة الحسـن والتورية لما فيه الشرب (**وقوله**) أى النبى صلى الله تعالى عليـه وسـلم لمـالك (**لـن تصيبه النار**) كناية عن فوزه بنعيم الجنان، وفى رواية: «من سـره أن ينظـر إلى مـن خـالط دمـه دمى فلينظر إلى مالك بن سنان»

(**ومنه شرب عبد الله بن الزبير**) بضم الزاى والتصغير (**رضى الله عنهما دم حجامتـه**) قال البرهان الحلبـى: هـذا الحديـث رواه الـبزار والحـاكم والبيـهقى والبغـوى والطـبرانى والدارقطنى من طرق يقوى بعضها بعضًا والعجب من قول ابن الصلاح أن هذا الحديث لم أجد له أصلاً، وهو مذكور فى هذه الأصول، وقد كان عليه الصلاة والسلام قال لما ولدته أمه ونظر إليه هو هو فكفت أمه عن إرضاعــه فقـال: «أرضعيـه ولـو بمـاء عينيـك كبش كبش بين ذئاب عليها ثياب ليمنعن البيـت أو ليقتلـن دونـه» وهـذا مـن معجزاتـه صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالمغيبات فإنه بيان لقصته مع الحجاج، فإن ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما استخلف سنة أربع أو خمس وستين بعد وفاة معاويـة رضـى اللـه تعالى عنه، فحاصره بعد ذلك الحجاج عند البيت العتيق سنة ثـلاث وسـبعين حتـى قتـل شهيدًا وقصته مشهورة، وهو أحد العبادلة، الإمام الزاهد العابد الشجاع ابـن الشـجاع، وهو أول مولود ولد للمهاجرين، وحنكه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بتمـرة لاكـها بفمه فخالط ريقه ريقه، وله رضى الله تعالى عنه من شرف النسب مالا يوصل إليه؛ لأن أمه أسماء رضى الله تعالى عنها ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق، وأبوه الزبـير رضـى الله عنهما أحد العشرة سيف الله، وجدته صفيـة رضـى اللـه عنـها بنـت عبـد المطلـب، وعمته خديجة أم المؤمنين، وخالته عائشة رضى الله عنها، وجده لأمه أبو بكر رضى الله تعالى عنه، وكان صوامًا قوامًا لا ينام ليله، وكان أطلس لا لحية له.

وقوله: (**فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم «ويل لك من الناس، وويل للنـاس منـك»**) بيان لما تسبب عن شرب ذلك الدم وويل للتحسر والتـألم مـن الأمـر، قـال اللـه تعـالى: ﴿فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وهو إشارة إلى قتله وتعذيبه وتحقيره لقتل الحجاج له ومن عاونه ظلما له، وويل للنـاس منـه لمـا أصـاب الناس من خروجه لطلب الخلافة لا من المدينة لمكة، ومحاصرة مكة بسببه وقتل مـن قتـل ثمة، وما أصاب أمه وأهله من المصائب، وما لحق قاتليه من الإثم العظيم، وتخريب البيـت وهدمه بسببه، وإنما جعله ناشئا عن شرب دمه فإنه بضعة من النبوية نورانية بما قوت قلبه حتى زادت شجاعته وعلت همته، عن أن ينقاد لغيره ممن لا يستحق الإمارة فضـلاً عـن الخلافة، وما قيل: إنه إشارة إلى ما يلحقه من قدح الجهلة فيه بواسطة شـربه الـدم، ومـا

يلحقهم من الإثم بذلك القدح ما لا ينبغى ذكره وسقوطه مغن عن رده وسيأتى تحقيقه، ودمه صلى الله تعالى عليه وسلم مما تغذى قطراته بالأرواح، ولله در القائل:

يجرى العلا فى عرقه جرى الندا ... فى عوده فهو اللباب صفاء
لو يقد الأحرار حين أرقته ... جعلوا له حب القلوب وعاء
أو بويعوا قطراته معدودة ... أعطوا به مهج النفوس شراء
واسترخصوا فى سعرها أن يبذلوا ... عن كل واحدة جرت حوباء

وقد شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا أربعة رجال؛ أبو طيبة واسمه دينار أو نافع، وسالم بن أبى الحجام وهو الذى قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تعد فإن الدم كله حرام على ما فيه»[1]. وسفنة كما رواه البيهقى، وعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ذكره الرافعى فى الشرح الكبير. وقال ابن الملقن: إنه غريب لم نجده لغيره وقد مر ذلك.

(**ولم ينكر عليه**) هذا هو محط الدليل، فإن عدم إنكاره صلى الله تعالى عليه وسلم عليه دليل على جوازه وطهارته، قال السخاوى: سئل شيخنا العلامة ابن حجر عن حديث ابن الزبير ومالك بن سنان، وقوله للأول: «ويل لك» إلخ، وقوله لمالك: «لا تمسك النار» ما الحكمة فى تنوع القول مع اتحاد السبب؟ فأجاب بأن ابن الزبير رضى الله عنهما شرب دم الحجامة و هو قدر كثير يحصل به الاغتذاء، وقوة جذب المحجمة تجلبه من سائر العروق أو كثير منها، فعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يسرى فى جميع جسده فتكتسب جميع أعضائه منه قوى من قوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فتورد به غاية قوة للبدن والقلب، وتكسبه نهاية الشهامة والشجاعة، فلا ينقاد لمن هو دونه بعد ضعف العدل وقلة ناظره وتمكن الظلمة وكثرة أعوانهم، فيحصل له ما أشار إليه صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الحروب الهائلة التى تنتهك بها حرمته، أى الناشئة من حرمته صلى الله تعالى عليه وسلم وحرمة البيت العتيق، فقيل: ويل له لقتله وانتهاك حرمته، وويل لهم لظلمهم وتعديهم عليه وتسفيههم.

وأما مالك رضى الله تعالى عنه فازدرد ما مصه من الجرح الذى فى وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أقل من دم الحجامة، وكأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم أنه يستشهد فى ذلك اليوم فلم يبق له من أحوال الدنيا ما يخبر به، فأعلمه بالأهم له بما يتلقاه من أنواع مسرات الجنان. انتهى. ولا عطر بعد عروس.

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٠).

(وقد روى نحو من هذا) المذكور فى شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم **(عنه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى امرأة شربت بوله)** سيأتى بيان هذه المرأة **(فقال لها: «لن تشتكى وجع بطنك»)** أى لا يصيب بطنك وجع منذ اليوم لبركة ما دخل فى جوفها، فعبر بنفى الشكاية عن نفى لازمه وهو الوجع بطريق الكتابة التى هى أبلغ من التصريح. **(أبدًا)** وفى رواية بعدها **(ولم يأمر واحد منهم)** أى ممن شرب دمه ومن مصه ومن شرب بوله. **(بغسل فم)** ولو كان نجسًا لأمر به، ونهاه عن عوده لمثله؛ لأن تناوله لم يكن بإذنه فلذا قال: **(ولا نهاه عن عوده)** ضمير نهاه وكذا ضمير عوده المضاف إليه إن كان بالضمير لواحد وليس الضمير لواحد للشرب كما توهم، وقال البرهان: إنه لعودة بتاء التأنيث كدولة فكأنه رواية، ولو كان نجسًا حرم تناوله ووجب تطهير محله ولم يقر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على مثله، وكونه للتداوى والعلاج خلاف الظاهر على ما فيه.

(وحديث هذه المرأة التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح ألزم الدارقطنى مسلمًا والبخارى إخراجه فى الصحيح) يعنى أنه مستجمع لشرطهما فهو فى أعلى درجات الصحة، فكان ينبغى ذكره فليس الإلزام على ظاهره، والدارقطنى منسوب إلى دار القطن محلة ببغداد، وهو الإمام الحافظ الذى لم ير مثله فى عصره، وهو على بن عمر بن أحمد بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله أبو الحسن الذى انتهى إليه علم الأثر ومعرفة العلل، وأسماء الرجال وأحوالهم مع الصدق والعدالة والمعرفة بمذاهب الفقهاء، فلذا قيل: إنه أمير المؤمنين فى الحديث، ولد سنة ست وثلاثمائة وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وما ذكره المصنف من أن الدارقطنى قال: حديث المرأة التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح يخالفه أنه قال فى علله: إنه مضطرب، جاء عن أبى مالك النخعى وهو ضعيف وروى عنه الحاكم.

(واسم هذه المرأة بركة واختلف فى نسبها) قال البلقينى رحمه الله تعالى فى الخصائص: إن أم أيمن وأم يوسف شربتا بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينكره عليهما. وفى تجريد الذهبى: إن بركة الحبشية قدمت مع أم حبيبة وهى التى شربت بوله، وهى غير بركة بنت يسار المهاجرة إلى الحبشة مع زوجها قيس بن عبد الله الأسدى، وغير بركة أم أيمن، وهى بركة بنت ثعلبة بن عمرو والدة أيمن بن عبيد، وأم أسامة بن زيد، فاسم هذه المرأة بركة ولكن فى الصحابيات من اسمها بركة عدة نساء، فاختلف فى التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم أيتهن هى، وإلى ذلك أشار المصنف رحمه الله تعالى بقوله: اختلف فى نسبها، فقيل: هى أم أيمن بركة بنت محصن

ابن ثعلبة بن عمرو بن حفص بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان مولاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحاضنته الحبشية معتقة أبيه، أسلمت هى وابنها أيمن بن عبيد الحبشى، ثم تزوجها زيد بن حارثة، وأخرج لها أحاديث فى كتب السنة، وأدركت خلافة عثمان كما فى التهذيب وذكره الواقدى، ورد بما فى مسلم من أنها توفيت بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخمسة أو ستة أشهر، ولم يكن بأم أيمن غيرها، وقيل: إن التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان بن حرب المهاجرة السابقة، وكانت ظئرًا لأم حبيبة رضى الله عنهما، فلما تنصر عبد الله بن جحش ثبتت أم حبيبة على الإسلام، وخلف عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتزويج النجاشى إياه صلى الله تعالى عليه وسلم لها وإصداقه إياها أربع مائة دينار، وبعثها له صلى الله تعالى عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة فقدمت ومعها بركة تخدمها، وهى القائلة: إنه كان له صلى الله تعالى عليه وسلم قدح تحت سريره يبول فيه فشربته ليلا، وهذا مخالف لما قاله البرهان الحلبى من أن القادمة معها غير بركة بنت يسار، ولما قاله الذهبى من أنها بركة الحبشية إلا أن يريد بالحبشية المهاجرة للحبشة وهو خلاف الظاهر، وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها: «لا ييجع بطنك أبدًا»[١] بفتح الياء الأولى وكسرها وهما لغتان فى يوجع سوى ياجع وعلى الكسر روى قوله:

ولا تنكئى قرح الفؤاد فييجعا

وروى كما مر: «إذن لا تلج النار بطنك».

(وقيل هى) أى بركة المذكورة **(أم أيمن وكانت تخدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** تأييد لكونها التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلا، لأنها إذا كانت خادمة له صلى الله تعالى عليه وسلم تمكنت من الوصول لذلك فى مثل ذلك الوقت، وتمكنت من الوقوف على حاله، فلذلك **(قالت: كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدح من عيدان)** والقدح ليس المراد به ما يشرب به الشراب كما هو عند العامة، بل هو الإناء الذى يشرب منه، وأصغره الغمر بضم الغين المعجمة وهو الذى لا يروى، ثم القعب وهو ما يروى، ثم القدح وهو ما يروى الاثنين والثلاثة، ثم العس وهو ما يشرب منه الجماعة، ثم الرقد، ثم التبن، ثم الجفنة، وعيدان جوز فيه التلمسانى كسر العين على أنه جمع عود، والذى عليه الشراح أنه بفتح العين المهملة تليها ياء مثناة تحتية ثم دال مهملة

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٧١)، وقال الهيثمى: «وفيه أبو مالك النخعى، وهو ضعيف».

وألف ونون، ووزنه فيعال أو فعلان، والعيدان والعيدانة النخلة الطويلة، قال الشاعر:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت   عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

ويقال للنخل إذا طال وتناولته اليد: عضيد، فإذا فات اليد فهى الجبارة، فإذا ارتفعت فهى الرقلة والعيدانة، وكان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أقداح، قدح يسمى الريان، آخر يسمى المغيث، وآخر مضبب بسلسلة من فضة، وقدح من زجاج، وهذا القدح كان (**يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل**) والسرير معروف ومن ظرفية بمعنى فى لا زائدة، وقد عده من معانيها الكوفيون وابن مالك، وأنشدوا:

عسى سائل ذو حاجة إن منعته   من اليوم سؤلا ناله بعد فى غد

وقال الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩] أى فيه (**فبال فيه ليلة ثم افتقده**) الافتقاد افتعال من الفقد وهو العدم، وليس الافتقاد هنا بمعنى العدم وإن ورد بمعناه كما فى الصحاح، بل الطلب والتفتيش، يقال: تفقده وتعهده بمعنى، إلا أن الفرق بينهما كما قال الراغب: إن التفقد حقيقته تعرف فقدان الشىء والتعهد تعرف العهد المتقدم (**فلم يجد فيه شيئا**) من بوله.

(**وسأل**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**عن بركة فقالت: قمت وأنا عطشانة**) المذكور فى كتب اللغة أن يقال عطشان وعطشى وجماعة عطاش إلا فى ألفاظ قليلة جاءت على فعلان فعلانة، ولغة بنى أسد فى كل فعلان فعلانة فيصرفون فعلان؛ لأن شرط منع صرفه وجود فعلى، أو فقد فعلانة فما ورد فى هذا الحديث إما سماعى على خلاف القياس، أو هو على لغة بنى أسد فتوقف البرهان فيه لا وجه له، وقد كانت قريش تتكلم بغير لغتها لكثرة وفود القبائل عليهم، وحكى صاحب «القاموس» امرأة عطشانة من غير تقييد بلغة، وقيل: الظاهر أن من قال عطشى لا يقول عطشانة وفيه نظر، وقد علم أن هذا يدل على طهارة بوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ لم ينهها عنه، ولم يأمرها بغسل فمها، ولا بإعادة الصلاة وإن كانت صلت، ولا ينافيه قولها: (**فشربته وأنا لا أعلم**) لأنه لبيان طيبه وأنها لم تجد له ريحًا وطعمًا كغيره، أى لا أعلم أنه بوله لما ذكر، فلا ينافى قولها: إنه كان له قدح يضعه تحت سريره إلى آخره فتأمل.

(**وروى حديثها**) أى بركة أم أيمن المذكورة (**ابن جريج وغيره**) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بجيمين أولاهما مضمومة، وهو إمام ثقة، ولد سنة ثمانين وتوفى سنة خمسين ومائة، ويكنى أبا الوليد وهو مولى لآل صفية بنت حيى، قيل: وهو أول من صنف فى الإسلام، وكان يقول: ما دون العلم أحد تدوينى. وقيل: أول من صنف سعد

ابن أبى عروبة. وقيل: الربيع بن فصيح، وقد اختلف فى فوله السابق امرأة شربت بوله، وقصة أم أيمن فى قدح العيدان هل هما قصتان أو قصة واحدة؟ فروى الحاكم والدارقطنى عن أم أيمن أنها قالت: قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الليل إلى فخارة من جانب البيت فبال فيها، فقمت وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح قال: «يا أم أيمن قومى فأهريقى ما فى تلك الفخارة» فقلت: شربت ما فيها. فضحك ثم قال: «والله لا ييجعن بطنك أبدًا»[١] ونحوه.

وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: أخبرت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يبول فى قدح من عيدان، ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شىء، فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة رضى الله تعالى عنها جاءت معها من الحبشة: «أين البول الذى كان فى القدح؟» فقالت: شربته، فقال لها: «صحة يا أم يوسف»[٢] وكانت تكنى أم يوسف، فما مر بها حدث غير مرض موتها.

وأخرج أبو داود وابن حبان عن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: «كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدح من عيدان»[٣] إلى آخره. قال ابن دحية رحمه الله تعالى: هما قصتان لامرأتين وبركة أم يوسف غير بركة أم أيمن.

أقول: وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «صحة» ما يدل على أن الدعاء به بعد الشرب سنة لا بدعة عامية، وحكمته أن الأكل والشرب يخشى منه السقم ونحوه فلذا دعى به كما قال:

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وفى بعض النسخ وهو ساقط من الأم وأكثرها (**وروى**) فى بعض الروايات (**عن أمه آمنة قالت: ولدته**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**نظيفًا ما به قذر**) أى شىء مما يكون على المولود، أى نقيا من الوسخ والدرن، وفى بعض النسخ تأخيره عن قوله: (**وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ولد مختونا مقطوع السرة**) وفى بعض الروايات: «ولد مختونا مسرورًا» وفيه تورية لأنه من السرور أو من قطع السرة، ومثلها فى الحسن أنه ولد معذورًا مسرورًا ومعنى معذورًا مختونا، يقال: عذرته وأعذرته إذا قطعت عذرته وهى القلفة، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مختونا مقطوع السرة ورد فى

(١) أخرجه الحاكم (٤/٦٣، ٦٤)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (١٥٩).
(٢) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٧/٦٧).
(٣) أخرجه أبو داود (٢٤)، والنسائى (٣٢).

حديث روى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وعلى هذا فهو تكريم له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يرى أحد عورته، وقد وقع هذا لكثير من الناس، والعرب تسميه ختان القمر، وأصله أن الطفل إذا ولد فى ليلة مقمرة واتصل بحشفته ضوء القمر وهى إذ ذاك لم تنضج جلدته أثر فيها حتى تقلصت وانمحقت، فإن القمر يؤثر ضوءه فى اللحم ويغيره، إلا أنه لا يكون قاطعًا لها بالكلية، ولذا لم يتمدحوا به، قال الشاعر:

إنى حلفت يمينا غير كاذبة لأنت أقلف إلا ماجنى القمر

وقيل: إنه يشير إلى أن النمو فى خلقة الإنسان يحصل فى زيادة القمر، ويحصل النقصان عند نقصانه كما فى الخز والحرير، فهذا النقصان منسوب لنقصان القمر، وقيل: إن عبد المطلب لما رآه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مختونًا قال: «ليكونن لابنى هذا شأن». ولا يخفى أن سند هذا الحديث ضعيف جدًا، والذى صححه المحدثون كما فى التمهيد لابن عبد البر أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه وجعل له مأدبة وسماه محمدًا، وكانت العرب تختن لأنه سنة توارثوها من إسماعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وليس ذلك لمجاورة اليهود، وقد ورد هذا فى قصة هرقل وواقعته التى قيل له فيها إن ملك الختان قد ظهر، وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ختن يوم شق قلبه الشريف وهو عند مرضعته حليمة، وقد ذكره ابن القيم فى كتابه «الهدى» وهو أرجح الأقوال، وطعن فى القول الأول من الأقوال الثلاثة، وقال: إنه روى فى حديث لم يصح. وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ومن الغريب قول الحاكم فى المستدرك: إن الأخبار تواترت بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مسرورًا مختونا، وتعقبه الذهبى وقال: لا نعلم صحة ما ذكره فكيف يكون متوترًا. والقول بأنه أراد بتواتره شهرته بين الناس لا ما اصطلح عليه المحدثون بعيد.

وقد وقع فى هذه المسئلة نزاع بين ابن طلحة والكمال ابن العديم، فألف ابن العديم فى تأييد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ختن بعد ولادته تأليفًا أوضح فيه الدلائل والنقول، إلا أنهم لم يرضوا قول ابن الجوزى إنه موضوع وردوه، ومع قوله أنه موضوع نقل عن كعب الأحبار أن ثلاثة عشر نبيا ولدوا مختونين، أى على صورتهم وهم آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وسام، ولوط، ويوسف، وموسى، وشعيب، وسليمان، ويحيى، وعيسى، ومحمد، وزيد عليهم حنظلة بن صفوان، قيل: ولا تعارض بين كلاميه ولا يخفى ما فيه، وزيد عليهم إلى سبعة عشر، وقد نظمهم بعضهم فى قوله:

وفى الرسل مختون لعمرك خلقة ثمان وتسع طيبون أكارم
وهم زكريا شيث إدريس يوسف وحنظلة عيسى وموسى وآدم
ونوح شعيب سام لوط وصالح سليمان يحيى هود ياسين خاتم

(تتمة) قد علم أن أمه صلى الله تعالى عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف زوجها عبد المطلب ابنه عبد الله فولدت له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى وقت وفاتها سبعة أقوال، فقيل: هو بعد ست سنين، أو سبع، أو ثمان، أو خمس، أو أربع، أو تسع، أو اثنى عشر وتسعة شهور من ولادته، أو غير ذلك وماتت بالأبواء راجعة من عند بنى النجار أخواله، وفى زيارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبرها وإحيائها له كلام سيأتى.

ثم إنه ورد فى الحديث أن رجلا سأله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حقيقة أمرك منذ نشأت؟ فقال: «أنا دعوة أبى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبشرى أخى عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنى كنت بكر أمى وأنها حملتنى كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكى لصواحبتها ثقل ما تجد»[1] الحديث، وهذا الحديث يعارضه ما رواه الواقدى أن أمه آمنة قالت لما حملت به: «ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلا كما تجد النساء وإنما أنكرت رفع حيضتى». وجمع بينهما الحافظ أبو نعيم بأن النقل كان فى ابتداء علوقها به، والخفة عند استمراره فيكون فى الحالين خارجا عن المعتاد المعروف، وهذا الجمع لا يتأتى مع قولها كما روى: «إنى لما أنكرت رفع حيضتى أتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها» فكونها أنبئت بالحمل يقتضى أن النقل لم يكن فى ابتدائه، والذى ينبغى فى التوفيق أن الثقل يكون معنويا وهو الوجع والألم الذى يحصل للحوامل وهو المنفى، وحسيا وهو رزانته وزيادة مقداره من غير ألم وتعب؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم وزن بجميع أمته فرجحهم، وهذا هو المثبت وبقية أحوال حمله ومولده مفصلة فى كتاب المولد لابن حجر وغيره.

(وعن عائشة رضى الله عنها) أنها قالت: **(ما رأيت فرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قط)** وروى أنها قالت: «ما رأيت منه ولا رآى منى» يعنى العورة، وحذف المفعول لاستهجان ذكره، وسيأتى الكلام على ذلك عند إعادة المصنف له فى الكلام على الحياء والإغضاء، وقد اختلف فى نظر أحد الزوجين عورة الآخر، فقيل: يكره وهو

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٦٩)، وابن سعد (١/١/٩٦)، والبغوى فى تفسيره (١/١١١)، وابن جرير فى تفسيره (١/٤٣٥).

الأصح، وقيل: يحرم لأنه يورث العمى، وورد تعليل النهى عنه بذلك. ونقل عن علماء الشافعية الاختلاف فى هذا العمى، فقيل: عمى الناظر، وقيل: عمى الولد، وقيل: عمى القلب.

(وعن على رضى الله تعالى عنه: أوصانى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يغسله غيرى فإنه لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه) قال المخرج: هذا الحديث رواه البزار والبيهقى، أى لا يمر يده على جسده للغسل غيره لأنه من أقربائه وأقدمهم صحبة. وأما قول الحافظ مغلطاى: إنه غسله صلى الله تعالى عليه وسلم على والعباس وابنه يعينانه، وقثم وأسامة وشقران يصبون الماء عليه وأعينهم معصوبة من وراء الستر، فلا ينافيه أنهما أعاناه بتقليب جثته الشريفة، والثلاثة أعانوه بصب الماء وهو يغسله بنفسه، وقوله: «من وراء الستر» يعنى قميصه من غير تجريد منه كسائر الموتى، لما روى عن عائشة رضى الله عنها: «أنهم اختلفوا هل يجردونه أم لا فسمعوا مناديا من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرونه يقول: غسلوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعليه ثيابه فلم يجردوه» وقوله: «وأعينهم معصوبة» أى مربوطة بعصابة حتى لا ينظرون جسده الشريف وهو يغسل، خيفة أن يبدو من بدنه الشريف ما لم يؤذن فى النظر إليه، وضمير أعينهم للعباس وابنه وقثم وأسامة وشقران لا للكل، فعلى رضى الله عنه لم يعصب عينه لأنه المباشر فهو مأذون له فى ذلك، وخص بالإذن لأنه كان أقدرهم على الغض، وغيره ربما حانت منه لفتة فيطمس عيناه، ولذا ورد أنه نودى وهو يغسله أن ارفع طرفك نحو السماء خوفا من أن يديم النظر إليه، وطمست بفتح الطاء والميم من الطمس وهو إزالة الأثر بالمحو، وطمس العين إزالة ضوئها وصورتها وهو لازم، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:٨٨] ويتعدى كقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء:٤٧]، وكفن صلى الله تعالى عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سحولية، والسحولية بضم السين وفتحها نوع من ثياب اليمن قطن وبيان النسبة مفصلة فى الفائق، وفى هذا دليل على أن الله تعالى صانه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يرى أحد محل العورة منه قبل النبوة وبعدها، فمن نظر إليها عن قصد عمى، ولم يرد ما ينافيه إذ لم ينقل أن أحدًا رآها فى صغره كأمه ومرضعته، وأما ما روى «من أن قريشا لما بنت الكعبة وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينقل الحجارة معهم فكان يضع إزاره على عاتقه ويضع الحجر عليه، فإذا دنا من الناس لبسه فلكمه لاكم لكمة شديدة، فاستغاث شاخصًا بصره للسماء، فقيل له: ما شأنك؟ فقال: نهيت أن أمشى عريانا وكان ذلك أول شىء رآه من أمر النبوة» فليس فيه أن أحدًا نظر لعورته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى حديث عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) عكرمة منقول من العكرمة بمعنى الحمامة، وهو عكرمة بن عبد الله البربرى مولى ابن عباس أحد فقهاء المدينة وتابعيها، ومن الأئمة المقتدى بهم فى التفسير والحديث، توفى سنة سبع ومائة، وقيل غير ذلك، وهذا رواه الشيخان وغيرهما وهو حديث صحيح.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام حتى سمع له غطيط) الغطيط: صوت النائم إذا ارتفع نفسه لانطباق مجراه وضيقه، ويقال: خطيط بالخاء المعجمة أيضًا وهى بدل من الغين، كما يقال: اغن واخن. قال التلمسانى: وثبتت به الرواية أيضًا.

(فقام فصلى ولم يتوضأ) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا ينتقض وضوءه بالنوم مضطجعا بخلاف غيره، وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم. وحكى الشافعية قولاً أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كغيره فى الانتقاض بذلك، والكلام على الانتقاض بالنوم فى المذاهب الأربعة مفصل فى كتب الفقه، وإنما كان ناقضًا لأنه مظنة خروج شىء من ريح ونحوه من النواقض، ومذهب الشيعة وبعض السلف أنه لا ينقض. وفى أحد قولى الشافعى أنه ينقض مطلقا، وليس هذا محل تفصيله، والأحاديث الدالة على أن نومه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينقض وأنه تنام عينه ولا ينام قلبه كثيرة صحيحة، منها: ما ذكره هنا وهذا مخصوص به بالنسبة للأمة لما صح من حديث: «إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»[1] قال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن رؤياهم وحى فيفارقون سائر البشر فى نوم القلب ويساوونهم فى نوم العين، فلو سلط النوم على قلوبهم لم يكن رؤياهم مفارقة لرؤيا غيرهم، وهذا فضل من الله خصهم به.

وأما ما روى من وضوئه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد نومه، فلم يقل إنه لحدث وإنما كان أحيانا تجديدًا للوضوء، فإنه كان يستحبه أو هو بالنسبة لأمته للتشريع لهم.

فإن قلت: يشكل على هذا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام فى الوادى حتى طلعت الشمس، ولو كان قلبه غير نائم ما أخرج الصلاة عن وقتها.

قلت: أجيب عن هذا بأجوبة:

أحدها: أنه لا مخالفة بينهما، فإن القلب يقظان فيحس بما يدركه القلب مما يتعلق بالبدن بخلاف ما يدرك بالعين كطلوع الشمس والفجر. **ثانيها:** أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له نومان؛ نوم مستغرق تنام فيه عينه وقلبه، ونوم غير مستغرق تنام فيه عينه فقط. قال النووى فى شرح مسلم: والمعتمد الأول فلعل قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد (٥/٢٠٨)، وفى الاستذكار (١/٩٩).

كان مستغرقا بالوحى والمشاهدة، فلا يلزم وصف قلبه بالنوم كما كان عند نزول الوحى عليه فى اليقظة فلاشتغال باطنه بالقدس تعطل عن حقوق الظواهر، كما قال الشاعر:

فو الله ما أدرى إذا ما ذكرتها اثنتين صليت العشا أم ثمانيا

وهذا هو الذى اختاره ابن عبد البر وابن المنير، لأن ظاهر الحديث عمومه لسائر أحواله، وما خالفه وجهه ما ذكر وحكمته التشريع، وهذا جواب ثالث. **ورابعها**: أنه يستغرق قلبه وينام ولكن لايبلغ مرتبة عدم الشعور بالحدث.

(تنبيه) على القول بأن المس ينقض الوضوء ذهب بعضهم إلى أنه لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم وأما هو فلا، ثم اعلم أنه إذا كان رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم وحيا، فهل أوحى إليه فى نومه بشىء من القرآن؟ قال الرافعى فى أماليه: وإنما نزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كله يقظة، وما ورد من قراءته سورة الكوثر فى النوم محمول على أنها خطرت على قلبه بعد نزولها يقظة.

وقوله: «يتوضأ» بسكون الهمزة لدخول الجازم عليه ويجوز إبدالها ألفًا لينة على القياس، وحينئذ فيجوز فيه جزمه بحذف الحركة المقدرة وإبقاء الألف المعارضة، ويجوز جزمه بحذف ألفه لمعاملته معاملة يخشى فلك أن تقول: لم يتوضا و لم يتوض كما ذكره النحاة.

(قال عكرمة): فى بيان وجه ما ذكر **(لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان محفوظا)** قيل: هذا جواب عن الإشكال السابق، حاصله أن النوم ليس ناقضًا بنفسه وإنما نقض لأنه مظنة الحدث، والله تعالى حفظه صلى الله تعالى عليه وسلم عن وقوع ذلك منه، ولو وقع نبهه عليه وهو مع ضعفه مخالف لظاهر الحديث، فالظاهر أن المراد أن الله حفظه عن أن ينام قلبه، وقد علمت مما مر أن هذه خاصة إضافية بالنسبة للأمة أو الأمم، لأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذلك، وقيل: إن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى كأنه لم يطلع على حديث: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا». أو لم يصح عنده، فحكم بأن الصلاة بعد النوم من غير وضوء من خواصه صلى الله تعالى عليه وسلم وتبعه مغلطاى، وإليه ذهب بعض الشافعية، ولذا قال ابن الوردى رحمه الله تعالى فى البهجة الوردية:

وبعض ما أكرمه الله به منامه بالعين دون قلبه

أقول: لا وجه لما قالوه، فإن الحكم بغفلة مثل سفيان، أو قوله فيما صح من

الأحاديث أنه غير صحيح مع أنه لم يصرح به، فالتقول عليه بمثله غير لائق، وحمل المؤمن وقوله على الصلاح أولى، فنقول: إنما أراد هؤلاء أنه لو سلم أن الأنبياء السالفة صح أنهم كانوا يتوضؤن لصلاتهم كوضوئنا، فلم يسمع من أحد أن وضوئهم ينتقض بنواقض شرعنا فتكون الصلاة بعد النوم من خواص نبينا على الإطلاق، وعدم نوم قلوبهم أمر آخر، وهذا أمر أوضح من الصبح. ومما قلته فيما نحن فيه:

وعينيك ما قلب النبى غفا ولا عيون له فى برودة الليل راقدة
ولكنما الأجفان منه تهجدت وباتت بمحراب الحواجب ساجدة

* * *

(فصل) فى قوة عقله ﷺ وشدة إدراك حواسه وذكائه

وفيه ما يدل على كمال قوة بنيته **(وأما وفور عقله)** الوفور: بضم الواو والفاء مصدر كالعقود بمعنى التمام لا الكثرة، وقيل: يحتمل أنه جمع وفر بمعنى كثير، والعقل قوة وغريزة أودعها الله فى الإنسان ليتميز عن الحيوان بإدراك الأمور النظرية، وقيل: إنه نور يقذف فى القلب يستعد به لإدراك العلوم والأمور العقلية، وفى حقيقته ومحله خلاف وكلام لا حاجة لتفصيله، واشتقاقه من العقل بمعنى المنع، ومنه العقال لمنعه الإنسان عما لا يليق، ولذا تظرف القائل:

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصبرنا والصبر مر المذاق

وهذه القوة تتفاوت بالشدة والضعف، وتزيد بأمور مكتسبة من التجربة ومخالطة العقلاء، فلذا قيل: العقل عقلان، عقل غريزى، وعقل مكتسب، وقد علمت أن المراد بوفور عقله صلى الله تعالى عليه وسلم تمامه وكماله لاكثرته، حتى يقال: إن المصنف رحمه الله وصف العقل بالكثرة باعتبار آثاره الصادرة عنه، قال فى الصحاح: الموفور الشىء التام، ووفرت الشىء وفرا ووفر الشىء بنفسه وفورا بمعنى أنه تام ولازم، والوفور لم يذكر أنه جمع.

(وذكاء لبه) الذكاء بفتح الذال المعجمة والموحدة الفؤاد بسرعة إدراكه وفطنته، لأنه فى الأصل الاشتعال والتوقد، ولذا يقال: الذكى متوقد الذهن، وقال الشاعر:

لو لم يحل ماء الندا فيه لأحرقه ذكاؤه

واللب: بضم اللام وتشديد الموحدة التحتية بمعنى العقل، ولب كل شىء قلبه وخالصه، فلو فسر اللب هنا بالقلب جاز أيضًا، يقال: لب يلب إذا صار لبيبا، وعلى الأول غاير بين اللب والعقل تفننا ولا تكرار فى كلامه كما توهم.

(وقوة حواسه) الخمس الظاهرة، وهى: اللمس، والذوق، والشم، والسمع، والبصر، وهذه مما لا كلام فى ثبوتها للإنسان وللحيوان، إلا أن الحصر فيها لأنا لم نعثر على غيرها لا فينا ولا فى غيرنا، وإن أمكن كما صرحوا به، وأما الحواس الباطنة كالحسن المشترك، والخيال، والقوة الفكرية، والوهم، والحافظة ومحالها من الدماغ فلم يثبتها أهل الشرع على أنهم فى إثباتها وتعيين محالها فى حيص بيص كما يعرفه من وقف على كلامهم. والحاسة بمعنى المدركة من حس بمعنى أحسن، والثانى هو الأعرف الأفصح، وبه جاء القرآن قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ [الأنبياء:١٢] ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وهو استعارة لجعله لشدة ظهوره كالمحسوس، وقوة الحواس مما يتمدح به.

(وفصاحة لسانه) هذا وما قبله مرفوع بالعطف على وفور وسيأتى الكلام على الفصاحة قريبًا.

(واعتدال حركاته) أى حركاته الظاهرة فى بدنه وأعضائه جارية على نهج الاستقامة والأدب، فإنها عنوان لما فى قلبه من الخشوع والخضوع ومراقبة ربه الذى هو دائما فى حضرته، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآى رجلا يعبث بلحيته فى صلاته: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه». **(وحسن شمائله)** جمع شمال بالكسر وهو الطبع والأخلاق والصفات المحمودة.

(فلا مرية) بكسر الميم وقد تضم وسكون الراء المهملة يليها مثناة تحتية أى لا شك ولا شبهة، أو لا جدال ولا محاجة. وقال الراغب: المرية التردد فى الأمر وهى أخص من الشك، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة:٢٣] والامتراء والمماراة المحاجة فيما فيه مرية، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ [الكهف: ٢٢] وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أعقل الناس وأذكاهم) أى أقواهم وأشدهم عقلا وأكثرهم فطنة وذكاء، ووضح ذلك وبينه بما هو معلوم لأهل العلم والبصيرة، فقال: **(ومن تأمل)** فى الصحاح تأملت نظرت فيه مستبينًا، فكأنه مأخوذ من الأمل وهو الرجاء، لأن من دقق النظر فى شىء أعمل الفكر فيه رجاء حصوله وانكشاف كنهه.

(تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم) أى الوقوف على ظواهر أحوالهم وخفياتها حتى يصلحها ويرشدهم للأحسن منها، وأصل معنى التدبير التفكير فى عواقب الأمور وإدبارها، وتدبير مفعول تأمل، وأمور مفعول تدبير؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم

بعث داعيًا إلى الله وهاديًا للعباد، وهذا إنما يكون بإصلاح باطنهم وظاهرهم وهو يتوقف على معرفة ذلك.

(وسياسة العامة والخاصة) منصوب معطوف على تدبيره، والسياسة مصدر ساس الناس يسوسهم إذا دبر أمورهم وتصرف فيها، قالت حرقة بنت النعمان:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وقول علامة الروم: إنه معرب سه يسق غلط لا أصل له، وقد أخذه من كلام من لا يعتد به، والعامة عوام الناس وجهلتهم من أرباب الصنائع والرعية، مأخوذ من العموم؛ لأن أكثر الناس كذلك والخاصة خلافهم، وللمسعودى والجاحظ كلام فى وصف العامة منه. أتباع لكل جاهل، لا يفرقون بين حق وباطل، فتراهم مهر عين لقائد دب، أو ضارب دف متشوقين إلى اللهو واللعب، مختلفين لمتعبد متخرق، واقفين عند قاص كذاب، مجتمعين حول مضروب، واقفين عند مصلوب، ينعق لهم فيتبعون ويصاح بهم فلا يرتدعون، إذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرقوا نغعوا، وسياسة الخاصة بالدلالة على الخير والنصيحة، وسياسة العامة بالزجر والقهر، والضرب والنهر.

وسئل العتبى عن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] أى مناسبة بين ذلك وبين الحديد وما هو إلا كالجمع بين الضب والنون، فأجاب بأن مالك الملك أرسل رسله لإجراء أوامره ونواهيه بين عباده وهما قسمان، عقلاء ذوو بصيرة وإرشادهم بالكتب الإلهية وما حوته من الأدلة القطعية، وجهلة عوامهم وتسخيرهم بالقهر والإرهاب بالسيف والسنان، فصار المعنى أرسلناهم بضابطى العامة والخاصة، وأى مناسبة أتم من هذه وإن ترائى عدم المناسبه بينهما بحسب النظرة الحمقاء.

(مع عجيب شمائله وبديع سيره) جمع سيرة مضاف للضمير، وقد تقدم أنها هيئة السير، ثم خصت بحاله فى غزواته ونحوها، والعجيب: الأمر الذى من شأنه أن يتعجب منه لكونه لا نظير له، وكذا البديع بمعنى المبدع، وغاير بينهما تفننا فى العبارة و لم يعطفهما، وأتى بمع للدلالة على أن انضمام هذا لما قبله سبب كونه عجيبا بديعا، كما تقول: فلان يجود مع فقره؛ لأن الجود فى هذه الحالة أغرب، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع سياسته العامة للخاصة والعامة مهذب الأخلاق موطئ الأكناف حسن السيرة، وقلما تتفق السياسة العظمى إلا مع التجبر والتعظيم والتحجب كما نراه من الملوك، **فهذا دليل قوة عقله وفطنته صلى الله تعالى عليه وسلم.**

ثم قال: **(فضلا عما أفاضه من العلم)** أى: وزاد على ما ذكر بكثرة العلم الذى علمه الناس وجعله شائعا بينهم من أفاض الحديث أذاعه، وقوله: من العلم: أى علوم الأولين والآخرين.

(وقرره من الشرع) أى ما قرره للناس من الأمور الشرعية، لمعرفته بشرائع من قبله وبيانه لأمور شريعته، والكلام على فضلا وتعديه بعن مفصل فى شروح المفتاح والكشاف، ويأتى بعض منه، والإفاضة أصلها من فيض الماء ثم شاعت فيما مر.

(دون تعلم سبق) متعلق بأفاض وما بعده، أى فعل ذلك من غير تعلم، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسكن غير بلده، ولم يقارن غير أهل جلدته، ولم يكن ثمة من يمكن تعلمه منه.

(ولا ممارسة تقدمت) منه والممارسة: معالجة ومزاولة بالاعتياد على فعله، أى لم يتعلم من غيره ولم يحاوله حتى يعلمه من نفسه باجتهاد فى استخراجه بعقله.

(ولا مطالعة الكتب منه) أى لم ينظر فى شىء من الكتب؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا بين قوم أميين، وهذا دليل على شدة ذكائه صلى الله تعالى عليه وسلم وفطنته واستقامة طبيعته وفطرته، فلذا قال: **(لم يمتر)** أى لم يشك ولم يرتب **(فى رجحان عقله)** أى فى زيادة عقله **(وثقوب فهمه)** أى نفوذه وظهوره، وهو بالمثلثة من تثقيب النار وهو تذكيتها، يقال: تثقبت النار ثقوبا إذا اتقدت. **(لأول بديهته)** أى لم يمتر ولم يشك فى أول نظرة نظرها.

فإن قلت: هو صلى الله تعالى عليه وسلم تعلم ما ذكر من الوحى المنزل عليه وهو سفير محض.

قلت: تلقى الوحى من الملك، وضبطه وفهمه وإجراؤه فى مجاريه من غير تكلف منه يدل على ما ذكر وكم من عالم قرأ ودرس العلوم إذا أراد تقرير ما علمه لم يجد له قدرة ولا رونقا، وبعض الفقهاء إذا ولى القضاء لا يحسن الحكم بين الناس، ولك أن تقول المراد بما ذكر أمر آخر غير ما قلته من الأمور العرفية التى أكثرها برأيه وحسن تدبيره، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان مأذونًا له فى الاجتهاد.

(وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره) وبيانه بما ذكرناه **(لتحققه)** بالمشاهدة فى عصره، والتواتر بعد ذلك بحيث لا يشك فيه مسلم وعاقل، وبما قررناه عرفت أن قول بعض الشراح هنا أن قوله: «ومن تأمل» إلى آخره غير واقع موقعه؛ لأن العلم بمثل هذا ملحق بالبديهيات، وقد استشعر ذلك فقال: «وثقوب فهمه لأول بديهة» فهذا تطويل غير

مفتقر إليه ممن عدم التدبر.

(**وقال وهب بن مُنَبه:**) بضم الميم وفتح النون وكسر الباء المشددة بزنة اسم الفاعل، وهو وهب بن منبه بن سيج بسين مهملة مفتوحة، وقيل مكسورة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم جيم الإنبارى اليمانى، أخو همام بن منبه، وكنية وهب أبو عبد الله، ويقال له: الذمارى نسبة إلى ذمار بكسر الذال المعجمة وهى قرية بقرب صنعاء، تابعى مشهور بالمعرفة بالكتب القديمة، سمع من جابر بن عبد الله رضى الله عنه، وقيل: إنه لم يلحقه. وروى عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة، والنعمان بن بشير وغيرهم رضى الله عنهم، واتفقوا على توثيقه وعبادته، وتوفى سنة أربع عشرة، وقيل: ست عشرة ومائة، وهو ابن ثمانين سنة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة طويلة فى الميزان.

(**قرأت فى أحد وسبعين كتابا**) من الكتب القديمة النازلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها. (**فوجدت فى جميعها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا**) يعنى أن عقله أزيد من عقول الناس، والمراد أشد من عقولهم جميعا وآرائهم، وقد تقدم أنه كان يعرف الكتب القديمة ويقرؤها. قال التجانى فى كتاب المعارف لابن قتيبة: عن وهب أنه قال: «قرأت من كتب الله سبحانه وتعالى اثنين وسبعين كتابا» فيمكن أن يكون وجد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا فى أحد وسبعين كتابا منها فقط، ولم يجد ذلك فى الكتاب الثانى والسبعين، ويمكن أن يكون الروايات عنه مختلفة بزيادة ونقص، والذى قاله وهب من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم منوه بذكره فى الكتب المتقدمة يعضد قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] (**وفى رواية أخرى**) عن وهب أيضًا (**فوجدت فى جميعها**) أى فى جميع الكتب التى قرأها (**أن الله تعالى لم يعط جميع الناس**) حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (**من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم**) أصل معنى الجنب الجارحة ثم استعير للناحية التى تليها كاستعارة سائر الجوارح لذلك كاليمين والشمال، وقوله: «فى جنب الله» أى فى أمره وحده الذى حده لنا كما قاله الإمام الراغب، فالمراد بقوله تعالى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] فى حده ومقداره الذى أعطاه الله تعالى له.

(**إلا كحبة رمل من رمال الدنيا**) يعنى أن عقله صلى الله تعالى عليه وسلم كجميع رمال الدنيا وعقل جميع الناس كحبة منها، وهذا على طريق التمثيل لأن عقولهم لا تقاس

بعقله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ضرب الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام مثلا بماء في منقار عصفور من ماء البحر بالنسبة لسائره، فشبه به علم الله تعالى وعلم ما عداه، وقد ورد على كونه أفضل الناس رأيا، أنه ورد ما يخالفه في كثير من الوقائع الثابتة في الحديث، ورجوعه عن رأيه إلى رأى غيره كما في قصة بدر، ورجوعه لرأى الحباب بن المنذر، حيث نزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأدنى ماء من مياه بدر، فقال له الحباب: أهذا منزل أنزلكه الله فلا نتقدم ولا نتأخر عنه أو هو رأى ومكيدة حرب؟ فقال: «بل هو الرأى والمكيدة» فقال: ليس هذا بمنزل، بل الرأى أن نسير حتى نأتي أدنى ماء من مياه بدر فننزله ثم نغور ما وراءه ونبني عليه حوضا ونملؤه ثم نقاتل ونشرب ولا يشربون، فقال: «أشرت بالرأى»[١] ورجع صلى الله تعالى عليه وسلم لما قاله.

وكذا في قصة أسارى بدر والفداء، وكذا في قصة تأبير النخل ونحوه مما سيأتي مما لا حاجة للتطويل بذكره هنا، وأجاب التجاني بأن رجحان رأيه على ما سواه مخصوص بما أمضاه من سنن الشرع واجتهاداته في أمور الدين، فلا ينافي رجوعه في آراء الدنيا لغيره كما صرح به في قصة التأبير إذ قال: «إنما أنا بشر مثلكم فإذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب»[٢] وهذا نص فيما ذكر، ورد بأن مختار أهل الأصول أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متعبدًا فيما لا وحي فيه بانتظار الوحي، ثم بالاجتهاد بعد وقت الانتظار، وقيل: له الاجتهاد مطلقا في الأمور الشرعية والدنيوية وهذا مذهب مالك، وأحمد، والشافعي، وهو المنقول عن أبي يوسف وغيره. واختلف في جواز خطابه في اجتهاده، فذهب الرازي وغيره إلى أنه لا يجوز، وفي التوضيح يجوز لكن لا يقرر عليه، وعدم الإقرار بالإجماع لوجوب اتباعه المقتضي لعصمته، وجواز الخطأ عقلا لا مانع منه بمقتضى البشرية، وقوة عقله صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال حدسه وسداد رأيه لا ينافيه لأنه من لوازم الطبيعة البشرية، وإذا جاز سهوه في صلاته ومناجاته ففي غيرها بالأولى، فقول التجاني أن جميع أموره الدينية صواب خلاف المختار عند علماء الأصول، وحينئذ فمعنى كونه أفضل الناس رأيا واجتهادًا مع جواز الخطأ أحيانا أن رأيه لو خلي ونفسه من غير معارض فيما تقتضيه الطباع البشرية، كان أفضل من رأى غيره واجتهاده إذا خلي ونفسه أيضًا، مع رجحان رأيه بعدم التقرير عليه إذا خالف الأولى، وآراؤه صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٣٧٥/٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٢/١٤٠)، والطبراني في الكبير (٣٣٤/٤).

كلها صواب بعد التقرير عليها وقبله، لا إلا على قول من يقول كل مجتهد مصيب، والحاصل أن كون رأيه أفضل الآراء لا ينافى رجوعه لغيره ومشاورته له، فإن العبرة بما وقع عليه القرار لا ببادئ الرأى فافهم.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالى: تقدم الكلام على ترجمته فيما رواه عن ابن المنذر والبيهقى مرسلا بلفظ: **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قام فى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه)** قال البرهان: فى الأصل الذى وقفت عليه من بفتح الميم موصولة وخلفه صلته منصوب على الظرفية وكذا من بين يديه، وفى غيره بمن الجارة فيهما، وهذا الحديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه لكن بلفظ: قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل ترون قبلتى ههنا؟ فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا خشوعكم وإنى لأراكم من وراء ظهرى»[1]. ورواه مالك وأحمد وغيرهما، وفى لفظه اختلاف كما يأتى، والمعنى متفق.

واختلفوا فى هذه الرؤية هل هى مختصة بحال الصلاة أم لا؟ وهل هى رؤية حقيقية أم علمية قلبية؟ فقال ابن الصباغ فى الشامل: إن المراد بها الحس والتحفظ. وقيل: المراد العلم بأن يوحى إليه صلى الله تعالى عليه وسلم كيفية فعلهم أو يلهم ذلك، وفيه نظر لأنه حينئذ لا معنى لتقييده بقوله: «من وراء ظهرى». وقيل: المراد من عن يمينه وشماله وهو تكلف، والصواب أنه محمول على ظاهره، وأن الإبصار حقيقى خاص به على طريق خرق العادة له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا أخرجه البخارى فى علامات النبوة، ثم إنه على ما ذكر يجوز أن يكون برؤية عينيه خرقًا للعادة، فكان يرى بها من خلفه كما يرى ما يقابله، فعلم لأنه لا يشترط فى الرؤية المقابلة ولا العضو المخصوص عند أهل السنة كما قرروه فى رؤية الله تعالى، وهذه أمور عادية تجوز الرؤية مع عدمها عقلا، وإذا قلنا الرؤية علمية فمعنى أرى من خلفى أراكم وأنتم من خلفى.

وقال الزاهدى الحنفى صاحب القنية فى رسالته الناصرية «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت له عينان بين كتفيه كسم الخياط يبصر بهما لا يحجبهما ثوب ولا غيره» والظاهر أن مثله لا يقال بالرأى، وقيل: كانت صورهم تنطبع فى حائط قبلته صلى الله تعالى عليه وسلم كما تنطبع فى المرآة فيشاهد أفعالهم، ولا ينافى هذا ما ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جعل شابًا حدثًا من وفد عبد القيس خلفه لئلا يراه، ولا قوله: «إنى لأعلم ما وراء جدارى هذا». إن صح ولا قوله فى الحديث الآخر: «أيكم الذى ركع

---

(١) أخرجه البخارى (١/١١٤)، ومسلم (١٠٩/٤٢٤)، وأحمد (٢/٣٠٣، ٣٦٥، ٣٧٥)، وأبو عوانة (٢/١٣٨).

دون الصف»(١) فقال أبو بكر رضى الله عنه: أنا يا رسول الله. فلو كان يرى كما ذكر ما احتاج للسؤال، لأن الأول تشريع، والثانى المراد به نفى علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بالمغيبات، مع أن عدم رؤية ما وراء الجدار لا ينافى الرؤية من غير حائل، وهذا إن لم نقل أنه مخصوص بالصلاة كما فى الامتناع.

وأجاب ابن عبد البر عن حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه بأن هذه القضية كانت قبل أن فضله الله تعالى بهذه الفضيلة، فإن شئونه صلى الله تعالى عليه وسلم تتزايد دائما، وقيل: معنى قوله: «إنى أراكم» إن قصدت ذلك و لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم قصد ذلك، كما أن الإنسان قد لا يستعمل نظره أحيانا، أو أنه رآه و لم يعلم عينه أو أراد تقريره ليذكر له ما ذكره وارتضاه بعضهم، وارتضى غيره أنه كان خلفه صفوف كثيرة فلا يرد عليه عدم رؤيته؛ لأنه لم يكن خلفه فى الصف الأول فلا حاجة لما تكلفوه من الأجوبة وهو كلام حسن.

(وبه فسر) بالبناء للفاعل، أى فسر العلماء أو بعض المفسرين: **(قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾** [الشعراء:٢١٩]) أى نرى تقلب بصرك فى المصلين خلفك لتراهم وتعلم ما يفعلون، وهو امتنان بهذه النعم، وهذا مؤنس لاختصاصه بالصلاة كما ورد التصريح به فى بعض الأحاديث.

(وفى الموطأ) بصيغة المفعول المشدد الطاء المهملة المهموز، سمى به لما فيه من أحاديث الأحكام الممهدة للشريعة، وسياق هذا الحديث للاستدلال به على قوة حواسه صلى الله تعالى عليه وسلم فيناسبه التفسير بأنه يراهم بعينيه حقيقة كما مر.

(عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنى لأراكم من وراء ظهرى» ونحوه عن أنس رضى الله تعالى عنه فى الصحيحين، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها مثله قالت:) ورؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ما أكرمه الله تعالى به دون غيره **(زيادة زاده الله تعالى إياها فى حجته)** وفى نسخة فى محجته والأولى أصح.

(وفى بعض الروايات) لعبد الرزاق والحاكم (**«إنى لأنظر من ورائى كما أنظر من بين يدى» وفى أخرى)** أى فى رواية أخرى لمسلم: **(إنى لأبصر من قفاى كما أبصر من بين يدى)** والمراد بحجته الدلائل الدالة على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه، وقيل: فى حجته على الكفار لأن هذه معجزة من معجزاته خارقة للعادة، وقوله زيادة بالرفع أى هذه زيادة ويجوز نصبه. وقول عائشة رضى الله تعالى عنها هذا لإثبات رؤيته من

(١) أخرجه الطحاوى فى شرح معانى الآثار (١/٣٩٥).

خلفه، وأكثر المفسرون في هذه الآية الأقوال، **فمنها**: ما ذكره المصنف رحمه الله عن عائشة رضي الله تعالى عنها هنا، **ومنها**: ما مر من أن المراد انتقالك من صلب نبي لنبي ولا يأتي تتمته، وقيل: ترددك في تصفح أحوال المتهجدين؛ لأنه لما نسخ فرض الليل دار صلى الله تعالى عليه وسلم على بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على طاعتهم، فوجدها كبيوت الزنابير من الذكر والتلاوة، وقيل: معناه نرى تقلبك في جماعة المصلين إذا أممتهم، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى عن الموطأ بعض حديث رواه مالك عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، وإني لأراكم من وراء ظهري»[1]. وأول الحديث قال أنس: صلى بنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم فلما أقبل علينا بوجهه قال: «أيها الناس إني أؤمكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالقيام ولا بالانصراف فإني أراكم أمامي ومن خلفي»[2]. إلى آخر الحديث، والكلام عليه مستوفى في شروحه.

(**وحكى بقي بن مخلد**) بقي بفتح الموحدة وتشديد القاف المكسورة تليها ياء مثناة تحتية، ومخلد بفتح الميم واللام وخاء بينهما معجمة ساكنة ودال مهملة، هو الإمام أبو عبد الرحمن القرطبي الجياني الحافظ الزاهد العابد الثقة صاحب المسند الكبير والتفسير الجليل، الذي قال ابن حزم: إنه لم يصنف في التفسير مثله، مولده في رمضان سنة إحدى ومائتين، وسمع من ناس كثيرين منهم يحيى بن يحيى الليثي القرطبي، وأبا مصعب الزهري، ويحيى بن بكير، وإبراهيم بن المنذر الحربي، وابن أبي شيبة، وطاف الشرق والغرب وشيوخه مائتان ونيف وثمانون، وروى عنه كثير كابنه أحمد، وكان مجتهدًا لا يقلد أحدًا، وعد من أضرب أهل السنن وكان مجاب الدعوة، يقال: إنه كان يختم القرآن كل ليلة في ثلاث عشرة ركعة ويسرد الصوم، وحضر سبعين غزاة وتوفي سنة ست وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى.

(**عن عائشة رضي الله تعالى عنها**) أنها قالت: (**كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرى في الظلمة كما يرى في الضوء**) وفيه رواية: «كما يرى في النور» ولا شك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان كامل الخلقة قوي الحواس، فوقوع مثل هذا منه غير بعيد، وقد رواه الثقات كابن مخلد هذا فلا وجه لإنكاره، وقد أخرجه البيهقي عن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٦/١١٢)، وابن خزيمة (٩٥٨٧)، والبيهقي في الكبرى (٩٢/٢)، وابن أبي شيبة (٣٢٨/٢).

عائشة رضى الله عنها أيضًا، ونقل ابن دحية فى كتابه «الآيات البينات» عن ابن بشكوال أنه ضعفه لأن فى سنده ضعيفا، وأخرجه عن ابن عباس بلفظ: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرى بالليل فى الظلمة كما يرى بالنهار فى الضوء».

ثم قال: وليس بالقوى. وذكر ابن الجوزى فى «العلل» حديث عائشة هذا وقال: لم يصح. وقال العقيلى: فى سنده من لا يعتمد عليه كما فصله، وذكر هذا الحديث الذهبى فى ميزانه فى ترجمة عبد الله بن محمد بن المغيرة الكوفى مع جملة أحاديث قال إنها موضوعة. وقال السهيلى رحمه الله تعالى فى «الروض»: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما ابتنى بأم سلمة رضى الله تعالى عنها دخل عليها بيتها فى ظلمة فوطئ على زينب فبكت، فلما كان من الليلة الأخرى دخل فى ظلمة أيضًا فقال: «انظروا زينبكم أن لا أطأ عليها».

وفى هذا الحديث توهين لحديث أنه كان يرى بالليل كما يرى بالنهار. انتهى. ولا يخفى أنه لا معارضة بين الحديثين تقتضى ما ذكره، لأن زينب رضى الله تعالى عنها كانت بنتا صغيرة نائمة مغطاة بإزار ونحوه فى جانب من البيت، ومثلها قد لا يرى بالنهار أيضًا، وهذا على ما فيه أقرب مما قيل إن عدم رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لها كان لتغير حصل فى بصره الشريف، لأن الأعراض البشرية كانت تعتريه صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى قصة السحر، فكان إذ ذاك كذلك، فإن مثله لا يقال من غير سند ورواية مجازف.

(والأحاديث كثيرة صحيحة فى رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة والشياطين) هذا مما لا شبهة فيه، وإنما ذكره المصنف رحمه الله تعالى دليلا على قوة بصره صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه يرى ما لا يراه غيره، أما رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة فورد فى أحاديث كثيرة، منها: ما فى البخارى من أنه قال لعائشة رضى الله تعالى عنها: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله بركاته، إنك ترى ما لا نرى.

والأحاديث فى رؤيته الملائكة غير جبريل حيث لا يراها غيره كثيرة، كما فى حديث العقبة ورؤيته ملك الجبال المشهور، وفى هذا دليل على بصره صلى الله تعالى عليه وسلم حيث يرى ما لا يراه غيره، وليس هذا مخصوصا بتشكل الملائكة فإنها جواهر مجردة قابلة للتشكل عندنا، وعند الحكماء لقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وليس ذلك لها بنقص فيها أو زيادة، بل للطافتها تنتشر تارة وتتضام أخرى، كما تراه فى لهب النار عند تلاعب الريح بها، وكذلك الجن فإنها مخلوقة من النار إلا أن الملائكة من

نورها الصافى والجن من النار المختلطة بالدخان، ولذا ذهب بعض الحكماء إلى أنهما جنس واحد وأن الاستثناء متصل، وفى بعض الشروح:

فإن قلت: فما معنى تشكل الملائكة والجن فى صور مختلفة ولا قدرة لمخلوق على تغيير خلقته؟

قلت: قال القاضى أبو يعلى: لا قدرة للجن على تغيير خلقتهم ولا على نقل صورتهم إلى صورة أخرى، لأن ذلك إنما يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء، وإن انتقضت البنية بطلت الحياة واستحال وقوع النقل من الجملة فكيف ينقل بعينها، وإنما ذلك باعتبار جواز أن يعلمهم الله كلمات وضروبا من الأفعال، إذا فعله أحدهم أو تكلم به نقله من صورة إلى صورة، فيقال: إنه قادر على التصوير والتخييل وحمل عليه تصور جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة دحية رضى الله تعالى عنه، وتصوره لمريم بشرًا سويا، ويجوز أن يكون الله تعالى قد جعل لهم قوة التشكل عند إرادتهم ذلك لأنهم أرواح. انتهى. وفيه كلام آخر ليس هذا محله.

وأما رؤية الجن فقد ثبت فى أحاديث كثيرة، منها: ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال: كنا معه صلى الله تعالى عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: اغتيل، فبتنا بشر ليلة، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فسألناه، فقال: «أتانىَ داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم لم يذكر اسم الله عليه فهو طعام لكم وكل بعر علف لدوابكم»(١) ووردت أحاديث أخر فى رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وإيمانهم به مفصلة فى كتاب «لقط المرجان فى أحكام الجان».

قال بعض فضلاء عصرنا: ظاهر كلام المصنف رحمه الله أن رؤية الملائكة والشياطين من خصائص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يراهم غير الأنبياء. وفى حاشية الحلبى فى سفره صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الشام فى قول الراهب رأيت ملكين يظللانه من الشمس، فيه ما يدل على جواز رؤية الملائكة كالجن، وقد صرحوا به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] محمول على الغالب، أى وفيه بحث يأتى آخر الكتاب، ولو كانت رؤيتهم محالة ما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هممت أن أربطه بسارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم» وقال المصنف رحمه الله تعالى: قيل: رؤية الجن على صورتهم الأصلية ممتنعة إلا للأنبياء عليهم

---

(١) تقدم تخريجه.

الصلاة والسلام، ومن خرقت له العادة، وإنما يراهم بنو آدم فى غير صورهم الأصلية، ورده النووى بأنه دعوة مجردة لا مستند لها.

(ورفع النجاشى له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى صلى عليه) يعنى أن الله تعالى رفع بيت النجاشى وجنازته وهو ببلاد الحبش، فرآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة وصلى على جنازته، وهذا دليل على قوة بصره الشريف بحيث يراه مع بعد ما بينهما من المسافة البعيدة والبحر، ورفع مبنى للمجهول، وتقريره رفعه الله وصلى فاعله ضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: ويجوز أن يكون رفع مصدرًا مضافًا لمفعوله مبتدأ خبره مقدر أى ثابت أو معجزة، ويجوز أن يجر عطفًا على قوله فى رؤيته الملائكة والأخبار كثيرة فى ذلك، وفى رفع النجاشى بمعنى أنه نقل بطرق كثيرة ولا مانع من ذلك والأول أولى وأظهر، والنجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الحاء المهملتين والميم والهاء، ابن أبجر بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها جيم مفتوحة وراء مهملة. وقال مغلطاى: ابن بجرى. وقيل: اسمه صحمة بمهملتين مفتوحة فساكنة، وقيل: صمحة بتقديم الميم، وقيل بالخاء المعجمة كما نقله البرهان الحلبى عن بعض مشايخه، وقيل: سليم بضم السين، وقيل: حازم، وقيل: مكحول بن صصة بمهملتين أولاهما مكسورة والإدغام. والنجاشى بفتح النون المشددة والجيم وتخفيفها، وصوب المحب الطبرى التخفيف كما قيل فى ابن جنى لأنه معرب كنى، والنجاشى غلب على المذكر كالنجم للثريا، وهو فى الأصل كل من ملك الحبشة كقيصر لكل من ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، وخاقان لملك الترك، وفرعون للقبط، والعزيز لملك مصر، وتبع لحمير، ودهمى وفغفور لملك الهند، وغاية للزنج، وبطليموس لليونان، وفطيون بكسر الفاء وسكون الطاء المهملة ومثناة تحتية مضمومة يليها واو ونون، أو صالح بفتح اللام والخاء المعجمة أو شالح لليهود، وللصابئة نمرود، وتبع ملك اليمن، وجالوت من ملك البربر، وأخشيد من ملك فرغانة، ونعمان من ملك العرب من قبل العجم، وجرجير من ملك إفريقية، وشيربان من ملك خلاط، وفور من ملك السند، والأصفر من ملك علوى، ورتبيل من ملك الخنزر، وكابل من ملك النوبة، كذا فى المقتفى وغيره، وفى سيرة مغلطاى أن من ملك اليمن يسمى تبعا، فإن ترشح للملك سمى قيلا، بفتح القاف وسكون المثناة التحتية وهو كالوزير، وأصله قيلا بالتشديد كما حققه أهل اللغة، وفرعون من ملك مصر والشام، فإن أضيف إليها الإسكندرية فهو العزير أو المقوقس.

ومعنى أصحمة عطية أو عطية الله، وأصحمة هذا هو النجاشى كما علم، وهو ملك

جليل المقدار آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان بينه وبينه مهاداة ومكاتبة إلا أنه لم يلقه ولم يجتمع به، ولذا لم يعد فى الصحابة لأن شرطها الملاقاة، إلا على قول ضعيف ذكره فى التقريب أنه يكفى فيها المعاصرة مع المعاهدة والإيمان، لاسيما من كان له عذر فى التخلف كهذا، وله أخبار حسنة منها أنه لما بلغه وقعة بدر بعث لمن قبله من المسلمين، فلما دخلوا عليه وجدوه لبس مسحا وقعد على التراب فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟ فقال: أنّا نجد فى الإنجيل إن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم على عبده بنعمة وجب عليه أن يحدث له تواضعًا، وأن الله تعالى أحدث لنا ولكم نعمة عظيمة، وهى ما بلغنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التقى هو وأعداؤه بواد يقال له بدر، كنت فيه أرعى غنمًا لسيدى فهزم الله أعداءه ونصر دينه.

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أنه بعد موته كان يرى على قبره نور، وقوله: «كنت أرعى» إلخ يدل على أنه دخل بلاد العرب، وأما ما ذكره التجانى من أنه من بيت الملك وأن الحبشة قتلت أباه وملكوا عمه، وكان له ميل إليه فخافوا أن يملكه بعده فيقتلهم بأبيه. فقالوا له: لا بد من قتله أو إخراجه من أرضنا، فباعوه، ثم إن الله جعله ملكا عليهم بعد ذلك، فلا دلالة على ما ذكر كما توهمه؛ لأن بقية القصة مذكورة فى الروض الأنف، وفيها ما يدل على خلاف ما ذكره، ثم إن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من رفع النجاشى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى رأى جنازته قال السيوطى فى كتابه «مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء»: إنه لم يجده فى كتب الحديث، وإنما الوارد فيها أنه رفع إليه معاوية المزنى حتى صلى عليه، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك، كما أخرجه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه. انتهى. ويأتى بطوله.

أقول: الذى أنكره المخرج إنما هو رفع جنازته إليه، فإنه روى فى خصائصه الكبرى من طرق مثبتة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نعى لأصحابه النجاشى لما مات، وخرج وصلى عليه مع أصحابه وكبر أربع تكبيرات، والصلاة عليه ثابتة فى الصحيحين، وإنما ذكر المصنف رحمه الله تعالى قصة الرفع مدرجة فى الحديث بناء على الاختلاف فى الصلاة على الغائب وصحتها مطلقًا كما يأتى، وكانت وفاته فى السنة التاسعة من الهجرة فى رجب. وعن أبى إسحاق أن نيزر، أو أبا نيزر، بنون ومثناة تحتية وزاى معجمة وراء مهملة النجاشى، كان مولى لعلى بن أبى طالب بعد موت أبيه وطلبته الحبشة ليتوجوه فأبى، وقال: لا أريد الملك بعد أن من الله علىّ بالإسلام، وكان طويل القامة صبيح الوجه، ورؤية النور على قبر النجاشى غير مستغرب فإنه يُرى على بعض

قبور الشهداء، ويصدقه قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الحديد:١٩]، وإذ قد علم أن قصة النجاشى فى الصحيحين من أعلام النبوة، لإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بموته فى اليوم الذى مات فيه مع بعد المسافة، ولما صلى عليه قال بعض المنافقين: صلى على علج من علوج الحبشة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران:١٩٩] الآية، واستدل به من قال بالصلاة على الغائب؛ وبه قال أحمد والشافعى وبعض السلف، لأن الصلاة على الميت دعاء له فكيف لا يدعى له وهو غائب أو فى قبره كما يدعى له وهو حاضر. وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه لا يشرع ذلك. وعن بعضهم: يجوز لمن كان فى جهة القبلة بخلاف مستدبرها.

وأجاب من قال بعدم الصلاة على الغائب عن هذه القصة بأمور، منها: أنه كان بأرض لا يصلى بها فشرعت لذلك، ولذا قال الخطابى: لا يصلى على الغائب إلا إذا مات بأرض لا يعرف بها الصلاة على الميت كبلاد أهل الشرك، وكذا قال أبو داود، فإذا مات بها وجب على المسلمين أن يقوموا بحقه فى الصلاة، فلو علم أنه صلى عليه لا يصلى عليه من كان غائبًا، فإن لم يصل عليه لعذر أو عائق سن الصلاة عليه ولا يترك لبعد المسافة.

ومنها: أن هذا مخصوص بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما روى: «أنه سويت له الأرض حتى أبصر النجاشى» وقد رد هذا بأنه إذا فعل شيئا من أفعال الدين كان علينا اتباعه فيه، والتخصيص لابد له من دليل، ونقل ثابت لا بمجرد الاحتمال، ولو فتح هذا الباب لم يبق شيء يوثق به، ولو كان كذلك توفرت الدواعى بنقله، ويؤيد كلام المناهل المار قول ابن حجر: إن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أهل لذلك الرفع والإحضار، فإنه قادر على ما هو أعظم من ذلك، لكنا لا نخترع حديثًا ونقوله من عند أنفسنا، ومثل هذه الأمور الضعاف تلاف بلا تلاف.

وقال الكرمانى رحمه الله تعالى: رفع الحجاب ممنوع، ولئن سلمناه فهو غائب فى حق الصحابة الذين صلوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قد وقع فى حديث مجمع ابن حارثة ما يؤيده فإن فيه: «فصففنا خلفه صفين وما نرى شيئا» كما فى سنن ابن ماجه والطبرانى، وأجاب الحنفية بأنه يصير كالميت الذى يصلى عليه الإمام وهو يراه، والمأموم لا يراه، فإنه جائز اتفاقا، فإذا ورد عليه أنه ليس النزاع فى الرؤية وعدمها، فإنه لا يشترط فى صحة الصلاة رؤية الميت ولا سريره، وإنما النزاع فى كون الميت فى بلد والمصلى فى أخرى، وعلى تقدير أنه رآه لم يقع النزاع، فإن قلتم: إن سريره رفع ووضع

عنده صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن غائبا، والحاصل أن هنا ثلاثة أمور:

أحدها: أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم بموته وهو بالحبشة وصلى عليه بالمدينة هو والصحابة، وعلى هذا هو دليل للشافعية.

الثانى: أن يكون رفع له سريره أو روحه وهو فى مكانه وأزيل الحجاب، فهذا أيضًا صلاة على الغائب مع أنا نطالب مدعيه بنقل صحيح.

الثالث: أن تحمل جثته لحضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيصلى عليه وهو صلاة على حاضر، ولم يقل أحد أنه ورد ولا ثبت.

فقول الحنفية إنه دليل فاسد لا وجه له، وكان الأولى للمصنف الاستدلال على قوة بصره صلى الله تعالى عليه وسلم بحديث معاوية المزنى، الذى رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: «أن جبريل عليه الصلاة والسلام نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا محمد مات معاوية بن معاوية المزنى أفتحب أن تصلى عليه؟ قال: نعم فضرب بجناحه الأرض فلم يبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ورفع له سريره حتى نظر إليه، فصلى عليه وخلفه صفان من الملائكة فى كل صف سبعون ألف ملك، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجبريل: بم نال هذه المنزلة من الله تعالى عز وجل؟ قال: بحبه قل هو الله أحد وقراءته إياها جائيا وذاهبا وقائما وقاعدا»(١). وهذا حديث صحيح كما فى شرح البخارى لابن حجر.

أقول: بعد صحة هذا وبيان كيفية الصلاة فيه على الغائب والأحاديث يفسر بعضها بعضا، علم أن قصة النجاشى ورفع السرير وإزالة الحجاب أمر خارق للعادة لا يتيسر لغير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فتبين صحة جواب الحنفية وقوته وسقط الاعتراض عن المصنف رحمه الله تعالى أيضًا، وقد اختلف فى النجاشى كما فى بعض الشروح أهو علم شخص أم علم جنس لكل من ملك الحبشة، كفرعون هل اسم لكل متفرعن أو هو علم شخص؟ وقد يجمع بأنه علم شخص نقل للعلمية ولا وجه لإنكار النقل فيه كما قيل.

(تنبيه) فى حديث النجاشى أمران:

أحدهما: أنه وقع فيه نعى موت النجاشى، وقد ورد فى الحديث أنه نهى عن النعى، ولذا اختلف الفقهاء فيه، فقيل: مكروه، وقيل: إنه مستحسن ولا خلاف بينهما، فإن معنى النعى الإخبار بالموت، فإذا فعل من غير صراخ وإطراء بما لا ينبغى فهو سنة، ولو

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٩/٤٢٩).

بالنداء فى الأسواق لما فيه من الدعاء للخير بتكثير الجماعة، والاتعاظ، فإن كان بخلافه على عادة الجاهلية فمكروه.

الثانى: أن الشافعية بعد ما ذكروا دليل الخصم فى التأويل قالوا: لا دليل فيه، فقيل: إنه فاسد؛ لأن الدليل ملزوم لا يلزم من نفيه نفى اللازم ودعوى الفساد غير ظاهرة، فإن مرادهم أن الصلاة على الغائب ثابتة بالأحاديث الصحيحة، فتأويلها من غير مستند لا يكون دليلا، إذ لابد لكل مدع من النقل، فالجواب الصحيح ما نقلناه إذ المنع المجرد لا يسمع فى مقابلة النص.

وقوله: (و) رفع (**بيت المقدس حين وصفه لقريش**) بالرفع معطوف على النجاشى، ويجوز جره كما مر، ومقدس كمرجع اسم مكان أو مصدر ميمى من القدس وهو الطهر، أى المكان الذى يطهر الله فيه العباد من الذنوب، أو يطهر من الأصنام، وجاء فيه ضم الميم وفتح القاف والدال المشددة اسم مفعول من التقديس وهو التطهير، وجاء بكسر الدال اسم فاعل لأنه يقدس العابد فيه من الأثام، ويقال البيت المقدس بالتوصيف، والأشهر فيه الإضافة، وقدس بضمتين وضم فسكون الطهر واسم جبل معروف، قال التبريزى: يقال: إنه غير مصروف ولا يمتنع واستشهد للأول بقول كثير:

كالمصرخى غدا فأصبح واقعا فى قدس بين مجاثم الأوعال

انتهى.

فانظر دخول الألف واللام عليه، ورفع بيت المقدس إشارة إلى ما وقع فى حديث الإسراء الذى رواه الشيخان وغيرهما عن جابر رضى الله تعالى عنه بسند صحيح متصل، وهو: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أسرى به وأصبح بمكة أتاه عدو الله أبو جهل فقال له: هل كان من شىء؟ قال: نعم إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. قال: بم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم. قال: فإن دعوت قومك أتحدثهم بهذا؟ قال: نعم، فقال: يا معشر قريش، يا معشر بنى كعب بن لؤى، فانفضت إليه المجالس حتى جاءوا، فقال: حدث قومك بما حدثتنى؟ فحدثهم فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه متعجبا. فقالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا بيت المقدس وكم فيه من بات؟ فكربت كربًا لم أكرب مثله قط، فجعل الله لى بيت المقدس وكشف الحجب بينى وبينه حتى رأيته، فنعته لهم وأنا أنظر إليه، وجاؤوا أبا بكر وقصوا عليه القصة وقالوا: تصدقه؟ فقال: نعم، إنى أصدقه بأخبار السماء». فسمى لذلك صديقا ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس فى طرفة عين، وهذا مؤيد لما ذكره المصنف من قوة بصره حتى رآه مرفوعًا و لم

يغب عنه شيء منه، فما قيل من أن الأليق درج هذا فيما له عليه الصلاة والسلام من الكرامات والمعجزات لأنه أمر زائد على تكميل الذات لا وجه له.

(والكعبة حين بنى مسجده) أى رفعت له صلى الله تعالى عليه وسلم الكعبة وهو بالمدينة حين بنى مسجده بها على الوجهين السابقين فى الإعراب. قال السيوطى رحمه الله تعالى فى «مناهل الصفا»: رفع الكعبة له حين بنى مسجده رواه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن ابن شهاب ونافع بن جبير بن مطعم مرسلا، ثم ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى مشكل لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أتى المدينة ونزل بقباء أيامًا ثم أسس مسجدها، وهو أول مسجد أسس على التقوى، ثم خرج منها راكبًا ناقته، ثم أتى دور بنى النجار فبركت ناقته فى موضع مسجده، فبناه على ما فصل فى السير والأحاديث الصحيحة، وكانت القبلة بيت المقدس إذ ذاك خمسة عشر شهرًا أو نحوها، فكيف يصح أن يقال إن الكعبة رفعت له صلى الله تعالى عليه وسلم حين بنائه، كما وقع فى حديث الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين بنى مسجده يؤمه جبريل إلى الكعبة ويقيم له القبلة». وهذا كله فى غاية الإشكال مع وروده فى الحديث، وكذا فى الحديث المرسل الذى نقله السيوطى فى تخريجه، ولذا قال التجانى رحمه الله تعالى فى شرحه: إنه غريب، والمعروف أن جبريل عليه الصلاة والسلام أعلمه بحقيقة القبلة وأراه سمتها، لا أنه رفع له الكعبة حتى رآها، وبهذا جاءت الآثار من غير تقييد.

وفى العتبية من سماعات مالك أنه قال: سمعت أن جبريل عليه الصلاة والسلام هو الذى أقام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبلة مسجده مسجد المدينة. قال ابن رشد فى «البيان والتحصيل»: يعنى أراه السمت إليها وبين له جهتها، والصواب أن ذلك كان حين تحولت القبلة لا حين بناء مسجده، وكون جبريل عليه الصلاة والسلام أراه سمتها لا يقضى رفعها ومثله لا يقدم عليه من غير رواية، والحاصل أن ما فى حديث الشفاء من أن جبريل عليه الصلاة والسلام حين بنى مسجده كان يؤمه إلى الكعبة فى غاية الإشكال، لأن القبلة لم تكن إذ ذاك الكعبة بل بيت المقدس، اللهم إلا أن يقال إن توجهه إليها لم ينسخ وكان مخيرًا بين التوجه لها وللصخرة، وقد وقع فى كتاب «الناسخ والمنسوخ» ونحوه.

وأما ما قاله ابن الحنبلى فى شرحه من أن معنى قول الشفاء: يؤمه، أى يصير له إمامًا أى متبعا فى التوجه إلى الكعبة، لأجل إقامة القبلة وبيان جهتها، كما يكون الرجل إمامك إذا استهل الهلال ليريكه وأنت متبع له فى التوجه ليريك سمته، فمع تكلفة لا

يجدى شيئا، ولما استشعر هذا حاول توجيهه بما ذكره تاج القراء فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب التوجه للكعبة قبل تحويل القبلة، فلما قوى رجاؤه، وتمكن أن يكون سأل جبريل عليه الصلاة والسلام أن يبين له جهتها عسى أن تكون قبلة ففعل، أو سأل الله ذلك، والإمام المتبع فى الأقوال والأفعال مطلقًا، كما فى «عمدة الحفاظ» وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وبمجرد هذا الاحتمال لا يندفع الإشكال، وفى الشرح الجديد هنا كلام طويل بغير طائل رأينا تركه أكثر فائدة من ذكره، ثم إنى رأيت فى تذكرة الحافظ العلامة العلائى بخطه أن الراجح عند العلماء أن الكعبة كانت قبلة الأنبياء عليهم السلام، أما إنها كانت قبلة إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم فمما لا شك فيه، وفى الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم الكعبة، وفى الآثار ما يقضى أن توجه اليهود إلى بيت المقدس كان عن اجتهاد منهم أو عناد، وفى كتاب «الناسخ والمنسوخ» لأبى داود مسندًا إلى الحسن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٩٦] الآية، قال: أعلم قبلته فلم يبعث نبيا إلا وقبلته البيت، ووقع فى قصة ذكرها مع سليمان بن عبد الملك أن خالدًا قال: قرأت التوراة فلم أجد قبلة بيت المقدس فيه، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة فلما غضب الله تعالى على بنى إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وقال أبو داود: خاصم يهودى أبا العالية فى القبلة، فقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان يصلى عند الصخرة مستقبل البيت الحرام، فقال له: بينى وبينك مسجد النبى صالح عليه السلام، فقال: إنى صليت فيه وقبلته الكعبة. فهذه الآثار تدل على أن الكعبة كانت قبلة الأنبياء كلهم انتهى باختصار.

أقول: وكذا قبلة عيسى عليه الصلاة والسلام، وإنما غيرها للمشرق بولس كما صححوه، إذا عرفت هذا علمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت قبلته قبل الهجرة الكعبة، ولكن كان يجعلها بينه وبين البيت المقدس، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافق أهل الكتاب فيما لم يوح إليه فيه، فلما هاجر إلى المدينة استمر على ذلك وهو يعلم أن القبلة الحقيقية الأصلية إنما هى الكعبة، وهى قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد أمره الله بالاقتداء به ولم ينص على القبلة، فعنده صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه سيصرفه الله إليها ولكنه منتظر لأمر الله مراعيًا للأدب، فلا مانع من أن يسأل صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل عليه الصلاة والسلام أن يريه سمتها، حتى إذا وقع

ذلك لم يتردد ويتحيز فيه، وهذا هو الحق الحقيق بالقبول فاعرفه، ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى ما يدل على قوة حواسه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال:

(وقد حكى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما) قال السيوطى رحمه الله تعالى فى «مناهل الصفا»: هذا لم يوجد فى شيء من كتب الحديث، والثريا مصغر ثروة وهى الكثرة، وهى منزل من منازل القمر فيه نجوم مجتمعة جعلت علامة. فقول بعض الشراح: إنها كوكب وهم منه، قال فى «مباهج الفكر»: وهى ستة أنجم صغار طمس، ويظنها من لا معرفة له سبعة وهى مجتمعة بينها نجوم صغار كالرشاش. وحكى أن الثريا اثنى عشر نجمًا لم يحقق الناس منها غير ستة أو سبعة، ولم ير جميعها غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقوة جعلها الله تعالى فى بصره، والنجم علم لها بالغلبة كالكواكب للزهرة، وذكر السهيلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرى فيها اثنى عشر نجمًا. وقال القرطبى فى كتاب «أسماء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنها لا تزيد على تسعة فيما يذكرون، ونظمه فى أرجوزته فقال:

وهو الذى يرى النجوم الخافية مبينات فى السماء العالية
أحد عشر نجما فى الثريا لناظر سواه ماتهيا

وفى كتاب «التفهيم» لأبى ريحان البرونى بكسر الموحدة والنون أنها ستة كواكب كعنقود عنب، ويظن العوام والشعراء أنها سبعة وهو ظن غير مصيب، قيل: وهو غير مصيب لنقصه عما رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد علمت أنه لم يثبت ما نسب إليه صلى الله تعالى عليه وسلم هنا. وقال الإمام الخضيرى فى خصائصه: ما ذكره القرطبى والسهيلى لم أقف له على سند وأصل يرجع إليه، وقال التلمسانى: إنه جاء فى حديث ثابت من طريق العباس رضى الله تعالى عنه ذكره ابن أبى خيثمة.

(وهذه) الأمور المذكورة **(كلها)** من رؤية النجاشى والكعبة والثريا وغيره مما ذكر **(محمولة على رؤية العين)** أى مفسرة بما ذكر وهو المراد منها، والحمل يستعار لذلك فى كلامهم استعارة مشهورة، من حمل الأحمال بجعل اللفظ كحمل على ظهر المعنى، وقريب منه الاحتمال.

(وهو قول أحمد بن حنبل وغيره وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم) أى إلى تأويل الرؤية بالعلم وصرفها عن ظاهرها فتعبيره بالرد توطئة لقوله: **(والظواهر تخالفه)** أى ظاهر العبارة تخالفه ولا مقتضى لصرفها عن الظاهر. **(ولا إحالة فى ذلك)** أى ليس فى حملها على الرؤية البصرية أمر محال يقتضى العدول لأجله. **(وهى من خواص الأنبياء عليهم**

الصلاة والسلام وخصالهم) أى قوة البصر والحواس من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا وجه لاستبعادها وتأويل ما يدل عليها، ثم أيد ذلك بالنقل فقال:

(كما أخبرنا) قيل: الظاهر من الكاف فى قوله كما أنها التعليلية مثلها فى قوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ [البقرة:١٥١] والمعنى إنما قلنا هذا من خواص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأجل ما أخبرنا.

(أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه) قال التلمسانى: هو التميمى، مات بسبتة سنة إحدى وخمسمائة، وهو من شيوخ المصنف، وقوله من كتابه إشارة إلى أنه قراءة وهو يسمعه من كتابه لا من حفظه، وقد اختلف فيمن لا يحفظ ويحدث من كتابه، فالصحيح أنه تجوز روايته ويحتج بها وإليه ذهب ابن الصلاح، وقيل: لا يحتج إلا بما يرويه من حفظه، واختلف أيضًا فيما إذا لم يتذكر ما فى كتابه وتفصيله فى ابن الصلاح وحواشيه قال:

(حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغانى) بالفاء والغين المعجمة بينهما راء مهملة نسبة إلى فرغانة بلدة مشهورة بالمشرق، ويحتمل نسبته لفرغان بلدة بفارس، وباليمن وهو على بن عبد الله المقرى نزيل مكة قال:

(حدثتنا أم القاسم بنت أبى بكر عن أبيها) هى بنت أبى بكر محمد بن يعقوب البخارى الزاهد الصوفى المعروف بالخفاف، صاحب كتاب «الأخبار بفوائد الأحبار» قال:

(حدثنا الشريف أبو الحسن على بن محمد الحسنى) هو الشريف أبو الحسن على بن محمد بن على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم، توفى فى خلافة المعتز بالله لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن أربعين سنة، وقيل غير ذلك قال:

(حدثنا محمد بن محمد بن سعيد) قال: **(حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان)** قال: **(حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق)** قال: **(حدثنا همام)** هو همام بن الحارث النخعى الكوفى، سمع حذيفة وعمارًا وروى عنه إبراهيم النخعى، وتوفى أيام الحجاج بن يوسف، ولفظ همام وقع فى كثير من النسخ، والصواب هانئ كما أصلح وهو هانئ بن يحيى السلمى وشيخه الذى أشار إليه بقوله:

(حدثنا الحسن) هو الحسن بن أبى جعفر الجفرى بضم الجيم والفاء نسبة للجفر، وهو مكان بالبصرة، أحد الضعفاء، وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن أحمد بن الحسين بن

بهرام الإيذجى، حدثنا محمد بن مرزوق البصرى، حدثنا هانئ فذكره، وقال فى آخره: لم يروه عن قتادة إلا الحسن بن أبى جعفر، تفرد به هانئ بن يحيى.

وقوله: **(عن قتادة)** هو ابن دعامة التابعى الجليل وتقدمت ترجمته **(عن يحيى بن وثاب)** بفتح الواو وتشديد المثلثة وألف وموحدة، وهو يحيى بن وثاب الأسدى مولاهم، روى عن ابن عباس، وعمر، وعلقمة رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه الأعمش وعميس، وهو ثقة محدث مقرى، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن، إلا أن روايته عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ليست فى الكتب الستة. **(عن أبى هريرة)** رضى الله عنه تقدم الكلام فى اسمه وترجمته.

(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لما تجلى الله لموسى عليه الصلاة والسلام كان يبصر النملة على الصفا») الصفوان والصفا الحجر الصلد الأملس. **(فى الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ)** جمع فرسخ وهو ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع طولها أربعة عشرون إصبعا وعرض كل إصبع ست حبات شعير ملصقة ظهر البطن، وقيل: ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف خطوة، كل خطوة ثلاثة أقدام يوضع قدم أمام قدم ويلصق به، وشين عشر ساكنة ومفتوحة، ولفظ الفرسخ معرب، وقيل: عربى معناه السكون، لأنه بقطعه يسكن، وقيل: معناه الراحة والفرحة، وقيل: معناه ساعة من ساعات النهار.

والتجلى كما قاله الراغب فى مفرداته الكشف والظهور، وقد يكون بفعله بالذات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٣] وقد يكون بالأمر والفعل نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] انتهى.

وإذا كان التجلى بغير الذات يشمل الخطاب والكلام، فيحمل تجلى الله لموسى عليه الصلاة والسلام على خطابه وتكليمه وتجليه للجبل أمر آخر، فلا يرد على المصنف أنه مخالف للقرآن، فإن التجلى فيه للجبل لا لموسى عليه الصلاة والسلام مع أنه غير مسلم، فإن القرطبى رحمه الله تعالى نقل فى تفسيره قولا بأن موسى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه ولذا خر صعقًا، وأما تجليه للجبل واندكاكه فإما بمعنى أمره وفعله به ما أراد، أو نقول بأن الله خلق فيه إدراكًا علم به تجلى الله فتفتت وانهد من هيبته، ولعل المصنف رحمه الله ارتضى هذا، وعليهما فاللام صلة التجلى لأنه يتعدى بها، وقال التجانى فى الجواب: إن اللام تعليلية بتقدير مضاف، أى فلما تجلى لأجل سؤال موسى رؤيته وأن هذا لابد منه فى الحديث للتوفيق بينه وبين الآية، وقال بعضهم: المراد تجلى أمره أو نوره والمقدر لهذا من المعتزلة لإنكارهم الرؤية، ومن أهل السنة لاستبعاد أن يكون للجبل

إدراك أو روح تدرك وليس مثله بمستبعد من القدرة.

أقول: قد ارتضى هذا بعضهم وهو غير ثابت هنا لوجهين، الأول: أن ما ذكره خلاف الظاهر لا يجوز الحمل عليه من غير قرينة. الثاني: أنه لا يناسب سياق الحديث ولا كلام المصنف، لأن تجلى الله للجبل حتى صار دكًا، وخوف موسى عليه الصلاة والسلام حتى يخر صعقا لا يقتضى التأثير فى حواسه حتى يرى النملة المذكورة، بل يقتضى خلافه، ولا يصح تفسير كلام المصنف به لمنافاته لفرضه، فالحق ما قلناه، وتحقيقه أن الله تعالى لما قربه حتى سمع كلامه النفسى بناء على ما قاله الأشعرى من أنه يجوز سماعه، أو كلامًا بغير واسطة يدل عليه إن لم نقل بقدم الألفاظ كما ذهب إليه كثير من السلف، حصل له قوة روحانية واتصل به نور إلهى أثر فى الروح الحيوانية وزاد فى نورها، الذى بانتشاره فى البدن يحصل الإدراك على ما حققه الحكماء فى الحواس، فأدرك بذلك إدراكًا خارقًا للعادة، فإذا كانت زرقاء اليمامة التى ضرب بها المثل فقيل: «أبصر من زرقاء اليمامة» ترى من أميال وهى امرأة من الجاهلية، فما بالك بهؤلاء، وفى تخصيص النملة والظلمة والصخرة الملساء مبالغة لا تخفى، وقيل: معنى الحديث أن الله تعالى لما خص موسى عليه الصلاة والسلام بمناجاته، ظهرت له أنوار ربانية ساطعة أضاءت بها الأرض إضاءة عجيبة، حتى صار يرى الصغير من بعيد كما يرى الكبير من قريب، والمهم المقدم فإن فهمت فهو نور على نور، وهذا الحديث رواه الطبرانى فى مسنده الصغير وصححه، ولما كانت هذه القوة حصلت للكليم بالتجلى فحصولها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الإسراء مع ما رآه أظهر، فلذا قال:

(ولا يبعد على هذا أن تختص نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بما ذكرناه) من رؤيته للملائكة والجن، ورؤيته بالليل كما يرى بالنهار. **(من هذا الباب)** أى من نوع هذه الرؤية، فإن الباب والبابة ورد بهذا المعنى. **(بعد الإسراء)** قيده به لأنه وقع بالمدينة والإسراء كان بمكة، ولأنه يكون بعد تجلى الله لرؤيته على ما عليه الأكثر، فيزيد قوته الروحانية والجسمانية كما سمعته آنفا **(والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى)** الحظوة زيادة القرب مع المحبة وزيادة وهى بضم الحاء وكسرها، وأما آيات ربه الكبرى فسيأتى الكلام عليها فى الإسراء.

(وقد جاءت الأخبار بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم صرع ركانة أشد أهل وقته) أشد: أعظم قوة بدنية من جميع من كان بالقوة الجسمانية، وهذا إثبات لتفوقه صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره فى قوته البدنية بعد ما أثبت قوة إدراكه صلى الله تعالى عليه وسلم، وركانة: بضم الراء المهملة وكاف مفتوحة يليها ألف ونون وهاء، قال الحافظ

برهان الدين الحلبى فى المقتفى: هو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم القرشى المطلبى الحجازى المكى ثم المدنى، أسلم يوم الفتح، وهو الذى صارعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فصرعه، قال الحافظ عبد الغنى المقدسى: وهذا مثل ما روى فى مصارعته صلى الله تعالى عليه وسلم لغيره. ورواه أبو داود والترمذى مرسلا، قال الترمذى: وليس إسناده بالقائم. وأخرجه أبو داود عن قتيبة عن محمد بن ربيعة عن ابن الحسن العسقلانى عن أبى جعفر محمد بن ركانة عن أبيه صارعه، فذكره. وأخرجه الترمذى بهذا السند، وزاد المزى ما لفظه: هكذا رواه أبو الحسن بن العبد وغير واحد عن أبى داود مثل رواية الترمذى. ورواه البيهقى فى المراسيل عن سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه، قال البيهقى: «وهو مرسل جيد». وروى بإسناد آخر متصل إلا أنه ضعيف، وأشار إلى ما تقدم وقد رأيت ما نقله فى مراسيل أبى داود فى أطراف المزى كما قاله، لكن فيه أنه عليه الصلاة والسلام كان بالبطحاء فأتاه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد فذكره بالشك، والله تعالى أعلم. وتوفى ركانة بالمدينة سنة اثنين وأربعين، وقيل: فى خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه.

وقال النووى فى تهذيبه: وقع فى المهذب فى باب المسابقة أنه عليه الصلاة والسلام صارع يزيد بن ركانة وهو خطأ، والصواب: ركانة بن يزيد انتهى. وقال السهيلى فى روضه: إن أبا أسد بن الجمحى واسمه كلدة بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وكان بلغ من شدته فيما زعموا أنه يقف على جلد البقرة فيجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه، وقد دعى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المصارعة وقال: إن صرعتنى آمنت بك، فصرعه عليه الصلاة والسلام مرارًا ولم يؤمن. انتهى. والحاصل أن الذى صارعه صلى الله تعالى عليه وسلم ركانة فى أصح الروايات.

(وكان دعاه إلى الإسلام) فلم يسلم أولاً ثم أسلم بعد ذلك كما تقدم، قيل: كان ينبغى ذكر هذا قبل ذكر ما اشتمل عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قوى الباطن ليترقى منه إليه، إذ هذا من قوى الظاهر وهو أدنى من قوى الباطن، ولا مرية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أشجع الناس وأقواهم.

(وصارع صلى الله تعالى عليه وسلم أبا ركانة فى الجاهلية) أى قبل ظهور الإسلام بمكة. قال البرهان: الذى صح أنه ركانة، وأما أبو ركانة فلم يصح، والصواب ركانة. وكذا ما نقل من أن أبا جهل صارعه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصح أيضًا، وذكر بعضهم عن السهيلى أن أبا أسد الجمحى صارعه وكان من أشد الناس وقد مر، وغير

هذين لم يصح، والجاهلية منسوبة إلى الأمة الجاهلية أو الفترة، والجاهلية تطلق على ما قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى ما قبل الفتح، قيل: والمراد هنا الثانى. **(وكان)** أى أبو ركانة **(شديدًا وعاوده ثلاث مرات)** أى صارعه مرة بعد مرة **(كل ذلك يصرعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** كل منصوب بنزع الخافض، أى: يصرعه فى كل ذلك.

قال البرهان وغيره: وأما حديث ركانة الذى تقدم فهو ما رواه البيهقى أنه قال: «كنت أنا والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غنيمة لأبى طالب نرعاها، فقال لى ذات يوم: هل لك أن تصارعنى؟ فقلت له: أنت؟ قال: أنا. فقلت: على ماذا؟ قال: على شاة من الغنم فصارعته فصرعنى وأخذ منى شاة، ثم قال: هل لك فى المعاودة الثانية؟ قلت: نعم فصارعته فصرعنى وأخذ منى شاة، فجعلت ألتفت هل رآنى إنسان من الرعاة فيجترئ علىَّ وأنا فى قومى أشدهم، فقال: هل لك فى الثالثة ولك شاة؟ قلت: نعم فصارعته فصرعنى وأخذ منى شاة فقعدت كئيبا حزينًا، فقال: مالك؟ فقلت: أرجع لصاحب الغنم وقد أعطيت ثلاثا من غنمه وكنت أظن أنى أشد الناس، فقال: هل لك فى الرابعة؟ فقلت: لا بعد ثلاث، فقال: أما الغنم فإنى أردها عليك فردها، فلما ظهر أمره أتيته وأسلمت»[1] وفى رواية: «أنه راهنه على عشرة وأنه قال له: ما هذا إلا سحر».

فإن قلت: ما حكم المصارعة شرعًا؟.

قلت: ذهب البغوى رحمه الله تعالى إلى تحريمها؛ لأنه لا منفعة لها فى الحرب، والأصح أنها تجوز من غير عوض؛ لأنه ربما تدعو إليها المحاربة، وبهذا أفتى شيخنا الرملى، وأما أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العوض من ركانة فإنما كان بنية رده وليرغب فى المصارعة، وليكون ذلك سببًا لإسلامه، مع أن المروى أن ركانة هو الذى طلبها، ثم ذكر ما يدل على قوته صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا.

فقال: **(وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: «ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مشيته»)** بكسر الميم وسكون الشين المعجمة والياء المثناة التحتية المفتوحة يليها تاء تأنيث مضافًا لضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى هيئة المشى، وروى مشيه بفتح الميم دون تاء تأنيث قاله التلمسانى، وقال التجانى: كثيرًا ما يقع فى الشفاء وغيره مكسور الميم والصواب فتحها، لأن المشية بالكسر هيئة

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٢٥١).

الإنسان، وبالفتح مصدر، فإذا فتحت كان المعنى أسرع من مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا كسرت فالتقدير أسرع من هيئة مشيته ولا معنى له، ورد بأن المشى والمشية بمعنى و لم يرد الهيئة والمقصود واحد، لأن المشية تكون مصدرًا، أو هو كما تقول جمال زيد أكمل وأنت تريد زيد أكمل فى جماله، فالمعنى أسرع من مشيه فى هيئته المخصوصة، و لم يرد تفضيل الهيئة كما فى قولك فلان أحسن الناس جلسة أى هيئة أحسن من هيئة غيره فى الجلوس.

أقول: هذا تكلف نشأ من توهمه أن المشية مفضل عليها وليس كذلك، فإن المفضل مطلق حركته ومشيه وفى بمعنى مع، أى لا يرى أسرع من حركته مع هيئته المخصوصة فى مشيه، فليس المقصود تفضيل الهيئة، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع تؤدته واعتدال حركاته تراه يسرع كأنه الماء الجارى من غير اضطراب، ولولا هذا ناقض ما ذكر من اعتدال حركاته فى أول الفصل فلذا قال:

(كأنما الأرض تطوى له)، فإنه يدل على أن مشيه ليس بالجرى والهرولة، وورد أن الأرض كانت تطوى له صلى الله تعالى عليه وسلم ولا منافاة بينهما، إما لحمل هذا على غالب أحواله وذاك علىأسفاره ونحوها، وقيل: إنهما بمعنى فإن أحدهما استعارة أو تشبيه بليغ وهذا تشبيه صريح، كما تقول هو الأسد وكأنما هو الأسد.

(إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث) نجهد مضارع إما من الجهد بفتح الجيم وهو المشقة والتعب، أو بضمها وهو الطاقة والمقدرة، أى: أنا نتعب أنفسنا فى مساواة مشيه وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مستريح لا يرى له مشقة، أو أنا نبذل وسعنا وطاقتنا وهو غير مبال بمشيه، ومكترث بالكاف والتاء المثناة الفوقية وراء مهملة ومثلثة اسم فاعل من الاكتراث وهو المبالاة والاعتناء بالأمر، قالوا: لا يستعمل اكترث إلا فى النفى، وورد فى الإثبات نادرًا فى حديث ذكره صاحب «النهاية».

وقد ورد فى صفة مشيه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى فى الحديث عن علىّ كرم الله تعالى وجهه وغيره: «إذا مشى مشى تكفيا كأنما ينحط من صبب، وإذا وطئ وطئ بقدمه كلها ذريع المشى» أى خطاه متباعدة، وكان أصحابه رضى الله تعالى عنهم يمشون بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو خلفهم، ويقول: «خلوا ظهرى للملائكة». وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى بعض من حديث أوله: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع» إلى آخره. رواه صاحب الشمائل، والمصنف رحمه الله تعالى اختصره وغير بعض ألفاظه، وفى المصححة نسخة مشيته موافق لإحدى النسختين هنا، وقد

علمت ما ورد عليه وجوابه، فلا حاجة لما قيل إن المشية أعم من المشى لدلالة الأول على الحدث، والثانى على الحدث مع الهيئة، وكلما دل على الحدث مع الهيئة دل على الحدث ولا عكس، والحدث المطلق إذا أضيف إلى من صدر عنه استفيد منه خصوص الهيئة، لأن الهيئة التى تدل عليها فعلة المكسورة ألفا حالته التى عليها الفاعل عند تلبسه بالفعل، وهى لازم لكل مصدر، فكل مشى مشية من غير عكس، لأنه تكلف.

(وفى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم أن ضحكه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تبسمًا): الضحك انبساط الوجه وظهور الأسنان، فلذا سمى مقدمها الضواحك والتبسم ابتداؤه والأخذ فيه، وقيل: هو الضحك من غير قهقهة، وفى الحديث: «كان ضحكه صلى الله تعالى عليه وسلم تبسما»[1] كذا فى «عمدة الحفاظ» وعلى كل حال فالتبسم بعض من الضحك أو نوع منه، وعليه قول النحاة فى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل:١٩] أن ضاحكًا حال مؤكدة، وقول الزمخشرى أى شارعًا فى الضحك وآخذًا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك لا يقتضى التفرقة، ولأن المراد بالضحك أمر مخصوص فلا اعتراض على النحاة ولا على الزمخشرى كما توهم، وقد ورد فى بعض الأحاديث: «أن ضحك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن إلا تبسما» وورد فى بعضها: «أنه ضحك حتى بدت نواجذه» وفى بعضها وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بمطلق الضحك، وجمع بينهما بأن التبسم كان غالب أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن غيره وقع منه أحيانا على الندرة فلا منافاة بينهما، وقيل: المراد بقوله: «ضحك حتى بدت نواجذه» المبالغة لا حقيقته، ولا حاجة إليه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضى الله تعالى عنهم كانوا يضحكون إذا رأوا عجبًا وأمرًا يسرهم ولنا فيهم أسوة حسنة، وإنما المكروه الإكثار كما ورد فى الحديث: «كثرة الضحك تميت القلب». كمن غلبه ذلك من أهل اللهو والبطالة.

وروى فى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل:١٩] أنه كان فرحًا بفضل الله تعالى عليه، ولم يكن بطرًا وأشرًا، لاسيما ما فيه من تأنيس الناس وتعليمهم لحسن العشرة، وأما ما روى عن الحسن رضى الله تعالى عنه من أنه ما رئى ضاحكًا ولا متبسمًا لا فى أهله ولا وحده ولا فى جماعة، فذلك غير منكر لشدة خوفه من الله تعالى ومراقبته له، وهو مقام آخر لا يخالف فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فلا وجه للاعتراض به عليه.

(إذا التفت التفت معا) فلا يسارق النظر ولا يلوى عنقه يمنة ولا يسرة كما يفعله من

---

(١) أخرجه ابن حجر فى فتح البارى (٩/٢٨٨).

به طيش وخفة، بل يقبل جميعًا ويدبر جميعًا، ومعنى معًا بجميعه. **(وإذا مشى مشى تقلعًا)** رواه الترمذى فى الشمائل: «إذا مشى تقلع» وفى رواية: «إذا زال قلعًا يمشى تكفيًا ويمشى هونًا» وفى النهاية الأثيرية أن المراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يرفع رجليه من الأرض رفعًا قويًا من غير مقاربة للخطا فإنه مشى النساء والمختالين، وقلعًا: روى بفتح القاف وضمها مصدر بمعنى الفاعل، أى قالعًا رجليه. وفى غريب الأنبارى والتهذيب بفتح القاف وكسر اللام وهو قريب من قوله:

(كأنما ينحط) أى ينحدر **(من صبب)** أى بتثبت من غير عجلة ومبادرة شديدة. وروى فى صبب بفتح الصاد المهملة وفتح أولى الموحدتين وهو الموضع المرتفع، أو ما انحدر منه كسفح الجبل فمن على ظاهرها، وقيل: إنها بمعنى إلى وينحط بمعنى يتدلى، وكذا ينحدر، وفى رواية: «كأنما يهوى من صبوب» بفتح الصاد وضمها مصدرًا أو جمع صبب وهو وصف بغاية السرعة كالنازل من علو.

* * *

(فصل: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول)

معنى الفصاحة فى اللغة كما فى كتاب الصناعتين لأبى هلال الإظهار، تقول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، واللبن إذا انجلت عنه الرغوة وظهر، وتمامها بتمام آلة البيان وهى اللسان. قال: ولتضمن الفصاحة معنى الآلة يوصف بها اللسان فيقال: لسان فصيح، ولا يوصف بها الله سبحانه وتعالى عز وجل، فلا يقال فيه: فصيح وإن وصف بها كلامه. والبلاغة من بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها، فسميت بلاغة لبلوغها النهاية، أو لإبلاغها المعنى لفهم السامع، ومعنى الفصاحة عند أهل المعانى معلوم فى كتبه، وتقدم أنه يوصف بها اللسان والمفرد والكلام والمتكلم، وفى وصف المفرد بها كلام ليس هذا محله، والمراد بالقول هنا جنس اللفظ الموضوع مطلقًا أو تعريفه للاستغراق، أى جمع أقواله بليغه وأضاف الفصاحة للسان، والبلاغة للقول تفننا أو للدلالة على كمال كلامه وآلة نطقه، فإن من العرب من كان كلامه فصيحًا بليغًا مع نقص آلته، كزياد الأعجم فإنه كان لا يقيم الحروف فيقول للحمار همار، ولذا لقب بالأعجم، ويحتمل أن يريد باللسان اللغة.

(فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك) المذكور وهو الفصاحة والبلاغة. **(بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل)** المحل والموضع بمعنى وإن تغاير مفهومهما؛ لأن الأول مكان الحلول، والثانى مكان الوضع، ففى عبارته تفنن فرارًا من التكرار، أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح البشر وأبلغهم، فكنى عن ذلك بجعله فى **أفضل محل**

البلاغة وفى موضع لها لا يجهله أحد، كما فى قوله:

إن الفصاحـــة والسماحة والندى   فى قبـة ضربت على ابن الحشرج

فهو كالإثبات بدليل ومرتبته فى ذلك دون مرتبة الإعجاز، وهو أقرب إليها من كـل بليغ، وقوله: بالمحل خبر كان ومن بيانية على القول بجواز تقدمها، وقيل: تبعيضية والجار والمجرور حال من المحل والموضع، أى كان بالمحلين كائنين بعض ذلك أى بعض مطلق الفصاحة والبلاغة والمرتبة التى له من ذلك، ويؤثر عنه من الكلمات البليغـة مـا لا تصـل إليه القوى البشرية.

(**سلاسة طبع**) وفى نسخة: «مع سلاسة طبع» والسلاسة السهولة، أى كانت سليقته صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاغة تنقاد له بسهولة مـن غـير تكلـف، وسلاسـة وقـع بالنصب على نزع الخافض أو هو مفعول له، ولو رفع بتقدير له سلاسة طبع جاز، ومـن الغريب أن الشارح العرضى بعدما أعربه مفعولا قال: إنه فى جواب سـؤال تقديـره هـل كانت فصاحته سليقة أو بتتبع تراكيب البلغاء وقوانينهم.

(**وبراعة منزع**) البراعة: بفتح الباء والراء المهملة من برع الرجل بضـم الـراء وفتحـها إذا فاق غيره، وكثيرًا ما يستعمل بمعنى الفصاحة، ولذا فسـرها بـها هنـا بعـض الشـراح وليس ببعيد، والمنزع من نزع إلى أهله إذا اشـتاق، وأراد الرحيـل إليـهم، ونـزع القـوس جذبها والدلو استقى بها، فالمنزع إن كـان بفتـح الميـم فاسـم مكـان أو مصـدر ميمـى، وفسروه هنا بالمأخذ وما يرجـع إليـه الرجـل مـن رأيـه وأمـره، والظـاهر أن المـراد أصلـه ومقره، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع بلاغته الجبلية من قوم وجلدة هـم أفصـح الناس، وإن كان بكسرها كما عليه التلمسانى فهو اسم آلـة كـالمفصل وفسـر باللسـان، وأصله السهم يقال: نزعت فى القوس نزعًا وأنزعت بمنزع أى سـهم، وفـى المثـل: عـاد السهم إلى النزعة. أى رجع الحق لأهله.

(**وإيجاز مقطع**) الإيجاز التعبير عن معان كثيرة بلفظ قليل، ويقابله الإطنـاب والمسـاواة كما بينه أهل المعانى، وهو بفتح الميم اسم مكان أو مصدر، أى موجـز فـى محـل القطـع والفصل للأمور، فإنه محل للإيجاز لا كمقام الخطابة فإنه يحمد فيه التطويل، فلـذا اقتصـر عليه، لا لأنه يعلم من البلاغة كما قيل، وجوز فيه كسر الميـم علـى أن المـراد بـه القـول وتفسيره بتمام الكلام لظهوره عنده تكلف.

(**ونصاعة لفظ**) النصاعة الخلوص والوضوح، أى أن لفظه صلى الله تعالى عليه وسـلم خالص من كل بشاعة ولكنه واضح لكل أحد لمخاطبته كل أحد على قدر عقله وبلغته.

(وجزالة قول) بفتح الجيم والزاء المعجمة وهو القوة والإتقان وضدها الركاكة.

(وصحة معان) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع فصاحة ألفاظه ووضوحها، معانيه صحيحة لا فساد فيها لاحتوائها على الأحكام والحكم الفصل.

(وقلة تكلف) لأنه يتكلم عن رؤية وسلاسة طبع عن غير تشدق ورعاية سجع ومشقة، والمراد أنه لا يتكلف، فالقلة هنا بمعنى النفى كما أثبته النحاة وأهل اللغة فاندفع قول بعضهم، ولو قال وعدم تكلف لكان أحسن وأليق.

(أوتى جوامع الكلام) أى آتاه الله قوة ناطقة بحيث ينطق بالكلمات الجامعة للمعانى التى هى بمنزلة الأمثال، فإن من تأمل كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فيه من المعانى مع الوجازة التى تستخرج الطبع الغواص منها جواهر يحار فيها العقول، وقيل: المراد بها القرآن والحديث وفيه نظر.

(وخص ببدائع الحكم) أى خص صلى الله تعالى عليه وسلم بنطقه بكل حكمة بديعة لم يسبق إليها، والحكمة العلم النافع لمن وعاه من الزيغ والضلال. وقال ابن عرفة: الحكمة عند العرب ما تمنع من الجهل ولذا سمى الحاكم حاكمًا لمنعه التعدى.

(وعلم ألسنة العرب) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم لغاتهم، لأن اللسان يطلق على اللغة، وعلم مخفف ماض مبنى للفاعل أو مشدد مبنى للمجهول، أى علمه الله، أو مصدر مجرور معطوف على بدائع الحكم.

(يخاطب كل أمة منها) أى كل قبيلة وجماعة منهم.

(بلسانها) أى لغتها لاختلاف لغاتهم.

(ويحاورها بلغتها) أى يصاحبها ويراجعها بلغتها.

(ويباريها فى منزع بلاغتها) المباراة بالراء المهملة غير مهموز، والمباراة والمجاراة المعاوضة وفعله مثل فعله.

(حتى كان كثير من الصحابة) رضى الله تعالى عنهم مع أنهم فصحاء علماء وهذا غاية لجميع ما قبله، أى لقوة فصاحته قد لا يفهمون كلامه لما فيه من المعانى البديعة التى لم يسمعوا بها، أو لما يليها من تكلمه بجميع الألسنة؛ لأن السامع قد لا يعرف لغة غيره.

(يسألونه فى غير موطن) أى فى مواطن كثيرة.

(عن شرح كلامه وتفسير قوله) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسله الله لجميع الناس علمه جميع اللغات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾

[إبراهيم:٤] وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مرسل للجميع.

(من تأمل حديثه وسيره) جمع سيرة، وروى وسبره بسين مفتوحة مهملة وباء موحدة كما ذكره البرهان، أى تتبعه وفتش عليه، وأصله من سبر الجرح إذا اختبر غوره.

(علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد) قريش: قوم من ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، سموا بذلك لتقرشهم أى تجمعهم بعدما كانوا متفرقين فى غير الحرم فجمعهم مضر أو قصى، أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات والأمتعة أى يجمعونها، أو سموا بالقريش وهو دابة بحرية يخافها دواب الأرض.

والأنصار: جمع ناصر أو نصير، سموا بذلك فى الإسلام لنصرتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم الأوس والخزرج قبيلتان سموا باسم جدهم، كتميم.

والحجاز مكة والمدينة والطائف وما يليها، سمى به لأنه حجز بين تهامة ونجد، أو بين نجد والسراة، أو احتجزت بحرار خمس معروفة.

ونجد بفتح فسكون ما ارتفع من الأرض ويقابله تهامة وهى من أعمال اليمامة كما بين فى معجم البلدان وغيره.

(ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى) بسكون الميم ودال مهملة بينها ألف ونون وياء نسبة لهمدان وهى قبيلة عظيمة باليمن، وأما همدان بهاء وميم مفتوحتين وذال معجمة فبلدة بخراسان بناها همدان بن الفلوح بن سام بن نوح، والمعروف بين العجم إهمال داله فكان هذا تعريب له، وذو المشعار بميم مكسورة ثم شين معجمة ساكنة، وقال التلمسانى: إنه بشين معجمة ومهملة وغين معجمة ومهملة، واقتصر فى القاموس على الثانى وراء مهملة، وفى الروض الأنف أنه أبو ثور مالك بن نمط وهو من بنى خارف أو من أيام وكلاهما من همدان، وهو صحابى وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرجعه من تبوك، وخارف بخاء معجمة وراء مهملة وفاء، ويام بمثناة تحتية ويقال أيام بهمزة وهو الذى ذكره المصنف، وهو همذانى خارفى أرحبى، ووهم ابن إسحاق فى قوله فى سيرته: مالك بن نمطو أبو ثور، ولك أن تقول: إنه من عطف الكنية على الاسم ولا بعد فيه، والذى صححه الصاغانى فى كتاب «الذيل والصلة» أن المشعار بعين مهملة وأنه إنما قيل له ذى المشعار؛ لأن المشعار موضع باليمن ينسب إليه وسيأتى ما قاله للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما قدم.

(وطهفة النهدى) بكسر الطاء المهملة وسكون الهاء وبالفاء تليها هاء تأنيث وهو ابن

زهير، ويقال ابن أبى زهير، وسماه الذهبى فى تجريده طهية بالمثناة التحتية بدل الفاء. وقال ابن الجوزى: إنه طخفة بالخاء المعجمة، وقيل: طغنة بالغين المعجمة، وقيل: طقفة بقاف وفاء، وقيل: قيس بن طحفة، وقيل: اسمه يعيش واسم أبيه أبو ذر. وقال التلمسانى: إنه فى بعض الشروح بظاء مشالة مفتوحة ويقال بكسرها، والنهدى بالنون والهاء والدال المهملة منسوب لهند وهو اسم قبيلة باليمن، وهو خطيبها ووافدها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سنة تسع لما قدمت عليه وفود العرب، ولما قدم قام وقال، أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس ترمى بنا العيس نستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستجيل الرهام، ونستحيل الجهام من أرض غائلة المنطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن وييس الجعثن، وسقط الأملوج ومات العسلوج وهلك الهدى، ومات الودى برئنا يا رسول الله من العنن والوثن، وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم أغفال ما تبض ببلال ووقير قليل الرسل وكثير الرسل، أصابتنا سنة حمراء موزلة ليس لها علل ولا نهل. فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فى محضها، ومخضها، ومذقها، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له فى المال والولد» وهذا ما أشار إليه المصنف رحمه الله كما يأتى.

ونقلت من خط العلائى بسنده إلى عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال: قدم وفد بنى زيد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام طهية بنى أبى زهير النهدى بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة، على أكوار الميس، ترمى بنا العيس، ونستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستحيل الجهام، من أرض غائلة المنطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن، وييس الجعثن، وسقط الأملوج من البكارة، ومات العسلوج، وهلك الهدى، ومات الودى، برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن، وما يحدث الزمن، لنا دعوة المسلمين وشريعة الإسلام ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم همل إغفال لا تبض ببلال، ووقير كثير الرسل قليل الرسل، أصابتنا سنة حمراء موزالة ليس لها علل ولا نهل، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها، ومذقها ومزقها، واحبس راعيتها على الدثر ويانع الثمر، وبارك لهم فى الولد، ومن أقام الصلاة كان مؤمنا، ومن أدى الزكاة لم يكن غافلا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مسلما، لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك ما لم يكن عهد ولا موعد، ولا تثاقل عن الصلاة ولا تلطط فى الزكاة، ولا تلحد فى الحياة، من أقر بالإسلام فله ما فى الكتاب، ومن أقر بالجزية فعليه

الزكاة، وله من رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم الوفاء بالعهد فى الذمة». وكتب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم مع طهية بن أبى زهير كتابًا فيه: بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بنى نهد بن زيد: السلام على من اتبع الهدى وآمن باللّه ورسوله، عليكم بالوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب والضبيس، لا يؤكل كلكم ولا يقطع سرحكم، ولا يحبس دركم ولا يعضد طلحكم، ما لم تضمروا الرماق وتأكلوا الرباق»[1]. انتهى.

وتفسيره: الميس: الرحال. والعيس: الإبل. والصبير: السحاب المتفرق. والرهام: القداح. والجهام: السحاب بلا مطر أمطر ببلد آخر. غائلة المنطا بعيدة المسافة. ييس المدهن: غدير الماء. والجعثن: عروق الشجر. البكارة: البكر أدركه الهزال بعد السمن. العسلوج: عروق الشجر تتشعب ورقه. والودى: العسيل. والعنن: الخلاف. وما تبض ببلال: أى ليس لها لبن. ووقير قليل الرسل: يعنى الصرمة من الغنم ليس لها أولاد. كثير الرسل: يقول سديد العرف فى طلب المرعى. وقوله: فى مخضها وفرقها ومذقها كلها من اللبن. والدثر: الخصب. ويانع الثمر: نضيجه. والثمد: قليل الماء يخرج من الأرض. والضبيس: الصعب. والرماق: النفاق. والرباق: الرعاء. وذو العنان: الفرس يركب ويزلل بالعنان لأنه لا يركب فيلجم. والرباق: حبل يربط. قلت غورى تهامة: ما انخفض منها وغور كل شىء عمقه. وقيل: تهامة ما بين ذى عرق على مرحلتين من وراء مكة، وقيل: إنها إلى اليمن أقرب: والميس: شجر صلب تتخذ منه الرحال وترمى تقصد. والعيس: إبل بيض إلى صفرة. والصبير: سحاب أبيض متكاثف كأن بعضه صبر على بعض أى حبس. يستحلبه: يستقطره. والخبير: النبات والعشب شبه بخبير الإبل وهو وبرها، واستخلابه احتشاشه بالمخلب وهو المنجل. والبرير: ثمر الأراك إذا اسود. ويستعضده: يحتشه من عضده إذا قطعه. والرهام: جمع رهم بالكسر وهو مطر وفسر بالقداح وهو غلط. والاستجالة: الاستمطار من الجولان. والجهام: سحاب صب ماؤه. ونستحيله روى بحاء مهملة أى ينظر إليه لجامعه فى منظره. وغائلة المنطا: كذا سمعناه. والذى رواه ابن الأثير النطاء بكسر النون من غير ميم وغائلة مهلكة، والمنطا: البعيدة، والمدهن: نقرة فى الجبل فيها ماء المطر. والبكارة: جمع بكر الإبل. والأملوج قيل: ورق شجر يشبه الطرفاء. وقيل: نبت. وقيل: نوى المقل. وقال الزمخشرى: إنه استعارة لما ذهب من سمن الإبل الراعية. والعسلوج: غصن طرى قريب عهد بالطلوع. والهدى: ما يقدم للنحر أراد به مطلق الإبل. والعنن: الاعتراض من عن له كذا. وطمى البحر: ارتفع

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٧٩/١).

موجه. وتعار: بكسر التاء وعين مهملة مخففة اسم جبل. وهمل: إبل لا راعى له. والإغفال ما لا سمة له. وقيل: هما ما لا لبن له. والوقير: قطيع الغنم. والمحض: بمهملة الخالص وبمعجمة اللبن الممخوض ليخرج زبده. والمذق: لبن مزج بالماء والفرق بكسر فسكون إناء يحلب فيه. وقيل: بفتحتين مكيال والأول أقرب هنا. وودائع الشرك: العهود والمواثيق بينهم فى الجاهلية. وقيل: ما استودعوه من أموال الكفار الذين لم يسلموا فأحلها لهم، كذا بخط العلائى.

(**وقطن بن حارثة العليمى**) قطن: بفتح القاف والطاء المهملة ونون، والعليمى بعين مهملة مصغر، وحارثة بحاء وراء مهملتين ومثلثة وهو منسوب لبنى عليم بن جناب ابن كلب فهو كلبى، وقيل: عليم بن جناب هبل من بنى عذرة من قبائل كلب، وهوصحابى قدم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وافدًا لقومه، فكتب له كتابًا بعد ما كلمه بكلام فصيح غريب، وصورة الكتاب: «هذا ما كتب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم لعمائر كلب وأحلافها، ومن طارة الإسلام من غيرهم مع قطن بن حارثة العليمى بإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها فى شدة عقدها، ووفاء عقدها بمحضر من المسلمين سعد بن عبادة، وعبد اللّه بن أنيس، ودحية بن خليفة الكلبى عليهم فى الهمولة الراعية البساط الظفار فى كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والهمولة البائرة لهم لاغية، وفى الشوى الورى مسنة حامل أو حائل، وفيم سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها، ومما أخرجت أرضها، وفى الغدى شطره بقيمة الأمين لا يزاد عليهم ولا يفرق، شهد اللّه على ذلك ورسوله» وكتبه ثابت بن قيس بن شماس.

(**والأشعث بن قيس**) ابن معدى كرب بن معاوية بن جبلة بن معدى كرب أبو محمد، وهو من ولد آكل المرار الكندى الشريف الصحابى، توفى بالكوفة بعد موت علىّ كرم اللّه وجهه بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن رضى الله عنه، وكان شريفًا مطاعًا فى قومه، وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سنة عشر فى ستين راكبًا فأسلموا ورجعوا إلى اليمن. قال فى الاستيعاب: ثم ارتد بعد وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم رجع إلى الإسلام بعد ما أتى به أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه أسيرًا، فجعل يعدد عليه أفعاله فلم ينكرها، وهو فى الحديث حتى أتم مقالته فقال له الأشعث: استبقنى وزوجنى أختك فرأى أبو بكر رضى اللّه عنه أنه الرأى ففعل وزوجه أخته أم فروة، وروى أنه لما خرج من عنده استل سيفه فلم يلق ذات أربع من الأنعام إلا عقرها. فقيل لأبى بكر: إنه ارتد ثانية، فقال: انظروا فى شأنه فرأوا الناس اجتمعوا عليه وهو يقول: يا قوم هذه وليمتى ولو كنت بأرضى لأولمت كما يو لم مثلى فأعدوا علىَّ وخذوا

أثمان ما عقرت لكم. وفى ذلك يقول ابن قيس الخزرجى:

لقد أولم الكندى يوم ملاكه وليمة حمال لثقل الجرائم
فقل للفتى الكندى أما لقيته ذهبت بأسنى مجد أولاد آدم

ولقب بالأشعث لأنه كان رأسه أشعث دائما، وقد أخرج للأشعث أصحاب الكتب الستة وأحمد فى مسنده، وصرحوا بأنه صحابى بناء على أن الردة لا تبطل الصحبة، وإن أبطلت ثوابها إذا رجع للإسلام قبل موته وهو الأصح، وبه صرح الشافعى فى الأم، ونقل عن أبى حنيفة، وقيل: إنها تحبطها مطلقًا، ولم يذكر المصنف رحمه اللّه كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معه ولا كلامه حين وفد عليه، وهو كما فى تاريخ ابن عساكر، ونقله الذهبى ومن خطه نقلت عن هشام بن الكلبى: «أن الأشعث وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سبعين رجلا من كندة، فقال له عليه الصلاة والسلام: هل لك من ولد؟ فقال: غلام ولد مخرجى إليك، ولوددت أن يتبع القوم مكانه، وروى: لوددت أن لكم به قصعة من خبز ولحم. فقال له رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تقولن ذا فإن فيهم أجرًا إذا قبضوا وإنهم لمجبنة ومخزنة، وأنهم لثمرة القلوب، وقرة العين»(١). انتهى. وهذامن بليغ الكلام، ومن الحديث أخذ ابن الهيارمة قوله فى الصادح والباغم:

لا خير فى الأولاد والأهل والسفاد
وليس فيهم فائدة إلا ظنون فاسدة
مجبنة ومبخلة مجدلة ومقتلة
لولاهم ما ذلا ذو أدب وقلا

(ووائل بن حجر الكندى) نسبة لكندة بكسر الكاف وسكون النون ودال مهملة وهاء، وحجر بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وراء مهملة، ووائل بواو وألف يليها همزة لا ياء مثناة من أسفل كما فى حواشى التلمسانى وغيره، ويقال له: أبو هنيدة، ويقال: أبو هنيد بغير هاء ابن ربيعة بن نعم الحضرمى كما قاله ابن عبد البر، وفى شرح التجانى أنه ابن حجر الكندى بن ربيعة بن وائل بن نعم الحضرمى، وما فى الشفاء من أنه وائل بن حجر الكندى غلط بغير شبهة، والصواب ما تقدم، ولعل الكندى كان وصفًا للأشعث بن قيس مقدمًا على قوله وائل بن حجر، فأخره الناسخ سهوًا أو جعله وصفًا لوائل، وفيه خلاف ذكره ابن الجزرى فى كتاب الجمال، فقال: وائل بن حجر

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٠٧/١).

ابن سعد بن مسروق أبو هنيدة الحضرمى، وأبو هنيد الكندى الصحابى، ووافقه ابن عساكر فقال: وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل بن صمعج، فيمكن أن يكون كنديا عند المصنف رحمه اللّه تعالى فليس وصفه به غلطا فيكون كنديًا حضرميًا، وهو قيل من أقيال حضرموت وهو لقب ملك من ملوكهم، فدعوى أنه غلط قال فى العباب: كندة أبو حى من اليمن وهو لقب له واسمه ثور بن عنبس بن عدى، ولقب به لأنه كند نعمة أبيه ولحق بأخواله، فقال له أبوه: كندت نعمتى، ولما وفد على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمًا بشر به أصحابه قبل قدومه بثلاثة أيام، وقال لهم: «يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت راغبًا فى اللّه ورسوله طائعًا». وهو بقية من أبناء الملوك، فلما دخل عليه رحب به رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم وأدناه منه وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وقال: «اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده»[1]. وفى التهذيب للأزهرى عن وائل بن حجر أنه قال: «كتب لى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم «لاجلب ولا جنب ولا شعار ولا وراط، ومن أجبى فقد أربا»[2]، وفسر من أجبى بمن غبن وهو حسن. وعن أبى عبيد: الإجباء: الحرث قبل أن يبدو صلاحه. انتهى. وله قصة مع معاوية رضى اللّه تعالى عنه لما أرسله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معه، وتوفى فى زمن معاوية سنة تسع وأربعين فى ذى الحجة، وسبب إسلامه كما قاله ابن ظفر فى «كتاب البشر» أنه كان له صنم من عقيق يعبده ويسجد له، فبينما هو نائم عنده فى الظهيرة سمع صوتًا منكرًا هاله، فأتاه وسجد له فسمع هاتفا يقول:

واعجبا من وائل بن حجر ... يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا ترجى من نحيت صخر ... ليس بذى عرف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا ذى ضر ... لو كان ذا حجر أطاع أمرى

فرفع رأسه وقال: بماذا تأمرنى؟ فقال:

ارحل إلى يثرب ذات النخل ... وسر إليها سير مستقل
قبل تقضى العمر المولى ... فدن بدين الصائم المصلى
محمد المبعوث خير الرسل

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٧٩/٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٩١، ١٥٩٢)، والترمذى (١١٢٣)، والنسائى (١١١/٦، ٢٢٧)، والطبرانى (١٤٨/١٨، ١٧٢)، والدارقطنى (٣٠٣/٤).

ثم خر الصنم، فقام إليه وجعله رفاتا، ثم سار حتى أتى المدينة ودخل المسجد، فلما رآه رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه وبسط له رداءه وأجلسه معه، ثم صعد المنبر وقال: «يا أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة راغبًا فى الإسلام» فقال: يا رسول اللّه بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم فتركته واخترت دين اللّه، فقال: «صدقت، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده»[1]. ثم إنه طلب من رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم مكاتيب ثلاثة بإقرازه على أرضه وملكه، فأعطاه ذلك. وقد بسط ذلك ابن حديدة فى كتابه الذى ألفه فى كتاب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم ومكاتيبه.

(وغيرهم) أى غير من ذكر من العرب **(من أقيال حضرموت وملوك اليمن)** الأقيال: جمع قيل بفتح القاف وإسكان المثناة التحتية واللام، وهو الملك من ملوك حمير واليمن، وقيل: الملك مطلقا، وقيل: من دون الملك الأعظم كالوزير.

وفى النهاية الأثيرية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب لوائل بن حجر: «إلى الأقوال العباهلة» وفى رواية «الأقيال» فقيل: إنه من القيالة وهى الأمارة، وقيل: من القول لنفوذ قوله وأمره، فأصله على هذا، قيل: بتشديد الياء أعل أعلال ميت، ولولاه لم يكن لقلب الواو ياء وجه وأقوال على الأصل، وأقيال على لفظ قيل كما قيل: ريح وأرياح والقياس أرواح، لكنه لم يرجع لأصله فرقا بينه وبين جمع روح. والعباهلة هم الذين قر ملكهم وبقى متروكًا على ما كان عليه من عبهات الإبل إذا تركتها ترعى متى شاءت واحدة عبهل، فالتاء لتأكيد الجمعية كقشعم وقشاعمة، أوجمع عبهول وأصله عباهيل فحذفت الياء وعوض منها التاء كما فى فرازنة وفرازين، وفى تثقيف اللسان: العباهلة بالياء الموحدة هم الذين لا يد عليهم لأحد، وبالمثناة التحتية الشيال، وكلاهما مدح كما قاله التلمسانى. وحضرموت بفتح الحاء المهملة وإسكان الضاد المعجمة وفتح الميم، وقال صاحب المطالع: إنه بضم الميم وجعله وجهًا جائزًا فيه، وهو علم مركب تركيبًا مزجيًا غير مختوم بويه، وفى مثله ثلاثة أوجه؛ فتح رائه وإعرابه إعراب ما لا ينصرف للعلمية والتركيب، وإجراء الأول على حسب العوامل، وإضافته للثانى وبناؤهما كخمسة عشر. وقال النووى فى تهذيبه: حضرموت اسم بلدة باليمن واسم قبيلة، واليمن الأقاليم المعروف وينسب إليه يمنى ويمان بالتخفيف، وبالتشديد وهو شاذ، وتسمى به لأنه عن يمين الكعبة ويجمع يمنى على يمنيين ويمانيون بالتشديد.

(وانظر فى كتابه) أى اعرفه وقف عليه بأى طريق كان، من استعمال المقيد فى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الصغير (٣/١٤).

المطلق، أى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كتبه (**إلى همدان**) بسكون الميم والدال المهملة كما مر كتبه لما وفد غلبه ذو المشعار الهمدانى، فهذا رجوع إلى بيان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم مع غير أهل الحجاز، وتقدم أن همدان قبيلة من بطونها خارف ويام بالتحتية، ويقال: أيام ولذا ينسب إليه أهل الحديث أيامى، وقال ابن دريد، إن همدان اسم لأب القبيلة. وقيل: اسمه أو سلة وأنه أخبر بما غمه فقال: هم دان فلقب به، وليس هذا مما يلتفت انتهى كلامه فى الجمهرة.

ولم يذكر فيه مادة هـ م ذ بالإعجام؛ لأنه غير عربى عنده وتقدم الكلام عليه، وقصة الكتاب: «أن ذا المشعار قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما لاقاه بتبوك: يارسول الله نصية من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلوص نواج متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم فى الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام وشاك، أهل السود والتود، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهة الأنصاب، عهدهم لا ينقض ما أقام لعلع وما جرى العصفور بصلع. فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمخلاف خارف، وأهل جناب الهضب، وخفاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيها، لهم بذلك عهد من الله ورسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار» وروى: «هذا كتاب من محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمخلاف خارف ويام، عهدهم لا ينقض عن سنة ماخل وأهل جناب الهضم وخفاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيها، لنا من دفئهم وصرامهم ما أسلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب، والناب، والفصيل، والفارض، والداجن، والكبش الحورى، وعليهم فيها الصالغ والقارح» فقال فى ذلك مالك:

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجا	ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
وهن بنا خوص طلائح تعتلى	بركبانها فى لاحب متمدد
على كل فتلاء الذراعين جسره	تمر بنا مر الهجف الخفيدد
حلفت برب الراقصات إلى منى	صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق	رسول إلىّ من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها	أشد على أعدائه من محمد

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه   وأمضى بحد المشرفى المهند

وإلى بعض من هذا أشار بقوله: **(إن لكم فراعها)** بالفاء المكسورة وراء وعين مهملتين بينهما ألف، وهى ما ارتفع من الأرض من مرتفعات البقاع، أو أعالى الجبال، جمع فرعة بفتح فسكون، يعنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقطعهم ذلك.

(ووهاطها): بكسر الواو وبالهاء والطاء المهملة جمع وهطة كفرعة، وهى الوهدة وما سفل وانخفض، والضمير للأرض المخصوصة. والوهاط والوهاد بمعنى، ويحتمل أن أحدهما مبدل من الآخر.

(وعزازها) بفتح العين المهملة وزائين معجمتين مخففتين وهو ما اشتد وصلب من الأرض مما لا ملك لأحد عليه، فيوطأ ويحرث فيصير رخوًا، ومنه العز لصلابة جانبه.

(تأكلون علافها) بكسر العين المهملة واللام والفاء، قال فى النهاية: جمع علف وهو ما تأكله الماشية مثل حمل وحمال، وفى قوله مثل حمل لطف، إلا أنه إذا كان علف الماشية فقوله تأكلون بالخطاب لهؤلاء القوم غير مناسب هنا، إلا بتجوز بأن يقدر تأكل دوابكم أو يجعل تأكلون بمعنى تملكون، ولعل للعلاف معنى غير هذا فى لغة أهل اليمن والشراح لم ينبهوا على هذا.

(وترعون عفاءها) بفتح العين والفاء والمد، وفسروه بما ليس لأحد فيه ملك ولا أثر، من عفا الشىء إذا اندرس، أو من عفا يعفو إذا خلص، ومنه الحديث: «أقطعهم ما كان عفا» وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال التجانى: روى عفاء بكسر العين جمع عفو كجبل وجبال وهو بمعنى الأول، وقوله: ترعون أيضًا ما مر، وجوابه أن الرعى مخصوص بأكل البهائم، ولذا قال بعض الجهلة لبعض الأدباء: أنت عندى كالأب بتشديد الباء، قال له: فلذا تأكلنى. قال الدمامينى فى كتابه «نزول الغيث»: لو قال فلذا ترعانى كان ألطف لما فيه من التورية؛ لاحتمال أن يكون من الرعى أو الرعاية. كما فى الأب من احتمال معنى الوالد على لغة فيه، ومعنى اللبن لأنه عنى أنه لجهله كالأنعام.

(لنا من دفئهم وصرامهم) الدفء بكسر الدال المهملة وسكون الفاء فالهمزة وفسروه هنا بالإبل، والغنم سميت بذلك لأنها يتخذ من أصوافها وأوبارها أثاث يتدفأ به ويجعل منها البيوت من الشعر ليتدفأ بها، وقال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]، أى ما يتدفأ به من الصوف والوبر، وهو فى الحديث بمعنى الأنعام التى يؤخذ منها ذلك، والصرام بكسر الصاد المهملة جمع صرمة بكسر فسكون وهى القطعة

من النخل، ويجوز أن يكون الثمر نفسه لأنه يصرم من النخل، أى يجذ ويقطع، فسمى بالمصدر، ويجوز فتح الصاد؛ لأنه يقال: صرمت النخل صرامًا، وما قيل من أنه لا يجوز أن يكون جمع صرمة كما توهم؛ لأنها القطعة من الإبل من الثلاثين والقطعة من السحاب، وهو لا يصح ساقط لوجهين.

(ما سلموا بالميثاق والأمانة) ما موصولة خبرها مقدم، المراد العهد الذى أخذ عليهم أو الإسلام، والمراد بما سلموا بتشديد اللام ما يعطوه من الزكاة المفروضة، والأمانة أى كونهم مأمونون على أموالهم؛ لأن رب المال فى الزكاة يصدق بقوله، وقال التلمسانى: أراد بها الطاعة أو الغناء أو العبادة وهو بعيد، أى لا يؤخذ منهم شىء قهر إبل عن طيب نفس وغنى من غير تجاوز عما حده اللّه، ولم يبين من يسلمون فيجوز أنهم يسلمون بأنفسهم أو للسعاة فلا يتكلف له، ويقال: إن المراد الأول؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم منهم الرغبة فى رضى اللّه ورسوله، وأنهم يؤدون ما يجب عليهم بلا سعاة، وإنما يجب بعث السعاة إذا لم يتيسر وصول الصدقة بدونهم.

(ولهم من الصدقة الثلب) المراد بالصدقة الزكاة، والثلب: بمثلثة مكسورة ولام ساكنة وموحدة معناه الجمل المسن الهرم الذى سقطت أسنانه، والأنثى ثلبة فهو مخصوص بالذكور كما قاله الهروى.

(والناب) مثل الثلب معنى، إلا أنه مخصوص بالنوق الإناث فلا يقال للجمل ناب وإن أسن، وإنما سميت نابًا لأنها إذا هرمت طال نابها.

(والفصيل) ولد الناقة الصغير الذى فصل عن رضاع أمه، والفصيلة أنثاه، والجمع فصال وفصلان، وقيل: هو من أولاد البقر والمعروف فى اللغة الأول.

(والفارض الداجن) الفارض البقرة الهرمة المسنة، قال اللّه تعالى: ﴿فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨] وقال الراغب: الفارض المسن من البقر. قيل: سمى لكونه فارضًا للأرض أى قاطعًا، أو فارضا لما يحمل من الأعمال الشاقة من الفرض وهو القطع. وقيل: بل لأن فريضة البقر تبيع ومسنة، فالتبيع فى حال دون الحال والمسنة يجوز بذلها فى كل حال فسميت المسنة فارضًا، فعلى هذا يكون اسما إسلاميا انتهى.

والداجن: الشاة التى تكون فى البيت لا ترسل للمرعى، وكذا الراجن بالراء كما فى الصحاح، وعلى هذا فالداجن غير الفارض فينبغى عطفها كغيرها، وهو فى غالب النسخ بغير عطف اللهم إلا أن يقال: ما ذكر معناه الحقيقى، وهى هنا صفة مجردة عن كونها شاة وجعلت وصفا للفارض. قلت: ضمير لهم السابق لأصحاب المال ومن تؤخذ

منهم الصدقة، والمعنى أن ما ذكر يترك لهم ولا يؤخذ منهم لمقابلته لقوله لنا: والذى يؤخذ فى الصدقة من أوسط مالهم لا أعلاه ولا أدناه، كالصغير جدًا والمسن الهرم. فالفارض لما كان بمعنى المسن الذى يؤخذ فى الصدقة، والمراد خلافه هنا، وصفه بقوله الداجن بمعنى الذى يربض حول المنازل فى شدة الهرم، فلا يسرح للمرعى ولا يصلح للعمل والحمل، وهذا هو المراد من غير حاجة لتكلف ودعوى تجريد. وقيل: الفارض المسن من الإبل، وفى بعض النسخ والداجن بالعطف ومعناها شاة صغيرة تربى فى البيت كما وقع فى حديث الإفك.

(والكبش الحورى) الكبش الذكر الكبير من الغنم الذى يقودها غالبًا، ولذا أطلق على الرئيس فى المدح بخلاف التيس، والحورى اختلفوا فيه، فقيل: إنه بحاء مهملة وواو مفتوحتين وراء مهملة يليها ياء نسبة. وفى النهاية الأثيرية: أنه منسوب إلى الحورة وهى جلود تتخذ من الضأن. وقيل: هو ما دبغ من الجلود بغير القرظ، وهو أحد ما جاء على أصله و لم يعل إعلال ناب انتهى. وقال ابن رسلان: الحورى بفتح الحاء وسكون الواو نسبة للحور وهى الجلود المذكورة، والذى فى الصحاح أن الحورة وجمعها الحور بفتح الواو فيهما واقتصر أرباب الحواشى كالشمنى والحلبى والقسطلانى على ما فى النهاية، ونقل عن الكاشغرى فى كتابه «مجمع الغرائب ومنبع العجائب»: أن الحورى المكوى نسبة إلى الحوراء، وهى كية مدورة يقال حوره إذا كواه، وأنه على هذا بسكون الواو؛ لأن الحور بالقصر والمد للكية ساكنة الواو. وقال التجانى: الحورى بفتح الواو وضرب من الكباش حمر الجلود، وروى الحوارى بزيادة الألف ومعناه الأبيض لا الأحمر، ولذا قيل: الحواريون لأنصار عيسى، عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب، و لذا فسر بعض أرباب الحواشى الحورى بغير ألف بالأبيض الجيد لما ذكر، أو لأن موضع الكية يبيض.

أقول: الحاصل أن فى لفظ الحديث وكلام المصنف ثلاثة أوجه، **أشهرها:** الحورى بفتح الواو. **والثانى:** الحورى بسكونها. **الثالث:** الحوارى بألف بعد الواو. وكلها بمعنى، والمراد الكبير من الغنم وهو لا يؤخذ فى الصدقة لكونه أنفسها، ولأنه مما يحتاج إليه للضراب، فلا يؤخذ منه إلا إذا أعطاه، كما لا يؤخذ ما ذكر من الهرم وكل ناقص كما فصل فى كتاب الزكاة، وعلى الأول لم يعل مع تحرك الواو وانفتاح ما قبلها إما على خلاف القياس كما هو ظاهر كلام النهاية السابق، أو تبعًا لفعله وهو حور كفرح، أو لئلا يلتبس الواوى باليائى الذى من مادة الحيرة. وقول التجانى: إنه من الكباش إن لم يقله أحد من أهل اللغة ففيه نظر، لأنه كان ينبغى له أن يقول الكباش التى تتخذ منها

الجلود الحمر، ولبعضهم هنا كلام طويل بلا طائل.

(وعليهم فيها الصالغ والقارح) الصالغ: بصاد مهملة ولام وغين معجمة، ويقال سالغ، فإن كل صاد تبدل سينا مع الغين كما فصل فى محله، وهو من البقر والغنم ما كمل وانتهى سنه فى السنة السادسة. وقيل: هو من ذوات الأظلاف كلما أكمل ست سنين ودخل فى السابعة. لأن ولد البقر فى أول سنة عجل، ثم تبيع، ثم جذع، ثم ثنى، ثم رباع، ثم سديس، ثم صالغ وسالغ سنة وسنتين. وما وقع هنا فى بعض النسخ ضالع بضاد معجمة وعين مهملة تحريف، ونقله عن النهاية وهم.

والقارح: بقاف وراء وحاء مهملتين بعد الألف وهو الفرس الذى دخل فى الخامسة. وفى القاموس: القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الإبل. وقال التجانى: القارح من ذوات الحافر ما أكمل خمس سنين، وهو فى السنة الأولى حولى بسكون الواو، ثم جذع، ثم ثنى، ثم رباع، ثم قارح. وفى هذا المكتوب زيادة على ما قاله المصنف رحمه اللّه تعالى، وروايات أخر منها ما قدمناه، ومعنى قوله: وعليهم إلى آخره، أنه إذا وجد عندهم هذا النوع يؤخذ منه ما ليس هرما ولا معيبا كما مر، وهذا مبنى على أن الخيل تجب فيها الزكاة إذا كانت سائمة وذكورا وإناثا لا صرف ذكور، وإن شاء أعطى عن كل فرس دينارًا أو قومها وأعطى زكاتها إذا حال الحول وتم النصاب. والشافعى يحمله على ما كان معدًا للتجارة وأدلتها مبسوطة فى كتب الفقه.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لنهد) نهد قبيلة من اليمن تقدم الكلام عليها، وهذا إشارة لما قاله عليه الصلاة والسلام لطهفة النهدى السابق ذكره، فاللام صلة القول بتنزيل قوله لبعضهم منزلة قوله لكلهم، أو لتنزيل كتابه منزلة خطابه، أو هى للتعليل، وقيل: إنه هنا متعين لأن هذا ليس مقولا لهم، والمخاطب بهذا الكلام الآتى هو اللّه تعالى عز وجل لما سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستسقى لهم فدعا لهم وقال: **(اللهم)** أى يا أللّه **(بارك لهم)** أى اجعل البركة وزيادة الرزق وثباته مقسومًا وواصلاً لهم. قال الإمام الراغب رحمه اللّه تعالى: أصل البرك صدر البعير وإن استعمل فى غيره، وبرك البعير ألقى بركة واعتبر فيه معنى اللزوم، ومنه بروكا الحرب لمكان يلزمه الأبطال، والبركة لمحبس الماء، والبركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء، قال اللّه تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف:٩٦] لثبوت خيرها ثبوت الماء فى البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير، ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس على وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة مبارك وفيه بركة، وإلى هذه

الزيادة أشير بما روى: «لا ينقص مال من صدقة»[1]. لا إلى النقصان المحسوس، كما قال بعض الخاسرين حيث قيل له ذلك بينى وبينك الميزان، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

(تنبيه) على ما يفيض علينا بواسطة هذه البروج، والنيرات المذكورة فى هذه الآية وكل موضع ذكر فيه تبارك، فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر تبارك، وهو تحقيق لا مزيد عليه، ومنه أخذ صاحب الكشاف ما قاله فى أول سورة الملك، وقد تقدم أن طهفة وفد من قومه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهم فى قحط شديد أصابهم، فشكى له ما مسهم فى كلام ذكرناه أولا فدعا لهم وقال: «اللهم بارك لهم».

(فى محضها ومخضها) متعلق ببارك، والمحض بفتح الميم وسكون الحاء المهملة والضاد المعجمة والمخض مثله، إلا أن خاءه معجمة، ومعنى الأول الخالص كما مر، ومادته كلها تدل على الخلوص والصفاء، ومنه: «محض الإيمان» فى الحديث، ومحضت له الود وعزتى محض ونحوه، والمخض أصله تحريك السقاء الذى فيه اللبن حتى يتميز من زبده فيؤخذ منه، ويسمى اللبن الذى أخذ زبده مخيضا، وهو صفة لا مصدر سمى به كما توهم.

(ومذقها) بفتح الميم وسكون الذال المعجمة والقاف، وأصل معناه الخلط والمزج ثم استعمل فى اللبن المخلوط بالماء قال:

جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

والضمير راجع لأرضهم أو لأنعامهم المذكورة فى كلام طهفة السابق الذى شكا فيه محل بلادهم، وهلاك دوابهم، فدعا لهم صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله: «اللهم بارك لهم فى ألبانهم». بأقسامها ما كان خالصا لم يتميز زبده، وما ميز منه زبده، وما مزج بالماء، ومجموعه كناية عن خصب أرضهم وسعتها، فإن الألبان إنما تكثر بنبات المرعى، وهو إنما يكون بالمطر، فكأنه قال: اللهم اسق بلادهم واجعلها مخصبة مليئة، كما يدل عليه قوله: **(وابعث راعيها فى الدثر)** ابعث بمعنى ارسل، يقال: بعث اللّه رسوله للناس أى أرسله، والراعى الذى يرعى الإبل وغيرها. والدثر: بفتح الدال المهملة وسكون المثلثة والراء المهملة، وهو الإبل الكثيرة ويقع على الواحد فما فوقه، ويجوز فتح ثائه. وقيل: الدثر الخصب وكثرة النبات؛ لأنه من الدثار وهو الغطاء لأنها تغطى وجه الأرض.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١٩٣/١)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠٥/٣).

(وافجر له الثمد) افجر: بضم الجيم من فجر يفجر كقعد يقعد من تفجير الماء، وهو جعله جاريًا معينًا، والثمد: بفتح المثلثة وفتح الميم وقد جوز تسكينها وآخره دال مهملة وهو الماء القليل، وافجر له مجاز عن معانى التكثير للزومه له غالبًا، فالمراد: كثر ما قل من مائه، وضمير له للراعى، وإذا كثر له كثر لغيره.

(وبارك لهم فى المال والولد) معطوف على ما قبله أو على بارك الأول، والمال: كل ما يتولد أو يملك، وهو فى كلام العرب فى الأكثر يختص بالإبل، ويجوز إرادة كل منهما هنا.

(من أقام الصلاة كان مسلمًا) أى مسلمًا كاملاً كقوله: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»(١). والمراد أنه يحكم بإسلامه بحسب الظاهر، أو المراد الحث على إقامة الصلاة، والمراد بإقامة الصلاة المداومة والمحافظة عليها كما حقق فى الكشاف وشروحه. وقيل: إنه على ظاهره؛ لأن من تركها مستحلاً لتركها كفرا، ولأن تاركها كافر فى أحد قولى أحمد، أو هو فى حكم الكافر لأنه يقتل كما سيأتى بيانه.

(من آتى الزكاة) بمد آتى أى أعطاها وأداها **(كان محسنا)** أى منعما متفضلا على الفقراء، وآتيا بأمر حسن مطلوب فى الدين.

(ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا) أى: من أتى بكلمة التوحيد وأعلن بها فهو مخلص فى إيمانه، لأن الظاهر مطابقة قوله لما فى قلبه. وهذا من باب حمل أحوال المؤمن على الصلاح، والمراد بالإخلاص عدم النفاق، وقيل: المراد من قال كلمة الشهادة وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو كما يقال: قرأت حم والكتاب المبين أى السورة بتمامها، وعليه يحمل نظائره الواردة فى الأحاديث.

(لكم يا بنى نهد ودائع الشرك) لكم خبر مقدم للاهتمام لا للحصر القلبى بناء على ما سيأتى من تفسيره، وجملة النداء معترضة لبيان المخاطب. وودائع الشرك: المراد بها كما فى النهاية العهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار فى المهادنة، يقال: توادع الفريقان إذا أعطى كل واحد منهم الآخر عهدًا أن لا يغزوه، ويسمى ذلك العهد وديعا بغير هاء، فيقال: أعطيته وديعا أى عهدًا. والظاهر: أن المراد عهودهم التى وقعت بينهم بعد الحروب بعدم المؤاخذة بما قتلوا إذا تحاربوا وقتل بعضهم

---

(١) أخرجه البخارى (١/٩، ٨/١٢٧)، ومسلم (٦٥/٤١)، وأبو داود (٢٤٨١)، والترمذى (٢٦٢٧)، والنسائى (٨/١٠٥)، وأحمد (٢/١٦٣، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٣، ٢١٢)، والدارمى (٢/٣٠٠)، والبيهقى (١٠/١٨٧)، والحاكم (١/١٠).

بعضا، وما أراقوا من الدماء هدر كما فى الحديث الآخر: «كل دم فى الجاهلية تحت قدمى هذه». أى متروك هدرًا. وقيل: معناه أنهم كانوا التزموا مهادنة بعض الكفار فغير الإسلام ذلك الحكم، فلو وجب عليهم الوفاء بما التزموا لأمرهم بغزوهم لمن خالف دينهم، فأطلقوا من قيود ما التزموه فى الشرك من ذلك، ولا يخفى بعده وتكلفه، ثم قال فى النهاية: ويجوز أن يراد أن ما استودعوه من أموال الكفار حلال لهم؛ لأنها مال أخذ من الكفار من غير إيجاف خيل وقتال فهو فئ، وهكذا حكم ودائع الكفار فهو جمع وديعة بالهاء على هذا، ولا ينافيه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر خلف عليا كرم اللّه وجهه ليرد ما كان عنده صلى الله تعالى عليه وسلم من الودائع والأمانات، لأنه كان قبل حل الغنائم له، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فر من نسبته للخيانة وذهاب شهامته وأمانته، فيطعنوا فى الإسلام ويبعدوا من الإيمان.

(**ووضائع الملك**) الوضائع: جمع وضيعة بمعنى موضوعة، والملك: بكسر الميم أى ما كان يوضع على الأملاك من الزكاة والصدقة ثابت لكم كسائر المسلمين، يلزمكم ما يلزمهم من الوظائف من غير زيادة ولا نقص، أو الملك بضم الميم والمعنى أن ما كان ملوك الجاهلية يوظفونه على الرعاية ويستأثرون به من غنائم الحروب لا يأخذ منكم، فهو على ظاهرها بتقدير التفسيرين الأخيرين للودائع والوضائع، وبمعنى على كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] على التفسيرين الأولين لهما. وقيل عليه: إن العهد إذا لزم الوفاء به يكون على المعاهد لأنه فرض مطلوب، وعهود مهادنتهم قبل الإسلام لا يجب الوفاء بها بعد الإسلام، والقائل ظن وجوب الوفاء بها فحمل اللام على ما حمله وليس كذلك كما مر، لأن عهد الكافر لا يعتد به. وأما الوضائع بمعنى تكاليف الزكاة فهى وإن ثقلت على بعضهم فهم باعتبار الأجر عليها، وقد علمت أن هذا مبنى على تفسيره وليس بمتعين كما مر مع ما فيه.

(**لا تلطط فى الزكاة**) تلطط: بضم التاء المثناة وسكون اللام وكسر الطاء المهملة الأولى وجزم الطاء المهملة الثانية بلا الناهية، وفى الزكاة متعلقة به أى لا تمنعها. قال ابن الأعرابى: لط الغريم إذا منع حقه، وأصله من لطت الناقة فرجها بذنبها إذا ضمته وقد أرادها الفحل. وفى شعر الأعشى الحرمارى فى امرأته وقد نشزت:

أخلفت الوعد ولطت بالذنب   وهن شر غالب لمن غلب

ولط الغريم إذا اختفى.

(**ولا تلحد فى الحياة**) هو مضبوط بضم التاء المثناة أوله ولام ساكنة تليها حاء مهملة

مكسورة ودال مهملة مجزومة، من ألحد إلحادًا إذا جار وعدل عن الحق، وأصله مطلق العدول، ويقال: ألحد ولحد قليلا، والذى فى الشفاء هو الذى رواه القتيبى بالفعل والخطاب الواحد. والذى رواه غيره: «ما لم يكن عهد ولا موعد، ولا تثاقل فى الصلاة، ولا تلطط فى الزكاة، ولا تلحد فى الحياة» بالاسم المصدر وتشديد عين الآخرين وهو الوجه؛ لأنه خطاب للجماعة واقع على ما قبله، وكذا فى النهاية الأثيرية، يعنى أن هذه الرواية بلفظ المصدر من التفاعل والتفعل هو الوجه الواضح؛ لأنه كلام خوطب به جماعة فى قوله: «يا بنى نهد» وهذا جار على غير أسلوبه لوجه الخطاب لواحد من بينهم، وإن كان ما قبله مشتملا على ضمير الجماعة المخاطبين دونه، وقد جاء التلطط بمعنى الإلطاط المتقدم يقال: تلطط وألطط وألطى، بإبدال الأخيرة بالتخفيف. وقال ابن رسلان: لا نلطط أو نلحد بالنون، من باب نهى الإنسان نفسه لينتهى غيره. قيل: ولا ضير فى رواية القتيبى إذ الخطاب فيها لمن تلقى الكلام له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من بين جمع ما خوطبوا ابتداء، أو نظيره فى أفصح الكلام ثم عفونا عنكم من بعد ذلك حيث خوطب من يتلقى الكلام بلفظ ذلك، ولم يقل ذلكم، وتخصيص واحد من الحاضرين بخطاب النهى للتعريض بالباقين، والصون لهم عن توجه صيغة النهى إليهم رجاء الانقياد للامتثال بألطف وجه، ويحتمل أن الخطاب لهم برمتهم أولا ثم توجه لواحد فى المجلس خارج عنهم فنهاه تعريضًا بهم، أو نهاهم نهى غنية لتنزيلهم منزلة الغائبين عند توجيهه إلى غيرهم، ولم يقل: لا يلطوا ويلحدوا بلفظ جماعة الذكور الغائبين، بل لا تلطط وتلحد، أى هى والضمير لبنى نهد وبنون، وإن كان جمع مذكر سالم ومثله لا يعود له ضمير المؤنث ولا تلحقه التاء، فلا يقال: الزيدون قامت ولا قامت الزيدون ولا العمرون تقعد، بخلاف قامت الرجال والرجال تقوم بتاء التأنيث، إلا أنه لما غير مفرده عند جمعه أشبه جمع التكسير فأعطى حكمه، فجاء إلحاق التاء بفعله نحو قامت البنون، ومنه قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فصار ذلك داعيًا إلى جواز البنون قامت وتقوم، ونحوه بتاء التأنيث، وذهب بعض النحاة إلى أنه جمع تكسير بدليل جواز إلحاق التاء. قال فى ضوء الذبالة: هذا مذهب غريب ورأى غير مصيب. قلت: المخطئ مخطئ، وهذه المسئلة مذكورة فى شروح كتاب سيبويه، والذى قال إنه قول غريب ارتضاه ابن خروف، ولولا خوف الملل فصلناه. وقيل عليه: إن قياس الضمير على حرف الخطاب المتصل باسم الإشارة لا وجه له للفرق بينهما، وما فى الحديث يوجه بأنه خاطب القوم أولا بقوله: «يا بنى نهد»، وعلم أن فيهم واحدًا متبعًا لهوى نفسه فخصه من بينهم بالخطاب بما يليق به، أو جعله تعريضًا

لباقيهم لئلا نثقل عليهم المواجهة بالنصيحة.

ونقل عن ابن الباذش أن الخطاب المفرد بعد الجمع له تأويلان، إما تخصيص واحد من بينهم أو تأويله بمفرد لفظا مجموع معنى كالفريق، وجوز فيه أن يكون التفاتًا وأتى بما لا يسمن ولا يغنى من جوع على عادته فى التطويل الممل من غير فائدة. **وأنا أقول:** هذا كله مبنى على قاعدة ذكرها النحاة كما فى شرح الكافية للرضى، وهى أنه لا يكون فى كلام واحد خطابا لمخاطبين متغايرين من غير عطف ولا جمع تثنية، وهذه القاعدة ذكرت فى باب الإشارة وقد تتبعت كلامهم فرأيتها مقيدة بأربعة قيود:

الأول: أن يكون فى جملة واحدة، فلو قلت: ءانت يا زيد تضرب ءانت يا عمر وتشتم لم يمتنع.

الثانى: أن لا يتغايرا، فلو كان أحدهما غير الآخر جاز نحو: اذكر إذ قال ربك كما قدره المفسرون فى مثله وغفل عنه بعضهم. فاعترض بما لا محصل له.

الثالث: أن لا يكون أحدهما بعض من الآخر نحو: رأيتكما كما ذكره النحاة فى أفعال القلوب، وصرح به المرزوقى رحمه الله تعالى فى قوله:

اجدوا قومها لكم يا جرول

فقال: جرول اسم رجل جعل أول الكلام خطابًا لجماعتهم، ثم خص بالنداء واحدًا منهم جعله المأمور بما أراد كقول الهذلى:

أحيبى إياكن يا ليلى الأماديح

فقال: إياكن، ثم قال: يا ليلى. انتهى.

الرابع: أن يبقى الخطاب على حقيقته كما ذكره الرضى فى باب التعجب، وقد بسطنا الكلام على هذه المسئلة فى كتاب طراز المجالس، وللمعترض والمجيب خبط هنا خبط عشواء، فإن هذا التركيب صحيح من وجهين؛ لكونه بعضًا فى جملة أخرى فاحفظه فإنه من نفائس الذخائر، ثم إنه ذكر فى إعراب قوله فى الرواية السابقة ولا موعد كلام يقتضى منه العجب، وأجاب عنه تلميذه بأعجب وأعجب، إلا أن المصنف رحمه الله كفانا مؤنته؛ لأنه لم يذكره فلذا أضربنا عنه، فإن أردت فانظره. وقوله فى الحياة أى لا تلحد ما دمت حيا.

(ولا تتثاقل عن الصلاة) بجزم اللام والكلام فيه كالذى قبله، أى لا تتوانى وتكسل عن الصلاة وتتركها، والتثاقل يجعل كناية كأن عليه ثقلا يمنعه عن الحركة إليها.

(وكتب لهم فى الوظيفة) أى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتب لهم كتاب

يبين فيه ما يلزمهم بعد الإسلام والوفاء بأركانه. وضمير لهم لبنى نهد وهو متعلق بكتب، والوظيفة: بالظاء المشالة والفاء بزنة سفينة وهى المعين فى كل يوم، أو فى زمان معين من الطعام وغيره من الرزق، ويطلق على العهد والشرط وجمعه وظائف ووظف بضمتين كسفن كما قاله أهل اللغة، والمراد الأخير، أى كتب فى العهد وما شرط عليهم فى الزكاة لهم فيما يؤخذ منهم من الوظائف المرتبة عليهم.

(الفريضة) أى ما فرض عليهم ففريضة بمعنى مفروضة، فإن كانت الفريضة بمعنى الهرمة المسنة كالفارض لفرضها سنها، أى قطعها له أو لانقطاعها عن العمل والانتفاع بها، فهى غير مرادة لأنه روى: «عليكم فى الوظيفة» أى فى كل نصاب ما فرض فيه، وهذه الرواية مفسرة للمراد به، ولأن قوله **(ولكم الفارض)** يأباه لما بينهما من التدافع غاية ما فيه إطلاق الوظيفة على النصاب، لأنه وظيفة لأصحاب الأرزاق مقدرًا لهم كوظيفة الأرض المعينة التى وضعها عمر رضى الله عنه كما ذكر فى باب الوظائف، فلا تجوز فيه كما توهم.

والفارض: بالفاء كما ضبطه البرهان الحلبى وقد تقدم تفسيرها، ويؤيده ما فى الحديث الآخر: «ولكم الفارض والفريض» يعنى لا يؤخذ منكم ولا يكون على الأنصباء لأنه لا تصح به الزكاة، وضبطه التجانى بالعين المهملة بدل الفاء، وقال: العارض المريضة التى أصابها كسر وهى لا تقبل فى الصدقة فهى باقية لأصحابها. وفى مزيل الخفاء أنه وقع فى بعض النسخ بالعين المهملة، وهى الناقة التى يصيبها كسر أو مرض فتنحر، وفى العز بين فى بعض نسخه الفارض بالفاء وقيل: بالعين التى أصابها كسر ولم يتعرض لمرضها، يقال: عرضت الناقة إذا أصابها آفة أو كسر، وبنو فلان أكالون للعوارض إلا إذا لم ينحروا إلا ما أصابه مرض أو كسر خوفًا أن يموت فلا ينتفعون به. والعرب تعير بأكله. **قلت:** كأنه سقط من عبارة التجانى لفظ أو عد الكسر مرضا، وفى الشرح خلط هنا لم نسود به وجه الطرس.

(والفريش) بفتح الفاء وكسر الراء المهملة والمثناة التحتية الساكنة والشين المعجمة الحديث العهد بالنتاج كالنفساء من النساء، وحكى أنه مالا يطيق حمل الأثقال من الإبل لصغره، كما حكى أنه يقال: فرش وفريش بمعنى، وإن كان المشهور فيه الفرش كما فى الآية: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام:١٤٢] وقيل: الفرش ما انبسط على وجه الأرض من النبات وهو بعيد هنا، يعنى أن هذه كلها لا تؤخذ فى الزكاة، أما على الأولى فلأنها لبون نفيسة، وأما على الثانى فلخستها.

(وذو العنان الركوب) العنان بكسر العين ونونين بينهما ألف، والركوب بفتح الراء

هو المركوب الذلول، قال اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ [يس: ٧٢] ووصفه بذى العنان فى محله، يعنى لا يؤخذ الزكاة من الفرس المعد لركوب صاحبه فلا يؤخذ فى الزكاة، وإن قلنا بزكاة الخيل، وكذا الصغير لأنه ليس من أوسطها، والركوب بالرفع صفة ذو، وروى بالجر صفة العنان.

(والفلو) بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو المهر الصغير من الخيل لا يؤخذ فى الزكاة، وسمى فلوا لأنه يفلى من أمه أى يقطع بالفطام عنها. قال الجوهرى: يقال فلوته إذا فطمته. وعن أبى زيد: إذا فتحت الفاء شددت الواو، وإذا كسرتها خففت فقلت فلو كجرو. وفى القاموس إنه يقال: كجرو، وعد،وسمو. وقال: إنه الجحش والمهر. وقيل: صغار أولاد ذوات الحافر مطلقًا، وروى الفلو بدون واو عطف والأول أصح.

(الضبيس) بفتح الضاد المعجمة، ووهم من قال: المهملة، والموحدة المكسورة والمثناة التحتية والسين المهملة، أى المهر العسر الركوب الصعب، وهو من الرجال كذلك، وكأنه كنى به عن صغره، ولو عطف كان المراد به الحرون إلا أنه وقع بلا عاطفة.

(لا يمنع) بالبناء للمفعول **(سرحكم)** بإهمال السين المفتوحة وسكون الراء المهملة والحاء المهملة، وهى الماشية التى تسرح بالغداة للمرعى، والمراد أن مطلق الماشية لا تمنع عن مرعاها، يقال: سرحت الماشية تسرح إذا خرجت للرعى، وفعله يتعدى ولا يتعدى، فإذا رجعت قيل: أراحت، قال اللّه تعالى: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، وهذا كما قال فى كتاب أكيدر: «لا تعدل سارحتكم وفاردتكم من مرعى» إلا أنه عبر بالسارحة لمشاكلة الفاردة كما عبر هنا بالسرح لمشاكله قوله:

(ولا يعضد طلحكم) يعضد بمعجمة بين مهملتين بمعنى يقطع، يقال: عضده عضدًا إذا قطعة، والطلح بفتح الطاء المهملة وسكون اللام والحاء المهملة شجر عظام يقال له: العضاة، وأم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك يقال له عضة، والطلح فى قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩] قيل: هو الطلح. وقيل: شجرة الموز. والمراد: لا يقطع لكم شجر طلحًا كان أو غيره، وخصه لأنه لا ثمر له فإذا منع قطعه علم عدم قطع غيره بالطريق الأولى.

(ولا يحبس دركم) بفتح الدال وتشديد الراء المهملتين، وأصل معناه اللبن. والمراد به هنا الأنعام ذوات الدر لا تحبس عن المرعى فى مكان يجتمع فيه ليعدها من يأخذ الصدقة، لما فيه من ضرر صاحبها بعدم رعيها ومنع درها عنه. وروى: «لا يحشر دركم» أى: لا يجتمع فى مكان عند المصدق وهما بمعنى لما مر من الضرر. وما قيل من أن ما

رواه المصنف لا يختص بالحبس عن المرعى لشموله لحبسها عند صاحبها على وجه يمنعها من المرعى، وحبسها عند المصدق ليعدها عليه مع مخالفته لكلامهم وللسياق لا طائل تحته. وكذا ما قيل إن معناه لا يؤخذ الدر نفسه إلا أن يكون منحة، وكل هذا مناف للغرض، وقد ورد فى صلح أهل نجران: «لا تحشروا ولا تعشروا»، ومقصوده، صلى الله تعالى عليه وسلم، الرفق بمن يؤخذ منهم الزكاة فيؤتى لمنازلهم من غير سوق لمواشيهم وحبس لها.

(ما لم تضمروا الرماق) تضمروا بمعنى تخفوا أو تكتموا، الرماق: بكسر الراء المهملة وميم وألف وقاف وهو النفاق. يقال: رامقته رماقا وهو النظر الشرر من العدو، والمعنى ما لم تضق قلوبكم عن الحق، يقال: عيش رماق أى ضيق يمسك الرمق وهو بقية الروح وآخر النفس كما قاله ابن الأثير.

(وتأكلوا الرباق) بكسر الراء المهملة والموحدة والقاف، وقال الشمنى: جمع ربقة وهى حبل فيه عرى يشد به للبهائم، وفى الحديث: «خلع ربقة الإسلام من عنقه»[1] قال ابن الأثير: شبه ما يلزم من العهد بالرباق واستعار الأكل لنقضه، فإن البهيمة إذا أكلت الربق خلصت من الشدة وما مصدرية ظرفية، وهو إما قيد لما قبله أو لجميع ما تقدم، والمعنى أن هذا أمر مقرر عليكم منا ما لم تنقضوا العهد وترجعوا عن الإسلام، فإذا كان كذلك فعليكم ما على غيركم من الكفرة، وهذا معنى لا غبار عليه، والترتيب فى محزه؛ لأن المعنى ما لم تضمروا النفاق ثم تظهروا نقض العهد، وقريب منه تفسيره بالغدر والنكث والعداوة فإنها إذا ضمرت كانت نفاقًا، وأما تفسير إضمار الرباق بإخفاء قطيع من الغنم يعنى عن المصدق، فإنه خيانة يقتضى تضييق المصدق عليهم بحشر أنعام درهم وحبسها، فهو على هذا متعلق بقوله: «لا يحبس دركم» وهذا معنى صحيح موافق للغة، لأن الرمق القطيع من الغنم فارسى معرب كما قاله الجوهرى، إلا أن المشهور المأثور فى تفسير الحديث ما تقدم، فاعترض البرهان عليه بأنه لم ينظره فى غير الصحاح، وأخشى أن يكون أحد قاله قبله بما لا يليق ذكره، وكذا القول بأن النفاق إضمار للغدر مع إظهار خلافه، فتفسيره غير مستقيم ليس بشىء، وكذا تفسير الرباق بالموحدة بالغنم مجازًا لعلاقة المجاورة فكله بعيد بمراحل عن المرام، وفى الكلام استعارة تمثيلية أو تصريحية، والمراد بالعهد التزام أوامر الله ورسوله ونواهيه، وفى الشرح الجديد قال البرهان عن المعلق: إن الرباق مجاز عن الغنم، ولا أدرى من هذا المعلق، وعلى هذا التقدير معناه ما لم تأكلوا الغنم ولا معنى لهذه الظرفية حينئذ، إذ يؤل إلى أدوا زكاتكم ما

---

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه.

لم تأكلوا الغنم، ومثله سمج لا يليق بحديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم المسوق لبيان فصاحته عليه الصلاة والسلام. وفى الحواشى التلمسانية: تضمروا الإماق بهمزة مكسورة وميم ساكنة وهمزة ممدودة يليها قاف بزنة الإكرام، ومعناه الغدر والبغض، يقال: إماق يميق رباعيا وقد يخف همزته، هكذا ثبت عند العزفى. وفى بعض نسخ الشفاء: الرماق بكسر الراء والميم بعدها وهو بخط القاضى رحمه اللّه تعالى انتهى. والشراح وأرباب الحواشى متفقون على الرواية الثانية.

(من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة) ال فى العهد للعهد، فالمراد ما عرف من عهود الإسلام أو ما عاهدهم اللّه ورسوله فيما كتب لهم، والذمة قال البرهان الحلبى: بمعنى العهد والأن والضمان والحرمة والحق، والمراد الأولان، وسميت الذمة ذمة لأن تركها يوجب الذم، ثم سمى محل الالتزام بها فى قول الفقهاء ثبت فى ذمته كذا، ومن الفقهاء من قال إنها معنى يصير به الآدمى على الخصوص أهلاً لوجوب الحقوق له وعليه، كما قاله تاج الشريعة فى شرح الهداية. وقال القرافى رحمه اللّه فى قواعده: لم يعرف أكثر الفقهاء معناها المستعملة فيه وحقيقتها، حتى ظنوا أنها أهلية المعاملة أو صحة التصرف وليس كذلك، لأن كلا منهما يوجد بدون الآخر وهى عبارة عن معنى مقدر فى المكلف قابلة للالتزام، واللزوم مسبب عن أشياء خاصة فى الشرع وهى البلوغ والرشد وعدم الحجر، وهى من خطاب الوضع انتهى. وسمى أهل الذمة بذلك لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانتهم، والمراد: أن من اعترف وصدق بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فله الوفاء بالعهد والذمة.

(ومن أبى) أى امتنع من قبول العهد أو نقضه بعد قبوله ودخوله فيه من منع الزكاة **(فعليه الربوة)** والربوة بتثليث الراء المهملة وسكون الباء الموحدة والواو والهاء كما فى القاموس، فالاقتصار على بعضها تقصير وهى الزيادة، ومنه الربا لأخذه زيادة على ما أعطاه، وفسرت الربوة بأن يؤخذ منه زيادة على فريضة الزكاة عقوبة له، وروى: «من أقر بالجزية فعليه الربوة»[1] أى من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما يجب عليه بالزكاة، قاله ابن الأثير.وقال التجانى: عنى صلى الله تعالى عليه وسلم أن من أبى من أداء الزكاة أخذ منه الفرض وزيد عليه مثله، كما فى حديث أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه الصحيح: أن رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم ندب الناس إلى الصدقة، فقيل له: منعها خالد بن الوليد وفلان وفلان، فقال: «أما خالد فالناس يظلمونه لأنه احتبس أدراعه وأعدها فى سبيل اللّه، وأما فلان فلم ينقم منا إلا إن

(١) انظر الجامع الكبير (٢/٥٧٦).

كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله، وأما فلان فإنها عليه ومثلها معها»[١] وروى: «فإنها عليه صدقة ومثلها معها» وفى رواية البخارى: «أن عليه صدقة واجبة تؤخذ منه» وليس معناه أنه يعطاها ويعطى مثلها معها، لأن المذكور من أهل البيت لا تحل له الصدقة، وذهب أبو عبيد فى معنى هذا الحديث إلى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما ألزمه إياها ومثلها معها؛ لأنه كان قد أخر عنه صدقة العام الماضى ومثله جائز للإمام إذا علم حاجته وفقره، ولكن ظاهر الحديث يخالفه لأنه فى معرض العقوبة والجزاء، فلو كان كذلك لمن يكن فيه ردع له انتهى. وفى رواية البخارى احتمال أنها كانت قبل تحريم الصدقة على أهل البيت كما فى بعض شروح مسلم.

واعلم أنه، أى التجانى، لم ينقل الحديث على وجهه، فإنه هكذا فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمر رضى الله تعالى عنه على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما ينقم ابن جميل إلا إن كان فقيرًا فأغناه الله تعالى، وأما خالد فإنكم تظلمونه وقد احتبس أدراعه فى سبيل الله، وأما العباس فهو علىَّ ومثلها، أما تعرف أن عم الرجل صنو أبيه»[٢]. وفى رواية البخارى: «فهى عليه صدقة ومثلها معها». وفى رواية: لم يقل صدقة ففيه ثلاث روايات، ومعنى الأولى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، التزم بإخراج ذلك عنه وبين سببه بقوله: «عم الرجل» إلخ تشريفًا له، ويحتمل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم تحملها عنه لتعلق الزكاة. وجمع ابن الجوزى بين رواية علىَّ وعليه بأنهما بمعنى، وزيد فى الثانية هاء السكت فى علىَّ. وقيل: معنى علىَّ أنها عندى لأنى أخذت منه صدقة عامين. وقد ورد مصرحًا به فى رواية أخرى بناء على جواز تعجيل الزكاة. وفى الحديث وجوه أخر فى شروح الصحيحين لا حاجة لنا بها هنا، ومن هذا علمت ما فى قوله، لكن ظاهر الحديث يخالفه؛ لأنه ورد فى معرض العقوبة إلى آخره، فإنه لا زجر فيه إلا لابن جميل لا للمقول فى حقه فهى عليه ومثلها كما سمعته آنفًا.

(ومن كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لوائل بن حجر) تقدم الكلام عليه **(إلى الأقيال العباهلة)** أى الملوك القار ملكهم، وقد تقدم تفسيره وبيان لغته وضبطه.

(والأرواع) بهمزة وراء مهملة وواو بعدها ألف وعين مهملة، وهم السادة الزهر

---

(١) أخرجه أحمد (٣٢٢/٢)، والبيهقى (١١١/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٣/١١)، وأبو داود (١٦٢٣)، والنسائى (٣٣/٥)، وابن خزيمة (٢٣٣٠)، والدارقطنى (١٢٣/٢)، والبيهقى (١١١/٤).

الألوان الحسان الوجوه، وقيل: إنه جمع رائع وهـم الذيـن يروعـون النـاس أى يخوفونـهم بمنظرهم لجمالهم وهيأتهم قاله ابن الأثير. قيل: والأول أولى وجمع فاعل على أفعال نـادر جدًا.

أقول: ما قاله ابن الأثير هو الذى ارتضاه المبرد فى الكامل لمـا فيـه مـن البلاغـة، فـإن الحسن الزائد إذا رآه من له إدراك أدهشه وحيره فيشبه الخائف الفزع، ومن وقـف علـى كلام المبرد عرف حسنه، وقيل: إنما كان هذا غير موجه؛ لأن الهيئة التى كانت لهم هيئـة تجبير وظلم أزالها الإسلام، والنبى صلى الله تعـالى عليـه وسـلم إنمـا أراد مدحـهم بـالحلم والرأفة وليس بشىء.

(الشابيب) بفتح الميم والشين المعجمة بعدها ألف ثم موحدتين بينهما مثناة تحتية جمع مشبوب وهو الحسن الأزهر اللون، قال ذو الرمة[1]:

إذا الأروع المشبوب أضحى كأنـــه   علـى الرحـل مما مسه السير أحمـــق

والمراد: السيد الظاهر الأزهر الملون المنير، كأنه أوقـد فـى وجهـه سـراج منـير، وهـو يجمع مع الأرواع فى كلامـهم كمـا فـى البيـت، فـإن النـار ممـا تـروع نـاظره، وروى: «الأشباء» بزنة الأخلاء جمع شبيب كخليل، وقيل: هـم الرجـال الذيـن وجوهـهم بيـض وشعورهم سود، فهذا كما يقال للحسناء ذات الذوائب المسود شعرها يشب لونـها أى يظهره ويحسنه، وقيل: المراد الأذكياء. **(وفيه)** أى فى كتابه صلى الله تعـالى عليـه وسـلم لوائل.

(فى التيعة شاة) التيعـة بكسـر التـاء الفوقيـة وسـكون المثنـاة التحتيـة والعـين المهملـة الأربعون من الغنم، وقيل: الخمس من الإبل، وقيل: هى أدنى ما تجـب فيـه الصدقـة مـن الغنم والإبل، وهو المقدار المذكور، وقيل: هى ما يأخذه الساعى مـن الزكـاة وهـو غـير مناسب هنا، وهو من التبع وهو الفىء، وقد وقع التشبيه به فى حديث.

(الراجع فى هبتة كالراجع فى قيئه) ويقال: تاع قيئه وأتاع، ويقال: تاع بمعنى ذهب، قيل: وجـه المناسـبة سـرعة المبـادرة عليـها كسـرعة القـىء، أو لذهـاب السـاعى إليـها، والأحسن أن يقال: إنها فضلة ووسخ يستريح بدفعها لأن الصدقة أوسـاخ النـاس، كمـا ورد فى الحديث، ولذا منع أهل البيت منها لشرفهم.

(لا مقورة الألياط) مقـورة بميـم مضمومـة وقـاف سـاكنة وواو مفتوحـة مخففـة وراء

---

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ذى الرمة (ص٤٨٤)، لسان العرب (٤٨١/١)، ديوان الأدب (١١٦/٣)، تاج العروس (٩٨/٣).

مهملة مشددة من الأقوال، كمحمرة من الاحمرار، وهى المسترخية الجلد من الهزال فلا تؤخذ فى الصدقة لرداءتها، وقيل: هى المتشجة من الهزال أيضا. وقيل: هى السمينة فهى من الأضداد كما ذكره الصاغانى فى كتاب الأضداد، وهذه لا تؤخذ لأنها أعلى والمأمور بأخذه الوسط، وفى بعض النسخ مقورطة مفوعلة قال التلمسانى: قال ابن سيدى الحسن: ولا أعلم الآن معناه ولعله مصحف مقريطة، يقال: أقريط الجلد انضم بعضه لبعض مقريطة وهو بمعناه، والألياط بلام وياء مثناة تحتية وطاء مهملة جمع ليط بكسر اللام وهو قشر العود، فاستعير للجلد من لاطه يلوطه إذا ألصقه. وقيل: المقورة المقطوعة والمعنى بها الناقصة فالتفاسير متقاربة.

(**ولا ضنناك**) بفتح الضاد المعجمة وكسرها. قال التجانى: يجوز ضمها وخطئ فيه لأنه بمعنى الزكام ولا مناسبة له هنا، وفى ضبطه نظر لما فى العباب للصاغانى: الضناك بالفتح، قاله الفارابى. وقال غيره. هو بالكسر وهو الصواب، وهى الكثيرة اللحم السمينة فلا تؤخذ لجودتها.

(**وأنطوا الثبجة**) إنطاء بمعنى إعطاء لغة لأهل اليمن ولبنى سعد، وروى فى الدعاء: «لا مانع لما انطيت» وقرئ شاذًا: «أنا أنطيناك»، والثجة بالمثلثة والموحدة والجيم المفتوحات والهاء بمعنى الوسط والهاء للنقل من الإسمية للوصفية، وقال التجانى: إن الباء الموحدة مكسورة ومنه ثبج البحر لوسطه، وفى الحديث «خيار أمتى أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج» والمقصود أنه لا يؤخذ فى الزكاة الأعلى لإضراره برب المال إلا أن يكون برضى منه، ولا الأدنى ولا المعيب إلا أن يكون الكل كذلك؛ لأن الجود بالوجود وتفصيله فى كتب الفقه. قال البرهان: وفى بعض النسخ بكسر الباء وتشديد الجيم وفيه نظر، وقال التلمسانى رحمه اللّه تعالى: وروى الشبجة بالشين والجيم من شبج سار بشدة وارد إعطاء القوى للضعيف فتأمله.

(**وفى السيوب الخمس**) السيوب بضم السين المهملة والمثناة التحتية وواو وباء موحدة جمع سيب، وهو الركاز بمهملة وكاف وزاى معجمة بزنة كتاب، بمعنى مركوز وهو المال المدفون الجاهلى، من ركز الرمح إذا غرزه فى الأرض وأقره، أو من الركز وهو الإخفاء، قال اللّه تعالى: ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨] أى صوتًا خفيًا، وسمى سيبا لأنه عطية من اللّه تعالى. وقيل: هو الذهب والفضة المعدنى من تسيب بمعنى تكون من غير صاحب له فكأنه مسيب، والخمس بضمتين وضم فسكون، ويقال له، خميس، ومنه اسم الجيش لكونه خمسة أقسام: ميمنة، وميسرة، ومقدمة، وساقة، وقلب، وقوله فى

الحديث: «المعدن جبار وفى الركاز الخمس»[١] يدل على أن الركاز غير المعدن، واتفقوا على وجوب الخمس فى الركاز إلا الحسن البصرى رحمه اللّه، فقال: إن وجد فى دار الحرب ففيه الخمس وفى غيره الزكاة، ولا فرق فيه بين النقدين وغيرهما، والقليل والكثير، ولا يشترط الحول كالزكاة. وعند الشافعى: إن كان وجده فى ملكه فهو له إن ادعاه وإلا فهو لقطة.

(ومن زنا مم بكر فاصقعوه مائة) قوله: «مم بكر»، وما يأتى من قوله: «مم ثيب»، أصله كما فى النهاية من بكر ومن ثيب فقلبت النون ميما؛ لأنها إذا سكنت قبل الباء تقلب ميما سواء كان من كلمة نحو عنبر، أو من كلمتين نحو من بكر، وتقدم أن لام التعريف تبدل ميما فى لغة حمير نحو: ليس من أم برام صيام فى أم سفر، فإما أن يكون ما نحن فيه الثانى فأصله من البكر، فحذفت نون من على حد قولهم فى بنى الحارث بلحارث فيكون بكر حينئذ غير منون، واستعمل البكر موضع الأبكار والأشبه أن يكون نكرة منونة وأبدلت نون من ميما انتهى. وقيل عليه: إن كون بمعنى أبكار لأجل من التبعيضية، فتقديره من زنى ببكر من الأبكار، ويجوز أن يكون لبيان الجنس فبكر على أصلها، وهو على هذا يحتمل أن يكون بمعنى الأبكار لما فى مِنْ من العموم، ثم إنه إذا قلب النون ميما على نهج الانقلاب التجويدى لا يتأتى فى قوله مم ثيب، فلذا قال فى مزيل الخفاء: إنه من باب الازدواج والمشاكلة، كما فى قولهم: ما قدم وحدث بضمهما مع أن حدث بالفتح، فإن قلنا: إنه إنما قيل مم بكر بقلب النون ميما؛ لأنها تعاقبها كثيرًا كما فى قولهم بنان وبنام ودان ودام كما قاله التجانى، لم يحتج لما ذكر، وقوله فاصقعوه بهمزة وصل ثم صاد مهملة ساكنة ثم قاف مفتوحة ثم عين مضمومة مهملة، أى فاضربوه، ويقال: اسقعوه، بالسين أيضًا من الصقع وهو الضرب، وأصله الضرب على الرأس، وقيل: هو الضرب ببطن الكف، وضبطه بعض الشراح فاصفعوه بالفاء بدل القاف كما نقله التلمسانى، يقال: صفعت فلانا أصفعه صفعًا إذا ضربت قفاه بجمع كفى، ورجل مصفعانى يفعل به ذلك، والعامة تقول لمن سرقت عمامته: إنه صفع، وهى استعارة عامية ركيكة، كما قال ابن نباتة رحمه اللّه:

أسفت لشاشى الذى قد مضى ... وفاز به سارق حاشه
واللّه ما بى مما جرى ... سوى قولهم صفعوا شاشه

وتطفل عليه الصفدى رحمه اللّه تعالى على عادته فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٨، ٢٥٤، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣١٩، ٣٨٢، ٤٥٤، ٤٦٧، ٥٠١)، والحميدى (١٠٧٩)، والطبرانى فى الكبير (١٠/١٠٧)، والدارقطنى (٣/١٥٣، ١٥٤).

قـد سـرق الشـاش بليـل ومـا قـدره اللّـه فمـا يندفـع
الحمـد للّـه الـذى لـم يكـن شاشـى علـى رأسـى لمـا صفـع

والمراد هنا حد الجلد، والمراد بالبكر غير المحصنات كما بين فى الحدود.

(واستوفضوه عاما) بهمزة وصل وسين مهملة ساكنة ومثناة فوقية وواو وفاء وضاد معجمة ثم واو ساكنة، وهاء الضمير بمعنى انفوه وغربوه من فوضت الإبل إذا تفرقت،والعام والسنة بمعنى هنا، وإن كان الإمام السهيلى فرق بينهما فى الروض الأنف باعتبار أصل الوضع، فإن السنة من دور الشمس إلى عودها لمحها لأنها من سنى بمعنى دار، ومنه السانية، والعام ما اشتمل على الفصول الأربعة بتمامها.

(ومن زنا مم ثيب) أى محصنة وتقدم ما فيه **(فضرجوه بالأضاميم)** ضرجوه بضاد معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة مشددة وجيم مضمومة من التضريج وهو التدمية، أى ارجموه حتى يسيل دمه ويقتل. قال: إن بنى ضرجونى بالدم. والأضاميم بفتح الهمزة والضاد المعجمة وميمين أولاهما مكسورة بينهما ياء مثناة ساكنة الحجارة، واحدها إضمامة بكسر الهمزة أو أضموم بضمها كأقنوم، سميت بها لأنه يضم بعضها لبعض ويطلق على كل مجتمع من الناس وغيرهم، والمراد: الرجم الذى هو حد المحصن كما فصل فى كتب الفقه، واختلافهم فى كون التغريب من الحد أم لا مشهور فى الفروع شهرته تغنى عن ذكره.

(ولا توصيم فى الدين) توصيم تفعيل من الوصم بالصاد المهملة وهو العيب والعار، أى: لا كبر ولا عيب ولا عار ولا كسل فى إقامة حدود اللّه فلا تحابوا فيها، وهذا فى معنى قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢] ولذا حرم الفقهاء الشفاعة فى الحدود دون التعزير.

(ولا غمة فى فرائض اللّه) الغمة بضم الغين المعجمة وتشديد الميم، أى لا يخفى وتستر فرائضه تعالى؛ بل تظهر ويجهر بها إقامة وإظهارًا لشعائر الدين، وهذا يقتضى أن إظهار الفرائض أكمل، فينبغى إظهار أداء الزكاة دون إخفائها، فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١] محمول على صدقة التطوع، فإن الأفضل إخفاؤها، وقيل: إنه شامل للزكاة، وقد يستحب إخفاؤها إذا خاف الرياء ونحوه، وقيل: إنه يختلف باختلاف الأحوال والزمان، ولو قيل: إن المراد هنا أن الحرام بيّن والحلال بيّن لم يحتج للتقييد، ويؤيده أنه روى هذا لا عمه بفتح العين المهملة والميم المخففة والهاء أى لا حيرة ولا تردد فيها، وروى لا

غمد بكسر الغين المعجمة وسكون الميم والدال المهملة ومعناها لا ستر ولا خفاء كتغمدنا اللّه برحمته أى سترنا بها.

(وكل مسكر حرام) هذا حديث صحيح رواه مسلم وهو أنه قال: «كل مسكر خمر» وكل مسكر أى ما من شأنه الإسكار فهو حرام، أى ولو قطرة منه، والخلاف فى المثلث بشروطه معلوم، ويدخل فيه الحشيش على الأصح، وللزركشى رحمه اللّه تعالى فيه تأليف مستقل، وإنما ذكر هذا لأنهم سألوه وقالوا: يا رسول اللّه، إن شرابا يصنع بأرضنا يقال له المزر والبتع، وأهل تلك الديار لهم ولع به، فلذا بينه لهم والكلام على الحديث مفصل فى شرح مسلم.

(ووائل بن حجر) تقدم بيانه **(يترفل على الأقيال)** يترفل بالراء المهملة والفاء واللام والترفل أصله تطويل الرداء والثوب، ومثله يكون فخرًا وعظمة فاستعير، أو جعل كناية، وهذا أظهر لجعله رئيسًا عليهم محكمًا فيهم وفى أخذ صدقاتهم؛ لأن الترفل للتعظيم والرئيس والحاكم أعظم، فجعل هذا عبارة عن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعله واليًا على أمورهم وقبض صدقاتهم. قال التجانى: أى يتأمر ويترأس، وهذا كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كتاب آخر له وقد وجهه إلى المهاجر بن أبى أمية: «من محمد رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المهاجر بن أبو أمية، أن وائلاً يستعير ويترفل على الأقيال حيث كانوا من حضرموت»، أى هو مستعمل على الصدقات وأمير على الأقيال، قال الشاعر[1]:

إذا نحن رفلنا امرأ ساد قومه ... وإن لم يكن من قبل ذلك يذكر

وقد تقدم معنى الأقيال وأصله، ومن الترفل هذا الترفيل المذكور فى العروض، وقوله: ابن أبو أمية كذا صحت روايته بحكاية أول أحواله وأشرفها كما يقال على بن أبو طالب. قال التجانى: وقريش لا تغير الأب فى الكنية فتجعله بالواو فى أحواله الثلاثة، وحكاه أبو زيد عن الأصمعى فى نوادره فليس بلحن كما يتوهم، كما يقولون: يا زيد فهذه لغة خامسة لكنها لكونها مخصوصة بالكنية لم يذكروها.

(أين هذا من كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنس رضى اللّه تعالى عنه فى الصدقة المشهور) أين استفهام عن المكان، والمراد: أن بينهما بون وفرق، فإن ذاك جاء بلغة أهل اليمن وهذا بلغة قريش وتهامة المألوفة بينهم، ففيه إشارة إلى فصاحته صلى الله تعالى

---

(١) البيت من البسيط، وهو لأبى الصلت الثقفى فى تاج العروس (نعم)، وبلا نسبة فى لسان العرب (٥٨٤/١٢).

عليه وسلم ومعرفته باللغات، وخطاب كل أحد بلسانه ولغته، وهذا إشارة إلى الكتاب الذى دفعه أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه لأنس، رضى اللّه تعالى عنه، حين أرسله فى خلافته إلى البحرين وأمره أن يعمل به، وهو من كلام رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضهم وقفه على أبى بكر رضى الله تعالى عنه، وبعضهم رفعه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: إنه كان عند أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه يعمل به وهو الذى سلمه لأنس رضى اللّه تعالى عنه، ولما دفعه إليه كان عليه خاتم رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الكتاب ذكره البخارى فى صحيحه والنسائى وأبو داود والترمذى وغيرهم على اختلاف بينهم فى كثير من ألفاظه، والبخارى ذكره مفرقًا فى كتابه، و لم يخرجه مسلم، واختلف فى سبب تركه له مع صحته وشهرته، فقيل: للاختلاف فى كونه من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو من كلام أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه.

وقيل: لاختلاف المحدثين فى الكتاب والعمل به، وإن كان الأصح أنه يعمل به ولا فرق بينه وبين غيره من الأحاديث وله طرق مختلفة، وأوله: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذه فريضة اللّه التى فرضها رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها فلا يعطه فيما دون خمس وعشرين من الإبل الغنم فى كل خمس ذود شاة، فإذا بلغت خمسًا وعشرين ففيها بنت مخاض»[١]. وبقية الكتاب مذكور فيه أحكام الزكاة، وهو مذكور فى المطولات، ولكن ذكرنا هذا المقدار منه تبركًا؛ لأن الثمرة تدل على الشجرة، وفى مزيل الخفاء، قيل: لم يكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أنس وإنما أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه هو الذى كتب إليه، وأجيب بأن الدارقطنى ذكر بإسناد صحيح رواية.هذا الحديث عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر أبو داود عن ابن عمر رضى اللّه عنهما أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتب كتاب الصدقة و لم يخرجه فى حياته، فعمل به أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعده، ثم عمر رضى اللّه تعالى عنه. وعلى هذا ففى كلام المصنف رحمه اللّه تعالى مقدر دل عليه خصوص الواقعة، أى فى كتابه الذى كتبت نسخته لأنس رضى الله تعالى عنه لما فى صحيح البخارى: أن أنسًا حدث أن أبا بكر رضى اللّه تعالى عنه كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين، ثم إن المصنف رحمه اللّه بين وجه التباين فقال:

(لما كان كلام هؤلاء) الإشارة إلى جميع من تقدم من الأنصار وقريش وأهل نجد وأهل الحجاز، والهمدانيين والنهديين، أو إلى الأخيرين لقربهم. **(على هذا الحد)** أى على هذه

(١) أخرجه الشافعى فى المسند (٨٨).

الصفة. قال الراغب: حد الشيء الوصف المحيط بمعناه المميز له عما عداه. **(وبلاغتهم على هذا النمط)** أى على هذه الطريقة.

(وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم) يعنى أن استعمال هذه الألفاظ مع من هى لغتهم لا تخل بالفصاحة؛ بل هو من أعلى طبقاتها وإن كان فيها ما هو غريب وحشى بالنسبة لغيرهم، فإن الجاحظ نص فى البيان على أن كلام أهل البادية الوحشى بالنسبة لهم فصيح، وإن كلام أهل المعانى قد يوهم خلافه، وأنه يخل بالفصاحة مطلقًا، وهذا مما غفلوا عنه، وله فى هذا فصل بديع منه: من أراغ معنى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، ولا تعود من أجله أن يكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، فكن فى ثلاث منازل، أولها أن يكون لفظك رشقًا عذبًا وفخمًا سهلاً، ويكون معناه ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا، أما عند الخاصة إن كتبت للخاصة قصدت، وأما عند العامة بأن يكون للعامة أردت، والمعنى: ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ولا يتضع بأن يكون من معانى العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال إلى آخر ما فصله.

(ليبين للناس ما نزل إليهم وليحدث الناس بما يعلمون) إشارة إلى أنه لما كان مبعوثًا لجميع الناس، كان يتكلم بكل لغة مع أهلها لأنه أبلغ فى الإبلاغ وأنفع.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث عطية السعدى) منسوب لقبيلة بنى سعد ابن بكر، وفى العرب سعود غيرهم؛ سعد تميم، وسعد قيس، وسعد هذيل، وسعد بكر، هؤلاء وغيرهم، وعطية هذا هو ابن عروة السعدى، ويقال: عطية بن عامر، ويكنى أبا محمد، وروى عنه أهل اليمن والشام، وهو جد عروة بن محمد بن عطية، روى ابن عبد البر بسنده إلى عروة بن محمد بن عطية قال: حدثنى أبى أن أباه حدثه أنه قدم على رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ناس من بنى سعد، قال: وأنا أصغرهم فخلفونى فى رحلهم، ثم أتوه صلى الله تعالى عليه وسلم فقضى حوائجهم، ثم قال: «هل بقى منكم أحد». قالوا: يا رسول اللّه، غلام منا خلفناه فى رحالنا، فأمرهم أن يبعثوا إليه، فأتوا إلىّ وقالوا: أجب رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته، فلما رآنى قال: «ما أغناك اللّه تعالى فلا تسأل الناس شيئًا»[1].

(فإن اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى المنطاة) تمامه: «ومال اللّه مسئول

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٤/١٩٨)، والحاكم (٤/٣٢٧)، وابن سعد (١/٢/٦١).

ومنطى» وروى: «يودك وينطى» وهذا حديث صحيح، رواه الحاكم وصححه من طريق عروة، وتمامه كما رواه الواقدى فى قصة وفود السعديين: عن ابن النعمان منهم، عن أبيه قال: قدمت على رسول اللّه وافد فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول اللّه البلاد إلى أن قال: ثم انصرفنا إلى رحالنا، وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم فى طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام، فقلنا له: يا رسول اللّه إنه أصغرنا وخادمنا، فقال: «أصغر القوم خادمهم بارك اللّه عز وجل عليه» فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم أمره رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم علينا، فكان يؤمنا، ولما أردنا الانصراف أمر بلالاً رضى اللّه تعالى عنه فأجازنا بأواقى فضة لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا فرزقهم اللّه تعالى الإسلام. وهذا يشعر بأنه كان أمير القوم وأذكاهم، فلذا نصحه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما ذكره المصنف رحمه اللّه تعالى.

(قال) أى عطية السعدى. **(فكلمنا رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم بلغتنا)** ورواه السيوطى رحمه الله فى تخريجه فكلمنى، ولا تخالفه رواية المصنف رحمه الله تعالى؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ألقى إليه الكلام، وتوجه إليه لما تفرس فيه الخير لمخايل نجابته والقوم يسمعون، فيصح أن يقال: كلمهم وكلمه، وقيل: أراد بقوله: «كلمنا» نفسه بنون العظمة إظهارًا لأنعام الله تعالى عليه بخطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له وبعثه إليه، وتأميره عليهم، والمقام يأباه، وقوله: «بلغتنا»، أى بلغة بنى سعد؛ لأنهم كانوا يقولون: انطى ينطى انطاء، بمعنى أعطى، ولا ينافيه ما قيل إنها لغة يمانية، لأنه يجوز كونها لغة لهم، وقال التلمسانى: قيل: لغة حمير انط بمعنى اسكت. وكتب رجل بين يدى رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم كتابًا فدخل أخر فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «انط» أى اسكت سترًا لسره.

واليد العليا اليد المعطية، والسفلى يد السائل الآخذه، وهى المعطاة، وقد جاء تفسيره بذلك فى حديث آخر، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة»[1]. وهو حديث صحيح رواه الشيخان. أو المنفقة بنون وفاء وقاف، ويروى المتعففة بعين وفائين أى التى لا تسأل أحدًا. وقيل: المنفقة بتشديد الفاء. وقيل:

---

(١) أخرجه البخارى (١٣٩/٢، ٨١/٧، ١١٦/٨)، ومسلم (١٠٣٣/٩٤)، وأبو داود (١٦٤٨)، والترمذى (٢٣٤٣)، والنسائى (٦١/٥، ٦٩)، وأحمد (٤/٢، ٦٧، ٩٨، ٣٦٢، ٣٩٤، ٤٧٥، ٥٠١، ٥٢٤)، وعبد الرزاق (٢٠٠٤١)، والبيهقى (١٧٧/٤، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٧).

يد اللّه تعالى فوق يد المعطى، ويد المعطى فوق يد المعطى بالفتح، فهى أسفل الأيدى، والأيدى ثلاثة. وقيل: اليد السفلى الآخذة بسؤال ودونه، وما قيل: إن هذا لا ينبغى؛ لأن الصدقة تقع أولا فى يد اللّه تعالى ليس بشىء؛ لأن هذا ليس على حقيقته، لأن المراد أنه يقبلها ويدخرها له. وقيل: اليد العليا المعطية والسائلة المانعة. وقيل: اليد العليا يد الفقير لتحصيلها الثواب لصاحب المال ودفع البلاغة، واختاره بعض مشايخ الصوفية فيده أفضل عند اللّه. قال ابن قتيبة: وما أرى هذا إلا كلام قوم استحبوا السؤال وحسنوه، وكل هذا مضمحل بعد التصريح بتفسيره فى الأحاديث الصحيحة، وإن قيل فيه إنه مدرج، والخلاف مبنى على أن المراد بالعلو المحسوس بنا على الغالب أو المعنوى من علو الشرف، كما قال الشاعر:

إذا كان باب الذل فى جانب الغنا   سموت إلى العلياء فى جانب الفقر

والتعبير عن المعطى بالمنفق وذى اليد العليا بناء على الغالب المتبادر، فلا يقال: يد السائل قد تكون فوق إذا أخذ من كفه، وإن المنفق قد لا يكون متصدقا، وأن الأخذ قد لا يكون سائلاً بأن يعطى ابتداء، والسائل قد لا يكون متصدقا عليه كسائل القرض وغيره، وهو ظاهر لا ينبغى التطويل بمثله، وتحصل فى الحديث ثلاثة أوجه:

أحدها: أن معناه يد المعطى ويد السائل بطريق الكناية.

الثانى: أن معناه المنفق والآخذ.

الثالث: عكس الأول، والأول أصح رواية ودراية.

وبقى وجه آخر وهو أن يراد بالعلو ومقابله العلو المعنوى لعلو رتبة المنعم وانحطاط رتبة الأخذ.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى حديث العامرى حين سأله فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** العامرى، نسبة لعامر اسم قبيلة وتسمى بنى عامر، سموا باسم جدهم كتميم، وكانوا وفدوا على رسول اللّه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيهم عامر ابن الطفيل، وأربد وتواعدا أن يقتلاه صلى الله تعالى عليه وسلم غيلة، فهلكا فى الطريق لما رجعا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم وقد حماه اللّه وعصمه، أما أربد فأصابته صاعقة أهلكته، وأما عامر فأصابه طاعون مات فيه فى بيت أمرأة سلولية، وسلول قبيلة مذمومة مسترذلة عند العرب، فكان يقول: أغدة كغدة البعير وموت فى بيت امرأة سلولية، فجرت مثلاً لاجتماع أمرين حقيرين. وأربد أخو لبيد الشاعر، وقد هداه اللّه للإسلام بعد موت أخيه أربد وحسن إسلامه، ولم يقل شعرًا بعد إسلامه غير قوله:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وهذا العامرى اسمه عطية، توفى فى حدود الثمانين، وفى العقد لابن عبد ربه أن اسمه لقيط بن عامر بن المنتفق، وساق له حديثا على وجه آخر.

(سل عنك) بفتح العين وسكون النون عن الجارة وكاف الخطاب، وهذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن شداد بن أوس، ولم أر من صحح لغة بنى عامر هذه وبين وجهها، ورأيت فى شرح ديوان الأعشى فى قوله[1]:

فاذهبى ما إليك أدركنى الحـ ـلم عدانى هجاكم أشفاقى

أن العرب تقول: اذهب إليك وسرى عنك بزيادة إليك وعنك انتهى. والمصنف رحمه الله تعالى ثقة واسع الاطلاع، لو لم يقف على أن هذه لغة لبنى عامر لم يذكرها، ووجه البلاغة فيها أنها جعلت كناية عن سل عن كل شىء، فإن كل أحد أدرى بنفسه، فإذا أمره بسؤاله عنها فكأنه قال له: أنا أعلم بك منك، وإذا كان كذلك فهو عليم بجميع أحواله، وهذا يدل على المراد بطريق برهانى بليغ.

(أى سل عم شئت وهى لغة بنى عامر) عم وقع فى بعض النسخ، عما بالألف وفى بعضها عم بدون ألف، والأولى أولى؛ لأنها موصولة كما لا يخفى، وإن أردت تحقيق هذا المقام فاعلم أن ابن قتيبة قال فى «أدب الكاتب»: إذا جرت ما الاستفهامية بحرف جر سقطت ألفها فرقا بينها وبين الموصولة إلا بم شئت، فإن العرب تقول: أدع بما شئت فى الموصولة والاستفهامية، فإن جرت باسم مضاف لم تحذف، وفى شرح النيلى: أما إذا كان الجار لها اسما متمكنا لم يفعلوا ذلك، وقول العرب: مجئ م ومثل م شاذ، وإنما حذفت مع الحرف تخفيفا فرقا بين الاستفهام والخبر، وخص الاستفهام لأنه اسم تام فصارت مع الحرف كاسم واحد، فحذف الألف لطول الاسم، وجاء نادرا: سل عم شئت فإن جره اسم متمكن لم يفعلوا ذلك، وجاء مع بعد وعلى لعدم تمكنها فألحقها بحروف الجر. وقول العرب: مجئ م جئت ومثل م أنت شاذ. انتهى. وهو تفصيل نفيس قل من حرره هذا التحرير، ومنه عرفت أن قوله: عم شئت صادف محزه، وأنه لا يرد عليه شىء مما قالوه. وفى شرح التسهيل لأبى حيان أن الأخفش، قال فى الأوسط: إن أنا وقد ذكر أن كثيرا يقولون: سل عم شئت كأنهم حذفوا ألفها لكثرة استعمالهم إياها. انتهى. وحينئذ لا حاجة إلى ما قيل إن المصنف رحمه الله تعالى وقف على أنها لغة لبنى عامر فقد تجانس المفسر والمفسر، وما قيل من إنه لا وجه لهذه النسخة من قصور النظر وقصر باع الاطلاع.

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى لسان العرب (١٥/٤٣٥)؛ تهذيب اللغة (١٥/٤٢٧).

(وأما كلامه المعتاد) أى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى اعتاده فى مجالسه مع قومه وأهل أرضه وغيرهم، **(وفصاحته المعلومة)** لكل أحد من كلامه. **(وجوامع كلمه)** كما ورد فى الحديث الصحيح: «أوتيت جوامع الكلم»[١] والجوامع جمع جامعة، أى كلمة جامعة لوجوه الفصاحة، والكلم اسم جنس جمعى لكلمة لا جمع ولا اسم جمع على الأصح، والمراد أن الله تعالى مَنَّ عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بإقداره على التكلم بكلمات بليغة جزلة حاوية لمعان نافعة من المواعظ ونحوها، وقيل: المراد بها القرآن، والأصح الأنسب بالمقام الأول، وقول الهروى: معنى جوامع كلمة القرآن جمع الله تعالى له فيه معانى كثيرة فى اللفظ يسيرة، وكلامه صلى الله تعالى عليه وسلم كان كذلك عرفت ما فيه. وقال ابن شهاب: بلغنى أن جوامع الكلم ما جمعه الله تعالى له من الكتب التى كانت قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحوه، والحاصل أنهم عدوا من فضائله صلى الله تعالى عليه وسلم وكمالاته، أنه كان يتكلم فى محاوراته بقليل الألفاظ المحتوية على المعانى التى لا حصر لها، ومنه ما ورد فى الحديث: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحب الجوامع من الدعاء»[٢] وهو ما يجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، وأما ما يجمع أنواع السؤال وآداب المسئلة، كما قلت فى قصيدة فى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم:

وجوامع الكلم التى فتحت له   سجدت لها البلغاء والأقلام

(وحكمه المأثورة) هو من الأثر، وهو ما يدل على الشىء من آثاره وعلاماته، ومنه أثرت العلم إذا رويته أثره أثرًا وإثارة وأثرة، إذا تتبعت أمره كما قاله الراغب، فالمأثورة المنقولة المروية، والحكم جمع حكمة وهى الكلمات النافعة فتشمل المواعظ فهى أعم من جوامع الكلم.

(فقد ألف الناس فيها الدواوين) الفاء جواب أما والضمير للحكم أو للمذكورات كلها، والمراد بها هنا الكتب المستقلة. والدواوين جمع ديوان بكسر الدال وفتحها فى لغة. وقال أبو عمرو: إنه خطأ ولو صح كان جمعه دياوين و لم يسمع كما قاله الجواليقى، وفى الأحكام السلطانية: الديوان موضوع لحفظ الأموال والأعمال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، ووجه التسمية بذلك أن كسرى اطلع على كتبة ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أى مجانين، ثم خفف بحذف الباء وقيل: إن الديوان بالفارسية اسم للشياطين جمع ديو بكسر الدال والألف والنون، علامة للجمع فى

---

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣/٧)، وأحمد (٢٥٠/٢، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٢).

الفارسية كزاهد وزاهدان، فسموا به لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلى والخفى، ثم سمى به مكانهم، وأول من وضع الديوان عمر رضى الله تعالى عنه وهو معرب كما قال الجواليقى، وأطلق على الدفتر ثم قيل: لكل كتاب، وقد يختص بالشعر لشاعر معين مجازا، وشاع حتى صار حقيقة فيه، فمعانيه خمسة: الكتبة، ومحلهم، والدفتر، وكل كتاب، ومجموع الشعر.

(**وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب**): المراد كتب الحديث المسندة وغيرها وشروحها، وجمعت مبنى للمفعول فلا وجه لما قيل إن الألفاظ قوالب المعانى، فمتى تجردت عنها كانت مهملة.

(**ومنها ما لا يوازى فصاحة**) يوازى مبنى للمجهول أى يماثل ويقابل ويساوى، من الموازاة وواوه مبدلة من الهمزة، يقال: آزى الشىء يوآزيه إذا حازاه، وفى شرح الكرمانى للبخارى آزيته ولا وازيته، يعنى لا يقال ذلك فى ماضيه، وأما المضارع فيجوز إبدالها فيه واوا لانضمام ما قبلها فتدبر.

(**ولا يبارى بلاغة**) أى لا يعارض فيؤتى بمثله وهو مجهول، بضم المثناة التحتية والموحدة وراء مهملة بين ألفين، وإنما لم يمكن معارضته لقربه من مرتبة الإعجاز، ففى تعبيره بالموازاة فى الفصاحة وبالمباراة فى البلاغة حسن لا يخفى وجهه، فلا يرد عليه أن الذى لا يعارض هو الكلام المعجز، والإعجاز يختص بالقرآن كما توهم، وفصاحة وبلاغة منصوبان على التمييز.

(**كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: « المسلمون تتكافئ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»**) التكافؤ التماثل من الكفؤ بالهمزة وهو المثل، أى هم متساوون فى القصاص والدية فشريفهم ومشروفهم، وصغيرهم وكبيرهم، وفقيرهم وغنيهم، وأميرهم وسوقتهم سواء، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، خلافا لما كان عليه الجاهلية من قتل الجمع الكثير بالواحدة، كما فى قصة كليب وغيرها، فجاء الشرع بإبطاله فلا يقتل الجمع بالواحد إلا إن تواطئوا عليه، وكان فعل كل واحد منهم يقتل لو انفرد، وبهذا الحديث استدل على أن المسلم لا يقتل بالكافر لا بناء على العمل بمفهوم المخالفة، بل لما ورد من التصريح به فى الأحاديث، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهده»[1]. والقائل بأنه

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٨٤، ٩/١٤، ١٦)، وأبو داود (٤٠٠٦)، والترمذى (١٤١٢، ١٤١٣)، وابن ماجه (١٦٥٩، ٢٦٦٠)، وأحمد (١/٧٩، ٢/١٧٨)، وابن حبان (١٦٩٩)، والبيهقى (٨/٣٠، ١٩٤).

يقتل المسلم بالكافر الذمى قال: المراد بالكافر هنا الحربى، وفى وجه التخصيص كلام للفقهاء والأصوليين، وقد أفرد هذا الحديث بجزء مستقل، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى عن على كرم الله وجهه وصححوه، وإلى عدم قصاص المسلم بالكافر ذهب أبو حنيفة خلافا للشافعى، وتساوى دمائهم: كناية عن التساوى فى القصاص والدية كما مر.

وقوله: «ويسعى بذمتهم أدناهم» المراد بالذمة العهد والأمان، فإنه إذا أمن أحد من المسلمين واحدا من الكفار، كان ذلك جاريا على جميع المسلمين لا يجوز نقضه لأحد منهم، وأدناهم أقلهم مقدارا فيشمل كل وضيع بالنص وكل شريف بالفحوى، فيدخل فيه الصبى والمرأة، واختلف فى أمان العبد، فقيل: يقبل، وقيل: إن كان مقاتلا جاز وإلا فلا، والصبى قيل: إن أمانه يقبل، وقيل: إن كان مراهقا قبل وإلا فلا، والمجنون لا يصح أمانه بلا خلاف، ومنهم من استثنى الأجراء والأسراء فى دار الحرب، ومعنى يسعى يباشر ويفعل.

وقوله: «وهم يد على من سواهم» فى النهاية معناه أنهم مجتمعون على أعدائهم يعاون بعضهم بعضا فلا يخذله، فجعل أيديهم كأنها يد واحدة فى الإنفاق، ولذا لم يقل أيدى، واليد يستعمل فى القهر والقوة والقدرة، أى هم مستولون قاهرون لغيرهم من أهل الملل، فهم فى الاتفاق باليد الواحدة فهو تشبيه بليغ أو استعارة، وفى هذا الحديث: «ويرد عليهم أقصاهم» وتفسيره مذكور فى كتب الحديث.

(**وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: الناس كأسنان المشط**) مناسبته لما قبله ظاهرة، والمشط: بضم الميم وكسرها وفتحها وشينه مثلثة أيضا، ويقال: ممشط كمنبر وهو آلة معروفة يسرح بها الشعر، وهذا مثل فى تساوى الأخلاق، فهو قريب من قوله: «تتكافى دماؤهم» وهو مثل كذا فى الشروح، وهذا الحديث أخرجه ابن لال عن سهل بن سعد فى مكارم الأخلاق، واعترض على هذا التفسير وجعله نظيرا لما قبله بأن تفاوت الناس فى الأخلاق مقرر، فالظاهر أن المراد تساويهم فى الأحكام الشرعية، والمراد بالناس المسلمون؛ لأن غيرهم لا يساويهم فى ذلك، أو الجمع باعتبار أغلب الأحكام، أو المراد تساويهم فى الأنساب فإنهم كلهم أولاد آدم، كما قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾ [الحجرات: ١٣] إلى آخره، فالمراد نفى ما كان عليه الجاهلية من التفاخر بالنسب، فلا شرف إلا بالعلم والتقوى، كما ورد فى الحديث: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى». وفى معناه ما نسب لعلى كرم الله وجهه:

الناس فى عالم التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

والشعر بتمامه مشهور، وليس المراد أن النسب لا يعتبر مطلقا.

(والمرء مع من أحب) رواه الشيخان عن أنس رضى الله عنه وغيرهما، وهو حديث صحيح مروى من طريق، منها: ما أسند إلى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول فى رجل أحب قوما و لم يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب فمن أحب الأبرار فهو مع الأبرار، ومن أحب الفجار فهو مع الفجار»[1]. وفى الحديث: «لا يحب الرجل قوما إلا حشر معهم»[2] وفيه: «يحشر المرء مع خليله فلينظر المرء مع من يخالل»[3] وروى: «من يخال» بالتشديد، ومصداقه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وأمثاله كثيرة لا تحصى، والمرء بمعنى الرجل، والمراد به هنا مطلق الإنسان الشامل للمرء والمرأة بطريق التغليب، ويحتمل التخصيص؛ لأن المرأة تحشر مع زوجها ولو أحبت غيره لله تعالى، والمراد المعية فى الحشر ومنازل الآخرة فيرتقى لمنزلتهم بسبب خلوص المحبة. قال الغزالى رحمه الله تعالى: وهذا لمناسبة روحانية باطنية خفية، وأسباب لا يطلع عليها، كما ورد فى الحديث: لو أن مؤمنا دخل مجلسا فيه مائة منافق ومؤمن واحد، فجاء حتى يجلس إليه فالمعية لدنو وقرب دينى لا فى مجرد الإكرام وضده فضلا من الله تعالى لا يعلمه إلا الله؛ ولذا قال فى آخر الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠] وإن لم يعمل عمل من أحبه، ولو كانت المعية فى مطلق الإكرام ناله كل مؤمن صالح وإن لم يحب.

فإن قلت: من أخلص محبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يكون معه وقد خصه الله تعالى بدرجة رفيعة لا يصل إليها أحد،وهذا هو الداعى، فمن جعل المعية فى مجرد الإكرام بقطع النظر عن خصوص المرتبة ؟.

قلت: هذا ارتضاه بعضهم وقد عرفت ما فيه، وقد ارتضى غيره خلافه وقال: يدل عليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنا وكافل اليتيم كهاتين)** ولا يلزم مساواته من

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥/٢٦٤٠)، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذى (٢٣٨٦)، وأحمد (٣٩٢/١، ١٠٤/٣، ١١٠، ٢٠٠، ٢٢٨)، والحميدى (٨٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥/٦)، والحاكم (٣٨٤/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٣/٢، ٣٣٤)، والترمذى (٢٣٧٨)، وأحمد (٣٠٣/٢).

كل الوجوه، وقد أطال فى الشرح الجديد هنا بما لا محصل له على عادته، ويجوز أن يراد بكونه معه كونه فى الجنة، ولابن حجر رحمه الله:

وقائل هل عمل صالح أعددته ينفع عند الكرب
فقلت حسبى خدمة المصطفى وحبه فالمرء مع من أحب

وقلت أنا:

وحق المصطفى لى فيه حب إذا مرض الرجاء يكون طبا
ولا أرضى سوى الفردوس مأوى إذا كان الفتى مع من أحبا

(ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له) هو حديث رواه ابن عدى فى «الكامل» بسند ضعيف كما قاله السيوطى فى تخريجه، وأوله كما قال التلمسانى: «المرء على دين خليله، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الخير مثل ما ترى له»[(١)]. وروى: «من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه». قال: وروى يرى بالياء والتاء للبناء للفاعل والمفعول، والصحبة بضم الصاد وسكون الحاء المهملتين والموحدة مصدر كالرفقة، أى يكون عنده من الرغبة والمودة والنفع مثل ما عندك له، كما قال ابن الأحنف:

إذا كان لا يدنيك إلا شفاعة فلا خير فى ود يكون بشافع

(والناس معادن) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وتمامه: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». والمعادن جمع معدن بكسر الدال وفتحها خطأ منبت الذهب والفضة، ونحوه من عدن بمعنى أقام لإقامة أهله فيه أو لإنباته فيه، ويطلق على مكان كل شىء فيه أصله، وعلى كل أصل، وعلى بيوت العرب، ويعنى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك أن بنى آدم يختلفون باختلاف أصلهم، فمن كان أصله شريفًا أعقب مثله وسرى طيب عرقه لفرعه، ومن كان دون ذلك كان عقبه مثله، ومن كان خبيثًا كان فرعه خبيثًا، ألا ترى أن الشجرة الكريمة تنبت فرعًا طيبًا وثمرة جنية وضدها كذلك، فعروق الحنظل لا تنبت إلا حنظلا ولو سقيت شهدا، ومنبت الذهب لا يتكون فيه الحديد والنحاس، لكن خيارهم حسبًا لا يصير خيارًا فى الإسلام إلا بالتقوى والعفة والعلم، فإذا كان كذلك طاب أصلاً وفرعًا، وإلا فلا ينفعه حسبه كأبى جهل لعنه الله وأضرابه.

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (١٠٩٧/٣).

وهاهنا نكتة: وهى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كمعادن الذهب والفضة» ولم يذكر معادن غيرهما من الأمور الخسيسة كالحديد والملح، إشارة إلى خلقة الإنسان وجبلته خلقت على الكرم والشرف، كما قال اللّه تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**كل مولود يولد على الفطرة**).

وقوله: «فقهوا» بضم القاف من الفقه وبكسرها بمعنى الفهم، ويجوز فى الأول الكسر أيضا. والفقه حذق الرجل بما يعلمه وعلمه وفهمه، ثم خص بعلم الشريعة مطلقا، ولذا قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: هو معرفة النفس مالها وما عليها، وسمى كتابه فى العقائد «الفقه الأكبر»، ونقل لعلم الفروع وتعريفه والكلام عليه مفصل فى كتب أصول الفقه.

وقوله: «الأرواح جنود مجندة» يعنى أنها خلقت قبل الأجساد أقساما مجتمعة، فمن وافقت روحه الروح التى هى من قسمه ألفتها، كما قال أبو نواس:

إن النفوس لأرواح مجندة لله فى الأرض بالأهواء تأتلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف و ما تناكر منها فهو مختلف

(**و**) من جوامع الكلم قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**ما هلك امرؤ عرف قدره**) قال السيوطى: قال السمانى رحمه الله تعالى: إنه حديث روى مسندا عن على كرم الله وجهه، وفى سنده من لا يعرف حاله. وقال التجانى: لا أعرف له سندا صحيحا إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هو من كلام أكثم بن صيفى فى وصيته، فإن ثبت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فعله تمثل به. وأكثم هذا بالمثلثة من بلغاء العرب وعده بعضهم فى الصحابة، والأكثم على خلافه، وفى كتاب «جوامع الكلم، وبدائع الحكم» هو من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكره مسندا يعنى أن من عرف مقدار نفسه ونزلها منزلتها نجا فى الدنيا والآخرة من الهلاك، ومن تعدى طوره فتكبر ورفع نفسه فوق حده هلك وهو ظاهر.

(**والمستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم**) المستشار اسم مفعول من المشاورة وسينه للطلب أى طلب رأى من يشاوره، وسيأتى أن المشورة بفتح الميم وسكون الشين، وأن الأفصح فتحها وضم الشين وكلاهما جائز بمعنى الشورى من شار العسل إذا اجتباه؛ لأنه بأراءه الصواب كأنه أطعمه شهدا، أو من شار الدابة إذا عرضها، ومنه المشوار لمكان تعرض فيه الدواب، والعامة تطلقه على جريها من إطلاق اسم الحال على المحل، فاختر لنفسك ما يحلو، فسميت بها لعرض أمره على من استشاره، وإنما كان المستشار

مؤتمنا؛ لأنه أودعه سره وما خفى من أمره وجعله أمانة عنده، فعليه أن يحفظه ولا يظهره، وأن ينصحه فيما استشاره فيه وقد أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمشاورة، وناهيك بعلو مقامه ومعرفته بعواقب الأمور، حتى قيل إنها كانت عليه فى الحروب تشريعا لأمته وتطييبا لقلوب أصحابه، كما قيل:

شاور صديقك فى الخفى المشكل واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه فى قوله شاورهم وتوكل

وقوله: «وهو بالخيار» الخ معناه أنه مخير إن شاء أشار عليه بما شاوره فيه، وإن شاء سكت و لم يتكلم، فإذا تكلم لزمه بيان رأيه ونصحه وذكر الصواب عنده.

وهذا الحديث أخرجه أحمد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ولفظه: «المستشار مؤتمن وهو بالخيار إن شاء تكلم وإن شاء سكت، فإن تكلم فليجتهد رأيه»(١). أى فليجتهد فى رأيه ويفكر فى الصواب فيه. وأخرج صدره فقط الأربعة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما.

(و) من جوامع الكلم النبوية قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (**رحم الله عبدا قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم**) هذا الحديث أخرجه أبو الشيخ عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه، والديلمى عن أنس رضى الله تعالى عنه، لكنه رواه: «رحم الله امرأ بدل عبدا» والعسكرى أيضا رواه مرفوعا عن أنس أيضا، وله شواهد وروايات تقويه وتصححه، فرواه البيهقى فى الشعب، والخرائطى فى الأخلاق. أما كونه إذا قال خيرا كالذكر والعلم والعظة، فإنه يغنم الأجر والذكر الجميل، وربما يحصل الغنم فى الدنيا. وقوله «أو سكت» أى خلاف الخير فيسلم من وباله وما يندم عليه كما لا يخفى.

(و) قوله: (**أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين**) من حديث رواه الشيخان فى كتابه الذى كتبه صلى الله تعالى عليه وسلم لهرقل ملك الروم، وروى: «أسلم تسلم» «وأسلم يؤتك الله» إلى آخره، وهو ظاهر، وعلى الأول فالثانى بدل مما قبله، أو جواب بعد جواب، أو مجزوم بجازم مقدر، وفيه من البديع التجنيس والانسجام والإيجاز، ومعناه تسلم من عذاب الدارين ومن ذل الجزية، ويؤتك الله أجرين أجرا باتباعك عيسى عليه الصلاة والسلام وإيمانك به، وأجرا أعظم منه بالإسلام واتباع خير النبيين عليه أفضل

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٧٤)، وأبو داود (٥١٢٨)، والترمذى (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥، ٣٧٤٦)، والدارمى (٢/٢١٩)، وابن حبان (١٩٩١)، والحاكم (٤/١٣١)، والبيهقى (١٠/١١٢).

الصلاة والسلام، ومرتين منصوب على الظرفية. وهذا كما ورد فى حديث آخر: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»[١]؛ فذكر منهم رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فآمن به إلى آخره بخلاف المشركين، وكتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لهرقل كان فى سنة ست حين ماد قريشا، وقيل: فى سنة خمس، وصورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين» إلى آخره، وهو مذكور فى الصحيحين مشروح فى شروحهما. والدعاية بكسر الدال مصدر بمعنى الدعوة. وكتب إلى المقوقس فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد ابن عبد الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المقوقس. وقال فيهما: عظيم الروم وعظيم القبط ولم يقل ملك الروم ولا ملك القبط، لأنه لا يستحق ذلك العنوان إلا من كان مسلما وقع ذلك فلم يخل بتعظيمهما تليينا لقلوبهما فى أول الدعوة إلى الحق. وهرقل بكسر الهاء وفتح الراء المهملة وسكون القاف كما قال جرير[٢]:

وأرض هرقل قد قهرت وداهرا ويسعى لكم من آل كسرى النواصف

وقيل: إنه بسكون الراء وكسر القاف، ولعلها لغة فيه لتلاعبهم بالأعجمى وهو علم ممنوع من الصرف، ولقبه قيصر، ويلقب به كل من ملك الروم كما مر، ولم يقل: ويؤتك بالعطف لتكرار أسلم لفظا أو تقديرا فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم على الإسلام، ومناسبة لكون أجره مرتين وليكون له أجرين أيضا، أو الأمر الأول للدخول فى الإسلام، والثانى للدوام عليه، ووصل له الكتاب مع دحية رضى الله عنه وهو بحمص فى المحرم سنة سبع، فلما قرأه كتب إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مسلم ولكنى مغلوب. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كذب عدو الله، إنه على نصرانيته» وقيل: إنه آمن. قال ابن عبد البر: كيف هذا وقد قاتل الصحابة رضى الله تعالى عنهم بتبوك؟ وواعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتيه فى العام المقبل فنزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبوك فلم يجىء، ثم أخذت البلاد منه فمكث بالقسطنطينية إلى أن هلك على نصرانيته سنة عشرين، ولذا لم يلقبه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالملك، مع أنه اعترف بأنه مغلوب، والمتغلب المغلوب معزول عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى، ففى هذا إخبار بالغيب.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البيت من الطويل، وهو فى ديوان جرير (ص٦٨٦)، لسان العرب (٤/٢٩٥)، تهذيل اللغة (٦/١٩٥)، تاج العروس (١١/٣٥١).

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص:٥٤] نزلت فى أهل الكتابين التوراة والإنجيل وهو فى النصارى صحيح، وأما فى اليهود فلا إذ لا يؤجرون على دينهم بعد نسخه بشريعة عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم؟ **قلت:** قد ثبت أنها نزلت فى عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه وأضرابه ممن أسلم من اليهود واستمر قبل ذلك على دين اليهود، و لم يتبع عيسى عليه الصلاة والسلام، فقيل: إنهم لإيمانهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ودينه يؤجرون عليه، وإن كان دينهم منسوخا.

وأما القول بأنهم لم تبلغهم دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام فبعيد، ولأنهم مأولين بأنه مبعوث لبنى إسرائيل خاصة وهم من العرب، لاسيما وهم ينكرون النسخ. وأما القول بأنها نزلت فى كعب الأحبار فغير صحيح؛ لأنه ليس له صحبة و لم يسلم فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أن يؤل بأنها نزلت فى أمثاله ممن آمن من أهل الكتاب وهو بعيد، وقال الكرمانى رحمه الله تعالى: إن هذا مخصوص بمن آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم فى عصره، لأن من بعده ينسخ دينه وبلغته دعوة الإسلام، وصحح غيره أنه عام لكل من أسلم من أهل الكتاب لما مر، وبه أفتى الإمام البلقينى فلا إشكال.

(وإن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون): هذا أيضا من جوامع كلمه صلى الله تعالى عليه وسلم وبدائع حكمه، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن ابن مسعود، وجابر رضى الله تعالى عنهما، وورواه الطبرانى وزاد فيه: «وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» وزاد غيره: «المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الملتمسون للبرآء العيب» واقتصر المصنف رحمه الله تعالى على بعضه، وفيه روايات مختلفة بالزيادة والنقص، وأحب أفعل تفضيل من المبنى للمجهول وفعله ثلاثى؛ لأنه يقال: حبه بمعنى أحبه فهو محبوب، وإن كان قليلا، وصوغه من المجهول مقصور على السماع فى الأصح، ومجالس جمع مجلس وهو محل الجلوس منصوب على أنه تميز، والتمييز يجوز إفراده وجمعه كما بينه النحاة، ونسبة القرب له كناية عن رضاه عنهم وشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم فى الموقف. وأحاسن: جمع أفعل تفضيل وجمع لمطابقة ما هو له وهو المضاف إليه، واستدل النحويون بهذا الحديث على أن أفعل التفضيل إذا أضيف لمعرفة يجوز أن يطابق موصوفه، وأن لا يطابقه لإفراده أحب وأقرب، وجمع أحاسن بخلاف ما إذا أضيف لنكرة فإنه يلزمه الإفراد والتذكير، ولا حاجة إلى القول بأنه انسلخ عن معنى التفضيل وصار بمعنى حسن، وإن ورد كثيرا فى كلامهم كما قال ابن مالك رحمه الله تعالى، بناء على أن الأحبية وكثرة الثواب بحسن الخلق فى الجملة، والأخلاق

جمع خلق وقد تقدم بيانه. والموطئون: بضم الميم وفتح الواو والطاء المهملة المشددة وبعدها همزة مضمومة جمع موطأ اسم مفعول. وقال البرهان الحلبى: إنه فى الأصل الذى وقف عليه بفتح الطاء من غير تشديد، وهو من فيه لين ورفق وسهولة من التوطئة وهى التمهيد والتذليل، يقال: دابة وطئه أى لا تحرك راكبها وفراش وطئ لا يؤذى النائم عليه، وهو فى الأصل على طريق التمثيل والاستعارة، كأنه يمكن غيره من وطئه بأقدامه فأريد به ما مر، والأكناف: جمع كنف بزنة جمل وهو الناحية والجانب، أى من يلين جانبه لغيره، والمراد: من يلتجأ إليه ويعتمد عليه، والأول أنسب بما بعده من قوله: «الذين يألفون ويؤلفون»، أى: الذين يألفهم الناس ويألفونهم من الألفة بالضم وهى الاجتماع مع حسن المعاملة والعشرة، والثرثار: الكثير الكلام فيما لا يعنى، مستعار من عين ثرثارة إذا كانت كثيرة الماء، وكذا المتفيهق وهو مفيعل من الفيهقة، من فهق الغدير يفهق بفتح الهاء فيهما إذا كثر ماؤه، والمتشدقون: الذين يتكلفون فى كلامهم بفتح أشداقهم كما قيل:

تشادق حتى مال بالقول شدقه ... وكل خطيب لا أبا لك أشدق

وورد فى هذا الحديث أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». وهو غير مخالف لما تقدم، لأن المعجب بنفسه وكلامه تدعوه حاله إلى التكبر، وفى التقريب: الفهق الاتساع وكل شىء توسع فقد تفهق، وأنشد المبرد[1]:

تفهق بالعراق أبو المثنى ... وعلم قومه أكل الخبيص

وفهق الغدير يفهق فهقا وفهق الرجل بالكلام امتلا. انتهى.

ثم عقبه بما يناسبه من جوامع الكلم فقال: **(وقوله)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه)** هذا حديث صحيح روى من طرق بعضها موافق لكلام المصنف رحمه الله تعالى، وفى بعضها مالا ينقص، وفى بعضها مالا يضره، وضميره راجع للرجل المذكور فى أول الحديث الذى رواه البيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه فى الشعب: أن رجلا من الصحابة استشهد بأحد فقالت له أمه: يا بنى ليهنئك الشهادة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لها: «وما يدريك لعله». الخ وأخرج الترمذى من حديث حفص بن غياث عن الأعمش عن أنس رضى الله تعالى عنه

---

(١) البيت من الوافر، وهو للفرزدق فى ديوانه (٣٨٩/١)، لسان العرب (٤٨٣/٣)، تهذيب اللغة (٤٠٤/٥)، المخصص (١٧٩/١٣)، ديوان الأدب (٤٥٧/٢).

قال: توفى رجل من الصحابة فقالوا له: أبشر بالجنة، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أو لا تدرون فلعله قد تكلم بما لا يعنيه أو بخل بمالا ينقصه» وأخرجه البيهقى من هذا الوجه أيضا وقال: هذا هو المحفوظ، قال خاتمة الحفاظ الجلال السيوطى رحمه الله تعالى: ومعناه أنه لا يهنئ ويبشر بالجنة إلا من لم يصدر عنه مثل هذا، فلعله يعاقب عليه. ويعنيه بفتح المثناة التحتية وسكون العين المهملة والنون بمعنى يهمه وينفعه من عناه يعنيه، ومنه الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»[1] وفيه نهى عن التكلم بما لا يلزم ولو مباحا لما فيه من تضييع الأوقات، ومن ترك الأهم كذكر الله تعالى عز وجل وتلاوة القرآن، وإذا نهى عن هذا فما بالك بالتكلم بكل قبيح كالغيبة والنميمة.

وقوله: «ويبخل بما لا يغنيه»: بضم المثناة التحتية وسكون الغين المعجمة وبين يعنيه ويغنيه تجنيس، والبخل ترك البذل ومنع العطاء اللازم كالزكاة والنفقة على من تلزمه نفقته، أو المستحسن مروءة كالتصدق على الفقراء وتفريج ضيق الإخوان وإطعام الطعام، وتخصيصه بالأول غير ظاهر، وكان الظاهر أن يقال بما لا يحتاج إليه كما فى الرواية الأخرى: «لا يضره ولا ينقصه» فعدل عنه لأنه أبلغ، فهو كناية عما ذكر، لأنه يعلم منه بالطريق الأولى، أو المراد مالا غناء له عنه. والبخَل: صفة ذميمة لا تعقب إلا الخسارة، كما ورد عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: (بشر مال البخيل بحادث أو وارث). وقال الشاعر كما مر:

يغنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ماتبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها) هذا حديث رواه أبو داود عن عمار بلفظ: «ذو الوجهين وذا اللسانين فى النار» فيقال له ذو الوجهين وذو اللسانين، ويقال له ذو الأوجه كما قال:

وكم من فتى يعجب الناظرين ... له ألسن وله أوجه

وإذا كان ذو الوجهين كذا فذو الأوجه معلوم بطريق الأولى، وبين الوجه والوجيه جناس اشتقاق، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وفيه لطافة لما فيه من جعل كونه له حالين متخالفين وكلامين غير متوافقين عند رجلين على وجه الإفساد إذا كانا متحابين، أو على وجه الإضرار إذا كانا متعاديين، بمنزلة من له وجهان يأتى هذا بوجه وهذا بآخر، كما قالوا: خرج بوجه وأتى بوجه غيره، والوجيه الذى له

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠١/١)، والترمذى (٢٣١٨)، وعبد الرزاق (٢٠٦١٧).

قدر ومنزلة، والمراد بكونه لا منزلة له عند الله تعالى أنه لا يرضاه ولا يحبه لقباحة فعله، أما لو فعل ذلك لإصلاح ذات البين وإزالة ضغائن القلوب ونحو ذلك، فهو أمر حسن ليس داخلا فيما مر، وقال التجانى: ذو الوجهين هو الذى يأتى كل قوم بما يرضيهم خيرا كان أو شرا، فيظهر لأهل المنكر أنه راض عنهم فيستقبلهم ببشر منه وترحيب، ويظهر لأهل الحق أنه عنهم راض فيريد إرضاء كل فريق منهم، ويظهر أنه معهم وإن كان ليس كذلك باطنا. وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن من شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[(١)]. خرجه مسلم. وعن أنس رضى الله عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «من كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة»[(٢)].

(**ونهيه عن قيل وقال**) هذا حديث صحيح رواه الشيخان عن مغيرة بن سهم، وفيه ثلاثة أوجه، فقيل: القيل والقال مصدران بمعنى القول. وقيل: فعلان أحدهما مبنى للمجهول. والثانى: غير مجهول وجوز فيه أن يحكى مبنيا على الفتح، وأن يعرب إعراب الأسماء وينون، ومنه تعلم أن نقل الجمل يجرى فى غير الإعلام كما صرح به المرزوقى، وذكر له نظائر هذا ما يتعلق بلفظه، وأما معناه فالنهى عن كثرة الكلام لما يؤل إليه من الخطأ، وكونهما بمعنى لا وجه له، فقيل: إنه إشارة إلى حكاية كلام الناس، فالأول حكاية عن غير معين. والثانى عن معين. وقيل: الأول عبارة عن السؤال والثانى عن الجواب. فالمعنى أنه نهى عن كثرة البحث والجدال فى الدين وغيره مما لا يلزم. وقيل: إنه نهى وزجر عن كثرة الكلام مبتديا ومجيبا.

(**وكثرة السؤال**) أى سؤال الناس ما بأيديهم استعطاء، وهو للقادر على الكسب من غير ضرورة حرام، وهو الذى ارتضاه علماؤنا. وقيل: مكروه، أو السؤال عن أخبار الناس وأحوالهم. قيل: وهذا يغنى عنه قوله عن قيل وقال، أو السؤال عن المشبهات والبحث عنها والتكلف فى تخريجها وتوجيهها، وقد ورد النهى عن ذلك، أو المراد نهيهم عن سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أمور لا يؤذن فى السؤال عنها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] ويرد عليه أنه لو أريد هذا قال: وعن السؤال من غير ذكر الكثرة، وأجيب بأن كثرته بضمه لما أذن فى السؤال عنه، وهذا يتضمن النهى عن أحدهما؛ لأن

(١) أخرجه مسلم (٢٥٢٦/٩٨)، والبيهقى (١٦٤/٨، ١٩٦/١٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٩٧٩)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٣١٠)، والبيهقى (٢٤٦/١٠)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٨٢/٨).

النهى عن مجموع أمرين أحدهما هو المنفى عنه فى نفس الأمر نظرا إلى هيئتهما المجموعة يتضمن النهى عن خصوص ذلك المنهى عنه، ولا يخفى ما فيه من التكلف لادعاء أمر لا يدل عليه اللفظ.

(وإضاعة المال) بأى طريق كان سواء كان ماله أو مال غيره كالإنفاق فى الحرام، وإهمال ماله وعدم تنميته حتى يهلك، ودفع مال السفيه له، والإسراف فيما لا فائدة فيه، كل ذلك منهى عنه، وعد من إضاعته حبسه وعدم صرفه فيما يليق، كما قيل:

وما ضاع مال أورث المجد أهله . ولكن أموال البخيل تضيع

ومن هان عليه المال توجهت إليه الآمال، ومن بسط راحته آنس ساحته، وكما قلت:

وتكرم نفس المرء إن هان ماله وكل كريم النفس فهو كريم

وقيل: تصدق المحتاج والمديون حرام، وكذا تصدقه بجميع ماله. وقال السبكى رحمه الله تعالى فى فتاواه: الضابط فى إضاعة المال أن لا يكون لغرض دينى أو دنيوى، فإذا انتفيا كان إضاعة، ومحل حرمة ما مر إذا لم يصبر ويتوكل على الله حق التوكل، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

(ومنع وهات) منع منون مجرور، وجوز فيه أن يكون فعلا ماضيا وهو بعيد، والمراد منع بذل ما يجب أو يستحسن أو مطلق الإمساك. وهات بكسر المثناة الفوقية أى طلب ما عند غيره وسؤاله، وهو فعل أمر أصله آت فقلبت همزته هاء وهو مذهب الخليل رحمه الله تعالى، وعليه أكثر النحاة.

(وعقوق الأمهات) العقوق مخالفة الوالدين وإيذاؤهم ضد البر من العق وهو القطع، والأمهات جمع أمهة وهى الأم، وأصل الأم أمهة لجمعه على أمهات وتصغيره على أميهة، وقد جاء أصله من المضاعف لقولهم أمات وأميمة، وقال بعضهم: أكثر ما يقال أمات فى البهائم ونحوها مما لا يعقل، وأمهات فى الإنسان، وخص الأمهات مع أن عقوق الوالدين من الكبائر؛ لأنهن أكثر حمقا وشفقة على الولد، ولذا لما سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» ثلاثا. قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[1]. وهو حديث صحيح. وأيضا لما لم يكن للنساء تلك الحرمة خصهن ليحثهم على برهن وينبه

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٨)، ومسلم (٢٠٤٨/١)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذى (١٨٩٧)، وابن ماجه (٣٦٥٨)، وأحمد (٣٢٧/٢)، والحاكم (١٥٠/٤)، والبيهقى (١٧٩/٤).

على ما يجب لهن، قيل: ومنه يؤخذ أنه إذا أعطى والديه شيئا يزيد عطية الأم على الأب وأكثر العقوق يكون لهن، وقال: حكمة الثلاث فى الحديث مشقة الحمل والوضع والرضاع. وذهب الجمهور إلى أنها تفضل على الأب فى البر، ونقل عن مالك وبعض الشافعية التسوية بينهما والأول أصح.

(ووأد البنات) الوأد: بفتح الواو وسكون الهمزة والدال المهملة، وأصله الصوت الشديد، وهو دفن البنات فى حياتهن، إما أنفة وغيرة من النكاح أو خوفا من الفقر، والمدفونة حية حالة الدفن تصيح غالبا. وما فى الشرح الجديد من أنها سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤدها أى يثقلها ومنه: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] غلط فاحش لاختلاف مادتيهما، فإن مادة الأول وأد والثانى أود، واختلاف معنييهما كما بينه أهل اللغة، وادعاء القلب لا حاجة إليه وكان هذا فى الجاهلية، وأول من فعله قيس بن عاصم التميمى فتبعه العرب على ذلك، وكان بعضهم يقتل أولاده مطلقا، وكان مصعب بن ناجية جد الفرزدق منع الوأد فى الجاهلية، كما قال(١):

وجدى الذى منع الوائدات وأحيى الوئيد فلم يوأد

وخص البنات لأنه الغالب، وكانوا على فريقين، فمنهم من يحفر حفيرة تلد المرأة عندها، فإن وضعت ذكرا أبقته وإن وضعت أنثى ألقتها فى الحفيرة وردم عليها التراب، فإن لم يفعل ذلك وصارت سداسية، ذهب أبوها لبئر ورماها فيها بعدما طيبتها أمها وزينتها. وفى الجاهلية من نهى عن ذلك كزيد بن عمرو بن نفيل، فلما جاء الشرع أبطل ذلك، وقد جعلوا العزل وأدا خفيا وهو الموؤدة الصغرى، ووجهه ظاهر وهو حرام أو مكروه، وفيه تفصيل ذكره الفقهاء، ثم نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن الثلاثة الأول من هذه الأمور الستة نهى كراهة وعن البقية نهى تحريم، لكن ليس بصيغة النهى بل يقتضى الحديث الآخر الصحيح، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»(٢) إلى آخره وبقى كلام زائد على مقتضى المقام.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم اتق الله حيث كنت) وفى نسخة الدلجى: «حيث ما كنت» وهذا الحديث رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه، ولا فرق بين الروايتين معنى؛ لأن ما زائدة والتقوى حفظ النفس عن ارتكاب المعاصى ولها مراتب فصلها القاضى فى أول سورة البقرة، وحيث ظرف مكان يضاف للجمل،

---

(١) البيت من المتقارب، وهو للفرزدق فى ديوانه (١٧٣/١)، كتاب العين (٩٧/٨)، جمهرة اللغة (ص٢٣٣)، تهذيب اللغة (٢٤٣/١٤)، تاج العروس (٥٩١/٦).

(٢) أخرجه البخارى (١٥٧/٣، ٤/٨)، ومسلم (٥٩٣/١٢)، والبيهقى (٦٣/٦).

والمراد بها هنا التعميم أى فى أى مكان وأى حال، وقيل: إنها هنا ظرف زمان بناء على مجيئها للزمان؛ لأن التقوى فى جميع الأزمنة أعم منها فى جميع الأمكنة، وقيل: إن الرواية: «حيث ما كنت» وقال غيره: إنه روى بحذفها أيضا، والأمر لرواية أو لكل من يقف عليه ليعم كل مأمور، وباعتباره أفرد الضمير كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧] ولنا فيه كلام ليس هذا محله.

(واتبع السيئة الحسنة تمحها) هذا وما قبله وما بعده حديث واحد، رواه الترمذى وقال: إنه حديث حسن صحيح، والمراد باتباعها إياها فعلها بعدها وجعلها تابعة لها، أى واقعة بعدها بحيث تقرب منها، وفى معنى الحديث قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، ومحوها وإذهابها بمعنى تكفيرها وعدم مؤاخذة الله بها فكأنها لم تكن، والمراد بالسيئة الصغيرة لقوله فى الحديث: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما عدا الكبائر». وقالت المرجئة: إنه شامل للكبائر والصغائر. وقال بعض المعتزلة: المراد أن الحسنة تكون سببا لترك الذنب ولا تكفر شيئا أصلا. ويحتمل أن المراد بالمحو حقيقته، والمعنى أنها تمحى من كتاب أعماله وتمحها مجزوم فى جواب الأمر، ولا بعد أن هذا مقيد بغير حقوق العباد، أما هى كالغيبة فإنه لا يمحوها إلا الاستحلال إذا بلغت من قيلت فيه بعد بيان جهة الظلامة إن أمكن، وإلا فقالوا: ينبغى أن يكثر من الاستغفار والدعاء له، ويكثر من فعل الحسنات لحديث: «إذا اغتاب أحدكم أخاه من خلفه فليستغفر له فإن ذلك كفارة»[1] ولهذا زيادة بيان وتفصيل فى كتاب المكفرات للسيد السمهودى رحمه الله تعالى.

وقوله: **(وخالق الناس بخلق حسن)** قد علمت أنه من تتمة ما قبله، وخالق: أمر من خالقه يخالقه بمعنى عاشرهم وخالطهم وعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، فليس المقصود المفاعلة بل هو لأصل الفعل، أو هو على أصله بجعل المطلوب منهم بمنزلة الواقع، والخلق بضمتين وضم فسكون السجية والطبيعة التى طبعوا عليها، وفيه إشارة إلى أنه يمكن اكتسابه وإلا لم يكن للأمر به فائدة كما ورد: « يا معاذ حسن خلقك مع الناس»[2] أى عاملهم بطلاقة وجبر الخواطر، وكف الأذى، فإن ذلك مؤدى لاجتماع القلوب وانتظام الأحوال، وهو جماع الخير وملاك الأمر، كما قلت:

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (١٨/٣)، وابن عدى فى الكامل (١٠٩٨/٣)، وأورده الذهبى فى الميزان (٣٤٩٥)، وابن حجر فى اللسان (٣٣٢/٣)، والسيوطى فى اللآلى (١٦٢/٢).

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٣٣٢/٧).

إن رمت أن تحظى بعز وهنا فاجتنب الناس وكن عنهم غنى
وإن تخالطهم فكن ذا عفة وخالق الناس بخلق حسن

(وخير الأمور أوسطها) لما كانت الملكات المحمودة لها طرفا إفراط وتفريط مذمومان، والمحمود ما بينهما وهو الوسط كالكرم بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، جعل الوسط منها مطلوبا على ما بين فى علم الأخلاق، وبه ورد التصريح فى الحديث الذى رواه العسكرى عن الأوزاعى بسنده، وهو: «ما من أمر أمر الله تعالى به إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين أيهما فعل أصاب الغلو والتقصير»(١). وروى أبو يعلى بسند عن وهب بن منبه: أن لكل شىء طرفين ووسطا، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أى بين غلو النصارى وتفريط اليهود. قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وقال الحريرى:

حب التناهى غلط خير الأمور الوسط

وقال:

خير الأمور عندنا الأوساط ويكره التفريط والإفراط

وليس الوسط عندنا بمعنى الخير والحسن مطلقا، بل فى أمور مخصوصة اقتضى توسطها خيريتها، ألا ترى إلى قولهم: «أخو الدون الوسط»، وقولهم: «أثقل من مغن وسط لا مطرب ولا مضحك»، كما فى الروض الأنف. وهذا الحديث أخرجه السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد عن على كرم الله وجهه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، وابن جرير فى تفسيره عن مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفى، وكذا أخرجه البيهقى بلا سند، وذكره الديلمى بلا سند عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولفظه: «داوموا على أداء الفرائض فخير الأعمال أوسطها»(٢). ويناسبه قوله: «أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا عسى أن يكون حبيبك يوما ما»(٣)، والهون بفتح الهاء وسكون الواو والنون

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٣٣٦).

(٢) أورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة (٢/٤١١).

(٣) أخرجه الترمذى (١٩٩٧)، وابن حبان فى المجروحين (١/١٣٥)، وابن عدى فى الكامل=

مصدر كالقول: من هان عليه الشيء إذا خف وسهل، ومنه الهون فى المشى وهو الرفق واللين، فأرشد صلى الله تعالى عليه وسلم المتحابين إلى الاقتصاد فى المحبة وعدم المبالغة فيها، وكذا المتباغضين اللذين بينهما عداوة لا ينبغى لهما المبالغة فى العداوة وإظهارها، فليكن ذلك على قدر متوسط فإن خير الأمور الوسط، فقد ينتقل الحب إلى البغض والبغض إلى الحب، فيقبح تفاوت حالك وتغير أقوالك وأفعالك، فالهون هنا بمعنى التوسط وعدم الإفراط، وقد فسره به أهل اللغة، قال فى النهاية: أى لا تسرف فى الحب والبغض فعسى أن يصير الحبيب بغيضا والبغيض حبيبا فيندم ويستحى. فدخل هذا الحديث تحت ما قبله. وقال ارسطاطاليس للأسكندر: لا تملأن قلبك بمحبة شىء ولا تستولين عليك بغضه، واجعلهما قصدا، فإن القلب كاسمه يتقلب. وقال بعض العرب:

وأحبب إذا أحببت حبا متفاوتا ... فإنك لا تدرى متى أنت نازع

وأبغض متى أبغضت غير مباين ... فإنك لا تدرى متى أنت راجع

وبين علته ابن الرومى بقوله:

احذر صديقك مرة ... واحذر عدوك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ ... ـق فكان أعرف بالمضرة

فإن قلت: كيف يدل على هذا التوسط وقد قالوا: إن ما تدل على القليل سواء قلنا إنها زائدة أوسط على ما فصله فى قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة:٢٦] وهى هنا مشددة لقلب النون ميما وإدغامها فيها؟ **قلت**: لأن الوسط قليل بالنسبة للأعلى، وقيل: إنها تفيد تقليل التوسط والحب إذا كان على وجه التوسط فى القليل كان قليلا، ولكن غير خارج عن مراتب التوسط، بل عن مرتبة التوسط الوسطى، ومن الجائز أن يكون له مراتب متفاوتة قربا من الطرفين وبعدا منهما وعدم قرب وبعد منهما، وعند عدم القرب والبعد منهما يكون التوسط الكثير، ونعنى به التوسط التام كما بالتوسط القليل التوسط الناقص، والحق أنه لا تقليل فيها، وإنما المراد أى هون كان وما فى ذلك للتأكيد كما فى الآية، والتقليل لو سلم يفيده تنكير هونا. انتهى. وفيه نظر؛ وهذا الحديث كما قال السيوطى أخرجه البخارى فى الأدب، والترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وقال التجانى: الأكثر على أنه من كلام على كرم الله وجهه. ورواه الحسن بن أبى جعفر مسندا عن على رضى الله تعالى عنه يرفعه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإسناد ضعيف. وقال الترمذى: الأصح أنه موقوف على على، وذكر

=(٥٩٣/٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢٤٨/٢).

الترمذى أيضا أنه ورد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه. قال: وأراه رفعه وهو غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وممن رفعه القضاعى فى الشهاب، ورواه الماوردى مرفوعا فى أدب الدين والدنيا، وكذا الغزالى فى الإحياء، ورواه فى مسند الفردوس.

(والظلم ظلمات يوم القيامة): الظلم وضع الشيء فى غير موضعه، وقد يكون بمعنى النقص. قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أى لم تنقص منه شيئا، وأرض مظلومة أى لم تمطر فكأنها نقصت عن غيرها، والمراد به تعدى الحدود سواء كان فى حق أو فى غيره وتعريفه يراد به العموم، وأفرد الظلم وجمع الظلمات إما لأنه جمع معنى لاستغراقه فيكون كمقابلة الجمع بالجمع، أو إشارة إلى أن الظلم الواحد تعقبه ظلمات متعددة لفظاعته.

وقال ابن الجوزى: إن من ظلم نفسه أو غيره نشأ ذلك عن قسوة قلب، ثم يعقب ذلك تعديد ومبارزة ربه بمخالفته، فلذا تعدد جزاؤه، وتلك الظلم إما حقيقة حسية كما أن المؤمن المطيع له نور يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الحديد:١٢] الآية. ومنهم من حمل الظلمة على الأهوال والشدائد كما فسر به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٦٣] أى شدائدهما، ولاحاجة إلى صرفه عن حقيقته مع إمكانها، وهذا الحديث صحيح أخرجه البخارى، وترجم له وأسنده إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، ورواه كما رواه المصنف: «الظلم ظلمات يوم القيامة»(١) ورواه مسلم: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»(٢). وبذلك علم أن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من حذف إن رواية فيه، فلا يقال إنه أخل بلفظه أو وقع على رواية فيه غير مشهورة، وحمل على الظلم الظلمات وجعلها عينه لأنه سببها مبالغة.

(وقوله) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(فى دعائه)**: أى فى بعض دعواته المأثورة، وقد جمع العلماء أدعيته فى كتب مستقلة من وقف عليها رأى فيها من هذا النمط أمورا عجيبة، وهذا الحديث رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

---

(١) أخرجه البخارى (١٦٩/٣)، والترمذى (٢٠٣٠)، وأحمد (١٣٧/٢)، والبيهقى (٩٣/٦، ١٣٤/١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٨/٥٦)، وأحمد (٩٢/٢)، والحاكم (١١/١)، والبخارى فى الأدب المفرد (٣٨٣).

وقال: إنه غريب. قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته: **(اللهم إنى أسالك رحمة من عندك)**، وفى رواية عن المصنف «رحمة» بدون قوله: «من عندك» والأولى هى المذكورة فى الترمذى، وعند إذا أضيف إلى الله لها معان، منها العلم كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم:٥٥] وتكون بمعنى الحكم نحو: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [الفتح:٥] وبمعنى التفضيل والإنعام من غير مقابلة عمل، نحو: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وبهذا فسره البرهان هنا، أى أطلب منك إحسانا بمجرد فضلك لا فى مقابلة عمل. وقيل: بل معناها قرب المنزلة أى أسالك رحمة تقربنى إليك. والهداية وغيرها بمحض فضل الله إذ لا يجب عليه شيء، فقوله: «من عندك» ليس معناه لا فى مقابلة طاعة لإشعاره، بل ما كان فى مقابلتها ليس بمحض الفضل، فذلك نسبة تشريف وتعظيم وتنويه وتكريم. انتهى. وليس بوارد لأن ما فى مقابلة العمل ليس بطريق الوجوب، بل بمقتضى وعده وحكمه السابق، وهو تفضل مخصوص منه أيضا. وقيل: معنى العندية عموم نفعها وجدواها بدون وسائط، وهو تكلف لا يساعده اللفظ والرحمة بمعنى الإنعام أو إرادته كما حقق فى محله.

(تهدى بها قلبى) أى تدله أو توصله إلى ما يقربنى من حضرة قدسك لأشاهد نفحات أنسك.

(وتجمع بها أمرى) أى تنتظم بها أمورى وشأنى حتى لا يكون لها تشتت.

(وتلم بها شعثى) أى تلم برحمة من عندك وتجمع ما تشعث وتفرق من أمرى، وهو كالتفسير لما قبله. قال الجوهرى: الشعث انتشار الأمر، يقال: لم الله تعالى شعثك أى جمع أمرك انتهى. وأصله انتشار الغبار فى الهواء.

(وتصلح بها غائبى) بالغين المعجمة والباء الموحدة فسروه بباطنى، أى ما خفى من أمورى عنى وعن غيرى. وقيل: المراد قلبى وصلاحه بصلاح صفاته من الإخلاص والصدق والتوكل والتوحيد.

(وترفع بها شاهدى) أى ظاهرى من الشهود وهو الحضور والمعاينة، وهو مقابل لقوله غائبى وبينهما صنعة الطباع، وقيل: أراد بهما الدنيا والآخرة. ورفعها: أى جعلها عالية رفيعة بالأعمال الصالحة والصفات الحسنة. وقيل: المراد بظاهره جسده ورفعته سلامته من الآفات وعصمته من البليات، وقد دل صلاح قلبه عليه بصلاحه صلاح غيره، لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن فى القلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله».

(وتزكى بها عملى) أى برحمة وتفضل منك تجعل عملى كله مباركا مقبولا سالما مما ينقصه كالرياء، أو هو من تزكية الشهود، أى تجعله ممدوحًا وهما متقاربان.

(وتلهمنى بها رشدى) الإلهام إيقاع الخير فى القلب، والرشد والرشاد السداد والاستقامة. والرشيد فى أسماء الله تعالى هو الذى يرشد عباده لمصالحهم ويدبره.

(وترد بها ألفتى) بضم الهمزة وكسرها وسكون اللام وفتح الفاء يليها تاء تأنيث وياء متكلم مصدر بمعنى المفعول، أى: ما كنت آلفه كالأليف ما تحبه وتريد اجتماعه، وردها عودها إلى ما كانت عليه. والمراد: عشيرته وأقرباؤه وأهل جلدته، فدعا الله أن يألفهم ويهديهم للإسلام، كما يقال: رد الله عليه ضالته أى جمع بينه وبينها. وقيل: المراد حاله التى كان عليها فى عالم الذر والأرواح من حب الله وتعظيمه وخلوصه من الكدورات الجسمانية وهو بعيد.

(وتعصمنى بها من كل سوء) أصل معنى العصمة المنع والحماية، أى يصوننى ويحفظنى مما يسوءنى، والباء فى المواضع كلها سببية. وزاد التجانى هنا: اللهم أعطنى إيمانا ويقينا ليس بعده كفر، ورحمه أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة.

(اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء) وروى فى العطاء. والفوز والنجاة والظفر فى القضاء والقدر بالفتح والسكون بمعنى فى اللغة، ومنهم من يفرق بينهما فيجعل القدر: تقدير الله الأمور قبل أن تقع. والقضاء: إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حيز الوجود وهو الصحيح، لأنه قد جاء فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بكهف مائل للسقوط فأسرع المشى حتى جاوزه. فقيل له: أتفر من قضاء الله؟ فقال: «أفر من قضائه إلى قدره» ففرق بين القضاء والقدر، وبين أن الإنسان يجب عليه أن يتوقى ما يضره قاله البطليوسى. فالمعنى أنه سأل الله النجاة من كل سوء قضاه على غيره أو عليه معلقا على أمر.

وقوله: **(ونزل الشهداء)** النزل بضم النون والزاى وتسكن، وهو مصدر جعل اسما لما يعد للضيف إذا نزل من القرى والكرامة، أراد ما لأرواحهم فى البرزخ ولهم فى الجنان من الإكرام والرزق والثواب، وقد فاز صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك لما منحه الله من الشهادة مع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

(وعيش السعداء) إما أن يريد بالعيش الحياة بأن يكون سعيدًا فى الدنيا معززًا مكرمًا موفقًا لما يرضاه، فائزًا بكل شىء يتمناه، أو فى الآخرة بأن يحييه حياة مخلدة منعمًا فيها بما يليق بجنابه، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:١٠٨]

الآية. والأحسن أن يريد مجموعهما. والعيش أصل معناه الحياة. والسعداء: جمع سعيد ضد الشقى وبعده فى الدعاء ومرافقة الأنبياء:

(والنصر على الأعداء) أى الانتصار عليهم وغلبتهم، والأعداء جمع عدو وضده الصديق، وتمامه: «اللهم أنزلت بك حاجتى يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور، كما تجير من البحور أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم وما قصر عنه رأيى وضعف عنه علمى و لم تبلغه نيتى أو أمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فإنى أرغب إليك فيه، وأسئلك يا رب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك وسلما لأوليائك، نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسئلك الفوز يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، والركع السجود، الموفين بالعهود، فإنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد، سبحان من تفرد بالعز، وقال به، سبحان الذى لبس المجد وتكرم به، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له، سبحان ذى الفضل والنعم، سبحان ذى القدرة والكرم، سبحان ذى الجلال والإكرام، سبحان الذى أحصى كل شيء بعلمه، اللهم اجعل لى نورا فى قلبى، ونورا فى قبرى، ونورا فى سمعى، ونورا فى بصرى، ونورا فى شعرى، ونورا فى بشرى، ونورا فى لحمى، ونورا فى دمى، ونورا فى عظامى، ونورا فى يدى، ونورا من خلفى، ونورا عن يمينى، ونورا عن شمالى، ونورا من فوقى، ونورا من تحتى، اللهم اعط لى نورا واجعل لى نورا». انتهى.

وقوله اعط لى باللام لمشاكلة اجعل لى، فلا وجه لما قيل أعطنى؛ لأنه لا يتعدى باللام إن صحت الرواية، وفى رواية: «اللهم أعظم لى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا»[(١)] وما وقع فى هذا الدعاء من السجع لا ينافى ما قيل من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكرهه، لأن محله ما إذا كان عن تصنع وتكلف ملتزما، فأما ما جاء من غير تكلف فلا بأس به. وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان يكره السجع إذا كان عن تعمد، لأنه من التكلف وهم براء منه، فمجيئه منه كتكلمه بالنظم منزه عنه، أما صدوره منه أحيانا وإن التزم كما هنا فغير مكروه كما ورد فى القرآن، ولذا قيل: إنه يصح إطلاق السجع عليه، ثم أشار إلى أن ما ذكره قطرة من بحر، فإن شئت الوقوف على غيره فأضف ما ذكر.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/٤٢٠).

(إلى ما روته الكافة عن الكافة) فما رواه كثير من الناس لا يحصون فكافة، وإن كان بمعنى جميعا لأنه اسم فاعل أو مصدر كالعافية والفاتحة فى قول من كف إذا جمع أطرافه، أو من كف بمعنى منع لأنه كان يمنع من الزيادة عليه، أريد به الكثرة كما وردت كل كذلك كثيرا إذ لم يروه جميع الناس ولا جميع المحدثين، لكنه لما شاع وذاع فكأنه كذلك، ثم إن سيبويه قال: إن كافة يلزم التنكير والنصب على الحالية كعامة وقاطبة وطرأ ونحوه، وزاد غيره أنها لا تثنى ولا تجمع ولا تطلق على غير العقلاء، ولم يرد ذلك فى كلام الله تعالى ولا كلام العرب، ووهموا من استعملها على خلاف ذلك كابن نباتة فى خطبة، وصاحب الكشاف فى كشافه، وفى قوله فى خطبة المفصل: محيط بكافة الأبواب لإخراجه لها عن النصب والتنكير واستعمالها فيما لا يعقل. وأما قول الجوهرى: الكافة الجميع من الناس فلا وهم فيه، لأن النكرة إذا أريد لفظها يجوز أن تعرف فلا وهم فيه، كما توهم صاحب الدرة وتبعه بعض الشراح هنا، فإنه ليس مما نحن فيه.

أقول: هذا وإن اتفقوا عليه لا وجه له رواية ودراية، أما الأول: فلأن العرب إذا استعملت لفظا فى معنى وضعته له على وجه خصوص من الإعراب لم يلزم غيرهم اتباعهم فيه، ولو قلنا بذلك لأدى إلى التضييق على الناس فى استعمال الألفاظ العربية، وعد هذا ونحوه لحنا كما قاله الحريرى لا وجه له، وأما الثانى: فلأنه روى عن عمر رضى الله تعالى عنه استعماله فى كتاب لبنى كاكلة المروى عنه رواية ثابتة، وعن على كرم الله تعالى وجهه فى ذلك أيضا، حيث كتبه بعينه بين جمع من الصحابة، وناهيك بهم فصاحة، فإن أردت تفصيله فانظره فى شرحنا لدرة الغواص.

وقوله: **(من مقاماته ومحاضراته)** بيان لما فى ما روته، والمقامات: بفتح الميم جمع مقامة مفتوحتها، وهى اسم لمكان القيام وتوسعوا فيه فاستعملوها لمطلق المكان، كقوله:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

ثم كثر فيه فاستعملوه لمن قام فيه كما سموهم مجلسا فى قوله:

واستب بعدك يا كليب المجلس

وزادوا فى التوسع حتى سموا به الكلام الصادر فيه مقامه كمقامات البديع والحريرى، ومثله من التجوز كثير، ومنه تعلم أن المجاز على المجاز لا يقتصر على مرتبة واحدة كما يوهمه كلامهم، فالمراد به الكلام الصادر منه فى مجالسه وخطاب أمته صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال حكمه وحروبه، ولا يخص بالخطب لكونه يخطب قائما لذكره لغيره، وإن كان المقام مقام خطابة يغتفر فيه الإسهاب، ولما أريد به هنا الكلام

وقع بيانا لما روته الكافة عن الكافة، والمحاضرات جمع محاضرة لا محضرة كما توهم، بضم الميم وحاء مهملة وضاد معجمة وراء مهملة أصل معناها، كما قاله الجوهرى: من حاضرته إذا جائيته أى جالسته عند السلطان، وهو كالمبالغة والمكاثرة، وحاضرته حضارا عدوت معه. انتهى. يعنى أنها مفاعلة من الحضور عنده، أو من الحضر بالضم فمعناها مجاراة الجليس جليسه فى الكلام، بأن تتكلم بما عندك فيما يخطر على بالك، ويتكلم هو فى ذلك معك، فالمراد مصاحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أصحابه أحيانا، ومصاحبتهم له كالتحدث بأمور سلفت ونحوها مباسطة ولا ملاطفة. ومنه كتب المحاضرات الأدبية كمحاضرات الراغب.

(وخطبه) جمع خطبة بضم فسكون من خطب الخاطب خطابه بالفتح، وخطبة بالضم إذا تكلم بكلام فى أمر مهم، سواء كان قائما على منبر والكلام مسجع أم لا وهى معروفة.

(وأدعيته) جمع دعاء كوعاء وأوعية، وهى سؤال الله وتوجهه إليه فيما يهمه **(ومخاطباته)** أى توجيه الخطاب لغيره حسبما اتفق.

(وعهوده) أى كلامه إذا أخذ العهد والميثاق على غيره من المسلمين كما فى كتبه للملوك وغيرهم، وقيل: المراد وصاياه.

(مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره) أنه بتقدير فى أنه لإطراد حذف الجار، قيل: إن وأن كما ذكره النحاة والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو لما، وذلك إشارة إلى البلاغة والفصاحة لسبقهما، أو للعلم بهما من سياق كلامه، ونزل منزلة ومرتبة أى محلا عاليا، ووصل إلى حد لا يصل إليه غيره، والمنزلة تستعمل فى الشرف والتاء للنقل، وفى بعض النسخ: «مرقبة» بالقاف أى محلا عاليا من شأنه أن يرقبه فيه ويطلع على أحوال غيره، وقوله: لا يقاس إلى آخره أى لا يساويه غيره، وضمير بها للمرتبة وضمير غيره للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للكلام والقياس يتعدى بالباء وعلى يقال قاسه بغيره وعليه كما فى القاموس والأساس، وفى حواشى العضد للأبهرى: القياس تقدير شىء بأخر، وعدى بعلى لتضمنه معنى البناء، وهو مخالف لما فى القاموس مع أن تعدى البناء بعلى فيه كلام فى حواشى تهذيب المنطق، وأما تعديته بإلى فى قول المتنبى[1]:

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه إليك وأهل الدهر دونك والدهر

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان المتنبى (٢/٢٣٠)، تاج العروس (٤١٦/١٦).

فلتضمنه معنى الضم والجمع كما قاله الواحدى.

(وحاز فيها سبقا) حاز: بالحاء المهملة والزاى المعجمة بمعنى حوى واشتمل، وضمير فيها للمرتبة. والسبق: بفتح السين وسكون الباء الموحدة مصدر سبق، وأما السبق بفتحهما فما يجعل من المال للمراهنة فى المسابقة، أى ما توعد بإعطائه لمن سبق غيره وهو أولى هنا، فكأنه قال: لتحقق سبقه أخذ وفاز بما يعد للسابقين. وأما السبق فى قول صدر الشريعة حفظته سبقا وسبقا فالمورد المعين لحفظ الأطفال وهو مولد مأخوذ من هذا.

(لا يقدر) بضم المثناة التحتية وفتح الدال المهملة المخففة مبنى للمجهول. **(قدره)** بسكون الدال أى مقداره، أى سبق كثير لا يلحقه فيه أحد ولا يعرف حقيقته، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

(وقد جمعت من كلماته صلى الله تعالى عليه وسلم التى لم يسبق إليها) ضبطه الدلجى وتبعه الشارح الجديد بالبناء للمفعول وسكون تاء التأنيث، والجار والمجرور نائب الفاعل ومن للتبعيض، أى جمع الرواة بعض كلماته لم يسبق إليها و لم يتكلم بها غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من زائدة وكلماته نائب الفاعل، إلا أن فيه زيادة من فى الإثبات ومدخولها معرفة، أو نائب الفاعل ضمير الكلمات المعلومة من السياق، وهذا كله تكلف حملهم عليه أنه روى كذا، والفعل المجهول لا يؤنث إذا كان نائب فاعل جار ومجرور مؤنث، فلا يقال: أخذت من هند وعدوا مثله خطأ، لكن ابن جنى رحمه الله تعالى قال فى إعراب الحماسة: إنه سمع نادرا وبه قرئ فى الشواذ فى قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ [التوبة: ٦٦] فمن خطأ صاحب التلخيص فى قوله صوحبت معها لم يصب وسيأتى وجه آخر أظهر من هذا، وهو أن نائب الفاعل ما الموصولة فى قوله: ما يدرك الناظر، ولو قرئ بالبناء للفاعل وحذف المفعول جاز.

(ولا قدر أحد أن يفرغ فى قالبه عليها) قدر: بالتخفيف من القدرة، ويفرغ: بضم المثناة التحتية وسكون الفاء وكسر الراء المهملة والغين المعجمة، وهو صب المايعات فى ظرف، وقالب: بفتح اللام اسم آلة كالعالم على خلاف القياس وقد تكسر لامه، وقيل: إنه معرب كالب، وقيل: إنه غير صحيح، والقالب ما يصب فيه ما يذاب من الجواهر كالفضة ليصاغ، ففيه استعارة مكنية تخييلية لجعله الكلام بمنزلة الجواهر وأسلوبه بمنزلة هيئة صياغته،وإثبات القالب له تخييل، وعليها بتقدير على هيآتها، وإن تحاكى، وفيه من البلاغة والمبالغة ما لا يخفى. وقيل: المراد بالقوالب الألفاظ لأنها قوالب المعانى، قال الجاحظ: استعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المتوسط وهجر الغريب ورغب عن

الهجر، فلم يأت إلا بكلام حق وسدد بالتأييد جمع الرقة والجزالة تدخل الإذن بغير إذن ليحفظ وينقل عنه.

(كقوله حمى الوطيس) هذا حديث مروى عن العباس رضى الله عنه، ورواه مسلم والبيهقى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما، وأنه قاله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين، وقيل: إنه أول ما قاله بأوطاس، ففى التعبير به مناسبة لفظية متضمنة لبلاغته وإبداعه، أى اشتد الحرب، والوطيس: بفتح الواو وكسر الطاء المهملة يليها مثناة تحتية وسين مهملة وهو التنور أو شىء يشبهه، وقد فسره بضراب الحرب أراد المعنى المجازى، وقيل: هو الوطئ الشديد الذى يطس الأرض أى يدقها، وقيل: هو حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد أن يطاها. قيل: و لم يسمع هذا الكلام من أحد قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من بليغ الكلام، وفيه استعارة مصرحة مرشحة بقوله: حمى أى اتقد، وقد حماه إذا سخنه وهى عامية، وهو طرف من حديث طويل فى مسلم، ورماهم بحصى فانهزموا فإن كان الوطيس بمعنى الحجارة ففيه مناسبة.

(ومات حتف أنفه) أى من غير ضرب ولا قتل ولا حرق ولا غرق ونحوه على فراشة، كأنه سقط على أنفه فمات. والحتف: الهلاك. وقيل: كانت العرب تتوهم أن روح المريض تخرج من أنفه وروح المجروح من جراحته، فكلمهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قدر عقولهم، وهذا بعض حديث صحيح رواه عبد الله بن عتيك قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الذى يخرج مجاهدا فى سبيل الله: «إن لسعته دابة أو أصابه شىء فهو شهيد، ومن مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن قتل فقد استوجب المآب»[1] قال عبد الله بن عتيك: فوالله ما سمعت قوله حتف أنفه من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وعلى هذا بين المصنف رحمه الله تعالى كلامه وعدها من كلامه الذى ابتدعه وهو المشهور، وذهب بعض أهل اللغة إلى أن هذه الكلمة تكلمت بها العرب قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وصححه فى المصباح واستدلوا بقول السموأل:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

وأجيب بأن هذه القصيدة اختلف فى قائلها، فقيل: هو السموأل وهو شاعر جاهلى، وقيل: عبد الملك بن عبد الرحمن الحارثى وهو إسلامى، وقيل: إن الرواية ليست هكذا وإنما هو: «وما مات منا سيد فى فراشه» فعلى هذا لا يرد على من عدها من مبدعاته

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٨/٢)، وابن أبى شيبة (٢٩٤/٥).

صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الشاعر الجاهلى لم يقلها. والإسلامى: أخذها من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم كقول عتيد بن عمر التابعى: «ما مات من السمك حتف أنفه فلا تأكله» أى ما طفأ على الماء من غير سبب ظاهر لموته، أو أنه لم يسبقه أحد من أهل زمانه و لم يسمعه من غيره فتأمله.

(ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) هذا حديث صحيح رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، وفى لفظه اختلاف لا يضر، ففى بعضها من جحر واحد، وفى بعضها من تقديم المؤمن وهو من الأمثال النبوية.

وفى كتاب ابن مسكويه المسمى بجاودان خرد الذى جمع فيه حكم اليونان: أن من أمثالهم: «لا يرمى العاقل بحجر مرتين» فانظر الفرق بين كلام النبوة وغيرها، فإن العاقل إذا أدخل يده فى جحر فلدغ هل يدخلها مرة أخرى. وقد قيل: «من لسعته الحية من الحبل يخاف» يعنى: أن المؤمن الفطن لا ينخدع مرة بعد مرة، ولا يؤتى من جهة الغفلة فيقع فى مكروه وهو لا يعلم، فينبغى أن يكون متيقظا فى أمر دنياه وآخرته، ويلدغ بالياء المضمومة المثناة التحتية واللام الساكنة وبالدال المهملة والغين المعجمة. وأما بالذال المعجمة والعين المهملة فهو إحراق النار. والجحر بضم الجيم وحاء ساكنة مهملة حفرة فى الأرض يكون فيها الحيات والحشرات، وهذا قاله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى عزة الشاعر، وكان يحرض الناس بشعره على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسر مرة فقال: إنى محتاج ذو بنات، فمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه بغير فداء، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا، فقال يمدحه صلى الله تعالى عليه وسلم:

من مبلغ عنى الرسول محمدا ... فإنك حق والمليك حميد
وأنت امرء تدعو إلى الله والهدى ... عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة ... لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحارب ... شقى ومن سالمته لسعيد

ثم نقض عهده وأتى مع الكفار لحربه صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذ أيضا بأحد، فسأله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمن عليه على مثل شرطه الأول، وقال: غلبت فأقلنى فلم يفعل وقال: «لا أدعك تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمدا مرتين، وأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وأمر بضرب عنقه فقتل صبرا»[1]. ومرتين أريد به التكرار كقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٣١٣، ٤/٤٦).

[الملك:٣، ٤] لكنه اقتصر على الأقل؛ لأنه أنسب بالحزم فكان محاربا شقيا كما قال فى شعره، والفال موكل بالمنطق، ولما فيه من الميل للحلم جرد من نفسه مؤمنا يقظا منتقما لا ينخدع لغادر متمرد، وانتقم صلى الله تعالى عليه وسلم منه و لم يعف عنه، فإن غضبه لله يأبى الحلم، كما قيل(١):

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

وإن كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يغضى عن أمور كثيرة ويتغافل عنها فى مقام آخر، كما قال أبو فراس:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

قال التجانى: ما وقع فى شعر أبى عزة من مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والتصريح برسالته ليس له مخرج إلا أن يكون قصد به خداعه.

(والسعيد من وعظ بغيره) المراد بالسعيد المبارك المرضى عند الله تعالى والناس، والوعظ ذكر ما يلين القلوب من ثواب وعقاب، أى من نصحته الحوادث النازلة بغيره فذكرته عواقب الأمور من خير وشر، فاتعظ بها فقلبها فهو سعيد، ومن يوعظ به غيره فهو شقى وأبلغ من هذا، وإن كان معنى آخر ما ورد فى الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه»(٢): كما رواه الماوردى فى أعلام النبوة. وفى معناه قول الشاعر:

لا تنته الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وفى معناه قلت:

الزهد فى الدنيا وترك الهوى عن كل أمر ضائر حافظ

ومن يرد خيرا به ربه كان له من نفسه واعظ

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى بعض حديث طويل رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، وفيه: «الشقى من شقى فى بطن أمه، والسعيد من اتعظ بغيره، والسعيد سعيد فى بطن أمه»(٣). وأخرجه العسكرى مرفوعا إلى النبى صلى الله تعالى

---

(١) البيت من الطويل، وهو للجعدى فى ديوانه (ص٦٢)، لسان العرب (٢٧٩/١٥)، تهذيب اللغة (٢٨٩/١٥).

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٢٢٨/٧، ٦١٤/٩).

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩٤/٣)، وفى الصغير (٥/٢)، وابن عبد البر فى التمهيد (٣٥٠/٦)، وابن أبى عاصم فى السنة (٧٨/١).

عليه وسلم فليس من كلام ابن مسعود رضى الله تعالى عنه كما توهم، وإنما تمثل به كما قاله الحافظ ابن حجر وشيخه العراقى.

وقوله: **(فى أخواتها)** جمع أخت أى فى الكلمات المشابهة لها بحسب البلاغة، يقال: هذا أخو هذا لمشابهته مواخا به لغلبة التشابه بين الأخوات، فهو استعارة أو مجاز مرسل، وفى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ [الأعراف:٣٨] أو هى على أصلها كان أخواتها لكثرتها محيطة بها إحاطة الظرف بالمظروف، ففيه استعارة وهى فى الحقيقة أكثر من أن تحصى، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»[1] و «المجالس بالأمانات»[2] و «الحرب خدعة»[3] و «إياكم وخضراء الدمن المرأة الحسناء فى المنبت السوء»[4] وغيره مما لا يحصى، وقد افردناه بالتأليف، وذكر الشارح منها جانبا فيه وفى شرحه وهو بمعزل عن شرح الكتاب، فلذا أضربنا صفحا.

(ما يدرك الناظر العجب فى مضمنها) قيل: ما نائب فاعل جمعت المبنى للمجهول كما تقدم ضبطه وأنث رعاية لمعناه لأنه بمعنى الكلمات المجموعة، وجملة يدرك بمعنى يلحق، والعجب فاعله أو الناظر فاعل والعجب مفعول ويدرك من الإدراك بمعنى التصور، ومضمنها بضم الميم وفتح الضاد المعجمة والنون اسم مفعول، أى ما تضمنته من المعانى البديعة والتراكيب الصحيحة، أى يتعجب فى ذلك كل من يراها وفى نسخة مضمونها.

(ويذهب به الفكر فى أدانى حكمها) أى يذهب بالناظر فكره فى أقلها وأقل ما تضمنته من الحكم فالضمير فى به للناظر، وأدانى جمع أدنى بمعنى أقل عددا أو كلما فما بالك بالأكثر، ومعمول يذهب محذوف لقصد العموم أى فى كل مذهب، فمعنى الذهاب به أنه يتحير فيها، فهو على حد قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٥] ففيه استعارة تمثيلية أو كناية.

(وقد قال له أصحابه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(ما رأينا الذى هو أفصح منك)** هذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان مسندا، وذكره القالى فى أماليه، وشرحه وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوما جالسا مع أصحابه فنشأت سحابة، فقال صلى الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الرامهرمزى فى الأمثال (٨٤)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٩٥٧)، وأبو عبيد فى الغريب (٩٩/٣).

تعالى عليه وسلم: «كيف ترون قواعدها» إلى آخره، وستراه قريبا، ومثله ما رواه أبو نعيم فى الدلائل قال: لما خطب عنده صلى الله تعالى عليه وسلم بعض خطباء الوفود فأجابه بكلام عذب فصيح، فقال له على كرم الله وجهه: يا رسول الله نحن وأنت بنو أب واحد ونشأنا فى بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما يفهم أكثره. فقال: «إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى، ونشأت فى بنى سعد بن بكر». والحاصل أن الصحابة رضى الله عنهم أكثروا من مخالطة فصحاء العرب وخلصها، وكانوا لا يفقهون أحيانا كلامهم حتى يفسره صلى الله تعالى عليه وسلم لهم. وقد ورد أيضا كما يأتى أن لغة إسماعيل عليه السلام كانت اندرست، فعلمها له جبريل عليه الصلاة والسلام كما علم آدم الأسماء.

(فقال: وما يمنعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين) أى ما يمنعنى من أن أكون أفصح الناس، أو من أن لا تروا أفصح منى، والكتاب الذى أنزل على بأفصح اللغات وفى أعلى طبقات البلاغة، هذا من تتمة الحديث السابق فى وصف السحابة وهو حديث صحيح، رواه التجانى مسندا عن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب عن موسى بن محمد بن إبراهيم التميمى عن أبيه عن جده قال: بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم جالسا مع أصحابه إذ نشأت سحابة فقالوا: يا رسول الله هذه سحابة، فقال: «كيف ترون قواعدها»؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها قال: «وكيف ترون رحاها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: وكيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استقامتها. قال: «وكيف ترون برقها أوميضا أم خفيفا أم يشق شقا؟» قالوا: بل يشق شقا. قال: «وكيف ترون جونها؟» قالوا: ما أحسنه وأشد سواده. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «الحيا» فقالوا: يا رسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعنى من ذلك وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين».
وقواعد السحابة أسافلها واحدتها قاعدة، وأما القواعد من النساء فواحدتها قاعد، وهى التى قعدت عن الولد. ورحاها وسطها ومعظمها وكذا رحى الحرب وسطها ومعظمها حيث ابتدار القوم. وقال الجوهرى: مستدارها وبواسقها ما علا منها وارتفع، وكل شىء علا فقد بسق، وقال بن الأثير: ما استطال من فروعها. والوميض: اللمع الخفى، يقال: أومض إيماضا، وأومض بعينه غمز والخفى بزنة الضرب، وبالإعجام البرق الضعيف، كما قاله القالى. قال التجانى: التقدير أترونه وميضا أو ذا خفى، لقول الجوهرى: خفا البرق يخفو خفوا ويخفى خفيا إذا لمع ضعيفا معترضا فى نواحى الغيم، فإن لمع قليلا ثم سكن فهو الوميض، فإن شق الغمام فاستطال فهو العقيقة وجونها

أسودها وهو من الأضداد، لأنه يكون بمعنى الأبيض. والحيا: بالقصر الغيث وجمعه أحياء، والعناية بوصف السحاب مشهورة بين فصحاء العرب.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم **(مرة أخرى بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد)** قال السيوطى: هذا الحديث أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد، والطبرانى من حديث أبى سعيد ولفظه: «أنا أعرب العرب، ولدت فى قريش، ونشأت فى بنى سعد، فأنى يأتينى اللحن»(١). وقال قطلوبغا فى تخريجه: أخرجه أبو عبيد بلاغا، وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتنى قريش ونشأت فى بنى سعد، فأنى يأتينى اللحن»(٢). وفى سنده مقال. وأما ما اشتهر من «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش»(٣) فقالوا: إنه لم يثبت وإن ذكر فى كتب النحو والأصول.وبيد فيها لغتان أخريان مبد بالميم وبايد كما ورد فى الحديث، قال فى النهاية: و لم أقف عليه، ولعله بأيد أى بقوة فحرف وفسر بغير الاستثنائية، وبمن أجل التعليلية وبعلى أن كما يقال هو كثير المال على أنه بخيل، وتلزم الإضافة لأن المشددة وصلتها، وهى فى الحديث بمعنى والاستثناء ههنا منقطع على حد قوله:

ولا عيب فيه غير أن نزله   يعاب بنسيان الأحبة والوطن

واستدل أبو عبيدة على مجيئها بمعنى من أجلى بقوله:

عمدا فعلت ذاك بيد أنى   أخاف إن هلكت أن ترنى

وقولهم: ما رأينا الذى هو أفصح منك عنوا به ولا يساويك كما مر تحقيقه وجوابه بقوله بيد إلخ، إن فسر بغير فظاهر لإفادته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح من جميع العرب، وأما تفسيرها بمن أجل فقد استشكل بأن مفهومه أنه من قريش وهم أفصح العرب، ولا يلزم منه أن يكون أفصح العرب بل من أفصحهم، وهذا الإشكال أورده بعض الشراح على أنه من بنات أفكاره، ومر أنه قد سبقه إليه الكورانى فى شرح «جمع الجوامع» وتقدم ما فى ذلك مبسوطا فى أول الكتاب، ووجهه أن العلة موجودة فى غيره، وهو نقض للحكم بوجود علته فى غيره، وأورد عليه أن كثيرا من الأصوليين

---

(١) أخرجه ابن سعد (٧١/١/١)، وأورده ابن كثير فى البداية (٢٧٧/٢)، والعجلونى فى كشف الخفا (٢٣٢/١، ٢٣٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٤٣/٦).

(٣) انظر: تذكرة الموضوعات (٨٧)، والدرر المنتثرة (٢٣)، وكشف الخفا (٢٣٢/١)، والفوائد المجموعة (٣٢١).

كالبيضاوى والهندى ذهبوا إلى أن تخلف الحكم إن كان لمانع أو فقد شرط لا يقدح فى علية العلة مطلقا سواء كانت منصوصة أم لا، والتقدير هنا مع كونى نبيا، فالتعليل هنا صحيح مطرد على ما فصل فى العضد وغيره، ويسمونه خصوص العلة، وهذه خزيرة لأن الحديث: «بيد أنى من قريش، واسترضعت فى بنى سعد» وفى رواية: «وأنزل القرآن بلسان عربى مبين».والمجموع هو العلة ولا توجد فى غيره، أى أنى من قبيلتين هما أفصح العرب وقد نشأت بالحاضرة والبادية، فجمع لى من الرقة والجزالة ما لم يجتمع لغيرى، أو المعنى أنى أنزل على القرآن على أسلوب لا يوجد فى غيره جامع لزبدة جميع اللغات، فآثر فى سلامة طبعى وانتقش فى صحف ذهنى مالا يتصور لغيرى. وأما النبوة فلا دخل لها هنا، أو نقول كونه أفصح من قريش معلوم؛ لأن السائلين له صلى الله تعالى عليه وسلم منهم وهو بين أظهرهم لا يخفى عليهم حاله.

وأما كونه نشأ فى بنى سعد واسترضعوه، فلأن حليمة السعدية رضى الله تعالى عنها أرضعته بعد ثويبة جارية أبى لهب، وحليمة بنت أبى ذؤيب وزوجها الحارث أبوه من الرضاعة، وبنو سعد من أكرم العرب وأفصحهم، وحليمة من أوسطهم ولذا اختارها الله تعالى لرضاعه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن الرضاع يؤثر فى الطباع، ووقع عندها شق صدره الشريف وسيأتى بيانه وأنه وقع مرارا، ثم إن التجانى قال: اختلف المتكلمون فى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هل منه ما هو معجز كالقرآن بناء على هذه الأحاديث أم لا؟ فذهب فى بعضهم إلى إعجازه، وأن إعجازه دون إعجاز القرآن. وذهب الباقون إلى أنه فى معناه فى الفصاحة ولكن لا يبلغ إلى رتبة الإعجاز وهذا هو الصحيح. واحتج الأولون مما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه اشتبه عليه كون المعوذتين من القرآن، وعد بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين القنوت من القرآن وهم فصحاء عالمون بمراتب الإعجاز، والصحيح أن هذا باطل لم يثبت عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وغيره، أو متأول بأنه لم ينكر كونهما من القرآن ولم يشك فيه، وإنما أنكر كتابتهما فى المصحف؛ لأنه لم يبلغه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بكتابتهما وهو محجوج بقراءته وقراءة الصحابة رضى الله تعالى عنهم بهما فى الصلاة، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى آخر الكتاب.

فإن قلت: ما مر من تكلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشى الغريب مخالف لفصاحته صلى الله تعالى عليه وسلم؟

قلت: لا، لما مر من أن الوحشى من أهله وممن يتكلم معهم فصيح، فلا حاجة إلى القول بأنه غير غريب لثبوته فى كتب اللغة من غير احتياج لتنقير وتفحص، وإلى ما

ذكرناه أشار المصنف رحمه الله تعالى.

بقوله: (**فجمع له صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك قوة عارضة البادية**) جمع مبنى للمجهول، وأصله جمع الله له فحذف للعلم به، وذلك إشارة لكونه من قريش ونشأ فى بنى سعد، وإنما نشأ صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم على عادة قريش فى دفعهم أولادهم لمرضعات البادية ليتفرغ النساء لشأنهن، ولأن هواها أصح، وليكون مع أولاد الأعراب فيتدرب لترك الترفه، ولذا كان عادة ملوك بنى أمية والعارضة التجلد والقدرة على الكلام، ويقال: بعير عرضة للسفر أى قوى عليه، وإضافة القوى لها بيانية، والبادية والبداوة والباداة خلاف الحاضرة، وتبدى أتى البادية، وتبادى تشبه بأهلها وهى خلاف الحاضرة، أى الأمصار، والمراد بالبادية أهلها أو هو بتقدير مضاف.

(**وجزالتها**) بفتح الجيم والزاء المعجمة خلاف الركاكة، أى جزالة كلامها يقال: كلام جزل أى قوى شديد، ومنه الحطب الجزل للغليظ، وليس من الركيك وهو الضعيف من الألفاظ المحلول التركيب، فتكثير السواد به وهنا غير مناسب.

(**ونصاعة ألفاظ الحاضرة**) النصاعة كالفصاحة مصدر بمعنى الخلوص، والمراد خلوصها من التعقيد والغرابة الوحشية، وصاده وعينه مهملتان من نصع الشىء إذا ميز جيده من رديه، والحاضرة خلاف البادية سكان القرى والأمصار.

(**ورونق كلامها**) الرونق البهاء والحسن، فإن كلام أهل البادية قوى متين لعدم تصنعهم، وكلام أهل الحاضرة رقيق لطيف فجمع كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم بين هاتين الصفتين مضموما ذلك (**إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى**) ومدده بمعنى ممده لا بمعنى زيادته، والتأييد التقوية من الأيد وهو القوة، وأمده بإيحائه وإنزاله عليه كلامه المعجز، ولذا صح أن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولغة أهل الجنة، فلا صحة لما رواه بعضهم أن لسان أهل الجنة الفارسية الدرية، وهذا فى معنى ما روى من أن عمر رضى الله تعالى عنه قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: مالك أفصحنا و لم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءنى بها جبريل عليه الصلاة والسلام فحفظتها»[1].

(**الذى لا يحيط بعلمه بشرى**) أى إنسان منسوب للبشر وهم الناس والضمير للتأييد الإلهى.

(**وقالت أم معبد**) هى كما مر عاتكة بنت خالد بن زمعة إحدى نساء كعب بن

---

(١) أورده الهندى فى كنز العمال (٣٥٤٦٢).

عمرو بن خزاعة، وزوجها عبد الملك بن وهب، وقيل: لا يعرف اسمه، توفى فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويقال: إنه صحابى له رواية، وكانت تنزل بين مكة وجبالها فنزل عليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر رضى الله تعالى عنه لما هاجرا فقرتهما، فلما جاء زوجها أخبرته بذلك ووصفته له فى حديث ذكره أهل السير أفرده الحافظ العلائى بالشرح.

(وفى وصفها له) مصدر مضاف لفاعله وضمير له للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل أن يكون له خبر مقدم والأول أولى.

(حلو المنطق) الحلو فى المطعومات مستلذ، فاستعير لما يعجب السامع ويستلذ بسماعه ذوقه، أو كلجين الماء.

(فصل) مصدر بزنة ضرب بفاء وصاد مهملة ولام، أى فاصل بين الحق والباطل، أو بين ظاهر قاطع للشك لا لبس فيه، أو يفسره قوله: **(لا نزر ولا هذر)** كما قاله العلائى رحمه الله تعالى، أو ذو فضل بين أجزائه لقول عائشة رضى الله تعالى عنها: «ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكن كان إذا تكلم بكلام بينه فيحفظه من يجلس إليه» كما فى المصباح، ونزر: بفتح النون وسكون الزاى قليل لا يفهم. والهذر: بالهاء والذال المعجمة المفتوحتين يليه راء مهملة كذا ضبطه العلائى وهو راو ثقة، وتبعه بعض أرباب الحواشى، وضبطه ابن الحنبلى بسكون الذال مصدر هذر يهذر فى كلامه، والاسم الهذر بالتحريك وهو كثرة الكلام بحيث يمل، وهذا غير مناف لما ورد فى الحديث: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الحديث اختصارا»(١)؛ لأن المنفى الإيجاز المخل لا المقبول منه.

(كأنه منطقه) أى ما ينطق به **(خرزات نظمن)** أى متناسبة لها رونق كالعقد المنظوم من الجواهر، والخرز: ما ينظم من الجواهر وليس كما تفهمه العامة من تخصيصه بنوع كما فى الصحاح من الخرز وهو المثقب.

(وكان جهير الصوت حسن النغمة صلى الله تعالى عليه وسلم) العرب تتمدح بعلو الصوت وتذم بضده، ولذا تمدحوا بسعة الفم وذموا بصغره كما قاله الجاحظ فى كتاب البيان، وقد ورد فى وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث ابن أبى هالة أنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، كما قال العجير السلولى:

جهير وممتد العنان مناقل ... بصير بعورات الكلام خبير
لو أن الصخور الصم يسمعن صوته ... لزحن وفى إعراضهن فطور

---

(١) تقدم تخريجه.

والجهير والجهورى العالى الصوت فليس فيه خفاء ولا تكسر ككلام النساء. **أقول:** هذا لا ينافى ما مر من ذم التقعر والتشدق فى الكلام، فإن ذلك إذا أفرط وكان تصنعا، ثم إن المدح بسعة الفم لدلالته على الفصاحة وقوة القدرة على الكلام بخلاف غيره، والمراد ما لم يفرط بحيث يشوه الخلقة لاسيما مع غلظ الشفتين، ولا عبرة بمدح شعراء العجم ومن تبعهم من المتأخرين لضيق الفم فإنه مقصد فاسد، كما قال ابن سناء الملك:

له فم ضيق فلم يستطع أن يخرج اللفظ بتقويم
ولفظ سكران من ريقه فهو لهذا غير مفهوم

وقال أيضا:

بمهجتى أفديه من فصيح لفظ من معجمه
لا يستطيع اللفظ أن يخرج من ضيق فمه

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قرأ بالليل أو خطب يسمع صوته، وأما حسن نغمته فلما ورد فى الحديث عن على كرم الله وجهه: «لم يبعث الله تعالى نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان داود صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قرأ الزبور لم تبق دابة إلا أنصتت» إلا أن قراءة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لم تكن على طريقة الألحان والموسيقى فإنه غير ممدوح، وحديث **(ليس منا من لم يتغن بالقرآن)** الكلام فيه مشهور.

(غريبة) ذكرها التلمسانى هنا قال: قال ابن سيدى الحسن: كان شيخنا أبو زكريا يحدث عن شيخه منصور بن على التجانى، عن أبيه وغيره من شيوخه يقول: إنما كانت المصامدة فيهم بركة، لأنه وفد منهم رجل، وقيل: رجلان، وقيل: بل هم سبعة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين بعث، فلما دخلوا المسجد الحرام لم يعرفوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا لا يعرفون العربية، فقال رجل منهم بلغته: من أبون أسيران وأسير بلغتهم النبى أو الرسول، أى أيكم رسول الله، فلم يفهم الحاضرون قوله، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم «اشكد اور» ومعنى اشكد تعالى وأقبل هلم وهو بهمزة وشين معجمة ساكنة وكاف مفتوحة ودال مهلة ساكنة مشددة، واور معناه هنا أو إلينا، وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبه بلغته ولا يفهم القوم، فأسلم وبايع وانصرف لقومه، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بقدومه ولغته، قال أبو زكريا: كان شيخه منصور يحدث لهذا الحديث فى هذا الفصل فسبحان من علمه ذلك إنه المنعم الكريم. قال: وقبورهم موجودة إلى الآن انتهى.

* * *

(فصل)

(وأما نسبه وكرم بلده ومنشائه) الشرف: رفعة القدر. والكرم: يجمع أنواع الخير وإن خصه العرف بمعنى الجود. والمنشأ: محل نشأ فيه وتربى.

(فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه لظهوره، ولا بيان مشكل، ولا خفى منه) المراد: أنه لاخفاء فيه ولا إشكال حتى يحتاج إلى البيان على حد قوله: ولا ترى الضب بها ينجحر.

(فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نخبة بنى هاشم) النخبة بضم النون وسكون المعجمة وفتحها وبالموحدة كهمزة المختار من بينهم المنتقى. **(وسلالة قريش وصميمها)** السلالة بالضم بمعنى النسل المستخرج منهم والصميم الخالص. **(وأشرف العرب وأعزهم نفرا)** أى قوما، والنفر: رهط الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع لاواحد له يقع على الرجال خاصة من الثلاثة إلى العشرة، وذكر الكرمانى أنه يقع على الواحدى كما ذكرناه فى شرح الدرة **(من قبل أبيه وأمه)** كما هو مبين فى السير.

(ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله) لتشريفها وجعلها قبلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومقصد الحجيج **(وعلى عباده)** إذ لم تزل الناس تعظمها فى الجاهلية والإسلام. وقال التجانى وتبعه بعض الشراح هنا بعد ما ذكر حديث: «إنك لأحب أرض الله إلى ولأحب أرض الله إلى الله»(١). الذى قاله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما خرج منها مهاجرا وأجمعوا على أن مكة والمدينة أفضل البقاع، وإنما اختلفوا أيهما أفضل؟ فنسب للمالكية تفضيل المدينة، والشافعى، وأبو حنيفة والأكثر على تفضيل مكة لما لها من المزية بأن الله حرمها وحرم صيدها، وقيل: بتغليظ الذنب ودية القتل فيها وأنه لا يقام الحد فيها، وغير ذلك من الرحمة التى ليست لحرم المدينة والصلاة بها ثوابها زيادة على غيرها، وهذا فى غير البقعة التى وضع فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيأتى أن المصنف رحمه الله تعالى فضل على مكة المدينة فجعلها أشرف وأكرم، فكلامه هنا مناف لمذهبه ولكلامه الآتى، ولهذا اعترضوا عليه وفيه خلاف عند المالكية أيضا كما سيأتى، فلا حاجة لما قيل من أن كلام التجانى يكفى دليلا على فضل مكة فى مذهب مالك رحمه الله تعالى.

وقال الطبرى: بيت خديجة يلى المسجد الحرام فى الفضيلة، وأجيب بأنه غير متناقض

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٥/٤)، والترمذى (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والدارمى (٢٣٩/٢)، والحاكم (٧/٣).

لما سيأتى؛ لأنه لم يقل مكة أكرم وأشرف البلاد بل من أكرم البلاد، ومن فيه تبعيضية لا بيانية، وكون الشىء بعض الأشرف لا يقتضى أنه أشرف، فإن البلاد الثلاثة التى تشد الرحال لها شريفة وهذا منها.

أقول: لو قال أشرفها لم يشكل أيضا؛ لأن الكلام فى منشأه ومولده وهى فى زمن ولادته وقبل هجرته كانت أشرف البقاع على الإطلاق، إذ المدينة إنما صارت حرما مكرما بعد هجرته تكريما له صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان المعترض لاحظ أن المراد تفضيل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على جميع خلقه بشرف منشأه، فيناسب كونه أشرف من جميع ماعداه فتدبره، ووقع فى نسخ بعض الشراح أكرم بدون من فلعل كلامهم مبنى على هذه النسخة.

(حدثنا قاضى القضاة حسين بن محمد الصدفى) نسبة إلى الصدف وهو اسم قرية من قرى القيروان، ووقع للفقهاء اختلاف فى جواز إطلاق قاضى القضاة فقال بعضهم: لا يجوز كملك الملوك وشاهنشاه أى سلطان السلاطين، فإنه هو الله تعالى والحق جوازه كما أفتى به كثير من أرباب المذاهب الأربع، فإن القرينة ظاهرة فى أن المراد قضاة عصره ومملكته، فإنه يطلق على من يكون قاضيافى تحت الملك، ويؤذن له فى تولية قضاة الأطراف، ولهذا عدلوا عنه وقالوا قاضى العسكر، ولكن قوى بعضهم منعه لورود التصريح بمنعه فى الحديث. والصدفى: هو ابن سكرة وهو إمام ثقة ترجمته مشهورة.

قال: **(حدثنا القاضى أبو الوليد سليمان بن خلف)** هو الإمام العلامة الحافظ أبو الوليد الباجى وقد تقدمت ترجمته أيضا.

قال: **(حدثنا أبو ذر عبد بن أحمد)** هو الإمام الحافظ أبو ذر الهروى وقد تقدمت ترجمته، وعبد اسمه من غير إضافة.

قال: **(حدثنا أبو محمد السرخسى)** نسبة إلى سرخس بفتح السين والراء بلد عظيم بخراسان وهذا هو المعروف، وأما قول التلمسانى نقلا عن ابن مرزوق أنه بكسر السين وفتح الراء، وأنه يقال بزنة درهم وجعفر فلا نعرفه، **(وأبو إسحاق)** المستملى واسمه إبراهيم بن أحمد بن داود المستملى الإمام الثقة، **(وأبو الهيثم)** هو محمد بن المكى بن زراع الكشميهنى بضم الكاف وسكون الشين المعجمة وكسر الميم وسكون المثناة التحتية وفتح الحاء وكسر النون وياء النسبة، نسبة لقرية من قرى مرو قديمة خربت وخرج منها جماعة، قاله ابن الاثير: قال التلمسانى: ويقال الكشماهنى ويأتى الكلام عليه أيضا بأبسط من هذا **(قالوا: حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى وقد تقدمت

ترجمته. **(قال: حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو حافظ الإسلام البخارى وقد تقدمت ترجمته. **(قال: حدثنا قتيبة بن سعيد)** تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن) بن محمد بن عبد الله القارى منسوب للقارة قبيلة المدنى نزيل الإسكندرية، وهو يروى عن زيد بن أسلم وسهل بن أبى صالح وغيرهما، وروى عنه قتيبة ويحيى بن بكير توفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن ووثقه ابن معين.

(عن عمرو) بن عمرو ويقال: ابن أبى عمرو مولى المطلب، وروى عن أنس وعكرمة وطائفة، وروى عنه مالك والداوردى ووثقه. وقال التلمسانى: إنه ليس بالقوى، وقال أحمد: ليس به بأس. وقال أبو زرعة: إنه ثقة. وأخرج له الأئمة الستة، وتوفى فى أول خلافة المنصور وله ترجمة فى الميزان.

(عن أبى سعيد المقبرى) بتثليث الباء سمى به لسكونه بقرب المقابر كذا وقع فى بعض النسخ، قال البرهان الحلبى: وضرب المصنف رحمه الله تعالى على لفظ أبى وهو الصواب، فإنه سعيد بن أبى سعيد المقبرى، واسم أبى سعيد كيسان وكنية سعيد أبو سعيد، وفيه نظر وهو يروى عن أبيه وأبى هريرة وعائشة وغيرهما، وروى عنه الليث ومالك وخلف، وثقه النسائى وأبو زرعة وغيرهما. وقال أحمد: ليس به بأس، توفى سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: خمس وعشرين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة. **(عن أبى هريرة)** رضى الله تعالى عنه تقدمت ترجمته والكلام فى اسمه.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: بعثت من خير قرون بنى آدم) هذا حديث صحيح انفرد البخارى بإخراجه، وعنه روى المصنف رحمه الله تعالى، وفى القرن عشرة أقوال، فإنه مقدار من الزمان ويطلق على أهله، فقيل: عشرة، وعشرون، وثلاثون، وأربعون، وخمسون، وستون، وسبعون، وثمانون، وتسعون، ومائة، ومائة وعشرون. ومطلق الزمان كما قاله البرهان الحلبى. قال: وابتداء قرنه عليه الصلاة والسلام من بعثته أو من حين فشا الإسلام، وقيل: القرن كل عصر فيه نبى أو كبار من العلماء فليس زمان الفترة بقرن نقله التلمسانى. وقال التجانى: القرن فى اللغة كل طبقة من الناس مقترنين فى وقت واحد، وربما سمى الوقت قرنا لأنه يقرن ناسا بناس، واحتج القائلون بأنه مائة سنة بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسح رأس غلام وقال: «عش قرنا» فعاش مائة سنة كما ذكره الهروى. والمختار ما قيل إن القرن كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد انتهى. وفيه نظر. والظاهر أن المراد بالقرن فى الحديث طائفة وجيل من الناس فى عصر واحد وزمان متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة.

وقوله: «من خير» إلى آخره من فيه لابتداء الغاية أو بيانية لا للتبعيض، لأن المراد أن قرنه الذى بعث فيه خير القرون لا أنه بعث فى بعض القرن، بدليل ما روى فى الحديث الصحيح: «خير القرون قرنى» والمراد به عصره صلى الله تعالى عليه وسلم وعصر صحابته رضى الله تعالى عنهم، لأنهم انقرضوا بعد مائة من انتقاله صلى الله تعالى عليه وسلم وكسور اختلف فيها، قيل: وهذا الحديث يدل على أن أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل هذه الأمة وسائر الأمم غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن ذلك ثابت لكل واحد منهم لا لمجموعهم، وإليه ذهب الجمهور؛ لأن فضل الصحبة ونورها لا يعدله شىء ولا يساويهم فى الفضل، وإن تفاوتوا فيه بقدم الصحبة ونحوه خلافا لابن عبد البر رحمه الله تعالى حيث جوز أن يكون بعد الصحابة من هو أفضل من بعض إلا من قاتل معه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنفق ماله فى سبيله فإنه لا يعدله غيره بالاتفاق،واستدل بحديث: «أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»(١). وهو حديث صحيح. وأجاب النووى رحمه الله تعالى بأن المراد بآخره من أدرك عيسى عليه الصلاة والسلام، ورأى ما فى زمانه من الخير والبركة وانتظام كلمة الإسلام واضمحلال الكفر وهو متق، وأوله من لم يدركه فى صدر الإسلام غير الصحابة وسيأتى الكلام عليه مفصلا.

(قرنا فقرنا) هذا كقولهم: قرأت النحو بابا بابا وهو حال بتأويل مرتبا و لم يذكره النحاة معطوفا، وكأنه الحامل لبعض الشراح على جعله معمولا لحال مقدرة والفاء للترتيب فى الوجود أو الفضل نحو خذ الأكمل فالأكمل ومنه: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات:١،٢] وهذا قريب من قول ابن الرومى:

كم من أب قد علا بابن ذوى شرف كما علا برسول الله عدنان

(حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) قيل: حتى غاية لبعثته وأراد به تقلبه فى أصلاب آبائه من إبراهيم عليه السلام، ثم من نابت بالنون ابن إسماعيل، ثم من النضر ابن كنانة، ثم من قريش بن النضر، ثم من عبد الله بن عبد المطلب، ثم أيد هذا بحديث رواه البيهقى مسندا فى دلائله، والترمذى وحسنه، وهو ما أشار إليه بقوله.

(وعن العباس رضى الله تعالى عنه قال: قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله خلق الخلق) أى المخلوقات كلها من إنس وملك وجن. **(فجعلنى من خيرهم)** أى أوجدنى وصيرنى من خير جنس منهم وهم الإنس، ومن خير نوع وهم العرب، ومن

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣١٠/١)، وابن عبد البر فى الاستذكار (٢٣٩/١).

خير قرن وهو قرنه صلى الله تعالى عليه وسلم وقرن أصحابه، فلذا أبدل منه قوله: **(من خير قرنهم)** بدل بعض من كل **(ثم تخير القبائل)** أى اختار من قرنه خيارهم أى أشرفهم. **(فجعلنى من خير قبيلة)** من العرب وهم قريش، والقبيلة واحدة القبائل الجماعة من أب واحد، والقبيل بغير هاء بنو آباء مختلفة أو هو أعم وقد يكونا بمعنى، والقبيلة تحتوى على جماعات من آباء منتسبة للأب الأول تسمى بيوتا وبطونا؛ لأنهم من بطن واحدة ويجمعهم بيت واحد، وأصل البيت المسكن الذى يبيتون فيه؛ فأطلق على أهله وصار حقيقة فيهم فلذا قال: **(ثم تخير البيوت)** بضم الباء ويجوز كسرها.

(فجعلنى من خير بيوتهم) يعنى بنى هاشم، وقيل: المراد بالبيت هنا الشرف أى تخير الله جهات الشرف وأشباهه المقتضية له واختار لى أعلاه والأشرف، والأول هو الموافق للغة: نعم البيت يخص بمن له شرف.

(فأنا خيرهم) أى جميع من ذكر **(نفسا)** أى روحا وذاتا **(وخيرهم بيتا)** أى حسبا وشرفا وأصلا، وفيما ذكر إشارة إلى الطبقات الست من الناس، فإن العرب كما تقدم تقسم الناس لشعب، وقبيلة، وعمارة، وبطن، وفخذ، وفصيلة، كل طبقة تجمع ما بعدها، وما قيل من إنه لا يلزم من كونه خيرهم بيتا، أن يكون هو خيرا لمشاركة أهل البيت له فى شرفه، والجواب أن المراد أنه خيرهم بالقياس إلى غير بيته لا إلى كل واحد من أهل بيته ليس بشىء؛ لأنه لو كان كذلك لم يصح، فتفريعه على كونه خيرهم نفسا فهذا كقولهم فلان من العلماء، وهو أمدح من قولهم عالم كما قرره أهل المعانى، لسوق فضله وخيرته مساق المعلوم المسلم وبيان عراقته وأصالته فى ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] كما مر.

(وعن واثلة بن الأسقع) رضى الله تعالى عنه، وفى التذكرة فى رجال الكتب العشرة لأبى المحاسن العلوى: واثلة بمثلثة ولام ابن الأسقع بن كعب بن عامر أبو الأسقع، ويقال أبو قرصافة الليثى، أسلم قبل تبوك وشهدها، وكان من أهل الصفة، وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن أبى مرثد الغنوى، وأبى هريرة، وأم سلمة رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه بناته ومكحول وجماعة قالوا: مات سنة ثلاث وثمانين وعمره مائة وخمس سنين، وقال البرهان: خمس وتسعون سنة وخدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث سنين، وذكر نسبه مخالفا لما ذكرناه فقال: ابن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب بن عبرة بن سعد بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وقيل: ابن عبد الله، وقيل: غير ذلك، والأسقع بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح القاف وعين مهملة.

(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله اصطفى) أى اختار وارتضى

(من ولد إبراهيم إسماعيل) عليهما الصلاة والسلام فهو أفضل أولاده، وكان له غير إسماعيل وإسحاق ستة أولاد من قنطورا.

(واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة) قال السهيلى: ولإسماعيل بنون ذكر أسماهم ابن إسحاق وهم اثنى عشر؛ منهم نابت بالنون كما تقدم وهو جد كنانة وبينهما ثلاثة عشر أبا، وسمى بكنانة السهام التى تسمى جعبة ولقب به، وحكى أبو حاتم عن الأصمعى أن رجلا وقف عليه مع أخيه أسد يسلخان جزروا لهما، فقال الرجل: ما جلاء الكاشطين؟ فقال له: خائبة المصارع وهصار الأقران، فقال: يا كنانة ويا أسد أطعمانى من جزوركما فأطعماه، فكنى له الرجل عن كنانة بخائبة المصارع يعنى السهام لأنها تصرع ما أصابته، وروى المصادع بالدال بدل الراء جمع مصدع، والهصر من صفات الأسد، وجلاء بكسر الجيم، والمد أى ما اسمهما الذى يكشف اللبس عنهما، والكشط بمعنى السلخ والولد صفة مشبهة جرى مجرى الأسماء يشمل الواحد وغيره.

(واصطفى من بنى كنانة قريشا) ولد كنانة لصلبه النضر، وله أربعة أولاد ومن ذريته قريش وأول قريش، فى الأصح فهر بن مالك بن النضر، وقيل: النضر أول قريش واختلف هل قريش اسمه أو لقبه واسمه فهر، وبه جزم العراقى فى ألفية السيرة، ويطلق قريش على بنيه فيصرف ولا يصرف باعتبار القبيلة كما يقال: تميم وربيعة وكذا النضر، فمن لم يكن من ولد النضر ليس بقرشى، قال الشعبى رحمه الله تعالى: النضر بن كنانة هو قريش، وإنما سمى قريشا لأنه كان يتقرش عن أرباب الحاجات ليقضى حوائجهم، والتقريش التفتيش. وقيل: التقرش التجمع فسموا به لتجمعهم فيكون اسما للقبيلة، ولذا جاز منع صرفه كما علم. وقيل: هو اسم سمكة عظيمة سمى به القبيلة لأنه كان يأكل السمك ويقهرها، فسمى به القبيلة أو أبوها لشدتهم وتصغيره للتعظيم. قال الشاعر[1]:

وقريش هى التى تسكن البحر   وبها سميت قريش قريشا

(واصطفى من قريش بنى هاشم) واسمه عمرو وهو علم منقول من معان؛ منه العمر بالضم، وواحد عمور الإنسان وهو اللحم المطيف بها، وهاشم اسم فاعل من هشم بمعنى كسر سمى به لأنه هشم الثريد لقومه فى سنة مجدبة. قال:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

أو كان يهشمه للحاج وهذا الشعر لمطرود بن كعب الخزاعى والقافية مرفوعة،

---

(١) البيت من الخفيف، وهو للمشمرج بن عمرو الحميرى فى خزانة الأدب (٢٠٤/١).

وتوارد مع عبد الله بن الزبعرى فى قوله(١):

يا أيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
الخالطين غنيهم بفقيرهم والقائلين هلم للأضياف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف

وخلط الرواة فى الشعرين فزعموا أنه أقوى وليس كذلك.

(واصطفانى من بنى هاشم) هذا الحديث رواه مسلم والترمذى، وما قاله المصنف رحمه الله تعالى هو بلفظه فى الترمذى، ولفظ مسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»(٢) وفيه دليل على تفاضل العرب فيما بينهم، إلا أنهم اختلفوا فى التفاضل بين قريش على ما فصله الفقهاء فى باب النكاح فى أحكام الكفاءة، وقد تبرع به بعضهم هنا ولا داعى له.

(قال الترمذى: وهذا حديث صحيح) ونقل المزى عنه أنه قال: إنه حديث صحيح غريب. **(وفى حديث عن ابن عمر رضى الله عنهما)** رواه الطبرانى فى الأوسط بسند حسن و**(رواه الطبرى)** هو الإمام الفرد الحافظ ابن جرير أبو جعفر أحد الأعلام صاحب التصانيف المشهورة من أهل طبرستان، كان كثير الطواف والعبادة وسمع من محمد بن الشوارب والسكوتى وإسحاق بن إسرائيل وغيرهم، وأخذ القراءات عن جماعة، وروى عنه كثير، توفى سنة عشرة وثلاثمائة ودفن بداره وولد سنة أربع وعشرين ومائتين وترجمته مشهورة.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن الله عز وجل اختار خلقه) أى أراد أن يخلق خلقه ويوجدهم، فلما أوجدهم تخيرهم **(فاختار منهم بنى آدم)** وقيل: اختار خلقه بمعنى اختار منهم ففيه حذف وإيصال، وقوله: فاختار إلى آخره بيان له.

وكذا قوله: **(ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب)** وهم الجيل المعرفون كما تقدم، وقيل: معناه ميز بنى آدم من بينهم عن غيرهم، ثم اصطفى من بنى آدم على غيرهم أو معناه، فاصطفى من بينهم بنى آدم ثم دام على اصطفائه إياهم، وكثيرا ما تضمن الأفعال معنى الدوام نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء:١٣٦] وإلا فلا معنى

---

(١) البيت من الكامل، وهو لمطرود بن كعب الخزاعى فى الاشتقاق (ص١٣)، أمالى المرتضى (٢٦٨/٢)، معجم الشعراء (ص٢٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

لاصطفائهم واختيارهم مرة بعد أخرى، وليس العرب كلهم من ولد إسماعيل كما قاله بعضهم، فإنه قول غير صحيح لشهرته لا حاجة لذكره.

(ثم اختار العرب) أى بطنا من خيارهم ليزيده لطفا **(فاختار منهم قريشا، ثم اختار قريشا فاختار منهم بنى هاشم، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم، فلم أزل خيارا من خيار)** أى لم أزل من أصل مبدئى وأصولى إلى أن أنشأنى الله خيارا مخلوقا من خيار وشريفا من شريف.

(إلا) حرف استفتاح وتنبيه على ما علم مما قاله وتحقيق لما بعده. **(من أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم)** الظاهر أن الباء للسببية أى من أحبهم بسبب محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ولمحبته، فإن من أحب أحدا يحب لأجله قومه وأصوله، وكذا البغض وهو عدم المحبة ولا يكمل إيمان المرء حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه، ونقل عن بعض المالكية أن من سبهم وجب قتله. قيل: وهذا ينبغى أن يقيد بالحيثية فإنه ملاحظ فى كثير من القضايا، أى من حيث كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم، أو من حيث أنهم عرب لا من أبغضهم أو ذمهم لأمر آخر، كقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة:٩٧] ويدل عليه حديث: «أحب العرب لثلاث؛ لأنى عربى، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة عربى»[١]. والمراد الحث على محبتهم. وقد صنف العراقى رحمه الله تعالى كتابا فى هذا سماه: «نيل القرب فى محبة العرب» وفى هذا رد على الشعوبية وهم قوم يفضلون العجم على العرب، ولهم أدلة على مقالتهم بينوها وما عليها، وأوردوا الأحاديث الموضوعة نصرة لهم، منها: «أن الله تعالى إذا تكلم بالرضا تكلم بالفارسية، وإذا تكلم بالغضب تكلم بالعربية» وفى الشرح الجديد الأحاديث الواردة فى فضل اللغة الفارسية كلها موضوعة، وفضلهم فى الكرم والشجاعة والحلم والعلم أكثر من أن يحصى. وقيل: إن أبا عبيدة كان شعوبيا صنف كتابا فى مثالب العرب، وقد قيل: إنه كذب عليه.

فإن قلت: إن تقديم المتعلق أعنى بحبى وببغضى يقتضى الحصر ومحبتهم لشرف نسبهم وحسبهم وما فيهم من الأمور المحمودة لا يتوقف على محبته صلى الله تعالى عليه وسلم.

قلت: إن كانت الباء للآلية الادعائية كما فى نحو: نظرت بعينى وسمعت بأذنى فلا إشكال، لأن المعنى من أحبهم أو أبغضهم فينبغى أن يحبهم بمثل حبى ويبغضهم بمثل بغضى، وهو الحب فى الله والبغض فى الله، إن كانت للسببية فالمراد أنه بسبب حبى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/١٨٥).

يحبهم لا للعصبية، وأمور الجاهلية فتدبر.

قلت: وهذا الحديث رواه أيضا البيهقى عن محمد بن ذكوان عن عمرو بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: إنا لقعود بفناء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذ مرت امرأة فقال بعض القوم: هذه ابنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال أبو سفيان: مثل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى بنى هاشم مثل الريحانة فى وسط العين، فانطلقت المرأة وأخبرت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فجاء يعرف فى وجهه الغضب فقال: «ما بال أقوام يبلغنى عنهم ما يبلغنى أن الله عز وجل خلق الخلق واختار من الخلق بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا، واختار من قريش بنى هاشم، واختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب»[1] إلى آخره.

وقوله: **(عن ابن عباس)** رضى الله عنهما قال السيوطى: هذا الحديث رواه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده **(أن قريشا)** بفتح همزة أن المشددة والمصدر مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله. **(كانت نورا بين يدى الله تعالى)** هو مستعار مما بين الجهتين المسامتتين لثدى الإنسان لأنهم من الله بمنزلة توجب إجلالهم ومحبتهم لشأنهم وحثا على محبتهم، وقيل: إنه كناية عن غاية القرب من محل رضاه، كما يقال: فلان بين يدى الملك، وإن كانت الحقيقة هنا متعذرة فهو مجاز متفرع على الكناية كما فى قوله: «لاينظر الله إلى فلان» كما فى شرح المفتاح.

(قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بألفى عام) هو على حقيقته، أو المراد طول المدة، أى قبل أن يظهره فى عالم الشهادة، ثم بين حكمة إظهاره بقوله: **(يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة)** اقتداء **(بتسبيحه)** أى بتقديسه وتنزيهه الله، والمراد بكون قريش نورا أرواحها، أو أن الله تعالى مثلها بهذا المثال وأبرز صورها فى الملأ الأعلى تسبحه ليعلم أنها بشرية وملكية، ولذا قال الله تعالى لهم لما قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠] يعنى أنهم سبحوا قبل ما سبحتم فى الأزل فهم لم يعلموا بذلك لأنهم ظنوا أن تلك الأنوار ملكية صرفة، وكان نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مدرجا إذ ذاك فى أصوله من قريش وغيرهم بجملة أصلابه المسبحة، وإن لم يشعروا به وإن من شىء إلا يسبح بحمده.

---

(١) تقدم تخريجه.

(فلما خلق الله) جسم **(آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور فى صلبه)** والصلب والصالب عمود الظهر، ويقال: بضم الصاد وفتحها أى أودعه فيه كما سيأتى تحقيقه ثم فصله.

بقوله: **(فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: فأهبطنى الله إلى الأرض فى صلب آدم)** أى أنزل نورى الذى فى صلبه إلى الأرض. **(وجعلنى فى صلب نوح)** أى نقل نورى من صلب آدم عليه الصلاة والسلام إلى صلب نوح صلى الله تعالى عليه وسلم. وقال: **(وقذف بى فى صلب إبراهيم)** عليه الصلاة والسلام، ولم يقل جعلنى لما بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام من البعد، لأن القذف الرمى من بعيد وأصله الرمى بالحجارة، يقال: هم ما بين حاذف وقاذف والحذف رمى العصا.

(ثم لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الكريمة) يعنى أصلاب أجداده عليه الصلاة والسلام. **(والأرحام الطاهرة)** من خبث الزنا وغيره، ووصف الأصلاب بالكريمة والأرحام بالطاهرة فى غاية الحسن؛ لأنها مقر الطمث والدم والنطف، والأرحام جمع رحم وهو وعاء الولد ويطلق على القرابة. **(حتى أخرجنى من بين أبوى)** أى بين أبى وأمى على التغليب المشهور، وإخراجه من بينهما تولده منهما وخلقه من نطفتهما.

(لم يلتقيا على سفاح قط) جملة حالية، والسفاح: الزنا، من سفح الماء ونحوه من المائعات إذا أراقه، أى لم يجتمعا على زنا، ولم تلق نطفة أحد من أبويه وآبائه فى غير الأرحام الطاهرة من الزنا ونكاح الجاهلية كما مر، وقد مر أنها لتعميم الأزمنة الماضية، يقال: ما رأيته قط بفتح القاف وضمها وتشديد الطاء، وبفتح القاف وتخفيف الطاء المضمومة، وإذا كانت بمعنى حسب ففتح وسكون.

(ويشهد لصحة هذا الخبر شعر العباس) رضى الله تعالى عنه عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه اشتمل على معناه **(فى مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** وهو الشعر المشهور الذى أوله:

من قبلها طبت فى الظلال وفى   مستودع حيث يخصف الورق

الأبيات، وستأتى بتمامها مع الكلام عليها، وقد قيل: إنها لحسان رضى الله تعالى عنه، والصحيح الأول، وإن ذهب ابن عساكر فى تاريخه إلى الثانى فى حديث أخرجه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إلا أنه ضعيف جدا، قيل: وهذا موضع بحث؛ لأنه إن أراد بكونه شاهدا لصحته متنا وسندا فهو غير لازم، وإن أراد به صحة معنهه فهو غير مفتقر له، لأن كثيرا من الأحاديث دلت عليه وانتقاله عليه الصلاة والسلام من صلب آدم عقلى أيضا وفيه نظر.

(فصل)

(وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه) فيما تقدم أول الباب، وتدعو بمعنى تقتضيه ويلزم حتى كأنه تطلبه منه فهو استعارة فى الأصل، وضرورة الحياة ما لابد منه فيها مما يضطر الحى إليه. **(فعلى ثلاثة ضروب)** جمع ضرب، وهو القسم والنوع من الشيء، وفى بعض النسخ فعلى ثلاثة ضرب، وفى بعضها أضرب بجمع القلة وهو أنسب بالثلاثة والأولى، لأن الجمعين يقام كل منهما مقام الآخر كثيرا، كقوله تعالى: ﴿**ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ**﴾ [البقرة:٢٢٨] وفيه تفصيل ليس هذا محله **(ضرب الفضل فى قلته، وضرب الفضل فى كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه)** وأفرد لكل منها فصلا كما سيأتى.

(فأما التمدح) أى حسنه بحيث يستحق المدح به وليس المراد به التكلف كتحلم. **(والكمال بقلته اتفاقا)** شرعا وعادة كما بينه بقوله: **(وعلى كل حال عادة وشريعة)** والمراد بالعادة ما اعتاده الناس مما يؤدى إليه العقل إذا خلى نفسه وطبعه، والشريعة ما أمر به الشارع ونهى عنه، مما تضمنه الوضع الإلهى السائق لذوى العقول باختيارهم إلى الأمر المحمود. **(كالغذاء والنوم)** الغذاء بكسر الغين وفتح الذال المعجمتين، وبالمد كل مأكول ومشروب به قوام البدن مطلقا، وأما بفتح المعجمة ودال مهملة فما يؤكل فى أول النهار كما مر، والنوم معروف.

(ولم تزل العرب والحكماء) أراد بالحكماء حكماء اليونان والهند والفرس ونحوهم، ولذا قابلهم بالعرب وهم يمدحون قلة النوم والسهر بما لا مزيد عليه، قال فى هياكل النور: النفوس الناطقة من جواهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عالمها القوى البدنية ومشاغلها، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر، فيتخلص أحيانا إلى عالم القدس ويتلقى منه المغيبات.

(تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما) تتمادح كتتفاخر لفظا والمقصود الكثرة لا التفاعل، وخص العرب لأنهم أكثر الناس مدحا لهذين بخلاف غيرهم، كالروم والعجم فإنهم يفتخرون بكثرة الأطعمة ونفاستها ولهم حرص عليها، وذكر الحكماء منهم ومن غيرهم، ومر ذلك لاعتنائهم بالرياضة وقلة التنعم فى كل مأكل ومشرب، مع سداد عقولهم وصفاء أذهانهم واعتنائهم بمهمات أمورهم وعبادتهم وهو ظاهر، وورد فى الحديث: «أبغضكم إلى الله تعالى كل نؤوم» وقال عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين: «أجيعوا بطونكم لعلكم ترون ربكم بقلوبكم» وقالوا: البطنة تذهب الفطنة. والأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصى، وقال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ**﴾ [محمد: ١٢].

(لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم) بفتح النون والهاء وهو الإفراط فى شهوة الطعام، ومنه الحديث: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال»(١). والشرب مثلث الشين. **(والحرص والشره)** أى الحرص على الأكل والشرب، والشره بفتح الشين المعجمة والراء المهملة والهاء زيادة الحرص، ففيه ترقى.

(غلبة الشهوة) المراد غلبة شهوته للطعام على تحمله وصبره وعقله فيما فيه صلاحه فليس فى كلامه تكرار، وهذه كلها صفات مذمومة كما ورد فى الحديث: «الحرص والشره داء عضال» والحريص أسير شهوته وعبد بطنته، والحرص توأم الحسد وهو هادم الجسد، والحرص قد يكون محمودا إذا كان فى محمود، وقال الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. وإنما يمدح قلة الغذاء والنوم إذا لم يفرط حتى تؤدى لضرر بلا ضرورة كما قال:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شر من التخم

ثم إن ترك من ابتلى بذلك إذا عسر عليه ينبغى قطعه بالتدريج كما فى منظومة ابن سينا:

وكل عادة تضر أهلها فاقطع بتدرج الزمان أصلها

وقوله **(مسبب لمضار الدنيا والآخرة)** خبر بعد خبر لأن، وهو بكسر الباء المشددة اسم فاعل، ولم يقل سبب مع أنه أخف وأظهر؛ لأنه أمر مباح لا ضرر فيه دنيوى ولا أخروى، بل ربما يترتب عليه نفعهما كرامة البدن والقيام بعده للعبادة، كمن لو لم ينم أول الليل لم يدرك صلاة الصبح، فحيث أنه ترتب عليه نفع تارة وضرر أخرى، علم أنه ليس سببا بل قد ينشأ عنه سبب ضررهما فهو مسبب لا سبب، فإن النوم قد يكون منه ترك الصلاة وهو سبب لضرر الآخرة، والأكل يكون منه الامتلاء وهو سبب للسدة والسل، والشرب بعد النوم يورث الأمراض، وقيل: إنه بمعنى السبب هنا المفضى إلى المسبب بالفتح والفضل للمتقدم، فمعنى مسبب موجد للأسباب، وهذه الشهوة والحرص عليها يؤدى إلى جلب المال، وكذا حب الدعة والراحة قد يترتب عليه مفاسد كما قال الشاعر:

وإنك إن أعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

ويقع فى بعض النسخ «وغلبة الشهوة» مسبب برفعها على أنه مبتدأ وخبر ليس

---

(١) أخرجه الحاكم (٩٢/١)، والطبرانى فى الكبير (٢٢٣/١٠)، وابن عدى فى الكامل (١٤٥٧/٤)، والشجرى فى أماليه (١٦٦/٢).

بشيء، لأن غلبة الشهوة ليس سببا للمضار وإنما سببه الأكل والشرب كما قاله الأنطاكى، ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى إلى ذلك على طريق اللف والنشر، فقال: **(جالب لأدواء)** جمع داء **(الجسد)** أى أمراضه وأسقامه كما هو مشاهد، وقال:

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

فهذا راجع لكثرة الأكل والشرب إذ بهما تمتلئ المعدة والعروق بالدم، وتزيد الأخلاط فيتولد منها الأمراض. واجتمع أربعة أطباء هندى ورومى وعراقى وسوادى عند الرشيد، فقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء معه، فقال الهندى: هو الإهليلج الأسود. وقال الرومى: حب الرشاد الأبيض. وقال العراقى: الماء الحار. فقال السوادى: وكان أعلمهم الإهليلج يعفص المعدة، وهذا داء وحب الرشاد يرققها وهذا داء، والماء الحار يرخيها، وهذا داء، قالوا: فما هو؟ قال: أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه وترفع يدك وأنت تشتهيه. وفى الطب النبوى فى معناه أحاديث كثيرة نحو: «صوموا تصحوا»(١).

(وخثارة النفس) بفتح الخاء المعجمة والمثلثة والراء المهملة عند ابن رسلان وبضم الخاء عند برهان الحلبى، والأول هو الظاهر لموافقته القياس كالكفالة والضلالة، قال ابن الأثير: هو ثقل النفس وعدم نشاطها، والظاهر أنه راجع لكثرة النوم فإنه يورث لاسيما بالنهار ضعفا للبدن، ووقع فى بعض النسخ خسارة بالسين وهو تصحيف وتحريف من الكاتب، وهو مجرور معطوف على الأدواء، وكذا قوله: **(وامتلاء الدماغ)** بأبخرة رطبة تتصاعد عند النوم ترخى أعصاب الدماغ وتضعفه، وتذهب صفاء الذهن، وتورث البلادة، وقلة الحفظ، ويصح رجوع هذا وما قبله للجميع، لكن يأباه ما بعده من قوله: **(وقلته دليل على القناعة)** بالنصب عطفا على كثرة الأكل، ويجوز رفعه على الابتداء لأن من اعتاد قلة الأكل يقنع باليسير فاستراح واستغنى عن الناس فعز وتخلى للعبادة، وكان من رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

(وملك النفس) معطوف على القناعة أى ملك نفسه الأمارة فلا تعصيه، لأنه إذا شبع عصته نفسه وتحركت شهوته، كما قال ذو النون رحمه الله تعالى: ما شبعت إلا هممت بمعصية والجوع يقمع الشهوات.

(وقمع الشهوة) معطوف على القناعة، والقمع القهر أى قهر شهوته وغلبها وأضعفها حتى لا تخالفه، وما بعده خبر مبتدأ مقدر، والظاهر أنه مبتدأ خبره **(مسبب)**

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٥/٣٢٤).

بكسر الباء كما تقدم.

(للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن) الخاطر يطلق على ما يخطر على القلب من الأفكار، ويطلق على القلب نفسه وصفاؤه من الكدورة بحسب فهمه، والذهن قوة الفهم وحدته سرعته، وهذا يكون عند الجوع أقوى وأصفى وبه يصل للمعارف الربانية، ويلتذ بالمناجاة والأذكار والعبادة، وقال الجنيد: يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة، وهذا كله راجع للأكل وما بعده لما بعده، والحدة بكسر الحاء القوة كبعثة. **(كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة)** بضم الفاء والسين المهملة واللام، وهى الرذالة وعدم الهمة فى أمور الدنيا والآخرة.

فيا نائم الليل هنيته فقبل الممات سكنت القبورا

لأنه يميت القلب ويورث الكسل، ولا يصح إعجامه وإن كان بمعنى الجبن لعدم مجىء مصدره على فعولة. **(والضعف)** أى ضعف القوى والإدراك.

(وعدم الذكاء والفطنة مسبب) هما متقاربان أو الفطنة والفهم والذكاء سرعته، فقد نفى الأخص على نفى الأعم ليفيد المبالغة على قاعدتهم فى الترقى فيه، وعدم الذكاء مرفوع مبتدأ وخبره مسبب كما فى الأصول، والأظهر جره عطفا على ما قبله، فمسبب خبر بعد خبر كما مر.

(للكسل وعادة العجز وتضييع العمر فى غير نفع) أما كون كثرة النوم سبب للتوانى عن فعل المهم، فلتغفل الحواس فيه وارتخاؤها بعده، فإذا ألف ذلك عجز وضاع عمره بلا فائدة، كما قال:

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

فمثله لا يعد عمرا لأنه ما عمر الإنسان أحد داريه.

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

(وقساوة القلب وغفلته وموته) لعدم قبوله الموعظة بسبب غفلته به عما يهمه، وموته بعدم إدراكه؛ لأنه صفة تبطل الحس والإرادة كالموت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] الآية، فالنوم أخو الموت **(والشاهد على هذا)** أى الدليل عليه وأنهما يورثان ما ذكر. **(ما يعلم ضرورة)** أى يعلمه كل أحد علما بديهيا ضروريا. **(ويوجد مشاهدة)** منه ومن أمثاله **(وينقل متواترا)** أى نقلا متواترا بحسب المعنى. **(من كلام الأمم المتقدمة والحكماء السالفين)** المتقدمين على ملة الإسلام من حكماء الهند والعجم واليونان والعرب وغيرهم، كقول الحارث بن كلدة حكيم

العرب: أفضل الدواء الإزام، أى قلة الأكل. وقال داود: إياك وكثرة النوم فإنه يفقرك إذا احتاج الناس لأعمالهم. **(وأشعار العرب وأخبارهم)** كقوله:

قـــارب فديتـــك إن أكلـــــت وإن شـــربت وإن عشــيتا
وأنـــا الكفيـــل لـــك الحيـــاة وأن تعافـــا مـــا حييتـــا

وقال قيصر لقس بن ساعدة: ما أفضل الأكل؟ قال: ترك الإكثار.

(وصحيح الحديث) النبوى مثل: «أبغضكم إلى الله كل نؤوم أكـول شـروب» وغـيره **(وآثار من سلف وخلف)** الأثر ما أثرته أى نقلته عن غيرك فيشمل الحديث، ويطلق ويراد به ما يقابل الحديث، والمراد بمن سلف من تقدم عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وبمن خلف ما عداهم كالصحابة رضى الله تعالى عنهم والتابعين **(مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه)** أى طلب شاهد ودليل عليه وبين وجه ترك الاستشهاد بقوله: **(اختصارا واقتصارا على اشتهار العلم به)** المغنى عن التطويل بذكره، والاختصار عند أهل العربية الحذف لدليل، والاقتصار حذف بلا دليل، وعند المحدثين أن يكون للحديث طرق فيكتفى بأحديها، والمراد هنا عدم التطويل اكتفاء بشهرة العلم بما ذكر.

(فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ من هذين الفنين) أى النوعين وهما الأكل والنوم **(بالأقل)** عداه بالباء وإن كان متعديا بنفسه لتضمنه معنى التمسك أو الاتصاف، أى لازم صلى الله تعالى عليه وسلم أقل قليل منهما لما فيه من الكمال والملكة المرضية، وأتى باسم الإشارة للقريب تحقيرا لهما نحو: ما هذه الحياة الدنيا. وتبعيدا لهما عن ساحة الاعتبار لعدم المبالاة بهما. وما قيل من أنه كان ينبغى للمصنف رحمه الله تعالى أن يقتصر على كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن معه لا يحتاج لغيره من شعر وحكمة ليس بشىء، فإن مراده أن صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم مما اتفق العقلاء وجميع الأمم على حسنها وكونها مرضية محمودة، وأن كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم زبدة حكم الأمم وإن لم يرهم ولم يقرأ كتبهم، وكفاك قصص القرآن نظير الصنيعة.

(هذا) أى ما ذكر من قلة أكله صلى الله تعالى عليه وسلم ونومه **(ما لا يدفع)** أى لا ينكر ولا ينازع فيه. **(من سيرته)** أى من طريقته وصفته، وهو بيان لما حال من ضمير يدفع، أى لشهرته وتواتره لا ينازع فيه أحد. **(وهو الذى أمر به)** أمته دون ضده وضمير به لهذا أو للأقل. **(وحض عليه)** بحاء مهملة وضاد معجمة، أى حث الناس ورغبهم فى التخلق به لما علم من شرفه وكماله.

(لاسيما بارتباط أحدهما بالآخر) لاسيما بمعنى لا مثلما، والكلام عليه مفصل فى

العربية، ويذكر بعده ما هو أولى بالحكم نحو: أكرم الناس، لاسيما العلماء إلا أن فى كونها هنا كذلك خفاء لم يتعرضوا له، غير أن بعضهم قال: المعنى لاسيما الأمر بالأخذ بالأقل والحض عليه مع ارتباط أحدهما بالآخر، لأنه إذا شبع شبعا كثيرا نام كثيرا ففاته خير كثير يعقبه ندم كثير وهو لا يجدى نفعا، والبيان الشافى أن كل واحد منهما مذموم مع انفراده ينبغى الحث على تركه، فكيف إذا اجتمعا وهما كذلك غالبا للزوم أحدهما للآخر، فإن النوم يلزم الأكل والباء بمعنى مع، فما قيل أن لاسيما هنا ليست على وفق استعمالها ليس بشىء، وهو توطئة للحديث الآتى المتضمن لتلازمهما، ومن لم يفهم هذا قال: إن المصنف رحمه الله تعالى استعمل لاسيما على خلاف ما جاء فى قوله. ولاسيما يوم بدارة جلجل. وقد قال ثعلب: من استعملها على خلافه فهو مخطئ، وحذف الواو والمستثنى بها وتقديره ولاسيما حض بارتباط أحدهما بالآخر الخ.

(حدثنا أبو على الصدفى) هو الحافظ ابن سكرة تقدم بيانه **(بقراءتى عليه)** بين طريق روايته بأنه قرأ وشيخه يسمع، إلا أن قراءة الشيخ والسماع منه أعلى رتبة فى الرواية، لكن صار المعروف اليوم القراءة على الشيخ، ولذا قيل: إنها أرفع، وقيل: إنهما سواء.

(قال: حدثنا أبو الفضل الأصفهانى) بفتح الهمزة وكسرها وبالباء والفاء، وهى بلدة عظيمة، قال صاحب المطالع: قيدناها بالفتح عن جميع شيوخنا، قال: وقيدها بالكسر أبو عبيد البكرى، قال: وأهل المشرق يقولون: أصفهان بالفاء، وأهل المغرب بالباء، وهو أحمد بن خيرون. وقد تقدم، ومعنى أصبهان مقر الفرسان، لأن أصب بمعنى فرس، قيل: وهى لا تخلو غالبا من ثلاثين رجلا يستجاب دعاؤهم، وكان نمرود حمل منهم ثلاثين رجلا لحرب الخليل، فلما رأوه آمنوا به فدعا لهم بذلك، أى بأن تجاب دعوتهم كما أجابوا دعوته.

(قال: حدثنا أبو نعيم) بالتصغير وهو حافظ عصره ومحدثه أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهانى الصوفى سبط الزاهد محمد بن يوسف البناء، ولد سنة ست وثلاثين وثلثمائة، وتوفى فى المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة وعمره أربع وتسعون سنة، وسمع من كثير وسمع منه الحفاظ، وله ترجمة فى الميزان وتصانيفه مشهورة.

(قال: حدثنا سليمان بن أحمد) بن أيوب بن مطر الشيبانى مسند الدنيا الإمام الجليل، ولد بعكا فى صفر سنة ستين ومائتين، واعتنى به أبوه فرحل به فى حداثته، وسمع فى سنة ثلاث وسبعين وبعدها بمدائن الشام، والحرمين، ومصر، والكوفة، والبصرة، وأصبهان، والجزيرة وغيرها. وحدث عن أكثر من ألف شيخ، وصنف «المعجم الكبير»

ولم يذكر مسند أبى هريرة فإنه أفرده بمصنف، و «المعجم الأوسط» وهو كتاب جليل تعب فيه، وكان يقول: هو روحى، و«المعجم الصغير» ومصنفات أخر جليلة، وتوفى لليلتين من ذى القعدة من سنة ستين وثلثمائة وله مائة سنة وعشرة أشهر يقينا، وترجمته فى الميزان وتصانيفه مشهورة.

(قال: حدثنا أبو بكر بن سهل) أبو محمد مولى بنى هاشم بن عبد الله بن يوسف الدمياطى، روى عنه الطحاوى وغيرهما، توفى سنة تسع وثمانين ومائتين عن نيف وتسعين سنة، وهو متقارب الحال، وقيل: ضعيف كما فى الميزان.

(قال: حدثنا عبد الله بن صالح) هو أبو صالح الجهنى مولاهم كاتب الليث، روى عن معاوية بن أبى صالح الآتى، وموسى بن على وغيرهما، وروى له البخارى وأصحاب السنن، وهو زاهد حسن الحديث، توفى فى سنة مائتين وثلاث وعشرين وعمره ست وثمانون سنة، وله ترجمة مطولة فى الميزان.

(قال: حدثنا معاوية بن أبى صالح) الحضرمى قاضى الأندلس وهو إمام صدوق توفى سنة ثمان وخمسين ومائة، وله ترجمة فى الميزان.

(أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معدى كرب) هو يحيى بن خالد الطائى قاضى حمص، مات سنة مائة وستة وعشرين، وأخرج له أصحاب السنن، والمقدام بن معدى كرب بن عمرو الكندى صحابى نزل حمص وترجمته مشهورة، توفى سنة سبع وثمانين، وأخرج له أصحاب السنن وأحمد. قال السهيلى: معنى معدى كرب وجه الفلاح، وفيه لغات إسكان ياء معدى، ولو فى النصب مع فتح باء كرب بلا تنوين لبنائه وإعرابها بالإضافة مع الصرف وعدمه.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه) وهذا الحديث رواه الترمذى والنسائى وابن حبان، وأخرجه المصنف رحمه الله تعالى عن الطبرانى ولم يروه عن الترمذى، لأن سنده لمعجم الطبرانى أعلى من غيره، لأن بينه وبين المقدام ثمانية فى رواية الطبرانى، وبينه وبينه فى رواية الترمذى من إحدى طريقيه أحد عشر، ومن الأخرى عشرة، والحديث صحيح. وفى الروايات اختلاف يسير، ففى الترمذى بدل ابن آدم آدمى، وبلفظ بطن بلا إضافة، وبحسب الآتى بالباء الجارة، والوعاء ظرف الطعام، والمراد أنه لا وعاء أشر منه ولا يساويه فى الشر، فجعل بطنه كأوعية البيت تحقيرا له، ثم جعله شر الأوعية زيادة فى تحقيره؛ لأن امتلاءه يورثه البلادة ويحرك شهوته فيرتكب المعاصى، يحصل له من الأمراض ما يضره كما مر، ويؤدى إلى

هلاكه، ولا شر أعظم من هذا فحسبه منه ما يقيم صلبه ويعينه على عبادة ربه ونظام أمور دنياه، فلذا قال: (**حسب ابن آدم**) وفى رواية لمسلم بدون ابن آدم.

(**أكلات يقمن صلبه**) حسب بسكون السين بمعنى كفى، كما يقال: أعطيت الرجل ما حسبته أى أعطيته عطاء يكفيه، وهو مبتدأ خبره أكلات بضم الهمزة والكاف معا، والرواية به ويجوز فتح الكاف وتسكينها جمع أكلة بضم الهمزة وسكون الكاف اسم لما يؤكل، ويقمن: بمعنى يقوين من أقام بمعنى دام وثبت. وصلبه: بضم الصاد وفتحها عظام سلسلة ظهره؛ لأنه عموده وفيه النخاع الذى يمد العصب بالممسك، فإذا أفرط جوعه ضعف وانحنى صلبه. وفى القاموس ما يخالف ما قاله الشراح، لأنه جوز فى أكلة الفتح والضم واقتصر فى جمعه على فتح ثانيه كصرد، وقال البرهان: أكلات بضم الهمزة جمع أكلة بفتحها وهى اللقمة.

(**فإن كان لا محالة**) بفتح الميم والحاء المهملة واللام بمعنى لابد ولا حيلة كما فى قوله:

وكل نعيم لا محالة زائل

أى إن لم يكن صبر على الاقتصار على لقيمات. (**فثلث**) من بطنه (**لطعامه وثلث**) منه (**لشرابه وثلث**) منه (**لنفسه**) بفتحتين وهو الهواء الخارج من الجوف، وروى الدلجى «طعامك وشرابك ونفسك» بكاف الخطاب على الالتفات من الغيبة للخطاب اعتناء بشأن من أرشده فيما أرشده إليه، وأنه لا ينبغى تجاوزه، وفى الأول حث على الأقلية وفيما بعده تجويز لما فوقه من غير إفراط والشراب هنا بمعنى الماء.

(**ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب**) هذا من كلام المصنف رحمه الله تعالى لا من الحديث، إلا أن الشراح لم يبينوا وجه ارتباطه بما قبله ولا على ما عطف، والظاهر أنه عطف على قوله السابق بارتباط أحدهما بالآخر، لأن السبب والعلة فى معنى واحد، فالمراد بارتباطهما أن أحدهما يستدعى الآخر، فإن الأكل يقتضى الشرب، ثم بين أنهما وكثرتهما يقتضيان كثرة النوم، لما يصعد منهما من الأبخرة الكثيفة إلى الدماغ المرخية له المقتضية لكثرة النوم المستدعى للكسل وذهاب الفطنة وفوات العبادة، وفى ذلك ما لا يخفى من الضرر.

(**قال سفيان الثورى:**) بكسر السين وضمها وفتحها، وهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله، والثورى نسبة لثور بن مناة، وقيل: من ثور همدان وهما قبيلتان، الكوفى عالم عصره الزاهد المحدث، توفى سنة إحدى وستين ومائة وعمره أربع وستون، **وهو ثقة ولا عبرة ممن تكلم فيه، وهم من أقران مالك رحمه الله تعالى.**

(يملك سهر الليل بقلة الأكل) يملك بضم الياء وفتح اللام مبنى للمفعول، وسهر مرفوع نائب الفاعل، أى يقوى ويقدر عليه من غير مشقة، فشبه قدرته بملكه له فهو استعارة، لأن النفس تقهر بقلة الطعام بعد أن كانت قاهرة.

(وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا) زاد الغزالى فى الإحياء: فتخسروا كثيرا. وزاد غيره: فتندموا عند الموت لقلة الزاد، لأنه أكل زاده فضيعه فى غير وقته.

(وقد روى عنه) أى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرة الأيدى)** لما فيه من السخاء بالطعام وقلة الأكل وكثرة البركة، وهذا الحديث قال السيوطى رحمه الله تعالى: إنه رواه أبو يعلى عن أنس وجابر رضى الله تعالى عنهما بسند جيد، ولفظه كما قال الشيخ قاسم فى تخريجه: أنه لم يجمع له غداء وعشاء وخبز ولحم إلا على ضفف وسنده جيد. وأخرج أبو عبيد فى الغريب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يشبع من خبز ولحم إلا على ضفف.

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن مالك بن دينار قال: «ما شبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الخبز قط، ولا من لحم إلا على ضفف» قال مالك: سألت رجلا من أهل البادية ما الضفف؟ قال: هو التناول مع الناس.

وأخرج الطبرانى رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى». انتهى.

والضفف: بفتح الضاد المعجمة والفائين أولاهما مفتوحة فسرها المصنف رحمه الله تعالى بما ذكره أهل اللغة، وهو تفسير مأثور كما سمعته آنفا، وهو من قولهم بئر ضفوف إذا كثر الناس عليها، وقال يحيى بن أحمد: الضفف أن يكون الأكلة أكثر من الطعام، والجفف بالجيم أن يكون بمقداره، وقيل: الضفف الضيق والشدة أى لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم محبا للترفه فى مأكله ولا متنطعا فيه. وفى رواية: «لم يشبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من طعام إلا على ضفف». وروى: «على شظف» أى ضيق وشدة كما علم، فالضفف والشظف رويا بمعنى الضيق، والحاصل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب الأكل مع الجماعة وإن قل طعامه، وضاقت معيشته. والأحاديث فى معناه كثيرة: كـ«طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية»[1]. وهو حديث صحيح. وقيل: الضفف كثرة العيال. وقيل: قلة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٩/١٧٩)، والترمذى (١٨٢٠)، وابن ماجه (٣٢٥٤)، وأحمد (٤٠٧/٢)، =

الطعام وكثرة الآكلين. ويقال: ضف بالإدغام، وقال ابن السكيت. الضف الأكل باليد ففيه لغتان وله معان.

(وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: لم يمتلئ جوف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شبعا قط) وروى عنها أيضا: «ما شبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله». وهذا يقتضى بمفهومه أنه شبع فى بعض الأيام دون الثلاثة، وهو معارض للأول وكلاهما صحيح، ويجمع بينهما بأن دلالة المفهوم لا تعارض المنطوق عند من قال بها، كأبى حنيفة رحمه الله تعالى فلا تعارض بينهما بالطريق الأولى، أو يقال: الامتلاء شبعا صفة زائدة على الشبع، فالشبع الأعم كان يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم أحيانا، وأما الامتلاء من الشبع فلم يقع أصلا، والشبع مباح عليه محرم على غيره إلا للتقوى على صوم الغداة، ولمؤانسة الضيف حتى لا يستحى من الأكل كما قاله الحنفية، وعند الشافعية هو محرم من مال الغير إن لم يعلم رضاه ومن مال نفسه مكروه، مع أن ما ذكر من تعارض الحديثين غير مسلم لأن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هنا ذكره فى الإحياء أيضا عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وتمامه: «وربما بكيت رحمة له صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرى به من الجوع، وأمسح بطنه الشريف بيدى وأقول نفسى لك الفداء لو تسلفت من الدنيا بقدر ما يقوتك منها ويمنعك من الجوع، فيقول: «يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم عز وجل، فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، وأجدنى أخشى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة، وما من شىء أحب إلى من أن ألحق إخوانى» قالت: فوالله ما استكمل بعد جمعة حتى قبضه الله». وقد ذكر المصنف رحمه الله صدره فقط، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد هذا الحديث، فلا يعارضه، وشبعا تميز أو مفعول مطلق، وشينه مفتوحة وتكسر وتفتح الباء وتسكن، وصوب ابن مكى كسر الشين وسكون الباء كما قاله التلمسانى، ثم إنه ورد فى الأحاديث الصحيحة: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يشبع ويجوع» وفى البخارى: «ما شبع آل محمد قط» وهذا محمول على غالب أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن الغالب ينزل منزلة الكل كثيرا، وهذا لم يكن عن احتياج حقيقى لما رواه الترمذى عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت: لا يا رب أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبعت

= ٣/٣٠١، ٣١٥)، والدارمى (٢/١٠٠)، وعبد الرزاق (١٩٥٥٧).

شكرتك»[1]. كما قال البوصيرى:

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم

فجوعه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قصدا، ولكن يظهر أنه عن احتياج تطييبا لقلوب الفقراء، وتنزيها من الرياء، وتبريا من رياضة أهل الكتاب والحكماء، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا رهبانية فى الدين»[2] وهذا مما ينبغى التنبيه له ويجب اعتقاده والتأسى به فيه فافهم.

(وأنه) معطوف على ما قبله من قوله: «أنه كان أحب» إلى آخره وقوله: **(كان فى أهله)** أى أهل بيته وعائلته وهو حال من فاعل يسأل أو خبر وجملة. **(لا يسألهم طعاما)** حال منه وعدم سؤاله صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك لعدم اهتمامه به والتفاته لما هو أهم منه.

(ولا يتشهاه) مضارع تشهى تفعل من الشهوة وهو الميل إلى ما يستلذ. وقيل: هى إدراك الملائم من حيث هو ملائم، وقيل: الشهوة لا تحد والفرق بينها وبين الإرادة أن الإنسان قد يريد مالا يشتهيه ويشتهى ما لا يريده، كالمريض المحتمى عما يشتهيه. والإرادة قد تتعلق بنفسها بخلاف الشهوة، فإنها لا تتعلق بنفسها بل تتعلق بالذات المغايرة لها، فإذا ذكرت متعلقة بنفسها كانت مجازا عن الإرادة، كما قيل لمريض: ما تشتهى؟ فقال: أشتهى أن أشتهى. وفرق بينها وبين المحبة أيضا، فإنك تقول: أحب الله ورسوله، ولا تقول أشتهيهما. فالمحبة أعم والشهوة فى الأصل تكون وجدانية غير اختيارية بخلاف المحبة، ولذا فرق النحاة بين قوله: أحب إلى وأشهى إلى فجعلوا إلى فى الأول للتبيين وفى الثانى بمعنى عند، وفيه كلام لنا فى نكت المغنى من باب الهمزة فإن أردته فراجعه، ثم بين ما ذكر.

بقوله: **(إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب)** يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يأكل ما قدمه له أهله ونحوهم من الطعام ويقبله من غير أن يعيبه، وكذا كل ما قدم له من الماء يشرب، وهذا كان غالب حاله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا ينافى ما وقع له نادرا على خلاف مقتضى طبعه، كما فى مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم: «يا عائشة

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٥٤)، والترمذى (٢٣٤٧)، والطبرانى (٨/٢٤٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/١٣٣).

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفا (٢/٥٢٨).

هل عندكم شيء؟ فقلت: يا رسول الله ما عندنا شيء. قال: «فإني صائم»[١] الحديث وسقوه بمعنى أعطوه ما شرب، وزاد الدلجى قط بعد قولهم السابق: لا يسألهم.

(ولا يعترض) ببناء المجهول **(على هذا بحديث بريرة رضى الله عنها)** أى على هذا المذكور من عدم سؤاله لما ذكر، وبريرة بفتح الموحدة ورائين مهملتين أولاهما مكسورة بينهما مثناة تحتية من البر بمعنى مبرورة أو بارة، وهى بنت صفوان، وهى قبطية أو حبشية عند الذهبى، مولاة عائشة رضى الله عنها اشترتها من عتبة بن أبى لهب، وقيل: من بنى كاهل. وقيل: كانت لناس من الأنصار، وحديثها أخرجه مالك فى الموطأ عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها، ورواه الشيخان وهو: قالت عائشة: «كان فى بريرة ثلاث سنن وكانت إحدى السنتين أنها أعتقت فخيرت فى زوجها، وقال فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «الولاء لمن أعتق»[٢] ودخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أهل بيته والبرمة تفور باللحم، فقربوا له خبزا وإداما من إدام البيت، فقال: «ألم أر البرمة فيها لحم؟ فقالوا: بلى يا رسول الله، ولكن هو لحم تصدق به على بريرة وأنت لا تأكل الصدقة، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هو لها صدقة ولنا هدية»[٣] فأخبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم أن هذا اللحم بإهدائها إياه انتقل من حكم الصدقة إلى حكم الهبة، وإنما الذى حرم عليه ما تصدق به على نفسه وجعل محلا لقبوله، ولو كان ما تصدق به مرة يثبت له حكم الصدقة، لما جاز للفقير إذا تصدق عليه بشيء أن يبيعه من غنى، فقد سألهم صلى الله تعالى عليه وسلم الطعام وأجاب عنه المصنف رحمه الله تعالى بقوله الآتى، فأراد بيان سنته وبأن سؤاله لمقتض والمنفى السؤال بغير مقتضى.

(وقوله ألم أر البرمة) بضم الموحدة وسكون الراء وبالميم، وهى عند العرب قدر ينحت من الحجارة، وقيل: أعم من ذلك فيشمل النحاس والحديد وغيرهما. **(فيها لحم)** الضمير للبرمة لأنها مؤنث كالقدر إلا أن تأنيث الثانية سماعى، واللحم بسكون الحاء المهملة وتفتح وقد قيل: إنه لغة مطردة فى كل ما ثانيه حرف حلق كالبحر والنهر والبغل والبخل والكحل، وأنكره البصريون.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩/١١٥٤)، وأحمد (٤٢٦/٥)، والبيهقى (٢٠٣/٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢٠٠/٣، ٢٥٠، ١١/٧، ٦١)، وأحمد (٢٨١/١، ٢٨/٢، ١٥٣، ١٥٦، ٤٢/٦، ١٠٣)، وابن ماجه (٢٠٧٦)، وعبد الرزاق (١٥٧٧٢)، والدارقطنى (٢٣/٣)، والبيهقى (٣٣٨/١٠).

(٣) أخرجه البخارى (٦١/٧)، وأحمد (١٧٨/٦)، والنسائى (١٦٢/٦)، والبيهقى (٣٢٨/١٠).

(إذ لعل سبب سؤاله ظنه صلى الله تعالى عليه وسلم اعتقادهم) أى اعتقاد عائشة المخاطبة وغيرها من الناس فذكره تغليبا **(أنه)** أى اللحم بسبب أنه صدقة فى الأصل. **(لا يحل له)** صلى الله تعالى عليه وسلم كالصدقة عليه بالذات. **(فأراد بيان سنته)** أى طريقته المشروعة له وهى جواز أكل الهدية، وإن كانت صدقة على مهديها **(إذ رآهم لم يقدموه)** أى اللحم. **(إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به)** أى لا يخصون أنفسهم ويقدمونها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى شىء من الطعام وغيره. **(فصدق)** بتخفيف داله ويجوز تشديدها **(عليهم ظنه)** بالنصب أى صدق فى ظنه جعلهم بذلك فهو متعد بنفسه أو على الحذف والإيصال كما فى صدق وعده، أو بالرفع على أنه فاعل أى يحقق ظنه أو وجد صادقا فى جهلهم ذلك.

(وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله: هو لها صدقة ولنا هدية) وهذا جواب استحسنوه، فإن الرجل إذا رأى طعاما أهدى له فسأل عنه وطلب أن يؤتى به لا يذم، وإنما لا يسأله عما عهده من طعامه ويبحث عنه، وأتى بلعل التى للترجى لأنه لم يجزم به وتقدم جواب آخر، وهذا الحديث يدل على أن الصدقة حرام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لشرف قدره وعلو منصبه وغناه حقيقة، وسواء فيه صدقة التطوع والفرض كالزكاة وفى حل التطوع، قول للشافعى: وكذا أهل بيته، وقيل: ما يحرم عليه الصدقة العامة كماء السبيل والآبار المسبلة، وهل ذلك حرام على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أم خاص به صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فيه خلاف، والأصح اختصاصه به صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى الأحاديث ما يدل عليه، ونقل عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى جواز الصدقة على أهل البيت مطلقا. وقيل: إذا حرموا سهمهم من بيت المال كما نقله الطحاوى، وهو وجه عن الشافعى ومالك، وهم بنو هاشم وكذا بنو المطلب بخلاف غيرهم من قريش وأزواجه رضى الله تعالى عنهن.

(وفى حكمة لقمان) بن عنقاء بن سيرون واسم أبيه تاران، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه ابن أخت داود عليه الصلاة والسلام وعنه أخذ الحكمة. وقيل: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، والأصح أنه حكيم وقد جمعت حكمه فى كتاب مستقل مسند، والمراد بالحكمة الموعظة الحسنة لفظا ومعنى، ولقمان هذا هو المذكور فى القرآن. وكانت الحكم تجرى على لسانه لما أتاه الله من العلم والنفس القدسية، وهو ولى عند الأكثرين ونبى عند بعضهم، وكان عبدا حبشيا نجارا بالراء، وقيل: نجادا بالدال أو خياطا أو راعيا. وقيل: نوبى. وقيل: إنه تلمذ لألف نبى وهو غريب من أهل أيلة. وقيل: أنعم. وقيل: أشكم. وقيل: ماتان. وقيل: إنه ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل: إنه كان فى

زمن داود. وقيل: إنه بعد إبراهيم، والأصح الأول. وقيل: بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، والقول بأنه عاش ألف سنة غلط من لقمان بن عاد.

(يا بنى) بالتصغير والإضافة واسمه مشكم بكسر الميم وسكون المعجمة وميم على الأصح، وقيل غيره كما مر. **(إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة)** المعدة: بفتح الميم وكسر العين وبكسر الميم مع سكون العين مقر الطعام، وهى للإنسان كالكرش للبهائم، والحوصلة للطير، والفكرة والفكر قوة مدركة فى الدماغ عند من أثبت الحواس الباطنة فى بطون الدماغ كما فصل فى كتب الحكمة، ومن لم يثبتها يقول: هى قوة للنفس تدرك بها الأمور الدقيقة، فعلى الأول نومها استعارة تبعية لبطلان عملها أو شبهت الفكرة بشخص وأثبت له النوم على طريقة المكنية والتخييلية، وكذا على الثانى، أو المراد نام صاحبها والنوم مبطل للحس والإدراك، والمراد على كل غلبة للغفلة والذهول على كل من يشغله بطنه عن مهماته، ومثله ما ورد فى الحديث: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب» فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء فيدبر عما يهمه من العلم النافع والعبادة. والجهل يستعار له الموت كما قيل:

لا يعجبن الجهول بزنة   فذاك ميت وثوبه كفن

(وخرست الحكمة) هو كالذى قبله فى الاستعارة ونحوها، أى خرس اللسان التى تجرى عليه، والحكمة النطق بما فيه كمال النفس واقتباس النظرية والملكات التامة والأفعال الفاضلة، أى تركت ذكرها واكتسابها. **(وقعدت الأعضاء عن العبادة)** أى كسل صاحبها فلم يستعملها فى عبادة الله بأن يعطل بدنه من القيام لها، واللسان من ذكرها، والقلب عن فكرها، وهكذا فشبه تركه بالعقود أو استعمله فى لازمه ونحوه مما مر، فقسه على ما قبله.

(وقال سحنون) الفقيه المالكى وهذا لقبه، واسمه عبد السلام بن سعيد التنوخى قاضى إفريقية، وكنيته أبو سعيد وهو بضم السين، وصوب القاضى فتحها وقال: إن الضم زعمه بعض الفقهاء وعليه ابن الحاجب فى الشافعية حيث قال: سحنون إن صح الفتح ففعلون كحمدون، وهو مختص بالعلم لندور فعلول وهو صعفوق وخرنوب ضعيف. وقال غيره: إنه صحيح على أنه فعلون بالنون، وهو أولى لكثرته فى الإعلام كعبدون ورزقون وزيدون خصوصا بالمغرب، وهو اسم طائر كثير الحركة فى الأصل. وقيل: هو البليل. وأدرك مالكا ولم يقرأ عليه، وقرأ على ابن القاسم وأشهب، وهو واضع كتاب المدونة، وانتهت إليه رياسة العلم بالمغرب، وحصل له ما لم ينله غيره، وولد فى أول رمضان سنة ستين ومائتين، ومات لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين. وقيل:

الظاهر أن سحنون فعلول من السحنة وهى الهيئة الحسنة، وهو ممنوع من الصرف للعلمية وشبه العجمة، أو مصروف إن كان فعلولا. وقال التلمسانى: وقع فى نسخة القرافى هنا ذو النون بدل سحنون وهو العابد الزاهد المشهور واسمه ثوبان، وقيل: أبو الفيض بن إبراهيم المصرى، فيمكن أن يكون أحدهما روى عن الآخر لأنهما فى عصر واحد. **(لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع)** المضارع يفيد الاستمرار التجددى، أى من يكون دأبه كثرة الشبع يكثر نومه ويصير بليدا بطالا، فلا يحصل العلم ولا يليق به طلبه، فإن البطنة تذهب الفطنة كما تقدم، ولأنه يشتغل بإصلاح مأكله وكسب مال يحصله فيفوته العلم وكل خير.

(وفى صحيح الحديث) الذى رواه البخارى وغيره، ويجوز أن يريد المصنف بصحيح الحديث كتاب البخارى؛ لأن الصحيح غلب عليه.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم أما أنا فلا آكل متكئا) هذا الحديث فى الصحيحين مروى بروايات مختلفة، منها ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، ومنها: «إنى لا آكل متكأ»[1] ومنها: «لا آكل وأنا متكئ» قال الكرمانى: هذا أبلغ فى الإثبات والأول أبلغ فى النفى، فقيل عليه المراد أنه أكثر مبالغة لا بلاغة، ووجهه أن متكئ اسم فاعل فيه ضمير مستتر، فأسند الاتكاء إليه مع إسناده معه إلى أنا فهو أبلغ فى إثبات الاتكاء لتكرار إسناده، وإن لم يكن متكئ مع فاعله جملة بخلاف «لا آكل متكئا» فإنه لم يتكرر فيه الإسناد فهو فى النفى أبلغ، وعندى أن الثانى أبلغ لنفى القيد والمقيد انتهى.

أقول: هذا كلام لا محصل له مع عدم استقامته، والظاهر أن مراد الكرمانى بالنفى والإثبات نفى الأكل فى حال الاتكاء، وإثبات الأكل فى حال عدم الاتكاء الذى يقتضيه مفهومه، بناء على الفرق بين الحال المفردة والجملة، فإن النفى فى الأولى ينصرف إلى القيد والمقيد فيقتضى نفيهما، والثانية لا تقتضى ذلك نحو: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإنه يقتضى أنهم يعذبون بعده كما مر، ويقتضى هذا أنه يأكل إذا زال الاتكاء وفيه بحث ليس هذا محله، وسبب هذا الحديث ما أخرجه ابن ماجه بسند حسن، وهو أن أعرابيا أهدى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم شاة فجثى على ركبتيه يأكل، فقال له الأعرابى: ما هذه الجلسة؟ فقال: «إن الله جعلنى عبدا كريما ولم يجعلنى جبارا عنيدا».

(والاتكاء هو التمكن للأكل والتقعدد فى الجلوس له) أى لأجل الأكل، والتقعدد

---

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (٦٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/٢٥٦).

تفعلل من القعود ومعناه التثبت والتمكن من القعود، إلا أنه قيل: إنه لم يوجد من هذه المادة تفعلل، والمصنف رحمه الله تعالى ثقة ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وللجلوس أنواع بينها الثعالبى فى فقة اللغة.

(كالتربع وشبهه من تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته) من أرض وفراش ونحوه، والتربع يكون بمعنى النزول والربيع وجعل الشىء رباعيا، ونوع من الجلوس مأخوذ من الأخير لبسط أربعة من أعضائه: الساقين، والوركين، مع انضمامهما على هيئة معلومة. وقوله: «من تمكن» الخ بيان للتربع وشبهه، والتمكن تفعل من المكان، أى تثبته فى المكان والاعتماد بمعنى الاتكاء كما فى الصحاح، وهذا إشارة إلى ما ارتضاه فى تفسير الاتكاء، فإن أهل اللغة اختلفوا فيه، فذهب بعضهم إلى أنه الميل إلى أحد جانبيه مع اعتماده على شىء كالمخدة والوسادة وهو المشهور. وذهب الخطابى وتبعه المصنف رحمه الله تعالى إلى أنه الاعتماد على ما تحته من غير ميل كما بينه هنا وسيأتى تحقيقه، ثم أشار إلى وجه كون الاتكاء بهذا المعنى فى حال الأكل لم كان غير محمود فقال:

(والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل) أى يطلب الأكل ويرغب فيه ويقتضى تناوله. **(ويستكثر منه)** أى يكثر منه كثرة مفرطة متجاوزة حد الاعتدال حتى كأنه يطلبه من نفسه لإقباله عليه وقوة شهوته لغلبة حيوانيته. **(والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** لإعراضه عن مثله وتناوله منه مقدارا ضروريا بسرعة **(إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيا)** المستوفز الذى لا يكون مطمئنا، بل مستعجلا للقيام، ومنه نحن على أوفاز أى على سفر، كما قلت فى الفصول القصار:

من كان فى الدنيا على أوفاز   استراح لتهنيه بعيشه أو فاز

والإقعاء: بقاف وعين مهملة وألف ممدودة له تفاسير، والمعروف منها اثنان، أحدهما أن يلصق إليتيه بالأرض وينصب ساقيه وفخديه ويلصقهما بصدره، وربما يكون مع وضع يديه على الأرض مع اقعنساس يشبه جلوس البدوى المصطلى، والثانى: أن ينصب قدميه واضعا على عقبيه إليتيه ضاما ساقيه وفخذيه واضعا ركبتيه على الأرض، وهذا استحبه الشافعى فى الصلاة إذا رفع رأسه من السجود الأول، وبه ورد الحديث. وقال الشافعية: إن عليه العبادلة، وكرهه الحنفية. وأما الأول فمكروه بلا خلاف فى الصلاة، وأما إقعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم للأكل ففسر بإلصاق مقعده بالأرض ناصبا ساقيه وهو الاحتفاز والاستيفاز. وقال التجانى: إن قول المصنف رحمه الله تعالى: إن جلوس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأكله مستوفزا مقعيا ظاهره أنه كان عادة له فى كل

أحواله، والذى ورد فى الحديث أنه أكل مرة هكذا، كما قال أنس رضى الله عنه: «رأيته صلى الله تعالى عليه وسلم أكل مرة مقعيا». لا وجه له لأن ما قال المصنف رحمه الله تعالى هو المصرح به فى عامة الكتب، ورواية أنس رضى الله تعالى عنه مرة لا تصلح سندا للنفى فى غير تلك المرة، وإنما امتنع صلى الله تعالى عليه وسلم من الاتكاء فى أكله لأنه من الكبر والترفه الذى ينزه طبعه عن الميل له، ولأنه يضر إذا مال ويستدعى لكثرة الأكل إذا تربع، وهل كان الأكل متكئا مكروها فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم كسائر الأمة أو حراما عليه، وأن ذلك من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم. ذهب إلى الثانى بعض الشافعية، والأصح الأول، واختياره صلى الله تعالى عليه وسلم غيره دائما لا يدل على حرمته.

(ويقول: إنما أنا عبد) لله لا أملك لاختياره العبودية التى هى أشرف الصفات، وهذا من حديث رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١). والإطراء: المبالغة فى المدح، وإلى هذا أشار البوصيرى رحمه الله تعالى بقوله:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ‌ ‌ ‌ ‌ واحكم بما شئت فضلا فيه واحتكم

وهذا من تأكيد المدح بنفيه **(آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد)** فى حال الأكل وغيره تواضعا لله فلا يمد رجليه عند جلسائه تكريما وتعظيما لعباد الله وإرشادا لغيره، ولا يعبأ بترفع ذوى الوجاهة والتكبر من الملوك وغيرهم، وبه اقتدى خلفاؤه رضى الله تعالى عنهم، لأن الله رقيب عليهم وهو معهم فأدبهم وإنما هو معه. وسيأتى الكلام أيضا على هذا الحديث عند ذكر المصنف له فى قوله: فصل وأما تواضعه. وقد ضيف بعض المشايخ بعض الأمراء وهيأ له محلا ينام، فلما دخل وجد فيه مصحفا فلم يزل قائما على قدميه إلى الصباح، فلما أتاه رب المنزل رآه قائما فقال له: لم لا تجلس؟ فقال له: كيف أجلس أو أنام فى محل فيه كلام الله، فقال له: من عظم الله عظمه، فلم يمض زمن حتى صار سلطانا ومالك الملك يؤتيه من يشاء.

(وليس معنى الحديث فى الاتكاء) المذكور سابقا **(الميل على شق عند المحققين)** من أهل اللغة والحديث، بل هو ما مر وهو أحد قولين لهم. واعلم أن الصاغانى قال فى المجمع: رجل تكأة مثل تؤدة كثير الاتكاء، وأصله وكأة والتكأة أيضا لما يتكأ عليه وهو

(١) أخرجه البخارى (٢٠٤/٤، ٢١٠/٨)، والحميدى (٢٧)، والترمذى فى الشمائل (١٧٢)، وعبد الرزاق (١٩٧٥٨).

المتكأ، قال الله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف:٣١] قال الأخفش: هو فى معنى مجلس. وطعنه حتى اتكأه أى ألقاه على هيئة المتكئ، وأوكأت فلانا نصبت له متكأ. وفى نوادر أبى عبيد: أوكأت عليه أى توكأت. انتهى. وكذا قاله غيره فهو واوى من الوكاء، وأصل معناه الشد، والمعتمد على شىء يتقوى ويشتد به، فالمعتمد حالة الجلوس على الأرض أو غيرها متكئ، والمائل على أحد شقيه المستند إلى الأرض أو الوسادة متكئ أيضا، فكلا التفسيرين صحيح، والمراد به فى الحديث صالح لكل منهما، ومن فسره بالميل جنح إلى أنه عادة المتكبرين المترفهين، أو المشهور فى الاستعمال فحيث طابق الوضع كان أظهر. فرد المصنف رحمه الله تعالى لم يصادف محزه وأكثرهم على خلافه إلا الخطابى، والحق أحق بالاتباع، فالحاصل أن حقيقته إنما هى الاعتماد الحسى فالمتربع معتمد والمائل معتمد على أحد شقيه، فلا خطأ فى كلا التفسيرين لمن له معرفة باللغة، فالتحقيق خلاف ما ادعاه المصنف رحمه الله تعالى من التحقيق، وإنما جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه حالة العبد؛ لأنه لاشتغاله بالخدمة والمهنة لا يستقر ويطمئن فيكون مستوفزا مستعجلا، والمعنى أنى لست مخلوقا للدنيا وترفهها، فنظرى إنما هو لعبادة الله وتبليغ أوامره فلا ألتفت إليها، وإنما أتناول منها بسرعة مقدارا يسيرا لدفع الجوع كالعبد الموكل بخدمة سيده. وثمة نكت أخرى تدرك بالذوق، أى أنه مهتم بذلك لا بالأكل والشرب كالبهائم.

(وكذلك) أى كقلة أكله وشربه وعدم ترفهه فيهما. **(نومه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قليلا)** بيان لوجه الشبه. **(شهدت بذلك)** أى قلة نومه صلى الله تعالى عليه وسلم. ودلت عليه **(الآثار الصحيحة)** أى الأحاديث الصحيحة المسندة فى كتب الحديث التى أغنت شهرتها عن ذكرها كما مر، هذا كان أكثر حالاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وربما خالف هذا أحيانا إذ قد ورد ما يؤذن بأن نومه زاد على يقظته أو ساواها، كحديث النسائى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالليل مصليا إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه».

(ومع ذلك) أى مع قلة نومه غالبا **(فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن عينى تنامان ولا ينام قلبى)** فنومه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كنومنا بل هو يقظة، فكأنه لا نوم له أصلا بحسب الحقيقة، فقلبه صلى الله تعالى عليه وسلم مستيقظ دائما يدرك ما لا يدركه غيره فى يقظته، ولذا كانت رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم قسما من الوحى لاتصاله بعالم الملكوت فى نومه، وكذلك سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم. فهذه خصوصية إضافية بالنسبة لأمته، وهذا أيضا باعتبار غالب

حاله، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام هو وأصحابه مرة حتى فاتتهم صلاة الصبح وأدركهم حر الشمس، وقد أجيب عنه أيضا بأن القلب وإن كان يقظان لا يدرك ما تدركه العين النائمة، وإنما يدرك ما يتعلق به من الحدث والألم، ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى أن نومه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينقض وضوءه، وبأنه شغل الله تعالى قلبه الشريف بمشاهدة ملكوته مع نوم عينه فلم تدرك خروج الوقت للتشريع لأمته، وقد مر الكلام على ذلك كله.

(وكان نومه) صلى الله تعالى عليه وسلم **(على جانبه الأيمن استظهارا على قلة النوم)** أى استعانة فإن الاستظهار استفعال من الظهر بمعنى التقوية والاستعانة، لأن قوة البدن واستمساكه بظهره، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم من عادته أنه إذا نام نام على شقه الأيمن، وحكمته ما يأتى أن القلب مائل إلى جانب اليسار، فإذا نام المرء على يساره يستقر القلب فيزيد نومه لراحة قلبه، فإذا نام على يمينه تعلق القلب و لم يسترح فيخف نومه ويكثر سرعة يقظته من نومه، وإنما كان مقتضى الحكمة كون القلب فى جانب اليسار ليعادل الكبد الذى فى جهة اليمين غالبا، ولموافقته لما كان يحبه صلى الله تعالى عليه وسلم من التيامن فى أموره لما فيه من اليمن لفظا ومعنى، وما قيل من أنه حال امتهان لاتكائه على الجانب الذى ينام عليه لا وجه له، فإن فى النوم راحة تعين على العبادة فالاتكاء عليه كالاتكاء على أعضاء السجود، وكذا ما قيل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع قوة روحه ويقظة قلبه غالبة لنومه غير محتاج للاستظهار عليه، وإنما هو للتيمن والتشريع، فإن القوى إذا تقوى كان شديد القوة، والنوم أمر طبيعى فى جميع الخلق غالب وقد عرفت أن يقظة قلبه كانت هى الحالة الغالبة، فالتقوى احتراز مما يعرض نادرا. **(لأنه)** أى النوم **(على الجانب الأيسر أهنأ)** أفعل تفضيل مهموز الآخر من الهنئ أى أسهل وألذ، والهنئ ما أتاك من غير مشقة فالنوم على الأيسر أيسر، وفعله هنوء بالضم ويكسر هناه قيل: وإنما جعل الطائف البيت عن يساره لتوجه قلبه إليه بدعوة: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فجعل جانب القلب وأعلاه محاذيا له. وقيل: لأن اليسار محل الوسوسة وكاتب السيئات، واليمين محل الرحمة وكاتب الحسنات، كما أن البيت محل الرحمة فجعل اليسار بين رحمتين لتقلب ضده. وقال ابن عبد السلام: الحكمة فيه أن القادم يستقبل البيت من ثنية كداء من ناحية باب بنى شيبة فيبقى ركن البيت على يسارك وهو يمين البيت، لأنك إذا قابلت شخصا فيمينه يسارك ويسارك يمينه، والذى يلاقيك من البيت وجهه وهو الباب لأن باب كل بيت وجهه، والأدب أن يؤتى الكبير من قبل وجهه ولهذا ابتدئ بثنية كداء، والأصل فى القربة

التيمن، فلو ابتدأ بالحجر وجعل البيت على يساره، فكان قد ابتدأ بالوجه واليمين معا فيجمع بين فاضلين، ولو ابتدأ بالحجر وجعل البيت على يمينه ترك الأدب، ويمين البيت الحائط الذى من مركز الحجر إلى الطرف الآخر وغيره ما يقابله، وهو معنى حسن كما قاله ابن مرزوق.

وقوله: **(لهدو القلب)** تعليل لكونه أهنأ أى: لراحته واستراحته لسكونه، والهدو: بزنة العلو السكون، وهو مهموز الآخر وتبدل همزته واوا وتدغم وتسهل أيضا، وهو قريب من الهنوء ولامهما همزة فى الأصل. **(وما يتعلق به)** أى والهدو معلاقه الذى تعلق به ويناط وكلاهما **(من الأعضاء الباطنة)** أى الموجودة فى داخل الإنسان.

(حينئذ) أى حين نومه على جانبه الأيسر **(لميلها إلى الجانب الأيسر فيستدعى ذلك)** أى يقتضى ذلك الهدو ويستلزم بحسب الطبع. **(الاستثقال فيه)** أى: ثقل بدنه فى نومه وغلبة النوم حتى يستغرق فيه، وهو جواب إذا أو مسبب عما قبله. **(والطول)** أى طول نومه وطول زمان بطالته. **(وإذا نام النائم على)** جانبه **(الأيمن تعلق القلب وقلق)** أى: لم يستقر ويطمئن **(فأسرع الإفاقة)** أى التيقظ من نومه **(ولم يغمره)** بفتح الياء وسكون الغين المعجمة وضم الميم وجزم الراء المهملة. **(الاستغراق)** فى النوم وهو انقطاع إحساسه انقطاعا تاما طويلا، وغمره له بتغطيته وشدة استيلائه عليه، من غمره الماء إذا أعلاه فهو استعارة كما استعيرت الغمرة للشدة، فبينه وبين الاستغراق مناسبة لطيفة لأنه من الغرق، وذلك لأن القلب مائل طرفه الأسفل إلى اللسان لتتوفر الحرارة منه عليه فيعتدل الجسم، فإن الحرارة كلها فى الأيمن لكون الكبد فيه.

* * *

(فصل)

(والضرب الثانى) مما تدعو ضرورة الحياة إليه وهو الفصل التاسع، وعقبه بما قبله لأنه ضده، إذ فيما قبله يتمدح بقلته وبضدها تتميز الأشياء وهو: **(ما يتفق التمدح بكثرته)** يتفق إما من قولهم اتفق كذا ووقع اتفاقا أى وقع من غير قصد لصاحبه، أو من الاتفاق وهو اجتماع الكلمة، فالأصل ما يتفق الناس على التمدح بكثرته أى كثرة المدح وقوته، والمراد الأول لأن صاحبه لم يقصده ولم يقصد مدح الناس له لسببه وإن كان قد يقصد ذلك. **(والفخر بوفوره)** أى الافتخار بكثرته دون قلته ووجوده، فإنه موجود فى كثير مما لا يعتد به، وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه بالحظ الأوفى الأوفر. **(كالنكاح)** أى الجماع، فإنه يطلق عليه وعلى العقد كما مر، والمراد الأول. **(والجاه)** وهو علو القدر عند الناس والمهابة، ونفوذ الكلمة والاشتهار بذلك، وهو من

الوجاهة والمواجهة، وأصله وجه فقلب وأعل كما مر.

(أما النكاح فمتفق فيه) أي في مدحه وشأنه اتفق العلماء وأصحاب البصيرة والتمييز. **(شرعا)** كما سيأتي بيانه **(وعادة)** فيما اعتاده الناس وتعارفوه كما لا يخفى. ونصب شرعا وما بعده على التمييز أو المصدرية، ثم بين ذلك على اللف والنشر المشوش فقال: **(فإنه)** أي النكاح **(دليل الكمال)** في الخلقة والجسم بقوته واعتداله. **(وصحة الذكورية)** الظاهر أنها مصدرية كالصعوبة والأنوثة، والمشهور أنها جمع ذكر خلاف الأنثى، ويصح إرادته أيضا إلا أن الأول أولى، وصحة الذكورية بمعنى قوتها وسلامتها من الضعف والآفة. **(ولم يزل التفاخر بكثرته عادة)** للناس **(معروفة)** بينهم لا تنكر **(والتمادح به سيرة)** أي طريقة **(ماضية)** أي قديمة أو نافذة مقررة من مضى الأمر إذا قضى وقرر.

(وأما في الشرع فسنة مأثورة) أي هو في الشرع أمر مسنون منقول في آثار السلف والأحاديث الصحيحة، أي المراد أنه طريقة مشهورة. قال الراغب: سنة النبي طريقته التي كان يتحراها. **(وقد قال ابن عباس)** رضي الله تعالى عنهما، وهو حديث صحيح رواه البخاري. **(أفضل هذه الأمة)** أي أفضل أمة الإجابة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا عبر باسم الإشارة **(أكثرها نساء مشيرا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم)** يعني أن المراد بالأفضل في كلامه هو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أبيح له جمع ما فوق الأربعة وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم دون أمته، فدلت الأكثرية على تعينه بهذه الأفضلية ولذا عبر عنه بالإشارة فإنها تطلق على مقابل الصريح، وهو وإن كان أفضل من أمته أجل وأعلى من أن يقال إنه أفضل منهم، مع أنه لا فائدة فيه ببادي الرأي، إلا أنه رضي الله تعالى عنه قصد الحض على النكاح والإكثار منه ولذا كان مفيدا، وهذا الكلام قاله لسعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه لما سئله ألك زوجة؟ فقال: لا. فقال له: «تزوج فإن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء»(١) كما في صحيح البخاري. ولا بد من جعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخلا في الأمة على ما يأتي، لأن أفعل التفضيل في الأصل إنما يضاف لما هو بعضه، وإن جاز يوسف أحسن إخوته على ما ارتضاه بعض النحاة على تفصيل فيه شهرته تغني عن ذكره، وهذه الكثرة باعتبار ما أبيح له صلى الله تعالى عليه وسلم بعد التزويج بمن شاء أن يجمع في وقت واحد عنده عدة لا تجوز لا بمجرد الدخول والعقد، فإنه ثابت لغيره أيضا. وكان اللاتي تزوج صلى الله تعالى عليه وسلم بهن بإجماع أهل السير إحدى عشر امرأة، ستة من

---

(١) انظر فتح الباري (٩/٣٤٥).

قريش وأربع من سائر العرب وواحدة من بنى إسرائيل من نسل هارون عليه الصلاة والسلام، وهى صفية بنت حيى وسيأتى لذلك مزيد بيان. وأما التى اختلف فيهن ممن فارقها أو عقد عليها ولم يدخل بها أو خطبها ولم يقع عليها العقد، فاختلف فيهن وفى سبب فراقهن، والذى ذكره بعضهم أنهن سوى من تقدم سبع، فالجميع ثمان عشرة امرأة غير السرارى، ويمكن أن يكون المراد بالأمة ما يشمله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته ولا بعد كما قيل، والتمدح بالنكاح لما فيه من الفوائد كالولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وترك ما يشغل عن القيام بأوامر الله تعالى مع امتثال أمر الله، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، وفى ذلك تسبب للألفة والمودة وإيصال القرابة؛ ولأن فيه تبليغ الأحكام التى لا يطلع عليها إلا النساء، ولما فيه من إظهار معجزته لقوة قدرته على الجماع مع قلة أكله وتنعمه، والمعتاد خلافه، ومع ذلك لم يشغله ذلك عن تقيده بأمر الجهاد والتبليغ إلى ذلك مما لا يحصى، وقد عد من النسك والعبادة، بل قيل: إنه أفضل منها أحيانا، وهو من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتركه للقادر عليه مكروه، إلا أن يخرجه لكسب ما لا يقدر عليه وارتكاب محظور، كما فى آخر الزمان، ولذا ورد: «خيركم الخفيف الحاذ الذى لا زوجة له ولا ولد»[١]. وإنما قيد بهذه الأمة ليخرج سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام فإنهما كانا أكثر منه صلى الله تعالى عليه وسلم نساء وفيه تأمل.

(وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: تناكحوا تناسلوا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة) ووقع فى بعض النسخ: «تناكحوا فإنى مباه بكم» الخ بدون تناسلوا. والتناكح تفاعل من النكاح بمعنى التزوج كما ورد بهذا اللفظ، والمفاعلة على ظاهرها بأن يراد لينكح أحدكم بنت غيره وينكح الغير بنته، وهو عبارة عن مصاهرة المسلمين بعضهم من بعض. والتناسل: كثرة النسل وهم الأولاد والذرارى، أو المراد بالتفاعل لازم معناه وهو كثرة النكاح وهذا أنسب بالمقام وبما بعده، وتناسلوا أصله تتناسلوا بتائين فى أول المضارع، وحذفت على القياس فى كل تائين فى أوله، أو هو أمر بدل مما قبله أو بتقدير العاطف والأول أولى، لأن التناسل ليس باختيارهم وإنما هو فعل الله فيحتاج إلى تأويله باطلبوا التناسل واحرصوا عليه بأن تنكحوا غير العقيمة، والآيسة من الولد، بأن يعلم ذلك منها إن كانت ثيبا، أو يكون الظاهر ذلك منها لشبابها ففيه نهى عن نكاح العجائز من غير داع، وإشارة إلى أنه ينبغى أن يكون المقصود من النكاح مع قمع الشهوة، وجود ذرية تعبد الله وتحصل بها كثرة الأمة.

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (١٢/٢٤٣).

والمباهاة: المفاخرة وهى على ظاهرها بأن تقع منه المفاخرة حقيقة، أو تجعل مسرته بهم ورؤية غيرهم لهم كالمفاخرة، ويؤيده ما روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «أتى يوم القيامة بمثل السيل فيحطم الناس، فتقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأمم والأنبياء» وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر الناس أمة لعموم بعثته وبقائها، وكثرة أتباعه وجنده المؤيدين لدين الله، ففيه فخر عظيم. وهذا الحديث أخرجه ابن مردويه فى تفسيره بسند ضعيف، إلا أنه حسن لكثرة متابعته لفظا ومعنى، فإنه رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث سهل بن حنيف رضى الله تعالى عنه: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم». وعن معقل بن يسار رضى الله عنه: «تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(١).

(ونهى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(عن التبتل)** كما رواه الشيخان عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه، ولحديث سميح قال فيه: رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن لنا لاختصينا. فهذا هو المنهى الذى كان استأذنه فى التبتل فرده ونهاه عنه.

وروى أن جماعة من الصحابة فيهم على كرم الله وجهه لما رأوا عبادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قالوا: نلزم الصوم والعبادة ونترك نساءنا ونطلقهن وننقطع للعبادة، فنهاهم صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك. والاختصاء: الشق على الانثيين وانتزاعهما وهو التبتل من البتل وهو القطع. والمراد: الانقطاع عن النكاح بالكلية، ويقال: رجل بتول وامرأة بتول إذا انقطعت عن الرجال. ولذا قيل لمريم: البتول. وأما فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها فسميت بتولا لانقطاعها عن الدنيا وزهدها، لانقطاعها لعبادة الله تعالى، أو لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسبا. وأما قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨] فليس منافيا للحديث، لأنه بمعنى آخر أى انقطع فى الليل لعبادة الله تعالى والتهجد وأخلص له وأقرأ القرآن. وورد النهى عن موافقتهم للنصارى وما كانوا عليه من الرهبانية.

وأما قوله: «لو أذن لنا لاختصينا» فلا يدل على جواز الاختصاء إن كان على حقيقته، فإنه قد يستعمل بمعنى آخر كما سمى الصوم وجاء، وهو جائز فى البهائم فى صغرها لغرض كتسمين المأكول وهو فى الآدميين حرام لأنه مثله، ويكره استخدام

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائى (٣٢٢٧)، وابن ماجه (١٨٤٦)، وابن حبان (١٢٢٨)، والحاكم (١٦٢/٢).

الخصى ويمنع من دخوله على النساء، ثم إن النهى عن ترك النكاح للقادر عليه يفيد كراهته لأنه مستحب . وعند المالكية واجب، فالنهى على ظاهره. قال التجانى: المتأخرون من المالكية يجعلونه فى حق بعض الناس واجبا، وفى حق بعضهم مندوبا إليه، وفى حق بعضهم مباحا التفاتا للمصلحة، وهذا نوع من القياس يسمى القياس المرسل، وهو الذى ليس له أصل يستند إليه، وإنما هو لاقتضاء المصلحة وقد أنكره كثير من العلماء، والظاهر من مذهب أصحاب مالك القول به. انتهى.

(مع ما فيه) أى فى النكاح أو فى التبتل، وقيل: الأول متعين بقرينة ما سيأتى. **(من قمع الشهوة)** أى قهرها والغلبة، وأصله ضرب الرأس ومنه: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١] والمراد بالشهوة شهوة النكاح والنساء. **(وغض البصر)** أى خفض البصر وتغميضه عن النظر عما يحرم، وجعل غض البصر كأنه فيه مبالغة لأنه حامل عليه. وقيل: إنه مجاز لأن من لم يتشوق لأمر يغض عنه عينه فكأنه لا يبصره، ويجوز جعله حقيقة أو كناية. **(اللذين نبه عليهما)** صفة لقمع الشهوة وغض البصر.

(بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم) فى الحديث الذى رواه ابن ماجة عن عائشة رضى الله تعالى عنها، إلا أن فى سنده مقالا. وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»(١). وأخرجه الطبرانى بلفظ المصنف رحمه الله تعالى بدون فإنه إلى آخره. **(من كان ذا طول)** بفتح الطاء المهملة وسكون الواو واللام، وهو سعة الرزق والمال بحيث يكون له قدرة على نفقة زوجته وأهله، بحيث لا ينظر إلى مال امرأته وغيرها فإنه ورد فى الحديث أيضا: «لا تنكح المرأة لمالها فلعل مالها أن يطغيها، ولا لجمالها فلعل جمالها أن يرديها، وعليكم بذات الدين فإنهن فى النساء مثل الغراب الأعصم»(٢). قال ابن رشد: وهذا نهى إرشاد لا تحريم. وورد فى الحديث: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعلاه أعوج فإن أردت أن تقيمه كسرته». وقد نظمه القائل حيث قال:

---

(١) أخرجه البخارى (٣/٧)، ومسلم (١٤٠٠/١)، والنسائى (١٦٩/٤)، وابن ماجه (١٨٤٥)، وأحمد (٣٨٧/١، ٤٢٤، ٤٣٢)، والدارمى (١٣٢/٢)، والحميدى (١١٥)، وعبد الرزاق (١٠٣٨٠).

(٢) تقدم تخريجه.

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ... إلا أن تقويم الضلوع انكسارها[1]
أتجمع ضعفا واقتدارا على الفتى ... أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

ومنه أخذ المنصور قوله:

إذا نقمت عرس وأنت تحبها ... فدع بحرها رهوا ولا تثر الموجا
ولا تطمعن الدهر فى أن تقيمها ... فقد خلقت فى الأصل من ضلع عوجا

(فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) أى فإن التزوج أكثر حملا على غض البصر وكفه عن النظر لما يحرك الشهوة، وأكثر تحصينا أى حفظا للفرج عن الزنا، والمفضل عليه التبتل وتحصين الفرج بقمع الشهوة، ففيه تنبيه على الأمرين المذكورين، ثم لما كان فى التبتل زهد ظاهر ربما يتوهم أنه أفضل من التزوج دفعه بقوله: **(حتى لم يره)** أى التزوج والنكاح **(العلماء)** بالدين والشرع **(مما يقدح فى الزهد)** القدح والطعن فى الشيء ذكر عيوبه، أى ليس مما ينقص الزهد حتى يعيبه الناس فأسند القدح إليه مبالغة. وقول في الزهد أى ترك الدنيا ولذاتها؛ لأن ما ذكر من جملة التلذذ لأن القصد به التعفف والنسل وهذا مروى عن عمر رضى الله عنه، فإنه قال: ليس فى النساء سرف ولا فى تركهن عبادة وزهد. كما فى تحفة العروس للتجانى.

(قال سهل بن عبد الله) التسترى وقد تقدمت ترجمته **(قد حبب)** بالبناء للمجهول والتشديد **(إلى سيد المرسلين)** أى خلق الله تعالى فيه محبتهن وسيأتى بيانه والضمير للنساء **(فكيف يزهد فيهن)** أى إذا كان الله تعالى جعل حبهن مركوزا فى جبلة من هو أزهد الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم، فكيف يدعى أحد أن تركهن زهد. وفى سراج المريدين فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان:٧٤] أن هذه الآية تدل على فضل التزوج على العزوبية لبقاء الذرية، ودعائها الذى هو عمل لا ينقطع بموته. **قلت**: ويدل على أنه أفضل فى حق من يقتدى به الناس **(ونحوه)** أى مثل المروى عن التسترى مروى **(عن ابن عيينة)** علم منقول من تصغير العين، وهو سفيان بن عيينة بن عمران الكوفى، أحد الأئمة الأعلام الإمام الحافظ، روى عن كثير كالزهرى، وابن دينار، وأحمد، والزعفرانى. وروى عنه خلق كثير، وخرج له أصحاب الكتب الستة، وكان يسكن مكة، وتوفى فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ومولده سنة سبع ومائة، وكان أعور. وترجمته مشهورة وهو من التابعين أدرك منهم ستة وثمانين نفسا.

---

(١) البيت من الطويل، وهو للحاجب بن ذبيان فى لسان العرب (٨/٢٢٦)، تاج العروس (٢١/٤١٨).

(وقد كان زهاد الصحابة رضى الله تعالى عنهم كثيرى الزوجات والسرارى كثيرى النكاح) كثيرى بيائين أصله كثيرين بصيغة الجمع فحذفت نونه للإضافة، يعنى كانوا يكثرون من النساء حرائر وإماء، أو أنهم كانوا يطلقون كثيرا فتكثر زوجاتهم بهذا الاعتبار كما قاله التجانى. وكان عند على كرم الله وجهه أربع نسوة وتسع عشرة وليدة، إلا أنه لم يتزوج غير فاطمة رضى الله عنها حتى ماتت، وولد له منها الحسن والحسين ومحسن، وتوفى صغيرا فى حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى سماه محسنا كما ذكره الدارقطنى. والحسن رضى الله تعالى عنه كان من أشد الناس حبا للنساء وكان مطلاقا، كما قيل: إنه أرخى ستره على مائتى حرة.

والسرارى: بتشديد الياء وتخفيفها جمع سرية بالتشديد، والسرية هى الأمة المنكوحة ولو مرة فلا تسمى سرية قبل الوطئ، حتى أن من جعل بيد زوجته عتق كل سرية له لم يكن لها عتق التى لم يطأها زوجها، وهى منسوبة إلى السر الذى هو الجماع، أو الإخفاء لأنه كثيرا ما يخفيها عن زوجته، فضم سينها من تغييرات النسب كما قيل فى النسبة للدهر دهرى بالضم، وقيل: إنها مشتقة من السرور لأنه يسر بها فأبدل إحدى رائيها ياء، قالوا: تظنيت وتظننت وضم سينها لازم، ولذا قيل: عليك بضم الصدر السرية، والتسرى سنة وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «عليكم بالسرارى فإنهن مباركات الأرحام»[١] وقد تسرى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضى الله تعالى عنهم.

(وحكى) بالبناء للمجهول **(فى ذلك)** المذكور من التزوج والتسرى وكثرته **(عن على)** كرم الله وجهه **(والحسن)** ابنه كما مر، لأنه المنقول عنه ذلك ولذا قدمه لا الحسن البصرى فإنه لم ينقل عنه مثله. **(وابن عمر وغيرهم من الصحابة غير شىء)** هذا هو نائب فاعل أى حكى عنهم أشياء كثيرة فى ذلك لاشيئا واحدا وأبهمه لكثرته، كما فى قوله.

(وقد كره غير واحد) من السلف الصالحين **(أن يلق الله)** أى يموت، لأن لقاء الله يكنى به عن الموت، كما جاء فى الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[٢]. وقال الراغب: لقاء الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] واللقاء الملاقاة وأصل معناه مقابلة الشىء ومصادفته معا،

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٥٩/٤)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢٥٩/٢).

(٢) أخرجه البخارى (١٣٣/٨)، ومسلم (٢٦٨٣/١٤)، والترمذى (١٠٦٦، ١٠٦٧)، والنسائى (٩/٤)، وابن ماجه (٤٢٦٤)، وأحمد (٣١٣/٢، ٣٤٦، ٤٢٠)، والدارمى (٣٤٥/١)، وعبد الرزاق (٦٧٤٨).

وقد يعبر به عن كل واحد منهما.

(عزبا) بفتح العين المهملة والزاى المعجمة والباء الموحدة هو الذى لا امرأة له، من عزب بمعنى تباعد، يقال: رجل عزب وامرأة عزبة، وعزب عنه علمه إذا غاب عنه و لم يعلمه. وهذا مروى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، فقد حكى عنه أنه كان يقول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لئلا ألقى الله عزبا. وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه فى الطاعون وكان هو مطعونا أيضا، فقال: زوجونى فإنى أكره أن ألقى الله عزبا. أى بعيدا عن النساء. وقال فى الدرة: العزب يقال للذكر والأنثى، وقد يقال للمرأة عزبة ولا يقال للرجل أعزب بالهمزة، أو هى لغة قليلة، وفى التقريب قال أبو حاتم: لا يقال أعزب. قال الأزهرى: وأجازه غيره. وورد فى الحديث فى مسلم: «ما فى الجنة أعزب»[(١)]. قال النووى: هو فى جميع نسخ بلادنا بالألف وهو لغة مشهورة، وما وقع فى بعض النسخ من تقييد عزب بسكون الزاى بالقلم كما قاله البرهان لا وجه له، فإنه خلاف المنقول فى كتب اللغة.

(فإن قلت: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل وهذا يحيى بن زكريا) جعلهما لشهرتهما وشهرة اتصافهما بما ذكر بمنزلة المحسوس المشاهد حتى أشار إليهما، ويحيى وزكريا بلغاته أعجميان. وقيل: إنه عربى مشتق من الحياة لا كالمفازة، بل لأن الله تعالى أحيا قلبه بأنوار النبوة الذاتية والمقتبسة من زكريا، لأنه أول من آمن به وأوتى النبوة، والفضائل المكتسبة منه، فقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧] قال قتادة والكلبى: لم يسم أحد من قبل يحيى بذلك، فأحيى الله به دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فاشتق له من اسمه الحى اسما كما اشتق اسم سيدنا ونبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من اسمه المحمود، كما قيل، وكان هو وعيسى ابنى خالة وكانت أمه تقول لمريم: إنى أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك كما سيأتى، ويحيى أكبر من عيسى، وفى مقدار عمره اختلاف فقيل: كان عمره مائة وعشرين سنة. وقيل: ثمانية وتسعين. وقيل: اثنين وسبعين. وأما زكريا فمن ذرية سليمان عليه الصلاة والسلام، وكان آخر من بعث من بنى إسرائيل قبل عيسى عليه الصلاة والسلام، ولما أراد بنو إسرائيل قتله فر منهم فانفلقت له شجرة فدخلها، فأخذ الشيطان بهدب ثوبه فلما رأوه نشروا الشجرة حتى قطعوه فى جوفها. وأما يحيى عليه الصلاة والسلام فقتل بسبب امرأة أراد ملكهم تزوجها، فقال له يحيى: إنها لا تحل لك لأنها بنت امرأتك فتوصلت لقتله قبل أن يرفع عيسى عليه الصلاة والسلام، فكان دمه

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٤/١٤).

يفور حتى قتل منهم بخت نصر سبعين ألفا، وهذا قصاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن قصاص الملوك خمسة وثلاثون ألفا كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما. وقد قيل: بل صح فى الحديث أن الموت بعد استقرار أهل النار فى النار وأهل الجنة فى الجنة، يؤتى به بصورة كبش أملح فيذبحه يحيى. وقيل: الذى يذبحه جبريل عليه السلام. والثانى مروى فى بعض التفاسير، وأما الأول فلا مستند له، وإن ذكره بعض الصوفية.

(وقد أثنى الله تعالى عليه أنه كان حصورا) فى قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] والسيد: الرئيس الشريف وفيه تفاسير سيأتى، وأما الحصور: فمن الحصر وهو المنبع ولذا اشتهر تفسيره بمن انحصر عن النساء بحيث لا يأتيهن، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر، وعمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ما من عبد يلقى الله تعالى إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا، فإن الله تعالى عز وجل يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران:٣٩]، قال: وإنما كان ذكره مثل هدبة الثوب» وأشار بأنملته، وبه فسر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأورد شاهدا له من كلام العرب، وعلى هذا بنى المصنف رحمه الله تعالى السؤال كذا فى الشرح الجديد.

أقول: هذا الحديث لم يثبت، وسئل النووى رحمه الله تعالى فى فتاويه عن حديث: «ما منا إلا من عصى أو هم بمعصية إلا يحيى بن زكريا»(١) فأجاب بأنه حديث ضعيف لا يحتج به، رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن زهير عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان بضم الميم وإسكان الدال المهملة عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «ما أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى ابن زكريا»(٢) وإسناده ضعيف، لأن ابن جدعان ضعيف ويوسف بن مهران مختلف فى جرحه. **(فكيف يثنى الله عليه)** فى القرآن **(بالعجز عما يعده فضيلة)** وهو النكاح وكثرته. **(وهذا عيسى ابن مريم)** عليه الصلاة والسلام **(تبتل عن النساء)** أى انقطع عنهن بالكلية ولم يتزوج. **(ولو كان كما قررته)** أن النكاح بل كثرته فضيلة ممدوحة **(لنكح)** أى لتزوج ليحوز هذه الفضيلة، فأجاب بقوله **(فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى)** عليه الصلاة والسلام **(بأن كان حصورا ليس)** معناه **(كما قال بعضهم)** كما مر **(أنه كان هيوبا)** أصل معنى الهيوب الجبان من الهيبة وهى المخافة والتقية، ويأتى بمعنى من يخافه الناس وليس المراد هنا، بل المراد أنه كان جبانا عن النكاح.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٢).

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/٢١٦).

(أو لا ذكر له) الذكر بفتحتين معروف لم يرد ظاهره وإنما أراد أنه صغير جدا، أو لا حركة له أصلا لما ورد فى بعض الأحاديث الضعيفة: أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ نواة أو قذاة وقال: «كان ذكره مثل هذه» وفى أخرى: «مثل هدبة الثوب». وقال ابن المنذر: كان عنينا، وقد يطلق الحصور على المجبوب الذكر والأنثيين، كما فى حديث القبطى الذى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليا كرم الله وجهه بقتله، قال: فرفعت الريح ثوبه فإذا هو حصور.

(بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء) حذاق: جمع حاذق بمعنى ماهر فى علم التفسير، والنقاد: جمع ناقد وهو الذى يميز جيد النقدين من رديهما وأصل معناه الوزن وخلاف النسيئة، ولم يذكر الأول فى القاموس وهو المراد هنا.

(وقالوا: هذه نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء) عليهم الصلاة والسلام، أى لا تصلح لهم ولا تناسبهم من لاق الدواة يليقها إذا أصلحها. **(وإنما معناه أنه كان معصوما من الذنوب)** كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والعصمة عندنا أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنب، وعند الفلاسفة ملكة تمنع الفجور. وسيأتى الكلام على تفصيل عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(أى لا يأتيها كأنه حصر عنها) أى منع عنها فحصور بمعنى محصور. قال التجانى: هذا الجواب ضعيف لما ورد فى حديث بسر بن عطية قال: لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تحصر فى الإسلام: وقال: «لا حصور إلا يحيى بن زكريا» كما أخرجه الماوردى وغيره وفيه نظر سيأتى.

(وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء) يعنى أن له قدرة على الجماع ولكنه يمنع نفسه عنها باشتغاله بغيرها من العبادة، أو له قدرة ولكن لا تتوق نفسه له ولا يريده، فإنهم عرفوا الشهوة بأنها توقان النفس إلى الأمور المستلذة، وفرقوا بينها وبين الإرادة بأن الإرادة أعم، فإن الإرادة قد تتعلق بما لا تشتهى كإرادة شرب الدواء، والاشتهاء ميل طبيعى غير مقدور، ولذلك يعاقب بإرادة المعاصى عند بعض ولا يعاقب باشتهائها، فالمعنى أن الله تعالى عصمه بأن لم يخلق فيه ميلا للمشتهيات ولو لم يفسر بما ذكر لما صح تعقيبه.

بقوله: **(فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها)** وهذا معنى ما قاله البسيلى فى تفسيره: أن الظاهر أن كونه حصورا كان عن اختيار منه، لأن خلافه نقص فى الخلقة وعيب ينزه عنه الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام، وما ذكره ابن حزم فى «الملل والنحل» من ذمه إنما يتمشى فيما إذا كان لمجرد الشهوة البهيمية، أما إذا كان لتكثير النسل فى الإسلام فلا ذم فيه، وقال ابن العربى: قول من قال الحصور هو الذى يكف عن النساء عن قدرة هو الصحيح لوجهين؛

أحدهما: أنه أثنى به عليه ومثله إنما يكون على المكتسب لا الجبلى.

الثانى: أن حصورا فعولا من صيغ المبالغة، وهو إنما يكون فى الأفعال الاختيارية فهو كف عن قدرة، وهو فى شرعه مطلوب بخلاف شرع نبينا لنهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن التبتل. انتهى.

فاندفع ما قيل إن قوله لا شهوة له فى النساء لا وجه له لذكره هنا، لأنه فى مقام الجواب عما أوردوه، وهذا مقر للإيراد لا جواب عنه، وما ذكر فى هذا المقام هو وجه تفضيل البشر على الملك.

فإن قلت: فما تقول فيما ورد فى الحديث على فرض صحته من أنه عنين أو ماله كقذاة أو نواة أو هدب ثوب؟.

قلت: أجيب عنه بأنه لغلبة خوف الله تعالى عليه وشدة الرياضة التى كانت مشروعة له، ذبلت أعضاؤه واضمحلت حتى صار كأنه مثل ما ذكر، لا أنه لنقص فى خلقته فهو على طريق التشبيه والتمثيل.

(إما بمجاهدة) متعلق بقمع، والمراد بذلك أن الله خلق الأنبياء عليهم السلام على أحسن تقويم، فلهم قوة على الجماع زائدة على غيرهم، إلا أن منهم من قهر شهوته وغلبها حتى أضعفها، وذلك إما بمجاهدة كإفراط الرياضة بجوع وسهر وخلوة عنهن للعبادة، وهو المراد بالمجاهدة لأنه يجاهد نفسه بمنعها عما تريده من الشهوات وهو الجهاد الأكبر.

(كعيسى عليه الصلاة والسلام) أو يقهرها بعدم مطاوعتها على ما تريده؛ لأن الله تعالى خلقه وجعل فيه ملكة على ترك الشهوات من غير مجاهدة، وهو المراد بقوله: **(أو بكفالة من الله كيحيى عليه الصلاة والسلام)** فإن الله تعالى صرفه عن شهوة الجماع، قيل: والأليق أن يكون له قدرة قمعها بالمجاهدة كعيسى عليه الصلاة والسلام، ولذا فسر البيضاوى حصورا بمبالغ فى حبس نفسه عن الشهوات والملاهى، والتبتل فى حق المعصوم أمر مطلوب وفى غيره منهى عنه، وكان مشروعا فى دينهم كما مر. فترك التزوج عبادة عندهم لمن قدر على صون نفسه عن الشهوات، وكان يحيى عليه الصلاة والسلام شديد الخوف من الله تعالى، حتى قيل: إنه وضع وجهه على الأرض وبكى حتى ذهب لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين.

(فضيلة زائدة) مرفوع خبر للمبتدأ وهو قمعها فى قوله: «ثم قمعها» أى ترك الشهوة والجماع بعد القدرة والقوة عليه فضيلة محمودة وصفة حميدة زائدة فى الخلقة على أصلها. **(لكونها شاغلة فى كثير من الأوقات)** أى لكون الشهوات تشغل الإنسان كثيرا عن العبادة والمهمات، وفى نسخة مشعلة. قال التلمسانى: مفعلة من الشغل. وروى مشغلة اسم فاعل من أشغل وهو قليل. وروى شاغلة انتهى.

قلت: الأخير هو الصحيح رواية ودراية، لأن الأشغال لغة ردية ولذا لما وقع الصاحب على رقعة فيها الأشغال قال: من قال أشغالى لا يصلح لأشغالى كما مر، وهو لم يقع فى النسخ المتداولة.

(حاطة إلى الدنيا) اسم فاعل من الحط وهو الإنزال من علو إلى أسفل، وهو منصوب خبر بعد خبر للكون، أى تنزل الإنسان إلى شهوات الدنيا الدنية لمن لم يعصمه الله عن التحلى بها وتمنعه عن اشتغال قلبه بها.

(ثم هى) أى الشهوة فى الجماع لا الفضيلة الزائدة عليها كما توهم. **(فى حق من أقدر عليها)** بالبناء للمجهول أى من أقدره الله على شهوته فلم تغلب.

(وملكها) أى تصرف فيها كما يريد منعا وفعلا وهو بفتح اللام والميم مبنى للفاعل، أو بضم الميم وكسر اللام المشددة، والبناء للمجهول. قال التلمسانى: وهو أولى ليكون على نسق أقدر. والحق هنا بمعنى الشأن والحال كما يقال: الغنى فى حق الكريم حسن.

(وقام بالواجب فيها) معطوف على ملكها أى من ملك شهوته و لم يمنعه من القيام بما يجب عليه من مهمات دينه ودنياه، لأن ما يمنع عن ذلك ينبغى تركه وفيها متعلق بقام، أى قام بما يجب عليه وهو متلبس بها.

(ولم تشغله عن ربه شغل) يشغل كسأل يسأل وقوله: **(درجة علياء)** مرفوع خبر، وهى أى مرتبة رفيعة عند الله تعالى، وعلياء بفتح العين والمد وهى فى الأصل كل مكان مشرف أى مرتفع، وأريد به علو المنزلة.

(وهى درجة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) أى هذه الدرجة العلياء عند الله التى وصل إليها فى الدنيا، مع أنها غير شاغلة له عن التقرب إلى الله بفعل ما يجب عليه من العبادة ودعوة الخلق.

(الذى لم يشغله) صفة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مبينة لما قلناه. **(كثرتهن)** أى النساء. **(عن عبادة ربه بل زاده ذلك عبادة)** على عبادته المعروفة من الصلاة والصوم وقيام الليل. **(لتحصينهن)** أى جعلهن محصنات متعففات بنكاحه صلى الله تعالى عليه

وسلم لهن. **(وقيامه بحقوقهن)** من النفقة والكسوة وغير ذلك فإن فيه أجرا أيضا. **(واكتسابه لهن)** فإن الكسب الحلال للعيال عبادة وإرشاد للخلق، وإن كان لو سأل الله تبارك وتعالى ذلك أوصله له من غير كسب، لكنه صلى الله تعالى عليه وسلم ملتزم لمقام العبودية.

(وهدايته إياهن) بتعليمه الدين بعد خلوص الإيمان بالله ورسوله، ثم ترقى لمرتبة أعلى من هذه بين فيها أن حظوظه الدنيوية ليست ناشئة عن ميل قلب وتوجه فكر حتى يشغله عن ربه، فأضرب عما يوهم ذلك.

فقال: **(بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو)** جمع حظ كأحاظ وأحظ وهو نصيب المقدر مما يسر به، ويقال حنظ بالنون وهى لغة يمانية **(وإن كانت من حظوظ دنيا غيره)** من الناس فإنهم يسرون بها ويعدونها لذة عظيمة، وإضافة الدنيا ومحبتها لغيره إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم برئ منها ومن محبتها، فإن قلبا امتلأ بمحبة الله تعالى عز وجل لا يدخله محبة غيره، كما قيل:

تملك بعض حبك كل قلبى فإن ترد الزيادة هات قلبا

ثم فسر تصريحه بأنها ليست من حظوظه بالحديث **(فقال: حبب إلى)** بالبناء للمجهول **(من دنياكم)** «ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[1] قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث رواه الحاكم والنسائى عن أنس رضى الله تعالى عنه بدون لفظ ثلاث، إلا أن أحمد رواه عن عائشة رضى الله تعالى عنها ولفظه: «كان يعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الدنيا ثلاثة أشياء؛ النساء، والطيب، والطعام، فأصاب اثنين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب ولم يصب الطعام». وإسناده صحيح إلا أن فيه رجلا لم يسم. وقد روى هذا الحديث من طرق أخرى يقوى بعضها بعضا، فهو صحيح إلا أن أكثر الحفاظ على أنه ليس فيه لفظ «ثلاث» كابن القيم، والعراقى، وابن حجر، وأنها مدرجة فى الحديث. ومن رواها فقد وهم، وخالفهم فى ذلك ابن فورك وقال: إنها مروية فى الحديث وألف فى ذلك جزءا مستقلا صحح فيه روايتها ولم أقف عليه. وتبعه فى إثباتها الزمخشرى فى سورة آل عمران، والراغب وابن عربى فى الفصوص، وغيرهم من وهمهم قال: الصلاة ليست من أمور الدنيا فلا يصح عدها منها فجعلوه وهما لفظا ومعنى، ومن أثبتها افترقوا فرقتين:

فرقة قالت: إن المراد بأمور الدنيا ما وقع فى الدار الدنيا لذة كان أو عبادة، فالصلاة

---

(١) تقدم تخريجه.

من أمورها على هذا، وفى لفظ ثلاث تغليب للمؤنث على المذكر عكس القاعدة المشهورة لنكتة وغيرا الأسلوب فى الثالث، فعبر عنه بالفعل إشارة لمغايرته لما قبله وفيه عطف الفعل على الاسم الجامد، والمعروف عطفه على المشتق كما قال ابن مالك رحمه الله:

واعطف على اسم شبه فعل فعلا وعكسا استعمل تجده سهلا

فليست زيادة مخلة كما توهم.

وفرقة ذهبت إلى أنه نوع من البديع يسمونه الطى، وهو أن يذكر جمعا يريد تفصيله فيذكر بعضا منه ويترك بعضا، فالثالث يطوى ذكر فى الحديث لنكتة كإبهامه على السامع لعدم إرادته وقوف السامع عليه لنكتة، فإن هناك الطعام كما ورد التصريح به فى رواية أحمد كما مر، فطية لخسته عنده واستشهدوا له بقوله[1]:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى وكنت لها قديما مولعا

الخمر والماء القراح وأطلى بالزعفران فلن أزال مولعا

وقوله:

كانت حنيفة أثلاثا فثلثهم من العبيد وثلث من مواليها

وفيه مع النكتة المذكورة تقليل اللفظ مع تكثير المعنى، وقد يقال: لا شاهد فيما ذكر، أما الأول فالثالث وهو قوله: وأطلى الخ على نهج ما تقدم فى الحديث. وأما الثانى فلأنه ذكر قبيلة بنى حنيفة وجعلها أثلاثا عبيدا، وموالى، وحلفاء، فبقى نفس القبيلة وصميمها وهى مذكورة أولا. وقال: حبب بالبناء للمجهول ودنياكم بالإضافة إليهم، ولم يقل أحببت من دنياى إشارة إلى أن محبته صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ليست باختياره لشهوات نفسه بل بفعل الله، فحبه إنما هو لله وذاته لما أراده ورضيه له، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بشرى الظاهر ملكوتى لا يتجلى بأحوال البشر إلا إذا أمره الله تعالى بها، لتتأسى به أمته وتتشرف بما رضيه له، فعده صلى الله تعالى عليه وسلم من البشر كعد الياقوت من الأحجار، وكان إذا دخل فى الصلاة اشتغل ظاهره وباطنه عن الخلق لوقوفه بين يدى خالقه، فيزداد قربا ومشاهدة فيتصل نور بصره بنور بصيرته، فلذا جعلها قرة عينه. ولذا شرع السلام لعوده من عنده من معراجه. ولذا كان بعض الناس يصافح من عنده فافهم. وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جلس

---

(١) البيتان من الكامل، وهما للأعشى فى لسان العرب (٢٠٩/٤)، تاج العروس (٧٤/١١)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (٩٥/٥)، المخصص (٢٢٤/٨٣).

مع أصحابه الأربعة رضى الله تعالى عنهم فقال: («**حبب إلى من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة**») فقال أبو بكر رضى الله عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: الجلوس بين يديك، والنظر إليك، وإنفاق جميع مالى عليك، وقال عمر رضى الله تعالى عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وحفظ الحدود، وقال عثمان رضى الله تعالى عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام، وقال على رضى الله عنه: وأنا يا رسول الله حبب إلى من الدنيا ثلاث: إقراء الضيف، والصوم بالصيف، والضرب بين يديك بالسيف. فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: وأنا يا رسول الله حبب إلى من دنياكم ثلاث: حب المساكين، وتبليغ الرسالة للمسلمين، وأداء الأمانة. وإذا النداء من قبل الله تعالى وهو يقول: إن الله يحب من دنياكم ثلاث: بدن صابر، ولسان ذاكر، وقلب شاكر. فالخطاب على هذا للخلفاء الأربعة رضى الله تعالى عنهم، ويجوز أن يكون لجميع الناس أو الأمة.

(**فدل**) ذلك على (**أن حبه**) صلى الله تعالى عليه وسلم (**لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من دنيا غيره**) أى دل ما ذكر من بناء حبب للمجهول وإضافة الدنيا لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم (**واستعماله لذلك**) بالنصب عطفا على اسم إن، والمراد باستعماله لذلك مباشرته للجماع وتطيبه وتضمخه بالطيب. (**ليس لدنياه**) والتلذذ (**التى ذكرناها فى التزويج**) من تحصينهن وقيامه بحقوقهن واكتسابه وهدايته لهن. (**وللقاء الملائكة فى الطيب**) أى استعماله لأجل محبة الملائكة له وهو صلى الله تعالى عليه وسلم يلاقيهم كثيرا، ولذا ترى أصحاب العزائم والهياكل يلازمون البخور بمحبة الروحانية له. (**ولأنه**) أى الطيب (**أيضا مما يحض على الجماع ويعين عليه**) أى مما يحرك داعية الجماع ويقويها لانتعاش الروح به. (**ويحرك أسبابه**) أى يهيج مقدماته كالشهوة والقبلة، أو المراد آلته، فكنى به عنها تأدبا واحتشاما وهو تعبير حسن.

(**وكان حبه صلى الله تعالى عليه وسلم لهاتين الخصلتين**) الجماع والطيب. (**لأجل غيره**) أى الزوجات والملائكة عليهم الصلاة والسلام. (**وقمع شهوته**) لا لمجرد التلذذ والنعم كغيره، وإن كان قادرا على ذلك، ولذلك كان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرد الطيب إذا أهدى إليه. وفى الحديث: «من عرض عليه طيب فلا يرده فإنه طيب الريح خفيف الحمل، وإذا أعطى أحدكم ريحانا فلا يرده»[1]. والمراد الريحان المعروف أو كل ذى رائحة طيبة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٧٢)، والنسائى (١٨٩/٨)، وأحمد (٣٢٠/٢)، وابن حبان (١٤٧٣)، والبيهقى (٢٤٥/٣).

(تنبيه) قال ابن عربى: ما ورد قط عن نبى من الأنبياء أنه حبب إليه النساء إلا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كان رزقوا منهن كثيرا كسليمان وغيره، ولكن كلامنا فى كونه حبب إليه وذلك أنه كان منقطعا إلى ربه عز وجل لا ينظر معه إلى كونه يشغله عنه. فإنه مشغول بالتلقى عن الله تعالى ورعاية الأدب، فلا يتفرغ إلى شىء دونه فحبب إليه النساء عناية منه عز وجل لهن، فكان يحبهن لكون الله حببهن إليه والله جميل يحب الجمال.

(وكان حبه الحقيقى المختص بذاته) لا لأمر آخر عرضى يرجع بالآخرة إلى الدين والثواب **(فى مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته)** الجبروت فعلوت كالرهبوت والملكوت، والمراد عظمة الله تعالى سيده ومولاه، والمناجاة: المسارة بتلقى وحيه ودعائه وقراءة القرآن. وقال الدوانى فى شرح «هياكل النور»: الجبروت يراد به عالم العقول، أى الملائكة. ويسمى أيضا بالملكوت الأعلى والأعظم، قيل: إنما سمى بالجبروت لأنها مجبورة على كمالاتها الفطرية، أو لأنه جبر نقصها الإمكانى بحصول ما يمكن لها بالفعل. انتهى.

(ولذلك ميز) فرق وفصل **(بين الحبين)** أى حب ما هو من أمور الدنيا ظاهر أو بين حب ما هو حقيقة لله. **(وفصل بين الحالين)** أى حال المحبتين بتغيير العبارة والأسلوب كما مر.

(فقال: وجعلت قرة عينى فى الصلاة) فأوردها جملة فعلية معطوفة على اسم قبلها كما مر، تعظيما لشأنها وتفخيما لأمرها لكونها مجبولة لذاتها، فليست معطوفة على حبب عطف الفعلية على الفعلية كما ذهب إليه من جعل الثالث مطويا كما عرفته. وقرة العين: ما يسر من ينصره من قر يقر بالفتح إذا برد، لأنه كما قيل: دمعة السرور باردة. أو من القرار والسكون لسكونها إذا نظرت من تحب، أو بنومها لأن الحزين يسهر. وقد قيل: عينى تقربكم عند تقربكم. ولو لم يغير الأسلوب. قال: والصلاة التى بها قرة عينى أو وقرة عينى فى الصلاة فلا يحصل التمييز بين ما حبه عرضى وبين ما حبه ذاتى وحقيقى، وبهذا العدول علم أنها ليست من دنياهم، وهذا إنما يتوهم إذا كان الحديث لفظه هكذا، والمصنف رحمه الله تعالى ممن لا يقول بصحته كما سيأتى فى فضل وقاره، والمراد بالصلاة الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما يشاهد فيها كما مر، وقيل: المراد صلاة الله وملائكته عليهم الصلاة والسلام عليه، قال ابن قرقول: والأول أظهر.

(فقد ساوى) صلى الله تعالى عليه وسلم **(ويحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فى كفاية فتنتهن)** يعنى: أن يحيى وعيسى صلى الله تعالى عليه وسلم تبتلا وتركا التزوج مع

القوة والقدرة خوفا من فتنة النساء، وهى تمكن حبهن فى القلب والاشتغال بهن عن العبادة فى مشاهدة عالم الملكوت، وهن لم يشغلنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يمنعه عنها فى حال من الأحوال، فساواهما فى عدم الاشتغال حتى كان الوحى ينزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى فراش زوجاته، وأعانته خديجة رضى الله عنها فى أول أمره، فلا يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال مضاجعتهن مشغول عن عبادته إلا أن يعد جماعه عبادة. **(وزاد فضيلة عليهما)** أى يحيى وعيسى **(وبالقيام بهن)** أى له صلى الله تعالى عليه وسلم فضيلة زائدة على ما ذكر بقيامه على زوجاته، وكسبه لهن، وهدايته لهن مع عدم غفلته صلى الله تعالى عليه وسلم طرفة عين عن الله تعالى.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم ممن أقدر) بالبناء للمجهول أى قدره الله تعالى. **(على القوة فى هذا)** أى أمر النكاح مع القيام بحقه وحق الله، وليس فى هذا دلالة على أن غيره صلى الله تعالى عليه وسلم أقدر منه كما توهم. **(وأعطى الكثير منه ولهذا أبيح له)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(من عدد الحرائر)** جمع حرة على خلاف القياس لكونه بمعنى عقيلة فجمع جمع فعيلة. كما قال النابغة(١):

حذار على ألا تنال مقادتى ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا

(ما لم يبح لغيره) من جمع ما فوق الأربعة وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة لأمته، فأبيح له أن ينكح من النساء ما شاء فى أول أمره، ثم حرم عليه بعد ذلك أن يزيد على ما فى عصمته من أزواجه، فقال: ﴿**لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ**﴾ [الأحزاب:٥٢] قال التجانى: وقال مغلطاى: له صلى الله تعالى عليه وسلم خصائص جمة منها: إباحة تسعة نسوة، والصحيح أن له صلى الله تعالى عليه وسلم الزيادة. قال بعض الشراح: من قال لا يزيد على التسعة استدل بقوله تعالى: ﴿**فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ**﴾ [النساء:٣] وهو خطأ بالإجماع، لأنه ليس معنى الآية وليست الآية فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هى فى حق الأمة، والزيادة على الأربعة لهم ممنوعة بالإجماع الدال عليه معنى حديث غيلان، ولم يخالفه مستدلا عليه بهذه الآية إلا بعض الروافض والزنادقة كما فصله ابن حزم فى كتاب «المحلى».

(وقد روينا عن أنس) رضى الله تعالى عنه، قال السيوطى: هذا الحديث عزاه المصنف رحمه الله تعالى للنسائى، وهو عند البخارى، وروينا بفتح الراء والواو المخففة. وما قاله

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان النابغة (ص٧٠)، تخليص الشواهد (ص٤٣٧)، شرح المفصل (٥٤/٢)، الكتاب (٣٦٨/١)، شرح أبيات سيبويه (٣٠/١).

الشمنى نقلا عن المزى من أنه بضم الراء وكسر الواو المشددة لا وجه له. **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدور على نسائه)** أى يجامعهن من دار على كذا وطاف به إذا مشى حوله فجعله كناية عما ذكر.

(فى الساعة من الليل والنهار) أى مقدار ساعة منهما فقدرته صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك مع ما كان عليه من قلة الأكل والشرب معجزة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم. قيل: والتبتل فى حق يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام تشبيها بالملائكة كان أفضل فى زمانهما، ودوره صلى الله تعالى عليه وسلم عليهن كان برضاهن، فلا ينافى وجوبه فى القسم.

(وهن إحدى عشرة) أى نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم اللاتى دار عليهن كذلك عدتهن. قال البرهان: كذا فى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله تعالى عنه. وقال ابن خزيمة: لم يقل أحد من أصحاب قتادة بأنهن إحدى عشرة إلا معاذ بن هشام عن أبيه. وعن أنس رواية أخرى فى البخارى: أنهن تسع. وجمع بينهما بأن أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم كن تسعا فى ذلك الوقت كما فى رواية سعيد، وسريتاه مارية وريحانة عند من قال إن ريحانة كانت أمة. وبعضهم قال: إنها زوجة. وروى أبو عبيدة أنه كان مع ريحانة فاطمة بنت شريح. وقال ابن حبان: كان هذا أول ما قدم صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة فكانت زوجاته تسعا؛ لأن جمع نسائه لم يقع مرة واحدة، ولا يستقيم هذا إلا فى آخر أمره حيث اجتمع عنده تسع نسوة وجاريتان، ولا يعلم اجتماع إحدى عشرة زوجة عنده، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم تزوج إحدى عشرة امرأة أولاهن خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت. انتهى ما ذكره البرهان. وكلام ابن خزيمة يدل على أن رواية الإحدى عشرة مرجوحة والتسع راجحة، وجمع بينهما بأن من التسع فاطمة بنت شريح وريحانة على القول بأنها زوجة فصدر الجمع منه صلى الله تعالى عليه وسلم مرة تسعا ومرة إحدى عشرة، وأيضا قيل: التسع محمول على الحقيقة والأخرى على تغليب الزوجات على السريتين وهما ريحانة ومارية، فإن قيل: الرواية بلفظ النساء وهن حقيقة فى غير الرجال فلا حاجة إلى التغليب، قيل: لا يقال إنه حقيقة فى ذلك إلا إذا لم يضف للأزواج الإماء، كما فى الحديث وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة:٣] فإن أضيف لهم لم يتناول الإماء حقيقة، ولذا احتج علماؤنا بهذه الآية على عدم صحة ظهار الإماء خلافا لمالك، وقد تبعه التجانى إذ جمع بين روايتى أنس بأنهن تسع حرائر وإحدى عشر منكوحة وسريتان لدخول السرائر فى النساء كالآية، والنساء والنسوة والنسوان جمع المرأة من غير لفظها كالقوم فى جمع

المرء، وقد علم أن طوافه صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه فى ساعة واحدة لا ينافى القسم إن قلنا بوجوبه عليه، و لم تقل إن من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا يجب عليه القسم، وقد ذهب إلى هذا الزيلعى من أئمتنا وبعض المحدثين فقسمه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما كان تطييبا لخاطرهن تفضلا منه وتعليما لأمته، ولذا كان يقرع بينهن إذا أراد السفر مع أن القسم إنما يجب عليه فى الحضر، أو نقول هذا برضاهن مع أن هذا لا يفوت القسم لمساواتهن فيه، والاختيار فى القسم للزوج ويدل على عدم الوجوب، أنه روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم لثمان ويترك واحدة منهن، قيل: إنها صفية بنت حيى رضى الله تعالى عنها كما فى مسلم، وعليه قوله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [الأحزاب:٥١] وقال المنذرى: كان ممن يؤوى عائشة، وأم سلمة، وزينب، وحفصة رضى الله تعالى عنهن انتهى.

ومن أرجاه سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وصفية، وميمونة رضى الله عنهن أجمعين انتهى. واستدل القائل بالوجوب عليه بحديث الترمذى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك»[1] وقد يقال: هذا كان قبل إعلامه بعدم الوجوب عليه أو لعدوله عن الأفضل فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم والكلام على ترجمة زوجاته رضى الله تعالى عنهن مفصل فى السير. وللعلامة ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى:

توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية وحفصة يتلوهن هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة ثلاث وست نظمهن مهذب

والواو فى قوله من الليل والنهار بمعنى أو.

(قال أنس رضى الله تعالى عنه: وكنا نتحدث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى قوة ثلاثين رجلا) فى الجماع، وهذا تتمة الحديث الذى قبله **(خرجه)** أى رواه مسندا **(النسائى)** وقد تقدم أن البخارى رواه أيضا **(وروى)** بالبناء للفاعل والمفعول **(نحوه عن أبى رافع)** أى هذا الحديث مروى عن أبى رافع أيضا فى سنن أبى داود والبيهقى والنسائى، ولفظه: «طاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه فى يوم أو ليلة واحدة وكان يغتسل عند هذه وهذه». ولذا قال: نحوه لاختلاف لفظه وزيادته، وأبو رافع هذا هو مولى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قبطى، واسمه إبراهيم،

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، وابن سعد (١٢١/٨).

وقيل: أسلم. وقيل: ثابت، وقيل: هرمز. وقيل: صالح، وقوله قوة ثلاثين قال البرهان الحلبى فى الصحيح من رواية الإسماعيلى عن معاذ: «أعطى قوة أربعين رجلا». وفى حلية أبى نعيم عن مجاهد: «قوة أربعين رجلا من رجال الجنة». وفى الترمذى: «أن قوة كل رجل من رجال الجنة قوة سبعين رجلا». يعنى من أهل الدنيا وصححه، وفيه: «قوة مائة رجل» وقال: إنه صحيح غريب. وقال ابن حبان: «قوة كل رجل فى الجنة قوة مائة رجل». والنسائى هو الإمام الحافظ الحجة أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على صاحب السنن، سمع من قتيبة وطبقته وأصحاب مالك وحماد بن زيد، وانتهى إليه علم الحديث، وروى عنه كثيرون، وتوفى سنة ثلاث وثلثمائة، ويشبه أنه ولد سنة خمسة عشر ومائتين، ولم يبق من أصحاب الكتب الستة بعد الثلاثمائة غيره، فعلى هذا قوته صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ألوف، ووقع فى بعض النسخ هنا برواية اللخمى عن المصنف.

(وعن طاووس: أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوة أربعين رجلا) وقد تقدم من رواه وما فيه، وطاووس هو الإمام عبد الرحمن بن كيسان اليمانى وهو من أبناء الفرس. وقيل: من النمر بن قاسط. وقيل: اسمه ذكوان ولقب بطاووس لأنه كان طاووس القراء. وروى عن عائشة، وأبى هريرة، وابن عباس وغيرهم رضى الله تعالى عنهم. وروى عنه الزهرى، والتيمى وابنه وغيرهم. وتوفى بمكة سنة ست ومائة وأخرج له أصحاب السنن وغيرهم.

(ومثله عن صفوان بن سليم) بالتصغير وهو إمام عابد، قيل: إنه لم يضع جنبيه على الأرض أربعين سنة حتى نقبت جبهته من السجود، توفى سنة اثنين وثلاثين ومائة، وهو تابعى روى عنه أصحاب السنن. **(وقالت سلمى مولاته)** بفتح السين بلا خلاف وغلط من ضمها كما قاله النووى رحمه الله تعالى، والضمير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنها خادمته. وقيل: إنها مولاة صفية عمته صلى الله تعالى عليه وسلم وهى زوج أبى رافع داية فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها، وروى عنها ابن ابنها عبيد الله، وهذا الحديث صحيح رواه أبو داود كما قاله السيوطى. **(طاف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه التسع وتطهر من كل واحدة)** أى من جماع كل واحدة منهن **(قبل أن يأتى الأخرى وقال: هذا)** أى الغسل من كل جماع **(أطهر وأطيب)** وروى: «أزكى وأطيب وأطهر» أما كونه أطهر فظاهر، وأما أنه أطيب فلأنه يقوى البدن بإنعاشه. وقيل أطيب للباطن وأطهر للظاهر. وهذا الحديث متصل لأن سلمى روته عن زوجها أبى رافع، وفيه دليل على أن الغسل على الفور وأنه لا يجب لكل جماع، وقيل: إن لم يغتسل

يستحب له الوضوء كوضوء الصلاة، وروى عن عمر أنه لازم وما ورد فى الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف على نسائه بغسل واحد، فلبيان الجواز، وحمل بعضهم الوضوء فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا أتى أحدكم أهله فليتوضأ»(١) على الوضوء اللغوى أى يغسل فرجه وهذا بناء على أن الوضوء لا يستحب كما قاله أبو يوسف، وذهب بعضهم إلى أنه يستحب لأنه أنشط كما ورد فى الحديث.

(**وقد قال سليمان عليه الصلاة والسلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين وأنه فعل ذلك**) أى الطواف عليهن وجماعهن كما قال. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «قال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن يأتى بغلام يقاتل فى سبيل الله، فقال صاحبه أو الملك: قل إن شاء الله تعالى فلم يقل ونسى، فلم تأت واحدة منهن بولد إلا واحدة جاءت بشق غلام» فقال رسول الله: «لو قال إن شاء الله تعالى لم يحنث وكان له دركا لحاجته»(٢) وفى رواية: «على ستين امرأة» وفى رواية: «على تسعين امرأة» وفى أخرى: «على سبعين» وفى رواية: «على تسعة وتسعين امرأة». وستأتى الزيادة وما فيها. قالوا: ولا تعارض بين الروايات؛ لأن إثبات القليل لا ينفى الكثير والعدد لا مفهوم له، ثم هذه النساء إن كانت إماء أو بعضها حرائر وبعضها إماء فلا إشكال، وإن كانت حرائر فلأن الحصر فى الأربع لم يكن شرعا لمن قبلنا، وإنما صار شرعا لنا لضعف الأبدان وقلة الأعمار، ويقال: طاف بالشئ وأطاف به إذا دار حوله، وقد قدمنا أنه كناية عن الجماع وعلى اختلاف اللغتين جاءت روايتان: «لأطوفن ولأطيقن» وفى الحديث جواز القسم والتعليق بالمشيئة، وأما كون سليمان عليه الصلاة والسلام لم يقله، وأنه نسيه فسيذكره المصنف رحمه الله تعالى فى أول القسم الثالث. وقوله فى الحديث: «لم يحنث» بمعنى لم يأثم ويخطئ لأنه فعله، وليس المقسم عليه الولد؛ لأنه ليس فى قدرته ومثله لا يخفى عليه، والدرك: بفتح الراء بمعنى الإدراك والتحصيل. وفى البخارى بدله «كان أرجا لحاجته» وسليمان نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره ونسبه مفصل فى القصص والتواريخ.

(**قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان فى ظهر سليمان عليه الصلاة والسلام ماء**

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٨/٢٧)، وأبو داود (٢٢٠)، والترمذى (١٤١)، وابن ماجه (٥١٧)، والحاكم (١٥٢/١)، والبيهقى (٢٠٣/١).

(٢) أخرجه البخارى (٢٧/٤، ١٩٧، ٥٠/٧)، ومسلم (١٦٥٤/٢٣)، والترمذى (٩٤٢)، والنسائى (٢٥/٧)، وأحمد (٢٢٩/٢).

مائة رجل) المراد بالماء المنى ومنبعه من الرجال صلب الرجال كما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧] والمراد: أن لـه قـوة مائـة رجـل فـى الجمـاع **(وكانت له ثلاثمائة امرأة وثلثمائة سرية وحكى النقاش)** رحمـه الله تعـالى تقدمـت ترجمتـه **(وغيره)** أنه كان له **(سبع مائة امرأة وثلاثمائة سرية)**. وروى أن له ألف امرأة وتسع مائـة سرية. وهذا يخدش فيما تقدم من العدد، وقـد تقـدم مـا أجـابوا بـه عنـه إلا أن بعضـهم ضعفه، وجمـع بـين الروايـات بـأن بعضـها محمـول علـى الحرائـر وبعضـها علـى الحرائـر والسرارى، ولا يخفى ما فيه، ولو قيل إن الاختلاف لاختـلاف أحوالـه صلـى الله تعـالى عليه وسلم باعتبار الزمان فكانت تزيد وتنقص بهذا الاعتبار لكان أظهر.

وفى تفسير النسفى عكس ما حكى المصنف رحمه الله تعالى عن النقاش، فقال: كـان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلاث مائة حرة وسبع مائـة سـرية. وكـذا فـى الكشـاف والله أعلم بالصواب.

(وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يـده) لأن الله تعـالى ألان لـه الحديد فكان يصنع منها الدروع ويبيعها ويأكل هو وأهله من ثمنها مـع مـا آتـاه الله مـن الملك، وأفضل ما أنفق المرء ما كان مـن كسـب حـلال كالصنعـة والتجـارة والزراعـة، واختلفوا فى الأفضل منها، وفصلوه فى كتب الفقه والحديث بما لا مزيد عليه ولا حاجة هنا لنا به **(تسع وتسعون امرأة)** كما ذكره القشيرى فى تفسيره.

(وتمت بزوج أورياء مائة) بالرفع والنصب، فالرفع ظاهر على الفاعلية، والنصب علـى أن يكون الفاعل العدة وهو مضمر، ويجوز النصب على الحال منها، أى وتمت العدة فـى حال كونها مائة يقال لكل قرنين من ذكر وأنثى زوج وزوجة لغة رديـة، وأوريـاء علـم لرجل من بنى إسرائيل عبرانى، واختلفوا فى ضبطه بعـد الاتفـاق علـى أنـه بـهمزة وواو وراء مهملة ومثناة تحتية، فقيل: ممدودة، وقيل: مقصورة وهمزته مضمومة وواوه ساكنة وراؤه مكسورة وياءه مفتوحة بعدها ألف، وقيل: همزته مفتوحة وهو أورياء بن حنـان. وقال أبو الفرج الأصبهانى فى كتـاب «النسـاء»: هـو أوريـا السعدى وزوجتـه هـى أم سليمان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقصته هى المذكورة فى القرآن فى قوله تعـالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص:٢٣] وقصته ستأتى وما فيها فى القسم الثـالث من هذا الكتاب، ولكنا نوردها هنا تبعـا لمـا فـى بعـض الشـروح، وذلـك أن داود عليـه الصلاة والسلام كان فى ملأ مـن بنـى إسـرائيل فـأعجب بعلمـه وأنـه لا يخـاف الفتنـة، ويقال: إنه قال للملكين الحافظين له إنى لا أقع فى مكروه غبتما أو حضرتما، وانفرد فى محرابه يوما فوقع بين يديه طائر حسن الهيئة يقال إنه إبليس، فمد يـده ليـأخذه فـزال مـن

موضعه غير بعيد فتبعه فخرج من مدخله، فاطلع داود منه فرأى امرأة جميلة تغتسل فأعجبته، فلما شعرت به أرسلت شعر ذوائبها لتسترها فزاده ذلك عجبا وميلا لها، فانصرف وسأل عنها فقالوا: إنها امرأة رجل من جندك يسمى أورياء، وكان مع جيش له بعثوا للقتال، فأرسل لأميره أن يجعله مع التابوت فى المقدمة وهو معترك الحرب وأشده، فقدمه فاستشهد، فلما جاء خبر الشهداء كان كلما أخبر برجل منهم توجع فلما أخبر به قال: الموت مكتوب على كل نفس، وخطب امرأته وتزوجها فولدت له سليمان عليه الصلاة والسلام، فبعث الله له خصمين ليعلمه بحكمه أن ما فعله ظلم وهو أشد عليه، فتسورا حائطه ودخلا عليه ففزع منهما لخوف أنهما من أهل مملكته بغاة؛ لأن التسور فى العادة كذلك، لأنه كان ليلا بلا استئذان ففهما منه الخوف وقالا: لا تخف وقصا أمرهما، وقالا له: احكم ولا تجر كما قصه الله تعالى، وقررا كلامهما على لسان أورياء وقوله تعالى: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣] أى اجعلها فى كفالتى، أو اكفل بمعنى زوجنى، والنعجة: كناية عن المرأة، وقوله عزنى أى غلبنى لغلبته على وقهره، فقال داود لخصمه: ما تقول؟ فأقر فزجره وأمره بالرجوع للحق، وقال: لقد ظلمك فتبسما وذهبا، وقيل: ارتفعا للسماء فشعر بما أرادا، وقيل بينا له ما فعل وعرفاه أن ما قالاه تمثيل له، فخر ساجدا فغفر الله تعالى له فقال: يارب ما أصنع إذا طالبنى بدمه؟ فقال: استرضيه فسر بذلك. قالوا: وهذه القصة مما افتراه القصاص وأهل الكتاب، حتى روى عن على كرم الله وجهه: من حدث بقصة داود عليه الصلاة والسلام جلدته مائة وستين. وهو حد قذف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنده، والمعتمد أن داود عليه الصلاة والسلام رأى امرأته فأعجبته فسأله تطليقها فطلقها بطيب خاطر فتزوجها، ومثله فى شرعهم جائز، وقد كان مثله فى صدر الإسلام مع المهاجرين والأنصار، وسيأتى بقية الكلام على هذا (**وقد نبه الله**) عز وجل (**على ذلك فى الكتاب العزيز بقوله:** ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [**ص: ٢٣**] **الآية**) حكاية عن الخصمين اللذين نزلا نفسهما منزلة أورياء ونزل أحدهما الآخر منزلة الأخ، لأن الصحة كالإخوة كما قال:

صحبة يوم نسب قريب وذمة يعرفها اللبيب

تشديدا لظلمه. والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة، وهى فى الأصل أنثى الضأن تاؤها لتأكيد التأنيث، لأن مذكرها لفظ مخصوص هو حروف وتطلق على البقرة الوحشية أيضا، فاستعيرت للمرأة كما استعيرت لها الشاة فى قوله[1]:

(١) البيت من الكامل، وهو لعنترة فى ديوانه (ص٢١٣)، الأزهية (ص٧٩، ١٠٣)، الأشباه والنظائر (٤/٣٠٠)، خزانة الأدب (٦/١٣٠)، شرح المفصل (٤/١٢).

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

وفى مصحف ابن مسعود نعجة أنثى لمزيد تأكيد التأنيث، أو لبيان المراد كحديث: «فلأولى رجل ذكر». وقيل: أنثى بمعنى امرأة مؤنثة يستأنس بها زوجها وضدها امرأة مذكرة، وهى التى لا تلين لزوجها ولا يأنس بها، ووصفها بواحدة تشنيع على ظلم صاحبه فإنه مع كثرة نعاجه حسده مع قلة ما عنده.

(وفى حديث أنس عنه عليه الصلاة والسلام) كما رواه الطبرانى فى الأوسط بسند جيد كما قاله السيوطى رحمه الله تعالى أنه قال: **(فضلت)** بالتشديد والبناء للمجهول **(على الناس بأربع السخاء والشجاعة وكثرة الجماع وقوة البطش)** البطش هو قوة السطوة والأخذ بعنف، وعطفه على كثرة الجماع لما فيه من إذهاب القوة؛ لأنه ماء الحياة يصب فى الأرحام، ونور العين ومخ العظم إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم تضعف قوته وأنه من آياته، وسيأتى معنى السخاء والشجاعة.

(وأما الجاه) وهو كونه وجيها عند الناس بتسخير القلوب وطاعتها ومحبتها وانقيادها له، بحيث يقدر على استعمال أربابها فى مقاصده، وهى لا تنقاد إلا باعتقاد الكمال التام عندها حتى يستعبدهم كما يستعبد الأرقاء.

(فمحمود عند العقلاء عادة) منصوب على الظرفية أو الحالية، أى جرت عادة العقلاء بحمده، ويجوز جعله تمييزا وعند متعلق بمحمود ظرف لغو. وقيل: إنه حال وكونه محمودا عقلا يقتضى أنه محمود شرعا بحسب ذاته وأصله، وإن كان قد يذم شرعا بحسب ما يعرض له عند بعض الناس وهو أعظم نفعا من المال، لأن المال يكسب به ولا يخشى عليه ما يخشى على المال.

(وبقدر جاهه) أى الإنسان ذى الجاه يعظم فى القلوب بمقدار عظمة جاهه، وقيل: المراد جاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا بالنبوة وفى الآخرة بلواء الحمد يكون. **(عظمه)** بكسر والعين بفتح الظاء المشالة وفى آخره هاء الضمير كما قاله البرهان الحلبى.

(فى القلوب) لأن الجاه كما تقدم متفرع على اعتقاد الكمال والقدرة، وكلما ازداد اعتقاده زادت عظمة شأنه فى قلوب الناس، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم مهيبا معظما حتى عند أعدائه ثم أيد كونه محمودا بقوله:

(وقد قال الله تعالى فى صفة عيسى عليه الصلاة والسلام وجيها فى الدنيا والآخرة) أى عظيما ذا جاه عند الله فى الدارين، وفيه دليل على أن الجاه من الوجاهة فقلب.

وكان أصله وجه فوزنه فعل، ووجيها منصوب على أنه حال مقدرة من كلمة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران:٤٥] ووجاهته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا بالنبوة وفى الآخرة بعلو رتبته كما مر، ثم استدرك على كونه محمودا بدفع ما يتوهم من أنه مذموم لما فيه من العلو فقال:

(لكن آفاته كثيرة) جمع آفة وهى العاهة والمفسدة، أى يعرض له ما يفسده ويجعله مذموما كثيرا. **(فهو مضر لبعض الناس)** باعتبار ما يعرض له **(لعقبى الآخرة)** باعتبار ما يعقبه ويترتب عليه فى الآخرة، فاللام لتقييد التأقيت والتخصيص بالوقت كما قيل، ويجوز أن تكون تعليلية. **(فلذلك)** أى لضرره فى العاقبة.

(ذمه من ذمه ومدح ضده) وهو الخمول وعدم الشهرة بين الناس، أى إنما ذمه من ذمه لهذا إلا لأنه فى نفسه أمر مذموم، كما ورد فى الحديث الصحيح: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والجاه لدين المؤمن» وقد فصله فى الإحياء فقال: طلب رفعة المنزلة فى القلوب باعتقاد صفة ليست فيه كالعلم والزهد حرام؛ لأنه كذب وتلبيس، وطلبها بما فيه ليجعلها وسيلة لنفع الناس ونفعه فى الآخرة جائز ممدوح، كقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥] وقد تضمن هذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «حسب امرء من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه أو دنياه» رواه البيهقى.

(وورد فى الشرع مدح الخمول وذم العلو والأرض) معطوف على قوله ذمه وهذا كما فى الحديث: «إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا»[1]. وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] وإن كان العلو فى الآية مقيدا بصفة زائدة عليه من ظلم أو غيره. والخمول: بضم الخاء المعجمة وفتحها خطأ ضد الظهور، وكون الخمول فضيلة ممدوحة لا يضر مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين لم يرضوه، والخلفاء الراشدين والأئمة العلماء، فإن المذموم هو طلب الشهرة، فأما وجودها من الله من غير تكلف من العبد فليس بمذموم، بل أفضل من الخمول فى حق من قدر على نفع الناس مع خلوص نيته وسلامة طويته وسلامه، ولذا قال الله: ﴿يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٨٣] دون يعلون، ومن لم يقدر ويصبر على ذلك فالخمول فى حقه أحسن، كما أشار إليه فى الإحياء، وإليه الإشارة فى حديث: «المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والحاكم (٤/١، ٣٢٨/٤)، والطبرانى فى الصغير (٤٥/٢).

البقل» ولذا قال الشاعر:

مــن أراد العــز والــرا حــة فــى الدهــر الطويــل
فليكــن فــردًا مــن النــا س ويرضــى بــالخمول
ويــرى أن قــليــلا كــافيــا غــيــر قــليــل

(**وكان صلى الله تعالى عليه وسلم قد رزق من الحشمة**) أراد بالحشمة المهابة والعظمة فى أعين الناس، ولذا عطفه عليه (**والمكانة**) وهى المنزلة الرفيعة رفعة معنوية كالعطف التفسيرى، وتبع فى هذا الاستعمال المشهور؛ لأنها وردت فى كلام الناس بمعنى الاستحياء، فأريد به لازم معناه وهى المهابة. وتحقيقه كما فى شرح «أدب الكاتب» لابن السيد: أن الحشمة تضعها الناس موضع الاستحياء. وعليه قول المتنبى:

ضيــف ألــم برأسى غير محتشم

وليس كذلك إنما الغضب، يقال: هذا مما يحتشمه أى يغضبه، وهذا قول الأصمعى وهو المشهور، وذكر غيره أنها تكون بمعنى الاستحياء. وروى عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال: طاعم حشمة. وقال الطرماح[١]:

ورأيت الشريف فــى أعيــن النــا س وضيعا وقــل منــه احتشامــى

انتهى.

(**فى القلوب والعظمة**) معطوف على الحشمة (**قبل النبوة عند الجاهلية**) أى عند أهل الجاهلية، والمراد ما بين المولد والمبعث، وتطلق على ما كان قبل البعثه. ومنه: ﴿**وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ**﴾ [الأحزاب:٣٣] وبه جزم النووى فى شرح مسلم. فإن أضيف للشخص أريد به ما قبل إسلامه، وقد يراد بها ما قبل فتح مكة. (**وما بعدها**) أى بعد النبوة (**وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه فى نفسه خفية**) بضم الخاء وكسرها كما قاله البرهان الحلبى، لأنه لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم عندهم وعظمته فى قلوبهم لا يواجهونه بما يؤذونه، وهو منصوب مفعول مطلق لمذكور أو مقدر أو حال.

(**حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخباره فى ذلك معروفة سيأتى بعضها**) وهذا بالنسبة لما فى نفس الأمر وأكثر الأحوال، كما روى عن أبى جهل، لعنه اللّه، أنه ساوم رجلا من بنى زبيد ثلاثة أبعره هى خير إبله بثلث ثمنها، فامتنع الناس من

---

(١) البيت من الخفيف، وهو فى شرح هاشميات الكميت (ص٣٥)، لسان العرب (١٢/١٣٦)، تاج العروس (حشم).

الزيادة لأجله، فأخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فزاده حتى رضى، فاشتراها منه ثم باع منها بعيرين بالثمن، ثم باع الثالث وأعطى ثمنه أرامل بنى عبد المطلب، وأبو جهل مخزى ينظره ولا يتكلم. ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم له: «إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابى فترى منى ما تكره». فقال: لا أعود يا محمد. فقال له أمية بن خلف: ذلك فى يد محمد، فقال: إن الذى رأيتم منى لما رأيت معه لقد رأيت رجالا عن يمينه ويساره يشرعون رماحهم إلى لو خالفته لكانت إياها» أى لأهلكونى فى وقائع أخرى مثلها، وهذا لا ينافى أنهم فى بعض الأحيان قد آذوه صلى الله تعالى عليه وسلم جهرة، كوضعهم الجزور على ظهره الشريف وهو ساجد، وتكذيبهم له فى قصة الإسراء، وقول أبى جهل لأبى طالب عند موته: لا تطعه أترغب عن ملة عبد المطلب، وتحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحيانا لذلك لحكمة تظهر بها غيرة الله وأمره بمقاتلتهم.

(وقد كان يبهت) ثلاثى مبنى للفاعل أو المفعول بمعنى يتحير ويدهش، كما فى قوله تعالى: ﴿**فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ**﴾ [البقرة: ٢٥٨]. **(ويفرق لرؤيته)** بالبناء للفاعل من باب علم أى يخاف. **(من لم يره)** فاعله. **(كما روى عن قيلة)** بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام وهاء، وفى الصحابيات من يقال له: قيلة ثلاث، قيلة أم بنى أنمار، ويقال: أخت بنى أنمار، وقيل: الخزاعية أم سباعة، وقيلة بنت مخرمة العنبرية، وقيل: العنزية نسبة لعنزة بنون وزاء معجمه مفتوحتين، وقيلة الغنوية بفتح الغين المعجمة والنون كما قاله البرهان. والمراد قيلة بنت مخرمة وحديثها مذكور فى شمائل الترمذى، وفى سنن أبى داود، وأخرجه ابن سعد بتمامه كما قاله السيوطى، وهو: «أنها رأته صلى الله تعالى عليه وسلم فى المسجد وهو قاعد القرفصاء، قالت: فلما رأيته متخشعا فى الجلسة أرعدت من الفرق» وهذا هو المراد، وإن اختلف بعض لفظه. وقال التجانى: هى ابنة مخرمة الغنوية أو العنزية، ويقال: بل التميمية ولا تنافى بين الأخير وغيره، لأن العنبرية نسبة لبنى العنبر والعنبر أبو حى من تميم، كما أن العنزة حى من ربيعة بن نزار، وفى مثل هذه القصة وقعت لعمر رضى الله عنه وكان مهيبا.

وقوله: **(أنها لما رأته)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(أرعدت)** بضم الهمزة وسكون الراء وكسر العين وفتح الدال المهملات مبنى للمجهول، أى لحقتها عدة من الخوف. وقوله **(من الفرق)** بفتحتين وهو شدة الخوف وفى نسخة: «ارتعدت».

(فقال) صلى الله تعالى عليه وسلم لها: **(يا مسكينة عليك السكينة)** وصفها بالمسكنة ترحما لها، والسكينة هنا بمعنى الطمأنينة، أى الزمى الاطمئنان وعدم الخوف. والسكينة

ثبت فى النسخ المعتمدة بالرفع على أنها مبتدأ وخبر، والجملة خبرية مرادا بها الأمر أى اسكنى، وبالنصب أى الزمى السكينة للإغراء، أو عليك اسم فعل بمعنى الزمى، و لم يثبت هنا ما قيل: «إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» وبين سكينة ومسكينة تجنيس، ومسكين بكسر الميم على الأفصح وتفتح، وحق مسكينة أن لا تلحقها الهاء؛ لأن باب مفعيل ومفعال للمبالغة لا تلحقه التاء، لكنه حمل على فقيرة وسكينة بالفتح والتخفيف وقد تكسر وتشدد وتفتح وهو قليل جدا.

(وفى حديث أبى مسعود) رضى الله تعالى عنه، هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجى الصحابى رضى الله تعالى عنه البدرى كما فى البخارى. وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: إنه لم يصح أنه شهد بدرا وإنما شهد العقبة الثانية وعليه الأكثر، وإنما سكنها فهو بدرى دارا لا حضورا، وبهذا يحصل الجمع بين القولين. وروى عنه أيضا أحمد وأصحاب السنن، ومات سنه أربعين أو إحدى أو اثنتين وأربعين. وهذا الحديث رواه البيهقى من طريق قيس عنه موصولا، وعن قيس مرسلا، وقال: هو المحفوظ. وأخرج الحاكم مثله وصححه: **(أن رجلا قام بين يديه)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(فأرعد)** بضم الهمزة وكسر العين المهملة، أى أخذته رعدة من خوفه. وفى رواية: «أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برجل فكلمه فجعلت ترعد فرائصه». بالفاء والصاد المهملة كالفرائض بالمعجمة وهى لحمة بين الجنب والكتف ترعد من الخائف. **(فقال له: هون عليك فإنى لست بملك. الحديث)** وتمامه «وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» وهون بتشديد الواو المكسورة أمر من الهون وهو الأمر الهين السهل، والعرب تقول: هون عليك بمعنى لا تخف. قال[1]:

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

ولا وجه لتفسيره «باقتصد فى المحبة ولا تبالغ فى التعظيم» وملك بفتح الميم وكسر اللام يجوز تسكينها بمعنى السلطان، يعنى لست من الملوك الجبابرة حتى تخاف منى؛ لأن جبريل عليه السلام جاءه من الله وخيره بين أن يكون ملكا نبيا وعبدا نبيا فاختار أن يكون عبدا نبيا و لم يرض بوصفه بالملك، وكذا الخلفاء الأربعة، وأول من ملك فى الإسلام معاوية رضى الله تعالى عنه، فلا وجه لقول بعضهم هنا أن هذا لا ينافى أنه ظهر ملكه وإن كان ملكه نبوة، فإنه لم يرد إلا نفى أنه ملك كسائر الملوك عند المخاطب. انتهى. وهذا الرجل لم يسمه أحد من شراح الحديث.

---

(١) البيت من المتقارب، وهو للأعور الشنى فى الدرر (١٣٩/٤)، شرح أبيات سيبويه (٣٣٨/١)، شرح شواهد المغنى (٤٢٧/١)، الكتاب (٦٤/١).

(فأما عظيم قدره بالنبوة) أى وصفه قدر نبوته بالعظم؛ لأن النبوة مقربة له من الله وفيه من العظم ما لا يخفى. **(وشريف منزلته بالرسالة)** جعل منزلة رسالتة شريفة لأنها واسطة بين الله تعالى وخلقه، وفى تأهيله لذلك دون غيره شرف له على من عداه وجعلها منزله لنزوله إليهم بتبليغه عن اتصاله بالملأ الأعلى. **(وإنافة رتبته بالاصطفاء)** الإنافة بالنون والفاء بمعنى الإعلاء والإشراف على ماتحته، والمراد بالاصطفاء ولايته وهى أقرب مقاماته من الله تعالى عز وجل لتمحيصها للطرف الأعلى، ولذا جعلها مرتبة لأنها من الرتوب وهو العلو، والمرتبة كالمرقبة أعلى الجبل كما فى الصحاح فتفطن لتعبيره أولا بالقدر، وثانيا بالمنزلة بالرتبة بمصادفة ذلك لمحزه، وفى نسخة بدل إنابة بالنون والموحدة. **(والكرامة فى الدنيا)** خصها لأنها محل ظهور أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا فذلك فى الآخرة مما لا شبهة فيه كما سيذكره. **(فأمر هو مبلغ النهاية)** أى ليس فوقه مرتبة أخرى يكون نهاية أى نهاية النهاية.

(ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم) عطفه بثم لتراخيه زمانا، ومعنى ورتبة وهذا بعض من حديث البخارى وهو: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١). وتقدم أن قوله: «ولا فخر» سقط من بعض نسخ الشفاء وثبت فى بعضها، قيل:وهو الأكثر الأولى لأنه هنا من كلام المصنف رحمه الله لا من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أثبته فهو حكاية كما قاله التلمسانى وفيه نظر، والمراد أنا أشرف هذا النوع آدم وولده لما ورد: «آدم ومن دونه تحت لوائى» ومر فى معنى قوله: «ولا فخر» أنه لم يذكره للافتخار ومدح نفسه، بل لبيان الواقع تحدثا بنعمة الله تعالى، أو المراد أنى لا أفتخر بهذا فإن لى ما هو أعظم منه من المنزلة عند ربى، ولا حاجة للاستدلال عليه بـ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] لأنه يلزم من تفضيل أمته على الأمم تفضيل نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم لأن أجر أعمالهم له.

(وعلى معنى هذا الفصل) المشتمل على أوصاف يمتدح بكثرتها ويتميز باستئثاره بها. **(ونظمنا هذا القسم)** الأول من الكتاب، أى جعلناه موضوعا لبيانه وهو المقصود منه بالذات، فجعل ما فيه كالعقد المحتوى على اللآلى والفرائد كناية، وأثبت له النظم تخييلا، كما قيل: ولك أن تقول المراد بالفصل المشار إليه ما تضمنه قوله: فأما عظيم قدره إلى آخره.

(بأسره) أى جميعه، وأصل الأسر شد الأسير بما يربط به ويطلق على ما يربط به، فإذا قيل: خذ الأسير برباطه فالمراد خذه بجميع ماله، ثم تجوز به عن معنى الجميع.

---

(١) تقدم تخريجه.

فصل

(**وأما الضرب الثالث فهو مختلف الحالات**) جمع حالة والحالة تذكر وتؤنث، والغالب عليها التأنيث. (**فى التمدح به**) هو تفعل للكثرة أو بمعنى المجرد لا للتكلف. (**والتفاخر بسببه**) بين الناس (**والتفضيل**) من الناس لصاحبه (**لأجله**) غاير بين العبارة تفننا وهربا من التكرار فى مقام إسهاب الخطابة. (**ككثرة المال**) ثم بين اختلاف الناس فيه فقال: (**فصاحبه على الجملة**) هذا كما يقال فى الجملة والمال أنه أحيانا لا فى كل حال. (**معظم عند العامة**) أى عوام الناس أو أكثر الناظرين للدنيا ووجه تعظيمه. (**لاعتقادها توصله به إلى حاجته وتمكن أغراضه**) مجرور معطوف على حاجته. (**بسببه**) أى المال (**وإلا**) أى وإن لم يكن ذلك أو إن لم يعتقد فيه ذلك، وجواب الشرط محذوف تقديره فلا يعظمه أحد وأقيم بسببه مقامه، وهو قوله: (**فليس له فضيلة فى نفسه**) ثم فسر ما أجمله فقال (**فمتى كان المال بهذه الصورة**) أى مصروفا فى هذه المصارف. (**وصاحبه منفقا له فى مهماته ومهمات من اعتراه**) بمهملتين بينهما مثناة فوقية، أى من ورد عليه وقصده من الضيوف والإخوان وأرباب الحاجات، من عراه إذا غشيه ودخل عليه، كما قيل:

يا لهف نفسى على مال أجود به على المقلين أرباب المروءات

(**وأمله**) أى رجاه ورجا إحسانه وإكرامه، ولو قرئ أم له بمعنى قصده صح، ولكن لا يساعده الرسم، كما قيل: من أم له يقال: ما أمله. (**وتصريفه فى مواضعه**) تصريفه مرفوع معطوف على المال، أى كان تصريفه فى مواضعه أى تصرفه واقع موقعه، ويصح عطفه على قوله صاحبه وهما سواء معنى، ويجوز جره عطفا على مهماته، وكذا ضبط بالقلم فى بعض النسخ، أى أن صاحبه منفقا له فى مهماته، وكذا ضبط بالقلم فى بعض النسخ، أى أن صاحبه منفقا له فى مهماته ومنفقا له فى تصريفه فى موضعه، لكن الأظهر على هذا أن يقول صرفه بدون تصريفه وتصريفه مضاف للفاعل، أى ضمير صاحبه وللمفعول أى ضمير ماله والأول أولى لقوله: (**مشتريا به المعالى والثناء**) الذكر الجميل (**الحسن**) فإنه حال منه أى حال كونه مشتريا بماله وتصريفه معالى الأمور وثناء الناس عليه، والمراد بالمعالى جمع معلاه وهى الجاه والرتب العالية. والثناء: الذكر الجميل كما علم، وذلك إنما يكون بصرفه وإعطائه لطالبه، فجعل تحصيل ذلك يخرجه بمنزلة اشتراء أمر نفيس، كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ومثل هذه الاستعارة شائع فى الكلام القديم وغيره، وقوله الحسن صفة مؤكدة.

(والمنزلة من القلوب) أى كونه له مهابة وعظمة فى قلوب الناس؛ لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، وهو منصوب معطوف على المعالى مفعول الحال. **(كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا)** جواب متى المسبب عنه وقيده بقوله: عند أهل الدنيا، لأن نظرهم لهذا، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، لا لأنه ليس فضيلة عند الله كما توهم؛ لأنه إن اقترن بنية صالحة كان فضيلة عند الله أيضا.

(وإذا صرفه فى وجوه البر) أى إذا صرف المال فى أنواع الإحسان كالصدقة والهبة والهدية فالوجوه بمعنى الجهات، أو هو مستعار لما ذكر استعارة تصريحية أو مكنية. **(وأنفقه فى سبيل الخير)** أى فى طريقه كالحج والجهاد وصلة الرحم.

(وقصد بذلك) المذكور من الصرف والإنفاق أو المصروف والمنفق. **(الله والدار الآخرة)** أى قصد أن يكون ذلك لله وثواب الآخرة. **(كان فضيلة)** أى أمرا فاضلا محمودا. **(عند الكل)** أى كل الناس من أهل الدنيا أو غيرهم العامة والخاصة، ومر أن إدخال ال على كل وبعض منعه بعض النحاة و لم يسمع من العرب، إلا أن القياس لا يأباه **(بكل حال)** أى سواء اكتسب به المعالى والثناء أم لا.

(ومتى كان صاحبه ممسكا له) أى لا يصرفه فى مصارفه بل يخزيه لشحه به ومحبته له **(غير موجهه وجوهه)** أى غير صارف له فى مصارف من مهماته ووجوه الخير. **(حريصا على جمعه عاد)** أى رجع أو صار. **(كثرة كالعدم)** الكثر كالكثير معنى، وهو بضم الكاف وكسرها، وظاهر كلام أهل اللغة جواز فتحها فهو مثلث ومثلثة ساكنة وهو المال الكثير، يقال: ماله قل ولا كثر، ومقابلته بالعدم أبلغ من مقابلته بالقليل، ولذا عدل عنه وإن كانت القلة تكون بمعنى العدم أيضا، وإنما كان كالعدم لعدم انتفاعه به فإنه خازن لغيره حارس لنعمته يستعجل الفقر الذى هرب منه، ويفوته الغنى الذى طلبه فيعيش عيش الفقراء ويحاسب عليه حساب الأغنياء، كما قيل وقد مر:

يغنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوارث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(وكان منقصة فى صاحبه) لذم الناس له ووصفه بالبخل والرذالة قبحه عقلا وشرعا **(ولم يقف على جدد السلامة)** أى لم يحصل ما يسلم به من النقص والوبال والذم. والجدد: بفتح الجيم ودالين مهملتين أولاهما مفتوحة وهى الأرض الصلبة، وفى المثل: «من ملك الجدد أمن العشار». فالمراد به الطريق المسلوكة. وهكذا هو مضبوط فى النسخ وارتضاه البرهان رحمه الله تعالى، فمن قال إنه وهم فقد وهم. وأما ضبط بعضهم

له بضم الجيم والدال على أنه جمع جديد فلا وجه لـه. وفـى بعـض الحواشـى أنـه بضـم الجيم وفتح الدال على أنه جمع جدة كمدة ومدد، أى طرق. ومنـه قولـه تعـالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾ [فاطر:٢٧] أى طرق وهو صحيح أيضا. ومنـه ركـب فـلان جـده فى الأمر أى رأى فيه رأيا ظاهرا و لم يقف فى أمر يوصله للسلامة وهو عـدم الجمـع، أو صرف ما جمعه فى مصارفه فعدل عن طريق السلامة فهلك، كما أشار إليه بقولـه: **(بـل أوقعه)** ماله الذى جمعه وبخل به **(فى هوة)** بضم الهاء وتشديد الواو وهى الأهوية الحفـرة العميقة وهو مضاف لقوله:

(رذيلة البخل) أى أوقعه فى وهدة دنائته وخسته التى حفرها لنفسـه، وفيـه استعارة مكنية وتخييلية كالذى قبله، فشبه السماحة بطريق يسلم سالكها ويأمن مـن كـل عثرة، وشبه ضده بحفرة يقع فيها من أتاها.

(ومذمة النذالة) هى بالنون والذال المعجمة الدناءة والخسة وهو معطوف على رذيلة، ففيها الاستعارة السالفة، أو على هوة وهذه من آفات المال المقابلة لمحاسنه السالفة الدالـة على أنه فى نفسه ليس ممدوحا، وإنما بما يكتسب به كما بينه بقوله:

(فإذن التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله) أى عند مدحـه ومـدح صاحبـه. ومفضلـه بكسر الضاد المشددة وفتحها **(ليست ثقـة)** مـن حيـث هـى **(وإنمـا هـو)** أى التمـدح بـه **(بالتوصل به إلى غيره)** من الثناء الجميل والأجر الجزيل، وهو إنما يكون ببذلـه **(وتصريفـه فى متصرفاته)** وفى الحديـث: «يقـول ابـن آدم مـالى مـالى وهـل لـك مـن مـالك إلا مـا تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت». فمن لم يتوصل بماله لمـا ذكـر و لم ينتفع به كمن لا مال له. قال أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتـق مـن المـال نفسـه ... تملكـه المـال الـذى هـو مالكـه
ألا إنـمـا مالـى الـذى هـو منفق ... وليس لـى المال الذى أنـا تاركـه

(فجامعه إذا لم يضعه مواضعه) بصرفـه فـى مهماتـه ومـهمات مـن أملـه **(ولا وجهـه وجوهه)** من أنواع البر وسبل الخير، ويحتمل التعميم فى كل منهما. **(غـير ملـئ)** أى غـير غنى، يقال: ملأ ملاءة وملاء بالمد إذا استغنى. **(بالحقيقة)** أى فى نفس الأمر؛ لأن الغنـاء هو المغنى لصاحبه عما سواه وهو محتاج لماله ولغيره فـى اكتسـابه. وقـد قـال الحكمـاء: الغنى هو الذى لا يحتاج فى ذاته وكماله إلى شىء **(ولا غنى بالمعنى)** المقصـود منـه وهـو كفاية المهمات، واكتساب المحمدات، فكأنه فقير، **(ولا متمدح بـه)** بفتـح الـدال **(عنـد أحد من العقلاء)** بالجر معطوف على ملئ أى من كمل عقله لا يمدح بمثله **(بل هـو فقـير**

أبدًا غير وأصل إلى غرض من أغراضه)

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله — مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وكونه لم يصل لغرضه لعدم إنفاقه وكسبه به ما يريد، كما أشار إليه بقوله: **(إذ ما بيده)** أى فى ملكه وتصرفه. **(ومن المال الموصل لها)** بكسر الصاد مخففة ومشددة أى أغراضه. **(لم يسلط عليه)** بالتشديد والبناء للمجهول أى لم يرزقه الله تعالى ويقدر له الإنفاق منه فى أغراضه. **(فأشبه خازن مال غيره)** فى حراسة المال وعدم قدرته على الإنفاق منه. **(ولا مال له)** جملة حالية من خازن **(فكأنه)** أى صاحب المال **(ليس فى يده شىء منه)** كما قيل:

إذا كنت جماعا لمالك ممسكًا — فأنت عليه خازن وأمين

تؤديه مذموما إلى غير حامد — فليأكله عفوًا وأنت دفين

ولمحمود الوراق:

تمتع بمالك قبل الممات — وإلا فلا مال إن أنت متا

شقيت به ثم خلفته — لغيرك بعدًا وسحقًا ومقتا

فجادوا عليك بزور البكاء — وجدت عليهم بما قد جمعتا

وأرهنتم كل ما فى يديك — وخلوك رهنًا بما قد كسبتا

(والمنفق ملئ غنى بتحصيله فوائد المال وإن لم يبق فى يده من المال شىء) فالممسك كما أنه فقير بالقوة فكذا المنفق غنى بالقوة، لأن له خلفا من اللّه بمنزلة الحاصل عنده، كما قيل:

وإنى لأرجو اللّه حتى كأننى — أرى بجميل الظن ما اللّه صانع

وهذا كله توطئة لبيان أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للمال عدمًا ووجودًا، كما قال: **(فانظر سيرة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى طريقته وهديه. **(وخلقه)** بضمتين أو ضم فسكون. **(فى المال)** أى فى شأن المال وماله بالنسبة إليه **(تجده قد أوتى خزائن الأرض ومفاتيح البلاد)** أى آتاه اللّه تعالى ذلك، كما ورد فى الحديث الصحيح: «بينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدى»[1] وفى كتاب الوفاء عن جابر رضى الله تعالى عنه مسندًا قال: سمعت رسول اللّه صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس»[2] وإليه أشار

---

(١) أخرجه البخارى (٥٢٣/٧)، وأحمد (٤٥٥/٢)، والبيهقى (١٧٥/٨).

(٢) أورده الذهبى فى الميزان (٢٠٦)، والمنذرى فى الترغيب (١٩٧/٤).

الصرصرى رحمه الله تعالى بقوله:

بعثت مقاليد الكنوز جميمها تهدى إليه على سراة حصان
جعلت عليه قطيفة من سندس فله استقام الزهد عن إمكان

ومثله ثابت من طرق عديدة، وهذا يدل على أن الله تعالى أعطاه ذلك حقيقة. وخزائن الأرض: دفائنها ومعادنها بأن يطلعه الله عليها ويجعل الملائكة الموكلين بها طوع يده، فإن السلطان خزينته بيد خازنها حاضر مطيع لديه، فهذا معنى كونها فى يده عرفا. وأما المفاتيح فإن كانت بمعنى الخزائن فكذلك، وإن كانت جمع مفتح أو مفتاح بمعنى آلة الفتح فإعطاؤها إرسالها كما هو ظاهر الحديث السابق، وقيل: إنه كناية عن فتح البلاد على أمته وجباية أموالها لهم. والمفاتح روى فى الصحيح بدون ياء جمع مفتح، وروى بياء فى كلام المصنف جمع مفتاح، والأول أفصح.

كما قيل: **(وأحلت له الغنائم ولم تحل لنبى قبله)** الغنيمة: ما يؤخذ من الكفار وكذا الفىء، وفرق الفقهاء بينهما بأن الفىء ما يحصل بلا قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كسرقة وهبة. والغنيمة ما حصل بقتال ولو قبله أو بعده، وقد يستعمل كل منهما لما يعم الآخر كما نحن فيه، وكان قبل ذلك كل ما يحصل من أهل الحرب كالمقرب من الذبائح تنزل نار من السماء فتحرقه إن قبل.

فإن قلت: كيف هذا وقد كان لسليمان وداود عليهما الصلاة والسلام سرارى، ولا شك أنها تحصل من أهل الحرب غنيمة حتى تملك؟

قلت: قالوا: إن الذى كانت تأكله النار سهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون سهام الأمة وقرابينهم، فكانت تحل لهم فإذا اشترى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كداود عليه الصلاة والسلام من أمته شيئا منها كان له. ذكره ابن الجوزى رحمه الله فى الوفاء.

(وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز) الحجاز بمعنى الحاجز وسميت بها لأنها تحجز بين نجد وتهامة، أو بين اليمن والشام، وهى مكة والمدينة والطائف واليمامة وقراها وخيبر وطرقها الممتدة بينها. وقيل: غير ذلك، وقيل: المدينة نصفها حجازى ونصفها تهامى. **(واليمن)** وهو معروف وسمى به؛ لأنه عن يمين الكعبة؛ أو لأنه عن يمين الشمس **(وجميع جزيرة العرب)** الجزيرة: فعيلة من جزر الماء وهو انكشافه ورجوعه ضد المد، وجزيرة العرب ما بين أقصى عدن إلى ريف العراق طولا، ومن جدة وما والاها إلى أطراف الشام عرضا عند الأصمعى. ومن حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن طولا، ومن رمل

قبرس إلى منقطع السماوة عند أبى عبيد. وقال مالك: هى الحجاز، واليمن، واليمامة وما لم يبلغه، ملك فارس والروم. أقوال أخر: وسميت جزيرة لأن بحر فارس وبحر الحبشة ودجلة والفرات أحاطت بها. **(وما دانى ذلك)** أى قرب منه أو من جزيرة العرب فتذكيره باعتبار المكان ونحوه

(من الشام والعراق) أما الشام فبهمزة وتبدل ألفا، وقد تمد همزته فيقال: شام. وبعضهم أبى هذا ويذكر ويؤنث كغيره من أسماء البلدان، وينسب إليه شامى بهمزة وألف، وشآمى بالتخفيف والتشديد كيمان، فيقال: امرأة شامة وشامية مخففا، ووجه تسميتها بذلك أنها من شمال الكعبة، أو لأنه يشأم بها قوم، أو باسم صاحبها وهو سام ابن نوح عليه الصلاة والسلام، فعربت بإبدالها شينا معجمة وأنكر بعضهم هذا، وقال: إنه لم ينزلها سام قط، وإنما سميت بها لأن فى أرضها شامات حمر وسود وبيض. وحده من العريش إلى الفرات، أو إلى نابلس طولا. وعرضه من جبل أجاد سلمى إلى بحر الروم وما يسامته، وقد دخله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أنه لم يدخل دمشق. وقيل: دخل الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما العراق: فهو إقليم معروف، وهو عراق العرب وفيه مدن عظيمة وقرى، وطوله من تكريت إلى عبادان وهى قرية، ولذا قيل فى المثل: ما وراء عبادان قرية. وعرضه من القادسية إلى حلوان ودجلة. حده جانبها الأيمن العراق واليسار لفارس. وأما عراق العجم وهو إقليم خراسان. ولفظ العراق عربى، وقيل: إنه معرب إيران وفيه كلام ليس هذا محله. واليمن فتحها على رضى الله تعالى عنه فى سنة عشر من الهجرة. والشام فتح منها دومة الجندل فتحها عبد الرحمن، والعراق فتح منها البحرين وقدم أهلها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ما فصل فى السير والتواريخ، ومن لم يقف على هذا قال إنها إنما فتحت فى زمن أبى بكر رضى الله تعالى عنه، لكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أوتى مفاتيحها ووعد بفتحها.

(وجلبت إليه) بالبناء للمفعول نائب فاعله ما لا يجبى الآتى وأنثه باعتبار المعنى وهو الأموال. **(من أخماسها)** أى غنائمها لأن الغنائم تجعل خمسة أجزاء؛ خمس للإمام وأربعة أخماس للجند. أو المراد نفس الخمس لأنه الذى يختص به. **(وجزيتها)** بكسر فسكون وهو ما يؤخذ من الكفار من الخراج على الرؤوس، سمى بها إما لأنها تجزى أو من المجازاة أو من الأجزاء بمعنى الكفاية. وقيل: إنها معرب كزيت وأحكامها تفصيلا فى كتب الفقه. **(وصدقاتها)** المراد ما كان يؤخذ من الزكاة كبيت المال، لأنه يسمى صدقة. **(مالا يجبى)** أى يجمع يقال: جباه إذا جمعه **(للملوك إلا بعضه وهادته)** أى أهدت إليه

صلى الله تعالى عليه وسلم وليس المراد المفاعلة.

(ملوك الإقليم) المتقدمون قسموا الأرض سبعة أقسام، سموا كل قسم منها إقليما كما يعلم من علم مساحة الأرض المسمى جغرافيا، وحد كل أقليم وما فيه من البلدان مفصل فى كتب الهيئة والمساحة. قيل: المصنف أراد بالأقاليم النواحى والبلدان وإن كانت من إقليم واحد أو إقليمين من السبعة بطريق المجاز، وهو بهذا المعنى مستعمل أيضا كما يقال: أقاليم مصر فسموا كل ناحية منها إقليما.

والهدية: ما يبعث بلا عوض إلى المهدى إليه إكراما. وقال السبكى: الإكرام ليس شرطا فيها وإنما الشرط كونها من المنقولات، فلا يقال العقار هدية فهى أخص من الهبة. والظاهر أن قيد الإكرام بناء على الظاهر فرقا بينها وبين الصدقة، وممن هاداه صلى الله تعالى عليه وسلم المقوقس ملك القبط، أهدى له جاريتين وكسوة وبغلة بيضاء وهى الدلدل. وهداه فروة بن عمرو الجذامى عامل قيصر بعد ما تبرع بالإسلام وأهدى له بغلة بيضاء تسمى فضة وفرسا وأثوابا وقباء من سندس، ولما بلغ ذلك قيصر حبسه مدة طويلة ثم أرسل يقول له: ارجع لدينك أطلقك وأعيد لك ملكك فأبى، وقال: لا أفارق دينه وإنك لتعلم أنه حق ولكن ضننت بملكك فقال: صدق والإنجيل. ومنهم أكيدر دومة الجندل كما فى البخارى والتجانى.

وأما هدايا غير الملوك التى كانت تصل مع الوفود فكثيرة لا تحصى كما يعلم من السير، وأهدى له الرهبان أيضا كراهب نجران، ولا منافاة بين قبوله هدية من لم يسلم منهم كالمقوقس والنجرانى ورده بعض هدايا المشركين، وقوله: «إنا لا نقبل زبد المشركين» أى عطيتهم، لأنه كان يقبل الهدية ممن يرجو إسلامه استيلافا له، لما فيه من المصلحة للمسلمين ويرد هدية غيره، أو ذاك خاص بالمشركين ومن قبل منه أهل الكتاب فيقبل، كما تؤكل أطعمتهم وذبائحهم. وقيل: إن عدم القبول منسوخ بأحاديث القبول لا العكس على الأرجح، ثم إن قبول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الهدية مع أنه لا يجوز لغيره من الحكام من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لانتفاء التهمة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم رد ما أهدى له خاصة دون ما أهدى للصحابة.

(فما استأثر بشىء منه) أى ما اختص به صلى الله تعالى عليه وسلم دون أصحابه لرؤيته أنه أحق كما يفعله الملوك فيما يليق بها وهو استفعال من الأثر، وهى المكرمة والخصوصية كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

(ولا أمسك منه درهما) أى لم يبق لنفسه منه شيئا و لم يجعله عنده أو فى يده. **(بل صرفه)** فى **(مصارفه)** بإعطائه لمن يستحقه وفى وجوه الخيرات. **(وأغنى به غيره)** من الجند والمؤلفة قلوبهم فكان صلى الله تعالى عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخاف الفقر.

(وقوى به المسلمين) بصرفه فى مهماتهم وفيما ينصرهم على أعدائهم. **(وقال)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث صحيح رواه الشيخان مسندا عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: **(ما يسرنى)** أى يجعلنى فى سرور وفرح **(أن لى أحدا ذهبا)** أى مثل أحد أو نفس أحد يكون ملكا لى وهو ذهب حقيقة، وقوله: ذهبا تمييز أى من ذهب واحد بضمتين وقد تسكن حاؤه اسم جبل معروف قريب من المدينة، سمى به لتوحده وانقطاعه عما هناك من الجبال. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فيه: «أحد جبل يحبنا ونحبه».

(يبيت عندى منه دينار إلا دينارا أرصده لدينى) وقد روى هذا الحديث بروايات مختلفة اللفظ متقاربة المعنى، ففى الصحيح: «تأتى على ثالثة وعندى منه دينار أو أمسى ثالثة وعندى منه دينار» وروى: «تحول ذهبا ويصير ذهبا». وإلا دينارا روى بالرفع والنصب وأرصده بفتح الهمزة وضم الصاد، ويجوز ضم الهمزة وكسر الصاد المهملة لأنه يقال: رصدته وأرصدته بمعنى أعددته للخير أو الشر. وقيل: رصدته بمعنى راقبته. وأرصدته بمعنى أعددته وهو المشهور، وقوله: «لدينى» بفتح الدال المهملة وسكون المثناة التحتية والنون. وإرصاده للدين إما لأن صاحبه غائب أو لأنه لم يحل أجله، وفيه دليل على جواز الاستقراض، وأنه لا ينبغى أن يكون المرء مستغرقا فى الدين حتى لا يجد له وفاء. وبقية الحديث فى الصحيحين وشروحهما، فإن أردته فانظره. وفى بعض النسخ هنا زيادة من إلحاق المصنف وهى:

(وأتته صلى الله تعالى عليه وسلم دنانير مرة فقسمها وبقيت منها ستة فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال: الآن استرحت) انتهى. وقوله: «دفعها» روى رفعها بالراء. قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث روته ابنة سعد عن عائشة رضى الله تعالى عنها بهذا اللفظ، وفى الشرح الجديد لم أقف عليه إلا أن له نظائر أوردها. وكانت هذه الدنانير جاءت من الصدقة، وإنما لم يأخذه صلى الله تعالى عليه وسلم النوم لخوفه أن يفجأه الأجل قبل تفريقها، فانظر هذا مع أنه غفر له صلى الله تعالى عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر بعدما عصمه الله تعالى، مع أشقياء هذا الزمان وصرفهم بيت المال فى هوى أنفسهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. ومات صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونة فى نفقة عياله، جمع عيل وهو من تلزمه مؤنته، والدرع

مؤنثة وهى الزردية، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أدراع ذات الفضول، سميت بها لطولها أهداها له سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبدر، وذات الحواشى ودرعان أصابهما من بنى قينقاع السغدية وفضة، ويقال: إن السغدية كانت درع داود عليه الصلاة والسلام التى لبسها لقتال جالوت، والبتر، والحريق، فهذه سبع. وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى فى مادة س ب ع: درع البتر ذات السبوع لتمامها وسعتها، فيحتمل واحدة مما ذكر أو غيرها فتكون ثمانية. وقال ابن الجوزى: إن التى رهنها صلى الله تعالى عليه وسلم هى ذات الفضول، ورهنها عند يهودى يسمى أبا الشحم كما وقع فى كتب فقه الشافعية، ووقع فى كلام بعض تسميته بأبى شحمة والمعروف الأول. والسغدية لم يتعرضوا لحركة سينها المهملة ويجوز فتحها وضمها والمشهور الثانى، وهى بعين معجمة منسوبة للسغد وهو جبل معروف. وقال مغلطاى: إنها بعين مهملة. وفى معرب الجواليقى أنه بالسين والصاد؛ لأنه قياس فى كل سين معها حرف استعلاء، قال شقيق الأسدى:

وخافت من جبال السغد نفسى

وذكر مغلطاى أيضا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له مغفر يسمى السبوع، والحديث المذكور فى صحيح مسلم مسندًا عن عائشة رضى الله تعالى عنها: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اشترى من يهودى طعامًا نسئة فأعطاه درعًا رهنًا» وفى رواية: «فرهنه صلى الله تعالى عليه وسلم درعًا له من حديد» ورواه البخارى أيضًا بزيادة ثلاثين صاعا من شعير. ومنه علم جواز معاملة الكفار مع أن كسبهم لا يخلو من خبث، وجواز الرهن على الثمن المؤجل وإدخال القوت خلافًا لزفر. وقال المصنف رحمه الله تعالى فى شرح مسلم: إنه مكروه عند مالك وأحمد، وأجمعوا على أنه يجوز معاملة أهل الذمة وغيرهم إلا فى آلات الحرب وما يستعان به عليه. وقال الحنفية: يكره بيع السلاح والكراع من أهل الحرب وتجهيزه إليهم قبل الموادعة وبعدها. وأما رهنه فإنه خشى التقوى به علينا فهو كالبيع، فما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إما لأن اليهودى لم يكن من أهل الحرب، أو لأنه كان بين أظهر المسلمين فلا يخشى تقويه به، وفى رواية: أن تلك الدرع رهنت فى عشرين صاعًا، وفى أخرى: أربعين. وفى رواية: «وسق شعير» والأجل: سنة فحل الأجل قبل الأجل، ومن ثم قيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم افتكه قبل موته لخبر: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه»[1] وهو

---

(١) أخرجه الترمذى (١٠٧٨، ١٠٧٩)، وابن ماجه (٢٤١٣)، والحاكم (٢/٢٦)، وأحمد (٢/٤٤٠، ٤٧٥)، والدارمى (٢/٢٦٢)، والبيهقى (٤/٦١).

صلى الله تعالى عليه وسلم منزه عن ذلك، والأصح خلافه كما اقتضاه كلام المصنف، ولقول ابن عباس: «توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي». والخبر محمول على غير الأنبياء، وجمع بين الروايات السابقة بتعدد الواقعة وكان موسرا، وقد تعسر لإنفاقه جميع ما عنده ولا يعلم أحد بذلك، إذ لو علم الصحابة ذلك واسوه صلى الله تعالى عليه وسلم بجميع أموالهم كما كانوا يواسونه بأرواحهم، ولكنه يكتمه ويصبر تلذذا بالرضى بما قسم. وفي قوله: «في نفقة عياله» للتعليل.

(واقتصر من نفقته و ملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه وزهد) بصيغة الماضي معطوف على اقتصر. **(فيما سواه)** أي ما سوى مقدار الضرورة. ووقع في بعض النسخ: «زهده» بصيغة المصدر المضاف للضمير وهو مرفوع عطفا على ضرورته، أو مجرور بالعطف على مجرور إلى من غير إعادة الجار، والنسخة الأولى أوضح.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يلبس ما وجده) حاضرا عنده من غير تكلف. **(فلبس في الغالب الشملة)** وهي كساء يشتمل به، وقيل: يختص بماله هدب. وقال ابن دريد: هو كساء يؤتزر به وهي البردة، وأما تسمية العوام ما يلف على الرأس شملة فلا أصل له.

(والكساء الخشن) أي الكسوة الملبوسة والكساء قريب من البرد وخشن بزنة حذر ضد اللين والرقيق. **(والبرد الغليظ)** البرد بضم أوله ثوب فيه خطوط ومطلق الثوب، ثم أشار إلى أن هذا ليس من عجزه صلى الله تعالى عليه وسلم عن فاخر الألبسة، بل لعدم ميله لها فقال: **(ويقسم)** مما عنده من الغنائم والهدايا. **(على من حضر عنده أقبية الديباج المخوصة بالذهب)** الأقبية: جمع قبا وهو المخيط من اللباس، والديباج نوع من أقبية الحرير، معرب ديبا بالدال المهملة فيهما بكسر داله وقد تفتح، والمخوصة بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وتشديد الواو يليها صاد مهملة وهاء أي منسوخة بأعلام من ذهب كالخوص، وفعل يأتي للتشبيه كثيرا فلا وجه لإنكارهم، مسرج بمعنى كالسراج في كتب المعاني، و قيل: ههو المكفوف بالذهب أو المطوق أو المزرور به، أما نفقته صلى الله تعالى عليه وسلم في مأكله فكان التمر والماء وحده، فكان يمضي عليه الشهر لا توقد في بيته نار، وهو يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا أو كفافا». وملبسه في الأكثر أكسية الصوف الغليظة الخلقة مع أنه لبس ثياب الكتان والقطن أيضا حسبما اتفق له، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم حلة حمراء وبرد أحمر يلبسه في العيدين، وعند قدوم الوفود عليه، وكانت له صلى الله تعالى عليه وسلم جبة ضيقة الكمين، وكان أحب اللباس إليه القميص القصير الكمين فوق الكعبين مساو كمه لأطراف

أصابعه، وكانت عمامته قصيرة صغيرة كما بيناه فى «الثمامة فى صفة العمامة»، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم قلنسوة وقسمته صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذكر مروية فى البخارى، وهذا إما أن يكون قبل تحريم الحرير والذهب، أو كان يقسمه ليباع، أو يعطى ذلك للنساء.

(ويرفع لمن لم يحضر): يرفعها من مجلسه حتى يعطيها لمن لم يحضر القسمة، وهو إشارة لقصة مخرمة التى رواها الشيخان عن مسرور بن مخرمة قال: قال لى أبى: يا مسور بلغنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جاءته أقبية فاذهب بنا إليه، فذهبنا فوجدناه فى منزله، فقال: ادعه لى فأعظمت ذلك، فقال: يا بنى إنه ليس بجبار، فدعوته صلى الله تعالى عليه وسلم فخرج ومعه قباء من ديباج مزرور بالذهب، فقال: «يا مخرمة خبأت لك هذا»(١) فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم يريه محاسنه، ثم أعطاه له فنظر إليه وقد رضى. وكان فيه شدة واستئثار.

(إذ المباهاة) أى إظهار الفخر باللباس والعجب به والتزين، وأصل معنى المباهاة المفاخرة فنزل ذلك بمنزلتها **(فى الملابس)** جمع ملبس وهو واللباس بمعنى. **(والتزين بها)** أى إظهار الزينة بالملابس. **(ليست من خصال الشرف والجلالة)** أى المغالات فى ذلك وإظهاره ليس مما يعد شرفا ولا مما يقصده الأشراف. وقال الفقهاء رضى الله تعالى عنهم: ليس الثوب الجميل للتزين مباح فى الجمع والأعياد ومجامع الناس، وما يستر العورة ويدفع الحر والبرد واجب، وما فيه جمال لصاحبه مسنون بشرط أن لا ينوى به العظمة والزينة، بل إظهار نعمة الله وتعظيم من يجتمع لملاقاته. وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يفعله، وقلت فى ذلك:

نصيحة لطيفه قالت بها الأكياس
كل ما اشتهيت والبس ما تشتهيه الناس

(و) إنما **(هى من صفات النساء)** أى والمباهات والتزين إنما يقصده النساء ومن فى حكمهم كالأطفال، وأكثر ما رأينا ذلك فى محدث النعمة ومن لا قدر له. **(والمحمود منها)** أى ما يحمد منها عند الله وعند الناس ومن صفات الملابس. **(نقاوة الثوب)** بفتح النون وضمها أى كونه نقيا من الوسخ والنجاسة، وهو مصدر ويهمز فيقال نقاءة بمعنى نقاء، و فى البستان: يستحب للرجل الذى له مروءة وعلم أن تكون ثيابه نقية من غير كبر. ورأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا وسخت ثيابه فقال: «أما وجد هذا

(١) أخرجه البخارى (٧/ ٢٠٠).

شيئا ينقى ثيابه»[١]. وقال أيضا: «ما على الرجل حرج أن يتخذ ثوبين سوى ثوبى مهنته»[٢]. وفى المثل: «المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهرة». وقال البرهان: النقاوة بضم النون الخيار والظاهر هنا فتحها وهى النظافة كالنقاء بزنة السخاء.

(والتوسط فى جنسه) أى المحمود فى اللباس استعمال الوسط منه، فلا يكون نفيسا جدا ولا خسيسا. **(وكونه لبس مثله)** بضم اللام بمعنى اللازم أى كونه مما يلبسه أمثاله من جنسه فينبغى أن يوافق أقرانه فى لباسه، فلا يخالفهم فيوقع الناس فى الفتنة. ونهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الشهرتين فى اللباس المرتفعة جدا والمنخفضة جدا. وقال مبارك الموصلى: أكثر الناس فى مدح الملابس وذمها، واللازم أن يلبس كل أحد على قدر حاله، فلا يلبس الغنى ما هو دون حاله، ولا الفقير ما هو فوق حاله، ولا يتزيى العالم بزى الجاهل، ولا الجاهل بزى العالم. وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يشبه الزى بالزى حتى يشبه القلب بالقلب»[٣] وإلى ماذكرناه أشار بقوله: **(غير مسقط لمروءة جنسه)** أى مما يعد مسقطا لمروءة أمثاله.

(مما لا يؤدى إلى الشهرة فى الطرفين) أى غاية التعظيم وغاية الخسة فيكون بين بين، وخير الأمور أوسطها. والشهرة: اسم من الاشتهار وهو الظهور بين الناس لامتداد النظر لما لم يعهد. قال النووى: كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجياد والثياب الرذلة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا، وبهذا ورد الحديث، فلبس المرقعات أمر مكروه شرعا، وربما يكون حراما إذا قصد إظهار الزهد للطلب كما تراه اليوم. وما نهى الشرع عنه كالحرير خارج مما نحن فيه، وأما توسيع الأكمام كما يفعله الفقهاء فمخالف للسنة كتكبير العمائم. وقد قال ابن الحاج: إنه مكروه وبدعة قبيحة وسرف وتضيع للمال. إلا أن ابن عبد السلام والسبكى قالا: إذا كان ذلك شعارا للعلماء يندب ليعرفوا فيسألوا ويطاعوا، فإذا كان كذلك فى نفس الأمر لا يسقط المروءة. وقال السبكى: إنه استنبطه من الآية فى نساء النبى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩] ومثله لباس الخضرة للأشراف، فاختار علماء الشافعية أنه سنة وليس من الشهرة المنهى عنها لأهله. ولبس ثياب الفقراء مع القدرة على غيرها ليروج حاله عند الظلمة ويجعله مكتسبا له منهى عنه، وفى الحديث: «من لبس ثوب شهرة فى الدنيا

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٥٦/٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٦)، وابن حبان (٥٦٨)، وابن خزيمة (١٧٦٥)، والبيهقى (٢٤٢/٣).

(٣) انظر: تذكرة الموضوعات (١٩٣)، وتنزيه الشريعة (٣١٢/٢).

ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة»[1]. **(وقد ذم الشرع ذلك)** كما عرفته، وذلك إشارة إلى المباهاة فى الملابس والتزين بها.

(وغاية الفخر فيه عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجودة ووفور الحال) يعنى أن كثرة المال والملابس عند العقلاء غير محمودة؛ لأنها مذمومة شرعا غير مقصودة لذاتها. وأما العوام فيفتخرون بكثرتها وتعددها، حتى رأينا بعض الحمقاء يلبس فى المجلس الواحد ألوانا من الثياب. والغاية: النهاية وأصلها غيية بيائين أعلت أولاهما لتحصن الثانية بتاء التأنيث. وكثرة الموجود المراد به ما عنده من المال ونحوه. ووفور الحال المراد به قوة حاله وقدرته على ما لا يقدر عليه غيره، فالوفور على ظاهره أو بمعنى القوة.

(وكذلك التباهى) أى مثل التفاخر بما ذكر التفاخر **(بجودة المسكن)** أى حسنه بحسن بنائه وزخرفته وعلوه. والجودة: بفتح الجيم وجوز ضمها ابن رسلان وهو كذلك فى القاموس. **(وسعة المنزل)** لأنه مما يمتدح أهل الدنيا به، وقد قالوا: خير المنازل ما يسافر فيه النظر. وقد قالوا: الدار الضيقة العمى الأصغر. ثم اتبع ذلك بما يتبعه فقال: **(وتكثير آلاته)** آلات جمع آلة، والآلة ما يصنع به الأعمال كالقدوم للنجار، والإبرة للخياط. والمراد به هنا لوازمه كالفراش وأوانيه.

(وخدمه) جمع خادم، وفعل بفتحتين جمع سمع منه ألفاظ معدودة. **(ومركوباته)** كالخيول والبغال وغيرها، وإضافتها للمنزل لأدنى ملابسة، أو لأنها فيه، فمثل هذه الأمور لا يفتخر بكثرتها إلا ذوو العقول السخيفة ومن له حرص على حطام الدنيا.

(تنبيه) لا يكره البناء للحاجة وإن طال، والأخبار الدالة على منع ما زاد على سبعة أذرع، وأن فيه الوعيد الشديد محمولة على من فعل ذلك للخيلاء والتفاخر على الناس، ويكره الزيادة عليها لغير حاجة، أى من حيث القدر. وفى معناه على ما هو الظاهر ما لا تدعو الحاجة إليه من حيث الوصف، كأن يتخذ بيتا من نحو العنبر والعود والدر.

فإن قلت: يشكل ذلك بأن الظاهر أنه لا كراهة فى تناول نفس الأطعمة والملابس على ما تقدم؟.

قلت: يفرق بأن النفيس منهما قد ينفع البدن أو يحتاج إليه لمصلحة بخلاف المسكن، لأن كل ما زاد منه على ما يدفع نحو الحر والبرد لا مصلحة فيه للبدن، وهل تختص كراهة ما زاد على الحاجة بالبناء حتى لا يكره شراء ما زاد منه على الحاجة؟ فيه نظر.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٢/٢)، وأبو داود (٤٠٢٩)، والترمذى (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، والحاكم (٥٠٧/١).

ولا يبعد عدم الفرق نظرا للمعنى، نبه عليه شيخنا ابن قاسم رحمه الله، ثم بين المصنف أن النبى حائز للفضيلة المالية أيضا، وواصل منها ما لم يصل إليه غيره، ولذا قالوا: لا يجوز أن يقال فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فقير على ما سيأتى فى آخر الكتاب.

(ومن ملك الأرض) بتمليك الله إياها له، فلو أراد ملكها من المشرق للمغرب يسره الله له فى طرفة عين، وقد خيره الله تعالى بين الملك والعبودية فاختار العبودية كما مر. **(وجبى إليه ما فيها)** أى جمع له ما فيها من الغنائم وجزيتها وصدقاتها مما فتح فى زمانه. **(فترك ذلك)** أى المال المجبى **(زهدا وتنزها)** أى لأجل الزهد والتنزه عن قبوله، والزهد هو الترك لأجل الله، فالزهد أخص من الترك وكلاهما مفعول لأجله، ويجوز جعلهما تمييزا والزهد الرغبة عن الدنيا مع القدرة عليها رغبة فى الآخرة، ولا يتصور ممن لا مال ولا جاه، وقيل لابن المبارك: يا زاهد. فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدت حجة على. وهو من أعلى المقامات. وفى الحديث: «ازهد فى الدنيا يحبك الله» ويقال: زهد فيه وعنه.

وقوله: **(فهو حائز)** جواب من أو خبرها. وحائز: بالحاء المهملة والزاء المعجمة أى جامع ومحصل. **(لفضيلة المال)** أى من كان كذلك حاز فضيلة المال التى يفتخر بها أهل الدنيا وقادر على التنعم والتلذذ بها إلا أنه لا يريد ذلك.

(وملك للفخر بهذه الخصلة) المالية إلا أنه لا يفعله كأهل الدنيا. وقيل: المراد خصلة الزهد والتنزه وهذا هو الذى يلتئم مع قوله: **(أن كانت فضيلة زائدا عليها فى الفخر)** أن بفتح الهمزة مفسرة بمعنى أى، كما قال التلمسانى رحمه الله تعالى، وهو تحقيق وإثبات للفضيلة التى حازها من الزهد والتنزه عن الدنيا الفانية. وكان تامة أو ناقصة والتقدير كانت تلك فضيلة زائدة على فضيلة المال، ولكن الظاهر أن يقول: زائدة وزائدا على هذا منصوب صفة. وقيل: إن صح نصبه فهو حال من فاعل حائز. وقال بعض الشراح: فيه دليل على عدم الجزم بكونها فضيلة، وفيه نظر إذ لا يتحقق الكرم بدونها قطعا، وهذا مبنى على أن إن شرطية مكسورة الهمزة، وهو مبنى على أن المراد بالخصلة المالية لا الزهد. وفى الشرح الجديد: ما ذكر من نصب زائدا على الحالية إن صحت روايته، فإنه فى بعض النسخ مرفوع ومعرق الآتى مرفوع فى جميع النسخ، وعندى أن نصب زائدا على أنه حال من فاعل ملك لا حائز، أى هو مالك للفخر بهذه الخصله حال كونه زائدا عليها فى الفخر لعدم التفاته لها واكتراثه بها، فهو فى ملكها غير مساو لغيره ممن ملكها، وفخره بهذه الفضيلة على تقدير كونها فضيلة، ليس مساويا لفخر من افتخر

بها فقد ملكها حالة كونه زائدا على سائر ملاكها بإعراضه عنها، فزائدا وصف له صلى الله تعالى عليه وسلم والأولى أنه صفة مصدر هو مفعول مطلق لمالك، أى مالك ملكا زائدا على هذه الفضيلة بإعراضه عنها. انتهى. وهذا محصل ما فى جميع الشروح وقوله: «فى الفخر» متعلق بقوله زائدا.

وأقول: لا يخفى أن هذا كله كلام مظلم لا ينور به كلامه، وتحقيقه أن يقال: هو مبتدأ حائز خبره، ومالك معطوف عليه وإن مكسورة شرطية، وكانت ناقصة اسمها ضمير للفضيلة أو للمالية. وفضيلة: منصوب خبرها وقوله زائدا خبر ثالث، والخبر إذا تعدد يجوز عطف الجميع وترك عطفها وعطف بعضها دون بعض، كالصفات، وترك العطف فيه؛ لأنه ليس من جنس ما قبله؛ لأن الفضيلة الدنيوية ليست من جنس ما زاد عليها فى الفخر والفضيلة، لأن الأول أمر دنيوى لا فخر فيه باعتبار ذاته، بل باعتبار ما يترتب عليه إذا صرف فى وجوه الخيرات من الثواب ونصرة الدين، ولذلك أتى فيه بأن الشرطية؛ لأنه لكونه ذا وجهين إذ لا فضيلة له بحسب ذاته فيترائى أنه لا فضيلة له أصلا، فإن نظر المال يترتب عليه فله فضيلة لكنها لكونها غير ذاتية، كأنها غير محققة أى هو زائد على تلك الفضيلة المالية فى فخره بالأمور الدنيوية لو أراد ما الزيادة ما يأتيه لو بقى على ما عند غيره، أو لكونه مكسبه طيبا ومصرفه فى محله، وفيه من الفوائد ما لا يتيسر لغيره. فحاصل المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حاز من الغنى وفضل المال والفخر به، وإن لم يعبأ به ما لم يحز بعضه غيره، ولذا قال بعض العرب كما سيأتى: إن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخاف الفقر. وزاد غناه على غنى غيره فوائد لا تتيسر لغيره، ويجوز نصب زائدا على أنه حال من ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم، وما مر من أنه لا يتحقق الكرم بدونه فكيف لا يكون فضيلة ليس بشىء، فإن المراد أنه ليس فيه فضيلة ذاتية وما ذكره لا ينافيه كما لا يخفى.

(ومعرق فى المدح) بضم الميم وسكون العين المهملة وكسر الراء المخففة وفتحها مع التخفيف والتشديد والأول هو القياس، من أعرق الرجل والشجر إذا اشتدت وامتدت عروقه، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أصل فى الكرم والحسب. قال[1]:

أمحمد يا خير ضنى كريمة   فى قومها والفحل فحل مثرق

وقد يقال فى اللوم تهكما وعرق الثرى أدم. قال امرئ القيس:

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى لسان العرب (١١٢/١)، تاج العروس (٣١٧/١)، وبلا نسبة فى جمهرة اللغة (ص١٠٧٨).

إلى عرق الثرى وشجت عروقــي

وهو مرفوع معطوف على قوله زائد، فإن نصب نصب، يعنى أن الناس تتمدح بالمال بكثرة جمعه، وكذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جمع له ما جمع لأهل الدنيا وهو زائد عليهم فى ذلك، وأصيل فى المدح بذلك لأنها لا قيمة لها عنده، كما أشار إليه بقوله: **(بإضرابه عنها)** أى بسبب إعراضه عن الجهة المالية **(وزهد فى فائقها)** بالفاء ومثناة تحتية ثم فوقية أى يزهد فيما هو فائت منها، أى ذاهب، كما قال تعالى: ﴿**تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣] وفى بعض النسخ فانيها بنون بعد الألف. **(وبذلها)** بموحدة وذال معجمة أى إعطائها.

(فى مضانها) من الضنة بالضاد المعجمة والنون، أى يجود صلى الله تعالى عليه وسلم فى محال تبخل فيها الناس. كذا ضبطه وفسره التلمسانى وهو فى غاية الحسن والظهور. وضبطه البرهان الحلبى بالظاء المشالة وعليه الرواية فى أكثر النسخ جمع مظنة بالكسر وهى الموضع الذى يظن كونها فيه، فالمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يبذلها فى محلها الذى يرجى فيه كمحال البر والصدقة.

* * *

(فصل وأما الخصال المكتسبة)

أى الصفات الحميدة التى ليست ضرورية ولا طبيعية **(من الأخلاق الحميدة)** من هنا تبعيضية أو بيانية **(والآداب الشريفة)** جمع أدب وهو الأفعال المستحسنة فى معاملة الناس ومخالطتهم. **(التى اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها)** أى من قامت به. **(وتعظيم المتصف)** واتصف بها. **(بالخلق الواحد منها)** أى يمدح بكل واحد منها منفردًا **(فضلا عما فوقه)** أى عما زاد على الواحد منها، وفضلا يفيد أن ما بعده أولى بالحكم مما قبله، كقولهم: فلان لا يملك درهمًا فضلاً عن دينار. ولابن هشام فيه رسالة مستقلة فى بيان إعرابه ومعناه، وهى مشهورة إلا أنهم قالوا: إنها تلزم الوقوع بعد نفى صريح أو مأول، كقوله:

قلما يبقى على هذا القلق صخرة صماء فضلا عن رمق

لأن قل ورد بمعنى النفى لأن القلة أخت العدم، ولا يختص هذا بكونها مكفوفة كما قاله ابن هشام، والمصنف استعملها هنا فى الإثبات؛ لأن معنى الواحد الذى لا يتعدد فلا إشكال فى كلامه. **(وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها)** فيدل الثناء عليها على حسنها والأمر على أنها مكتسبة، وإلا لم يكن للأمر بها فائدة. وفيه دليل على جواز تغير

الطباع وتبدلها. وقوله والطبع فى الإنسان لا يتغير مأول أو أكثرى. **(ووعد للسعادة الدائمة)** منصوب بنزع الخافض أى وعد بالسعادة أو هو مضمن معنى أعطى. **(للمتخلق بها)** أى الذى اتخذها خلقا واتصف بها إذا قصد بذلك وجه الله، وليس المراد المتكلف المتصنع بإظهار ما ليس فيه فإنه مذموم كما قيل[1]:

يا أيها المتحلى غير شيمته   إن التخلق يأبى دونه الخلق

(ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة) كما ورد فى الحديث: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزأ من النبوة». وورد فى حديث آخر: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمس وعشرين جزأ من النبوة». وهذا هو الذى أشار إليه المصنف، أى هذه الخصال من شمائل الأنبياء وفضائلهم عليهم الصلاة والسلام، وليس معناه أن النبوة تتجزئ أو تكتسب بجمع هذه الخصال، لأنها كرامة يخص الله بها من يشاء من عباده.

(وهى المسماة بحسن الخلق) قيل: أطلق عليها خلقا لكونها ناشئة عنه، وإلا فحسن الخلق هيئة للنفس باعثة على الأفعال الحسنة والشيم الشريفة، وهنا أربعة أمور صدور الفعل الحسن، والقدرة عليه، ومعرفته، والهيئة الحاملة للنفس على صدور ذلك عنها. وليس حسن الخلق عبارة عن الأول لأن ذلك قد يصدر عنه تكلفا أو رياء ونحوه، ولا عن الثانى لأن تعلق القدرة بالسئ والحسن على السوية، ولا عن الثالث لذلك فتعين الرابع انتهى. وقيل: إن المصنف جعل الخصال الحميدة حسن خلق وجعلها مكتسبة، فإنها كسبية فى أول أمرها ثم يصير سجية وطبيعة وهو مبنى على الأصح من أن الأخلاق مكتسبة قابلة للتغير كما عليه المحققون. والخلق هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة، ثم أطال بما لا طائل تحته، والثمرة تدل على الشجرة فكن على بصيرة.

(وهو) أى حسن الخلق **(الاعتدال فى قوى النفس وأوصافها)** قوى جمع قوة وليست الشدة وضد الضعف كما توهم، بل الأمور المذكور فى الخلق كما يسمى المتخيلة قوة ونحوها من سائر القوى النفسية، واعتدال القوى أن لا تخرج إلى حد الإفراط والتفريط، فاعتدال قوة العقل يعبر عنه بالفطنة والكياسة، فإن مالت إلى الإفراط تسمى مكرا وخداعا، وإن مالت إلى التفريط تسمى بلها وحمقا. وكذا إذا اعتدل قوة الغضب تسمى شجاعة، فإن أفرطت فهى تهور، وإن مالت إلى التفريط تسمى جبنا، فطرفا كل قوة

---

(١) البيت من البسيط، وهو لسالم بن وابصة فى لسان العرب (٨٧/١٠)، تاج العروس (٢٦١/٢٥)، شرح ديوان الحماسة (ص٧١٠).

مذموم، والاعتدال هو الوسط المحمود، وهو المعبر عنه بحسن الخلق، كما أشار إليه بقوله:

(**والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها**) منحرف بكسر الراء من إضافة الصفة إلى موصوفها، أى أطرافها المنحرفة، والمنحرف بمعنى المائل والمراد بالأطراف ما بيناه، ويجوز فتح رائه على أنه مصدر ميمى بمعنى الانحراف والأول أولى.

(**فجميعها**) أى جميع الخصال الحميدة. (**قد كانت خلق نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم**) أنث ضمير جميع لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه. (**على الانتهاء فى كمالها**) حال من ضمير كانت أى مستقرة تلك الأخلاق الحسنة على انتهاء الكمال بتشبيه تمكنها واستقرارها بتمكن الراكب على مركوبه، كما تقرر فى قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ [البقرة: ٥].

(**والاعتدال إلى غايتها**) معطوف على كمالها، أى وصلت إلى غاية الاعتدال والسداد. (**حتى**) غاية للغاية (**أثنى الله عليها بذلك فقال:** ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم:٤]) أى مستقر ثابت على خلق يستعظمه كل واقف عليه لحسن مداراته، وتحمل أذى قومه وملاطفته لهم، كما تضمنه قوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٩٩].

(**قالت عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه**) أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم متمسكا بأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب لا يتعداها، فيرضى بكل ما يرضى الله ويسخط بكل ما لا يرضاه كل ذلك لله لا لحظ نفسه. وقال السهروردى قدس الله روحه فى «عوارف المعارف»: فى كلام الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنهما سر غامض، وذلك أن النفوس البشرية مجبولة على طبائع وصفات شيطانية وبهيمية وسبعية، وإلى الأولى أشار بقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ [الرحمن: ١٤] لدخول النار فى الفخار. ﴿**وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**﴾ [الرحمن: ١٥] والله بعظيم عنايته نزع حظ الشيطان منه، كما ورد فى حديث شق صدره فبقيت نفسه الزكية على حد النفوس البشرية مبقاة فيها أمهات تلك الصفات، إلا أنها فى غيره ممتزجة بظلمة الطبائع لتفاوت حاله عن حالهم، فتنزل الآيات لقمعها تأديبا من الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة خاصة به وعامة للأمة موزعة على الأوقات عند ظهور الصفات، كما قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾ [الفرقان: ٣٢] فثبت فؤاده بها عند ظهور بعض الصفات لارتباطه بنفسه، فعند كل اضطراب تنزل آية لمصالح سنية

كما وقع فى أحد إذ شج صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم»(١) فأنزل عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فلبس قلبه لباس الاصطبار وفاء بعد الاضطراب إلى القرار، فلما توزعت الآيات على تلك الصفات بحسب الأوقات صفت الأخلاق النبوية بالقرآن، وفى إبقاء أمهات تلك الصفات تهذيب للأمة وتأديب لنفوسهم، ولا يبعد أن يقال فى كلامها رضى الله تعالى عنها رمز وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله، وعبرت بقولها: كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطيف المقال، ولوفور علمها وكمال أدبها رضى الله عنها. انتهى.

ولا يخفى أن خلقه فى كلامها اسم كان والقرآن خبرها، وما قيل من أنه على العكس يضبط النسخ الصحيحة ويجوز بحسب العربية عكسه؛ لأنهما معرفتان لا وجه له، فإن خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم معلوم والذى قصد إثباته إنما هو بيان حاله، وما تخلق به، وهذا مما اتفق عليه النحاة وأهل المعانى، فالوجه هو الأول. وهذا الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة بتمامه، والسخط ضد الرضى وقد يقابل الرضى بالإكراه فله معنيان، وعليه مبنى الخلاف فى رضى الله تعالى بالكفر وعدمه كما فصلناه فى حواشى البيضاوى.

وقوله: **(قال عليه الصلاة والسلام: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** حديث صحيح رواه أحمد عن معاذ، والبزار عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بهذا اللفظ. ورواه مالك فى الموطأ وغيره بغير هذا اللفظ. ومكارم الأخلاق كانت موجودة قبله لاسيما فى العرب فتممها صلى الله تعالى عليه وسلم بشريعته السمحة، وزاد فيها ما لم يسبق إليه وجمع ما تفرق منها فيه وفى أمته، فهذا على حقيقته وليس من قبيلى قولهم ضيق فم الركية كما لا يخفى.

(قال أنس رضى الله تعالى عنه: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس خلقا») وهو حديث صحيح رواه الشيخان. وقال الحليمى: وصف خلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه عظيم فى الآية والغالب وصفه بالحسن كما فى هذا الحديث، لأن حسن الخلق وكرامة يراد به اللين والسماحة، ولم يكن خلقه مقصورا على ذلك، بل كان رحيما رؤفا بالمؤمنين عائدا على الكفار مهيبا فى صدورهم، فكان وصفه خلقه بالعظم أولى ليشمل الإنعام والانتقام، ولذا أردفه المصنف رحمه الله تعالى بحديث أنس خادم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى مسلم عنه: «خدمت النبى صلى الله

(١) أخرجه البخارى (١٢٧/٥)، ومسلم (١٧٩١/١٠٤)، وأحمد (٢٠٦/٣)، وابن ماجه (٤٠٢٧).

تعالى عليه وسلم عشر سنين والله ما قال لى أف قط».

(وعن على بن أبى طالب مثله) أى روى عن على كرم الله وجه مثل ما قاله أنس رضى الله تعالى عنه كما ذكره أبو عبيد فى الغريب. **(وكان)** صلى الله تعالى عليه وسلم **(فيما ذكره المحققون مجبولا)** أى مخلوقا مطبوعا **(عليها)** أى على مكارم الأخلاق. **(فى أصل خلقته وأول فطرته)** التى فطره الله تعالى عليها، أى من غير تكلف ولا تعلم.

(ولم تحصل باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهى وخصوصية) بفتح الخاء وضمها **(ربانية)** منسوبة للرب على خلاف القياس. **(وهكذا)** أى مثل هذا من جمع مكارم الأخلاق فطرة ثبت **(لسائر الأنبياء)** عليهم الصلاة والسلام، أى لباقيهم أو لجميعهم أنهم مجبلون على مكارم الأخلاق وحسنها، وأما غيرهم فبعضها فيهم فطرة وجبلة وبعضها مكتسب، وأما الخلاف فى الأخلاق هل هى جبلية أو كسبية فليس هذا محله كما ذكره بعضهم، والحق أن بعضها جبلى وبعضها مكتسب، والجبلى: لا يقبل التغير والزوال كما سبق تفصيله، وفى قوله فيما ذكره المحققون إشعار بأن خلافهم ذهب إلى أنها كسبية فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيعلم حال غيرهم بالطريق الأولى، ولذا اعترض عليه بأنا لا نعلم خلافا فى ذلك، وخلط بعض الشراح هنا فأدخل نفس النبوة فى كلامه وجعل هذا إشارة إلى مذهب الحكماء فى أن النبوة تحصل بالرياضة والتصفية ولا حاجة لمثله من التكلف، فإن مراده الإشارة إلى الخلاف فى مطلق الأخلاق والفضائل النفسية كما ذكرا فى كتب الأخلاق، وهو أشار من أن يذكر.

(ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك) أى كونها خلقية جبلية، وإنما قيد بقوله: «إلى مبعثهم» لأن بعد البعثة ونزول الوحى لا يظهر كونه جبليا لتعليم الله تعالى له ذلك بأخبار ملائكته عليهم الصلاة والسلام، فلا تقوم الحجة على من يقول إنه جبلى حينئذ، أما قبله فأمره ظاهر لا يشتبه.

(كما عرف من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم الصلاة والسلام) قيل: إنما خص هؤلاء بالتمثيل لما اشتمل عليه موسى وسليمان من الشهامة، ويحيى وعيسى من الانقطاع عن الخلق والسياحة، ولذا قدم عيسى على موسى وهو قبله، ويحيى على سليمان أو لذكره أخبار هؤلاء فى الطفولية، وهذا الثانى هو الحق فإن هؤلاء وقع منهم أمور فى طفولتهم وأمور الطفولية جبلية من غير شبهة، كما أشار إليه بقوله:

(بل غرزت فيهم هذه الأخلاق فى الجبلة وأودعوا العلم والحكمة فى الفطرة) غرزت **بالبناء للمجهول**، وأصل معنى الغرز إدخال شىء فى شىء، فكأن الطبيعة أدخلت فيهم،

ومنه الغريزة وهى الطبيعة. وقال البرهان: معنى غرزت خلقت والفطـرة الخلقـة، وفـاطر السموات بمعنى خالقها، وأودعوا مجهول أيضا من الوديعة ففيه استعارة مكنيـة وتخييليـة، وما ذكره من الترتيب فى النسخ عندنا ما يخالفه وسيأتى من المصنف رحمه الله تعالى ما يعين ما قلناه.

(قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]) الحكـم والحكمـة مـن الحكـم وهو المنع، ومنه الحكمة بفتحتين سمى به لمنعه من الفساد وكل ما لا ينبغى، واختلف فى تفسيرها هنا. **(فقال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله تعالى)** يعنى التوراة **(فى حال صباه)** إشارة إلى قوله ﴿صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فى الآية حال، وهذا أحد التفاسير فيها. وقيل: هو الفهم والعلم. وقيل: هو النبوة. وعن ابن عباس رضى الله عنـهما: «كـل مـن قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتى الحكم صبيا» وعلى تفسيره بالنبوة فـالمراد أنـه لظـهور آثارها كأنه أوتيها، فهو مجاز بناء على أن الله تعالى لم ينبئ صبيا قـط، وكـذا وأن قـول عيسـى عليـه الصـلاة والسـلام وهـو طفــل: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم:٣٠] وقيل: الحكم العمل مع العلم.

(وقال معمر) بن راشد **(كان)** أى يحيى عليه الصلاة والسـلام **(ابـن سـنتين أو ثـلاث)** وفـى بعـض النسـخ ابـن معمـر والصـواب معمـر بـدون ابـن، وتقـدم أن معمـر بميمـين مفتوحتين: بينهما عين مهملة ساكنة وراء مهملة وهو معمر بن راشد أبو عـروة الأزدى المهلبى مولاهم، عالم اليمن، روى عن الزهـرى وغـيره، وروى عنـه كثير، وأخـرج لـه الأئمة الستة، وهو ثقة إلا أن له أوهاما تحتمل فى جنب سـعة علمـه، توفـى سـنة ثـلاث وخمسين ومائة باليمن وله ترجمة فى الميزان، وقوله: «ابن سـنتين أو ثـلاث»، قيـل: هـذا غريب فى الرواية، والأصح أنه كان ابن ثمان. وقيل: لا غرابة فيه فإنه منقـول عـن قتـادة ومقاتل من طرق، والغريب ما انفرد به رواية فكيف يكون غريبا.

(فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: ما للعب خلقت) قال السـيوطى: رواه الديلمـى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ولم يسنده، والحاكم فى التـاريخ عـن ابـن عبـاس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا وسنده واه، وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبـى حـاتم فـى تفسيره عن معمر قال: بلغنى فذكره، والاستفهام إنكارى فـى معنـى النفـى ولـذا روى: «لم أخلق للعب» والمشهور أنه لم يبعث الله تبـارك وتعـالى نبيـا طفـلا، بـل روى أنـه لم يبعث نبيا قبل الأربعين، فقيل: هو المطرد وهذا نادرا لا يرد نقصا. ومن الغريب ما قيـل: إن الله عز وجل خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بالغا عاقلا وإن كان فى صورة طفـل كما خلق آدم عليه الصلاة والسلام، حتى قيل: إنه ألهم التوراة فى بطن أمه. وروى عـن

الحسن فلا حاجة لتأويل ما ورد فيه بالتأويل المشهور.

(وقيل فى قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٣٩]) صدق يحيى بعيسى عليهما الصلاة والسلام لأنه أوجد بدون أب فشابه ما أبدع من عالم الأمر، كما قاله البيضاوى، أو لكونه أوجد بكلمة كن، أو لاهتداء الناس به كما يهتدون بكلام الله، كما سمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكرا رسولا كما قاله الراغب. وقال الصدر القنوى فى نفحاته: لصورة كل شيء فى عرضة العلم الإلهى الأزلى مرتبتة الحرفية، فإذا صبغه الحق بنوره الوجودى الذاتى، وذلك بحركة معقولة معنوية يقتضيها بشأن من الشئون الإلهية المعبر عنها بالكناية تسمى صورة، ومعلومية الشيء المراد بكونيته، وبهذا الاعتبار سمى الله الموجودات كلمات، سمى عيسى كلمة، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] أى الأرواح الطاهرة. انتهى. وهذا يحتاج لذوق شهودى فافهم، ولا حاجة لجعل من زائدة على هذا كما قيل.

(وهو) أى يحيى عليه الصلاة والسلام **(ابن ثلاث سنين يشهد له أنه كلمة الله وروحه)** قد بينا معنى كونه كلمة الله، وكان يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ابنا خالة كما مر، ويحيى أكبر سنا منه، وإطلاق روح الله تعالى عليه، إما لأن جبريل عليه الصلاة والسلام المعنى بالروح نفخ فى درع أمه، فتكون من نفخته فإضافته إلى الله إضافة ملك وتشريف، أو لأنه خلقه من غير واسطة بشر ولذا وقع النصارى فيما وقعوا فيه. وعن كعب: أن الله خلق أرواح بنى آدم قبل أجسادهم لما أخذ عليهم الميثاق، فأمسك روح عيسى عليه الصلاة والسلام، فلما أراد خلقه أرسلها لمريم فلذا كان روحانيا. وقيل: الإضافة للتشريف كبيت الله كما علم، وقيل: معنى روح الله نعمة الله؛ لأن الروح تطلق على النعمة. وفى صحيح البخارى مسندا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة»(١).

(وقيل: صدقه) يحيى عليه الصلاة والسلام **(وهو فى بطن أمه فكانت أم يحيى تقول لمريم: إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له)** منصوب مفعول له أى سجوده له سجود تحية وتعظيم لا عبادة، وكان السجود مما يعظم به المخلوق قبل الإسلام. وهذا الحديث رواه أحمد وابن جرير عن مجاهد من طرق متعددة فهو حديث صحيح، إلا أنهم لم يرفعوه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومثله لا يقال من قبل الرأى فهو فى حكم

(١) تقدم تخريجه.

المرفوع، قالوا: وهذا هو المراد بقوله مصدقا بكلمة من الله، وهذا يقتضى أن حمل مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام طالت مدته، وفى تلك المدة اختلاف، وقيل: إنها ولدت فى ساعة نفخ الروح.

(وقد نص الله على كلام عيسى عليه الصلاة والسلام لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: لا تحزنى) وهذا أحد من تكلم فى المهد وفى عدتهم خلاف، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وصاحب جريج، وغلام كان يرضع فى حجر أمه ومر عليه الصلاة والسلام، وصاحب جريج، وغلام كان يرضع فى حجر أمه ومر عليه راكب فقالت أمه: اللهم اجعل ابنى مثله فقال: اللهم لا تجعلنى مثله»[(١)]. وظاهره الحصر إذ لم يذكر معهم الصبى المذكور فى حديث الساحر الذى قال لأمه: اصبرى فإنك على الحق، وهو فى صحيح مسلم. وأجيب بأنه لم يكن فى المهد وإن كان صغيرا لم يبلغ حد التكلم، ورد بأن ابن قتيبة حكى أنه ابن سبعة أشهر، فلعله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما اطلع أولا على ثلاثة، ثم أطلعه الله بعد ذلك على غيرهم لثبوته فى صحيح مسلم كما علم. وقالوا: تكلم فى المهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ذكره البغوى والقاضى فى التفسير، وروى أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم تكلم فى المهد وهو عند حليمة السعدية، وأول كلمة تكلم بها: الله أكبر. وحكى عن الواقدى وشاهد يوسف كما حكاه القرطبى، وقيل: إنه كان رجلا، وابن ماشطة ابنت فرعون كما فى مسند أحمد، وفيه زيادة لقوله ابن ماشطة ابنة فرعون، وروى الضحاك تكلم يحيى عليه الصلاة والسلام فى المهد أيضا، ومبارك اليمامة الذى كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الدلائل، فهم أحد عشر كما فصله البرهان الحلبى رحمه الله، ونظم غالبهم القائل فى قوله:

إذا رمت سرد الناطقين بمهدهم	فمنهم رسول الله أحمد ذو المجد
خليل ويحيى ثم عيسى وطفل من	دعت لابنها فورا كذى شارة فرد
فقال ألا لا تجعلنى مثله	ورد عليها قولها أفصح الرد
كذاك الذى قد قال إن جريجنا	برئ فلا ترموه بعدُ بما يردى
ومنهم نجيب كان يدعى مباركا	وقال رسول الله قد جاء بالرشد
وماشطة كانت لفرعون تنتمى	وكان لها طفل تكلم فى المهد

---

(١) أخرجه البخارى (٢٠١/٤)، ومسلم (٢٥٥٠/٧)، وأحمد (٣٠١/٢، ٣٠٧)، والحاكم (٥٩٥/٢).

كذا شاهد فى شأن يوسف منهم   فدونك جمعا زائد الحسن فى العد

وقوله: بقوله إلى آخره، يعنى أنها لما حملت بلا زوج وكانت فرت وهى حامل لمكان بعيد خوفا من أهلها، فلما وضعته قال لها: لا تحزنى.

(على قراءة من قرأ من تحتها) بفتح الميم على أن من موصولة وتحتها بنصب التاء ظرف صلته، وقد أورد على المصنف هنا أمران:

الأول: أن تخصيص دلالة الآية على أن المتكلم عيسى عليه الصلاة والسلام فى المهد بهذه القراءة لا وجه له، فإن القراءتين على حد سواء فى احتمال أن يكون المنادى عيسى أو جبريل أو بعض الملائكة، وكيف لا ومعنى النظم على القراءتين واحد، فإن المعنى ناداها من تحتها قائلا لا تحزنى، فإن قيل: لو كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كان فوقها لا تحتها لإتيانه من الأفق. قيل: إن جبريل كان منها مكان القابلة، وقيل: إنها كانت على أكمة هو تحتها، وإذا كان المنادى عيسى عليه الصلاة والسلام قال الجعبرى: معنى كونه تحتها أنه كان تحت ثيابها.

الثانى: أنه قيل: إن كلام المصنف رحمه الله تعالى فى حسن الأخلاق وأنها جبلية، وكلام من فى المهد ليس من هذا القبيل، بل من قبيل خوارق العادة، كنطق الجوارح يوم القيامة، وتسبيح الحصا، ونطق الشجر، وهو لم يدم فإنه ينقطع ويعود فى زمنه، ولم يقولوا باستمراره، ولو استمر كان مناسبا لما ذكر.

والجواب أن ما ذكره بحسب الظاهر، لأنه كان جبريل وقد ذكر هنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ﴾ [مريم: ١٩] كان الظاهر أن يقول فناداها كما فى القراءة بمن الجارة، فلما عرفه بالاسم الظاهر وعدل إليه فى محل الإضمار علم أنه غيره وليس ثمة أحد، فعلم أنه عيسى، ومعنى كونه من تحتها أن المرأة فى حال الوضع ترتفع عن الأرض على عال فيقع الولد تحتها فلا حاجة لما قاله الجعبرى. وأما السؤال الثانى فساقط لأنه وإن كان خارقا للعادة يدل على أن ما يأتى بهذه من جنسه أمر جبلى، وقراءة الكسر بمن الجارة والفتح بمن الموصولة كلاهما متواترة من السبعة.

(وعلى قول من قال إن المنادى) بكسر الدال **(عيسى)** عليه الصلاة والسلام لا الملك. **(ونص على كلامه فى مهده)** المهد كالمهاد بمعنى الفراش الممهد للنوم كما مر، ثم خص بما يربط فيه الطفل لنومه وقراره فيه.

(فقال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]) فلما تكلم عليه الصلاة والسلام بذلك علموا براءة مريم، ثم سكت حتى بلغ مدة التكلم لأمثاله وجعل

أول تكلمه الإقرار بالعبودية إبطالا لقول النصارى أنه ابن الله، لأن الولد لا يكون عبدا ولو ملكه عتق عليه، والكتاب الإنجيل، ويجوز أن يريد التوراة لعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بها، أو الأعم وتعبيره بالماضى باعتبار ما قدره الله تعالى له، أو جعله بمنزلة الواقع لتحققه. وقيل: إنه نبئ فى صغره حقيقة كما روى عن الحسن.

(**وقال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ [الأنبياء: ٧٩]**) أى القصة الآتية ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] عليه الصلاة والسلام ﴿وَكُلًّا﴾ [الأنبياء: ٧٩] أى سليمان وأباه داود ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] إشارة إلى قصة سليمان عليه الصلاة والسلام إذا أوتى الحكم صبيا وعمره إذ ذاك أحد عشر سنة فى الغنم التى نفشت فى الحرث، أى رعته ليلا وأفسدته. والنفش: الرعى بالليل بلا راع. فإن كان بالنهار فهو همل، وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم الداخلين عليه من باب آخر، فتخاصم رجلان لأحدهما حرث وهو زرع، وقيل: كرم. والحرث يطلق عليهما. وللآخر غنم دخلت حرثه فأفسدته، فحكم داود بدفع الغنم لصاحب الحرث على أن يبقى الحرث بيده، وقيل: يدفع الغنم لصاحب الحرث ويدفع الحرث لصاحب الغنم، فداود عليه الصلاة والسلام رأى على القول الأول أن الغنم تقاوم الغلة الفاسدة، وعلى الثانى رأى أنها تقاوم الحرث والغلة، معا فلما خرجا على سليمان عليه الصلاة والسلام سألهما عما حكم لهما به فرجع لأبيه وقال: إنى رأيت ماهو أوفق بالجميع، وهو أن يأخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه حتى يعود لما كان عليه، ويأخذ صاحب الحرث الغنم فينتفع بنسلها وريعها، فإذا عاد الحرث لحاله صرف ملك صاحبه له، فقال: أصبت وحكم بما قاله.

قال العلامة ابن القيم فى كتابه «معالم التقويم»: حكم داود عليه الصلاة والسلام له بقيمة المتلف فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة فدفعها لصاحب الحرث، إما لأنه لم يكن له دراهم تعذر بيعها ورضوا بدفعها وأخذها بدلا عن القيمة. وسليمان عليه الصلاة والسلام قضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمروا البستان حتى يعود كما كان، فلم يضيع عليهم شيئا من حين الإتلاف إلى حين العود، فأعطى أصحاب البستان الماشية ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء الغنم بقدر ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النمائين فوجدهما سواء فهذا علم خصه الله به وأثنى عليه بإدراكه، وقد تنازع العلماء فى ضمان النفش وفى المثل وهو الحق، وهو أحد القولين فى مذهب أحمد والشافعى ومالك، والمشهور خلافه.

والقول الثانى: موافقته فى ضمان النفش دون التضمين بالمثل وهو المشهور عن أحمد،

ومالك، والشافعي.

والثالث: موافقته في التضمين بالمثل دون النفش كما إذا رعاها صاحبه باختياره دون ما إذا انفلتت ماشيته ولم يشعر بها، وهو قول داود ومن وافقه.

والقول الرابع: أن النفش لا يوجب الضمان بحال وما وجب من ضمان الرعى بغير النفش فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهو مذهب أبى حنيفة.

وما حكم به سليمان عليه الصلاة والسلام أقرب إلى العدل والقياس، وقد حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما أفسدت المواشى ضمانه على أهلها يصح بحكم النفش، وصح بالنصوص السابقة. والقياس الصحيح وجوب الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان عليه الصلاة والسلام بتفهيم هذا الحكم فصح أنه الصواب. انتهى.

وقال التجانى: اختلف فى حكمهما فى هذه القضية هل كان بوحى؟ فالثانى ناسخ للأول، أو باجتهاد بناء على أن كل مجتهد مصيب، وكونه فتيا يرده أن فتيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حكم، مع أنه يأباه قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قيل: ويؤيد أنه اجتهاد قول سليمان عليه الصلاة والسلام: إنى رأيت ما هو أوفق للجميع، وهو مبنى على جواز خطأ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى اجتهادهم وأنهم لم يقروا عليه. وفى التلويح هنا كلام يلوح عليه أثر الضعف، وعلى أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا مطلقا. وقد ورد فى الحديث ما يخالفه كما سمعته آنفا، وقول أبى السعود أن رأى سليمان استحسان ورأى داود قياس، قيل: إنه غير سديد لأن الاستحسان إما دليل ينقدح فى نفس المجتهد وإلهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا صوابا، أو هو العدول عن قياس إلى قياس أقوى منه وحينئذ كل منهما قياس واجتهاده، أو هو العدول عن الدليل إلى العادة لمصلحة، ومثله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حائز ولا يخفى ما فيه. وفى الكشاف أن حكم دواد عليه الصلاة والسلام لأن الضرر وقع بسبب الغنم فسلمته بجنايتها إلى المجنى، كما قال أبو حنيفة فى العبد إذا جنى على نفس: فسيده يدفعه أو يفديه. وعند الشافعي يبيعه بذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت قدر النقصان فى الحرث، وسليمان عليه الصلاة والسلام جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث ما يزيل ضرره، كما لو غصب عبدا فأبق فى يده فإن قيمته تدفع لسيده ينتفع بها، فإذا ظهر ترد له. وفى هذا المقام كلام طويل لا حاجة لنا به، فإن أردته فارجع إليه.

(وقد ذكر من حكم سليمان عليه الصلاة والسلام وهو صبى يلعب فى قضية المرجومة، وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه) كما اقتدى به فى قصة الحرث، وذلك كان فى صباه وأول أمره، فهذا وأشباهه مما يدل على أنها أمور جبلية غير كسبية. وقصة المرجومة كما حكاه التلمساني: أن امرأة كانت بارعة الجمال وهى من أهل الدين ولها حق، فرفعت أمرها لأحد قضاة بنى إسرائيل، فلما رأها افتتن بها وراودها عن نفسها فامتنعت، ثم ذهبت لثان وثالث ورابع، فكل راودها عن نفسها فأتت لنبى الله داود عليه الصلاة والسلام فحجبت عنه، فأجمع الأربعة أن يقولوا لداود عليه السلام أن لها كلبا تمكنه من نفسها ويزنى بها ففعلوا، فأمر برجمها فرجمت، فبينما داود عليه الصلاة والسلام يوما فى علية له مشرفا على صبيان يلعبون مع سليمان وفيهم صبى جميل، فجعلوا سليمان قاضيا والصبى كمرأة ذات حق، وأربعة منهم قضاة، وفعلوا مثل تلك القصة بعينها من المراودة والتهمة، وذلك بمرئى من داود عليه الصلاة والسلام كما فى قصة المرجومة فعرفهم سليمان، وقال لأحدهم: ما لونه؟ فذكر لونا ودعى كلا بانفراده، فذكر كل لونا مخالفا للآخر، فأمر الصبيان فضربوهم. فقال داود: لعل القضية هكذا، فبعث للقضاة وسألهم عن لون الكلب على الانفراد فاختلفوا كالصبيان فأمر بهم فقتلوا. وهكذا نقله غيره من الشراح عن ابن عساكر مسندا، وكذا نقله السيوطى رحمه الله تعالى فى تخريج أحاديث هذا الكتاب و لم يتعقبه. فقول ابن رسلان: المراد بالمرجومة التى أريد رجمها لأن داود هم برجمها، ثم لما رأى صنيع سليمان درء عنه الحد. فسماها المصنف رحمه الله تعالى مرجومة باعتبار ما يؤول، أو لأنه أريد رجمها يتبع فيه غيره، فلا يخفى أنه مخالف للظاهر فلا وجه لكلامه ولا لمن تبعه فيه، ثم إنه قيل: إن هذا يقتضى أنه كان فى شريعتهم أن المرأة الممكنة من نفسها حيوانا ترجم، وأن شاهد الزور يقتل. وفى الشريعة المحمدية أن حكمهما التعزير.

وقصة الصبى هى ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: «بينما امرأتان معهما أبناء لهما فأخذ ذئب أحدهما، فتحاكمتا إلى داود عليه الصلاة والسلام فقضى به للكبرى، فدعاهما سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: هاتوا سكينا أشقه بينهما. فقالت الصغرى: رحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به لها لشفقتها عليه ورضيت الأخرى بشقه لتتشاركا فى المصيبة»[1].

قال التجانى: وهذا مما لا شبهة فى صحته. وأما الحديث الأول فالله أعلم بصحته، وقد ورد فى الإسرائيليات على غير رواية ابن عساكر، وأن داود عليه السلام لم يرجمها

(١) أخرجه مسلم (١٧٢٠/٢)، وأحمد (٣٢٢/٢).

وإنما أمرهم برجمها، فمروا بها على سليمان فأوقفها وأحضر الشهود وفرق بينهم كما مر، ورجع داود عن حكمه، وعلى هذا يبنى ما مر من أن المرجومة هنا مجاز عن من أريد رجمها وفيه فؤائد.

منها: أنه إذا تجوز بالفعل عن إرادته لا يلزم وقوعه.

ومنها: أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه قال: والله إن سمعت بالسكين إلا ذلك اليوم.

ومنها: أن داود عليه الصلاة والسلام يحتمل أنه قضى به للكبرى لشبه بينهما، وأنه كان فى شريعته يجوز الإلحاق بالشبه، أو لكونه فى يدها والترجيح باليد شريعة له صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما سليمان عليه الصلاة والسلام فتوصل بلطفه لمعرفة باطن القضية، فأوهمهما إرادة شقه ليسوى بينهما، ومثله يفعله حذاق الحكام فيقضون بأمور لو تجردت لم يقض بها شرعا، ولعل الكبرى أقرت بأنه ليس ولدها فرده بإقرارها لا بمجرد الشفقة فلذا نقض داود عليه الصلاة والسلام حكمه، أو أن فى شرعهم أنه يجوز للمجتهد نقض حكم المجتهد كما فى مزيل الخفاء.

ومنها: أنه وقع فى مسلم أن الصغرى قالت لسليمان عليه الصلاة والسلام: لا يرحمك الله، فيرحمك الله جملة مستأنفة دعائية لكنها موهمة للدعاء عليه، وفى الإكمال أن السلف كرهوا مثله لما فيه من الإيهام، يريد ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال لمن قال له مثله: لا تقل هذا، وقل يرحمك الله لا. وروى بعضهم ويرحمك الله. **أقول:** يعنى أن الواو تزاد لدفع الإيهام، كما تحذف له فى نحو قوله:

وتظن سلمى أننى أبغى بها ... بدلا أراها فى الضلال تهيم

فإنه لو قال: وأراها ربما ظن أنه معطوف على أبغى وليس مراده ذلك. وسأل الرشيد رجلا عن شيء فقال له: لا وأيد الله الخليفة فاستحسنه منه، فلما سمعه قال: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى خدود الملاح، وهذه الواو إما زائدة أو اعتراضية أو لعطف الإنشاء على الخبر.

(وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما، وكذلك قصة موسى) عليه الصلاة والسلام **(مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل)** فرعون: لقب لكل من ملك القبط كما مر، وهذا هو مصعب بن الوليد بن ريان كان من القبط العمالقة عمر أكثر من أربعمائة سنة، وسن موسى عليه الصلاة والسلام حين أخذ بلحيته ابن عامين، وكان فرعون، لعنه الله، استبعد بنى إسرائيل واستخدمهم وضرب عليهم الجزية، فرأى فى

منامه أو أخبره الكهنة أن زوال ملكه على يد غلام من بنى إسرائيل، فأمر بقتل كل مولود يولد منهم، فرأى أهل مملكته أن فى ذلك ضررا عليهم، لأنهم خدمهم ويكفونهم المؤنة، فعزموا على قتلهم عاما بعد عام. قيل: وهو بعيد لاحتمال أن يولد عام استحيائهم. واتفاق العقلاء على مثله غير ظاهر، فلعلهم رأوا عام ولادته زوجا أو فردا أو عينوه، وولد هارون فى عام الاستحياء وولد موسى فى العام الرابع من ولادته وكان عام قتل، فخافت أمه عليه فأوحى الله تعالى إليها ما يأتى على لسان ملك أو رأت ذلك فى منامها، والقول الأول إما لأن من لا يكون نبيا قد يرى الملك وقد جوزه جماعة من السلف، ولعله كان فى الزمن السالف، أو أن أمه كانت نبيئة والمشهور أن النبى لا يكون إلا ذكرا.

قال التجانى: وقد ذهب علماء قرطبة إلى صحة نبوة المرأة، وصححه ابن السيد، ونسبه ابن الهمام إلى بعض أهل الظاهر، فأوحى الله تعالى إلى أمه أن تتخذ تابوتا تضعه فيه وتقذفه فى النيل ففعلت، وكان النيل يدخل منزل فرعون، فبينما هو جالس إذا دخل التابوت به عنده، فأخذه آل فرعون ففتحته آسية امرأة فرعون صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما رأته فيه موسى رحمته وسألت من فرعون أن يتخذه ابنا فأجابها لذلك، فكانت تدخل به عليه فأحبه وجعله يوما فى حجره، فمد يده للحيته وجذبها جذبا شديدا، فغضب فرعون وقال: هذا عدو لى وأمر بذبحه، فناشدته الله تعالى وقالت: إنه لا يعقل. فقال: بل يعقل. فقالت: جربه فجربه فجعل بين يديه تمرة وجمرة، وقيل: درة وجمرة، وقال: إن أخذ التمرة أو الدرة فهو يعقل وإلا عذر، فلما مد يده للتمرة ضربه جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ الجمرة فأحرقت لسانه، ومنها كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام عقدة تمنعه من إبانة بعض الحروف، وهى التى أزالها الله تعالى بدعائه، فعذره فلم يزل فى حجره إلى أن كان ما كان وموسى وقصصه ونسبه مذكور فى محله، والطفل يكون للواحد وغيره، وقد يختص بالواحد فيجمع على أطفال.

(فائدة): قيل: كل مولود ذكرا وأنثى يزيد كل سنة أربع أصابع بأصابع نفسه، وكل أحد طوله أربعة أذرع مقبوضة الأصابع بذراع نفسه، والقوة تزيد إلى أربعين وتقف إلى ستين وتنقص بعد ذلك، وفرعون هذا غير فرعون يوسف، وقيل: إنه هو وأنه أسلم ثم ارتد، وقيل: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب أمهلت فرعون مع كفره، فقال: إنه كان سهل الحجاب فكافأته على ذلك فى الدنيا.

(وقال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]**)** أى هديناه صغيرا قاله مجاهد وغيره هذا أحد التفاسير فى العلم السابق، وقيل: المراد قبل موسى

وهارون، والرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح، ويقال: رشد ورشد وبهما قرئ. قال فى الكشاف: معنى إضافة الرشد له عليه الصلاة والسلام أنه رشد ثابت له، ورد بأن هذا المعنى حاصل بدون الإضافة لو قيل آتيناه رشدا له أفاد ذلك مع التعظيم، و لم يفهم مراده إذ مراده أنا آتيناه رشدا معلوما من حاله لائقا به وبأمثاله من الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا كرشد غيره.

(**وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل ابتداء خلقه**) أى اختاره رسولا خليلا فى علمه فإنه لا يختص به، بل المراد أنه حين أراد خلقه فى بطن أمه أمر الملائكة أن تكتب اصطفاءه وخلته، تنويها به وتعظيما لقدره بخلاف غيره، فإنه إنما يكتب حاله بعد خلقه، والظاهر أن المراد أنه اصطفى روحه فى عالم الذر قبل خلق جسده، كما فى حديث: «كنت نبيا وآدم» إلى آخره. وفى نسخة قيل: ابتداء خلقه قبل لما كان من قبل على هذا بمعنى قبل خلقه، ولا معنى لهدايته قبل خلقه أوله باصطفاءه اللازم له لصحة اصطفاء المعدوم.

(**وقال بعضهم: لما ولد**) نبى الله (**إبراهيم**) عليه الصلاة والسلام (**بعث الله إليه ملكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه، فقال: قد فعلت ولم يقل أفعل فذلك رشده**) يعنى عبر بالماضى الدال على وقوعه قبل أمره، فيكون المعنى آتيناه رشده قبل أمره، فيدل ذلك على الإيمان واشتغاله بذكر ربه أمر جبلى مجبول عليه، أو أمر عرفه به فى عالم الذر والأرواح، فيكون بمعنى ما قاله ابن عطاء، أو المراد أنه عبر بالماضى لسرعة امتثاله حتى كأنه وقع منه، فمعنى من قبل على هذا من قبل أمره لا من قبل بلوغه كما قيل.

(**وقيل: إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته**) التى وقعت له مع نمرود، فإنه كما رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولد فى زمنه وكان له كهنة، فقالوا له: يولد فى هذه السنة مولود يفسد آلهة الأرض ويدعوهم إلى غير دينهم وهلاك أهل بيتك على يديه، فعزل النساء عن الرجال ودخل آزر إلى بيته فوقع على زوجته فحملت، فقال له الكهان: إن الغلام قد حمل به الليلة فقال: اقتلوا كل غلام ولد، فلما أخذ أم إبراهيم عليه الصلاة والسلام المخاض خرجت هاربة، فوضعته فى نهر يابس ولفته فى خرقة ووضعته فى حلفاء وأخبرت به أباه، فأتاه فحفر له سردابا وسد عليه بصخرة فكانت أمه تختلف إليه فترضعه حتى شب وتكلم، فقال لأمه من ربى؟ فقالت: أنا. فقال: من ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبى؟ فقالت له: اسكت، فسكت فرجعت إلى زوجها، فقالت له: الغلام الذى يتحدث به أنه يغير دين أهل الأرض ابنك، فأتاه فقال له مثل ذلك.

وقوله: (**كانت وهو ابن ستة عشر سنة**) كذا فى الكشاف، قال التجانى: المعروف أنه

كان ابن ست وعشرين سنة، والذى أشار بإحراقه رجل من أعراب العجم وهو الكرد، ولما هموا بإحراقه حبسوه وبنوا حظيرة وجمعوا الحطب الصلاب شهرا، حتى كان من مرض ينذر جمع الحطب له، ثم أشعلوا نارا عظيمة إذا مرت بها الطير احترقت لشدتها، ثم وضعوه فى منجنيق مقيدا مغلولا ورموه فيها، فناداها جبرايل عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فلم يحترق غير وثاقه، فقال له حين ألقى: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، حسبى من سؤالى علمه بحالى. وقيل: نجا منها بقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وأشرف نمرود عليه من صرحه فإذا هو فى روضة معه جليس من الملائكة، فقال: إنى مقرب إلى إلهك فقرب أربعة آلاف بقرة وكف عنه. وقصته مذكورة فى القرآن مجملة مفصلة فى التفسير.

واعلم أن نمرود كما قاله السهيلى بضم النون وذال معجمة وقد تهمل انتهى. قيل: لما أرادوا رميه فى النار لم يقدروا على القرب منه، فعلمهم إبليس، لعنه الله، صنعة المنجنيق، فلما أرادوا رميه لم يرتم لمنع الملائكة عليهم الصلاة والسلام له، فأمرهم إبليس أن يحضروا نساء مكشوفة الفروج فصعدت الملائكة للسماء.

(وأن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين) وقيل: ثلاث عشر سنة، وهذا بناء على أن الذبيح إسحاق عليه الصلاة والسلام كما عليه أهل الكتاب وكثير من المفسرين والمحدثين، حتى صنف الجلال السيوطى فى تصحيحه رسالة مستقلة. والمشهور وهو مذهب الجمهور أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو قول أكثر الصحابة كابن عباس، وابن عمر، ومعاوية رضى الله عنهم، وهو الظاهر فإن سارة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت لا ولد لها، وهاجر جاريته ولدت إسماعيل، فغارت منها وكرهت مقامها معها، فنقلها إلى مكة ومعها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وكان ينتابهما، فلما كبرت سارة وشاخ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشرتهما الملائكة بإسحاق فقال: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] الآية، فلو كان الذبيح إسحاق عليه الصلاة والسلام ناقض ذلك إخبار الله بأنه سيولد له يعقوب، ولا يصح أنه أمر بذبحه بعدما ولد له يعقوب، للإجماع على أنه فى صغره كما مر، ولقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢] ولأنه فى الصافات ذكر تبشيره بإسحاق بعد قصة الذبح، وبهذا احتج مالك وغيره. وورد فى الحديث: «أنا ابن الذبيحين»(١) يريد عبد الله وإسماعيل. وفى

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣/٩٤، ٩٥)، والطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٤)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢/١٥٠).

تفسير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما: «تزعم اليهود أن إسحاق هو الذبيح وكذبوا»(١) وقال بعض من أسلم من أحبارهم: إنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذا الفضيلة فيكم، وقال الأصمعى: سألت أبا عمرو عن الذبح، فقال: «أعزب عنك عقلك، ألم تر إلى الموضع الذى أضجع فيه الذبيح بمكة ومنى، ومتى دخل إسحاق مكة» وقال ابن الجوزى: وهو الصواب، والقول بأنه إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجها، وأطال فيها ابن القيم فى الهدى. وقال المحب الطبرى: الأكثر أنه إسحاق ورجحه هو وغيره. والصحيح ما مر ويدل له حديث: «أنا ابن الذبيحين» وقصة ذبح أبيه عبد الله مشهورة، لأن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح واحدا منهم تقربا إلى الله تعالى، فلما كملوا أتى بهم البيت وضرب عليهم القداح فخرج قدح عبد الله ففداه كما هو مشهور. والقول بأن المراد بالذبيحين عبد الله وهابيل بناء على أن الذبيح إسحاق كما نقله مغلطاى مع غرابته لا يعلم له وجه، لأنه لم يتعين أنه من ولد هابيل إلا أن يجعل العم بمنزلة الأب، ولا يخفى ما فيه من التعسف.

(وأن استدلال إبراهيم بالكواكب والقمر والشمس وهو ابن خمسة عشر شهرا) ووجه الاستدلال أن الأجرام السماوية آفلة، وكل آفل فهو متغير، وكل متغير حادث، ولا شيء من الحادث بصانع فلا شيء من هذه الأجرام بصانع، وتلك الأصنام كهذه الأجرام فى التغير فلا شيء منها بصانع، بل هى دونها فيثبت لها ذلك بالطريق الأولى، فالصانع المغاير لها موجود إذ لابد للعالم من صانع، فثبت المطلوب بدليل مؤلف من قضايا تستلزم لذاته قولا آخر هو النتيجة، أو الدليل ما يدل بالقوة وإن كان مفردا، وهو المعرف بما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبرى، كالعلم المستدل به على وجود الصانع والأجرام المذكورة، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أخفته أمه فى غار خوفا عليه كما مر، مكث فى الغار عشرة أعوام أو أربعة أعوام كما فى عيون المعانى، أو خمسة عشر شهرا كما حكاه المصنف، فلما عقل سأل أمه من ربى كما مر، وفى رواية فقالت: أبوك فقال: من رب أبى؟ فقالت: الملك. فعرف جهلها ونظر ما يستدل به عليها فرأى النجم، فقال: هذا ربى إلى آخر ما قصه الله. والأقوال بناء على أن هذا قبل بلوغه فى الغار، وقيل: إنه بعد بلوغه فى الغار أو بعد بلوغه وخروجه منه، وقد بعثه الله نبيا وعمره أكثر مما ذكر، وهو الذى يقتضيه ظاهر القرآن؛ لأنه حكى فيه أنه قال لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤] إلى آخره، ثم عقبه بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ٧٥] الخ ثم ربط به قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٥٤/٢٣).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام:٧٦] الخ، فدلت الفاء على كونه بعد هذا كله، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ [الأنعام:٨٣] الخ يدل على مناظرته مع قومه ليرشدهم إلى الإيمان بالصانع لا لنفسه، وبينه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، ولو كان في الغار نظر لنفسه قال: إني برىء من الإشراك فإذا ثبت هذا وأنه موحد جازم بعدم ربوبية الكواكب، فقوله: «هذا ربي» على تقدير الاستفهام والاستفهام إنكاري، أو هو على تقدير أي يقولون هذا ربي، والتقدير في الكلام قالوا هو البحر حدث عنه ولا حرج، وهو في القرآن كثير، أو أنه عرف طباعهم عن قبول الحق لو صرح به ابتداء، فأتى بما يستدرجهم إلى استماع حجتهم بأن أسمعهم ما يوهم موافقته لهم فإذا أصاخوا له أورد الدليل المبطل لما يعتقدونه بما هو أتم وأنفع، وهذا قريب من الأول، وإن فرق بينهما بما في هذا من الإيهام وعدم إظهار الإنكار، وسيأتي في القسم الثالث ما يتعلق بهذا.

وقول المصنف رحمه الله تعالى: استدلاله وهو ابن خمسة عشر شهرا إن كان قصد به دفع ما قيل: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موحدون لا يصدر منهم شك في الله ووحدانيته، فكيف صدر هذا من الخليل عليه الصلاة والسلام؟ بأنه صدر منه قبل سن التمييز وهو غير مكلف فليس بكفر ولا جهل بالله فغير مناسب، فإنه يجب أن يعتقد أنهم أعرف الناس، وأنهم مجبولون على فطرة سليمة موحدون، فالأولى ما قدمناه من التأويل، وقد تقدم أن الأصح أنه صدر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد بلوغه بل وبعثته، وأن سياق الآية ناطق به كما قررناه أولا، وهو ظاهر ارتضاه القرطبي في تفسيره، وقيل: إنه قاله في طفوليته من غير اعتقاد ولا قصد كذب، والقول بأنه بعد البعثة فاسد، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام :٧٥] قصة أخرى؛ لأنه قصد النظر لنفسه والفاء ليست لتعقيب كلامه هذا على ما قاله لأبيه، وإنما هو من قبيل المعاريض تعريضا بجهل عبدة الأصنام وتضليل قومه، والقول بأنه على تقدير مضاف أي مخلوق ربي لا يخفى بعده.

(وقيل: أوحى الله إلى يوسف عليه الصلاة والسلام وهو صبي) هذا الوحي يحتمل أن يكون برسول من الملائكة، أرسله الله تعالى إليه وهو طفل إن لم يقل إنه لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين، وهو وإن اشتهر فقد روى المحدثون والمفسرون ما يخالفه، ويحتمل أنه بإلهام أو رؤيا منام، وقد ذهب إلى كل من هذه الأقوال طائفة. وفي الكشاف: إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك مدركا وعمره تسع عشرة سنة، وهو مخالف لما قاله المصنف رحمه الله تعالى من أنه كان صبيا.

(عندما هم إخوته) بكسر الهمزة وضمها جمع أخ **(بإلقائه فى الجب)** بضم الجيم وتشديد الباء وهو البئر غير مطوية البحجارة، وسميت بالجب من الجب وهو القطع، والجب ببيت المقدس، وقيل: بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقصة إلقائه بالجب مشهورة غنية عن البيان، وسيأتى ذكر إخوته وقصتهم **(بقوله تعالى)** فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب: ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم**﴾ [يوسف:١٥] أى لتخبرن يا يوسف إخوتك **(بأمرهم هذا)** وهم لا يشعرون، وهذه جملة حالية إما متعلقة بقوله أوحينا أو بقوله أتنبئنهم، وذلك لأنه كان صغيرا كما قاله المصنف رحمه الله تعالى، وقيل: بل كان ابن اثنتى عشر سنة أو ثمانية، فعلى الأول هو ممن نبئ وأوحى إليه فى صباه كيحيى وعيسى، فالوحى فى الآية على ظاهر كما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى، وقوله: هم كأنه جعل رأيه جميعا بعد ما تفرق، وهو يقتضى أن الوحى وقع له حين هموا بإلقائه، وفى الآية ما يقتضى أنه وقع بعد إلقائه.

وقال القاضى: إنهم أتوا بيوسف عليه الصلاة والسلام إلى البئر ودلوه فتعلق بصفيرها فربطما أيديه ونزعوا قميصا يلطخوه بالدم حيلة منهم، فقال: ردوا قميصى اتوار به، فقالوا: ادع الأحد عشر كوكبا يلبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وفيها ماء، فآوى إلى صخرة بها وقام عليها يبكى، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالوحى كما قال الله تعالى. انتهى. وهذا يقتضى أن الوحى بعد الإلقاء تطبيبا لقلبه، وهم يظنون أنه معذب مذلل وهم لا يشعرون أن الله تعالى أراحه بما تبشره به من نصره، فالحال من ضمير أوحينا، والأولى جعله حالا من قوله: «لتنبئهم» أى لتحدثنهم بما فعلوا وهم لا يشعرون، إنك يوسف لبعد العهد وتغير حالك، فهو إشارة لما وقع لهم لما أتوا ممتازين ليعلم أن المحنة تنقلب محنة.

(الآية) أى اذكر الآية التى ذكر فيها هنا مالها.

(ألف غير ذلك من أخبارهم) أى أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على أنهم مجبولون على الكمال من ابتداء أمرهم فى صغرهم. **(وقد حكى أهل السير)** مما يدل على ذلك **(أن آمنة بنت وهب)** أم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر. **(أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ولد)** أى خرج من بطنها حين أراد الله تعالى إخراجه منها فلا لغوية فيه، وقيل: حين ظرف متعلق بباسطا الآتى وهو حال من الضمير المستكين فى ولد الأول والظرف مؤكد لدفع أن الحال مقدرة.

(باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء) رواه ابن الجوزى فى الوفاء عن أبى

الحسين بن أسيد مرسلا، قال: قالت آمنة: ولدته صلى الله تعالى عليه وسلم جاثيا على ركبتيه ينظر إلى السماء. ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجدا، وولد وقد قطعت سرته، وكنت وضعت عليه إناء فوجدته قد انغلق الإناء عنه وهو يمص إبهامه يشخب لنا انتهى. وروى الطبرانى: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده مشيرا بالسبابة كالمسبح بها. وله نظائر ذكرها ابن حجر فى كتاب المولد. قيل: ولا منافاة بين قبض أصابعه فى هذا الحديث وبين ما فى سيرة إبن إسحاق من أنه ولد واضعا يديه فى الأرض رافعا بصره، وأنه كان مسبحا.

أقول: أما التسبيح فلا دلالة عليه فى الحديث، وأما عدم منافاته لما فى سيرة ابن إسحاق فمسلم، لكنه مناف لما ذكره المصنف رحمه الله تعالى إلا بتأويل بعيد، ويؤيده قول البوصيرى فى قوله:

رافعا طرفه إلى السماء وفى ذلك الرفع إلى سؤدد إيماء

(**وقال فى حديثه صلى الله تعالى عليه وسلم : لما نشأت**) أى صرت شابا، وهذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن شداد بن أوس. (**بغضت لى الأوثان**) بالبناء للمجهول أى بغضها الله لى، وهى جمع وثن وهو حجارة كانت تعبد من أوثنته إذا أجزلت عطيته، وأوثنت كذا أكثرت منه قاله الراغب. وقيل: الوثن ماله جثة مما يعبد والصنم الصورة بلا جثة. ومنهم من سوى بينهما، وقد يطلق على الصليب وكل ما يشغل عن الله.

(**وبغض إلى الشعر**) أى استماعه والتلفظ به. (**ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منها، ثم لم أعد**) وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم بغض إليه الشعر لا ينافى قوله: «إن من الشعر لحكمة». لأن فيه ما يحمد كالحكم والمواعظ، ومدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهجاء الكفار، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء:٢٢٦،٢٢٧] وقد استمعه صلى الله تعالى عليه وسلم وأجاز قائله، وقال مرة لقائله: «لا يفضض الله فاك» لأن الأمر المذموم قد يحمد لعارض، أو يقال تعريف الشعر للعهد. وقوله: أهم بفتح الهمزة وضم الهاء كما قاله البرهان الحلبى، وفسر بمعنى لم أرد وأقصد، وهذا إشارة إلى حديث صحيح رواه البزار مسندا عن على كرم الله وجهه، ولفظه: «ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما

أريد، ثم ما هممت بعدها بشىء حتى أكرمنى الله تعالى بم سألته»[١]. ورواه فى المستدرك بلفظ آخر: «قلت ليلة لفتى من قريش كان بأعلى مكة يرعى غنما: أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الصبيان، فجئت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: فلان يتزوج فلانة، فلهوت بذلك الغناء وذلك الصوت حتى غلبتنى عينى، فما أيقظنى إلا حر الشمس، ثم رجعت إلى صاحبى فقال لى: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى كذلك، والله ما هممت بغيرهما مما تفعله الجاهلية». وروى أن الله ألقى عليه النوم فى المرتين صيانة وليس فى ارتكابه لمحرم، لأنه كان قبل تحريم السماع، ولأن ضرب الدف فى العرس غير ممنوع. وأما النهى عن سمر الليل فليس نهى تحريم مطلقا، وكان مباحا إذ ذاك مع أنه شرعا قد يكون أفضل من النوم كمذاكرة العلم، وإنما يحرم أو يكره لعارض كما ذكره الفقهاء، وقوله: «فعصمنى الله» أى حفظنى من ذلك لما غلب عليه من النوم حتى لم يسمع. وما وقع فى بعض الشروح أن كلامه إشارة إلى أنه كان لقريش صنم يسمى بوانه يجتمع عنده فى كل عام، فقالوا له: إنك لا تجتمع مع قومك ولا تكثر لهم جمعا، فذهب ثم عاد مرعوبا بالرؤية رجل طويل حال بينه وبينها، فغير مناسب هنا مع أن فى روايته كلاما للسهيلى ليس هذا محله، والمراد بالجاهلية ما كان قبل البعثة فى زمن الفترة كما تقدم.

(ثم يتمكن الأمر لهم وتترادف نفحات الله عليهم) الضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والظاهر أنه معطوف على غرزت من قوله سابقا: «بل غرزت فيهم الأخلاق» إلى آخره، وعطفه بثم لبعد رتبته أو زمانه اعتبار الابتداء أو الانتهاء، ويتمكن بمعنى يقر ويثبت لا بمعنى يزداد، لأنه تفعل من المكان، والمراد بالأمر ما أودع فيهم من الكمال والعلوم، وتترادف: تتفاعل من الردف وهو الركوب خلف غيره، والمراد أنها تتوالى فيأتى بعضها عقب بعض، ونفحات: بفتحتين جمع نفحة بالسكون وهى فى الأصل رائحة تأتى مع هبة من النسيم طيبة، وهى هنا بمعنى الهبة والعطية. قال:

لما أتيتك أرجو فضل نائلكم نفحتنى نفحة طابت لها العرب

والمراد هنا إمداد الله لهم بوحى وغيره، إطلاق النفحة على ما يصيب من الشر مجازا تهكم كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:٤٦] وفى الحديث: «إن لربكم نفحات ألا فتعرضوا لها».

(١) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٢٦)، والطبرى فى تاريخه (٢/٢٧٩).

(وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم) تشرق: بمعنى تضىء، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت، وشرقت إذا طلعت، والمعارف: العلوم الربانية **(حتى يصلوا الغاية)** أى غاية الكمال فى التخلق بأخلاق الله تعالى. **(ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم)** أى بجعلهم من صفوة خلقه الذين اختارهم. **(بالنبوة)** متعلق بيبلغوا أو باصطفاء. **(فى تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية)** التى لا يصل إليها غيرهم. والغاية والنهاية واحد لكنه تفنن فى العبارة. **(دون ممارسة)** أى من غير تكرار عمل ومزاولته. **(ولا رياضة)** أى تمرين على العملى باعتباره من رضت الدابة أرضها إذا عودتها السير والجرى.

(قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [يوسف:٢٢]**)** أى موسى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ نهاية قوته وتمام عقله وهو من ثلاثين إلى أربعين، أو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين، وهو مفرد أو جمع لا واحد له، أو واحده شد بالفتح أو الكسر، وقيل: خمسا وعشرين لما روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال: «ينتهى لب الرجل إذا بلغ خمسا وعشرين». قيل: هذا لا ينافى ما مر لما ذكره الفقهاء من أن رشد البالغ ببلوغ هذه السن؛ لأنه حال كمال لبه عن عمر رضى الله عنه.

(واستوى) ذكر الاستواء فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام ولم يذكره فى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام. قال التلمسانى: لأن الاستواء كمال العقل، ووقت الرسالة، وموسى أرسل فى ذلك الوقت، ويوسف لم يرسل حينئذ، ونقل ابن مرزوق عن ابن عرفة أنه قال: قال ابن جماعة: من استولى خمسين سنة فقد بلغ انتهاء الكهولة وهو مجتمع الأشد، ومن بلغ أربعين فقد بلغ حد الاستواء ومنتهى الكمال. انتهى.

﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ [يوسف:٢٢] أى نبوة **(وعلما)** بالدين وسياسة الأمة. **﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾** [يوسف:٢٢] علق وقوع الجزاء بالإحسان للتنبيه على أنه إنما جازاهم لكونهم محسنين أى مخلصين مراقبين لله أفعالهم. **﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾** [يوسف:٢٢] واستشهد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الآية؛ لأنه تعالى أخبر فيها بكمالهم وترادف نفحات الله عليهم، حتى ارتفعوا إلى أقصى الدرجات من غير سبق ممارسة رياضة.

(وقد نجد غيرهم) أى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. **(يطبع)** أى يخلق مجبولا. **(على بعض هذه الأخلاق الشريفة دون جميعها)** وفى نسخة: دون بعضها **(ويولد عليها)** موجودة فيه وجودا متأصلا وهذا كالتفسير لما قبله. **(فيسهل عليه اكتسابه تمامها عناية من الله عز وجل)** منصوب بنزع الخافض، أى بعناية الله ولطفه إذ جبله على أصولها **(كما يشاهد من خلقه)** بكسر الخاء المعجمة وسكون اللام وقاف وهاء تأنيث أو بفتحها

مضافا لضمير الله، والأول أولى وعليه اقتصر ابن رسلان. (**بعض الصبيان على حسن السمت**) السمت: الطريق وهيئة أهل الخير، يقال: ما أحسن سمته أى هديه وسيرته. وقد ورد فى الحديث بهذا المعنى.

(**أو الشهامة**) أى أو خلقه على الشهامة بفتح الشين المعجمة والهاء والميم، أى حدة الفؤاد والذكاة والجلادة والنقاد فى الأمور، يقال: رجل شهم إذا كان سيدا نجيبا نشيطا فى اكتساب المعالى وعدم الالتفات للملاحاة والخصومة. وفى الحديث: «من لاحى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، ومازال جبريل ينهانى عن ملاحاة الرجال كما ينهانى عن عبادة الأوثان». (**أو صدق اللسان أو السماحة**) كان الظاهر عطفها بالواو لكنه لما آتى بيانا لبعضها رأى أن أو الفاصلة أنسب.

(**وكان نجد بعضهم على ضدها**) أى ضد المذكورة كالكذب والبخل، وعبر بعلى لأنه متمكن منها تمكن الراكب من مركوبه، كما فى قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ [البقرة: ٥] (**فبالا كتساب يكمل ناقصها**) **فإن قلت**: لم عبر هنا بالكمال وقبله بالتمام؟ وهل هو تفنن فى التعبير أو بينهما فرق؟ **قلت**: قال العينى: بينهما فرق إلا أنه لم يفصح عنه. وقال ابن أبى الأصبغ فى كتاب «التوكيد»: الفرق بينهما أن التمام الإتيان بما نقص من الناقص والكمال الزيادة على التمام، فإذا قلت رجل تام الخلق لم يفهم منه السامع عربيا كان أو غيره، إلا أنه تام الخلق ليس فى أعضائه نقص، فإذا قلت: إنه كامل فهم وصفه بمعنى زائد على التمام كالحسن والفضيلة الذاتية، أو العرضية، وهذا هو المتداول بينهم، فالكمال تمام وزيادة، فهو أخص منه وقد يطلق كل منهما على الآخر تجوزا، وعليه قوله تعالى: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى**﴾ [المائدة:٣] انتهى. وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى يتمشى على الأخير حيث جعل ما فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تماما فى حق غيرهم كمالا ولو عكس كان أحسن.

(**وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها**) بالجيم والبناء للمجهول، أى تكتسب وتحصل لمن لم يطبع على شىء منها وطبع على ضدها، وإن لم يكن الطبع كالتطبع، وهذا قسم آخر غير ما تقدم، فإن الأول وهو مرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يطبع على جميعها. والثانى أن يطبع على بعضها ويكتسب البعض، وهذا أن يطبع على عدمها ولكونه ناقصا لم يتعرض له أولا، فسقط ما قيل إن الرياضة والمجاهدة طريق الاكتساب، وقد قرر أنه يطبع على بعض هذه وبالاكتساب يكون كمالها إلى كمال البعض الخلقى، إلا أنه بعينه استجلاب المعدوم بالنسبة لذلك البعض.

(**ويعتدل منحرفها**) المراد بمنحرفها المائل عن الاعتدال المحمود، لأنه هو الطريق فمن

فرط أو أفرط فقد مال عنه، وهذا بناء على القول الأصح أن الطباع يمكن تغييرها وإلا لضاعت المواعظ والنصائح، وكان الإنسان دون البهائم التى برياضتها قد تتعلم ما ليس فى طباعها، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا**﴾ [النساء: ٦٣] وقال الشاعر(١):

تكرم لتعتاد الجميل فلن ترى ... أخا كرم إلا بأن يتكرما

كما فصل فى علم الأخلاق (**وباختلاف هذين الحالين**) الجبلى والكسبى (**يتفاوت الناس فيها**) أى فى الصفات الحميدة قلة وكثرة وقوة وضعفا.

(**كل ميسر لما خلق له**) هذا من الأمثال النبوية وجوامع الكلم، وهو بعض من حديث صحيح وأوله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن خلق سعيدا يعمل عمل أهل السعادة، ومن خلق شقيا يعمل عمل أهل الشقاء». ولذا كان التوفيق خليق قدرة الطاعة والخذلان خليق قدرة المعصية. وقال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (5) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (6) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (7) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (8) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (9) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

(**ولهذا**) التفاوت فيها (**ما قد اختلف السلف فيها**) ما فى أكثر النسخ وهى موصول اسمى أو حرفى أو زائدة، ولذا سقطت من بعض النسخ وهو الأظهر، والمراد بالسلف من تقدم من العلماء. (**هل هذا الخلق**) الحسن الذى يحمد به الناس (**جبلة أو مكتسبة**) الجبلة الغريزة والطبيعة والسليقة بمعنى، وهى بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وتخفيفها. (**فحكى**) الإمام المفسر محمد بن جرير (**الطبرى عن بعض السلف أن الخلق الحسن**) الذى يجمع أكثر الطبائع المحمودة (**جبلة وغريزة**) خلقها الله (**فى العبد**) وتعبيره بالعبد إيماء إلى أن المطلوب منه تخلقه بأخلاق الله وسيده.

(**وحكاية عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه والحسن**) البصرى (**وبه قال هو**) أى ابن جرير صرح به لأنه لا يلزم من حكايته اعتقاده له. (**والصواب ما أصلناه**) أى قدمناه وجعلناه أصلا وقاعدة فيما مر من أن منها ما هو جبلة غير مكتسبة، ومنها ما هو مكتسب بالتعلم والرياضة، وقد تقدم الكلام عليه.

(**وقد روى سعد**) أى ابن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه (**عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: كل الخلال**) بكسر الخاء المعجمة بوزن رجال جمع خلة بفتح الخاء

---

(١) البيت من الطويل، وهو للمتلمس فى ديوانه (ص١٤)، لسان العرب (٥١٢/١٢)، تاج العروس (كرم).

المعجمة وتشديد اللام وهى الخصلة والصفة. **(يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب)** وهو حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده، والبيهقى فى شعب الإيمان، وابن أبى شيبة فى المصنف، عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه. ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت عن سعد مرفوعا وموقوفا. وقال الدارقطنى فى العلل: الموقوف أشبه. وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه الذهبى: «يطبع المؤمن على كل شىء إلا الخيانة والكذب»(١). والخيانة ضد الأمانة وهى تشمل أمورا كالسرقة، وإنكار الوديعة، وخيانة غيره بالنظر لزوجته ونحو ذلك. والكذب معروف يعنى أن هذين لا يكون طبيعة مخلوقة فى المؤمن مطلقا، لأن المؤمن جبلته وفطرته سليمة، وهاتين الخصلتين فى غاية القبح فلا يختار اتصافه بهما، وإن كانت هذه الخصلة تقتضى كفره، أو المراد المؤمن الكامل.

(وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه) قال السيوطى: رواه عنه سعيد بن منصور فى سننه. وابن جرير، وابن أبى حاتم. **(فى حديثه والجراة)** بوزن الجرعة وقد تنقل حركة الهمزة للراء وتحذف وهى الشجاعة أو أعم منها، ومقابلة ما أشار إليه بقوله: **(والجبن)** بضم الجيم والباء وتخفيف النون وتسكن باؤه كثيرا، وهو عدم الإقدام للخوف وضده الشجاعة، وأما الجبن المأكول فبتثقيل الباء والنون وقد تخفف فيكون كهذا، ولذا تملح القائل:

يقولون لى هل اجترأت لدى الوغى وكنت شديد البأس فى الضرب والطعن
فقلت دعونى قانعا بسلامتى فإنى ممن يأكل الخبز بالجبن

(غرائز يضعها الله تعالى حيث يشاء) وفى هذا وما قبله دليل لما صوبه، فإنه فيما قبله جعل الخيانة غير مطبوعة، وفى حديث عمر رضى الله عنه جعل الخيانة والجرأة غريزتين مطبوعتين، فدلا على ما ادعاه من أن منها ما هو طبيعى، ومنها ما هو غير طبيعى. **(وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الشريفة كثيرة)** لا يمكن استيفاء أقسامها تفصيلا **(ولكنا نذكر أصولها)** التى تتضمن باقيها إجمالا. **(ولا نشير إلى جميعها)** إشارة لا تصريحا **(وتحقق وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بها إن شاء الله تعالى)** فإنه المقصود من ذكرها.

* * *

[فصل فى أصول الأخلاق]

(فصل: أما أصل فروعها)، هذا الفصل معقود لبيان أصول الأخلاق تصريحا، والإشارة إلى جميعها تلويحا، لتحقق وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها، وضمير

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٥٥٢)، والبيهقى (١٠/١٩٧)، وابن عدى (١/٤٤).

فروعها للأخلاق المذكورة قبله، **(وعنصر)**، هو بضم الصاد وفتحها، والأول أشهر، والثانى أفصح، ومعناه: الأصل والمادة، والعناصر إذا أطلقت يراد بها التراب والماء والهواء والنار؛ لتركب جميع الأجساد منها، والينابيع فى قوله: **(ينابيعها)**، جمع ينبوع، وهو ما ينبع الماء منه، كالعين، وكل ما يتفجر منه الماء.

(ونقطة دائرتها)، والنقطة جزء من الخط، والسطح مركب من خطوط مسطحة، فإذا كان السطح مستديرا، يكون فى حلق وسطه نقطة جميع الخطوط الخارجة منها إلى الخط المستدير الذى يحيط بالسطح متساوية، فتلك النقطة تسمى مركزا، وذلك السطح يسمى دائرة، وكذا الخط المحيط به، ويصح إرادة كل منهما هنا، فشبه العقل الذى مبنى الأخلاق عليه بشجرة أصلها العقل، وفروعها الأخلاق، ونورها وثمراتها ما يظهر منها وينتفع به غيره، ثم شبهه بعين تلك الأخلاق، كمائها الفائض منها، ثم شبهه بنقطة فى الوسط المعتدل يتساوى جميع جوانبها، والأخلاق كسطح أو خط محيط بها، فقال: **(فالعقل)**، وهو مشتق، أى مأخوذ من عقله إذا شده، فمنعه من الحركة؛ لأنه يمنع صاحبه مما لا يليق، أو من المعقل، وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه، وهو كما قال الراغب: يقال للقوى المتهيئة لقبول العلم، ويطلق على العلم المستفاد منه، ولذا قال على، كرم الله وجهه: «العقل عقلان، مطبوع ومسموع، ولا ينفع مطبوع إذا لم يكن مسموع، كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين».

وفى الحديث: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى».

وقال بعض الحكماء: هو جوهر، وقال آخرون: جسم شفاف محله الدماغ أو القلب، والأصح أنه قوة نفسية هى منشأ الإدراك، وليس المراد به هنا العقل العاشر المسمى بالعقل الفعال كما قيل؛ لأن أهل الشرع لا يقولون بمثله.

وقوله: (الذى ينبعث منه)، أى ينشأ ويخرج، وهذا ناظر لكونه ينبوعا، وقوله: **(العلم والمعرفة)**، العلم يكون بمعنى مطلق الإدراك، وبمعنى إدراك الكليات، والمعرفة إدراك الجزئيات، وقيل: إنها ما سبق بالجهل، وقال البيضاوى: إنها تكون بمعنى العلم، كما أن العلم يكون بمعنى المعرفة، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، أى الله يعرفهم، والعلم بمعنى المعرفة.

قال الفاضل المحشى معترضا عليه: صرحوا بأن العلم بمعنى المعرفة لا يطلق على الله؛ لاقتضائه سبق الجهل، وتبع فيه السيد فى شرح المواقف فى قوله: علم الله لا يسمى

معرفة لا اصطلاحا ولا لغة إجماعا، وخطأه فيه الحافظ العراقى، رحمه الله تعالى، فى نكته على المنهاج، فقال: إن إمام الحرمين فسر العلم به.

وإطلاق المعرفة على الله ورد فى الحديث، وكلام الصحابة، وأهل اللغة، والمتكلمين. انتهى. فأى إجماع مخالف لهذا، ومثله عجيب من الشريف.

(ويتفرع) أى ينبنى ويظهر، ناظر لكونه أصلا، **(عن هذا)**، عداه بعن؛ لتضمين يتفرع معنى ينشأ، والمعروف تعديته بعلى، وهذا إشارة للأصل الذى هو العقل، **(ثقوب الرأى)**، أى نفاذ رأيه فيما يفكر فيه ويدرك به عواقب الأمور، ومنه كوكب ثاقب، أى مضىء، فقوله: **(وجودة الفطنة)**، وهى الحذق وسرعة الانتقال، **(والإصابة)**، أى موافقة الصواب فيه تفسير لثقوب الرأى، **(وصدق الظن)**، أى موافقته الواقع كاليقين، كما قال:

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رآى وقد سمعا

(والنظر للعواقب)، أى كأنه ينظر عواقب الأمور ويشاهدها، كما قال:

وإنى لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع

(ومصالح النفس)، مجرور معطوف على العواقب، أو مرفوع معطوف على ثقوب الرأى، أى ما فيه صلاح وخير لها، **(ومجاهدة الشهوة)**، أى مدافعتها وممانعتها عما تريده، فإنه جهاد أكبر، وأعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك، **(وحسن السياسة)** بغيره بأمره، من ساسه إذا حكم عليه، وهو لفظ عربى لقوله:

وكنا نسوس الناس والأمر أمرنا

وليس معربا كما توهمه ابن كمال فى رسالة التعريب كما مر بيانه، **(والتدبير)**، النظر فى إدبار الأمور وعواقبها، وهو عطف تفسير لما قبله أيضا **(واقتناء الفضائل)**، أى اكتسابها والتحلى بها، **(وتجنب الرذائل)**، أى ترك كل ما يلزم وينقص به الإنسان، كالكذب والخيانة.

(وقد أشرنا)، أى ذكرنا فيما تقدم فيما أوردناه فى صفاته والإشارة، وإن كانت تطلق على ما يقابل العبارة، قد يراد بها العبارة أيضا لنكتة، **(إلى مكانه منه، عليه الصلاة والسلام)**، الضمير الأول له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والثانى للعقل، والمكان الرتبة المعنوية فى الفضائل، يقولون: فلان بمكان من الفضل، يريدون علو رتبته فيه، وقيل: المراد مكانه من العقل، بمعنى أنه حائز، وله مالك لأمره على طريقة التجريد، مبالغة فى تمكنه منه، ولا يخفى ما فيه من التكلف من غير داع له، **(وبلوغه منه ومن العلم الغاية**

التى لم يبلغها بشر سواه)، كما سنبينه، **(وإذ جلالة محله من ذلك)**، قيل: الظرف متعلق بقوله: حارت العقول الآتى فى آخر الفصل، أى حارت العقول وقت حلوله إلى آخره، و «إذ» تعليلية، أى حارت العقول لأجل... إلخ.

وقيل: أنه علة للإشارة إلى مكانه منه وبلوغه غايته، أى من أجل أن جلالة محله... إلخ، و «إذ» تعليلية كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وقيل: المعنى من أجل أن جلالة محله متحقق يجب اعتقاد ذلك، ويجوز أن يكون ذلك لمجرد التحقق، ولا يخفى ما فى هذا كله من التكلف، والذى ظهر لى أنه معطوف على ما قبله؛ لأنه يعلم من إشارته إلى مكان منه لم يبلغه غيره علو ظاهر فيه، فكأنه قال: إذ علو قدره فيه محسوس مشاهدته، وإذ جلالة محله أمر متحقق بالدليل القاطع، فاستدل عليه بالحس والعقل، ومثله يسمى العطف على المعنى، وهو فى القرآن وكلام العرب متداول، قال ناظر الجيش فى شرح التسهيل فى قوله[1]:

أجدك لن ترى بثعيلبات ... ولا بيدان ناجية ذمولا

ولا متدارك والليل طفل ... ببعض نواشغ الوادى حمولا

متدارك بالجر؛ لأن المعنى لست براء ولا متدارك، وجعله أبو حيان من العطف على التوهم، كقوله[2]:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ... ولا ناعبا إلا ببين غرابها

والأولى أنه من العطف على المعنى، وفرق بينه وبين العطف على التوهم، وفيه كلام، وقد بيناه فى نكت المغنى.

وقوله: «من ذلك» إشارة للأصل، ولو سلمنا صحة تعلقه بقوله: حارت، كان معطوفا على ما قبله، ولا وجه له، **(وما يتفرع منه)**، من الأخلاق الشريفة وثمراتها، **(متحقق)** لا ريب فيه؛ لتواتره بحسب المعنى **(عند من تتبع)**، أى علم، فعبر بالسبب عن مسببه، كما قالوه فى تتبع خواص التراكيب، **(مجارى أحواله)**، جمع مجرى أو مجرى بالضم، وأصله مسيل الماء، والمراد ما جرت به عادته فى أحواله، ولا يخفى لطفه مع ملاحظة قوله أولا: ينابيعها، فإنه جار على مجراها ومنحدر إليها، **(واطراد سيره)**، الاطراد افتعال من الطرد، وهو الجرى خلف شىء من صيد أو غيره، ومنه مطاردة

---

(١) البيتان من الوافر، وهما للمرار بن سعيد فى ديوانه (ص٤٧٥).

(٢) البيت من الطويل، وهو للأحوص الرياحى فى الإنصاف (ص١٩٣)، الحيوان (٣/٤٣١)، خزانة الأدب (٤/١٥٨)، شرح المفصل (٢/٥٢)، شرح أبيات سيبويه (١/٧٤).

الفرسان فى الميدان، ومناسبته للسير، وإن كان المراد بها مطلق الصفات؛ لأنها تختص بالغزوات، وقيل: المراد محال اطرادها؛ ليوافق قوله: مجارى أحواله، أى محال جريانها، والاطراد مصدر أطرد الشىء، تبع بعضه بعضا فجرى، والأنهار تطرد، أى تجرى، ومنه الاطراد البديعى لسرد أسماء الممدوح وإبانة مرتبته، والمعنى جرى سيره فى جداول الكتب منسجمة، فهو استعارة وجه الشبه فيها الكثرة، ولا يخفى ما فيه من البعد، **(وطالع جوامع كلامه)**، أما جمع جامع، والمراد الكتب الجامعة للحديث الشريف، أو كلماته الجامعة للحكم التى تتحير فيها عقول البلغاء والحكماء، **(وحسن شمائله)**، بالجر معطوف على كلامه، وهى جمع شمال، بمعنى الخلق والصفة، قال:

فما لمؤمن أحد من شماليا

أى من خلقى وعادتى.

(وبدائع سيره)، أى سيره البديعة، وينبغى أن يراد بها كتب، حتى لا يكون مكررا مع ما مر، **(وحكم حديثه)**، بكسر الحاء، وفتح الكاف، وهى القول المصيب غرض الحق، والحديث معروف، **(وعلمه بما فى التورة والإنجيل والكتب المنزلة)**، بالتشديد والتخفيف على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كالزبر والصحف، أى على علمه بذلك، والتوراة أجل الكتب المنزلة قبل القرآن، وأصلها «وورية»، أبدلت الواو تاء، ووزنها تفعلة، بفتح العين أو كسرها، وقيل: وزنها فوعلة، والإنجيل بالكسر، وقد تفتح، من النجل، وهذا أمر تقديرى ليجرى عليه أحكام الألفاظ العربية، إذا الاشتقاق لا يجرى فى غير كلام العرب، **(وحكم الحكماء)**، جمع حكمة، أى ما لهم من الحكم فى كلامهم، فإنهم كان لهم اعتناء بذلك، وقد مر أنه جمعها ابن مشكويه فى كتاب كبير سماه جاذان خردن، وقد طالعته فرأيت أكثره ورد فى الأحاديث الشريفة، ولكن أين الثريا من الثرى؟ فإن رونق الألفاظ النبوية لا يمكن مضاهاته، **(وسير الأمم الخالية)**، أى ما وقع فى زمنهم من الأحوال كما كان ﷺ يحدث عن بنى إسرائيل، وما كان من عجائبهم **(وأيامها)**، أى وقائعها فى حروبها ومجادلاتها، فإن الأيام شاعت بهذا المعنى، كما يقال: يوم حليمة، ويوم بعاث، وهو إطلاق شائع صار حقيقة فيه، ومما قلته مشيرا لهذا المعنى:

تمنيت من دهرى زمان نشأتى ... زمان به طيف السرور كأحلامى
فجاء بأيام على أثر ما مضى ... ولكن حروب قد تسمت بأيام

(وضرب الأمثال)، الأمثال جمع مثل، وهو كلام شبه مضربه بمورده الذى وقع فيه

أولا، مستعار من ضرب الخاتم أو اللبن، كما حققه أهل المعانى والتفسير، وهو مما يعتنى به البلغاء لكشف المعنى الممثل له وإبرازه فى صورة المشاهد إلى غير ذلك، والأمثال النبوية أفردت بالتأليف، **(وسياسات الأنام)**، السياسة ضبط أمور العامة باللسان والسنان وتدبير أحوالهم، وليس المراد حسن المداراة، كما قاله التلمسانى، والأنام الخلق، وقيل: الأنام عبارة عما يعتريه النوم، أو الإنس، أو الجن، أو ما على الأرض من الخلق، فيختلف بحسب ما يضاف إليه، **(وتقرير الشرائع)**، أى بيان ما يتعلق بأحكام الشرع فى المعاملات وغيرها، **(وتأصيل الآداب النفيسة)**، أى بيان أصول الآداب التى تتأدب بها الناس فى مجالسهم ومحاوراتهم، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أكرموا عزيز كل قوم»، ونهيه عن الملاحاة والمجادلة كما مر، وقوله: **(تهادوا تحابوا)**، وسماها نفيسة؛ لأنها مما يتنافس فيها المتنافسون، **(والشيم الحميدة)**، جمع شيمة، وهى العادة، قالوا: الإنصاف من شيم الأشراف، أى عاداتهم، والحميدة بمعنى المحمودة، مضموما ما ذكر، **(إلى فنون العلم)** التى كانت فى الأمم السالفة، كالطب وغيره؛ لما لم ينه الشرع عنه، **(التى اتخذ أهلها كلامه، عليه الصلاة السلام، فيها قدوة)**، اقتدوا به فيها، واستدلوا به عليها، **(وإشاراته)** فى أثناء كلامه بها **(حجة)**، دليلا عليها **(كالعبارة)**، بفتح العين بضبط القلم، والمحفوظ فيه كسرها، كما قاله البرهان الحلبى، وذكره الأزهرى الجوهرى، إلا أنه لم يضبطه، والذى فى النسخ كسر العين، بمعنى تفسير الرؤيا، وهو على قسمين فى الرؤيا الصحيحة؛ لأنها على ثلاثة أقسام، رؤيا ظلمة من الشيطان، ومن عوارض بدن الإنسان، كمن غلبت عليه الحرارة فرأى نارا توقد عنده، أو البرودة فرأى ماء وبحرا، أو أكل مأكل غليظة سوداوية كالباذنجان فرأى سوادا، ويسمى أضغاث أحلام، ولا تأويل لها، وكذا من غلب فكره فى شىء فرآه، كما قال المعرى:

إلى الله أشكو أننى كل ليلة ... إذا نمت لم أعدم خواطر أوهامى
فإن كان شرا فهو لابد واقع ... وإن كان خيرا فهو أضغاث أحلام

ورؤيا من الله يريها له ملك الرؤيا عند أهل الشرع، أو تدركها الروح إذا انقطعت عنها علائق البدن واتصلت بالملأ الأعلى، فتلقيها إلى القوة المتخيلة، فترتسم فى الحافظة، وتبقى مشاهدة فيها حتى يستيقظ، فإن كانت النفس قدسية والقوى قوية، وقع ما رأته بعينه، ولم يحتج للتأويل، وهو الأكثر فى رؤيا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن كان على سننهم، ولذا أراد الخليل، عليه الصلاة والسلام، ذبح ابنه، ولم يأول رؤياه بالفداء، حتى أمره الله تعالى به، وإلا فتأول بما يناسبه معنى أو لفظا أو محاكية صورة.

وفعلها «عبر» بالتخفيف، يعبر بالضم، عبارة بالفتح، كعلاقة وظلامة، أو عبارة

كرسالة، وقد تشدد فيقال: عبر تعبيرا، قال فى الكشاف فى سورة يوسف: رأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر، وقد عثرت على بيت أنشده المبرد فى الكامل يدل عليه، وهو[1]:

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارا

انتهى.

هذا ما ذكره من يوثق به فى اللغة كالجوهرى، وصاحب القاموس وغيره، وقال فى عمدة الحفاظ: العبارة بكسر العين تختص بالكلام؛ لعبور الهواء من لسان المتكلم لسمع السامع، ولا يستعمل فى تفسير الرؤيا، يعنى أنها فيه مفتوحة لا غير، فتوهم بعض الشراح أنها بكسر العين لا غير، وأنه أنكر هذا اللفظ مطلقا وأساء سمعا، فساء ما جاء به، ثم جاء من بعده، فضاربه مضاربة العميان، فقال: إنه كلام ضعيف مردود، فلم يقف على المراد، و لم يأت بما يدفع الإيراد، فأخطأ فى المعنى والعبارة، وأما تحقيق معنى الرؤيا، فليس هذا محله، ولعل النوبة تفضى إليه فى بحث النبوة، وقد أفردنا له تعليقة، **(والطب)**، وهو مثلث الطاء، إلا أنه لم يستعمل فيما نحن فيه إلا بالكسر، والمراد به علم يتعلق ببدن الإنسان من حيث الصحة والمرض، وهو من علوم الأوائل، وللعرب به اعتناء، وقد أفرد الطب النبوى بالتأليف.

(والحساب)، بكسر الحاء، مصدر حسب، بمعنى عد، ثم صار علما لعلم يعرف به أحوال المقادير، وهو من العلوم الرياضية القديمة، **(والفرائض)**، ذكره بعد الحساب؛ لتوقفه عليه، وهو علم يعرف به أحوال المواريث، وهو جمع فريضة بمعنى مفروضة؛ لأن الله فرضه، وهو من العلوم الإسلامية، وإطلاق هذا اللفظ عليه بعد نزول القرآن، ومعناه ظاهر، **(والنسب)**، أى معرفة أنساب الناس من آدم، عليه الصلاة والسلام، إلى كل عصر، وهو من علم التاريخ، وكانت العرب تعتنى به، وهو أعلم الناس به، وأعلم الناس به بعد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصديق، رضى الله تعالى عنه، وهو من نسبت الرجل، إذا عزوته لأبيه، ومناسبته للفرائض ظاهرة، وهذه العلوم كلها شرعية وفرض كفاية، لاسيما الفرائض والأنساب، فإن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر بالمحافظة عليها، ولعن من انتسب لغير نسبه، فقال: «من خرج من نسبه وانتمى لغير قبيلته، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، كما نقله التلمسانى، **(وغير ذلك مما سنبينه فى معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أبوابه إن شاء الله تعالى)**، وقد حصل له، عليه

(١) البيت من السريع، وهو لأعرابى فى الكامل (ص٥٦٣)، وبلا نسبة فى تاج العروس (٥١٢/١٢).

السلام، ذلك **(دون تعليم)** من أحد من البشر، والظرف متعلق بقوله: علمه السابق، **(ولا مدارسة)**، من درس الكتاب إذا قرأه وحفظه، أى لم يعرف بأخذه من الأفواه، وحفظه لشىء من العلوم عن غيره، **(ولا مطالعة كتب)**، يقال: طالعت الشىء إذا اطلعت عليه، أى لم يطلع على شىء من الكتب بقراءتها أو سماعها؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أميا بين قوم أميين، لم يره أحد قرأ ولا تعلم ممن قرأ، واستعمال المطالعة بمعنى القراءة، وهو مجاز مشهور قريب من معناه اللغوى، **(من تقدم)**، ككتب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والحكماء، **(ولا الجلوس إلى علمائهم)**، أى لم يعرف أحد أنه جلس عند أحد ممن يعلم كتب من تقدم ليأخذها عنه، والضمير لمن باعتبار المعنى، فكل ذلك الذى حصل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما هو علم لدنى غير مكتسب من أحد من البشر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ففيه الرد على قولهم المذكور بأنه كذب محض، يشهد العيان ببطلانه، وقد تولى الله تكذيبهم فى ذلك، كما هو مبسوط فى التفسير، **(بل)** هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبى أمى لم يعرف بشىء من ذلك التعلم والمدارسة والمطالعة والمجالسة، أى منبئ عن الله، أو منبئا لا عن مخلوق، والأمى منسوب إلى الأم؛ لأنه كيوم ولدته أمه، أو إلى أم القرى، أو أمة العرب؛ لأن القراءة والكتابة كانت عزيزة فيهم، والأمى الذى لا يكتب ولا يقرأ الكتب، وقيل: هو الذى لا يكتب، وبما شرحناه علمت مناسبة ذكر النبى هو، وفى الحديث: «إنا أمة أمية، لا نحسب، ولا نكتب»(١)، أى على جبلتنا، لم نتعلم حسابا ولا كتابة، فلا ينافى ما مر من علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالحساب، **(حتى شرح الله صدره)**، أى وسعه ونوره بالعلم والحكمة، وهداه لكل خفى من العلوم، **(وأبان أمره)**، أى أظهر أمره فى العلم للناس بآياته الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، وإقامته الحجج المتواترة، **(علمه)** من لدنه العلوم المعهودة وغيرها، **(وقرأه)**، أى أقدره على القراءة بما ألقاه، أو بما أوحاه إليه بواسطة الملك، والإسناد مجازى، أو التجوز فى الظرف، كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، **(يعلم)** بالبناء للمجهول، **(ذلك)**، أى ما بلغه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من العقل والعلم من غير تعلم، **(بالمطالعة)**، أى بالاطلاع على سيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشمائله من كتب الحديث، **(والبحث عن حاله)**، وفى نسخة: من حاله، والظاهر الأول؛ لتعديه بعن، وهو بمعنى التفتيش عنه بالسؤال وغيره، **(ضرورة)**، منصوب بنزع خافض متعلق بيعلم، أى من وقف على أحواله، صلى الله

---

(١) أخرجه مسلم (١٥/١٠٨٠)، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائى (١٣٩/٥)، وأحمد (٤٣/٢، ٥٢).

تعالى عليه وسلم، علم ذلك بمجرد التفات الذهن إليه من غير احتياج إلى دليل.

(**وبالبرهان القاطع على نبوته ﷺ نظرا**)، أى ويعلم ذلك أيضا بالبراهين القاطعة الدالة على نبوته لمن نظر فيها، فقوله: بالبرهان، معطوف على قوله: ضرورة، وعلى نبوته حال من البرهان، ونظرا تمييز، والنظر أصله تقليب البصر للإدراك، ثم استعمل فى التأمل والفحص والمعرفة الحاصلة منه والاستدلال، وهو المراد هنا، أى من نظر فى دلائل نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم قوة عقله، وأنه أحاط بعلوم لا نهاية لها.

(**فلا نطول بسرد الأقاصيص**)، السرد تعداد أمور من القصص ونحوها متتابعة متوالية، مستعار من سرد حلق الدرع وخيوط النسخ، والأقاصيص جمع أقصوصة، كأعجوبة، بمعنى قصة، أو جمع قصص، على خلاف القياس كما قاله التلمسانى، يقال: قص واقتص، بمعنى أخبر، والقصص اسم مصدر، وقيل: إنه يحتمل أن يكون جمع أقصاص، جمع قصص، كأنعام وأناعيم فى جمع نعم، إلا أنهم تركوا استعمال أقصاص، فإنه لم يسمع، وفيه تكلف لا يخفى، (**وآحاد القضايا**)، أحاد بمد الهمزة، جمع أحد، بمعنى مفرداتها.

وفى العباب: سئل أبو العباس عن الآحاد، هل هو جمع الأحد؟ فقال: معاذ الله، ليس للأحد جمع، ولكن إن جعلتها جمع الواحد فهو محتمل، كشاهد وأشهاد، وليس للواحد تثنية ولا للاثنين، وأحد من جنسه. انتهى. والقضايا جمع قضية، وهى الجملة من الكلام الدالة على معنى من الأحكام، وهى قريبة من قول أهل الميزان: القول المحتمل للصدق والكذب كالخبر، فهى أخص من الكلام والجملة، ووزنها فعالى عند الكوفيين، وفعائل عند البصريين، (**إذ مجموعها**)، أى جميع قصصه وقضاياه، (**ما لا يأخذه حصر**)، أى ضبط، وأصل معنى الأخذ حوز الشيء وتحصيله، ثم استعمل بمعنى الغلبة والقهر، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،كما مر، وهذا هو المراد هنا، وجعل مجازا أو كناية عن أنه لا يمكن حصره، وكذا قوله: (**ولا يحيط به حفظ جامع**)، أى لا يحفظ، والإحاطة الأخذ بجوانب الشيء، وأريد به ما ذكر، (**وبحسب عقله**). قال البرهان: هو فى الأصل بسكون السين، وينبغى أن يفتح، أى بقدر عقله وإدراكه، وقد جوز فيه السكون، لكنه ضرورة، والذى فى القاموس: هذا بحسب ذا، أى بعدده، وقد تسكن، و لم يخصه بالضرورة، (**كانت معارفه، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، جمع معرفة، أى علومه، (**إلى سائر ما علمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان**)، أى مضمومة إلى جميع ما أو باقى ما أطلعه الله عليه مما تقدم فى الكون من أحوال الأمم الخالية وكتبهم وشرائعهم، وما أطلعه الله عليه من المغيبات التى ستأتى، ولما كانت جلالة قدره

بواسطة علمه بما يكون أقوى منها بواسطة علمه بما كان، قدم ما يكون فى المستقبل على ما كان فى الماضى، مع سبقه اهتماما بشأنه، ومقتضى الترتيب العكس، (**وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته**)، مجرور معطوف على علم، والمراد ما أطلعه الله عليه فى الإسراء من خلق الملائكة والسموات، وإقداره على ذلك فى برهة من الزمن، وقد مر أن الملكوت مبالغة فى الملك، كالرحموت والجبروت، ويطلق ويراد به عالم الأمر، ويقابله الملك، (**قال الله تعالى**): ﴿**وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]، أى علمك ما لم يكن من شأنك وفى قدرتك علمه، كالمغيبات، والإطلاع على أحوال الملكوت، ولذا امتن عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه فضل عظيم، فضله به على مخلوقاته تعالى؛ لأنه كقولهم: ما يكون لك أن تفعل كذا، أى لا ينبغى ولا يليق أو لا يصح ولا يمكن، ولذا ختم الآية بهذه المنة، دون قوله فى الآية الأخرى: ﴿**عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥]، إلا أنه يبقى السؤال حينئذ على الآية الثانية بأنه: أى فائدة فى ذكر هذا المفعول، والتعليم معلوم أنه لا يكون إلا لغير المعلوم، وقال فى عروس الأفراح بعدما ذكر أن لم النافية يجوز فيها اتصال النفى وانفصاله، وأنهما اجتمعا فى قوله: ﴿**وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ**﴾ [الأنعام: ٩١]، وفائدة ذكر المفعول فى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ [النساء: ١١٣]، فإن كان الإنسان لا يعلم إلا ما لا يعلم التصريح بذكر حالة الجهل التى انتقلوا عنها، فإنه أوضح فى الامتنان. انتهى.

وفى حاشية السيرامى على المطول، أن الشارح قال فى بعض دروسه الأولى: أن يقول ما لم يكن يعلم، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**﴾ [النساء: ١١٣]، إذ لا فائدة فى ذكر المفعول، إذ التعليم إنما يكون لما لم يعلم، ولم يكن فيه إشعار بأنه لو لم يعلمه لم يحصل العلم؛ لخفائه على غير علام الغيوب، وهو بعيد، إذ ربما يتوهم حصوله من تعليمه تعالى، ورد بأنه كقوله تعالى: ﴿**عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ٥] الآية.

فالأولى أن يحمل ذكره على إفادة العموم؛ لأنه لئلا يتوهم اختصاصه ببعض الأفراد، كقوله: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**﴾ [الأنعام: ٣٨]، للتأكيد فتذكر، لكن قوله: من البيان، يأباه ويحتمل أنه ذكر للسجع. انتهى.

أقول: هذا كله كلام سطحى، والذى ظهر لى فى الآية أن جملة علم الإنسان مفسرة للصلة، وما الموصولة عبارة عن الكتابة والقراءة، فإنه لما قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئ»، سواء أريد النفى أو الاستفهام، قال له: كيف لا

تقرأ ولك رب أكرم تفضل على عباده بنعم من أجلها أن كل إنسان كان أميا مثلك فى ابتداء أمره فعلمه الكتابة وقراءتها بالهامة، فكيف لا يعلمك وأنت أعزهم عليه وأقواهم بصيرة، فأى فائدة أتم من هذه، وكل فعل معتد يدل على فاعل ومفعول ثان التزاما، ولذا لم يفد ضرب ضارب، وضرب المضروب، فإن أريد عموم أو خصوص أفاد، وهنا علم أنه لو قال: ما لم تكن تعلم، أو عقبه بما عقب به تلك الآية، لم يصادف محزه، وما قيل من أنه لم يذكر الكون فى هذه الآية الكريمة وذكره ثمة؛ لأنه ورد فى مقام خال عن اعتبار القوة والاجتهاد، فلا يناسبه ذكر الكون المؤذن بهما بخلاف تلك، ويؤيده قول الكرمانى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]: إن كان، ذكرت للتأكيد؛ لأن معناه كما فى الكشاف: ما صح، ويعنى به نفى إمكان الإضاعة، وهو أبلغ من نفى الإضاعة نفسها، ومنه يعلم السر فى أنه أردف قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣] بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، ولم يردف هذه به؛ لما فى الأول من المبالغة والتأكيد. انتهى.

وقد علمت ما فيه مما تقدم، وقوله: (**حارت العقول فى تقدير فضله عليه**)، المذكور فى هذه الآية؛ لأنه لا يمكن الوقوف عليه، ولذا وصفه بأنه عظيم ونكره، وما يكون عنده تعالى عظيما، كيف يعلمه سواه، (**وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك**) الفضل، وما لا يدرك كيف يوصف، وفى قوله: «خرست» دون سكتت وصمتت مبالغة؛ لأنه يقتضى سلب القوة الناطقة، ثم ترقى، فقال: (**أو ينتهى إليه**)، أى كيف يحيط بما لم يصل إليه.

* * *

(فصل وأما الحلم)

أى حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وعدم إظهاره، (**والاحتمال**)، هو افتعال من الحمل، وهو يكون على الظهر وفى البطن، ففرق بينهما لفظا، ثم استعمل فى التكليف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وللصبر على المكاره وعدم التأثر منها، كما فى: «الماء لا يحمل الخبث»، وهو المراد هنا، (**والعفو**) عدم المؤاخذة بالذنب ونحوه، وهو قريب من المغفرة، وبينهما فرق تقدم، (**مع القدرة**)، وفى نسخة: المقدرة، بفتح الدال وضمها، وميم مفتوحة مصدر ميمى بمعنى القدرة، ومن كلامهم: القدرة تذهب الحفيظة، أى الغضب والحمية، (**والصبر على ما يكره**)، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، من هذا بمرتبة لا تدرك، (**وبين هذه الألقاب**)، أى بين مسميات هذه الألقاب، (**فرق**) يتميز بها عن غيره،

واحتاجت إلى الفرق لتقارب معانيها، والمراد باللقب اللفظ الجامد الدال على صفة لا ما اصطلح عليه النحاة، وهو كما قال الراغب: اسم يسمى به الإنسان غير اسمه الأول، ويراعى فيه المعنى بخلاف الإعلام، **(فإن الحلم حالة توقر)**، بفتح المثناة الفوقية، وضم القاف المشددة، أى إظهار الوقار، وهو السكون، يقال: هو وقور ووقار متوقر، أى ساكن غير مضطرب، **(وثبات عند الأسباب المحركات)** كالغضب، قيل: ولابد من اعتبار كون هذا لسهولة حتى يخرج التحكم، وإن كان بعد الاعتياد يصير كذلك، **(والاحتمال حبس النفس عند)** ورود ما يعتريها من **(الآلام)**، بمد الهمزة، جمع ألم، وهو ما يؤلم فى أى عضو كان، **(والمؤذيات)**، بالهمزة، والواو، الذال المعجمة، جمع مؤذية، ولأذى كل ما يتأذى به، والمراد بحبس النفس ضبطها حتى تخضع لسلطان العقل وتطمئن لما يأمرها به، وفى نسخة العرفى رواية كما التلمسانى، المرديات بالراء، والدال المهملتين، من الردى، بمعنى الهلاك، **(ومثلها)** قيل: المراد مثل المذكورات، وقيل: المراد مثل الاحتمال، وأنث ضميره باعتبار أنه حال، ولو قال: ومثله كان أحسن، وأسلم من التكلف، **(الصبر)**، فإن معناه لغة الحبس، ومنه قتله صبرا، إذا مسكه ليقتله فى غير قتال، وهذا يؤيد إرجاع الضمير للاحتمال، **(ومعانيها متقاربة)**. قال الراغب: الصبر الإمساك فى ضيق وحبس عما يقتضيه العقل أو الشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسماءه بسبب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمى صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان فى محاربة سمى شجاعة، ويضاده الجبن، وإن فى نائبة تضجره، سمى رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان فى الكلام سمى كتمانا، ويضاده الذله. انتهى.

ومنه تعلم أن له معنيان خاص وعام، فلو حمله المصنف على الخاص، غاير أخويه، وهو الأول.

(وأما العفو، فهو ترك المؤاخذة)، بالهمزة وبالواو، غير فصيحة، وهى الجزاء على ما فعل غيره، قيل: وفى تفسيره بالترك إشعار بأنه لا يكون إلا عن قدرة؛ لأن من لا يقدر عادم لا تارك، فتقييده به أولا للأكيد كنظر بعينه، كقوله:

وإن فى الحلم ذلا أنت عارفه ... والحلم عن قدرة فضل من الكرم

لأنه إن لم يكن عن مقدرة فهو عجز، وما أحسن قول ابن زيدون:

أرى الدهر أن يبطش فمنك يمينه ... وإن تبسم الدنيا فأنت لها ثغر

عطاء ولا من وحكم ولا هوى ... وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

(وهذا كله مما أدب الله به نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى آداب ومحاسن علمها الله لنبيه ﷺ، وأرشده بعدما خلق فيه استعدادا تاما لها، كما قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»(١)، وهو أحد الحكم فى كونه ﷺ تربى يتيما، حتى يعلم أن ربه مربيه من غير حاجة لأمه وأبيه، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية، وتمامها ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، أى تعاط العفو عن الناس، وترك مؤاخذتهم، وفى عدوله عن أعف الأظهر الأخصر نكتة يعرفها من له إلمام بالأدب، كما أن فى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ دون عمل، إشارة إلى أنه متصف به مركوز فى جبلته، ومن تأمل مثله استخرج منها فوائد لا تحصى، ومنهم من فسر العفو بالمساهلة وترك المؤاخذة، والبحث عن مذام الأخلاق، فأمره بأخذ ما سهل من أخلاق الناس وأفعالهم من غير كلفة وطلب، لما يشق، واعترض عليه بأنه غير مناسب لقوله، **(وروى أن النبى ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية)**، وهذا الحديث، كما قاله السيوطى: رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ فى تفاسيرهم، وابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق، ووصله ابن مردويه من حديث جابر، رضى الله تعالى عنه، وعزاه الشيخ قاسم للبخارى، عن عبد الله بن الزبير فى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إلى آخره، أنه قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس، وله فى رواية أخرى تعليقا عن عبد الله، قال: أمر الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يأخذ العفو من أقوال الناس، أو من أخلاق الناس.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، أى عن معايبهم ولا تمارهم، فإن كان شاملا لمداراة الكفار، فهو منسوخ بآية السيف، وإن كان أمرا بمكارم الأخلاق وعدم مقابلة من سفه، فليست منسوخة، قيل: ويعين هذا ما رواه البخارى من أن عيينة بن حصين استأذن له الحر بن قيس من عمر، رضى الله تعالى عنه، فى الدخول فدخل عليه، وقال له: يا ابن الخطاب، أما تعطينا الجزل، وتحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر، رضى الله تعالى عنه، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية، وإن هذا من الجاهلين، فما جاوزها عمر رضى الله تعالى عنه، وكان وقافا عند كتاب الله، فهذا يدل على أنها غير منسوخة، وليس كما قال، فإنه يجوز أن يكون استشهد بها؛ لشمولها غير الكفار، لا أن هذا هو معناها فقط، **(سأل)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(جبريل)**، عليه الصلاة والسلام، **(عن تأويلها)**، أى تفسيرها وبيان المراد منها، فإنه أحد معنيى التأويل، فقال له: **(حتى**

---

(١) انظر: الفوائد المجموعة (٣٢٧)، تذكرة الموضوعات (٨٧)، كشف الخفا (١/٧٢).

أسأل العالم)، يعنى الله عز وجل، والعالم كالعليم من أسماء الله تعالى، ويوصف بهما غيره تعالى، أما الأول فظاهر، وأما الثانى فى حق الله فظاهر، وأما فى غيره، فكقوله[1]:

فإن تسألونى بالنساء فإننى … عليم بأدواء النساء طبيب

والثانى فى حق الله تعالى أشهر، وقيل: المراد العالم الكامل فى العلم، كما فى قوله: **(ذلك الكتاب)**، فيختص به، فإنه مساو بهذا المعنى للعليم، وأما العليم، فإطلاقه على غير الله لم يسمع، والشعر المذكور لابن الوردى، وهو من المتأخرين، لا يستدل به، وهذا الحديث يكفى شاهدا لإطلاق العالم على الله، فهو كاف فى ثبوته.

أقول: هذا عجيب من مثله، وفيه من الخلط ما لا يخفى، أما قوله: إن الشعر المذكور لابن الوردى، فافتراء عليه؛ لأنه شعر فصيح لبعض العرب، وهو مذكور فى الشواهد، وأما استدلاله على العالم بالحديث، وهو مذكور فى القرآن، كقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فمما يقضى منه العجب، وأما قول جبريل، عليه الصلاة والسلام: حتى أسأل العالم، دون أسأل الله، فكأنه تأدب منه؛ لإيهام أنه لا يسأل الله بالذات، فكان بينه وبينه واسطة، أى من هو عالم بالتفسير، وفيه إرشاد لمن سئل عن شىء لاسيما القرآن، فينبغى أن يثبت فيه.

وفى جبريل تسع لغات: جبريل، بكسر الجيم، وجبريل، بالفتح، وجبرئل، بالفتح مهموزا مشدد اللام، وجبرائل بهمزة بعد الألف، وجبرئل مفتوحا بهمزة بلا ألف وياء، وجبرئيل، وجبرين بنون وفتح الجيم وكسرها، وفيه لغات أخرى. وقال الجوهرى والأزهرى وكثير من المفسرين فى جبرئيل وميكائيل: إن جبر وميك معناهما عبد وئيل وإل اسم الله. وقال أبو على الفارسى: هذا خطأ؛ لأن ال لم يذكر أحد أنه من أسماء الله تعالى، ولأنه لو كان كذلك كان عبد الله يلزم آخره حالة واحدة، ولا يعرب بحسب العوامل. قال النووى: وهو الصواب، ولا يخفى ما فيه، فإن الّ إذا كان اسما لله، فهو سريانى، فلا يأباه عدم معرفة العرب له، وأما إعرابه، فلأنه لما عرب غير عما كان عليه، وجعل اسما واحدا، ولذا أرجعوه لأوزانهم، والعرف هو الخصال المحمودة، لا العرف الشرعى كما توهم، **(فأتاه)**، الفاء فصيحة، أى انفصل عنه وفارقه، ثم أتاه، **(فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك)**، الظاهر أن المراد به صلة الرحم، والرحم بمعنى القرابة، وصلتهم بالإحسان إليهم وفعل الجميل وقوله، كالهدية، والزيارة، وإرسال

(١) البيت من الطويل، وهو لعلقمة الفحل فى ديوانه (ص٣٥)، أدب الكاتب (ص٥٠٨)، الأزهية (ص٢٨٤)، الجنى الدانى (ص٤١)، الدرر (١٠٥/٤)، المقاصد النحوية (١٦/٣)، **همع الهوامع** (٢٢/٢).

السلام، ونحو ذلك، وضده قطع الرحم، ويحتمل التعميم لتعليم الخلق، وترك التهاجر المنهى عنه، كما فى قوله: **(وتعطى من حرمك)**، يقال: حرمه وأحرمه بمعنى، أى أحسن إلى من لم يحسن إليك، وهذا إرشاد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأمته، وإن كان لا يرجو غير الله وإحسانه، **(وتعفو عمن ظلمك)**، هذا معنى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، وما قبله، يعنى ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

ولم يتعرض لقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، إما لظهوره، أو للإشارة إلى أنه فى معرض النسخ، أو لأن المراد بالجاهلين من قطع وظلم، وهذا إشارة إلى أصول الأخلاق وأعظمها وأحبها إلى الله تعالى، فتدبر.

وقال له: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] الآية، وهذه الآية من وصية لقمان لابنه، إذ قال له: ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]، كما قصه الله تعالى فى كتابه الكريم، وكل ما قصه الله تعالى من قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فهو إرشاد لنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأمته، فكأنه بما أمر به ابتداء، فلا يتوهم أنها ليست فى حقه، أى إذا أمرت بمعروف ونهيت عن منكر وأصابك بسبب ذلك مكروه، فاصبر له، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال العز بن عبد السلام: أولو العزم، أولو الجهد والصبر، وهم المأمورون بالجهاد، أو الرسل من العرب، وقيل: من لم تصبه فتنة، وقيل: من أصابه بلاء بغير ذنب، وهم نوح، وإبراهيم، ومحمد، صلى الله تعالى عليهم، وقيل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمد، وقيل: هم المذكورون فى الأنعام، فقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، إلا يونس؛ لقصة الحوت. انتهى.

ولا ينبغى عد محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، هنا؛ لقوله: ﴿كَمَا صَبَرَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم كلهم من الرسل، وقد علمت أنه اختلف فيهم، فقال مجاهد: هم خمسة، وهم أصحاب الشرائع، وقيل: ثلاثة، وقيل: ستة، وقيل: جميع الرسل أولو عزم، وقيل: كل الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أولو عزم، إلا يونس؛ لتخليه، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فصيحة؛ لأن قبلها، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، أى إذا كان عاقبة الكفرة ما ذكر فاصبر، وقد صبر ﷺ مثل صبرهم، وزاد عليهم، و﴿مِّنَ﴾ فى ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] بيانية أو تبعيضية، والخلاف دائر على تفسير ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] بالصبر، كما هو ظاهر الآية، والجد الاجتهاد أو الجهاد، وقال: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢] الآية، ﴿أَلَا

تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، العفو عدم المؤاخذة بالذنب، والصفح الإعراض عنه وعن ذكره؛ لأن من أعرض عن شيء ولاه صفحة عنقه، وهذه الآية وإن نزلت فى الإفك وفى حق أبى بكر، رضى الله عنه، إذ كان ينفق على مسطح لقرابته منه، فلما خاض فى الإفك آلى أن لا ينفق عليه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [النور: ٢٢]، إلى آخره، فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، وعاد إلى إنفاقه عليه، فالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، داخل فى عمومها، كما فى سائر الخطابات، فلا يرد على المصنف أن هذه الآية ليست فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾)** [الشورى: ٤٣]، أى من أهم الأمور التى ينبغى التصميم والعزم عليها، واللام موطئة للقسم إن قلنا: أن من شرطية، أو لام ابتداء، إن قلنا: أنها موصولة كما فصله المعربون، وهذه الآية مع ما قبلها كما علمت، نزلت فى أبى بكر، رضى الله عنه، وقد شتمه بعض الأنصار، واستشهد بها المصنف على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان آخذا بذلك متعمدا عليه.

(ولاخفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله)، الباء بمعنى فى، ويؤثر بمعنى ينقل، ويروى من حلمه وتحمله للأذى، فإنه شائع غير خفى على أحد، **(وإن كل حليم)**، أى ولا خفاء أن كل حليم غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قد عرفت منه زلة)**، بفتح الراء المعجمة، وهى الخطيئة والسقطة، قال الشاعر:

قفى لا تزلى زلة ليس بعدها   حفو وزلات النساء كثير

(وحفظت عنه هفوة)، بفتح الهاء، وسكون الفاء، وهى قريبة من الزلة معنى، وقال التلمسانى: هى بالفاء، وهو أكثر، وبالقاف، وهى السقطة، وقريب منه، وهى من هفا، بمعنى زل وسقط، أو تحرك وأسرع.

(وهو، صلى الله عليه تعالى وسلم، لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما)، جملة حالية، أى مع أنه لابد من الزلة والهفوة فى الغضب والمكاره، فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يزداد مع ذلك إلا صبرا وحلما، والمراد بالجاهل ليس ضد العالم، وإن كان أشهر معنييه، بل هو السيئ الخلق، المجازف فى أموره، قال الشاعر(١):

---

(١) البيت من الوافر، وهو لعمرو بن كلثوم فى ديوانه (ص٧٨)، لسان العرب (١٧٧/٣)، أمالى المرتضى (٥٧/١)، البصائر والذخائر (٨٢٩/٢)، خزانة الأدب (٤٣٧/٦)،

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا فنجهـل فـوق جهــل الجاهلينـا

فالجهل بهذا المعنى خلاف الحلم، ويتعدى بعلى، وقد تترك تعديته، كقول الحماسى:

وبعــض الحلـــم عنـــد الجهــ ـل للـــذلــة إذعـــــان[1]

وقال بعض الحكمـاء: لا يحملنـك سـب الجـهول لـك، وجـرأة السـفيه عليـك علـى الإجابة له وفرية عليه، فحلم يغنى صبرك خير من سفه يشفى صدرك، وهو مما يدل على مغايرة الحلم للصبر، وإن كان مقاربا له كما مر، وهـذا هـو المعـروف عنـد العـرب فـى الجهل، والإسراف بمعنى الزيادة ومجاوزة الحد.

(حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن على التغلبى وغيره)، هو محمد بن على بن محمـد ابن عبد العزيز بن حمدين، بزنة غسـلين، التغلبـى، بفتـح المثنـاة الفوقيـة، وسـكون الغـين المعجمة، منسوب لتغلب، اسم قبيلة سميت باسم أبيهم كتميم، ولامه مكسورة تفتح فى النسب استيحاشا من توالى كسرتين وباء، ولد سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، ومات يـوم الخميس لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسمائة، ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصـر، وكان فقيها، ثقة، تولى القضاء فى أيام المرابطين، ولاه يوسف بن تاشفين، فسار بأحسن سيرة، وبقى فيها مدة عمره، وسمع من شيوخ الأندلس، وأخذ عنـه المصنـف فـى رحلتـه لقرطبة.

(قالوا: حدثنا محمد بن عتاب)، بفتح العين المهملـة، وتشـديد المثنـاة الفوقيـة، وألـف، وباء موحدة، وهو ابن محسن الجذامى، المحدث، الفاضل، توفى ليلة الثلاثـاء لعشـر بقـين من صفر سنة اثنين وأربعمائة، قال: **(حدثنا أبو بكر بن وافد، وغيره)**، هو يحيى بـن عبـد الرحمن بن وافد، بالفاء والدال المهملة، علم منقول من الوافـد، بمعنـى القـادم، قـال ابـن سهل فى أحكامه: كان ابن وافد مقدما فى أصحاب ابـن ذرب، ثـم سـقط بعـد موتـه، وألزم داره، ثم أعاده المنصور بن سليمان إلى مرتبتـه، وجعـل إمامـا بجامع الزهـراء، ثـم وقعت له أمور اقتضت موته فى الحبس، ودفـن بمقـبرة الربـض سـنة خمسـين وأربعمائـة، وانتصر الله من قاتله بعد أيام.

وفى بعض الحواشى أنه وقع هنا فى أصل السماع: وافـد بالفـاء، وفيمـا سـيأتى فـى كيفية الصلاة على النبى، صلى الله تعـالى عليـه وسـلم، واقـد بالقـاف، وهـو الصـواب،

---

(١) البيت من الهزج، وهو للفنـد الزمـانى فـى أمـالى القـالى (١/ ٢٦٠)، حماسـة البحـترى (ص٥٦)، خزانة الأدب (٣/ ٤٣١)، الدرر (٥/ ٢٥٠)، شرح ديـوان الحماسـة للمرزوقـى (ص٣٨)، شـرح شواهد المغنى (٢/ ٩٤٤)، المقاصد النحوية (٣/ ١٢٢).

والأول هو الذى صححه البرهان الحلبى والتلمسانى، قال: **(حدثنا أبو عيسى)** هو اللثيى، واسمه يحيى بن عبيد الله بن أبى عيسى، يروى عن أبيه عبيد بن يحيى، توفى لعشرين مضين من رمضان سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، قال: **(حدثنا عبيد الله)**، قال البرهان الحلبى: هو أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير، قال: **(حدثنا يحيى بن يحيى)** قال البرهان الحلبى: هو يحيى بن كثير اللثيى مولاهم البربرى المصمودى القرطبى، الفقيه أبو محمد، عالم الأندلس، لم يخرج له فى الكتب الستة شىء، والموطأ مشهور به، وموطأه أصح نسخ الموطأ، وقد سمعته بحلب، وأقرأته بالإسكندرية، أما الذى له ذكر فى البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، فهو يحيى بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن يحيى بن حماد التميمى أبو زكريا النيسابورى، أحد الأعلام. انتهى.

قال: **(حدثنا مالك)** بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى، إمام دار الهجرة، ومن إليه الرحلة بها صاحب المذهب الجليل، واختلف فيه، هل هو تابعى أو من تبع التابعين؟ ولد سنة ثلاث وتسعين، وتوفى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، ومات وهو ابن ست وثمانين، واختلف فى جده أبى عامر، هل له صحبة أم لا؟.

(عن ابن شهاب)، هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، توفى سنة أربع وعشرين ومائة، وقيل غير ذلك.

(عن عروة) بن الزبير بن العوام، أخو عبد الله بن الزبير، أحد فقهاء المدينة السبعة، روى عن أبويه الزبير وأسماء بنت أبى بكر، وخالته عائشة، رضى الله تعالى عنهم، وغيرهم، وتوفى سنة أربع، أو خمس، وتسعين بعد الهجرة، وولد سنة اثنين وعشرين، وهذا حديث صحيح فى الصحيحين والموطأ، واختار المصنف، رحمه الله، طريق الموطأ، فقال: **(عن عائشة)** أم المؤمنين، فريدة الصدق، ويتيمة الدهر، رضى الله تعالى عنها، **(قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا اختار أيسرهما)**. قال البرهان: هذا ما أخرجه المصنف من موطأ مالك، عن يحيى بن يحيى، وقد أخرجه البخارى، ومسلم، وأصحاب السنن، ولم يره الصنف من غير هذه الطريق؛ لأنه إمام مذهبه، ولأهل المغرب اعتناء به وترجيحه على غيره من الكتب الستة؛ ولأن سنده فيه من هذه الطريق أعلى من سنده فى غيره؛ لأن بينه وبين مالك فى هذه الطريق ستة بالسماع، وبينه وبينه فى رواية الصحيحين سبعة، وفى أبى داود ستة، إلا أنه بالإجازة، فلذا اختار هذه الطريق على غيرها لما لها من الشأن عنده، وفى الحديث: «الأخذ بالأسهل والأرفق، ما لم يكن حراما أو مكروها». ونقل النووى، عن المصنف أنه يحتمل أن يكون تخييره هنا من الله، فيخيره فيما فيه عقوبتان، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال عقوبتان، وأخذ الجزية، أو فى حق

أمته فى المجاهدة فى العبادة، والاقتصاد فيها، فيختار الأيسر.

وأما قوله: **(ما لم يكن إثما)**، فيتصور إذا خيره الكفار أو المنافقون، أما إذا كان التخيير من الله تعالى أو المسلمين، فيكون الاستثناء منقطعا. انتهى.

قال بعض الشراح: إنه فهم من قوله: «ما لم يكن إثما» إلى آخره، أى موجب إثم من حرام أو مكروه ما يفهم من الاستثناء، فسماه استثناء وجعله منقطعا؛ لاستحالة أن يخيره الله، أو خلص المؤمنين بين أمرين، أحدهما إثم، وهو مبنى على أن ما فى معنى الاستثناء له حكم الاستثناء، ألا ترى إلى قول النحاة: إن قولك لألزمنك أو تقضينى حقى بمعنى، إلا أن تقضينى حقى، فكأنه قال هنا: إلا أن يكون إثما.

فإن قلت: هذا مناف لما ورد: «إنما أفضل العبادة أحمزها»، أى أشقها على البدن، فكيف يختار غير الأفضل؟.

قلت: إنما كان ﷺ يؤثر الأيسر لأمته تخفيفا عليهم، لا فى حق نفسه؛ لأنه أرسل بالحنيفية السمحة، ولذا كان ﷺ يقوم حتى تورمت قدماه، ويؤيده مع ما فى نفس الأمر قوله فى عجز الحديث، أنه ﷺ ما انتقم لنفسه، يعنى أن التخيير بين الإثم وغيره من العباد يتصور، وأما من الله فلا، فإذا أول بما يوجب الإثم، أو يفضى إليه فى حق غيره صح، أو المراد بالإثم ما لا يليق به ﷺ؛ لعصمته، كما إذا خير بين ملك كنوز الأرض وعيش الكفاف، ويدل على أنه فى حقه قوله: **(فإن كان إثما، كان أبعد الناس منه)**، أقول: قال العز بن عبد السلام، وتبعه الزركشى فى قواعده: إن قولهم: الأجر على قدر المشقة، وما ورد فى حديث عائشة، رضى الله عنها: «أجرك على قدر نصبك»[١]، كما فى مسلم، ليس على إطلاقه، إنما هو إذا اتحد العملان فى الشرف والشرائط والسنن، وكان أحدهما شاقا، فيثاب على تحمل المشقة، وذلك كالغسل فى الصيف والشتاء، أما إذا لم يتساويا فلا، فإن الإيمان أفضل من الأعمال مع خفته، والمختار أن أفضل الأعمال آمنا هو بالمصالح الناشئة عنها، فتصدق البخيل أفضل من قيامه الليل، وإنقاذ الحاكم مظلوما بكلمة أفضل من قيامه الليل، وصيام النافلة. انتهى.

وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه، فلا حاجة لما أطالوا به من غير طائل، **(وما انتقم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه)**، أى لا يعاقب أحدا بتقصير وقع منه فى حقه، بحيث يكون فاعله لم يخالف أمر الله فيما فعله؛ لأنه برئ من الحظوظ النفسانية والاعتبارات الدنيوية، **(إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها)**، أى بسبب حرمة الله

---

(١) تقدم تخريجه.

وانتهاكها، وحرمة الله ما حرمه وجعله محرما ممنوعا، وانتهاكه التعدى والتجاوز فيه من نهكت الثوب إذا لبسته حتى اختلقته، ويقال: نهكته الحمى، إذا أضعفته وأضنته، فانتهاكها تناولها بما لا يحل، وانتهك فلان محارم الله، أى فعل ما حرم الله فعله لما فيه من ضعف الدين وابتذال حكمه، وليس الانتهاك المبالغة فى إتيان ما حرمه الله تعالى كما توهم، حتى يرد أنه لا يغضب بمجرد فعل محرم أو صغيرة مرة واحدة، ويحتاج إلى الجواب بأن من فعل ذلك، فقد بالغ فى الجرأة على الرب العظيم، أو يقال: إنه كان يغضب عند فعل الصغائر، ويغضب إذا فعلت الكبائر، فإن هذا مما لا ينبغى، فإنه كيف يخطر بالبال أنه، عليه السلام، يغضب من الصغائر من غير عذر لفاعلها، ولا حاجة أيضا إلى حمل هذا على ما يتعلق بالمال، فإنه، عليه السلام، اقتص ممن نال من عرضه، كما أمر بقتل ابن أبى معيط، والأخطل، وأى حرمة لله أعظم من حرمة نبيه، عليه السلام، وإن آذاه فقد آذى الله، وإنما المراد ما كان يقع من بعض جفاة الأعراب، كالأعرابى الذى أمسك بردائه، وجذبه حتى أثر فى جيده الشريف، وقول بعضهم له كما يأتى: أعدل فى القسمة، فإنك لن تعطى من مال أبيك، ونحو ذلك مما صدر منهم، لغلظة طباعهم مما لا يفضى إلى ارتكاب محرم، فمن ارتكب شيئا من محارم الله بحضرته، عليه السلام، التى من جملتها احترامه انتصر وعاقبه لله لا لحق نفسه، وإن تعلق بها انتقاما لدين الله ورسوله، عليه السلام.

(وروى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كسرت رباعيته)، رباعية بوزن ثمانية، سن بين الثنية والناب من اليمين، والأخرى من اليسار، ويقابلها مثلها فوق، فالرباعيات أربع.

(وشج وجهه يوم أحد)، الشجة جراحة فى الوجه أو الرأس، **(شق ذلك)**، الكسر والشج، **(على أصحابه شديدا)**، أى حصل من ذلك فى نفوسهم مشقة وأمرا شديدا عظيما.

(وقالوا) له، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لو دعوت عليهم)**، أى على الكفار بأن يهلكهم الله ويستأصلهم بأشد العذاب، **(فقال: إنى لم أبعث)**، بالبناء للمجهول، أى لم يبعثنى الله **(لعانا)**، أى داعيا على الناس بالطرد والبعد من رحمة الله، **(ولكننى بعثت داعيا)** للناس إلى الله **(ورحمة)** للناس أجمعين، بإخراجهم من الكفر للإيمان، وبتأخير العذاب عمن كفر، لا لطردهم عن رحمة الله وإبعادهم عنه، ثم قال داعيا لهم: **(اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون)**، دعا لهم أن يهديهم الله تعالى للإسلام، فإنهم لا يعلمون طريق الحق ولا معرفة قدر نبيه ﷺ، وما يريد بهم من الخير، ولو علموا ذلك لم يصدر

عنهم ما صدر، وفى سيرة ابن هشام وغيره: أن عتبة بن أبى وقاص رماه صلى الله تعالى عليه وسلم، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن شهاب الزهرى شجه فى وجهه الشريف، وإن ابن قميئة جرح وجنته وضربه بالسيف على شقه الأيمن، وجرح وجنته، فدخلت حلقتان من المغفر فى وجنته الشريفة، وفى الروض الباسم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصيب وشج جبينه، وكسرت رباعيته برمية عبد الله بن قميئة، وضربه بالسيف على شقه الأيمن، فجرح وجنته، ودخلت فيه حلقتان من المغفر، وشقت شفته السفلى، وصرخ: أن محمدا قد قتل، وقد اختلف فى إسلام عتبة بن أبى وقاص أخى سعد بن أبى وقاص، والصحيح أنه لم يسلم، وابن شهاب أسلم، وأما ابن قميئة، فنطحه كبش فتردى من شاهق فهلك، ولكل شىء آفة من جنسة، ويقال: إن حاطبا تبع عتبة فقتله، ولم يولد أحد من نسل عتبة إلا أبخز أهتم، فسرى خزيه لعقبة، فبخور أولاده لا يفى بفساد جدهم، وقد قالوا: إن رباعيته ﷺ لم تنكسر من أصلها، وإنما شطئت وذهبت منها فلقة، وكانت فاطمة، رضى الله عنها، تغسل دمه، وعلى، كرم الله وجهه، يصب عليها الماء بالمجن، فلما رأت فاطمه أن الماء يزيد الدم كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها وذرتها عليه، فأمسك الدم، وكسرت البيضة التى على رأسه الشريف.

وقال الإمام الخيضرى فى خصائصه: إن هذا كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، أو المراد عصمته ﷺ من القتل، لا من مطلق الأذية كما مر بيان ذلك، وما أحسن قول ابن الفارض، رحمه الله تعالى، فى الإشارة لذلك:

عينى جرحت وجنته بالنظر ... من رقتها فالنظر لحسن الأثر
لم أجن وقد جنيت ورد الخفر ... إلا لترى كيف انشقاق القمر

(وذيل بعضهم فقال:)

وما شق وجنته عابثا ... ولكنه آية ساطعة للبشر
جلاها لنا الله كيما نرى ... بها كيف كان انشقاق القمر

وبقية قصة أحد وما فيها مفصل فى السير مشهور، فلا يكثر السواد به كما فى الشرح الجديد.

(تنبيه) قال الإمام السمرقندى فى تفسير قوله عز وجل: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]: طعن الملحدة، لعنهم الله، وقالوا: إن الله أخبر أن الكفار

قتلوا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، وما فى معناه من الآيات، ومن كان الله ناصره فهو منصور أبدا، فما لهم قتلوا فهو تناقض، وأجيب بوجهين:

الأول: أنه لم يثبت فى الكتاب، ولا فى خبر متواتر قتل رسول من الرسل الذى أخبره الله بنصرهم، وإنما ثبت قتل الأنبياء لأن الرسل هم الذين أوتوا المعجزات لإظهار الدين الحق ودعوة الخلق، فكان عصمتهم عن القتل من آياتهم الحسنة الدالة على صدق دعواهم الرسالة، وولاية القتل مما يوهن دعوتهم بخلاف الأنبياء إذ ليس لهم دعوة وشريعة.

والثانى: أن المراد النصرة بالحجج لا بالعصمة. انتهى.

(وعن عمر)، رضى الله عنه، قال السيوطى، رحمه الله: إن هذا لا يعرف عن عمر فى شىء من كتب الحديث، وبيض له الشيخ قاسم فى تخريجه لأحاديث هذا الكتاب، فكأنه لم يقف له على أصل أيضا، وتقدم ما فيه، **(أنه قال فى بعض كلامهم:)**، أى كلام قاله له لما رأى ما أصابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كسر رباعيته وشجه فى غزوة أحد: **(بأبى أنت وأمى يا رسول الله)**، هذا الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أفديك، وتسمى هذه الباء باء التفدية، ومعناه إنى أجعل أبوى فداء دونك، وأبذلهما فى حمايتك، يقول الرجل لمن هو أعز عليه من نفسه وأهله وماله؛ لأنهم كانوا يبذلون الأنفس فى صيانة أهلهم، وقد تكلم بهذا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه الكلمة جارية مجرى المثل فى ذلك، وقد يظهرون متعلق الجار والمجرور، والفداء بكسر الفاء والمد وفتحها مع القصر فكاك الأسير، يقال: فداه يفديه فداء وفدى وفاداه، إذا بذل فداه، وفداه بالتشديد إذا قال: جعلته فداك، وهى كلمة تقال فى التعظيم، وتدخل الباء على المبذول المفدى به، وقد يعكس كما فى قوله:

فديت بنفسه نفسى ومالى   وما آلوك إلا ما أطيق

وجعله فى المغنى من المقلوب، كعرضت الناقة على الحوت، وقد جرى عمر، رضى الله تعالى عنه، فى هذا على ما تداوله العرب، وإلا فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيق بأن يفدى بالنفوس، فضلا عن الآباء والأمهات، ولقد قال الآخر(١):

نفسى فداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

---

(١) البيت من الوافر، وهو لعروة بن الورد فى الأشباه والنظائر (٢/٢٩٨)، شرح شواهد المغنى (٢/٩٧٢)، لسان العرب (٥/٣١٦).

فانظر قصة على، كرم الله وجهه، إذ فداه بنفسه ونام مكانه لما هموا بقتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أول من اشترى نفسه من الله كما مر، ومقاومه دون عمر، رضى الله تعالى عنه، كما هو معلوم.

(**لقد دعا نوح**)، عليه الصلاة والسلام، على قومه، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وإنما قال عمر، رضى الله تعالى عنه، هذا؛ لأن مشربه كان مشرب نوح، عليه السلام، كما أن مشرب الصديق، رضى الله تعالى عنه، كان مشرب إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وتذر كتدع بمعنى تترك، وديار بمعنى أحد، وهو يختص بالنفى، يقال: ما فى الدار ديار ودورى، أى أحد، وأصله ديوار، فاعل إعلال سيد وميت وأدغم، والفاء عاطفة للمفصل على المجمل.

(**ولو دعوت علينا**)، أى على الناس كلهم، (**مثلها**)، أى مثل دعوة نوح، عليه الصلاة والسلام، (**لهلكنا من عند آخرنا**)، هذا التركيب وقع فى كلام العرب، والمراد به أو لنا إلى آخرنا، أى جميعنا، ولشراح الكشاف فيه كلام، فقيل: تقديره: من أولنا إلى آخرنا، كما ذكر، وعند مقحمة، وقيل: من بمعنى إلى، وقيل: إنه كناية عن هلاك الجميع؛ لأنه لا يكون الهلاك عند آخرهم إلا إذا شملهم جميعا، فإن أردت تحقيقه فانظر شروح الكشاف فى أول سورة البقرة، (**فلقد وطىء ظهرك**)، الوطىء الدوس بالقدم، وفى الشرح الجديد أنه لم ينقل أن أحدا من المشركين وطىء ظهر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم بقدمه، ولعله عبارة عما روى فى السير من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصلى عند البيت، وثمة كرش ذبيحة فيها قاذورات، فقال أبو جهل، لعنه الله لجماعة جالسين ثمة: ألا رجل يقوم إلى هذا القذر، فيلقيه على محمد وهو ساجد، فانبعث أشقاها، وهو عقبة بن أبى معيط، فألقاه عليه، فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»[1]، وكانوا أبا جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وعقبة بن أبى معيط، وأمية بن خلف، وعمار بن الوليد، هم المستهزؤن، فأهلكم الله جميعا، فإما أن يكون سمى هذا وطأ؛ لما فيه من الإهانة الشديدة، كما سمى الغزو وطأ، أو وقع هذا فى قصة لم نقف عليها.

(**وأدمى وجهك**)، أى جرح فى وقعة أحد، يقال: أدميته، إذا جرحته فأسلت دمه، والذى فعل به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك عتبة بن أبى وقاص أخو سعد كما مر،

---

(١) أخرجه البخارى (١/٢٠٣، ٢/١٨٢، ٦/٤٨)، ومسلم (٢٩٤، ٦٧٥)، وأحمد (٢/٢٣٩، ٢٥٥)، وأبو داود (١٤٤٨)، وابن ماجه (١٢٤٤).

وفيه يقول حسان، رضى الله عنه[1]:

إذا الله جـازى معشـرا بفعـالهم ونصرهـم الرحمـن رب المشـارق
وأخزاك ربى يا عتيـب بـن مـالك ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسـطت يمينـا للنبـى تعمـدا وأدميـت فـاه قطعـت بـالبوارق
وهلا ذكرت الله والمنـزل الـذى تصير إليه عنـد إحـدى البوائـق

(وشج وجهك)، وقع فى نسخة التلمسانى زيادة هذا هنا، وقد شجت وجنته وجبهته بأحد، فدخل فى وجنته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حلقتا الـدرع، فنزعـهما بفيـه أبـو عبيدة بن الجراح، رضى الله تعالى عنه، حتى سقطت ثنيته، والـذى جرحـه عبـد الله بـن قميئة، فقيل: نطحه تيس، وتردى من شاهق فمات كما مر، وقيل: إنما هو عتبة بن أبـى وقاص، فأدركه حاطب فقتله كما مر، وجاء بفرسه.

(وكسرت رباعيتك) تقدم بيانه ومـا فيـه وعليـه، **(فـأبيت أن تقـول إلا خيرا)**، أى لم تدع عليهم كما دعا نوح، عليه الصلاة والسـلام، علـى قومـه، ثـم فسـر الخير بقولـه: **(فقلت: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)** الحق، ولا يهتدون إلى الصواب، وفى النسخ المروية هنا: «اللهم اهد قومى»[2]، وهى مفسرة للروايـة الأولى، علـى أن المـراد بـالمغفرة سببها، وهو الهداية، أو التقدير: اللهم اهدهم واغفر لهم، فلا يرد عليه ما قيل: أن الدعاء المذكور صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحد، وكانت على أحد وثلاثـين شـهرا من الهجرة، فكيف يسأل لهم المغفرة وهم كفار، وقد نـزل : ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ**﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] الآية، ولو قلنا: إن مغفرة الشـرك جـائزة عقـلا عنـد بعـض المتكلمين، فإنه ممنوع شرعا، فما وجه وقوعه فى كلام الشـارع، صلـى الله تعـالى عليـه وسلم، ولا حاجة إلى الجواب بأن هذه الآية من سورة النساء، وهى مدنيـة بجملتـها، أو هذه الآية بخصوصها، فيجوز أن دعاءه، صلى الله تعالى عليه وسـلم، كـان قبـل نزولهـا، وقيل: علمه بمنع الدعاء لهم بالمغفرة لجوازه، سواء قلنا: المدنى مـا نـزل بالمدينـة، أو بعـد الهجرة، أو المراد مغفرة ما وقع منهم من كسر الرباعية ونحوه، لا مغفرة الشـرك، وقيـل: هذا إنما صدر من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على سبيل الحكايـة عـن نبـى كـان قبله، كما رواه مسلم فى صحيحه، قال عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما: كأنى أنظر إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحكى عن نبى من الأنبيـاء ضربـه قومـه وشـجوه، فكان يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومـى، فإنـهم لا يعلمـون، ومثلـه فـى

(١) الأبيات من الطويل، وهى فى ديوان حسان بن ثابت (ص١٧٤).
(٢) أخرجه البخارى (٢١٤/٤)، وأحمد (٤٤١/١).

البخارى، والمراد بهذا النبى نوح، عليه الصلاة والسلام، فإنه كان يضرب، ثم يلف فى لبد، ويلقى فى بيته، يرون أنه قد مات، ثم يخرج ويدعوهم إلى الله تعالى، فلما آيس منهم دعا عليهم، فالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما وقع به ما وقع، حكى ذلك عنه تسلية له وللمؤمنين، وقوله: لقومى، ذكر نسبتهم له تحننا عليهم، وبيانا لسبب ذلك؛ رجاء لرحمة الله تعالى بهدايتهم، وإضافتهم إليه موافقة لما فى نفس الأمر، وإن قيل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، كما لا يخفى، وقوله: فإنهم لا يعلمون، اعتذار لهم بالجهل الحقيقى، أو بما هو فى حكمه؛ لعدم جريهم على مقتضى علمهم، كما تقول لتارك الصلاة: الصلاة واجبة، والجهل وإن لم يكن مع مشاهدة هذه الآيات الباهرة عذرا شرعا، فليس بمنج من العذاب، وقد اختلف فيما قبل البعثة أيضا، كما هو معلوم فى كتب الأصول، لكنه جرى فيه على حكم الظاهر، تضرعا إلى الله أن لا يعجل عذابهم، ويمهلهم حتى يكون منهم مؤمنين، أو من ذريتهم، وقد حقق الله تعالى رجاءه، لا أنه جعل ذلك عذرا حقيقيا لهم، فلا يرد هنا شىء كما توهمه بعضهم.

(**قال القاضى أبو الفضل**)، أى المصنف عياض، رحمه الله: (**انظر ما فى هذا القول**) المذكور فى كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، فى الحديث الذى قبله، (**من جماع الفضل**) الجامع بكسر الجيم، ما يجمع كل أمر، كالخمر جماع الإثم ومظنته، (**ودرجات الإحسان**)، بالجر معطوف على الفضل، أى ما يجمع مراتب الإحسان، وكذا قوله: (**وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم**)، ففيه ما يدل على نهاية هذه الصفات، (**إذ لم يقتصر على السكوت عنهم**)، مع ما فعلوه معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما لا يتحمل بعضه أحد، فضلا عن أعز الناس نفسا، وأشرفهم وأعلاهم حسبا ونسبا.

وجرح ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

(**حتى عفا عنهم**)، مع عظيم جرمهم فى حقه، إذ قال: «إنى لم أبعث لعانا»، (**ثم أشفق عليهم**)، أى أبدى شفقته ورحمته لهم، (**ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: اغفر واهد**)، كما مر بيانه مفصلا، (**ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: لقومى**)، فإن الطبع البشرى يقتضى العطف والحنو على الأهل والأقارب بأى حال كانوا، (**ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: فإنهم لا يعلمون**)، وقد تقدم بيانه، ونسبتهم إليه ليبلغهم ذلك، فتنشرح صدورهم لأجلها، فيختاروا الإيمان على الكفر، ولذا لم يعبر بالجهل، بل بعدم العلم؛ تحسينا للعبارة ليجذبهم بزمام لطفه إلى الإيمان، ويدخلوا حرم الأمان، وإن كان جهلهم لا يعتد به اتضاح برهان التوحيد، وقيام الحجة الباهرة بالمشاهدة والتواتر، إلا أنه اعتذار

ظاهرى اعتبره سعيا فى تسخير قلوبهم، وإلا فهم عالمون جاحدون مكابرون، وليس لهم عذر يقبل شرعا كما مر تفسيره.

(ولما قال له الرجل:) هو ذو الخويصرة التميمى، ويقال له: حرقوص بن زهير، رأس الخوارج، قال البرهان: قتل يوم النهروان، كما فى تجريد الذهبى، وفى صحيح البخارى: هو عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى، قال فى المقتفى: ولعلهما قالاه، والصواب أن والده هو القائل، والنهروان بفتح النون والهاء، اسم موضع فارسى معرب، قال الطرماح(١):

قل فى شط نهروان اغتماضى ودعانى هوى العيون المراضى

وحكى الجواليقى أنه سمع من العرب ضمها، وكان حرقوص مع على، كرم الله وجهه، فى حروبه، ثم اتبع الخوارج، وزعم بعضهم أنه ذو الثدية، وليس كذلك، ومقول القول، **(اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)**، أى كن عادلا فيما قسمته، فإن هذه القسمة ليست عادلة موافقة لأمر الله ولرضاه، والمقسوم كان من غنائم خيبر أو تبرا أرسله على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، من اليمن، وهذا الحديث رواه مسلم، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، ونحوه فى صحيح البخارى، وأخرجه البيهقى، وهو حديث صحيح، وفى ألفاظه اختلاف، والمآل واحد، **(لم يزده)** النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى جوابه، أن بين له ما جهله)**، أى لم يزده على أن بين له ما جهله من عدالته فى قسمته، حيث قال: «من يعدل إن لم أعدل؟».

(ووعظ نفسه وذكرها)، التذكير والوعظ بمعنى، فعدل عن وعظ القائل إلى وعظ نفسه، وهو نهاية الحلم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بما قال له، فقال: ويحك)**، ويح كلمة ترحم وتوجع لمن وقع فيما لا يرضى، وقيل: إنها كلمة مدح وتعجب، وهى منصوبة على المصدرية مضافة، وقد ترفع وتترك إضافتها، فترحم له لما خالف رضاء الله تعالى عليه، أو تعجب من صدور مثله من مسلم، ووقع فى رواية: «ويلك»، **(فمن يعدل إن لم أعدل؟)**، وفى مسلم: «أو لست أحق أهل الأرض أن أطيع الله عز وجل؟»، وغضب، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى احمرت وجنتاه.

(خبت وخسرتى إن لم أعدل)، روى بفتح التاء فيهما على الخطاب، وضمها على التكلم، واقتصر بعضهم على الفتح، أى خبت وخسرت أيها القائل إن لم أعدل أنا

(١) البيت من الخفيف، وهو للطرماح فى ديوانه (ص ٢٦٢)، لسان العرب (٩/٣٦٠)، الكامل (ص ١١٣٣)، جمهرة أشعار العرب (ص ٩٨٧).

لاتباعك واقتدائك بغير عادل، وعلى الضم اقتصر الشمنى، رحمه الله؛ لأنه معلق بعدم العدل الذى عصمه الله تعالى عنه، وهو المناسب لقوله: وعظ نفسه وذكرها، ونقل النووى فى شرح مسلم الوجهين، وفسره بما تقدم، وقال: الفتح أشهر، وقيل، المعنى على الفتح إن لم أعدل خبت؛ لأننى أقتلك لنفاقك ونطقك بما ينافى الإسلام، لكننى عدلت نظرا لمظاهر إسلامك، وإن ما وقع من سوء أدبك جهلا منك غير مخل بمقامى.

(ونهى من أراد من أصحابه قتله)، وهو عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كما فى البخارى، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لى أضرب عنقه، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى»[1]، وفى مسلم: أن القائل خالد بن الوليد، رضى الله عنه، وجمع بينهما بأن كلا منهما أراد ذلك، وقد صرح به فى مسلم، وأن عمر، رضى الله تعالى عنه، لما قال ذلك، فقال: «دعه وأدبر»، فقام إليه خالد بن الوليد، فهذا نص على أن كلا منهما قال ذلك، وقال المصنف فى شرح مسلم: من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كفر وقتل، وسيأتى ذلك فى آخر الكتاب، وهذا الرجل لم يقتل.

قال الماوردى: يحتمل أنه لم يفهم منه الطعن فى النبوة، وإنما نسبه لترك العدل بناء على تجويز صدور المعاصى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عند هذا القائل، وإن لم يصب، أو أنه لم يسمعه منه، وإنما نقل له ولم يثبت عنده؛ لأن المخبر له واحد، ومثله لا تراق به الدماء، وهذا تأويل باطل، فإن المروى: يا محمد، اتق الله، بخطاب المواجهة بحضرة الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، حتى استأذنوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قتله، وإنما الوجه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سلك به مسلك غيره من المنافقين استبقاء لانقيادهم، وتأليفا لقلوب غيرهم؛ لئلا يتحدث الناس بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتل أصحابه، فينفروا ويرتدوا، فاختير أهون الأمرين لحكمه، والحديث مصرح بهذا.

(ولما تصدى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غورث بن الحارث)، تصدى بالتاء المفتوحة، والصاد المهملة كذا، والدال المشددة، وألف، أى أتاه وتعرض له، وغورث بغين معجمة مفتوحة، وتضم أيضا، وواو ساكنة، وراء مهملة مفتوحة، وثاء مثلثة، وقال بعضهم: يجوز إهمال عينه، كما نقله البرهان الحلبى، قال: وعند بعضهم مصغر، يعنى غورث، كفورك وزيرك، فإنه تصغير بالفارسية، ولم يرد أنه كتصغير العرب

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٣/١٤٢)، وأحمد (٣٥٣/٣، ٣٥٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٠١/٢)، وابن أبى عاصم فى السنة (٤٦٠/٢).

غويرث، وقال التلمسانى: إنه غويرث أيضا، وفى بعض الروايات تسميته دعثور، وأنه أسلم، لكن قيل: إنهما روايتان، (**ليفتك به**)، الفتك مثلث الفاء، ساكن التاء، هو أن يأتى رجل آخر وهو غافل، فيهجم عليه فيقتله، وقد فتك به بالفتح، يفتك بالكسر والضم، وهذه القصة كانت فى غزوة ذات الرقاع فى السنة الرابعة من الهجرة.

(**ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، منتبذ**)، بضم الميم، وسكون النون، وفتح المثناة الفوقية، وكسر الموحدة، وذال معجمة، أى جالس فى ناحية مختل وحيد بقرب من الناس، (**تحت شجرة وحده**)؛ ليستريح بظلها، وتلك الشجرة شجرة عضاة، وهى التى تسمى أم غيلان، وهى شجرة عظيمة ذات شوك، وكان ذلك دأبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سفره، (**قائلا**) حال، أى مستريحا فى وقت القيلولة، وهى وسط النهار إذا اشتد الحر، وإن لم ينم.

(**والناس قائلون**)، أى كل منهم فى قيلولته منفردا عن أصحابه، (**فى غزاة**) هى غزوة ذات الرقاع كما علم، والاختلاف فى زمنها ووجه تسميتها مفصل فى السير، والغزاة اسم مصدر بمعنى الغزو، (**فلم ينتبه**) أى لم ينتبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمجيئه، أو لم يتنبه من نومه، (**إلا وهو**)، استثناء من أعم الأحوال، وضمير هو لغورث، (**قائم والسيف صلتا**)، بفتح الصاد المهملة أو ضمها، ولام ساكنة، ومثناة فوقية، أى مسلولا مجردا من غمده، ويجوز فى السيف رفعه، على أنه مبتدأ، ونصبه على أنه مفعول معه، وصلتا حال على كل حال، (**فى يده، فقال:**) غورث له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (**من يمنعك منى**)؛ لأنه وجده خاليا ليس معه أحد ولا سلاح، وهو جالس، وغورث قائم عليه بسيفه المجرد، وفى رواية: أنه كرر مراجعته ثلاث مرات، (**فقال: الله**)، أى يمنعنى منك الله الذى عصمنى من الناس كافة، (**فسقط السيف من يده**)، أى لما أرعبه قوله: الله، وفى رواية أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، ظهر له، فسقط سيفه، وفى رواية: فشام سيفه، أى أغمده، فهو من الأضداد، وكان غورث من أشجع الناس، يتوعد أن يقتل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقيل له: أمكنك الله من محمد، فاختار سيفا من سيوفه، وأقبل حتى قام على رأسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فأخذه**)، أى السيف الذى سقط منه، (**رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك منى**)، أى من أن أقتلك والسيف بيدى، (**فقال: كن خير آخذ**)، بالمد اسم فاعل، أى خير رجل آخذ خصمه، وتمكن منه فتكرم عليه، (**فتركه وعفا عنه**)، مع القدرة عليه، وقيل: الآخذ الآسر، والأخيذ الأسير كما فى النهاية، وهو غير بعيد أيضا، وفى البخارى مسندا: أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قفل لغزوة ذات الرقاع، ونحن معه، فأدركتنا القائلة فى واد كثير

العضاة، فتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تحت شجرة علق بها سيفه، فنمنا ثمة، فإذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابى جالس، فقال: «إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صلتا، فقال: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس»[1]، ثم لم يعاقبه، قالوا: ولما رأى كرمه وحلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم، وهو من غطفان، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] الآية.

(وجاء) غورث **(قومه)**، وفى نسخة: فجاء قومه، **(وقال: جئتكم من عند خير الناس)** حلما وكرما.

(ومن عظيم خبره)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى العفو، عفوه عن)**، المرأة **(اليهودية)**، وهى زينب بنت الحارث بن سلام، وقيل: امرأة سلام بن مشكم، أخت مرحب اليهودى، كما ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان عن أنس، رضى الله تعالى عنه، **(التى سمته)**، أى جعلت له ﷺ السم **(فى الشاة)**، المشوية من الغنم، **(بعد اعترافها)** بوضع السم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الشاة، **(على الصحيح من الرواية)**، متعلق بقوله: عفوه، لا باعترافها؛ لعدم اختلاف الرواة فيه، ولذا قيل: كان الأحسن أن يقدم هذا على قوله: بعد اعترافها؛ لأنها أهدت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، شاة مصلية، أى مشوية لم تنخز، فقال: «ما هذه؟»، فقالت: هدية لك، ولم تقل صدقة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يأكل منها، فأكل هو وأصحابه من تلك الشاة، ثم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أمسكوا»، وقال لها: «هل سممت هذه الشاة؟»، قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «هذا العظم»، أشار لساق بيده، قالت: نعم، قال: «لم؟»، قالت: أردت إن كنت كاذبا أن نستريح منك والناس، وإن كنت نبيا لم يضرك، فاحتجم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثا على كاهله، لقربه من القلب[2]، وقد اختلف فيها، فقيل: عفا عنها، وقيل: لا، وروى أبو داود أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قتلها وصلبها، ونقل البرهان عن كتاب شرف المصطفى ذلك، وجمع بين الروايتين بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صفح عنها لحق نفسه؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه كما مر، فلما مات بشر بن البراء من أكله منها، قتلها

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١١)، والبيهقى (٦/٣١٩).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩/٧٠)، وعبدالرزاق (١٠٠١٩)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/٢٦١).

قصاصا به؛ لأنه لم يزل معتلا إلى الحول حتى مات، وقيل: إنه مات فى الحال.

وروى معمر فى جامعه، عن الزهرى، أنها أسلمت فتركها، وغيره يقول: إنه قتلها ولم تسلم، وفى جامع معمر أيضا: أن أم بشر بن البراء قالت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مرض موته: إنى لا أتهم لبشر، تعنى ابنها، إلا أكلة خيبر، فقال: «وأنا لا أتهم لنفسى إلا ذلك»(١)، وهو ظاهر فى أن المرض الذى مات منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان من تلك الأكلة على سبيل الظن لا القطع، لكن ذكر صاحب المواهب فى الطب النبوى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، احتجم من السم، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجا كليا، بل بقى أثرها مع ضعفه، فأثر فيه لما يريد الله له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تكميل مراتب الفضل بالشهادة زاده الله فضلا وشرفا.

وفى الرواية اختلاف، ففيما مر أن الذى أكله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ساق الشاة، وفى أخرى: أنه كتف أو ذراع؛ لأنها سألت عن أحب اللحم إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالوا: الذراع، فأكثرت فيه السم، وأنه لاك منها مضغة، ولم يسغها وأساغ بشر لقمته، وهذا يؤيد عدم القطع بتأثيره فيه، لكن يؤيد ما فى المواهب ما ورد فى الحديث أيضا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال فى مرض موته: «مازالت أكلة خيبر تعاودنى حتى قطعت أبهرى»(٢)، فانظر فى التوفيق بين الروايتين فى الأكل وعدمه.

واعلم أن فى هذه المسألة اختلافا للفقهاء فيمن وضع طعاما مسموما لغيره، فأكل منه ومات، هل عليه قصاص أم لا؟ وهو مبنى على أنه إذا اجتمع السبب والمباشرة أيهما يقدم، فالأكثر على تقديم المباشرة، وقولهم: إنها أسلمت فتركها، على بعض الروايات، فيه أن الإسلام لا يسقط حقوق العباد، إلا أن يكون هذا من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه نظر.

(**وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم**)، أعصم بزنة أحمر بمهملات، ويقال له: أعصم بدون ألف ولام، وهو رجل من بنى زريق، وهم بطن من الأنصار، وكان بينهم وبين اليهود حلف قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام برءوا منهم، واختلف فى لبيد هذا، ففى الصحيحين أنه يهودى، وهو المشهور، وقيل: إنه منافق كان مخالفا لليهود، وسيأتى عن المصنف، رحمه الله تعالى، أنه حكم بإسلامه، وقال البرهان: لا أعلم أحدا عده من المنافقين، فلعل المراد بالنفاق معناه العرفى، كما ورد فى الحديث:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥١٣).

(٢) أخرجه البيهقى (١٠/١١)، وابن عدى (٣/١٢٣٩).

«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وقد يطلق النفاق على الكفر أيضا، **(إذ سحره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أعلم به وأوحى إليه بشرح أمره)**، أى بيانه مفصل فى سحره وما فعله، **(ولا عتب عليه، فضلا عن معاقبته)**، تقدم الكلام على ذلك مفصلا، وذلك كما رواه النسائى، والبيهقى فى الدلائل، عن زيد بن أرقم، رضى الله عنه، قال: سحر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، فجاء جبريل، عليه الصلاة والسلام، فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقدا فى بئر كذا، فبعث فاستخرجها، فجاءه بها فحلها، فقام، صلى الله تعالى عليه وسلم، كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودى حتى مات، وكانت له امرأة يهودية تسمى زينب تفعل ذلك، قال التلمسانى: وهو من أفعال النساء فى الأكثر، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ [الفلق: ٤]، دون النفاثين تغليبا، وقال الواقدى: لما رجع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست، جاء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وقالوا له: أنت أسحرنا وقد سحرنا محمد، فاصنع له سحرا ونجعل لك جعلا، فصنع ما سيأتى، فأقام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم أربعين يوما، وقيل: ستة أشهر، يخيل إليه أنه فعل الشىء وما فعله، فبينما هو ذات يوم، إذ قال لعائشة، رضى الله تعالى عنها: «إن الله أفتانى فيما استفتيته، أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال أحدهما: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب»، أى مسحور، «قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فى أى شىء؟ قال: فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر فى بئر ذروان»، أو ذى أروان، فأتاها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع بعض أصحابه، وماؤها كنقاعة الحناء، ونخلها كأنه رءوس الشياطين، وقيل: إنه ﷺ أرسل عليا، والزبير، وعمارا، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، فنزحوا ماءها، واستخرجوا السحر من تحت صخرة بها، وتحتها مشاطة من رأسه وأسنان مشطه، ووتر عقد فيه إحدى عشر عقدة، قيل: وتمثال من شمع مغروز فيه إبر، فنزل عليه المعوذتان، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة وأخرجت إبرة، حتى زال ألمه[1]، والرجلان اللذان رآهما فى منامه ﷺ جبريل، وميكائيل، عليهما الصلاة السلام، وما كان يخيل له ﷺ من أنه فعل و لم يفعل من أمور الدنيا وجماع زوجاته، لا مما يتعلق بالنبوة والوحى، فإنه معصوم فيه.

واعلم أنهم اختلفوا فى السحر، كما يأتى، هل هو أمر حقيقى أم محض تخيل لا أصل له؟ والصحيح أنه حقيقى بفعل الله بواسطة، إن كان بمجرد توجه النفس، فهو سحر،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٦٣).

وإن كان باستعانة بخواص سفلية، فعلم الخواص، وإن كان ببعض الكواكب ودعوتها، فدعوة الكواكب، وإن كان باستمزاج القوى السفلية والعلوية، فالطلسمات، فإن اعتقد تأثيرها بالذات فكفر، وإلا فحرام، وفاعله لإضرار الناس يقتل شرعا على تفصيل فيه ذكره الفقهاء ليس هذا محله.

(**وكذلك لم يؤاخذ ﷺ عبد الله بن أبى**)، هو عبد الله بن أبى بن سلول بن مالك بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، كان قبل هجرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، للمدينة رأس الأنصار مرتجيا لأن يكون حاكما عليهم، فلما هاجر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم ظاهرا، فكان كآحدهم، وفيه عنجهية الجاهلية، وغلبة حب الرياسة، فكان بسبب ذلك رأس المنافقين، يصدر عنه أمور يكرهها الله ورسوله، وكان يبلغ النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك فيغضى عنه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدارى المؤلفة قلوبهم بأمر من الله؛ لئلا يتحدث الناس بأنه يقتل أصحابه، وكان ابنه عبد الله من كبار الصحابة، وخلص المؤمنين، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكرمه لأجله، وسلول علم لأم أبى ممنوع من الصرف، فأبى منون وابن بعده يرسم بألف؛ لأنه لم يقع بين علم ابن وعلم أب على الأصح، وهو رأس المنافقين هلك فى السنة التاسعة بعد مقدمه، عليه الصلاة والسلام، من تبوك، مرض فى شوال عشرين ليلة، وهلك فى ذى القعدة، فصلى عليه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكفنه فى قميصه قبل نزول النهى عن الصلاة على المنافقين كرامة لابنه، رضى الله تعالى عنه.

(**وأشباهه**)، جمع شبه بمعنى شبيه، أى لم يؤاخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يؤاخذ من يشبهه، (**من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم**)، بالبناء للمجهول، (**فى جهته**)، أى فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى حق أم المؤمنين عائشة، رضى الله تعالى عنها، (**قولا وفعلا**)، كقوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعنى بالأعز نفسه، وبالأذل نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان المنافقون من الرجال ثلاثمائة، ومن النساء مائة وسبعين، كما فصله البرهان الحلبى فى شرح سيرة ابن سيد الناس، وشرحه للبخارى فى تفسير سورة المنافقين.

(**بل قد قال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**لمن أشار بقتل بعضهم**) وهو عمر، رضى الله تعالى عنه، لما هزم بنو المصطلق، فبلغه قول ابن أبى، وقد لطم حليفا له يقال له: جعال، رجل من فقراء المهاجرين مساعدة لأخيه لعمر، رضى الله تعالى عنه: ما صحبنا

محمد إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، أما والله، ﴿**لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ**﴾ [المنافقون: ٨] الآية، ثم قال لقومه: والله لئن أمسكتم عن جعال وذويه فضل طعامكم، لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فقال له زيد بن أرقم، رضى الله تعالى عنه: أنت والله الذليل القليل المبغض فى قومك، ومحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين، ثم أخبره الله بذلك، فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، دعنى أضرب عنقه، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا)** آذن لك فى ذلك، **(لئلا يتحدث الناس)**، من قبائل العرب، **(أن محمدا يقتل أصحابه)**، فهو علة لتركه رعاية للظاهر من إسلامه وصحبته، وفى نسخة: «يتحدث»، بدون ذكر الناس، مبنى للمفعول، و«لا» هنا ليست لنفى التحدث، إذ هو مستأنف معلل لما قبله، كما علم مما قررناه، وهذا الحديث رواه الشيخان عن جابر، رضى الله تعالى عنه، وروى الطبرانى أن ابنه، رضى الله تعالى عنه، لما بلغه مقالة أبيه، قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: دعنى أقتله وآتيك برأسه، فقال: «لا تقتل أباك»(١).

وفى الكشاف: فإن قلت كيف جاز له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تكرمة المنافق وتكفينه فى قميصه؟ قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع له؛ لأن عمه العباس لما أسر ببدر، لم يجدوا له قميصا يستروه به، وكان رجلا طويلا، فكساه ابن سلول قميصه، وكان جاريا على عادة العرب فى المكافأة، وروى أن ابنه قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما مات أبوه: أسألك تكفينه ببعض قمصانك، وأنت تقوم على قبره، ولا تشمت به الأعداء، ففعل ذلك، فقيل له عليه السلام: لم فعلت ذلك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئا، وأنى لأرجو أن يدخل فى الإسلام كثير بهذا السبب»(٢)، فقيل: إنه أسلم ألف من الخزرج بسبب ذلك.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه: كنت مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث رواه الشيخان إلى قوله الآتى « من مال الله الذى عندك قال: فضحك وأمر له بعطاء»، وأخرجه بلفظ المصنف البيهقى فى الأدب من حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، ولفظ مسلم: «كنت أمشى مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجبذه جبذة شديدة» إلخ.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٥٨٨)، وعبد الرزاق (٦٦٢٧).

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٨/٢٢١).

(وعليه برد غليظ الحاشية) البرد والبردة كساء كانت العرب تلتحف به، والحاشية جانب الثوب، وفى رواية الأوزاعى غليظ الصنفة بفتح الصاد المهملة وكسر النون وبالفاء، وهى طرف الثوب أيضًا.

(فجبذه أعرابى) جبذ لغة فى جذب أو مقلوب منه، وهما بمعنى **(بردائه جبذة شديدة)** وهذا يقتضى أنه كان عليه برد ورداء فوقه، وأن الجذب وقع بهما **(حتى أثرت)** بتشديد المثلثة مبنى للفاعل أى أظهرت أثر أو علامة **(حاشية البرد فى صفحة عاتقه)** الصفحة الجانب أو العرض، والعاتق ما بين العنق والكتف، أو موضع الرداء من المنكب، وهو يؤنث ويذكر، وفى رواية أن البرد انشق.

(ثم قال) الأعرابى: **(يا محمد)** قيل: مشافهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا تقتضى أنه لم يكن مسلما، والسياق يقتضى خلافه، وليس فيه ما ينافيه غير ندائه باسمه، فلعله كان قبل تحريمه والنهى عنه بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إلخ، أو أن الأعرابى كان قريب عهد بالإسلام، فى طبعه غلظة وجفاء، فهو معذور، وطلب عطاء الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخذه من الزكاة يدل على أنه من المسلمين المؤلفة قلوبهم، وفى كتاب الإمتاع من خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لا يجوز لأحد أن يناديه باسمه، فيقول: يا محمد، يا أحمد، ولكن يقول: يا نبى الله يا رسول الله، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ [النور: ٦٣] إلخ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، أى لا تدعوه باسمه.

فإن قيل: ثبت عن أنس، رضى الله تعالى عنه، أن رجلا من أهل البادية جاء، فقال: يا محمد إلخ.

أجيب: بأنه يحتمل أن ذلك صدر منه قبل إسلامه أو فى حال إسلامه قبل النهى أو قبل بلوغه، فلو ناداه بالكنية هل يحرم أم لا؟ فيه نظر انتهى.

أقول: الظاهر أن هذا فى حياته مواجهة، أما فى غير ذلك فلا يحرم إلا ذكره بما لا يشعر تعظيمه فلا يرد أنه وقع كثيرا فى المدائح النبوية وغيرها، كقول حسان، رضى الله تعالى عنه[1]:

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

فلا حاجة إلى أن يقال: إنه مخصوص بغير الشعر، لأنه قد يقتضيه الوزن، ومما قيل هنا

(١) البيتان من الوافر، وهما فى ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٠، ٢١).

أيضًا: إن الرسول ويا رسول بدون إضافة لله كاسمه حتى اعترض على قول ابن مالك فى ألفيته:

مصليا على الرسول المصطفى

ولا وجه له لما مر. (**احمل لى**) قال التلمسانى: همزته همزة قطع رباعى أى أعنى على الحمل، ويجوز أن يكون ومعنى أحمل لى أى أعطنى ما أحمل والأول أولى؛ لوجود المحمول. انتهى.

وتبعه بعض المحشين، فيجوز فيه الوصل أيضًا إلا أن فيما رجح به الأول نظرًا (**على بعيرى**) بالتثنية مضافًا إلى ياء المتكلم (**هذين من مال الله الذى عندك، فإنك لا تحمل لى**) بضم التاء وفتحها على ما مر، وروى لا تحملنى أى لا تعطينى (**من مالك، ولا من مال أبيك**)، وقيل: إنه أسند الحمل إليه: لأنه سبب آمر به، فهو مجاز عقلى، فعلى هذا همزته همزة وصل أيضًا ثم رد على من قال: إن همزته مقطوعة بأنه ظن أنه من أحمل إحمالاً أى جعل البعير حاملاً، فلم يستبعد إسناده له، وهو مجاز مشهور، وليس بشىء لأن ما ذكره معنى آخر حقيقى صرح به الجوهرى، وكان الرواية عليه.

(**فسكت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال: المال مال الله وأنا عبده**) أتصرف فى ماله بإذنه أعطى من يأمرنى بإعطائه، فرد، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليه بألطف رد، (**ثم قال: ويقاد منك**) بالبناء للمجهول، وتقدير همزة الاستفهام أى أو يقاد منك من القود، وهو القصاص، وهو هنا مجاز عن مطلق المجازاة أى أتجازى على ترك أدبك، ولم يقل: أقيد نفسى منك كراهة أن يذكر ما يشعر بانتصاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه، ولو مستفهمًا، وقيل: إنما بناه للمجهول للتعميم فيمن يستوفى القود، أهو الله أم من عنده من المسلمين؟.

وقوله: (**يا أعرابى**) إشارة إلى أنه معذور، لما فيه من غلظ الأعراب، وهم أهل البادية (**ما فعلت بى**) من جذب بردى بأن يفعل به مثله، أو يعزر بما يليق به، وسيأتى تحقيقه فى القصاص باللطمة، (**قال: لا قال: لم؟**) لا يقاد منك، (**قال: لأنك لا تكافىء**) بهمزة من المكأفاة وهى المجازاة أو بالياء أصلية أو مبدلة منها (**بالسيئة السيئة**) فيه مشاكلة، لأن الجزاء ليس بسيئة أو استعارة، لأنها مثلها بحسب الصورة، (**فضحك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم**) سرورًا بما رآه من حسن ظنه به، وأنه لم يفعل ذلك بقصد التنقيص منه وتطمينًا لقلبه إذ أبدى المسرة بمقالته.

(**ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى آخر تمر**)، وفيه من حلمه، صلى الله تعالى

عليه وسلم، وتحمله الأذى، وعدم التضجر ما لا يخفى، وهو إرشاد لأمته، لاسيما من يتولى منهم أمور المسلمين، ثم أتى بما يدل على ما فى هذا الحديث من خلقه العظيم، فقال: (**قالت عائشة، رضى الله عنها**) فى حديث أخرجه الشيخان وأحمد والترمذى فى الشمائل مع مخالفة يسيرة فى لفظه: (**ما رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم**) رؤية بصرية أو علمية (**منتصرا**) أى منتقما، وناصرا لنفسه على غيره (**من مظلمة**) أى من ظلم، وهى بفتح الميم وكسر اللام وفتحها، واقتصر فى التقريب على الأول (**ظلمها**) مبنى للمفعول، وهو مؤكد أو دفع لتوهم كون الظلم لغيره (**قط**)، لاستغراق ما مضى كما مر (**ما لم تكن حرمة من محارم الله**) أى ما لم تكن المظلمة بارتكاب أمر حرمه الله، وليس بصرف حق له، ولا يرد عليه أنه قتل ابن خطل والقينتان اللتان كانتا تغنيان بهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه حق لله فإن ابن خطل ارتد، وهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسبه كفر كأذيته بخلاف الأعرابى، فإنه مسلم حمله على ما فعله غلظة طبعه، وظهر من جوابه أنه لم يقصد بذلك الإهانة مع ما فيه من حكم خفية كاستعطاف قلوب أهل البادية، ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وما ضرب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**بيده شيئا قط**) من دابة، وإنسان وغيره (**إلا أن يجاهد فى سبيل الله**) كما فى ضربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبى بن خلف بأحد بحربة تناولها من بعض أصحابه، أما الحارث بن الصمة كما يأتى أو الزبير بن العوام، فخدشه بها فى عنقه خدشا غير كبير، فاحتبس الدم أى لم يخرج بسبب ذلك الخدش، فقال: قتلنى والله محمد، فوقع من تلك الضربة مرارا من على فرسه التى كان أعدها ليقتل عليها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يأتى، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح، وفى رواية أنه ضربه تحت إبطه، فكسر ضلعا من أضلاعه، ثم مات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة بسرف بفتح السين وكسر الراء المهملتين، وهو مناسب لموضعه لأنه مسرف، وقيل: ببطن رابغ، ولم يقتل، صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة قط أحدا إلا أبى بن خلف هذا، لا قبل ولا بعد، وجاء «أشد الناس عذابا من قتله نبى»[١]، وفى لفظ: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله»[٢]، ﴿**فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾، وفى لفظ «اشتد غضب الله عز وجل على رجل قتله رسول الله فى

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٧/١).

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٢/٢)، والحاكم (٢٧٥/٤)، وسعيد بن منصور (٢٨٧٦)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٣١٦/١).

سبيل الله» أى لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون باللطف والشفقة على عباد الله، فما يحمل الواحد منهم على قتل شخص إلا أمر عظيم، ورسول الله ﷺ أكملهم لطفًا ورفقًا وشفقة بعباد الله، قالوا: واحترز بسبيل الله عمن قتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حدًا أو قصاصا، لأن من يقتله فى سبيل الله كان قاصدًا قتله، وقد اتفق ذلك لأبى بن خلف لعنه الله كما يأتى بيانه.

(وما ضرب خادمًا) له **(ولا امرأة)** من نسائه، وفيه دليل على جواز تأديب الرجل امرأته وضربها، ولولا ذلك لم يمدح به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وجىء إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، برجل) هذا الحديث أخرجه أحمد والطبرانى بسند صحيح، ولم يسميا الرجل، **(فقيل له: هذا أراد أن يقتلك، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: لن تراع لن تراع)** أى لا تخف منى، وكرره ليطمئن قلبه، والروع الخوف والفزع، ولن هنا بمعنى لا: أى لا خوف عليك منى ولا من غيرى، **(ولو أردت هذا لم تسلط على)** لأن الله عصمنى، فلن ينالنى ما أردته أنت ولا غيرك.

فإن قلت: قوله: لو أردت يقتضى أنه لم يرده مع أنه أراد ذلك، لقولهم أراد قتلك.

قلت: المراد بالإرادة سببها، وهى مباشرة ما هم به أى لو مددت يدك إلىَّ لم تصل إلىَّ.

(وجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيد بن سعنة) بفتح السين وسكون العين المهملتين وفتح النون، وقيل: إنها مضمومة وهو غريب وهو حبر من أحبار اليهود كما فى الإكمال، وفى التهذيب هو صحابى من أحبار اليهود الذين أسلموا، وهو من أكثرهم مالا وعلما، حسن إسلامه وشهد المشاهد، وتوفى مرجعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تبوك، ويقال: إنه سعية بالياء التحتية حكاه ابن عبد البر وقال: النون أشهر وعليه اقتصر الجمهور، وقال الذهبى: إنه أصح، وأما أسيد بن سعية فالتحتية فيه أصح، وأسيد بفتح الهمزة أو هو مصغر، وهو حديث طويل رواه البيهقى مفصلا عن ابن سلام، ووصله ابن حبان والطبرانى وأبو نعيم عن عبد الله بن سلام أيضًا، وسنده صحيح كما قاله السيوطى **(قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه)** أى يطلب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دينا كان له عليه، والتقاضى بمعنى المطالبة من كلام العرب، قال الحماسى[1]:

لحى الله دهرًا شره قبل خيره تقاضى فلم يحسن إلينا التقاضيا

---

(١) البيت من الطويل، وهو لأعرابى فى شرح ديوان الحماسة (ص١٠٧٦)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزى (٥٨/٣).

قال الشراح: أى طالبا ومثله كثير فى كلامهم وكلام أهل اللغة، فقول شيخنا المقدسى فى الرمز: التقاضى معناه لغة القبض، لأنه تفاعل من قضى، يقال: تقاضيت دينى واقتضيته بمعنى أخذته، وفى العرف الطلبة انتهى لا وجه له، والذى غره قصور كلام القاموس، فظنه غير لغوى بل معنى عرفى وهو غريب منه، وفى روايته عن زيد المذكور: كنت أريد أن أعلم حال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليطابق ما فى التوراة من حلمه، فخرج يوما ومعه على، فجاءه رجل كالبدوى فقال: يا رسول الله إن قرية بنى فلا ن أسلموا، وأملهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغدا، وقد أصابتهم سنة وشدة، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء يغنيهم، فقال زيد بن سعنة: يا رسول الله أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا، فأعطيته ثمانين دينارا فدفعها للرجل، وقال له: اعجل عليهم بها وأغثهم، فلما كان قبل الأجل بيوم أو يومين أو ثلاث خرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى جنازة فى نفر من أصحابه، فلقيه وتقاضاه، **(فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه)** ضمنه معنى أزاله فعداه بعن، ومنكب بكسر الكاف مجمع الكتف والعضد، والمجامع جمع لجمع وهو أطرافه وحواشيه، وقيل: هو التلبيب أى أخذه بطوقه وما تحت لبته ونحره، وهذا هو الصحيح المعروف لا ما قيل أنه بين الكتفين، فإن الثياب كلها كالرداء والقميص تجتمع هناك.

(وأغلظ له) أى قال له كلاما غليظا خشنا مع تعبس وتجهم وجه، **(ثم قال: إنكم يا بنى عبد المطلب)** مفتعل من الطلب، واسمه شيبة على الأصح، لأنه ولد وفى رأسه شيبة ظاهرة فى ذؤابتية **(مطل)** بضم الميم والطاء جمع ماطل، والمطل التطويل فى تأخير الحق، أو خلف الوعد فيه مرارا من مطل الحداد الحديد إذا مده، وفى القاموس المطل التسويف بالعدة والدين.

(فانتهر عمر)، رضى الله تعالى عنه، بالراء المهملة افتعال من النهر، وهو الزجر، ونهره وانتهره بمعنى، وقال ابن فورك الانتهار الإغلاظ فى القول مع صياح، وقيل: النهر عن الشىء بفظاظة، **(وشدد له فى القول)** فقال له عمر، رضى الله تعالى عنه: أى عدو الله

تقول هذا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتصنع به ما أرى، وتقول له ما أسمع فو الذى بعثه بالحق لو لا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك.

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتبسم) من مقالهما لشدة حلمه ولعلمه كشفا بمراد ابن سعنة، وأن عمر، رضى الله تعالى عنه، لو كشف له الغطاء لم يصعب عليه ذلك.

(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنا وهو) أى ابن سعنة صاحب الحق **(كنا إلى غير هذا)** المقال الذى قلته **(منك أحوج يا عمر)** أى أكثر حاجة، وهو أفعل تفضيل من حاج بمعنى احتاج، وليس من احتاج على حذف الزوائد شذوذا كما توهم، فإن ثلاثيه مسموع، والمفضل عليه محذوف، وهو خبر أنا وما عطف عليه، ثم بين الغير الذى هما أحوج إليه من هذا التشديد بقوله: **(تأمرنى بحسن القضاء)** أى وفاء ما له على، **(وتأمره بحسن التقاضى)** والطلب بلطف **(ثم قال)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، دفعا لما عسى يتوهم أنه وقع مطل أو تأخير منه: **(لقد بقى من أجله)** أى من تأجيل دينه **(ثلاث)** أى ثلاثة أيام، فلذا لم يحسن تقاضيه بخلاف قضاء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه وقع على أحسن وجه، فإنه فعل ما وعده وزيادة كما أشار إليه بقول: **(وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده)** على حقه **(عشرين صاعا)** من تمر **(لما روعه)** ما مصدرية أى لأجل ترويع عمر له إذ هم بقتله، وقال له مامر.

(فكان) فعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(سبب إسلامه)**، لأنه كان عالما بالتوراة، ورأى فيها ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلاماته، فحقق تلك العلامات كلها غير علامتين لشدة حلمه، فلما رآهما تيقن أمره وزالت شبهته، فحسن إسلامه وأراد الله سعادته، **(وذلك أنه كان يقول)** لمن عنده من اليهود **(ما بقى من علامات النبوة)** أى علامات نبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، المذكورة فى التوراة التى قرأها وعرفها **(شىء إلا وقد عرفته)** أى شاهدته فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة إلا وقد عرفتها، باعتبار أن الشىء بمعنى العلامة **(إلا)** علامتين **(اثنتين لم أخبرهما)** أى لم أعرفهما، وهو بضم الباء يقال خبرته أخبره خبرا إذا أخبرته فصدق الخبر بالخبر، ثم فسر الثنتين اللتين لم يعرفهما بقوله: **(يسبق حلمه جهله)** تقدم أن الجهل فى كلام العرب قديما بمعنى المبادرة للغضب، ومقتضاه عدم المبادرة بالإيقاع بمن يغضبه، وهو مقابل للحلم لا للعلم كقوله[1]:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كما مر لأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يغضب أحيانا لله وينتقم، فلا يتوهم من لا يعرف كلام العرب هنا ما لا يليق بصفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالمراد أن حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يغلب حدته، كما فى قوله: سبقت رحمتى على غضبى، أو السبق على ظاهره، فمن قال: المعنى حلمه على جهله لو كان له جهل كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وليس المراد أن له، صلى

---

(١) تقدم الاستشهاد به وتخريجه.

الله تعالى عليه وسلم، جهلا يسبقه حلمه، لأنه لقبحه لا يصلح أن يعد من علامات النبوة، وحينئذ فليس من قبيل: سبقت رحمتى، والجهل هنا وفيما بعده مصدر جهل عليه، لا به انتهى، لم يصب مع ما فى كلامه من التناقض.

(**ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما**) هذه هى العلامة الثانية أى جهل غيره بمعنى سفاهته وأذيته، كلما ازدادت واشتدت عليه زاد حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصبره ما لم تتجاوز حدود الله، وتؤتى حرماته، فإنه حينئذ يغضب لله لا لنفسه، وهذا من صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، الخارقة للعادة كما عرفته فى هذه القصة مع زيد بن سعنه، ولذا قال زيد لعمر، رضى الله عنه، لما قضاه وزاده: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وما حملنى على ما رأيتنى صنعت يا عمر إلا أنى كنت رأيت صفاته التى فى التوراة كلها إلا الحلم، فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف فى التوراة، وإنى أشهدك أن هذا التمر وشطر مالى فى فقراء المسلمين، وأسلم أهل بيته كلهم إلا شيخا غلبت عليه الشقوة، إلى هذا أشار المصنف بقوله: (**فاختبره بهذا فوجده كما وصف، والحديث**) أى الأخبار المستفيضة بين الناس، وليس المراد المصطلح عليه، ولذا عداه بعن فقال: (**عن علمه وصبره وعفوه عند القدرة**) قيده به؛ لأنه هو المحمود كما مر (**أكثر من أن نأتى عليه**) يقال: أتى على الكتاب قرأه، أو المال اتفاقا إذا استوعبه كله، وهذا التركيب كقولهم: أكثر من أن يحصى، والكلام عليه مشهور، أنه لا يمكن استيعابه واستقصاؤه.

(**وحسبك ما ذكرناه مما فى الصحيح والمصنفات الثابتة**)، أى يكفيك ما تقدم مما ثبت بنقل الثقاة، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فيكفى هذا منضمًا، (**إلى ما بلغ**)، لك وعندك (**متواترًا**)، تواترًا معنويًا عن مجموعهما، (**مبلغ اليقين**)، أى وصل بالتواتر مرتبة اليقين الذى، لا يشك فيه أحد ولو قال: مبلغ الضرورى كان أولى، والقول بأنه أراده لا يخفى ما فيه، ثم بين ذلك بقوله: (**من صبره**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**على مقاساة قريش**) المقاساة معالجة أمور صعبة شاقة بحيث لا يحتمل مثلها، وهذا فى أول بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يعرفه من طالع السير، (**وأذى الجاهلية**) أى تحمله ﷺ أذى الجاهلية، أى أهل الجاهلية، وهم الكفار، (**ومصابرته الشدائد الصعبة معهم**) فى الحروب الواقعة بينه وبينهم، وهى وإن كانت سجالا إلا أنه صب عليهم العذاب، فالمصابرة مفاعلة من الصبر عن شدائد الحروب، وهم صناديد كان لهم صبر على اصطلاء نارها، لكنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلبهم وصابرهم، وزاد عليهم حتى ظفر وانتصر (**إلى أن أظهره الله تعالى عليهم، وحكمه فيهم**) أى جعله الله تعالى قاهرا

غالبا لهم، وهم فى قبضة تصرفه يحكم فيهم بما يريد من قتل وأسر وعفو إن شاء، **(وهم لا يشكون فى استئصال شأفتهم)** الاستئصال قطع الشىء من أصله وإزالته بالكلية، والشأفة بشين معجمة مفتوحة وهمزة ساكنة وفاء تليها هاء تأنيث وتبدل الهمزة ألفا، وهى قرحة تخرج فى أصل القدم، فتكوى فتذهب، وإن قطعت مات صاحبها، فضرب مثلا، وقد يدعى به، والمراد أزاله الله تعالى من أصله بحيث لا يبقى له عين ولا أثر، ولا أصل ولا فرع، وفيه إشارة إلى خبثهم وأنهم كقرح فى البدن خبثه مهلك لصاحبه، فشبه هلاكهم أجمعين بقطع تلك القرحة، وفيه بلاغة لا تخفى.

(وإبادة خضرائهم) الإبادة بالدال المهملة بمعنى الإهلاك، وهذا مثل كالذى قبله، والخضرة كالسواد تطلق على الناس والقوم، فمعنى إزالة سوادهم وخضرائهم هلاكهم.

قال فى النهاية: أبيدت خضراء قريش أى دماؤهم وسوادهم، والمراد الجماعة وذهب بعض أهل اللغة إلى أن صوابه غضراؤهم بغين معجمة وهى عصارتهم وخيرهم وخصبهم، أو طينتهم التى خلقوا منها، والمراد على كل حال استئصالهم، والصواب ما تقدم رواية ودراية، والمعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ظفر بهم فى حال تيقنوا هلاكهم بأسرهم بحيث لا يبقى منهم باقية، **(فما زاد)** ﷺ **(على أن عفا وصفح)** أى مع شدة أذاهم ونصره عليهم بحيث صاروا فى قبضة تصرفه، وقد أحاط بهم الهلاك من كل جانب ما زاد على ما كان عليه من حاله إلا العفو والصفح، لا شفاء النفس بالانتقام وفعل ما يستحقون بحيث لو فعل لم يلم، والعفو والصفح متقاربان عدم المؤاخذة بالذنب.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، تلويحا للطفه بهم مستنذرا منهم كما فى ضمائرهم مفوضا ذلك إليهم تكرما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(ما تقولون؟)** ما استفهامية، والقول بعدها بمعنى الظن كما صرح به النحاة فقوله: **(أنى فاعل بكم)** بفتح همزة أن، وهى وما معها سادة مسد مفعوليه، وهذا متعين، وجعل القول على أصله بناء على أنه سألهم عما قالوا فى أنفسهم، أو فيما بينهم، تكلف مخالف للاستعمال الفصيح.

(قالوا: خيرا) منصوب بمقدر يدل عليه فاعل قبله أى تفعل خيرا، أو أنت فاعل خيرا، **(أخ كريم)** أى أنت إلى آخره كريم، وهى جمله مستأنفة لبيان أنه يفعل الخير، **(وابن أخ كريم)** هذا على عادة العرب فى تسمية القريب أخا قال تعالى : **(وإلى عاد أخاهم هودا)**، والكريم الجامع للخير والفضائل كما فى الحديث: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف...» إلخ.

(فقال: أقول كما قال أخى يوسف) فيه بلاغة وطى بديع أبلغ من قوله:

نهيت من الأعمار ما لو حويته لهينت الدنيا بأنك خالد

لما فيه من الإيماء إلى شقهم عصا القرابة بينهم، وحسدهم له، وكذبهم عليه، وقطع رحمه مع ما له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الشرف الباذخ، فإنه الكريم ابن الكريم، وأن حسدهم وبغيهم كان سببا لعلو مقامه، وتملكه لنواصيهم، وذلتهم له معترفين بقصورهم: ﴿**لا تثريب عليكم**﴾ الآية ﴿**ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ التثريب: التعيير والتوبيخ أى لا أوبخكم وأعيركم بما يخجلكم، ويحتمل أن المراد لا عتب عليكم لعدم مبالاتى لكم، من الثرب وهو الشحم الذى يغشى الكرش، ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد، لأنه إذا ذهب كان غاية الهزال، فضرب مثلا للتقريع الذى يمزق العرض ويذهب بماء الوجه، وفيه جواز الاقتباس من القرآن ولو مع تغيير ما فى المعنى، وقد جوز الوقف على قوله عليكم، والظرف متعلق بيغفر، وفيه المسارعة بالمغفرة فى وقت يرجى فيه خلافه، واليوم بمعنى مطلق الوقت، ويجوز أن يوقف على اليوم أى لا تغيير لكم اليوم؛ لأن المقدرة تذهب الحفيظة إذا بدل الله من العسر يسرا، ومن الحزن سرورا، ومن الفرقة ألفة، ومن الغربة ملكا وبسطة، فلا تثريب فى زمان فيه مثل هذا الخير، وبهذا الوقف قرأ القراء، ويغفر جملة دعائية أو خبرية مبشرة لهم بذلك.

(اذهبوا فأنتم الطلقاء) بالمد جمع طليق، وهو الأسير يطلق ويخلى سبيله، قيل: وهو مخصوص بمن كان من قريش، ومن ثقيف يقال لهم العتقاء تميزا بينهم، وهذا بعض حديث طويل، وهو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل بمكة واطمأن الناس، جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته، يستلم الحجر بمحجنه، فلما قضى طوافه دعا عثمان ابن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، ثم وقف على بابها، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل إلى آخره، فخرجوا كأنما نشروا من القبور.

(وقال أنس، رضى الله تعالى عنه: هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح) منصوب على الظرفية أى وقت صلاة الصبح، **(ليقتلوا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الهبوط النزول من علو لسفل، وهو يتعدى، قال العباس، رضى الله تعالى عنه وسلم:

ثم هبطت البلاد لا بشر

وباؤه مفتوحة فى الماضى مكسورة فى المضارع وضمها لغة شاذة، وقال ابن عطية:

إن الضم كثير فى غير المتعدى، وقيل عليه أنه لا يوجد الفرق بين المتعدى وغيره يعنى بحركة عين المضارع وحدها، والتنعيم بفتح التاء اسم موضع عن يمينه جبل يقال له: نعيم، وعن يساره جبل يقال له: ناعم، والوادى هو نعمان، فقيل فيه التنعيم لذلك، وقالت امرأة تذكره[1]:

أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

وهو على أربعة أميال من مكة، وهو طرف الحرم من جهة المدينة.

(**فأخذوا فأعتقهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنزل الله**) فى هذه القصة: ﴿**وهو الذى كف أيديهم عنكم**﴾ [الفتح: ٢٤] الآية، ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤]، أى أظهركم ونصركم عليهم، فهزمهم حتى أدخلهم بطنها، وحديث أنس، رضى الله تعالى عنه، المذكور رواه مسلم والترمذى وأبو داود، والمراد ببطن مكة الحديبية، وضمير الخطاب للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن معه، وكان ذلك وهو فى أصل الشجرة، فبينما هو كذلك إذ خرج ثلاثون رجلا، وقال ابن هشام رحمه الله تعالى: سبعون أو ثمانون، وأخذوا أسراء، والسفراء يمشون فى الصلح فأطلقهم وهم العتقاء، وقيل: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر أن عكرمة بن أبى جهل خرج إليه فى خمسمائة فارس، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لخالد: «هذا ابن عمك خرج فى خمسمائة فارس»[2]، فقال: أنا سيف الله، وبذلك سمى يومئذ، فقام إليه فى خيل فهزمه إلى حوائط مكة، وقيل: إنه كان يوم فتح مكة، وبهذا استدل بعض الحنفية على أنها فتحت عنوة، ورد بأن الآية نزلت قبل الفتح، وأن الكف يناسب الصلح، وهو بصيغة الماضى، والآية نزلت بالحديبية، قيل: ومن العجيب قول أبى السعود أن الآية نزلت لما خرج عكرمة بن أبى جهل فى خمسمائة فارس إلى الحديبية، فبعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خالد بن الوليد بجند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة يوم الفتح انتهى.

وهو كلام متناقض لأن الحديبية كانت سنة ست فى ذى القعدة، وفتح مكة كان فى رمضان سنة ثمان، وقصة خالد كانت يوم الفتح.

أقول: من قال المراد فتح مكة فهو ضعيف، فإن السورة مدنية نزلت قبل الفتح،

---

(١) البيت من الطويل، وهو للمجنون فى ديوانه (ص ١٩٦)، شرح شواهد المغنى (٦٠/١)، وبلا نسبة فى الحماسة الشجرية (٥٨٠/٢)، شرح التصريح (١٥٢/١)، مغنى اللبيب (٢٠/١).

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٢٨٢/١٦)، وابن كثير فى تفسيره (٣٢٤/٧).

والحمل على أن الماضى أعنى كف للتحقق بمعنى المضارع وعُدِّى بعيد جدا، وأيضا ما ذكر أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى عسكر، فبعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد إلى الحديبية، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة غلط، فإن خالد ابن الوليد لم يكن أسلم يومئذ، بل كان طليعة للمشركين كما فى البخارى، ولا حاجة لتأويل كلامه بأنه أراد بالفتح قصة الحديبية لأنها سميت فى القرآن فتحا مع أنه تابع فى هذا الغلط لغيره، وعهدته على من قال أولا، وليس ما نقله أيضًا مطابقا لما قاله فى تفسيره، وفى فتح مكة خلاف فى كتب الفقه، وفى الكشاف كف أيديهم قضى بينكم وبينهم بالمكافة والمحاجزة، وهى نزعة اعتزالية، ولذا تركه القاضى رحمه الله تعالى.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لأبى سفيان)** صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، **(وقد سيق إليه)** جملة حالية أى قال له القول الآتى، وسيق مبنى للمجهول ساقه أتى به وقاده، والسائق له هو العباس عم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم لما سار النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لفتح مكة، ونزل مر الظهران عشاء، وأوقد عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس عمر، رضى الله تعالى عنه، وأراد دخولها قهرا لقتل الكفار، فرقت نفس العباس، رضى الله تعالى عنه، لأهل مكة، فخرج على بغلة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى أتى الأراك، فقال: لعلى أجد ذا حاجة يأتى مكة، فيخبرهم برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يخرجوا ويستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، فسمعت صوت أبى سفيان يقول لبديل: ما رأيت كالليلة سرايا ولا عسكرا، فقلت: أنا حنظلة فقال أبو الفضل: قلت: نعم. قال مالك: فداك أبى وأمى قلت: هذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم فى الناس، وإصباح قريش. قال: ما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأستأمنه لك، فركب خلفى، فكنت كلما مررت بأحد قال: بغلة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليها عمه، حتى مررت بعمر، رضى الله تعالى عنه، قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد الله الذى أمكن منك بلا عقدة ولا عهد، وخرج يشتد نحو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فركضت البغلة، ودخلت عليه وعمر، رضى الله عنه، فقال: هذا أبو سفيان دعنى أضرب عنقه، فقلت: إنى قد أجرته، وجلست فلما أكثر عمر، رضى الله تعالى عنه، فى شأنه، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: مهلا يا عمر اذهب يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبح فأتنى به، فغدوت به صباحا، فلما رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم أنه جاء ليسلم منقادا **(بعد أن جلبَ إليه الأحزاب)** جلب بالجيم والموحدة بمعنى ساق وجمع،

وأصله من الجلبة وهى أصوات المحاربين، والأحزاب جمع حزب وهى الناس المجتمعة من قبائل شتى للحرب، ويقال: تحزبوا تجمعوا، وهذه غزوة الخندق التى كانت فى سنة خمس، وإسناد جلب الأحزاب إليه، لأنه كان قائد جيشهم وصاحب رأيهم، وإلا فسبب التخريب إنما كان جماعة من اليهود دعوا القبائل، وحركوا قريشا لذلك كما فصل فى السير.

(وقتل عمه حمزة) سيد الشهداء رضى الله تعالى عنه، **(وأصحابه)** أى أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعود الضمير لعمه وإن صح بعيد، **(ومثل بهم)** بالتشديد أى شوهت خلقتهم بقطع الأطراف، وشق البطن، وإخراج القلب ونحوه، وهو من المثلة بضم الميم، وهى العقوبة الشديدة، ومنه: **(قد خلت من قبلهم المثلات)** ويقال مثل بالتخفيف أيضًا، ونسب قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، وقتل أصحاب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى سفيان مع أن قاتل حمزة وحشى بن حرب، وأسلم بعد ذلك، ولم يباشره أبو سيفيان إلا أنه هو الباعث والسبب لذلك القتال والمهيج له، ولكون قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه مشهور أنه بأحد، لا يقال إن عبارة المصنف، رحمه الله، توهم أنه بالأحزاب، والمراد بالأصحاب من قتل بأحد، وكانوا أكثر من سبعين، ولذلك نسب التمثيل له مع أن الممثل زوجته هند، لأن فعل أهل الرجل كفعله لاسيما النساء، وقد مثل بجماعة غيره أيضًا كما أشار إليه المصنف رحمه الله بقوله: بهم، فممن مثل به أنس بن النضر، وعبد الله بن جحش كما فصل فى السير، **(فعفا عنه)** ما سبق منه فى كفره، لأن الإسلام يجب ما قبله، **(ولاطفه فى القول)** إذ خاطبه بقوله: **(ويحك يا أبا سفيان)** أى أتعجب لك ما عقلك ودهاؤك وظهور حقيقة الإسلام، وعبر بفاعل ليلطف كل منهما فى مقاله، واللطف الرفق والبر، ويكون بمعنى الرقة والصغر، **(ألم يأن لك)** أى ألم يدن وقت علمك، يقال: أنى يأنى إذا حان وقته وجاء زمانه **(أن تعلم أن لا إله إلا الله)** أى توحد الله وتصدق به، فتسلم إسلاما صحيحا **(فقال)** أبو سفيان: **(بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك)** لرحمك إذ خاطبتنى بلطف، وهديتنى إلى الحق مع ما قاسيته منى، ثم أجابه مصدقا فقال: لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعد، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله»[1]؟ فقال: بأبى أنت وأمى أما هذه، ففى النفس منها شىء، فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يضرب

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٧٢٦٤)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥/٣٤)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦/٤٠١).

عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم، والحديث مذكور بتمامه فى السير، وأمر أبى سفيان، رضى الله عنه، مشهور، وفى بعض النسخ بدل ما أحلمك: ما أجملك من الجمال أنه ويحتمل أنه من التجمل وهى صيغ تعجب، وكل هذا جائز.

وفى تاريخ قزوين للإمام القزوينى روى عن على بن أحمد بن صالح قال: حدثنا أبو العباس العبدى القزوينى: حدثنا الحسن بن الفضل: حدثنا محمد بن غزاوان البغدادى: حدثنا الأصمعى: حدثنا مالك بن مغول، عن الشعبى، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: لطم أبو جهل، لعنه الله، فاطمة بنت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ورضى عنها، فشكت إلى أبيها فقال لها: ائتى أبا سفيان، فأتته فأخبرته، فأخذ بيدها حتى وقف بها على أبى جهل لعنه الله وقال لها: الطميه كما لطمك، ففعلت فجاءت إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرته، فرفع يديه وقال: اللهم لا تنسها لأبى سفيان. قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: ما شككت إن كان إسلامه إلا لدعوة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم. انتهى. نقله السيوطى فى كتاب تحفة الأريب، ومن خطه نقلت: (**وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضى**) أى غضبه بعيد لا يكون منه إلا بعد أمور كثيرة بخلاف رضاه، فإنه يرضى بأقل شىء سريعا لكرمه وحلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويأتى فيه الكلام مبسوطا، وهذا لأنه متخلق بأخلاق الله، وهو رحمة من الله، ورحمته قد سبقت غضبه، وفى الحديث: «المؤمن بطئ الغضب سريع الرضى»، وهذا فى غير حقوق الله، وفى غضبه ما يؤدى إلى الحمية والمروة، فلا ينافى هذا قول الشافعى: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان.

* * *

(فصل وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة)

جواب أما قوله الآتى: فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يوازى إلى آخره، وما بينهما جمل معترضه، (**ومعانيها متقاربة**) بعضها قريب من بعض حتى توهم بعضهم لذلك أنها مترادفة، (**وقد فرق بعضهم بينها بفروق**)، وأهل اللغة يعرفون الفرق فى أمثاله بمقابلها وأضدادها كما قيل:

وبضدها تتميز الأشياء

ولأبى هلال كتاب فى الفروق مفيد جدًا، وتقدم أن فرق بتخفيف الراء وتشديدها بمعنى إلا أن بعضهم قال: الأكثر فى التفريق استعماله فى الأجسام، والفرق فى المعانى، وهذا لا ينكر استعمال أحدهما مكان الآخر، فهو كلام قليل الجدوى، وجمع فروق

باعتبار وقوعه بين كل واحد وغيره، وإلا فهو فى الحقيقة فرق، وبدأ المصنف بالجود أولا، وفى التفريق أخره، لأنه عنده بمعنى السخاء، ولذا قيل: كان الأولى تركها، وعطفه على السخاء وتأخيره، (**فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم**) عظم يعظم بضم العين فيهما جل مقداره، و(**خطره**) بفتحتين وقد تسكن الطاء قدره ووقعه، (**ونفعه**) لمن يعطى له، وذلك إنما يكون بكثرته، وهذا يختلف باختلاف المعطى والآخذ كان هذا معنى الكرم فى عرف اللغة، وإلا فالكرم بمعنى الشرف والمجد، وهو لا يختص بالإعطاء، ولذا قال: (**وسموه أيضًا حرية**) بضم الحاء وكسر الراء المهملتين المشددة تليها ياء تسمى ياء المصدرية، وهى إذا لحقت الأسماء الجامدة والصفات تصيرها مصدرًا، و لابد فى آخرها من هاء تأنيث، ولم تفصل النحاة حال هذه الأسماء إلا أنها شائعة فى الاستعمال، وما وقع فى بعض النسخ هنا من أنه جرأة بجيم مضمومة وراء ساكنة تليها همزة وهاء كما فى حواشى ابن رسلان، فهو من تحريف الكتاب، فإنه لا مناسبة له هنا، وإن كانت الجرأة والكرم أخوان لا يفترقان، لاسيما فى زمان فيه غاض الكرام وفاض اللئام، وأما تسمية الكرم حرية فلأن الحر خلاف العبد، فالحرية الخلاص من منن الناس، فإذا طوقهم مننه حصلت له الحرية، لأن الإنسان عبد الإحسان، وهذا من كلام الصوفية، فإنهم قالوا: الحرية صفة يتولد عنها الإيثار ونهاية السخاء لأنه بذل ما له إليه حاجة، وهو نهاية السخاء وأعلى منه قول بعضهم: الحرية أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شىء من المخلوقات، ولا من أعراض الدنيا والآخرة، ويكون فردا لم تسترقه دنياه ولا هواه، ولاحظ ما يتمناه.

وقال القرطبى فى كتاب المنتقى من كلام أهل التقى فى التصوف: الحرية المحضة هى الخروج من ملك سلطان الشهوة والغضب والقهر بالصبر، والعبودية المحضة هى طاعة الإرادة فيما لا يضطر النفوس إليه بسوء العادة وإيثار اللذة، وكل من خدم فى زمن الحداثة الشهوة والغضب، شق عليه فى زمن الشيخوخة ما يلحقه من ضعف بدنه عن خدمة لذته، ومن خدم فى الرأى والأدب شق عليه ذلك فى الحداثة، وكان فى زمن الشيخوخة مستريحا. انتهى.

(**وهذا ضد النذالة**) بفتح النون والذال المعجمة واللام هى الخسة والحقارة، وهى من لوازم البخل المقابل للكرم كما قيل، وفيه إشارة إلى أنه ليس مقابلا له حقيقة.

(**والسماحة**) والسماح (**التجافى**) تفاعل من الجفاء، وهو غلظة الطبع، وحقيقته التباعد والترفع يقال: جفا السرج عن ظهر الدابة إذا تباعد عنه، كما قال عز وجل، ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ**﴾ أى لا يكثرون النوم: أى العفو عما يستحقه المرء عند

غيره بطيب نفس، **(وهو ضد الشكاسة)** بشين معجمة وكاف وسين مهملة بينهما ألف، وهو كما قال التلمسانى: سوء الخلق، وفى القاموس، أنها البخل، والأول أنسب هنا، والثانى أنسب بتفسير السماحة بالجود كما قاله ابن القوطية.

(والسخاء: سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب ما لا يحمد) من الصنائع المذمومة كالحجامة وأخذ ما لا يحل له، **(وهو الجود)**، وفرق بعضهم بينهما.

قال ابن عصفور فى الممتع: السخاء مأخوذ من الأرض السخاوية، وهى الرخوة، ولذا وصف الله تعالى بجواد دون سخى، لأنه أوسع فى معنى العطاء وأدخل فى صفة العلاء انتهى، وقد تقدم ذلك فعلى هذا هو أخص منه.

وقال ابن مالك فى الكفاية: السخى هو الجواد، فهو موافق لما قاله المصنف.

وقال سقراط: الجواد هو الذى يعطى بلا مسألة صيانة للآخذ من ذل السؤال. وقال الشاعر[1]:

وما الجواد من يعطى إذا ما سألته ... ولكن من يعطى بغير سؤال

(وهو ضد التقتير) المعروف فى اللغة أن الجود ضد البخل، والتقتير التضييق فى الإنفاق، وهو ضد الإسراف والتبذير، وهما بمعنى وفرق بينهما صاحب الكشف فى سورة الإسراء، يقال: قترت الشىء وأقترته أى ضيقت الإنفاق فيه، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، والبخل والتقتير متلازمان لا مترادفان حتى يكون كل منهما ضدا للسخاء.

واعلم أن كلام المصنف هنا غير موافق للغة ولا للعرب، ولا أدرى من أين أخذه، ولكن الأمر فى مثله سهل، وهو محتاج للتهذيب وسنكر عليه مرة أخرى.

(فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يؤازى) بالهمزة مبنى للمفعول أى لا يساوى ولا يقابل، يقال: فلان يأزى فلانا أى يحاذيه ويساويه، وقال الكرمانى موافقا للجوهرى: يقال آزيته أى حاذيته، ولا يقال: وازيته، والذى عندنا فى النسخ يوازيه بالواو المبدلة من الهمزة، وقد أجازه بعضهم بقلب الهمزة واوا إذا انفتحت وانضم ما قبلها نحو جؤن، وقد جزم البرهان الحلبى بأنه فى كلام المصنف بالواو، ويحتمل أنه فى كلامه بالهمزة، ورسمت واوا على قاعدة الرسم فى مثله، أى هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يساويه أحد **(فى هذه الأخلاق الكريمة)**، والأوصاف الحسنة من الجود والسخاء والكرم والسماحة.

---

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (٥٢٧/٧).

فاق النبيين فى خلـق وفى خلـق ولم يدانوه فـى علـم ولا كـرم

(ولا يبارى) بالبناء للمجهول وهو بالموحدة والراء المهملة، ومعناه يعارض والمعارضة أن تفعل مثل ما يفعل، وهما متقاربان.

(بهذا وصفه كل من عرفه) بالمشاهدة أو بما، اشتهر عنه شهرة لا يبقى معها ريب ولا شبهة.

(حدثنا القاضى الشهيد أبو على الصدفى)، هو الحافظ أبو على بن سكرة، وقد تقدمت ترجمته وهو منسوب لصدف بفتح الدال، وهى قرية بقرب القيروان قال: **(حدثنا القاضى أبو الوليد الباجى)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو ذر الهروى)** تقدم أيضًا قال: **(حدثنا أبو الهيثم الكشميهنى)** قال البرهان الحلبى: هو بضم الكاف وسكون الشين المعجمة وكسر الميم وسكون المثناة التحتية وفتح الهاء بعدها نون كما فى لباب الأنساب لابن الأثير، وضبطه بالقلم الحافظ عبد الهادى فى طبقاته بفتح الكاف، وكذا صحح فى نسخ الشفاء، والصواب ما ذكرته، والنسبة لقرية من قرى مرو قديمة خرج منها جماعة، وقد خرجت انتهى، وفى آخره ياء نسبة لم يصرح بها، لأنه معلوم من السياق، فما فى بعض الشروح من أنه لا ياء فى آخره، وأن النسبة فيه على خلاف القياس مما يقضى منه العجب، **(وأبو محمد السرخسى)** نسبة لسرخس بلدة عظيمة بخراسان، وقد تقدمت ترجمته، **(وأبو إسحاق البلخى)** إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن داود المستملى الإمام المشهور كما تقدم، منسوب لبلخ بلدة عظيمة فى ما وراء النهر. **(قالوا: حدثنا أبو عبد الله الفربرى)** تقدمت ترجمته وفربر بزنة سبحل بلدة ببخارى.

(قال: حدثنا البخارى) تقدم وشهرته تغنى عن ذكره قال: **(حدثنا محمد بن كثير)** بلفظ كثير ضد القليل العبدى البصرى والحافظ، روى عنه أصحاب السنن، وتوفى سنة اثنين وعشرين ومائتين، وله ترجمة فى الميزان فيها كلام لابن معين، وقال الذهبى: إنما هو فى ابن كثير الفهرى، وفيه تعقب لكلام المزى، لأنه قال العبدى قال: **(حدثنا سفيان)** هو ابن سعيد الثورى كما تقدم، وهذا الحديث رواه أيضًا سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر كما هنا، وأخرجه مسلم والبخارى والترمذى فى الشمائل، وهو حديث صحيح **(عن ابن المنكدر)** وهو محمد بن المنكدر بن عبد الله التيمى المدنى الحافظ عن أبيه، وعن عائشة، وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنهما، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، **(قال: سمعت جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما، يقول: ما سئل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا فقال: لا)**، وقد علمت أن هذا الحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل وغيره، معناه قول حسان:

ما قال لا قط إلا فى تشهده   لولا التشهد لم تسمع له لا لا

ومعنى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا أتاه مستحق يطلب عطاءه، لا يخيبه ويقول له: لا قط، بدليل أوله »حتى إذا لم يجد شيئا اقترض»، أو قال ائتنى غدًا، ونحوه، وهذا هو الذى عناه حسان، وهو باعتبار الغالب، فإن النادر كالعدم، فهو مبالغة معروفة مألوفة، و لم يرد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يتلفظ بلا أصلا حتى يرد عليه أن الأحاديث المصدرة بلا نحو: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[1] كما مر لا تحصى كثرة كما قيل، ويجاب عنه بما لا حاجة له، ثم قال: وأما قوله فى البردة:

نبينا الآمر الناهى فلا أحد   أبر فى قول لا منه ولا نعم

فهو إنما يقتضى صدور لا عنه مطلقا، وذا لا ينافى أنها لم تكن لتصدر عنه إذا سئل عن شيء من متاع الدنيا، لجواز صدورها منه فى غير تلك الحال.

أقول: قد عرفت ما فيه أولا، بقى هنا فى البيت إشكال كان يجول فى الصدر قديما، وهو أن الأمر والنهى إنشاء لا يجاب بلا ونعم، فالتفريع بلا لا يصادف محله هنا، و لم يحم حول هذا أحد من الشراح مع ظهوره، وقد ظهر لى ولله الحمد وجهه، فمعنى نبينا الآمر، إلى آخره أنه لا حاكم سواه، فهو حاكم غير محكوم، فإذا قال فى أمر: لا أو نعم، وهو لا يقول إلا صوابا موافقا لرضى الله، فحينئذ لا يخالفه إلا بقسر قاسر، وليس غيره حاكم يمنعه عما حكم به ويرد أحكامه، فهو أصدق القائلين فيما يقوله.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، **(وسهل بن سعد مثله)** أى مثل الحديث السابق المروى فى الصحيحين، وحديث أنس، رضى الله تعالى عنه، هذا فى مسلم، وذكره فى الوفاء أيضًا، ولفظه: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حييا لا يسأل شيئا إلا أعطاه، والأحاديث فى معناه كثيرة، وسهل هو الساعدى الأنصارى الصحابى.

(وقال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير) أى بما فيه نفع الناس، **(وأجود ما كان فى شهر رمضان)** رمضان اسم للشهر، ويقال: رمضان وشهر رمضان، وكون العلم المضاف دون المضاف إليه، أو هما كلام لا حاجة لذكره، ولا يكره أن يقال: رمضان، وما روى من حديث، « لا تقولوا رمضان فإن رمضان من

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١١٥)، وأبو داود (٤٨٦٢)، وابن ماجه (٣٩٨٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٧٨)، والطبرانى (١٢/٢٧٨).

أسماء الله عز وجل، ولكن قولوا شهر رمضان»[1] ضعيف لا يعمل به، لصحة ما يخالفه كما فصله شراح البخارى، وهذا الحديث رواه الشيخان، وروى فيه أجود ما يكون، ووقع فى بعض النسخ هنا أيضًا، وأجود الثانى يجوز رفعه مبتدأ ونصبه عطفا على خبر كان، وعلى الأول خبره محذوف وجوبا كما قرره النحاة فى نحو: أخطب ما يكون قائما، والكلام عليه طويل الذيل ليس هذا محله، وما مصدرية وكان تامة، ولنقتصر من القلادة على ما أحاط بالعنق، وإنما زاد ﷺ فى رمضان لحاجة الصائمين، ولأنه موسم الخيرات الذى تفضل الله فيه على خلقه بما لم يتفضل فى غيره، فاتبع سنة الله فى عباده وتخلق بأخلاقه.

(وكان) ﷺ **(إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)**، لأنه عليه الصلاة والسلام يسر بملاقاته وإمداده له بالبشرى والكرامة، فيحسن كما أحسن الله إليه، فكان بكثرة مجيئه له فى رمضان ليدارسه القرآن، ويعارض به بقراءة كل منهما على صاحبه بالتجويد ووجوه القراءات أجود بالخير من الريح المرسلة.

قال الكرمانى: الجود إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى، والخير شامل لجميع أنواعه مما يقرب العبد إلى الله، وإرسال الرياح إطلاقها بإذن الله، فترسل بالرحمة والمطر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشۡرًۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَـٰتِ عُرۡفًا﴾ [المرسلات: ١]، أى الرياح المرسلة بالمعروف على أحد التفاسير، وهو من التشبيه البليغ على سبيل الترقى، فجعله أجود الناس، ثم ذكر أن جوده فى رمضان، وعند ملاقاة جبريل أزيد منه فى غيره، والمراد بالمرسلة خلاف العقيمة، قيل: وفى قوله: أجود من الريح جمع بين الحقيقة والمجاز، وفيه بحث يعلم من كلام أهل المعانى فى تحقيق وجه الشبه فى قولهم: كلامه أحلى من العسل، وتقديم قوله: بالخير اهتماما به، وللدلالة على تقدير مثله فيما بعده أو اشتراكهما فيه، لا لدفع توهم تعلقه بالريح المرسلة، وليس من الاكتفاء، وفى تشبيهه بالريح إشارة إلى سرعته ومبادرته له وقد علم، أو المراد بالريح المرسلة التى لم ترسل بالغيث لا مطلقها، لأنها فى القرآن مخصوصة بها. فإن قلت: ذكر الريح، وقد قيل: إنها إذا كانت مفردة تكون فى العذاب والشر، وإذا جمعت فهى للنفع والخير.

قلت: هذا قيل: إنه مخصوص بما وقع فى القرآن بالاستقراء لا مطلقا، فلا ينافيه ما وقع فى هذا الحديث وغيره، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب أنه قال:

---

(١) أخرجه البيهقى (٤/٢٠١)، وابن أبى حاتم فى العلل (٨٣٤)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢/١٨٧)، وابن عدى فى الكامل (٧/٢٥١٧).

كل شىء فى القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شىء فيه من الريح فهو عذاب، وما ورد فى الحديث كما رواه البيهقى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه ما هبت الريح إلا جثا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحا»[1]، لا يدل على عدم اختصاصه بما وقع اتفاقيا فى القرآن، لأنه قيل: إنه ﷺ أراد اللهم اجعلها من جملة رياح القرآن، ولا تجعلها من ريحه أى مما ذكر بهذه العبارة، فلا دليل فيما ذكر كما قيل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، و ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، و ﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقد قرئ فى بعض آيات الرحمة بالإفراد والجمع، وورد مفرده فى ذلك، فكأنه أغلبى، وأما تأويل ما فى الحديث بما جاز فيه الجمع فتعسف، وقيل: يحتمل أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما قال ذلك، لأنه ما هب إن كان ريحا واحدة لم تلقح السحاب وينزل المطر غالبا، وإن كان رياحا فهو بخلافه، ويحتمل أن يكون معناه: لا تهلكنا بريح واحدة لا تهب بعدها ريح أخرى، وطول أعمارنا حتى تهب علينا رياح كثيرة.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه) كما رواه مسندًا مسلم فى صحيحه **(أن رجلا)** هو صفوان بن أمية الآتى بيانه كما فى سيرة ابن سيد الناس وغيرها **(سأله)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فأعطاه غنما)** كثيرة كانت **(بين جبلين)** أى مالئة واديا بين جبلين كما يفهم منه ذلك بحسب العرف، وإن كان يقال للغنم السارحة بينهما قليلة أو كثيرة ذلك، فإن كان أسلم قبل سؤاله فهو ظاهر، وقوله: **(فرجع إلى قومه)**، وهم قريش لأنه من أهل مكة، وفى نسخة إلى بلدة، **(وقال: أسلموا)** لا ينافيه، وإن قيل كان قبل إسلامه، فأما أنه كان فى صدر الإسلام يجوز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الكفار من الزكاة أو من بيت المال، ثم نسخ، وقول الصرصرى:

وأتاه أعرابى التمس الندا أعطاه شاء ضمها جبلان

لعله قصة أخرى، فإن الرجل المذكور هنا من أكابر قريش، ويؤنسه قوله: **(فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة)** فإن قريشًا كانوا كرم خيمه، وجزيل عطائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه لا يخشى فاقة، وما بارى أحدًا فى الجود إلا فاقه، والفَاقة الفقر أو أشده، وهكذا أولياء أمته، ففى الحديث: «دعائم أمتى عصائب اليمن، وأربعون رجلا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢١٤/١١)، والبغوى فى تفسيره (٦٢/٤).

بالشام كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه آخر»(١)، أما إنهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصيحة للمسلمين.

(**وأعطى غير واحد مائة من الإبل**) الإبل اسم جنس جمعى لا واحد له من لفظه كخيل وغنم، والذين أعطاهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، مائة ناس كثيرة منهم أبو سفيان وابنه معاوية، والحارث بن هشام، وقد عدهم البرهان الحلبى، وقال: إنهم يبلغون ستين من المؤلفة قلوبهم، وكذلك ذكر الشيخ قاسم فى تخريج أحاديث هذا الكتاب.

(**وأعطى صفوان بن أمية مائة ثم مائة ثم مائة**) وصفوان بن أمية هو ابن خلف بن وهب بن خزاعة بن جمح قرشى، له صحبة، وكنيته أبو وهب أسلم يوم الفتح وشهد حنينا والطائف وهو مشرك، فلما أعطاه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الفىء ما ذكر قال: أشهد بالله ما طابت بهذا إلا نفس نبى، فأسلم، وروى له أصحاب الكتب الستة، وتوفى فى خلافة معاوية سنة اثنتين وأربعين بمكة، وعلى هذا فأعطاه مرارًا غنما وإبلا، فلا منافاة بينه وبين ما سبق، وعطاؤه له السابق كان من غنائم حنين، وهذا الحديث رواه مسلم.

(**وهذه**) أى الخصلة والسجية فى الكرم والعطاء (**كانت حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل أن يبعث**) أى نبيا أو يرسل، (**وقد قال له ورقة بن نوفل**) ورقة بواو وراء مهملة مفتوحتين وقاف، وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى كان من أعقل أهل زمانه وأعلمهم، شاعر بليغ متأله، وكان يقرأ ويكتب الكتب القديمة بالعربية والعبرانية، ويتأله ويتعبد، ولذا سمى القس، وتهود فى أول أمره، ثم تنصر وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وله أشعار كثيرة فى التوحيد، ولترهبه لم يكن له عقب، وورد فى الحديث: «لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين»(٢)، يعنى بذلك ما ورد من طريق آخر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رآه فى منامه فى الجنة، وعليه حلة خضراء أو بيضاء أو نحوه كثياب من حرير، وحلة من سندس، وكان حيا فى ابتداء الوحى إلى أن تنبأ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واجتمع بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآمن به كما فى أول البخارى، وقال: لئن أدركت زمانك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ ذاك نبيا، ولم يؤمر بالدعوة، ومات ورقة بعد نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: رسالته، ولذا قالوا: إنه أول من آمن بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الرجال، وهو ثان بالنسبة لخديجة، رضى الله

---

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (١/٦١).

(٢) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٩/٤١٦)، والحاكم (٢/٦٠٩).

تعالى عنها، ولذا عرفوا الصحابى بأنه من اجتمع بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مؤمنا به، ولم يقولوا بالرسول، وهذا مما ينبغى التنبه له، وفى نظم السيرة للعراقى فى ذكر ورقة:

فهو الذى آمن بعد ثانيا وكان برا صادقا مواتيا
والصادق المصدوق قال: إنه رأى له تخضخضا فى الجنة

وهذا المذكور هو الصحيح من أنه صحابى، وقيل: إنه ليس بصحابى لأنه لم ير النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يؤمن به بعد بعثته، وعليه جماعه محققون، وقول المصنف رحمه الله تعالى، وقد قال إلخ إن كانت الجملة معطوفة على ما قبلها، فهو صادق على القولين، وإن كانت حالا من الضمير فى قوله: قبل أن يبعث يكون على القول الثانى، وهو مؤمن على كل حال، ولذا رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الجنة، والأكثر من علمائنا على أنه صحابى.

(إنك تحمل الكل) هذا بعض من حديث صحيح رواه الشيخان، لكن قال السيوطى رحمه الله فى تخريجه القائل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا: إنما هو خديجة، رضى الله تعالى عنها، فى قصة مكالمتها لورقة فى شأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى جبريل، عليه الصلاة والسلام، فى أول أمره، وخاف على نفسه منه، وكذا اعترض عليه الشيخ قاسم فى تخريجه أيضًا، فقال: لا أعلم هذا من قول ورقة، رضى الله تعالى عنه، والذى فى صحيح البخارى وغيره أنه من قول خديجة، رضى الله تعالى عنها، وما قيل من أن القاضى جليل القدر لا يخفى عليه مثله، ولا يبعد صدوره من ورقة لا يجدى نفعا مع نقل الصحيحين خلافه، وليس مثله محل بحث، ولكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة.

والكل بفتح الكاف وتشديد اللام مصدر بمعنى الكلال، وهو الإعياء، وفسر بالثقل، فقيل: إنه لازم معناه، وهو المناسب للحمل لأنه لا يقال حمل الإعياء، والذى فى البخارى قيل: هذا من قولها أيضًا حين قال لها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى جبريل عليه الصلاة والسلام: لقد خشيت على نفسى، وهى التى قالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل.

(وتكسب المعدوم)، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة.

والحديث فى أول البخارى، والكلام عليه مفصل فى شروحه، وحمل الكل هو

كقول العرب في المدح: هو حمال أثقال أى يحمل ثقل غيره من الضعفاء والعيال، وإعانة الخلق بالإنفاق عليهم وإطعامهم وإعطائهم كل ما يحتاجون إليه، وكفالة الأيتام وغيره من وجوه البر، وهو استعارة شاع فى هذا المعنى.

وتكسب قال ابن قرقول، بفتح التاء وكسر السين المهملة هى أكثر الروايات وأصحها أى تكسب لنفسك بتحصيله ما يهم، وقيل: تكسب غيرك أى تعطيه لأن كسب جاء لازما ومتعديا، وأنكر الفراء وغيره أكسبه فى المتعدى، وصوبه ابن الأعرابى وأنشد:

فأكسبنى مالا وأكسبته حمدا

فيتعدى بالهمزة لمفعولين، وكسب يتعدى لمفعول، وقيل: يتعدى لمفعولين كأكسب والمعدوم الشىء الذى لا وجود له، وأما الفقر فيقال له: معدم كمكرم قال الشاعر:

قالت بنات العم يا سلمى وإنن كان فقيرا معدما قالت وإنن

قيل: ويطلق عليه معدوم أيضًا، لأنه كالمفقود لفقره، فأحد المفعولين محذوف إن بنى للمعلوم، ومذكور إن بنى للمجهول، والمراد على الوجهين أنك تعطى الناس الفقراء ما لا يجدونه عند غيرك، لما فيك من مكارم الأخلاق، وقول الخطابى رحمه الله تعالى صوابه المعدم بلا واو يريد أنك تعطى العادم الفقير الذى لا يجد شيئا، خطأ لأن هذه الرواية صحيحه مشهورة عند رواة الحديث، وفيما خشيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على نفسه وجوه، وأصحها أنه خشى الهلاك من شدة الرعب، أو تعييرهم إياه، فأرادت خديجة، رضى الله تعالى عنها، دفع ذلك الذى خشيه بقولها المذكور، أى لا تخف فإنك لا يصيبك مكروه، لما فيك من جميل الصفات.

ثم ذكر قصة هوازن، وهى صحيحة رواه البخارى وغيره، فقال: (**ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف**) نفس من النساء والذرية غير الأموال التى من غنائمهم لما غزاهم، وكانت أربعة وعشرين ألفا من الإبل وأكثر من أربعين ألف شاة من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، والأوقية أربعون درهما.

وعن ابن فارس أنه قوم ما وهبه لهوازن، فكان خمسمائة ألف ألف، وقيل: ستمائة ألف ألف، وهوازن اسم قبيلة منسوبة لهوازن بن أسلم، وكان يسكن حنينا، وهو كما يأتى موضع سمى بحنين بن نابة بن مهلاييل، وغزوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسمى غزوة حنين، وغزوة هوازن، وكانت فى شوال أو فى رمضان، وأمرها معروف مفصل فى السير، ولما غزاهم وحاز غنائمهم قدم وفدهم على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أربعة عشر رجلا رئيسهم زهير بن صرفة، وفيهم أبو برقان عم رسول الله،

صلى الله تعالى عليه وسلم، من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بما أخذ منهم لما بينهم وبينه من مناسبة الرضاعة، فقال لهم: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وما للناس يسئل منهم، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال جماعة من المؤلفة أما ما لنا فلا، فأخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم قرضا على أن يعوضهم عنه من أول مال يجىء، فسلموهم جميعا، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، كساهم، وإنما فعل ذلك لأنه كان بعد القسم، وليس للإمام أن يمن بعده لتعلق حق الغير به، والسبايا جمع سبية يعنى مسبية، قال التلمسانى: ولا يكون السبى إلا فى النساء.

(وأعطى) أيضًا **(العباس)** بن عبد المطلب عم الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه البخارى عن أنس تعليقا **(من الذهب ما لم يطق حمله)**، وقد أتى بمال من البحرين، وكان أكثر مال أتى، فنثر فى المسجد، فأتاه العباس، رضى الله تعالى عنه، وقال: أعطنى فإنى فاديت نفسى وعقيلا، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: خذ فحشا فى ثوبه، ثم ذهب ليقله، فلم يستطع، فقال: من يرفعه؟ فقال: لا، فقال: فارفعه أنت على، فقال: لا، فنثر منه، ثم ذهب يقله فلم يقدر، فقال له كالأول، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، وانطلق، فأتبعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بصره تعجبا منه، ولم يقم عليه السلام حتى فرقه، فلم يبق منه درهم، وإنما أعطاه لأنه خرج لبدر مكرها، وكان يخفى إسلامه، ثم فدى نفسه وعقيلاً كما فصلوه.

(وحمل إليه ﷺ تسعون) بتقديم المثناة الفوقية **(ألف درهم، فوضعت على حصير ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها)** رواه الحسن بن الضحاك فى شمائله مرسلا إلا أنه قال: ثمانون ألفا، وأخرجه ابن الجوزى فى الوفاء، وقال: سبعون ألفا كما قال الشيخ قاسم فى تخريج أحاديث الشفاء، والسيوطى فى تخرجه بلفظ: سبعين بتقديم السين على الموحدة، ويوافقه قول الصرصرى فى مديحه:

سبعون ألفا فضها فى مجلس لم يبق منها عنده فلسان

وقوله حتى إلى آخره غاية لقوله قسمها، وقيل: لقوله فما رد سائلا، وليس المراد أنه يرد بعد الفراغ، فهو على حد قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الله لا يمل حتى تملوا»(١).

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٨، ٣/٥١، ٧/٢٠٠)، ومسلم (٢١٥/٧٨٢)، وأحمد (٦/٤٠، ٦١، ٨٤، ١٢٢، ١٩٩، ٢٦٨)، وابن ماجه (٤٢٤١)، والبيهقى (٣/١٠٩)، وابن حبان (٦١٥).

(وجاءه رجل فسأله) عطاء شيء يحسن به له، **(فقال: ما عندى شيء)** و لم يقصد منعه بذلك حتى لا ينافى ما مر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما قال لسائل: لا قط، لأن المراد أنه لم يمنعه ما سأل من متاع الدنيا، وإنما مراده إخباره بعذره فى عدم التعجيل بدليل قوله: **(ولكن ابتع على)** بموحدة ساكنة بعد همزة الوصل ومثناة فوقية مفتوحة وعين مهملة افتعال من البيع بمعنى الشراء، فإنه يطلق عليهما، وفى القاموس: ابتاعه اشتراه، أى اشتر بثمن يكون ذلك الثمن على وفى ذمتى، كذا ثبت فى الحديث، وفى شرح الدلجى أنه بتقديم المثناة الفوقية على الموحدة أى اشتر واستلف ما تختار انتهى، وليس هذا ضمان، بل وعد منه إلا أن وعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان ملتزم الوفاء، لأن وعد الكريم دين، ولذا صح أنه لما توفى نادى أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: من كان له عند رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عدة أو دين فليأتنا، فجاءه جابر، رضى الله تعالى عنه، وقال: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدنى كذا فأعطاه له.

(فإذا جاءنا شيء) مما من الله به من الغنائم أو غيرها، وفى قوله: جاءنا يعنى معاشر المسلمين. إشارة إلى أنه مال الله لعباده لا لى وحدى **(قضيناه)** أى أديناه، ويحتمل أن الضمير هنا وفيما قبله للتعظيم أى قضيته قضاء أنال به التعظيم منه تعالى، واختاره بعضهم، ولذا لم يقل جاءنى وقضيته مع قوله على فتأمل، والقضاء يشعر بأنه لزم ذمته كالدين. **(فقال عمر، رضى الله عنه: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك)** أى بدا فى وجهه الشريف أثر عدم رضاه به، لأن فيه كسر خاطر السائل، ولأن مثله لا يعد تكليفا لما قدره له لما عوده الله من فيض نعمه عليه.

(فقال رجل من الأنصار) كان حاضرًا لما رأى من كراهية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك **(يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا)** قال البرهان: هذا الرجل لا أعرفه، وفى حفظى أن القائل بلال، رضى الله تعالى عنه، لكنه مهاجرى لا أنصارى، فيكون قد قال ذلك بلال والأنصارى، فإن الذى فيه ذكر بلال قصة أخرى المأمور فيها بالإنفاق بلال، وهو ما رواه الطبرانى والبزار مسندًا عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: دخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على بلال، وعنده صبرة من تمر، وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال له يوما: أطعمنا يا بلال؟ فقال: ما عندى إلا صبرة خبأتها لك ولضيفك، فقال: «أما تخشى أن تقذف بها فى نار جهنم، أنفق يا بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلالا»[1]، ومن العجب إيراد هذا هنا،

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١/٣٤٤)، والشجرى فى أماليه (٢/٢٠٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٨٠، ٦/٢٧٤).

ولا مناسبة له بما نحن فيه.

ووقع فى بعض كتب الحديث أنفق بـلال ووجـه بتوجيـهات، منـها أن أصلـه بـلالى بالإضافة لياء المتكلم وحذف حرف النداء وإبدال الياء ألفا كيا غلاما، وقيـل بـلال هنـا ليس علما بل فعال من البلل أى إنفاقا رطبا تبل به قلوب آكليه، ولو قيل: إنه رد لأصله من النصب وأطلق لمشاكلة إقلالا لم يبعد، وقد أخرجه العسكرى فـى الأمثـال مرفوعـا، وفى الطبرانى، أنفق يا بلال، ومعنى إقـلالا أن يقـل الله الـرزق ويجعلـه قليـلا؛ لأن لكـل منفق خلفا، وقوله: لا تخش نصف بيت وقع اتفاقـا، وقيـل: بـلالا كلمتـان أى بغـير لا، ويأباه رواية يا بلال بحرف النداء، والـذى رواهـا المصنـف رحمـه الله، ولا تخـف دون لا تخش كما مر، وقول بعض الشراح: الصواب: لا تخش، ليصير موزونا غـير صـواب مـن وجهين.

(فتبسم، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، وعـرف البشـر فـى وجهـه) بانبسـاطه وتـهلل أساريره، **(وقال: بهذا أمرت)** أى بالإنفاق من غير مخافة فقر، والتبسم انفتـاح الفـم مـن غير قهقهة، وهو مبادى الضحك.

وقد استشكل هذا بأن الله أمره بقولـه: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال فى الكشاف: لأن الإسراف غير محمود، وكـان، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم، ينفق جميع ما عنده ويجوع حتى يربط الحجر على بطنه، وأجاب القاضى أبـو يعلـى بـأن المراد بهذا الخطاب غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغير خلص المؤمنين الذيـن كـانوا ينفقون جميع ما عندهم عن طيب قلب، لتوكلهم وثقتهم بما عند الله، أما من كان ليـس كذلك يتحسس على ما ذهب منه، فالمحمود منـهم التوسـط، وهـم الذيـن إذا أنفقـوا لم يسرفوا و لم يقتروا؛ لأنهم لا صبر لهم على الفاقة، ولذا صعب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، لما راعى ظاهر الحال وأمره بصيانه المال، شـفقة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلمه بكثرة السائلين له وتهافتـهم عليـه، ولكـل مقام مقال، والأنصارى راعى حاله، صلى الله تعـالى عليـه وسـلم، فلـهذا سـره كلامـه، فقوله: بهذا أمرت إشارة إلى أنه أمر خاص به وبمن يمشى على قدمه.

وقوله: **(ذكره الـترمذى)** إشـارة إلى مـن روى فـى الحديـث، **(وذكـر عـن معـوذ بـن عفراء)** ذكر بالبناء للمجهول قال السيوطى: ذكر هـذا الحديـث الـترمذى فـى الشـمائل والطبرانى عن الربيع بنت معوذ، وسنده حسن يعنى أن المذكور إنما هو الربيع بنت معوذ بضم الراء المهملة والتصغير فهو مشدد الياء التحتية اسم امراة منقول من مصغـر الربيـع،

وكذا قال البرهان، وقال: لعله سقط من النسخ لفظ الربيع، أو وقف عليه القاضى رواية عن معوذ إلا أن معوذا لا أعلم له رواية، ووقع فى نسخة على الصواب، ومعوذ بضم الميم وفتح العين المهملة وكسر الواو المشددة، وحكى ابن قرقول فتحها وغيره لا يجيزه، وكذا ضبطناه عن الصدفى، ثم ذال معجمة، وقال التلمسانى: قيل: إن الدال مهملة مع الفتح والكسر، والأول أولى، وعفراء بعين مهملة وفاء ساكنة وراء مهملة وهمزة ساكنة ممدودة اسم أمه، وهى عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، وشهر بذلك، واسم أبيه الحارث بن رفاعة بن الحارث بن سواد، ومعوذ استشهد ببدر قتله أبو مسافع، وقيل: إنه هو الذى قتل أبا جهل، وفيه كلام فى السير.

(قال: أتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقناع) بقاف مكسورة أو مضمومة فنون وألف فعين مهملة، ويقال: له قنع بكسر القاف، وقيل: قناع جمع قنع، وظاهر قوله:**(من رطب يريد طبقا)** أنه مفرد، وكذا قوله فى حديث آخر «يهدى لنا القناع» فيه كعب حيث أفرده **(وأجر زغب)** بفتح الهمزة وسكون الجيم وكسر الراء، وأصله أجرى فسقطت ياؤه كأدل فى جمع دلو، وهو جمع جرو بكسر الجيم بوزن علم، وهو صغير القثاء، وزعم ابن قرقول أن جروا جمعه أجرا على أفعال، وهو جمع جرو، وزغب بضم الزاى وسكون الغين المعجمتين جمع أزغب، وهو ما عليه زغب، والزغب صغار الريش والشعر، فشبه به ما يكون على الفاكهة ونحوها من الصغير.

وقوله: **(يريد قثاء)** بكسر القاف وضمها وتشديد المثلثة والمد وهى معروفة، وهى ضرب من الخيار، وألفه للتأنيث أو للإلحاق، وهو اسم جنس يطلق على الواحد وغيره، ولذا فسر به الجمع، ولا حاجة لتقدير من جنس هذه، وعلى كل حال فلا يقال: إن زغب هنا كالدينار الصفر كما توهم، وهو تفسير لقوله أجر، وروى الهروى أجن بالنون بدل أجر، وهو جمع جنه وهو الغصن الرطب، والمشهور الأول، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحب القثاء.

(فأعطانى ملأ كفه حليا وذهبا) بالواو العاطفة، وفى الترمذى: أو قال: ذهبا مما كان عنده مما جاءه من البحرين، وهذا مما يدل على الوهم فى رواية معوذ، فإنه قتل ببدر ومال البحرين إنما أتاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ظهور الإسلام، والحلى بفتح الحاء المهملة وسكون اللام بزنة ضرب، وجمعه حلى بضم الحاء وكسرها ووزنه فعول، وهو كل مصاغ من الذهب والفضة، وضبطه التلمسانى بالمفرد هنا، فإن كانت الرواية به فواضح، وإلا فتجوز قراءته بالوجهين.

(وعن أنس، رضى الله عنه كان النبى، صلى الله عليه وسلم، لا يدخر شيئا لغد)

أخرجه الترمذى، وشيئا أعم من المال والقوت، وهذا بالنسبة لأغلب أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد وقع خلافه تعليما وتطييبا لقلوب أهله، وهو لا ينافى التوكل كما لا يخفى، والخبر بجوده أى فى بيان جوده، **(وكرمه كثير)** لا يحصى، فعن البحر حدث ولا حرج.

(وعن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أتى رجل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) هذا الرجل لم يبين، والحديث لم يخرجه السيوطى ولا غيره **(يسأله فاستلف له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى اقترض، والسلف والقرض بمعنى **(نصف وسق)** بفتح الواو وكسرها وهو ستون صاعا، وعند أهل الحجاز ثلاثمائة وعشرون رطلا، وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق على اختلافهم فى مقدار الصاع والمد كما قاله البرهان الحلبى، رحمه الله تعالى، والوسق أيضًا مصدر بمعنى ضم الشيء، **(فجاءه الرجل)** الذى اقترض منه **(يتقاضاه)** أى يطلب منه كما مر، **(فأعطاه وسقا)** ضعف ما أخذ منه.

(وقال) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: **(نصفه قضاء)** لما أخذ منك، **(ونصفه نائل)** أى عطاء وهبه لك، ووقع فى بعض النسخ هنا زيادة سقطت من أكثر النسخ، وهى: **(وقد قال أبو على الدقاق من شيوخ المتصوفة المشاهير وعلمائهم النحارير، وتكلم فى الفتوة وهى غاية الكرم والإيثار على رأيهم واصطلاحهم فى ألفاظهم أن هذا الخلق لا يكون بكماله إلا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كل أحد فى القيامة يقول، نفسى، ويقول هو، صلى الله تعالى عليه وسلم: أمتى أمتى)** انتهى ما زيد هنا، وأثبتها محمد بن مرزوق فى شرحه، وتبعه التلمسانى وشرحها، فلنتمم الفائدة ببعض فوائدها وبيان ما فيها، فاعلم أن الدقاق هو أبو على الحسن بن على شيخ القشيرى، تفقه فى أول أمره على القفال وغيره، ثم انقطع حتى صار سيد وقته، والمتصوفة والصوفية واحدة صوفى، ويقال تصوف إذا انقطع إلى الله تعالى كما يقال تقيس إذا انتسب لقيس، وهذا لفظ مولد واصطلاح حدث بعد القرن الأول، فقال بعضهم: الصوفى هو المنقطع بهمته إلى ربه، وهم مقتدون بأهل الصفة، رضى الله تعالى عنهم، وهى سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة فى مسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان قبل الإسلام حى يقال لهم صوفة يخدمون الكعبة، فقيل: الصوفى نسبة لهم، وقيل: لأنهم تجمعوا كما يتجمع الصوف، وقيل: إنهم لخشوعهم كصوفة مطروحة على الأرض، أو هم منسوبون للصوف للينهم وسهولة أخلاقهم أو للبسهم الصوف لاختيارهم الفقر، وهذا أظهر الأقوال لفظا ومعنى، وقيل: منسوب للصفة والأصل صفى فأبدل أحد حرفى التضعيف لينا، وقيل: إنه من الصفاء ففيه قلب، وصحح هذا بعضهم لقول

البستى:

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا جهلا فظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى سمى الصوفى

ولا شاهد فيه لأنه على مذهب الشعراء، وقد بين المصنف رحمه الله تعالى معنى الفتوة.

* * *

(فصل وأما الشجاعة والنجدة)

فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل) هذا معنى ما قاله الحكماء فى علم الأخلاق،: أن الله تعالى ركب فى الإنسان قوة هى مبدأ الإقدام على الأهوال والمهالك، لتصوره أن من خاطر بالنفس ربما يهلك النفس، وأنه لا يغنى حذر من قدر، وهى للقوة الغضبية الشنيعة. والشجاعة انقياد هذه القوة لسلطان العقل والنفس الناطقة؛ ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب، حتى يكون فعلها جميلا محمودا، وإفراطها للتهور وهو الإقدام حيث لا ينبغى، وتفريطها الجبن، وبهذا عرفت معنى الشجاعة، والجراءة أعم منها، وهذه تختص بالإنسان وفسرها ابن القوطية بالإقدام، وهو تفسير لفظى بالأعم.

(والنجدة) بفتح النون وسكون الجيم ودال مهملة كما فى النهاية، وهى شدة البأس، ويقال: هم أنجاد أمجاد أى أشداء شجعان، والواحد نجد ككتف وأكتاف وقيل: إنه جمع الجمع جمع نجد على نجاد ونجاد على أنجاد، وفسرها أهل اللغة بالشجاعة على عادتهم فى التسامح، فلا ينافى تغايرهما كما توهم، ويؤيده ما فى الحديث الآتى عن ابن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واشتهرت النجدة فى معنى المساعدة **(ثقة النفس)** فى بعض الشروح: وثق الشىء بالضم وثاقة صلب واشتد، ومنه الوثاق وثقت به بالكسر أثق اعتمدت عليه وأتمنته كما فى القريب، والمصنف، رحمه الله تعالى، استعمل الثقة موضع الوثاقة، ولم أظفر به، قلت: هذا عجيب منه، فإنه يعنى اعتماد النفس على ربها أو اعتماده على نفسه **(عند استرسالها)** أى انطلاقها وأخذها فيما يؤدى **(إلى الموت)** إى استئناسها وطمأنينتها بلا خوف، كما ورد فى الحديث: «أيما مسلم استرسل إلى مسلم فغبنه» إلخ، وحديث «غبن المسترسل ربا» **(حيث يحمد فعلها دون خوف)** قيل: ومنشأه قوة النفس وشدتها، وليست غير الشجاعة، ففسر الشدة بما ينشأ عنها انتهى، وكلامه ماش على تغايرهما، والشراح لم يفرقوا بينهما، والفرق مثل الصبح ظاهر، فإن الشجاعة جراءة

وإقدام يخوض به المهالك كما ينبغي، والنجدة ثباته على ذلك مطمئنا من غير خوف من أن يقع على الموت، أو يقع الموت عليه حتى يقضى الله له بإحدى الحسنيين الظفر أو الشهادة، فيحيي سعيدا أو يموت شهيدا، فتلك مقدمة وهذه نتيجتها، ولذا أخرها المصنف فى الذكر.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهما) أى من الشجاعة والنجدة **(بالمكان الذى لا يجهل)** أى كان متصفا بهما على أعظم وجهه، ومشتهرا بذلك اشتهارا لا يخفى على أحد، وعدم جهل المكان لعلوه وشرف بنائه كالجبل والقصر، فكنى بذلك عن علو قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشهرته على حد قوله:

إن الشجاعة والسماحة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشرج

(قد حضر المواقف الصعبة) أى مواضع القتال الشديدة ومصافها، فجعلها نفسها صعبة لصعوبة ما فيها.

(وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة) الفرار الرجوع بسرعة، والكماة بزنة قضاة جمع كمي على خلاف القياس؛ لأنه مخصوص بفاعل لمعتل، أو هو جمع كام بمعنى كمي وإن لم يسمع، وهو من تكمى إذا تستر، فأصله الشجاع اللابس للدرع والبيضة، ثم استعمل فى مطلق الشجاع كالمشفر، فإن قيل: إنه سمى به لأنه يستر شجاعته ووقائعه كان الثانى حقيقة أيضًا، لكن المعروف هو الأول، والأبطال جمع بطل كحسن وهو الشجاع المعروف بالشجاعة، سمى به لأنه يبطل عنده دماء الأقران، وغير مرة بمعنى مرات، والعرب تجعل غير مرة بمعنى مرات مع صدقه على مرتين للإبهام ونحوه من الفوائد.

(وهو)ﷺ **(ثابت لا يبرح)** أى لا يفارق مكانه كقوله: **(فلن أبرح الأرض)** أى لا أفارقها.

(ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح) أى لا يزول عن مقره، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهاتان الحالتان تدل على ثباته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى تارة يقبل على الحرب، وتارة يثبت كالجبل الراسى فلا يتحرك فإن أريد بإقباله مجرد توجهه بوجهه، وبعدم إدباره التفاته لغيرها، فهما حال واحدة، وأصل معنى التزحزح التباعد والتنحى عن المكان، قال الزبيدى: زحه إذا دفعه، كذلك زحزحه، وقيل: هو من زاحه يزيحه أو الزوح وهو السوق الشديد، ويقال: زحزحته فتزحزح، وانزاح إذا تباعد، ومنه المزاح، والصحيح الأول، وعطفه على الأدبار من عطف الخاص على العام، وكان من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجب عليه مصابرة

العدو وإن كثر وزاد على ضعف عسكره، ويأتى ما فيه، وأما الآن فإن زاد العدو على ضعف المسلمين جاز انصرافهم عن القتال، وإلا فلا يجوز إلا بالتحيز أو التحرف إلى فئة، فإن الفرار من الزحف كبيرة كما فصله الفقهاء والمفسرون.

(وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة) أحصيت بالبناء للمجهول من الإحصاء وهو العد والحفظ، والفرة المرة من الفرار وهو الهزيمة، والفار الهارب، **(وحفظت عنه جولة سواه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الجولة بفتح الجيم وسكون الواو واللام المرة من الجولان فى المكان، وقيل: هى الانكشاف والزوال عن الموقف من غير تقييد بالمرة، وفى النهاية جال واجتال إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان فى الحرب، والجائل الزائل عن مكانه، وقول الصديق، رضى الله تعالى عنه: للباطل نزوة وللحق جولة، يريد به غلبة من جال على قرنه يجول انتهى، والجولة هنا صفة ذم بمعنى فرة لا غلبة، وفى الحديث «للباطل جولة ويضمحل»، والحاصل أن الجولة تكون بمعنى الفرار، وبمعنى الذهاب ليعود، والتردد فى المكان، ويصح إرادة كل منها هنا، ويكون صفة ذم ومدح.

ثم ذكر ما يدل على ما ذكره فقال: **(حدثنا القاضى أبو على الجيانى فيما كتب لى)** هو الإمام الحافظ أبو على الغسانى الجيانى بفتح الجيم وتشديد المثناة التحتية ثم ألف ونون وياء، نسبة لبلدة منها ابن مالك وأبو حيان وغيرهما من الأئمة، وقوله: كتب لى دون إلى يشعر بأنه وقع له ذلك مع ملاقاته بدليل قوله: حدثنا، فإن الكتابة تكون للغائب والحاضر وتتضمن الإجازة، وابن الصلاح رحمه الله تعالى لم يفرق بين كتب له وإليه إذ قال: كثيرا ما يوجد فى مسانيدهم ومصنفاتهم كتب إلى فلان، وهو معمول به عندهم معدود فى المسند الموصول، وفيه إشعار قوى بمعنى الإجازة وإن لم تقترن بها، وعن السمعانى وإمام الحرمين أنه أقوى من الإجازة المجردة قال: **(حدثنا القاضى سراج)** بكسر السين كالسراج المنير، وهو سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج الأموى، توفى لست بقين من جمادى الأول سنة ثمان وخمسمائة، والذى روى عنه الجيانى وهو جد سراج بن عبد الملك كما قاله التلمسانى قال: **(حدثنا أبو محمد الأصيلى)** وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأصيلى، ويقال: الازيلى بالزاى والسين أيضًا نسبة لأصيلة بلدة بالمغرب معروفة كما قاله ابن قرقول، وقال الصاغانى فى الذيل: والأصيل بلدة من أعمال الأندلس قال: **(حدثنا أبو زيد الفقيه)** هو أبو زيد المروزى، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو الإمام البخارى، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا ابن بشار)** الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن بشار بفتح الموحدة التحتية وتشديد

الشين المعجمة وألف وراء مهملة المعروف ببندار، روى عنه أصحاب الكتب الستة، عاش ثمانين سنة، ومات سنة اثنين وخمسين ومائتين، وقيل: إحدى وخمسين، وترجمته مفصلة فى الميزان قال: **(حدثنا غندر)** بضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وتضم وراء مهملة، وهو محمد بن جعفر الهذلى مولاهم البصرى الحافظ، روى له أصحاب الكتب الستة، توفى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وترجمته فى الميزان أيضًا **(عن أبى إسحاق)** عمرو بن عبد الله السبعى الهمدانى الكوفى، أحد أعلام الحديث أخذه عن عدة من الصحابة وعدة من التابعين، وروى عنه خلق كثير، وله نحو ثلاثمائة شيخ وهو شبيه الزهرى فى الكثرة، وكان صواما قواما غازيا، مات سنة سبع وعشرين ومائة وله خمس وتسعون سنة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة فى الميزان سمع البراء بن عازب الصحابى المشهور، **(و)** قد **(سأله رجل)** وهذا الحديث أخرجه القاضى كما ترى عن البخارى فى الجهاد فى موضوعين باختلاف فى بعض ألفاظه، ورواه مسلم فى المغازى والنسائى فى السير **(أفررتم)** معاشر الصحابة **(يوم حنين عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: نعم)**، وحنين بن نابة بن مهلائيل، وبه سمى الموضع المعروف، وسميت غزوة حنين وأوطاس باسم الموضع الذى كانت فيه الوقعة سنة ثمان من الهجرة فى شوال، ووقع فى البخارى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج إلى حنين فى رمضان، والمعروف أنه فى شوال، وما ذكره المصنف ورد فى بعض طرق الحديث، وفى بعضها أفررتم، ولم يذكر عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى رواية مسلم، وعلى هذه الرواية قال النووى: جواب البراء، رضى الله تعالى عنه، من بديع الأدب، لأن تقديره أفررتم كلكم؟ فيقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وافقهم على ذلك، فقال البراء: لا والله ما فر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن جماعة من أصحابه جرى لهم كذا وكذا انتهى.

وهذا الجواب لا يتأتى إلا على الرواية الثانية، وكان ينبغى للشيخ أن يجيب بجواب غير هذا، لأن هذا الفهم احترز عنه السائل بقوله عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يجئ أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، انهزم قط، ولم ينقله أحد، وقد نقل الإجماع على أنه لا يجوز أن يعتقد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، انهزم، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان، رضى الله تعالى عنهما، آخذين بلجام بغلته يكفانها عن إسراع التقدم إلى العدو، وكما يأتى، وقد صرح به البراء فى حديثه كذا قال البرهان، وقيل عليه إنه يأتى الجواب على ما رواه المصنف أيضًا، لأن قول السائل عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن دفع وهم أنه ما فر معهم لا يدفع أنه فر بعد

فرارهم، فكان ثابتا فى ما طواه البراء فى الجواب الذى تقديره: فر من فر عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم الذى دفعه بقوله: **(لكن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفر)**، لأنه استدراك لدفع ما توهم من الكلام السابق، وإن لم يصرح به، وما قيل من أنه يمكن أن يقال: قصد البراء أن يبين أن فرارهم لم يكن بالكلية، وإنما معناه تحولنا عن وجه العدو، فجلنا جولة ثم عدنا، وكيف ندع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أعز من أنفسنا أو هو من الأسلوب الحكيم، فكأنه لما سأله عن فرارهم قال له: هذا لا يهمك شأنه، وإنما الذى ينبغى أن تعتقده أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفر، تكلف ليس فى الكلام ما يدل عليه.

(ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء) الشهباء يقال لها فضة أهداها له فروة بن نفاثة كما فى مسلم، وفروة بفتح الفاء وإسكان الراء، ونفاثة بضم النون وبالفاء المخففة وبالمثلثة الجذامى بضم الجيم وبالذال المعجمة، وفى رواية ابن اسحاق: ابن نعامة بالعين والميم والمعروف الأول، وقال بعضهم: ركب، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حنين بغلة تسمى دلدل، وكذا قال النووى فى شرح مسلم والمعروف الأول، ودلدل أهداها له المقوقس، وكبرت وبقيت إلى زمن معاوية، رضى الله تعالى عنه، ويقال: أنه وهبها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ست بغلات أو خمس كما ذكره الحفاظ، وذكروا من أهداها له.

(وأبو سفيان) بن الحارث بن عبد المطلب هو ابن عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، واسمه المغيرة أو اسمه كنيتة، وكان أخاه من الرضاع، وآلف الناس به قبل النبوة، وكان يشبهه، صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا، وكان شاعرا مطبوعا، فلما ظهر الإسلام أظهر العداوة، وهجا البنى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأجابه حسان، رضى الله تعالى عنه، بما هو مذكور فى السير، ثم أسلم وحسن إسلامه وأبلى بلاء حسنا يوم حنين، وتوفى سنة عشرين، وصلى عليه عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو أحد من ثبت يوم حنين، وهم عشرة أو أكثر كما فصله أصحاب السير.

(آخذ بلجامها) أى ممسك عنان بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والعباس، رضى الله تعالى عنه، من الجانب الآخر، فالتفت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى سفيان، وقال له: من أنت؟ قال: أخوك أبو سفيان بن الحارث فداك أبى وأمى فقال: نعم أخى ناولنى حصا من الأرض، فناولته ورمى به فأصاب أعينهم كلهم وانهزموا، وإنما أمسكا باللجام لئلا يسرع للاتصال بالعدو، ولما رأياه من إقدامه، صلى الله تعالى عليه وسلم ومسارعته، فأشفقا عليه بمقتضى المحبة الإسلامية والرحمة، وإن علما عصمته،

صلى الله تعالى عليه وسلم، وحماية الله تعالى له.

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: أنا النبى لا كذب وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب) هذه الرواية المشهورة بسكون الباء للوقف، ويروى بتحريك الباء فيهما، وروى بلا كذب، وعلى هاتين الروايتين لا إشكال، وعلى الرواية المشهورة إشكال مشهور، وهو أنه يكون موزونا من مجز وبحر الرجز، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصدر عنه الشعر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] فكيف يصدر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم هذا ونحوه؟ كقوله:

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

ووقع مثله فى كتاب الله تعالى وأجيب عنه بأن الرجز ليس من الشعر كما ذهب إليه بعضهم استدلالا بهذا، وبأن العرب تسمى قائله راجزًا لا شاعرًا، وبأن المراد بالشعر المنزه عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون بنظم أنواعه، فيكون سجية، وما وقع نادرًا لا يعد قائله شاعرًا، ونظيره ما قاله الباقلانى فى كتاب الإعجاز: إن القرآن يقع فيه ذلك حتى يكون جامعًا لأنواع الكلام، وبمثله لا يكون القرآن شعرا كالبيت أو المصراع إذا وقع فى أثناء رسالة أو خطبة، والجواب المشهور أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى بالقصد، وما وقع فى الحديث كهذا وفى القرآن كقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥] لم يقصد وزنه، فلا يسمى شعرا، وهذا فى الحديث الصحيح، وأما فى القرآن فلا، لأن إذا سلمنا وقوعه فيه لابد أن يكون بالقصد والإرادة؛ لأنه لا يمكن أن يقع شىء فى الخارج بغير إرادته، وقد ذكرت هذا لبعض مشايخى فاستحسنه، ثم رأيته فى بعض شروح المفتاح، وقد أجبنا عنه فى كتابنا طراز المجالس، وكان ابن قدامة فى كتاب التكملة لحظ هذا، فذهب إلى أنه ليس فى القرآن موزون، لأنا لا نجوز أن يقرأه على هذه الطريقة، بل نصل الكلام ولا نقف على ما يشبه العروض والضرب، وحينئذ لا يكون موزونا، وهو كلام حسن، وقوله لا كذب إذا حرك يلزمه الوقف على متحرك، وهو لحن لا يصدر عمن هو أفصح الناس وفيه نظر، ونفيه الكذب عنه لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم مصون عنه مطلقا، أو معناه لا كذب فى الظفر والنصر وما وعدنى الله تعالى، أو لا أكذب فى دعوى النبوة، لظهور آياته ووضوح برهان معجزاته، والمقصود تثبيتهم حتى لا يفر أحد منهم، وقوله: زاد غيره إن كان الضمير راجعا للبخارى اقتضى صيغة أن هذه الزيادة لم تزد فى البخارى مع أنها فيه فى محلين من كتاب الجهاد، فكان ينبغى له إسقاط قوله: وزاد غيره إن رجع لغيره ممن سمع البراء، فالأمر واضح، وقوله: أنا ابن عبد المطلب كما يقول المحارب: أنا فلان

إشارة إلى شجاعته وصولته، وإنما انتسب، صلى الله تعالى عليه وسلم لجده دون أبيه لاشتهاره بذلك، لأن أباه مات شابا فى حياة جده وهو طفل، فكفله فكانوا يقولون له: ابن عبد المطلب، لعلو مقامه وكونه سيد أهل مكة، أو خصه بالذكر وقد انهزموا عنه تثبيتا لنبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإزالة للشك فيها؛ لما عرف من رؤياه المبشرة لذلك كما أنبأ بذلك الأحبار والكهان، فكأنه يقول: أنا ذلك الموعود به، فلابد مما وعدت به، لئلا يفروا ويظنوا أنه مقتول أو مغلوب، وكان عبد المطلب رأى فى منامه أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض، وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصها فعبرت بمولود له من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمدًا كما قاله حين قيل له: لم سميته بهذا، وليس لأحد من آبائك ولا قومك مثله، فقال: رجوت أن يحمده أهل الأرض، وقيل: إن أمه لما حملت به قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعته فسميه محمدا، وقوله: أنا النبى، إلى آخره ليس من الافتخار المنهى عنه، لأنه جائز فى الجهاد لإرهاب العدو وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم ينصر بالرعب كما مر، وهذا جار على عادتهم كقوله:

أقول له والرمح باقر بطنه تأمل خفافا أننى أنا ذلكا

(قيل: فما رؤى يومئذ أحد كان أشد منه)، صلى الله تعالى عليه وسلم أى لم ير فى حرب هوازن أقوى وأشجع من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ركب بغلته، وقد ظاهر عليه درعا ومغفرا، وطاف على الصفوف يحضهم على القتال ويبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا، وكانوا برزوا للقتال فى كتائب لم ير المسلمون مثلها عِدة وعُدة، وحملوا حملة واحدة، وكانوا أرمى الناس بالسهام وأعرفهم بالقتال، فانهزم الناس، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت يلتفت يمنة ويسرة لمن فر منهم، وهو يقول: «يا أنصار الله، وأنصار رسول الله ﷺ، أنا عبد الله ورسوله»[١]، ثم تقدم بحربته أمام الناس، فلم يمض قليل حتى هزمهم الله، وإنما قال المصنف رحمه الله: قيل لأن هذه اللفظة بعينها لم تثبت عنده بطريق صحيح.

وأما كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم أشد من حضر تلك الموقعة وأشجعهم، فهو مما لا شبهة فيه، ولا يمكن أحد إنكاره.

(١) أخرجه ابن سعد (٢/١/١٠٩)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٢٢٤).

(وقال غيره) أى البخارى الذى الحديث السابق من روايته، لكنه لم يذكر فيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم **(نزل عن بغلته)** فإنه فى رواية مسلم رواه سلمة بن الأكوع، رضى الله تعالى عنه، قال: لما غشوا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم حتى امتلأت عيناه من تلك القبضة ترابا، وهزمهم الله ولا شك أن النزول فى وقت المحاربة فيه من الشجاعة ما لا يخفى، وتسميه العرب نزالا، **(فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين)** هذه حال مؤكدة، وهى قد تكون موافقة لعاملها معنى كهذه الآية ولى مدبرا، وقد تكون موافقة له لفظا كقوله:

أصخ مصيخا لمن أبدى نصيحته.

والأول أقوى لما فيه من ترك التكرار بحسب الظاهر، وفى قوله: ولى المسلمون إن أريد جميعهم مجاز بجعل الأكثر بمنزلة الجميع، وإلا فلا يجوز خلافا لمن ظنه، وقد ثبت جماعة من المسلمين اختلف فى عددهم كما مر، وفصل فى السير وكتب الحديث.

(وذكر مسلم) فى صحيحه رواية **(عن العباس)**، رضى الله تعالى عنه، عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى جعل وشرع فى فعل ذلك **(يركض بغلته نحو الكفار)** أى يسوقها ويسرع بها، والركض الضرب بالرجل، فمتى نسب إلى الراكب فهو إعداء مركوبه نحو ركضت الفرس، ومتى نسب إلى الماشى فوطأ الأرض نحو قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، ونحو منصوب على الظرفية أى فى جهتهم، **(وأنا آخذ بلجامها)**.

أى ممسكه **(أكفها)** أى أمنعها من السرعة **(إرادة أن لا تسرع)** أى لأجل إرادة أن لا تسرع نحو العدو تقتحم به، **(وأبو سفيان)** بن الحارث ابن عمه **(أخذ بركابه)** هذه رواية، وفى أخرى أن أبا سفيان كان يقود بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم آخذ بلجامها من أحد جانبيها، فلعله تارة كان يفعل كذا، وتارة كان يفعل كذا، فلا تعارض بين الروايات.

(ثم نادى) أى العباس، رضى الله تعالى عنه، وكان جهورى الصوت **(يا للمسلمين)** بفتح اللام الأولى لدخولها على المستغاث به، فإن دخلت على المستغاث له كسرت نحو يالله للمسلمين، وكان نداؤه، رضى الله تعالى عنه، بأمر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال له: يا عباس ناد أصحاب السمرة، فناداهم فعطفوا وقاتلوا حتى هزم الله

أعداء الدين، وقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه سلم: الآن حمى الوطيس.

وهذا الحديث نقله المصنف رحمه الله تعالى عن مسلم بالمعنى إذ ليس فيه نداء العباس، وخص العباس، رضى الله تعالى عنه، بذلك؛ لأنه كان صيتا يسمع صوته من ثمانية أميال، وأصحاب السمرة هم أصحاب الشجرة، وإنما خصهم بالنداء لأنهم لما بايعوه تحتها بايعوه على الموت، وأن لا يفروا، فذكرهم بذلك.

وفى خصائص الخيضرى كان يجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مصابرة العدو، وإن كثروا، والأمة إنما يلزمهم الثبات إذا لم يزد عدد الكفار على الضعف، كذا قالوه من غير دليل، لكن ذكر الماوردى أن من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم أنه إذا بارز رجلا لم ينكف عنه، وأنه لا يفر من الزحف، وخوفه من القتل غير جائز، لأن الله عصمه انتهى.

(وقيل: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم إذا غضب ولا يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شىء) أى لمهابة كل أحد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وخوفه منه لا يتحرك عنده، وقال: شىء، دون أحد مبالغة، فإن العاقل وغيره سواء فى ذلك، ففى هذا إشارة إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعتريه الغضب والحدة أحيانا، ولكن ذلك غيرة على حدود الله لا لنفسه، ومناسبة هذا لما نحن بصدده من ذكر الشجاعة أن الغضب مقتض للبطش والإقدام، وهو من نمطها، وهذا بعض من حديث صحيح فى شمائل الترمذى.

(وقال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما:) من حديث صحيح رواه الدارمى مسندا **(ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود)** تقدم الفرق بين الشجاعة والنجدة، فليس عطفه عليه عطف تفسيرى كما توهم، ونفى الأفضل هنا يفيد نفى المساوى بطريق الكناية، كما تقول: ما فى البلد أعلم من زيد كما تقدم تحقيقه، **(ولا أرضى من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى أكثر رضى منه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرضى بكل شىء من ملبوس ومأكول وغيره، ويحتمل أن المراد بالرضى عدم الغضب أى كان أكثر حاله عدم الغضب، لأن الرضى يكون مقابلا للسخط، ويكون بمعنى الإرادة وعدم الكره، وبكل منهما فسر الرضى إذا كان صفة لله، وعلى ذلك مبنى اختلاف الأشاعرة والماتريدية فى رضى الله للكفر فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، والظاهر أن هذا مراد المصنف؛ لأنه المناسب لما قبله، وهذا الحديث رواه أحمد والنسائى والطبرانى والبيهقى، قيل: عطفه أجود على أنجد لما بينهما من المناسبة، فإن الجواد لا يخاف الفقر، والشجاع لا يخاف الموت كقوله:

إن الذى جمع السماحة والنجـــ دة والـــبر والتقـــى جمعـــا

ولأن الأول بذل النفس، والثانى بذل المال، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

(وقال على، رضى الله تعالى عنه: إنا كنا إذا حمى البأس) بالموحدة وبهمزة أو ألف وهو الشدة، والمراد به الخوف أو الحرب، وحمى بزنة علم أو قد، ففيه استعارة مصرحة أو مكنية أى اشتد القتال، وهذا معنى ما وقع فى الرواية الأخرى: حمى الوطيس، فإن الوطيس التنور كما مر، وذلك أبلغ مع نكتة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم قاله فى غزوة أوطاس على ما تقدم مع الكلام عليه بما لا مزيد عليه.

(ويروى إذا اشتد البأس)، وهذه الرواية مفسرة للأولى، **(واحمرت الحدق)** جمع حدقة، وهى ما تحت الأجفان، واحمرارها يكون عند الغضب، لأن الدم يهيج فيه، وفى الحديث «الغضب جمرة تتوقد فى قلب ابن آدم» أما ترى انتفاخ أوداجه واحمرار عينيه، وفسر بشدة الغضب وهو غير مناسب هنا، وإن كان كل عدو غضبان على عدوه، ولذا فسره بكثرة الموت، والظاهر أنه كناية عن زيادة هيجانها، لأنه يقال: اشتعلت وأوقدت، ومن قرب من النار ولازمها تحمر عينه، فالمعنى اشتد القتال ودام مدة.

(اتقينا برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) أى جعلناه وقاية لنا من العدو بأنه يتقدم علينا، فيدفع العدو ونحن خلفه كما يشير إليه قوله: **(فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)**، ولذا أمسكوا بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين كما مر، ولم ينكر عليهم، وقد صارت هذه سنة فى الملوك وقت القتال حتى أن آل عثمان يقيدون فرسه.

(ولقد رأيتني) بضم التاء، وهذا من خصائص أفعال القلوب وما ألحق بها من رأى البصرية والعلمية أن يكون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين لشىء واحد، ورأى هذه بصرية كما فى قوله:

ولقد أرانى للرمـــاح دريئـــة من عن يمينـــى تـــارة وأمامى(١)

وقد اختلف فى تعليل هذا كما فصل فى كتب النحو، وكان الظاهر لقوله بعده: **(يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أن يقول: رأيتنا فكأنه عدل عنه إشارة إلى أن كل أحد مشغول بنفسه لا يرى غيره، ومعنى نلوذ نسير ونلتجىء إليه، قال عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣].

(وهو أقربنا إلى العدو) منا لشدة شجاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد بالعدو

---

(١) البيت من الكامل، وهو لقطرى بن الفجاءة فى ديوانه (ص ١٧١)، خزانة الأدب (١٠/٥٨)، الدرر (٢/٢٦٩)، شرح التصريح (٢/١٠)، المقاصد النحوية (٣/١٥٠).

الكفار، (**وكان من أشد الناس يومئذ بأسا**) أى نكاية فى العدو كقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا**﴾ [النساء: ٨٤]، كما قاله الراغب، وهذا الحديث أخرجه أحمد والنسائى والطبرانى والبيهقى فى الدلائل من طرق عنه، وأخرج مسلم بعضه من حديث البراء بن عازب، رضى الله عنه، كما قاله السيوطى فى مناهل الصفا، (**وقيل: كان الشجاع هو الذى يقرب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دنا العدو**) أى قرب من المسلمين وقت المقاتلة، (**لقربه**) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم (**منه**) أى العدو، وهذا من كلام البراء بن عازب، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه مسلم فى صحيحه، ولذا قيل: إن قول المصنف رحمه الله قيل: ليس فى محله لإيهامه ضعفه.

(**وعن أنس، رضى الله عنه**) هذا حديث صحيح اتفق عليه الشيخان (**كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحسن الناس**) كلهم خَلقا وخُلقا، (**وأجود الناس**) أى أكثرهم عطاء وإحسانا، (**وأشجع الناس**) أفعل تفضيل، ولا وجه لما قيل: إنه للتعجب ثم ذكر ما يدل على شدة شجاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: (**لقد فزع أهل المدينة**) اللام فى جواب قسم مقدر، والمدينة مدينة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم علم لها بالغلبة، والفزع انقباض ونفار يعترى المرء مما يخاف، وهو قريب من الجزع، ولذا يقال: خفت الله، ولا يقال: فزعت من الله تعالى، كما قاله الراغب قال تعالى: ﴿**لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ**﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أى من دخول النار، ويكون الفزع بمعنى الاستغاثة قال:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع(١)

(**ليلة**) منصوب على الظرفية أى فى ليلة، (**فانطلق ناس**) أى خرجوا من المدينة (**قبل**) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى الجانب والجهة ظرف أى نحوه، يقال: ذهب قبل السوق، قال الله تعالى: ﴿**فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ**﴾ [المعارج: ٣٦]، ويكون بمعنى عند يقال: لى قبله حق، ويستعار للوسع والطاقة نحو: ﴿**فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا**﴾ [النمل: ٣٧].

(**الصوت**) أى الذى سمعوه وخرجوا ليعرفوا خبره؛ لظنهم أنه عدو غار على من هناك، وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم خرج قبلهم وحده لذلك، فعرف

---

(١) صدر بيت، وعجزه: «كان الصراخ له قرع الظنابيب» وهو من البسيط، وهو لسلامة بن جندل فى ديوانه (ص ١٢٣)، لسان العرب (٥٧٢/١)، مجمل اللغة (٣٦٥/٣)، تاج العروس (٢٩٨/٣)، كتاب العين (١٦٥/٨)، تهذيب اللغة (٣٩٠/١٤)، الكامل (ص٣)، مجمع الأمثال (٩٣/٢).

جانب سمع الصوت منه **(قد سبقهم إلى الصوت)** أى المكان الذى سمع الصوت من جهته، **(وقد استبرأ الخبر)** بمهملة ومثناة فوقية وموحدة وهمزة، وقد تبدل ألفا أى وقف صلى الله عليه وسلم على حقيقته، وفى الأساس استبرأت الشىء طلبت آخره، لأقطع الشبهة عنى، واستبرأ الأرض قطعها انتهى حال كونه راكبا **(على فرس لأبى طلحة)** زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصارى الصحابى، وكان ذلك الفرس يسمى المندوب أى المطلوب، أو لأنه كان فيه ندب أى أثر جرح **(عرى)** بضم العين وسكون الراء المهملتين مجرور صفة فرس، ويقال فى الآدمى: عريانا إذا لم يكن له لباس ولغيره عرى، وقيل: إنه عرى بضم العين وكسر الراء وتشديد المثناة التحتية بمعنى عرى، وليس فى اللغة ما يساعده أى ليس على ظهره شىء من سرج أو غيره، قال فى المغرب: فرس عرى لا سرج عليه ولا لبد، وجمعها عرى لا يقال فرس عريانا كما لا يقال رجل عرى، واعرورى الدابة ركبها عريانا، ومنه كان عليه الصلاة والسلام يركب الحمار معروريا، وهو حال من ضمير الفاعل المستكن، ولو كان من المفعول لقيل معرورى.

(والسيف فى عنقه) أى حمائله معلقة فى عنقه الشريف متقلدا به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأعلم أن هذا هو السنة فى حمل السيف كما قاله ابن الجوزى، لا شده فى وسطه كما هو المعروف الآن.

(وهو يقول) لمن لقيه من أهل الفزع: **(لن تراعوا)** لن هنا بمعنى لم، ونفى الروع بفتح الراء بمعنى الخوف، والمراد نفى سببه أى ليس هناك شىء تخافونه، واستدل بهذا الحديث على طهارة عرق الخيل، وهذا حديث صحيح فى الصحيحين.

(وقال عمران ابن حصين) بكسر العين المهملة وسكون الميم وراء مهملة، وحصين بمهملتين كتصغير حصن، وهو صحابى خزاعى كان من فقهاء الصحابة وفضلائهم، رضى الله تعالى عنه، **(ما لقى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم كتيبة)** بفتح الكاف وكسر التاء المثناة فوقية وبالمثناة التحتية وباء موحدة هى الجيش المجتمع، وقيل: جماعة الخيل المغيرة من تكتبوا بمعنى تجمعوا، ومنه الكتاب لجمعه الحروف.

(إلا كان أول من يضرب) بسيفه ويقاتل، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهذا الحديث رواه أبو الشيخ فى الأخلاق، وفيه راو مجهول.

(ولما رآه)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(أبى ابن خلف يوم أحد)** هو أبى بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، الكافر المشهور الذى طعنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه

وسلم بحربته فى وقعة أحد، فوقع عن فرسه ولم يخرج منه دم وكسر ضلعه كما يأتى، فهلك عدو الله.

وقول المزى فى تهذيبه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرنا بأنه يقتل أبى بن خلف، فخدشه يوم بدر أو أحد فمات، ذكره بالترديد بين بدر وأحد لا وجه له، ويوم أحد ظرف لرؤيته.

(وهو يقول) حال من أبى: **(أين محمد؟)** سؤال عن المكان.

فإن قلت: كيف يسأل عن مكانه وهو قال أنه رآه؟ قلت: إن السؤال ليس على حقيقته، بل مجاز عن تمكنه منه وظفره به، أو التقدير أين يذهب محمد، أو الظرف ممتد وقع جميع ذلك فيه، فهو فى وقت واحد، وإن تقدم وتأخر **(لا نجوت إن نجا)** دعا على نفسه بالهلاك إن نجيَّ الله تعالى حبيبه ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أجاب الله دعاءه فأهلكه، ونجا رسوله، صلى الله تعالى عليه سلم، والفأل موكل بالمنطق.

(وقد كان) أبى **(يقول للنبى صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر)** قيل: يوم بدل من حين، وافتدى مبنى للفاعل ومفعوله محذوف أى افتدى أسيرا له، وهو ابنه عبد الله، والافتداء إعطاء الفدية لافتكاك الأسير، فالمراد بحين الافتداء يوم بدر بتمامه، لا الزمان الضيق الذى وقع الافتداء يوم بدر فيه، لأن الظاهر أنه لم يقل وعيده له، صلى الله تعالى عليه وسلم، الآتى إلا قبل أن يفتدى لا حين الافتداء، وقيل يوم بدر ظرف لمحذوف يدل عليه افتدى أى افتدى أسيره يوم بدر، فهو متعلق بأسيره أى من أسر يوم بدر، وهو ابنه، ولا يستقيم كونه بدلا من حين لأن الافتداء وقع بعد وقعة بدر بالمدينة، وأبى قال ما قال حين افتدى لا بعده، وكأن من قال إن ذلك وقع قبل أن يفتدى ظن أن الكفار لم يكونوا يدخلون المدينة بالأمان، فالأسر وقع ببدر والافتداء بالمدينة فلا تتأتى البدلية فتأمل.

(عندى فرس أعلفها) الفرس يقع على الذكر والأنثى، وأنثها هنا لأنها كانت أنثى، وقد ورد فى الحديث تذكيرها وتأنيثها بحسب المراد والقرائن، وقال التلمسانى: أعلفها هو الصواب، وفى السير أعلفه بضمير المذكر، وأصل الفرس الأنثى، وقد يقال للأنثى فرسة، وهو كلام مشوش، والذى فى الصحاح أنه يقع على الذكر والأنثى ويصغر على فريس، وإن أردت الأنثى خاصة لم تقل إلا فريسة بالهاء عن أبى بكر بن السراج انتهى، **فلا** وجه لقوله: الصواب، واسم فرسه العود بوزن الضرب، وعينه وداله مهملتان والعلف مأكول الحيوان.

(كل يوم فرقا) بفتح الفاء والراء المهملة ويجوز تسكينها، وقيل: لا يجوز، وهو مكيال يسع ستة عشر رطلا وتحريكه وتسكينه بمعنى، وقيل: المسكن مائة وعشرون رطلا، والمحرك ستة عشر رطلا.

(من ذرة) بيان للفرق بضم الذال المعجمة وفتح الراء المهملة المخففة وهاء نوع من الحبوب معروف، وقيل: إن غزوة أحد كانت فى شوال سنة ثلاث، وقيل: الظاهر أن المراد هنا الفرق بالتحريك، لأن الفرس لا يعلف ذلك المقدار كما لا يخفى.

(أقتلك عليها) صفة بعد صفة، أو هى جملة مستأنفة فى جواب سؤال مقدر، وقيل: إنها حال وهو بعيد وإن صح أن يكون حالاً منتظرة.

(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم أنا أقتلك إن شاء الله) فحقق ما أوعده، وكان إنما علف فرسه لتشوقه لهلاكه سريعا كالحافر بظلفه على حتفه، ولكل باغ مصرع، **(فلما رآه)** أى رأى أبى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم **(يوم أحد)** اليوم على ظاهره، أو بمعنى مطلق الزمان، أو المراد به الواقعة على حد قولهم أيام العرب **(شد أبى)** ابن خلف الشقى أى عدا وأسرع، قال الراغب: يقال: شد فلان واشتد إذا أسرع، ويجوز أن يكون من قولهم: اشتدت الريح، وأصل معنى الشد القوة **(على فرسه على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** الجاران متعلقان بشد، وإن كان لا يجوز تعلق حرفى جر بمعنى بمتعلق واحد، إما لأنه قيد الشد والعدو بأنه على فرسه، لا على رجليه، ثم قيده به بعد تقييده بالأول، فيتغاير المتعلق معنى، لأن الأول يقيد به وهو مطلق، والثانى تعلق بالمقيد كما حققه صاحب الكشاف فى قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ**﴾ [البقرة: ٢٥] أو الأول مستقر حال أى راكبا على فرسه، والثانى لغو.

وشد جواب لما الثانية دالا على جواب الأولى.

(فاعترضه رجال من المسلمين) أى حالوا بينه وبين رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم ليدفعوه ويصدوه عنه، أو قصدوا نحوه وجهته.

(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا) أى تنحوا ولا تحولوا وتعترضوا بينى وبينه، فهكذا هنا اسم فعل أمر بمعنى اتركوا سبيله، قال السهيلى رحمه الله تعالى: فلا يعمل فيه ما قبله كما إذا قلت: جلس هكذا أى على هذه الحالة، أو يقدر له عامل تقديره: ارجعوا هكذا، ثم استغنى عنه وقام هكذا مقامه، وأصله مركب من هاء التنبيه وكاف التشبيه، وذا اسم إشارة، وإلى كونه انسلخ عن معناه أشار بقوله: **(أى خلوا طريقه)** أى اجعلوها خالية من حائل بينى وبينه، **(وتناول)** أى أخذ، صلى الله تعالى عليه

طريقه) أى اجعلوها خالية من حائل بينى وبينه، **(وتناول)** أى أخذ، صلى الله تعالى عليه وسلم بيده **(الحربة)** بوزن الضربة، وهى واحدة الحراب بوزن رجال، وهى قناة صغيرة سميت بها، لأنها من آلات الحرب، وقيل: إن هذه الحربة كانت للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه كان لا يرى مشاركة فى جهاده وسفره فى سبيل الله، ولهذا اشترى من أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، راحلته التى هاجر بها، والأظهر أنها كانت للحارث، وربما استعان بغيره من أصحابه كما أشار إليه بقوله: **(من الحارث بن الصمة)** بكسر الصاد المهملة وفتح الميم المشددة وهاء تأنيث، ومعناه الشجاع المصمم فى أموره، ثم نقل علمًا، وهو أعنى الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك الأنصارى الصحابى شهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم بدرا وغيرها من المشاهد، وقتل ببئر معونة.

وذكر ابن الأثير أن الذى ناول رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم الحربة كعب ابن مالك، وبين الروايتين مخالفة، وجمع بينهما بأنه تناولها من أحدهما فسقطت منه، فناولها له الآخر، أو أن أحدهما وهو الذى معه الحربة كان بعيدا منه، فناولها آخر قريبا منه، فسلمها بيده، ولابد من التوفيق فإن الروايتان صحيحتان والقصة واحدة.

(فانتفض بها انتفاضة) أصل معنى النفض بالنون والفاء والضاد المعجمة إزالة الغبار ونحوه عن ثوب أو شجر، قال أبو ذؤيب:

تنفض لهدة وتذود عنه وما تغنى التمائم والعكوف

ويقال نفض وانتفض إذا اهتز، ونفض الصبغ إذا أثر لونه فى غيره، وذكر نصيب عن بناته فقال:

نفضت عليهن لونى

وقلت فى أول قصيدة:

نفضت على صاغها أيام نفض البياض بها قليل قيام

وهو هنا استعارة أى قام بها قومة سريعة، وضمير بها للحربة، وما قيل إنه مستعار من انتفاض الطائر قال:

كما انتفض العصفور بلله القطر

غير مناسب هنا إلا أن يقال: باؤه للتعدية، والمعنى أنه هزها، وقيل معناه تحرك وحركها، والأبلغ الأحسن أن يقال، إنه استعارة تمثيلية يلزمها تشبيههم بأنهم كالذباب المؤذى الواقع المتهافت، فيفيد هجومهم عليه، وتشبيه نهوضه لهم بفحل اهتز ليزيل ذبابا وقع عليه لقوله: **(تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض)**، وتطايروا بمعنى

مهملة بعدها همزة ممدودة ذبابة لها إبرة، وفى نسخة البرهان بفتح العين إلا أنه لم يثبت، وقال القتيبى: الشعر جمع شعراء وهى ذباب صغار حمر تؤذى الدواب، وقيل زرق، وقيل كثيرة الشعر، وفى رواية تطاير الشعارير، وهى جمع بمعنى الشعر، وقياس واحده شعروى، وقيل: هى ذباب يجتمع على دبر البعير، وفى الروض الأنف: الشعراء ذباب صغير له لدغ، وفى المثل قيل للذئب: ما تقول فى غنيمة تحرسها جويرية؟ قال: شحم فى ظفر. قيل: فما تقول فى غنيمة يحرسها غليم؟ قال: شعراء فى إبطى أخشى خطواته، وهى سهام تتعلم الغلمان بها الرمى، وروى فزجله بالحربة أى رمى بها انتهى.

قيل: رواية الشعراء أنسب؛ لأن الواحد لا يتطاير، أقول: هذه زبدة القيل والقال، وما أنكر من فتح العين لا وجه له، فإن تحريك حرف الحلق لغة. قال بعض النحاة: إنها تطرد فيقولون فى بحر وشعر بحر وشعر، والشعراء ليس مفردا بل اسم جمع كالطرفاء، فلا وجه لما قيل: إن الأنسب الشعر، وقول بعضهم: الشعراء جمع شعر كأنه تحريف، واعلم أن ضمير تطايروا للكفار الذين كانوا هجموا مع أبى، وقيل: إنه للصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وتطايرهم عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم بإذنه ليكشفوا له عن أبى، ولا يخفى أنه لا يناسب هذا بوجه تشبيههم بالشعراء، ولا تطايرهم كما لا يخفى.

(ثم استقبله) أى قام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم ومشى إليه بالحربة، **(فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا)** تدأدأ بمثناة فوقية ودالين مهملتين وهمزتين أى تدحرج وسقط، وقيل: مال، وضمير منها للطعنة ومثله تدهده، وقيل: الهاء بدل من الهمزة، وفى رواية تردى أى وقع.

(وقيل:) لم يطعنه، صلى الله تعالى عليه وسلم فى عنقه **(بل كسر ضلعا من أضلاعه)** بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام ويجوز تسكينها مع كسر الضاد وفتحها عظم معروف، وقال الأخفش: فى الجنب الأيمن تسع أضلاع، وفى الأيسر ثمان، وما نقص منه تام فى النساء، وهو الذى خلقت منه حواء، ولذا روى عن أبى حنيفة فى الخنثى المشكل أنه يحكم فيه بأنه أنثى بتمام أضلاعه وعكسه، وقال التلمسانى: رواية طعنه أقوى، لأن المعروف الطعن بالرمح، وفيه نظر، وقيل إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم طعنه، فوقع عن فرسه فكسر ضلعه، وفيه جمع بين الروايتين وهو حسن.

(فرجع) أبى **(إلى قريش)** وهو **(يقول: قتلنى محمد)** جملة يقول حالية أى قائلا، وعبر بالماضى لتحققه الموت، **(وهم يقولون: لا بأس بك)** البأس بهمزة ساكنة وتبدل ألفا كما مر، وهو اسم لا مبنى على الفتح، والبأس الشدة والموت والألم، وهذا هو المناسب، **ويقال:** لا بأس عليك ولا بأس بك للتسلية أو الدعاء له بأن لا يصيبه شىء من البأس،

وفى نسخة عليك بدل بك، وهما بمعنى.

(**فقال: لو كان ما بى**) من الألم والشدة التى أجدها فى نفسى موزعا وحالا (**بجميع الناس لقتلهم**) فكيف أتحمل أنا وحدى هذا وأسلم منه؟ (**أليس قد قال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم حين توعده (**أنا أقتلك**)؟ قيل: أصله أقتلك أنا، فقدم المسند إليه للحصر أى أنا لا غيرى أقتلك وحدى لا يشاركنى أحد، ولا يساعدنى فى قتلك إلا الله حتى قيل: إن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] نزلت، فالقصر قصر إفراد، والظاهر أنه قصر قلب، فهو المناسب للرد عليه أى أنا أقتلك لا أنت تقتلنى، فتدبر.

(**والله لو بصق على لقتلنى**) البصق رمى ماء الفم، ويقال بالصاد والسين والزاى، وإنما قال ذلك لتحقق صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم فيما قاله، (**فمات**) الملعون من تلك الطعنة (**بسرف**) بسين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وفاء اسم موضع، وقيل اسم جبل قريب من مكة على ستة أميال أو سبعة أو تسعة أو اثنى عشر على اختلاف فيه، واسم مكان موته مناسب له لأنه كان مسرفا على نفسه كما قيل:

اختبر الأرض بأسمائها واختبر الصاحب بالصاحب

(**فى قفولهم**) أى الكفار (**إلى مكة**) أى مات، وقد رجعوا من أحد إلى مكة، والقفول معناه الرجوع، وتسميتهم القافلة قافلة تفاؤلا برجوعها كما سمى الملدوغ سليما، فإنكار الحريرى وتخطئته فيه لا وجه له، وهذا الحديث صحيح رواه البيهقى فى الدلائل، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب مرسلا، وعبد الرزاق فى مصنفه، والواقدى فى مغازيه، وابن سعد فى طبقاته، وقيل: إنه قال هذه المقالة بمكة لما خلص ابنه من الأسر ورجع به، وكان ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، يقول: إنه مات ببطن رابغ، وأن أسيرًا من المسلمين مر وهو أسير برابغ، فرأى بعد هدوء من الليل نارًا فهابها، فلما دنا منها خرج رجل فى سلسلة يصيح العطش، ومعه رجل يقول: لا تسقه فإنه أبىّ ابن خلف قتيل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلت: سحقا له.

* * *

(فصل وأما الحياء والإغضاء)

الحياء ممدود، وهو فى اللغة ضد الوقاحة، وفعله استحيى يستحيى بيائين، وتحذف إحداهما تخفيفا، والإغضاء أصل معناه إرخاء الجفون قريبا من الانطباق، وهما متغايران

لغة وعرفا، ويدل عليه قول الفرزدق(١):

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

(فالحياء رقة) الرقة ضد الغلظ ورقة القلب أن لا يكون فيه قسوة وجفاء، قال الراغب: الرقة كالدقة لكن الدقة تقال باعتبار جوانب الشىء، والرقة باعتبار عمقه، وهى فى الجسم ضد الصفاقة، وفى النفس تضاد الجفوة والقسوة **(تعترى)** أى تعرض وتحدث **(وجه الإنسان)**، فيكون فيه ما يدل عليه كحمرته عند الخجل **(عند فعل ما يتوقع كراهته)** لم يقل ما يكره، لأن من يراه قد لا يكرهه، فالمراد ما من شأنه أن يكره، **(أو ما يكون تركه خيرًا من فعله)**، وإن لم يكره، وقال الراغب: الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها.

وفى الحديث: **(أن الله يستحى من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه)**، وليس المراد به انقباض النفس لتنزه الله سبحانه وتعالى عنه، وإنما المراد به ترك تعذيبه، وقال النووى: هو خلق يمنع من القبيح ومن التقصير فى الحقوق، وقال الزمخشرى: هو تغير وإنكار يلحق من فعل أو ترك ما يذم به، تفصيل فى تفسير البيضاوى كما بيناه فى حواشيه فانظره.

(والإغضاء) فى عرف اللغة **(التغافل)** أى إظهار الغفلة ممن ليست فيه، والمراد التجاوز **(عما يكرهه الإنسان بطبيعته)** وإن لم يكره شرعًا، **(وكان النبى صلى الله تعالى عليه سلم أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات)** جمع عورة، وهى كل ما يقبح إظهاره، ولذا كنى عن سوأة الإنسان، وعن المرأة بالعورة، وهى مأخوذة من العار **(إغضاء)** أى سكوتًا وتجاوزًا، والإغضاء يتعدى بعن وعلى، وعبر فى جانب الحياء بالأشدية، وفى الإغضاء بالأكثرية، لأن الحياء كيفية نفسانية تنشأ عنها كيفية حسية تقبل الشدة والضعف، والإغضاء فعل من الأفعال يكثر ولا تزيد كيفيته من حيث هو، وقيل: لأن الإغضاء نوع احتمال وحلم وعفو عمن وقع فى مكروه، وهو مسبب عن الحياء، والسبب أقوى باعتبار أنه منشأ للمسبب عنه، وفيه نظر، ثم استدل على أن هذه الصفة الحميدة موجودة فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: **(قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾** [الأحزاب: ٥٣] أى مكثهم فى بيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مستأنسين لحديث بعضهم لبعض ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية، ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]،

---

(١) البيت من البسيط، وهو للفرزدق فى ديوانه (١٧٩/٢)، أمالى المرتضى (٦٨/١)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص ١٦٢٢)، شرح شواهد المغنى (٧٣٢/٢)، مغنى اللبيب (٣٢٠/١)، المقاصد النحوية (٥١٣/٢).

وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنى بزينب بنت حجش، و أولم بشاة وتمر وسويق، وأمر أنسا بدعوة الصحابة لذلك، فدعاهم فجعلوا يجيئون ويأكلون ويخرجون، ويجيء آخرون إلى أن بقى ثلاثة نفر، فأطالوا المكث يتحدثون، فتأذى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، وكان شديد الحياء، فنزلت الآية فى حقهم أى أن ذلكم اللبث كان يؤذى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لضيق منزله، فيستحى منكم أن يأمركم بالخروج منه، وهذا من الآداب الشرعية، فيستحب لمن زار أحدًا ولو بدعوة أن يظهر القيام للذهاب، ثم يذهب مالم يقل له: امكث عندى، وقد قال السلف، رحمهم الله تعالى: من زار وخفف، وقيل لبعضهم: هل نزل فى الثقلاء قرآن؟ فقال: نعم ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، وللسيوطى تأليف لطيف فى هذا.

(حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتى عليه) تقدمت ترجمته، وقيد روايته بقراءته عليه وهو يسمع وهو العرض، والصحيح صحة ذلك إلا أنه اختلف فى كونها دون قراءة الشيخ، أو مثلها، أو فوقها على ثلاث أقوال، وتفصيله فى ابن الصلاح، قال: **(حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد)** بن عبد الرحمن بن حاتم المعروف بابن الطرابلسى، وتكنيته بأبى القاسم غير مكروهة لاختصاصه بحياته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ أو لأنه إنما يكره الجمع بين الاسم والكنية، والخلاف فيه مشهور كما سيأتى قال: **(حدثنا أبو الحسن القابسى)** بن محمد بن خلف الإمام الحافظ منسوب لقابس بلدة بالمغرب، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو زيد المروزى)** بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الواو والزاى، تقدم الكلام فيه وفى نسبته قال: **(حدثنا محمد بن يوسف)** هو الفربرى وقد تقدم قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** هو البخارى، وقد روى هذا الحديث مسندًا فى صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا أخرجه مسلم فى فضائله قال: **(حدثنا عبدان)** بفتح العين المهملة وسكون الموحدة والدال المهملة وألف ونون، وهو عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبى رواد العتكى المروزى أبو عبد الرحمن الحافظ، توفى سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرج له أصحاب الكتب الستة قال: **(أنبأنا عبد الله)** بن المبارك بن واضح الحنظلى التميمى الزاهد، شيخ خراسان ومسندها، له مناقب مشهورة، وروى عنه أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وولد سنة ثمانية عشر ومائة، وقبره بهيت يزار قال: **(أخبرنا شعبة)** تقدمت ترجمته **(عن قتادة)** تقدم أيضا **(قال: سمعت عبد الله مولى أنس)** هو ابن أبى عتبة مولى أنس، رضى الله تعالى عنه، وقيل: اسمه عبيد الله مصغرًا، وذكره ابن حبان فى الثقات مكبرا، وهو يروى عن أنس وعائشة، رضى الله تعالى عنهما، وروى عنه كثيرٌ، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وهو بصرى صدوق ثقة.

(عن أبى سعيد الخدرى) بن مالك بن سنان الخدرى، وقد تقدم الكلام عليه، وأن الخدرى بدال مهملة.

(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد حياء من العذراء فى خدرها)، وهذا الحديث صحيح أخرجه الشيخان والترمذى وابن ماجه، والمصنف أخرجه من طريق البخارى، وحياء ممدود تقدم معناه، وبالقصر المطر، وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل، والعذراء، بعين مهملة وذال معجمة وراء مهملة ومد: البكر الباقية بعذرتها، وهى جلدة يلتحم بها الفرج، فإذا جومعت زالت، فيقال: افتضها وأزال عذرتها، ومنه يقال لمن فعل ما لم يسبق إليه أبو عذرة وأبو عذرته، والخدر بكسر الخاء المعجمة وسكون الدال وبالراء المهملتين هو البيت، أو ستر فى جانب البيت، أو قبة تضرب لها.

فإن قلت: البكر فى خبائها بين أهلها وأبويها، وهى لا تحتجب عنهم، ولا تستحى منهم كاستحيائها من الأجانب، فكان الظاهر أن يقال: العذراء فى غير خدرها لما فيه من المبالغة.

قلت: المراد بكونها فى خدرها أنها لم تخرج بسبى وتزوج ونحوه؛ لأنها إذا خرجت بذلك قل حياؤها وزال حجابها، وقيل: المراد التعميم وأن العذراء فى خدرها أشد حياء؛ لكونه مظنة الاجتماع بها، والظاهر أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها فى خدرها لا حيث تكون منفردة قاله ابن حجر، ولا يخفى ما فيه؛ فإنه لا دلالة فى اللفظ على ما قاله، فالحق ما سمعته أولا.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إذا كره شيئًا عرفناه فى وجهه)** أى عرفنا أنه كرهه بعلامات تلوح فى وجهه الشريف كتغيره وغض بصره ونحوه، والمراد أنه إذا لم يكن فى حدود الله تعالى وحقوقه، فلا يؤخذ أحد بما يكره كما قال الصرصرى:

فاق العذارى فى الخدور حياؤه   لا جيد فيه لصاحب أو شانى

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لطيف البشرة) تقدم معنى اللطف والبشرة بفتح الباء الموحدة والشين المعجمة والراء المهملة هى ظاهر جلد الوجه والجسد كله، ومنه البشارة لظهور آثار الفرح بها فى الوجه، وهذا كالعلة لمعرفة ذلك فى وجهه الشريف، لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للطف بشرته يظهر فيها ذلك، وكذا قوله: **(رقيق الظاهر)** أى ما يظهر من بدنه رقيق يظهر فيه بسرعة آثار الانفعالات النفسية، ولا وجه لتفسيرها بأنه يستحيى كما قاله التلمسانى.

(لا يشافه أحدا) أى لا يكلم، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أحدًا)**، ولا يواجهه **(بما يكرهه حياء وكرم نفس)** منصوب مفعول له أى يترك ذلك تكرما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا خوفا ومداراة.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها)، حديث رواه أبو داود فى سننه مسندًا **(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟)** البال هو الحال والشان، وما استفهامية مبتدأ أو خبر عن بال، وجملة يقول حال أو مفسرة للبال.

(ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟) إشارة وكناية عما يكره، فلا يعين الصانع أو القائل، وفلان وفلانة كناية عن أسماء الآدميين، والفلان والفلانة كناية عن أسماء غيرهم.

(ينهى عنه ولا يسمى فاعله) بصريح اسمه، بل يكنى عنه، ونهيه عما أنكره مأخوذ من الاستفهام الإنكارى، وسياق الكلام فى قوله: ما بال، فلا يقال: إنه ليس فى الكلام نهى.

(وروى أنس، رضى الله تعالى عنه،)، هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى والنسائى قالوا: **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(دخل عليه رجل به أثر صفرة)** الصفرة اللون المعروف، والمراد بها لون الورس والزعفران يعنى أنه كان خضب بذلك فبقى عليه بقية منها، ولم يسم هذا الرجل، **(فلم يقل له شيئًا)** من نهيه عن ذلك ونحوه مما يكرهه كما أشار إليه بقوله: **(وكان)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(لا يواجه أحدا بما يكره)** أى لا يخاطبه شفاها، ويقول له فى وجهه شيئا يكرهه، وإن قال له أحيانا فى غيبته، **(فلما خرج)** ذلك الرجل من مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قال: لو قلتم له يغسل هذا)** أى أثر الصفرة والخضاب، **(أو ينزعها)** بفتح الزاء المعجمة يقال نزعه ينزعه كسأله يسأله إذا أزاله، والضمير للصفرة، والشك من الراوى وهما بمعنى، ولو شرطية جوابها محذوف لتذهب النفس كل مذهب، وتقديره أصبتم ونحوه، وقيل: إنها مصدرية أى وددت قولكم هذا، وخضاب هذا الرجل إن كان فى لحيته دل على منع خضاب اللحية بالحناء ونحوها، ولا يعضده ما فى البخارى عن قتادة، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: سألت أنسًا هل خضب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: لا إنما كان شىء فى صدغيه أى شىء قليل من الشيب لا يحتاج للخضاب؛ لأنه لا يدل على تركه لأنه منهى عنه شرعًا، بل لعدم الحاجة إليه، وكذا ما روى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يخضب قط، أى لعدم الحاجة إليه، إلا أنه روى عن أنس، رضى الله تعالى عنه، رأى شعر

رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مخضوبا يعنى بعد موته كما نقله ابن الجوزى، أما قبله فاختلفت فيه الروايات، وروى جماعة أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان يخضب بالصفرة والورس والزعفران»[١]، وكان عمر، رضى الله تعالى عنه، يفعله، وجمع الكرمانى بين الروايات بأنه صبغ فى وقت، وتركه فى معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى، وقد أمر، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالخضاب بالصفرة، وحث عليه، وفعله وتبعه على ذلك أكابر الصحابة، فهو سنة من تركها فقد ترك سنة، وإنما ترك بعضهم لما فيه من التكلف، وهو أحب للنساء، وأرهب للعدو، وكذا الخضاب بالسواد، وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، «نهى عن الخضاب بالسواد»[٢]، وحمل على ما إذا كان فيه تدليس على النساء، فما فى هذا الحديث محمول على غير خضاب اللحية بأن يحنى يديه ورجليه، أو يجعل الصفرة فى ثوبه، فإنه منهى عنه، وفى فتاوى شيخ شيوخنا ابن حجر الهيتمى أنه إن كان من غير حاجة كحرب ونحوه حرام؛ لما فيه من التشبه بالنساء، وصنف فيه رسالة مستقلة، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المتقدم: يغسله أو ينزعها فيه دليل على أنه كان فى ثوبه، ولو لم نحمله على هذا أشكل الحديث، والشراح لم يتعرضوا له.

(وقالت عائشة فى الصحيح) أى فى الحديث الصحيح المروى عنها كما أخرجه الترمذى وصححه: **(لم يكن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاحشًا ولا متفحشًا)** الفحش كل أمر قبيح، أو شديد القبح قولاً أو فعلاً، والفاحش من يصدر عنه ذلك، والمتفحش من يتعمده ويبالغ فيه، والظاهر أن المراد به بذاءة اللسان هنا، ويؤيده قوله: **(ولا صخابًا بالأسواق)** صخاب بفتح فتشديد صيغة مبالغة من الصخب، وهو رفع الصوت بمبالغة فيه، وهو بالصاد والسين، وهكذا كلما كان معه حرف حلق يجوز إبداله قياسا مطردا، وخص الأسواق لأنه فيها أقبح، ولأنها محله، وأما فى المنزل ونحوه فلا حاجة إليه.

(ولا يجزى بالسيئة السيئة) لأنه أحق بالأجر من الله على ذلك؛ لأنه المنزل عليه، فمن عفى وأصلح، فأجره على الله، ولما كان العفو غير لازم من عدم المجازاة بالفعل أتى بالاستدراك فى قوله: **(ولكن يعفو ويصفح)** يعنى أنه ﷺ كثير العفو فيما لا يكون من الحدود وحقوق الله، والعفو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح الإعراض عن المسئ بحيث لا يخجله، وقد تقدم شرحه، وهذا الحديث مروى فى الصحيحين بطريق آخر عن عبد

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣٢١/١٢، ٣٥١).

(٢) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١٤٢/٢/١).

الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما، عن عطاء بن يسار أنه قال له: أخبرنى عن صفة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التوراة، فساقه له فى حديث طويل، وإليه أشار بقوله: **(وقد حكى)** بالبناء للمجهول **(مثل هذا الكلام)** الذى قالته عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(عن التوراة من رواية عبد الله بن سلام)** بفتحتين مخفف اللام، وهو الصحابى المشهور، رضى الله عنه، **(وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما)**، وهو وإن كان قرشيًا لكنه قرأ الكتابين، وكان عالمًا بما فيهما، ولذا سألوه عن صفة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها، وقد اختلف فى تحريف أهل الكتاب كتبهم هل كان بتغيير عبارتها بنقص وزيادة، أو أنه إنما كان بمجرد التأويل وصرف ما فيها عن ظاهره؟ والصحيح أن كلا منهما واقع، وإذا كان كذلك علم وجه المنع من قراءتها، وأنه حرام، ولا يرد عليه أن بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كان يقرؤها؛ لأنهم يعلمونها قبل إسلامهم، وهم لا يخفى عليهم ما غير منها، والظاهر أنه لا يمنع منه من عرف ذلك، وقصد الرد عليهم.

(وروى عنه) أى عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا ذكره الإمام الغزالى فى الإحياء، وقال الحافظ: إنه لم يجده فى كتب الحديث، وكذا قال السيوطى، رحمه الله تعالى، **(أنه)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد)**، ثبات البصر بمعنى إطالة النظر من غير تخلل إغماض بجفن ونحوه حتى كأن بصره صار قارًا فى المرئى كما قال المتنبى:

وخصر تثبت الأبصار فيه   كأن عليه من حدق نطاقا

فتخيل حقيقة الثبات فيه، ثم بنى عليه جعله كالناطق، وإن كان فيه للأدباء كلام.

(وأنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كان يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره)** أى يورد المعنى القبيح عادة بطريق الكناية، لشدة حيائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كقوله: «حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»؛ لأن الجماع وذكره للمرأة يستحيى منه، ومثله فى الحديث كثير.

(وعن عائشة) الصديقة بنت الصديق **(رضى الله تعالى عنها، ما رأيت فرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قط)** مع أنه يجوز رؤية كل أحد من الزوجين فرج الآخر، وإن كان مكروهًا، وفى حديث رواه ابن حبان «النظر إلى الفرج يورث الطمس»(١) أى العمى، فقيل: عمى الناظر، وقيل: عمى أولاده، وقيل: المراد عمى القلب، والمعنى أنه،

---

(١) أورده ابن حجر فى تلخيص الحبير (١٤٩/٣).

صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة حيائه لم يكشف عورته عند أحد قط كما ورد: «من كرامتى على الله أنه لم يطلع لى على عورة أحد قط»، فما ذكر منطبق على ما سيق له الكلام؛ فإن عائشة، رضى الله تعالى عنها، زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقرب الناس وأحبهم إليه، وكان يضاجعها وينام عندها، فإذا لم تر ذلك منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لزم عدم كشفه عندها، فإذا لم يكشف عندها، فبالطريق الأولى عند غيرها، وإنما كَنَّتْ عن ذلك ولم تصفه تأدبًا منها، فلله درها، فهذا كقولهم: لا أرينك هنا، فلا ترفع الثياب إلا وقد لاصقها، فيكون سترة له حينئذ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا يتوهم أن عدم رؤيتها لذلك لغض بصرها حياء منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا أنه لا ينكشف عندها فافهم.

* * *

(فصل وأما حسن عشرته)

بكسر العين المهملة وسكون الشين المعجمة، أى: اختلاط المرء مع أهله وأصحابه ومعاملتهم، **(وأدبه)** بالرفع معطوف على حسن، ويجوز جره ورجحه بعض الشارحين، فلما ورد عليه أن الأدب لا يكون إلا حسنًا دفعه بأن منه ما لا يحسن، كأدب أهل الدنيا مع كبارهم، وهو أنسب بقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[1]، والأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً، والأخذ بمكارم الأخلاق، من المأدبة وهى الطعام الذى يدعى له الناس **(وبسط خلقه)** تقدم معنى الخلق وأنه بضمتين أو ضم فسكون، والبسط نشر الشىء وتوسيعه ومنه البساط، وورد البسط بمعنى المسرة وعليه استعمالهم، وورد فى الحديث: «فاطمة منى يبسطنى ما يبسطها»[2]، فليس من كلام المولدين كما توهم، ومن أمثال العامة البسط صدف، والمعنى هنا سعة خلقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويجوز رفعه وجره أيضًا، والأول أولى وليس بمتعين كما توهم، وإنما كان معنى بسط الخلق هنا سعته؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نال من الأخلاق الحميدة أقصاها وغايتها، وقوله: **(مع أصناف الخلق)** تنازع فيه الألفاظ الثلاثة، فهو قيد لجميع ما قبله، **(فبحيث انتشرت)** أى كثرت واشتهرت، وهو جواب أما هو خبر مبتدأ مقدر أى، فهو بحيث أى بمحل معلوم لكل أحد **(به الأخبار الصحيحة قال على، رضى الله تعالى عنه، فى وصفه، عليه الصلاة والسلام)**، فى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى فى شمائله (: **كان أوسع الناس صدرًا)** المراد بسعة صدره تحمله، صلى الله تعالى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

عليه وسلم، مشاق الناس وكثرة تكاليفهم، قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢]، أى ضيق، (**وأصدق الناس لهجة**) فى الصحاح اللهجة اللسان، وقد تحرك فأطلق وأريد به الكلام مجازا مرسلا من إطلاق المحل على الحال، ووضع فيه الظاهر مقام الضمير؛ لأن كلا منهما صفة مستقلة، ولا ينافيه حديث: «ما من ذى لهجة أصدق من أبى ذر»؛ لأن المراد تفضيله، رضى الله تعالى عنه، على أمثاله، والصدق ضد الكذب، وهو معروف ثم إن فى التفضيل فى الصدق سؤالا، وهو أن الصدق هو المطابقة للواقع، فما طابق فهو صادق ومالم يطابق كذب، فكيف يتصور التفاوت فيه حتى يكون هذا صادقًا وذاك أصدق، وهذا إنما يرد لو كان التفضيل فى كلام واحد أو أنواع منه محصورة، أما لو أريد كل كلام صدر عن متكلم، فلا يريد ما ذكر.

(**وألينهم عريكة**) أى أسهل الناس طبعًا فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائمًا سلس مطاوع منقاد قليل المخالفة لا تهور فيه، وأصل العريكة السنام، فهو فى الأصل مجاز حتى صار حقيقة فيما مر.

(**وأكرمهم عشرة**) أى يعامل الناس فى معاشرته ومخالطته بكريم الأخلاق، فيعظم من يستحق التعظيم، ويتلطف مع من دونهم.

(**حدثنا أبو الحسن على بن مشرق**) بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المشددة وقاف اسمه على، وله ترجمة فى الميزان وسمع منه السلفى وفيه كلام (**الأنماطى**) جمع نمط، وهو ثوب من صوف يطرح على الهودج، والنسبة إلى الجمع على رأى، أو لأنه ملحق بالعلم كالأنصارى؛ لأن المراد به صيغة مخصوصة، وقيل: إنه على خلاف القياس (**فيما أجازنيه وقرأته على غيره**) فيه بيان لطريق التحمل، وأنه رواه عن غيره فانجبر الطعن فيه، وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائى (**قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال**) بفتح الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة وألف ولام، وهو الإمام الحافظ المتقن محدث مصر أبو إسحاق إبراهيم بن سعد بن عبد الله بن النعمان التجيبى الفراء الوراق المصرى، ولد سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، وسمع من أحمد بن عبد العزيز صاحب المحاملى وغيره، ومات فى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وله إحدى وتسعون سنة، وترجمته مشهورة قال: (**حدثنا أبو محمد بن النحّاس**) بحاء مهملة مشددة وهو الإمام أبو محمد عبد الرحمن ابن عمر بن محمد بن سعيد بن إسحاق المصرى البزار، سمع أبا سعيد بن الأعرابى وسليمان بن داود العسكرى وجماعة كثيرين، وكان ثقة كما قاله ابن ماكولا (**حدثنا ابن الأعرابى**) هو الإمام أبو سعيد الذى يروى سنن أبى داود عنه قال: (**حدثنا أبو داود**) سليمان بن الأشعث صاحب السنن المشهورة قال: (**حدثنا هشام أبو مروان ومحمد بن المثنى**) هشام

ابن خالد بن يزيد بن مروان الأزرق الدمشقى الثقة الثبت، توفى سنة تسع وأربعين ومائتين، وترجمته فى الميزان، ومحمد بن المثنى أبو موسى العنزى الحافظ، توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين قالا: **(حدثنا الوليد بن مسلم)** الحافظ أحد الأعلام أخرج له الجماعة، إلا أنه رمى بالتدليس قال: **(حدثنا الأوزاعى)** هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد نسب للأوزاع، وهى قبيلة من حمير أو اسم قرية، وهو عالم فقيه زاهد روى عن عطاء ومكحول، وروى عنه كثيرون، وأخرج له أصحاب الكتب، وهو ثقة وله ترجمة مشهورة **(قال: سمعت يحيى بن أبى كثير)** بزنة كثير ضد القليل، وهو من العباد وأئمة الحديث توفى سنة تسع وعشرين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته فى الميزان قال: **(حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة)** بضم الزاء المعجمة، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد والى المدينة، وهو ثقة أخرج له الستة، وتوفى سنة أربع وعشرين ومائة **(عن قيس بن سعد)** بن عبادة بن دليم الخزرجى سيد الخزرج، وصاحب شرط رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخرج له الستة وأحمد، وكان من الدهاة وذوى الرأى طويل القامة جميلاً جوادًا، توفى بالمدينة فى آخر خلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، **(قال: زارنا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** على عادته فى تفقد أصحابه، وكان سعد بن عبادة دعاه رجل ليلا، فخرج له فضربه بسيفه فأشواه، فجاءه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعوده.

(وذكر قصة) هى ما وقع له مع عبد الله بن أُبىّ بن سلول إذ مر به وهو جالس مع أخلاط المسلمين وغيرهم، فغشى المجلس غبار دابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فخمر ابن سلول أنفه بردائه، وقال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،: لا تغبروا علينا ارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فاستب المسلمون مع المشركين حتى هموا أن يتواثبوا فمنعهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد، رضى الله تعالى عنه، وذكر له فقال له: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فلقد اتفق أهل هذه البحيرة على أن يعصبوه، فلما رد الله ذلك بالحق الذى جئت به شرق بذلك، فعفا عنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى آخرها)** أى آخر القصة: **(فلما أراد الانصراف قرب له سعد)**، رضى الله تعالى عنه، **(حمارًا)** ليركبه **(وطأ عليه بقطيفة)** هى كساء له وبر وخمل وضعه على ظهر الحمار وطاءة له ليركب عليه، ووطاء بتشديد الطاء المهملة وهمزة، **(فركب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال سعد)** لابنه (**: يا قيس أصحب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)** أى كن معه فى خدمته، وفى هذا الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما جاء كان على حمار مردفًا خلفه أسامة بن زيد.

فسعد، رضى الله تعالى عنه، إنما أعطاه حمارًا ليركبه وحده، ويبقى أسامة على الحمار الذى جاء به، ووهب سعد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك الحمار.

(**قال قيس: فقال لى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، اركب**) معى على الحمار (**فأبيت**) الركوب معه تأدبًا وفوزًا بالمشى فى خدمته، (**فقال: إما أن تركب وإما أن تنصرف**) أى ترجع ولا تمشى معى، (**فانصرفت**) امتثالاً لأمره ﷺ.

(**وفى رواية أخرى**) أنه، عليه الصلاة والسلام، قال له: (**اركب أمامى فصاحب الدابة أحق بصدرها**)، وهذا وقع هنا فى بعض النسخ، والمراد بصدرها مقدمها، وفيه دليل على جواز الإرداف، ولو صاروا ثلاثة إذا لم تكن الدابة ضعيفة لا تطيق ذلك، وقيل: ما فوق الاثنين مكروه، وقوله: صاحب الدابة باعتبار ما كان أو هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يعلم بأنه وهبها له.

(**وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يؤلفهم**) أى يؤلف المسلمين بإيناسهم ومداراتهم، ليزداد إيمان من كان قريب عهد بالإسلام، وليحسن من كان مخلصًا بجبره خاطره والتودد إليه، (**ولا ينفرهم**) أى لا يتلقاهم بما يصير سببًا لنفورهم، وذهاب من كان قريب عهد من المؤلفة قلوبهم.

(**ويكرم كريم كل قوم**) برعايته مما يليق به، كما فعل مع عدى بن حاتم وغيره مما فصل فى السير ، (**ويوليه عليهم**) أى يجعل شريف القوم واليًا عليهم إذا رجعوا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، لديارهم، كما ولى على وفد همدان مالك بن نمط.

(**ويحذر الناس ويحترس منهم**)؛ لأنه من الحزم أن لا يركن لكل أحد حتى يجربه (**من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره**) أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع احتراسه منهم يلقاهم ببشره وبشاشته، ولا يغير حاله معهم، فشبه بشره وإيناسه ببساط ممتد لهم، فلا يطوى عنهم ما داموا عنده كما قال الشاعر:

إنما مجلس الندا من بساط   فإذا ما مضى طوينا بساطه

(**ولا خلقه**) المعهود منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**يتفقد أصحابه**) أى من فقده من أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، يسأل عنه، أو يزوره، أو يرسل إليه من يتعهده، قال الراغب: الفقد أخص من العدم؛ لأنه العدم بعد الوجود، والتفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء، والتعهد تعرف العهد المتقدم.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**يعطى كل جلسائه نصيبه**) أى يعطى كلا منهم ما يليق به وما يسره، (**لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه**) أى لما يراه من

لطفه به يظن أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحبه أكثر من غيره.

(من جالسه) أى جلس عنده فى ناديه، **(أو قارنه لحاجة)** أى كان معه حال مشيه أو مسيره، **(صابره)** أى صبر على سؤاله وذكره حوائجه **(حتى يكون هو المنصرف عنه)** أى الراجع عن مقارنته أو مجالسته.

(ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها) أى بإعطائه حاجته التى سألها منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أو بميسور من القول)** كوعده أو تسليته وأو لمنع الخلو قال تعالى: ﴿**فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٨].

(قد وسع الناس بسطه وخلقه) بسطه مصدر بزنة ضرب مضاف لضمير عائد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مرفوع فاعل وسع بزنة علم، وكذا خلقه المعطوف عليه، وقد تقدم معنى الخلق والجبلة، فجعل بسطه بمعنى توسعته على الناس، أو بمعنى بشره كالمكان الرحب، وكذا خلقه الحسن جعله لبذله لهم كالمكان الذى تمكنوا فيه، **(فصار لهم أبا)** أى صار صلى الله تعالى عليه وسلم، لجميع أمته بمنزلة الأب فى اللطف بهم والشفقة عليهم، وهو لاينافى قوله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لأن المنفى ثمة الأبوة الحقيقية، إلا أن بعض علماء الشافعية ذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أب المؤمنين كما يقال لنسائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمهات المؤمنين عملاً بظاهر هذه الآية، وإنما يقال: إنه كالأب، ونص الشافعى، رضى الله تعالى عنه، على جوازه وهو الحق، وكذا كل نبى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أب لأمته ذكورًا وإناثًا، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس أبا حقيقيًا معلوم بالبداهة، وإنما نفاه فى الآية ردًا على من أنكر تزوجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بامرأة زيد الذى تبناه.

(وصاروا عنده فى الحق سواء)؛ لأن الله عصمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ففى الأغراض النفيسة الحاملة على الميل مع الهوى، وكذا وصفه به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابن أبى هالة ربيبة فى الحديث الصحيح المروى عنه كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: **(بهذا وصفه ابن أبى هالة)** ابن خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، بنت خويلد، واسمه هند وأبوه أبو هالة حليف عبد الدار، اختلف فى اسمه فقيل: بناش بن زرارة، وقيل: مالك بن إلياس بن زرارة، وكان تزوج خديجة، رضى الله تعالى عنها، قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فولدت له هندًا، ولهند ولد يسمى هندًا أيضا عده ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة، وأبوه هند من كبار الصحابة قتل مع على كرم الله وجهه، فى وقعة الجمل، وتقدمت ترجمته بالبسط من قبل هذا.

(قال) ابن أبى هالة، رضى الله تعالى عنه، فى وصفه ، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث (: **وكان دائم البشر)** بكسر الباء وسكون المعجمة أى طلاقة الوجه وبشاشته، لا يعبس فى وجه أحد، **(سهل الخلق)** لاصعبًا ولا حزنًا، **(لين الجانب)** استعارة مصرحة، شبه وصول كل أحد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما يريده منه بشىء لين يأخذ من بجانبه لا يطلبه، وقيل: شبهه بجانب لين من الأرض ليس بحزن.

(ليس بفظ ولا غليظ) الفظ الكريه الخلق مستعار من الفظ أى ماء الكرش، وهو مكروه لا يتناول إلا فى شدة الضرورة كما قاله الراغب، والغلظ ضد الرقة، وأصله فى الأجسام فاستعير للمعانى كما تقدم.

(ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب) أى لا ينطق بالفحشاء كالشتم، ولا يعيب أحدًا أى يذكر عيوبه، **(ولا مداح)** لأحد بما يؤدى إلى إطرائه، ولا لنفسه الشريفة، وهذه كلها صيغ مبالغة، والمقصود بها النسبة كتمار ولبان، والمبالغة راجعة للنفى كما قالوه فى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقيل: المقصود به أصل الفعل، وقول أنس لعمر، رضى الله تعالى عنهما: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتضى ثبوت ذلك له، فقيل: المقصود وجود أصل الغلظة فيه، ونفيها عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا حقيقة التفضيل، أو المراد إثبات ذلك على المشركين كما فى قوله تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]، كما أن المدح قد يستحسن فى مقام دون مقام إذا كان فى محله بخلاف ما إذا كان كذبًا، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم،: «احثوا التراب فى وجوه المداحين»(١) على أحد الوجوه فيه.

(يتغافل عما لا يشتهى) أى إذا رأى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئا لا يرضاه، تغافل عنه حتى يظن أنه ما رآه إذا كان ذلك مما لا يترتب عليه إثم.

(ولا يؤيس منه) مبنى للمفعول، وضمير منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى والحال أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتغافله لا ييأس أحد منه، وروى مبنيًا للفاعل بضم المثناة التحتية وكسر الهمزة التى كانت مفتوحة، ومفعوله محذوف لقصد التعميم أى لا يؤيس أحدًا منه، أى لا يجعله ذا يأس بحيث لا يرجو، فالضمير لما تغافل عنه، وعلى هذا اقتصر أرباب الحواشى.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٥)، والدولابى فى الكنى (٢/١٣٠)، وابن حبان (٢٠٠٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٦/٩٩)، والعقيلى فى الضعفاء (٣/٤٥١).

(وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]) ما زائدة للتأكيد، وقيل: نكرة موصوفة، ورحمة بدل منه، وقيل: استفهامية تعجبية أى بأى رحمة عظيمة لنت لهم، ورده فى المغنى بثبوت ألف ما وقال: إن ما قبله أيضًا لا يتجه كما فصله شراحه، وليس هذا محل تفصيله، والمعنى: أنك لو كنت فظًا غليظ القلب انفضوا عنك أى تفرقوا، ولم يجتمعوا عليك، ولكنك بلين جانبك لهم وشفقتك عليهم تؤلف قلوبهم وتزيد محبتهم، وهذا امتنان عليه بما جبله الله عليه من الأخلاق الحسنة، وقد تقدم الكلام عليه.

(وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]) الآية التى هى أحسن الصفح والتجاوز، والإحسان فى مقابلة السيئة، ولا حاجة لتقييدها بما لم يكن فيه وهن فى الدين، لأنه لا يكون دفعًا بالأحسن، فإن المراد به الأحسن عند الله تعالى، وقيل: التى هى أحسن كلمة التوحيد والسيئة الشرك، وقيل: الأمر بالمعروف والسيئة المنكر، وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام وقصد الحصر أى ادفع بهذا لا بغيره.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يجيب من دعاه)** لطعامه أو لمنزله جبرًا لخاطره، وتعليمًا وتشريعًا لأمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، سواء كان المدعو إليه وليمة عرس أو غيرها، وفى الحديث: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب»[1]، وما قيل من أن إجابة دعوة العرس واجبة عينًا أو كفاية، ولورود أمر بها فى الأحاديث الصحيحة، فلا يكون ذلك من التفضل ومكارم الأخلاق غير وارد؛ لأنه قيل: بعدم الوجوب فيها عند الشافعية أيضًا كما صرح السبكى، ولو سلم فهذا محمول على الأعم من الولائم وغيرها، وليس فى العبارة ما يقتضى التخصيص، ولا تجب إجابة لغير وليمة عرس، ومنه وليمة التسرى كما هو ظاهر، وقيل: تجب واختاره السبكى لأخبار فيه.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يقبل الهدية)** لا الصدقة، **(ولو كانت كراعا)** لأنه مقتض للتحاب، وكراع بضم الكاف وفتح الراء المهملة المخففة والعين المهملة، وهى ما تحت الركبة إلى الخف والحافر والظلف، ولو وصلية هنا تفيد التقليل كاتقوا النار ولو بشق تمرة، وقيل: الكراع ما دون الكعب من الدواب، وقيل: كراع كل شىء طرفه، وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو أهدى إلىّ كراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت»[2]، وكراع الثانى اسم مكان،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠/١٤٢٩)، وأبو داود (٣٧٣٨)، وأحمد (١٤٦/٢)، وعبد الرزاق (١٩٦٦٦)، والبيهقى (٢٦٢/٧).

(٢) أخرجه البخارى (٢٠١/٣، ٣٢/٧)، والترمذى (١٣٣٨)، وأحمد (٤٧٩/٢، ٤٨١، ٥١٢)، =

وهو كراع الغميم موضع بين مكة والمدينة، والصحيح أنه بالمعنى السابق، والمقصود المبالغة فى ذلك أى أقبل الهدية ولو كانت حقيرة، وأجيب الدعوة ولو كانت إلى مكان بعيد، ويطلق الكراع على الشاة نفسها، وفى الحديث «إذا دعى أحدكم فليجب، فإن كان مفطرًا أكل، وإن كان صائمًا دعا بالبركة»[1]، وقوله: **(ويكافئ عليها)** بالهمزة أى يجازى على الهدية بشىء مثلها أو أكثر؛ لأن المكافأة أصل معناها المساواة والمماثلة، ومنه قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» أى تتساوى فى القصاص، وفى البخارى كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقبل الهدية ويثيب عليها، واستدل به بعض المالكية على وجوب عوض الهدية إذا أطلق الواهب، وكان ممن يرجو الثواب كالفقير الذى يهدى للغنى، ولم يوافق عليه.

(وقال أنس، رضى الله تعالى عنه،) وهو خادم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(خدمت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين)**، وفى رواية لمسلم تسع سنين، ولا منافاة بينهما لأنه خدمه تسع سنين وأشهر، فتارة نظر للكسور وجعلها سنة، وتارة ألقاها، وكان عند عمه أبى طلحة، فانطلق به إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: إن أنسًا غلام كيس فليخدمك، **(فما قال لى: أف قط)** هى كلمة تقال لما يكره ويتضجر منه، وهى اسم فعل فيه لغات نحو الأربعين أشهرها ضم الهمزة وكسر الفاء المشددة، وللسيوطى فى نظم لغاتها أبيات مشهورة حيث قال:

أف ربع أخيره ثم خفف ... مبتداه مشدد ومخفف
وبتنوينه وبالترك أف ... لا ممالا وبالإمالة مضعف
وبكسر ابتدا وأفى مثلث ... وزد الهاء فى أف أطلق لا أف
ثم مدا بكسر أف وأف ... ثم أفوا فاحفظ ودع ما يزيف

قال الراغب: أصل الأف كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجرى مجراهما، ويقال لكل مستقذر يستخف به، وأففت لكذا إذا قلت له: أف، والحاصل مما تقدم أن همزته مثلثة وكذا فاؤه مع التنوين وعدمه، وقد فصل لغاتها فى البحر، ومن لطائف السراج الوراق، رحمه الله تعالى، فى مدحه ابنه، رحمه الله:

بنى اقتدى بالكتاب العزيز ... فزدت سرورا وزاد ابتهاجًا
وما قال لى أف فى عمره ... لكونى أبا ولكونى سراجًا

=وعبد الرزاق (١٩٦٦٨)، وابن حبان (١٠٦٥)، والبيهقى (٦/١٦٩).

(١) تقدم تخريجه.

أى لم يتضجر من أمر غير مرضى وقع منى، وفيه دليل على زيادة حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وما قال لشىء لصنعته لم صنعته؟، ولا لشىء تركته لم تركته؟**) وهذا الحديث رواه الشيخان.

(**وعن عائشة، رضى الله عنها، ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،**)، ثم بينت بعض ذلك بأنه (**ما دعاه أحد**) أى ناداه، فقال: يا رسول الله (**من أصحابه ولا أهل بيته**) خصهم لأن العادة جارية بالمسامحة معهم (**إلا قال: لبيك**).

قال السيوطى: رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند واه، ولبيك كلمة يجاب بها المنادى، فالتلبية إجابة المنادى من دعاه، من لب وألب إذا أقام بمكان و لم يفارقه، فكأنه يقول: أنا ثابت على إجابتك، ولا تستعمل إلا بلفظ التثنية كأنه قال: إجابة بعد إجابة، والمراد التكثير كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، وهو منصوب على المصدرية بعامل لا يظهر، وتغلب إضافته لضمير المخاطب، وقد يضاف لغيره كما فصله النحاة، ولا يجاب به إلا من يعتنى بإجابته وتعظيمه، ولذا يقوله الحاج، ففى إجابة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، اتباعه بذلك رعاية مقامهم وتعظيمهم، وهو من خلقه العظيم، كما كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاطب القادم بمرحبا كقوله مرحبا بأم هانئ.

(**قال جرير بن عبد الله**) بن جابر بن مالك البجلى سيد قومه، قدم على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سنة عشر من الهجرة على الصحيح، لا قبل موته بأربعين يومًا كما قيل، ولما قدم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم،: «ويطلع عليكم خير ذى يمن»(١) وكان، رضى الله تعالى عنه، جميلا حتى قال عمر، رضى الله تعالى عنه، فيه: إنه يوسف هذه الأمة وأرسله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لذى الخلصة، وهى الكعبة اليمنية، وكان فيها صنم فخربه وقتل من عنده: (**ما حجبنى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، منذ أسلمت قط**) أى ما منعنى من الدخول عليه فى بيته وقد استأذنته، لا مطلقا حتى يقال: كيف يدخل على غير محرم، وحتى يجاب بأن المراد فى مجلس مختص بالرجال، أو المراد ما منعنى شيئا سألته، وإسلامه، رضى الله تعالى عنه، كان فى رمضان سنة عشر كما مر ، (**ولا رآنى إلا تبسم**) وفى رواية: «إلا تبسم فى وجهى»، وهذا الحديث رواه الشيخان، والتبسم مبادئ الضحك بحيث يبدو مقدم أسنان، فإن زاد بلا صوت فضحك، فإن كان بصوت فهو قهقهة، وضحكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أغلب أحواله التبسم، وربما زاد على ذلك كما ورد أنه: «ضحك حتى بدت

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (٨٠٠).

نواجذه»، وقيل: إنه أريد مجرد مبالغة لا الحقيقة بناء على أنه لم يقع منه ذلك، والأصح الأول، وكثرة الضحك تذهب الوقار، وهو مكروه لحديث: «كثرة الضحك تميت القلب»، فإن لزمه استهزاء بأحد وسخرية فحرام.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يمازح أصحابه) الممازحة تكون بالكلام والفعل ملاطفة، ولكنها إنما تحمد من الكبار أحيانا بحيث لا تؤدى إلى أذية صاحبها، والمداعبة قريبة منها، ولكن بينهما فرق سيأتى، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يمزح أحيانا ولا يقول إلا حقًا، ولكنه يورى فى كلامه كما قال لبعض العجائز: «إنه لا يدخل الجنة عجوز»[1]؛ لأنهم يعودون فى سن الشباب، ولله در القائل:

أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... بأنس وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

والمزاح بضم الميم اسم، وبكسرها مصدر كالمزح، وكثرته مذمومة كما قال:

فإياك إياك المزاح فإنه ... يجرى عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه من كل سيد ... ويورثه من بعد عزته ذلا

والصحيح أنه جائز، وقيل: إنه مكروه، والأصح الأول بشروطه، وكان كبار السلف يمزحون، وقد قيل: الناس فى سجن ما لم يتمازحوا، وورد فى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أفكه الناس، وكان مزاحًا ولا يقول إلا حقًا.

(ويخالطهم ويحادثهم) تأنيسا لهم وجبرًا لقلوبهم، **(ويداعب صبيانهم)** يداعب بالدال المهملة، والمداعبة الممازحة مع لعب، ولذا خصه بالصبيان كما قال محمود بن الربيع الخزرجى، رضى الله تعالى عنه،: عقلت منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مجة مجها فى وجهى وأنا ابن خمس سنين.

(ويجلسهم فى حجره) كما فعل، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أم قيس إذ أتته بابن لها صغير لم يأكل الطعام، فأجلسه فى حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله، وحجر بكسر الحاء المهملة وفتحها معروف، وهو ما كان من ثديه على فخذيه وهو جالس.

(ويجيب دعوة) بفتح الدال المهملة **(العبد والحر والأمة والمسكين)**.

قال السيوطى: إجابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، دعوة العبد رواها البزار عن جابر، رضى الله تعالى عنه، والترمذى وابن ماجه عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فلا

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٤٩٩).

وجه لما قيل: إنى لم أقف عليه إلا فى صحيح البخارى من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى غلامًا خياطًا، فأتاه بقصعة فيها دباء، فجعل يتتبعه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعلم طيب أنفسهم بما يملكونه لهم، فلا يقال: كيف أكل مما فى يد العبد وهو وما يملكه لسيده، أو يقال: كان مكاتبا، أو المراد بالعبد من مسه الرق، ولو قبل دعوته، وقدم العبد اهتماما لبيان أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجيب دعوته مع حقارته بالنسبة للحر.

(و) أخرج الترمذى بسنده عن أنس، ، رضى الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(يعود المرضى)**، ويشهد الجنازة ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وروى البيهقى: «دعوة المملوك» **(فى أقصى المدينة)** أى فى أبعد مكان منها، وعيادة المريض سنة مؤكدة لاسيما من يتبرك بعيادته؛ لما فيه من التسلية وتأليف القلوب، وقيل: إنها فرض كفاية ولا تختص بمرض، وقيل: ثلاثة لا عيادة فيها رمد العين ووجعها ووجع الضرس، وقيل: إنه لا يعاد المريض إلا بعد ثلاثة أيام، وورد فى ذلك حديث ضعيف، والصحيح أنه لا فرق، والحديث قال شيخنا الرملى: إنه موضوع، واختلف فى عيادة الذمى، فقيل: تجوز إذا كان يرجى إسلامه، أو تضمن مصلحة.

(ويقبل عذر المعتذر) المعتذر كل من أبدى عذرًا سواء كان له حقيقة أم لا، وسواء كان من شأنه أن يقبل أم لا، ولذا لم يقل المعذور؛ لأنه من له عذر، وعدم قبوله منه مذموم، وقبول اعتذاره عقوبة جنايته وعدم مؤاخذته بها؛ لأنه من تمام المروءة، وهذا كما قبل، صلى الله تعالى عليه وسلم، عذر من تخلف عن تبوك، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، وكقبوله عذر حاطب بن أبى بلتعة، رضى الله تعالى عنه، لما كتب لأهل مكة يخبرهم بمسيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لفتح مكة، وقبل، صلى الله تعالى عليه وسلم، اعتذار المنافقين حتى كذبهم الله تعالى.

(وقال أنس) رضى الله تعالى عنه. قال السيوطى: هذا إلى قوله: بين يدى جليس له، رواه أبو داود والترمذى والبيهقى فى الدلائل، وأخرجه البزار عن أبى هريرة وابن عمر، رضى الله تعالى عنهم، **(ما التقم أحد أذن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى ما جعل أحد أذنه محاذية لفمه فتحاذيه، وقال الشمنى: أى ما حدثه أحد عند أذنه فجعله استعارة، ولم يحمله على حقيقته، وأنه فعله للتبرك كما وقع لجابر، رضى الله عنه، فى التقامه لخاتم النبوة؛ لأن لفظه مشعر بكثرة ذلك، ووقوع مثله كثيرًا مستبعد بخلاف قصة جابر، رضى الله تعالى عنه، لما أردفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خلفه، وأمكنه ذلك بسهولة، وأيضًا فى مثله سوء أدب ومنافاة لغرضه، فإنه إذا أدخل أذنه فى فيه لم يمكنه

إدارة لسانه ومناجاته، وفى النهاية فى الحديث أن رجلا ألقم عينه حصاص الباب أى جعل الشق الذى فى الباب محاذى عينه، فجعله للعين كاللقمة فى الفم انتهى، فجعله استعارة كما هنا، وهذا لاينافى ما فى الصحيح عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: والله لآتين النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته وهو فى ملأ، فساررته فغضب حتى احمر وجهه، وقال: «رحم الله موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[١]؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يغضب من المسارة، بل مما كلمه به، وأذن بضم الهمزة والذال المعجمة وقد تسكن.

(فينحى رأسه عنه) أى يبعدها ويجعلها فى ناحية منه.

(حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه) أى حتى يفارقه أو ينفصل منه قليلا.

(وما أخذ أحد بيده) أى أمسكها، **(فيرسل يده)** أى يطلقها ويفكها من يده، وهو مجاز من أرسل الرسالة إذا بعثها، وظاهر كلام ابن القوطية أنه معنى حقيقى إن كانت اليد الثانية يد الآخذ، فليس من وضع الظاهر موضع الضمير، وإلا فهو منه، وقوله: **(حتى يرسلها الآخذ)** غاية لترك إرسالها، أى إلى أن يرسلها الآخذ، وهو بالمد اسم فاعل من الأخذ، وفى نسخة الآخر بالراء المهملة، وفى البخارى: «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فتنطلق به حيث شاءت»، وعن أحمد: «فما ينزع يده من يدها»، وهو عبارة عن الانقياد لشدة تواضعه وتنزهه عن التكبر، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: **(ولم ير، صلى الله تعالى عليه وسلم، مقدمًا ركبتيه بين يدى جليس له)** من جملة حديث أنس، رضى الله تعالى عنه، ففى المصابيح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه. أو هو رواية أخرى، وهو الظاهر لما بينهما من المخالفة.

ومعنى لم ير مقدمًا إلى آخره أنه يخفض ركبتيه تعظيمًا لجلسائه، وقيل: المراد بالركبتين الرجلين أى كان لا يمد رجليه فى مجلسه؛ لما روى فى حديث آخر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه كما سيأتى يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يساوى جليسه، ولا يتقدم عليه بركبتيه حتى كان الغريب يجئ، فلا يعرفه ويسأل عنه.

---

(١) أخرجه البخارى (١١٥/٤، ٢٠٢، ٢٢/٨).

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبدأ) أى يبتدئ **(من لقيه بالسلام)** من تفيد العموم، أى كل أحد لقيه صغيرًا أو كبيرًا من المسلمين إلا فى مواضع لا يستحب السلام فيها، وأما الكفرة فلا يسلم عليهم، وجوز بعضهم ابتداءهم بالسلام أيضًا.

(ويبدأ أصحابه بالمصافحة) مفاعلة من الصفح أى يجعل صفحة يده الشريفة على صفحة يده، وفى الحديث: «تمام تحيتكم بينكم المصافحة»[1]، وهى سنة عند التلاقى، وكانت الصحابة، ، رضى الله تعالى عنهم، تفعله، وإذا قدموا من سفر تعانقوا، وكانت الصحابة، ، رضى الله تعالى عنهم، تقبل يده أيضا، وهى مستحبة للكبير وكرهها مالك، أما إذا كان على وجه التكبر فيكره، وقال النووى: إنه مستحب أيضا لأهل الشرف والصلاح، وأما لأهل الدنيا فمكروه، وقال فقهاؤنا: لا بأس بالمصافحة؛ لأنها سنة متوارثة؛ لما ورد فى الحديث أيضًا: «تصافحوا»[2] وقيل: إنه من الصفح وهو العفو أى ليصفح أحدكم عن غيره، ولا يناقشه، والمشهور الأول، وأما بعد صلاة الجمعة والعيد، فقالوا: إنه بدعة، وهو من فعل المشايخ كانوا فى الصلاة غائبين عمن حضرهم، ومن كان هذا حاله لا يكره منه.

(ولم ير، صلى الله تعالى عليه وسلم، قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد) هذا إشارة إلى أنه كان ذلك فى مجلس يكثر فيه الناس، أما إذا كان وحده، أو فى قليل من خواصه، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد يتكئ، وقد يضع إحدى رجليه على الأخرى كما ورد فى بعض الأحاديث.

(يكرم من يدخل عليه) بالقيام له ويلاطفه كقيامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لسعد ابن معاذ، ، رضى الله تعالى عنه، وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قدم سعد: «قوموا لسيدكم» وكره بعضهم القيام مطلقًا؛ لحديث: «من أحب أن يتمثل له الناس قياما وجبت له النار» ، وحمل هذا على عادة الأعاجم فى وقوف الناس بين أيديهم، أما القيام للعلماء والصلحاء فمستحب كما يأتى، وكان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا جاء قام له الصحابة، وممن ذهب لكراهته ابن حجر، رحمه الله، وقال فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «قوموا لسيدكم»: إنما كان لأنه قدم على حمار، وكان مريضًا، وفى رواية: «قوموا لسيدكم فأنزلوه» ورد بأنه لو كان كذلك لم يأمر جميع الناس الحاضرين بالقيام له، ولذا استدل النووى به وفيه نظر.

(وربما بسط له) أى لمن يدخل عليه **(ثوبه)** تعظيمًا له كما جعل ذلك لعدى بن حاتم،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٠)، والترمذى (٢٧٣١)، وابن أبى شيبة (٨/٤٣٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٢)، وابن عدى (٦/٢٢١١).

ولأخته، عليه السلام، من الرضاعة لما أتياه كما يأتى، **(ويؤثره بالوسادة)** الإيثار تقديم غيره على نفسه فى بعض الأمور، والوسادة ما يتوسد أى يوضع تحت الرأس، وهى التى تسمى مخدة، ويقال إسادة بالهمزة ووساد بدون هاء، وقضية قوله **(التى تحته)** كما فى البخارى أنها فراش يجلس عليه، وكانت محشوة بالليف، وقال عدى بن حاتم: دخلت على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدى بن حاتم، فقام وانطلق بى إلى بيته، فوالله إنه لعامد بى إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، واستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها، فقلت فى نفسى: والله ما هذا بملك، ثم مضى حتى دخل بيته، فتناول وسادة كبيرة من أدم محشوة ليفا، فقذفها وقال لى: اجلس على هذه، فقلت: بلى أنت فاجلس عليها، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بينى وبينه، فانظر لمكارم هذه الأخلاق، فقلت: والله ما هذا بملك، وهذا يدل على أن الوسادة فراش لا مخدة، ولا عبرة بتفسير الجوهرى لها بالمخدة فقط، **(ويعزم عليه فى الجلوس)** أى يقسم عليه أن يجلس على وسادته بأن يقول له: بالله اجلس أنت. قال فى التهذيب: يقال: عزمت عليك لتفعلن كذا أى أقسمت انتهى، وهو مأخوذ من العزم وهو التصميم فى الأمر، وقوله: **(عليها)** أى على الوسادة **(إن أبى)** أى امتنع من الجلوس؛ حياء من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ويكنى أصحابه)** أى يضع لهم كنية كأبى فلان، أو يدعوهم بالكنية تكريمًا، **(ويدعوهم)** أى يناديهم **(بأحب أسمائهم تكرمة لهم)** أى يفعل ذلك، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأجل إكرامهم وتعظيمهم؛ تلطفًا بهم وتأدبًا معهم؛ فإن نداء المرء بكنيته تعظيم، وكذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكنى من لا كنية له كما قال للطفيل الذى كان معه طائر يسمى نغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير» [1]، وفيه دليل على جواز تكنية من لا ولد له على عادة العرب؛ تفاؤلا بأن يعمر ويرزق أولادًا خلافًا لمن منع ذلك، وقال: إنه خلاف الواقع فهو كذب، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود، ، رضى الله تعالى عنه، قال: كنانى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبا عبد الرحمن قبل أن يولد لى، وسنده صحيح، وعن بعض السلف «بادروا أولادكم بالكنى قبل أن يغلب عليهم الألقاب» [2]، وكره بعضهم تكنية المرء نفسه إلا لقصد التعريف، وقال النووى: يجوز تكنية الكافر بشرطين.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧/٨)، والترمذى (١٩٨٩)، وابن ماجه (٢٧٣)، ٣٧٢٠)، وأحمد (١١٥/٣، ١٧٦، ١٩٠، ٢٧٨)، وابن أبى شيبة (٤٠٠/١، ١٤/٩).

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٤٤٨/٣)، وانظر: اللآلىء (٥٨/١)، وتنزيه الشريعة (١٩٩/١)، والفوائد المجموعة (١٣٨).

الأول: أن لا يعرف إلا بكنيته. الثاني: أن يخاف من ذكر اسمه فتنة.

فالأول: كأبى طالب، والثانى كأبى حباب لابن سلول وفيه نظر، وقد تكون لأمر آخر كأبى لهب فإنه إشارة إلى أنه جهنمى، وقيل: كنى بذلك لحسن وجهه.

(**ولا يقطع على أحد حديثه**) أى من يحدث عنده يصغى إليه، ولا يقطع حديثه بتكلمه بكلام آخر، أو قيامه أو نهيه عن الكلام، فإن مثله يؤذى المتكلم (**حتى يتجوز**) بياء وتاء مفتوحتين وجيم مفتوحة وواو مشددة وزاء معجمة غاية لتركه قطع حديثه أى حتى يكثر، فيتجاوز الحد أو يخرج إلى ما لا يليق من الكلام، فهو من التجاوز أو الجواز كما يأتى، (**فيقطعه بنهى**) عن الكلام، (**أو قيام**) من مجلسه إعراضًا عنه، وهو مفيد لنهيه عنه، (**ويروى بانتهاء أو قيام**)، فالنهى بمعنى الانتهاء إذ الروايات تفسر بعضها بعضا، وهذا وقع فى بعض النسخ، فالمعنى حتى يجوز ذلك فى حديثه، فيقطع حديث نفسه إما بسبب أنه انتهى، و لم يبق منه شىء، أو لقيامه عن المجلس، والتجوز على هذا بمعنى التخفيف له والتقليل منه، وقيل: معناه ينطق بما هو غير حقيقى كأن يتكلم بما لا يليق من الكلام.

(**وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يجلس إليه أحد**) **أى لا يجلس** متوجهًا إليه، والمراد لا يجلس عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وهو يصلى إلا خفف صلاته**) أى أسرع فيها فقطعها، والتخفيف ضد التطويل وسيأتى بيانه، (**وسأله عن حاجته، وإذا فرغ**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كلامه وبيان حاجته (**عاد**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**إلى صلاته**) التى كان فيها، وقال البرهان الحلبى: هذا الحديث منكر، وقد ذكره فى الإحياء فى آداب المعيشة، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد له أصلا انتهى، ولذا قيل: لو أورد حديث الصحيحين الآتى: «إنى لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى كراهة أن أشق عليه»[1] كان أظهر؛ فإنه متفق عليه، وهو فى معنى حديث الإحياء.

(**وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكثر الناس تبسما**)، وقد تقدم معنى التبسم وما يتعلق به، (**وأطيبهم نفسا**) أى لم يكن مقطبًا وعبوسًا فى مجلسه لطيب نفسه، وهذا وما بعده حديث رواه أحمد والترمذى بسند حسن (**مالم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب**).

قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا فى تخريج أحاديث هذا الكتاب عن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى قال: ما رأيت أكثر تبسمًا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، رواه الترمذى وقال: غريب، وقد تقدم.

---

(١) أخرجه البخارى (٢١٩/١)، وأبو داود (٧٨٩)، والنسائى (٥٩/٢)، وأحمد (٣٠٥/٥).

وعن على كرم الله وجهه، أو الزبير، رضى الله تعالى عنه: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا كان حديث عهد بجبريل، عليه الصلاة والسلام، لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث الزبير، ، رضى الله تعالى عنه، من غير شك.

وعن جابر، رضى الله تعالى عنه: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا نزل عليه الوحى قلت: نذير قوم، فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا. أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق، وفيه ابن أبى ليلى سيء الحفظ.

وعن على والزبير كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخطب فيذكرنا بأيام الله حتى يعرف ذلك فى وجهه، وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث الزبير، رضى الله تعالى عنه، من غير شك.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، «إذا خطب احمرت وجنتاه واشتد غضبه»[١]. رواه مسلم، والحاكم من حديثه: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه»[٢] انتهى، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يتبسم فى هذه الحالات لتوجهه عند نزول الوحى فيه تأدبًا معه، وفيما بعده لأنه مقام إنذار وخوف وتخويف.

(قال عبد الله بن الحارث) بن جزء بن عبد الله بن معدى كرب بن غنم الزبيدى الصحابى، سكن مصر ومات، رضى الله تعالى عنه، بها سنة خمس أو سبع وثمانين، وهو آخر من مات بها ببلدة تسمى سفط قريبة من سمنود بالغربية، وقيل: مات باليمامة حكاه ابن منده عن ابن يونس، وقال: إنه شهد بدرًا، ولابن حجر فيه كلام.

(ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم،)؛ لأن طلاقة الوجه من مكارم الأخلاق، وفى الحديث: «تبسمك فى وجه أخيك صدقة».

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه، كان خدم المدينة) خدم بفتحتين بزنة حسن جمع خادم، وفعل فى جمع فاعل جاء فى ألفاظ محصورة نظمها ابن مالك رحمه الله تعالى، وقيل: إنه اسم جمع وهو بالتاء كثير نحو كملة جمع كامل، والمراد بالخدم العبيد والجوارى، وهذا الحديث رواه مسلم وهو حديث صحيح **(يأتون رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صلى الغداة)** أى الصبح **(بآنيتهم فيها الماء)**، والآنية جمع إناء

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧/٤٣)، وابن ماجه (٤٥)، والبيهقى (٢٠٦/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٨/٣)، والحاكم (٥٢٣/٤).

ككساء وأكسية، وهو ما يوضع فيه الشىء، والأوانى جمع الجمع، وكثير من الناس يظن أن الآنية مفردة، وظاهر قوله: (**فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها**) يوهم ذلك، (**وربما كان ذلك**) أى إتيانهم بالأوانى وغمس يده فيها (**فى الغداة الباردة**)، والغدوة والغداة أول النهار، وقوبل فى القرآن الغدو بالآصال والغداة بالعشى، ووصفها بالباردة إشارة لما فيه من زيادة تحمل المشاق لأجل التلطف مع الناس، وإنما فعلوا ذلك تبركا بآثاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما مسته يده الشريفة، وقوله: (**يريدون به التبرك**) يحتمل أنه من كلام المصنف، فإن البغوى، رحمه الله تعالى، رواه فى مصابيحه بدون هذه الزيادة، وفيه إرشاد للتبرك بآثار العلماء والصلحاء.

* * *

(فصل وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق)

والفرق بين هذه الثلاثة أن الشفقة رحمة ورقة قلب وخوف من نزول مكروه بمن يشفق عليه كما فى الأساس، والرأفة التلطف بمن يريد إكرامه بالبشر والإيناس كما قال قيس الرقيات:

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت يرى ولا كبرياء

فمقابلتها بالجبروت صريحة فيه، وليست أشد الرحمة كما توهمه بعضهم، وإن استعملت بهذا المعنى كما مر تحقيقه، فما قيل: إنها أرق من الرحمة ولا تكاد تقع فى الكراهة كالرحمة غير موجه، وقوله: لجميع الخلق يعنى أنها لا تختص بأحد كرحمة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، (**فقد قال الله تعالى فيه**) أى فى حقه وصفته، عليه الصلاة والسلام: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، عزيز من عز بمعنى اشتد وصعب، والعنت المشقة أى يصعب عليه مشقتكم وما يؤلمكم؛ لرأفته ورحمته، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وقوله «بالمؤمنين» لا يناسب قوله: لجميع الخلق، فالأنسب أن يقتصر على قوله: (**وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]**)، وقد أشار المصنف، رحمه الله تعالى، لدفع هذا فى الفصل الأول من أن صدر الآية عام، والرحمة المخصوصة بالمؤمنين لا تنافى العموم، فكأنه يشق عليه لعموم رحمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كل ما يقع بهم؛ لحرصه على هدايتهم وإرشادهم، فهى مطابقة لهذه الآية كما يعلم من كلامه هناك، وقد تقدم ما ذكر لأنه اسم، وذكره هنا لغرض آخر كالآيات المكررة فى القرآن فلا وجه لما قيل: إنه تكرار لا فائدة فيه لزيادته على المقصود، ولو نبه على ما قلنا كان أولى به؛ لكنه حريص على العنت كما لا يخفى لمن سيره.

(قال بعضهم: من فضله، عليه الصلاة والسلام، أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] تقدم الكلام على هذا، وأعاده هنا لمعنى آخر فلا تكرار، بل فيه فائدة قال السيوطى، رحمه الله تعالى: ظاهر كلام المفسرين أن الرحيم يوصف به غير الله بخلاف الرحمن، لكن أخرج ابن أبى حاتم «الرحيم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه»، ويظهر لى أن مراده المعرف باللام دون المنكر والمضاف. انتهى.

(وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فورك) تقدم الكلام عليه. وعلى اسمه واسم أبيه، وهو إمام جليل بلغت تصانيفه أكثر من مائة مصنف جليل، توفى سنة ست وأربعمائة، قال: **(حدثنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد الخشنى بقراءتى عليه)**، وهو عبد الله بن أبى بكر بن أبى جعفر بن محمد الخشنى بضم الخاء وفتح الشين المعجمتين ونون نسبة لخشينة مصغرًا اسم قبيلة، ولد سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ومات بمرسية من بلاد المغرب سنة ست وعشرين وخمسمائة، وتقدم الكلام على قوله بقراءتى عليه، قال: **(حدثنا إمام الحرمين أبو على الطبرى)** هو الإمام أبو عبد الله ويقال أبو الحسين بن على شيخ الحسين، ومحتده بمكة، والطبرى منسوب لطبرستان أو لطبرية، والأول أصح قال: **(حدثنا عبد الغافر الفارسى)** الإمام الزاهد العدل أبو محمد عبد الغافر بن محمد الفارسى أحد رواة مسلم المشهور بالرواية عن الجلودى، ولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وتوفى سنة سبع وعشرين وخمسمائة وعمره ثمان وسبعون سنة.

قال: **(حدثنا أبو أحمد الجلودى)** تقدم الكلام عليه وعلى نسبته، وأنه يجوز فيه فتح الجيم وضمها، وقد قيل هنا إن عبد الغافر لم ير الجلودى ولا روى عنه صحيح مسلم، وإنما الراوى جده أبو أمه واسمه عبد الغافر أيضًا كحفيده، لكنهما اختلفا كنية وأبا، فإن كنية الأول أبو الحسن وهذا أبو الحسين مصغرًا، واسم أبى الأول محمد وهذا إسماعيل، وتاريخ موتهما مختلف فيه، وهذا لم يدرك الجلودى وقال السبكى، رحمه الله تعالى، فى طبقاته: بين هذا وبين الجلودى اثنان، وهذا مما لم ينبه عليه البرهان مع اطلاعه، وهو مما ينبغى التنبيه له قال: **(حدثنا إبراهيم بن سفيان)** تقدم أيضًا وأن سين سفيان مثلثة.

قال: **(حدثنا مسلم بن الحجاج)** الإمام المشهور صاحب الصحيح، وقد تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو الطاهر)** أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح بمهملات بزنة ضرب الأموى مولاهم المصرى، روى عنه أصحاب السنن وغيرهم ووثقه النسائى، وقال أبو حاتم: لا بأس به، وكان فقيهًا صالحًا ثبتًا، توفى فى ذى القعدة سنة خمسين ومائتين قال: **(أخبرنا ابن وهب)** أبو محمد عبد الله الفهرى أحد الأعلام، روى عنه

السنة، وتوفى سنة سبع وتسعين ومائة، **(أخبرنا يونس)** بن يزيد الأيلى بفتح الهمزة وسكون المثناة التحتية واللام وياء النسبة أحد الأثبات، روى له أصحاب الكتب الستة، وهو ثقة ثبت، توفى سنة تسع وخمسين ومائة، وله ترجمة فى الميزان، وفى يونس ست لغات بتثليث النون مع الواو والهمزة، **(عن ابن شهاب)** الإمام أبو بكر بن مسلم الزهرى، وقد تقدم.

(قال: غزا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، غزوة وذكر حنينا) تقدم الكلام على حنين. قال البرهان الحلبى الراوى: إذا قدم الحديث على السنة كأن يقول قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا أخبرنى به فلان ويذكر سنده، أو قدم بعض الإسناد مع المتن كما نحن فيه، قال بعد هذا: قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان بن أمية إلى آخره، فهو إسناد متصل، ولا يمنع ذلك الحكم باتصاله كما لو ذكر الإسناد بتمامه أولا، وقال ابن الصلاح ينبغى أن يكون فيه خلاف كتقديم بعض المتن على بعض، وحكى الخطيب المنع من ذلك على القول بأن الرواية بالمعنى لا تجوز، والجواز على القول بأنها تجوز، ولا فرق بينهما فى ذلك انتهى، وفى جعله كالرواية بالمعنى خفاء.

(قال: فأعطى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صفوان بن أمية) بن وهب بن حذافة ابن جمح القرشى الجمحى الصحابى، وكنيته أبو وهب أسلم بعد الفتح، وشهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حنينا والطائف وهو مشرك، ثم أسلم وحسن إسلامه بعد ما كان من المؤلفة قلوبهم، وكان رئيس بنى جمح، وكان يعادى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤذيه أذية بالغة مع ما بينهما من الرحم، فجازاه على إساءته بالإحسان الزائد إليه **(مائة من النعم ثم مائة ثم مائة)**، والنعم اسم جمع للإبل لا واحد له من لفظه، وجمعه أنعام، وقال العزيزى: هو الإبل والبقر والغنم.

(قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطانى ما أعطانى وإنه لأبغض الخلق إلىّ، فمازال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلىّ) بعد ما كان أشد الناس عداوة له لقتل أبيه يوم بدر، ولما شهد وهو كافر حنينا، ثم رجع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الجعرانة فبينما هو يسير فى الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعما وشاء، وأدام النظر إليها ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يرمقه، فقال له: أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان: ما طابت بهذا إلا نفس نبى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وكانت زوجته أسلمت قبله فأقر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،

نكاحه عليها، واختلفوا فيما كان يعطيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للمؤلفة، هل هو من خمس الخمس الذى هو حقه، أو من الخمس، أو من الغنائم؟ وأما إعطاء مؤلفة الكفار فكان جائزًا فى صدر الإسلام، وهل هو من الزكاة أو من بيت المال؟ ثم منعوا منه فى خلافة الصديق أو فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنهما.

فإن قلت: ما مناسبة الحديث لما نحن فيه؟ **قلت:** لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعطى صفوان؛ لما بينه وبينه من الرحم خوفًا عليه أن يستمر على عداوته وكفره فيهلك، فأحسن إليه حتى يحسن إسلامه شفقة عليه من أن تحل به النقمة والعذاب، وقد تقدم إعطاؤه أكثر من ذلك.

(وروى أن أعرابيًا جاء يطلب من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا فأعطاه) هذا الحديث رواه البزار عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، بسند ضعيف، وكذا ابن حبان وغيره، ولم يسموا الأعرابى.

(ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا ولا أجملت) الذى فى النسخ أحسنت بهمزة واحدة، فهمزة الاستفهام مقدرة كقوله:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد الرمل والحصا والتراب

ومثله كثير نفيس، والاستفهام استفهام تقريرى، وقوله: لا رد لقوله: أحسنت، وأجملت بمعنى فعلت فعلاً جميلاً محمودًا، وقال بعضهم: معناه ما اعتدلت فى الأخذ والعطاء، أو ما أكثرت، وهذا أولى انتهى، واللغة لا تساعده وإنما حمله عليه الهرب من التكرار ولا تكرار فيه؛ لأنه من ذكر العام بعد الخاص، ومثله لا يعد تكرارًا لما فيه من المبالغة، وفى ذلك غلظة وسوء أدب.

(فغضب المسلمون) من كلامه وجراءته عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وقاموا إليه)** ليضربوه ويجازوه بما يستحقه، **(فأشار إليهم أن كفوا)** أى أشار بيده إليهم إشارة يفهم منها الأمر بكفهم أى تركهم ما أرادوه، وأن تفسيرية أو مصدرية على الخلاف المشهور عند أهل العربية، وهذا من حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشفقته تأليفًا له ليحسن إسلامه.

(ثم قام) من مجلسه، **(ودخل منزله وأرسل إليه)** عطية **(وزاده)** أى زاده على ما أعطاه أولا، **(ثم قال: أحسنت إليك؟)** فيه مقدر، وهو خرج وقال له ذلك، **(قال: نعم)** أحسنت إلىَّ **(فجزاك الله)** على إحسانك ولطفك بى **(من أهل وعشيرة خيرًا)** مفعول جزاك وما بينهما اعتراض، والفاء تفريعية وسببية لما تضمنه، وقيل: إنها فصيحة فى

جواب شرط مقدر، أو عاطفة على أى أحسنت وأجملت فجزاك إلى آخره، ومن فى من أهل قيل: إنها بدلية مثلها فى قوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى بدلكم فالمعنى بدلا من أهلى وعشيرتى الذين لم يحسنوا إلىّ، وقيل: ليس هذا مراده، بل مراده أنه صار أهلا له، وعشيرة أى قبيلة إما لفعله فعل العشيرة، وهذا كما يقولون للقادم: أهلا وسهلا، أو تقدم من أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كل قبيلة قرابة وعرقا، فمن إما تعليلية كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، أى لأجل ذكر الله، وأما كونها للفصل والتمييز كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، أى ممتازين من بين العالمين بهذا الفعل القبيح، فبعيد جدًا، ثم أشار المصنف، رحمه الله تعالى، إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زاد لطفًا فأرشده بقوله: **(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنك قلت ما قلت)** فى جوابك وردك علىّ، **(وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء)** تنكيره إما للتحقير أى شىء حقير لا يعتد به عندى، أو للتعظيم أى أثر عظيم عندهم؛ لأذيته النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير؛ لجعله كالمشاهد المحسوس لاستحضاره، فتذكيره بما وقع منه من الأمر العجيب، **(فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى)** علق قوله على محبته وإرادته لطفًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأى لطف مع أنه ذنب عظيم ينبغى التنصل منه، وفيه من الشفقة بالأمة ما لا يخفى، وبين الأيدى كناية عن حضوره وتمثله لهم، وليس المراد البينية الحقيقية، بل المقابلة مع القرب، وقد يعبر به عن المستقبل نحو ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(حتى يذهب ما فى صدروهم عليك) أى الغضب والألم الذى فى قلوبهم بسبب ما قلته أولا.

(قال: نعم) أى أقول لهم ما قلت لك، **(فلما كان الغد أو العشى)** المراد بالغد صبيحة اليوم الذى بعد اليوم الذى كلمه فيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والغداة من طلوع الفجر إلى الزوال، والعشى ما بعد الزوال إلى الغروب، والشك هنا من الراوى **(جاء)** أى الأعرابى إلى مجلس النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، لأصحابه الحاضرين عنده (: **إن هذا الأعرابى قال ما قال)** لى أولا إذ أساء أدبه لغلظة طبعه، ولذا وصفه بالأعرابى لما عرف من حال الأعراب، **(فزدناه)** على عطائه الأول، **(فزعم أنه رضى)** بجملة ما أعطيناه له، والزعم هنا بمعنى القول الحق، وهو يستعمل بهذا المعنى كقول الشاعر:

هلكنا ولكن إن هلكت فإنما   على الله أرزاق العباد كما زعم

ويكون بمعنى القول الباطل كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ولذا قالوا: زعم مطية الكذب، وفى التعبير إيماء إلى ما فى نفسه من الحرص والطمع، ثم التفت، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الأعرابى وقال له: (**أكذلك؟**)، فالاستفهام متوجه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للأعرابى أى الأمر كذلك من أنك رضيت، وإن كان ما قبله كلامًا منه متوجهًا لأصحابه، رضى الله تعالى عنه، فالجار والمجرور خبر مقدر أى الأمر كذلك.

(**قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا**) تقدم ما فيه.

(**فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،: مثلى ومثل هذا**) الأعرابى، المثل يكون بمعنى القصة وبمعنى الكلام المشبه مورده بمضربه، ويكون استعارة تمثيلية أو تشبيهًا تمثيليًا مركبًا، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] الآية، ويكون ذلك لزيادة التوضيح والتقرير، فإنه أوقع فى النفس؛ لأنه يريك المخيل محققا، والمعقول محسوسا لما فيه من الشأن الغريب، وهو فى الكلام الإلهى والأحاديث النبوية كثير (**مثل رجل له ناقة شردت عليه**) أى نفرت منه وذهبت فى الأرض، يقال: شردت الدابة والإنسان إذا نفر وجرى جريًا شديدًا لايلحق شرودًا وشرادًا، وأصل الشراد الفراق خوفًا. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]، قال ابن عرفة أى افعل بهم فعلاً يخيف من وراءهم فيشردهم، (**فاتبعها الناس**) افتعال من الاتباع أى مضوا وجروا خلفها ليمسكوها، (**فلم يزيدوها إلا نفورا**) أى لم يحصل باتباع الناس لها إلا زيادة هربها ونفورها؛ لخوفها منهم، (**فناداهم صاحبها**) أى الناقة (**خلوا بينى وبين ناقتى**) أى وقال لهم: خلوا إلى آخره، فهو مفعول نادى لتضمينه معنى القول أو مقول قول مقدر كما عرف فى أمثاله أى لا تتبعوها، واتركوها واتركونى أحتال فى إمساكها؛ (**فإنى**) وفى نسخة فأنا (**أرفق منكم وأعلم**) أى أنا أشفق عليها وأعلم بحالها منكم، (**فتوجه لها بين يديها**) أى جاءها من أمامها، (**فأخذ لها من قمام الأرض**) القمام جمع قمامة ككناسة لفظًا ومعنى، والمراد بها النبات الذى ترعاه الدواب شبهه به لخسته، ولأنه مما يطرح كالقمامة، فاستعير لذلك، (**فردها حتى جاءت**) فيه مقدر أى فدنت منه لتأكل ما بيده من الحشيش، فأمسكها وردها حتى أتى بها محله، (**واستناخت**) أى بركت ومكثت عنده من ناخ الجمل ونوخه إذا بركه، (**وشد عليها رحلها**) الرحل للإبل كالسرج للفرس، وهو معروف، (**واستوى عليها**) أى على ظهرها أى ركبها. يقال: استوى على الدابة إذا علا على ظهرها وركبها، (**وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال**) أى لو لم أكفكم وأمنعكم عنه حين قال لى الرجل مقالته السيئة، (**فقتلتموه دخل**

النار) عقوبة له بإساءته على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشبه المال لخسة الدنيا عنده بالقمامة، وشبه نفسه بالرجل، وشبه الأعرابى بدابة شاردة عن ربها، وشبه الصحابة لما غضبوا وقاموا له بالناس التابعين لها الذين نفروها عن ربها، وشبه قوله: كفوا عنه بقوله: خلوا بينى وبينها، وفى قوله: فإنى أرفق بها منكم بيان لأنه أعظمهم رفقا، وأقواهم شفقة على خلق الله تعالى، وهو تشبيه فى أعلى طبقات البلاغة لتضمنه هذه المعانى اللطيفة.

قيل: ويحتمل أن الرجل إنما قال أولا ما قال؛ ليطلع على حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه سمع صفاته من أهل الكتاب، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم بذلك، وقيل: إن جزمه بدخوله النار لكفره بما قاله للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنبى تلطف به حتى آمن ونجا من النار، فتأمل.

وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وابن حبان فى صحيحه، وابن الجوزى فى الوفا.

(وروى عنه) بالبناء للمجهول، وضمير عنه للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والراوى له أبو داود والترمذى عن ابن مسعود، وفى نسخة: وروى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: **(لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئًا)** هذا نهى عام عن الغيبة والنميمة، ونقل ما يكره نقله من قول أو فعل أو ترك.

(فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) سلامة الصدر كناية عن كونه ليس فى قلبه بغض لأحد، ولا غضبان على أحد، ومثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقال له: سليم القلب قال الله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٩]، أى برئ من الكفر والنفاق، وهذا معنى آخر.

وقد صح عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فيما رواه ابن مسعود قال: قسم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، فأتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرته، فتمعر وجهه وقال: «رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[1] رواه البخارى، والمراد سلامة صدره للمنقول عنه أو الناقل كما قيل: سبك من بلغك، والأولى إبقاؤه على إطلاقه ليشملهما وغيرهما، وكل من النميمة والغيبة حرام إلا فى أماكن استثناها الفقهاء، وقد نظمها الجوجرى من فقهاء الشافعية فى قوله:

---

(١) تقدم تخريجه.

بســت غيبــة جــازت فخذهـــا منظمـــة كأمثـــال الجواهــــر
تظلم واستعن واستـفـت حـــذر وعرف واذكـرن فسـق المجاهر

ويأتى لذلك مزيد بيان أيضًا.

(**ومن شفقته ﷺ على أمتـه تخفيفـه**) عنـهم التكـاليف الشـاقة التـى كـانت فـى الأمـم السابقة، ورجاؤه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ربه أن يجعـل الصـلاة خمسًا بعـد مـا كانت خمسين، (**وتسهيله**) فى أمورهم كقولـه، صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم: «لبدنـك عليك حق ولزوجك عليك حـق» لمن أراد قيـام الليـل كلـه، (**وكراهته أشياء مخافـة أن تفرض عليهم**) الكراهة والكراهية من المكروه ضد المحبوب، والكره ضد الطوع، والمخافة بمعنى الخوف منصوب على أنه مفعول له، ثم بين ذلك بقوله: (**كقوله**)، صلى الله تعـالى عليه وسلم: (**لولا أن أشق على أمتى**) أى لولا مخافة المشقة عليـهم؛ (**لأمرتـهم بالسـواك**) أى أمر إيجاب، وإلا فأمر الاستحباب ورد فـى الحديـث كقولـه، صلـى الله تعـالى عليـه وسلم،: «عليكم بالسواك واسـتاكوا»[1] حتـى تمسـك بـهذا الحديـث بعضـهم، فجعلـه واجبًا، ورد بهذا الحديث فهو سنة، واختلف فى محل سـنيته فـى الوضـوء، فقيـل: حـال المضمضة وقيل: قبل الوضوء وقيل: مطلقًا من غير تعيين وقت له، وهو من سنن الديـن لا من سنن الوضوء كما اختاره الزيلعى، رحمه الله تعالى.

والسواك مصدر بمعنـى الاستياك، واسـم العـود نفسـه، والمـراد هنـا الأول أو الثـانى بتقدير مضاف أى استعماله، وهو مذكر وجوز بعض أهل اللغة تأنيثه (**مع كل وضـوء**)، وفى مسلم عند كل صلاة، وهذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة، والوضـوء بضـم الواو مصدر، وبفتحها ما يتوضأ به كالطهور، وأجاز بعضهم فى المصدر الفتح وقد جاء فى المصادر الفتح أيضا، وقال أبو شامة، رحمه الله تعـالى، فـى كتـاب السـواك: السـواك مأخوذ من قولهم تساوكت الإبل إذا اضطربت من الهزل فيما قلقت من الضعف؛ لما فيه من الحركة، وقوله: مع كل وضوء روى مع كل صلاة، وعنـد كـل صـلاة كمـا علـم، وهل هو عام لكل صلاة فرضا أو نفلا أو الصلوات الخمس؟ ذهب إلى كل جماعة.

وقال الشافعى: أحب السواك للصلاة، وعند كل حال تغير فيها الفم كالاستيقاظ من النوم، وهو يشمل الصائم، وفيه كلام للفقهاء، فيكره له بعد الزوال، فلا يحصل لـه تغـير بنحو نوم بعده، ورواية الموطأ مع الوضـوء قـال أبـو شـامة: يحتمـل معنـين أى لأمرتـهم بالسواك مصاحبا للوضوء، أو لأمرتهم به كما أمرتهم بالوضوء، وله فيه كلام طويل.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٠٨)، وابن حبان (١٤٤)، وابن أبى شيبة (٢/٩٦)، وأبـو نعيـم فـى تـاريخ أصفهان (٢/٦٢)، وابن عدى فى الكامل (٣/٩٢٩).

وقوله: **(وخبر صلاة الليل)** هو ما قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا فى تخريجه لأحاديث الشفاء، ومن خطه نقلت: عن زيد بن ثابت، رضى الله تعالى عنه، قال: احتجر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجيرة بخصفة أو حصير فى المسجد فى رمضان، فخرج فصلى فيها. قال: فسمع رجال **(جاؤوا يصلون بصلاته)** قال: ثم جاؤوا فحضروا فأبطأ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يخرج إليهم فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب، فخرج إليهم مغضبًا فقال لهم: «مازال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه سيكتب عليكم، فعليكم بالصلاة فى بيوتكم، فإن خير صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة»[1] رواه الشيخان.

وفى رواية: «خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها» انتهى، وهذا هو المناسب للمقام ولما قبله، وإليه أشار السيوطى أيضا فى مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا، لاما قيل: إنه أراد به حديث: «صلاة الليل مثنى مثنى»[2]، وبه استدل على أن الأفضل فى النفل ليلا أن يكون ركعتين ركعتين، وعند أبى حنيفة، رحمه الله تعالى، الأفضل ليلا ونهارًا الأربع لدليل لاح له، وقد علمت أن الأول هو المناسب هنا، ويناسبه ما روى «خذوا من العمل ما تطيقون. إذا نعس أحدكم وهو يصلى، فليرقد حتى يذهب عنه النوم»[3]، وهذا هو الذى قاله التلمسانى فى حواشيه أيضًا.

فإن قلت: كيف يخشى، صلى الله تعالى عليه وسلم، افتراضه بعد فرض الصلاة فى الإسراء، وقول الله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]؟.

قلت: قيل: يحتمل أن الله أوحى إليه أنك إن واظبت على هذه الصلاة بجماعة افترضتها عليهم، أو أنه وقع فى نفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك، أو المعنى إنى خشيت أن تظنوها فرضا إذا داومت عليها ولا يخفى بعده، وإن قيل: إن ما فى الإسراء هى وظيفة كل يوم وهذه مخصوصة برمضان، أو أنه لما كان قيام الليل فرضا عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خشى أن يستوى به غيره من الأمة.

وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا واظب على شىء من أعمال

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤/٨)، وأحمد (١٨٢/٥)، والنسائى (١٩٨/٣)، والبيهقى فى الكبرى (١٠٩/٣).

(٢) أخرجه البخارى (٣٠/٢)، ومسلم فى الصلاة (١٤٥)، وأبو داود (١٣٢٦)، والترمذى (٤٣٧)، والنسائى (٢٣٣/٣)، وأحمد (١٠٢/٢).

(٣) أخرجه البخارى (٥٠/٣، ٢٠٠/٧)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٢٢٠)، وأحمد (٨٤/٦، ١٢٨، ١٩٩، ٢٤٧)، وعبد الرزاق (٢٠٥٦٦)، والبيهقى (١٧/٣).

البر واقتدى أناس به يفترض، وفيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واظب على أشياء كثيرة، ولم يفترض كرواتب الفرائض والسنن المؤكدة.

وقيل: إن المراد بالفرض فرض الكفاية، وقول الكرمانى إن قوله تعالى: ﴿**مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ**﴾ [ق: ٢٩] معناه نفى النقص؛ لأن الزيادة بعيد جدًا، وهذا لا يقبل النسخ؛ لأنه خبر، واحتمال أنهم لرغبتهم فى العبادة يفرضون ذلك على أنفسهم كالنذر، فيشق على من بعدهم بعيد أيضًا، وعلى كل حال فالمقام لا يخلو من الإشكال.

(ونهيهم) مصدر مضاف للمفعول أى نهى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، **(عن الوصال، وكراهته)** لهم، والوصال فى الصوم وهو أن يصوم يومين فأكثر من غير أكل وشرب بينهما، ونهيه عن الوصال ثابت فى الصحيحين، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما واصل واصل الناس، وشق ذلك عليهم، فلما بلغه ذلك نهاهم عنه، فقالوا له: إنك تواصل، فقال: إنكم لستم مثلى إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى، فمن خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجوز له الوصال، ويمنع منه غيره، واختلف فيه هل كراهته تحريمية أو تنزيهية؟ أو يفرق بين من يطيق ومن لا يطيق، وعلم من الحديث وجه اختصاصه، ومعنى كون الله يطعمه ويسقيه أنه يعطيه قوة روحانية ويغذيه بأنوار ربانية بحيث لا يضعف بدنه بترك الطعام والشراب، بل يزداد قوة، وذلك باتصال روحانيته بعالم الغيب حتى يحصل له بدل ما يتخلل بحيث لا يشعر، وليس هذا حاصلا له فى كل الأوقات ألا ترى أن المريض مدة طويلة لا يأكل ولا يشرب، ولو فعل ذلك فى حال صحته لم يطقه لاشتغال روحه عنه، وقد اتفق على هذا علماء الشرع والحكماء كما فصله ابن سينا فى مقامات العارفين، فلا يرد عليه أنه ﷺ كان فى بعض الأحيان يجوع جوعًا شديدًا حتى يشد الحجر على بطنه، والترمذى الحكيم لما لم يقف على هذا أنكره لتوهم أن بين الحديثين تنافيا، حتى ادعى أنه تصحيف وتحريف ممن رواه، وإنما هو الحجز بضم الحاء المهملة وفتح الجيم والزاى المعجمة جمع حجزة، وهى مرتشقة فى الحزام، وقال: ما يغنى شد الحجر. ولم يدر أنه بثقله وبرده يجمع الأمعاء ويبردها ويقيم الصلب الضعيف، وإنكاره للحديث الصحيح، وحمله على غير ظاهره كما قيل بأن يغذيه حقيقة من طعام الجنة يأباه المقام؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن وصالا.

(وكراهته دخول الكعبة) أى من شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أمته كراهته دخول الكعبة فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وصححاه، وكذا رواه ابن خزيمة والحاكم عنها أيضًا مصححًا مسندًا، وهو

أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج من عندها، وهو قرير العين، ثم رجع وهو كئيب أى محزون، فسألته عن ذلك، فقال: خشيت أن أكون شققت على أمتى أى بدخولى البيت، وكان ذلك فى حجة الوداع، وكانت عائشة، رضى الله تعالى عنها، معه، وبهذا جزم الطبرى والبيهقى، واختلفوا هل صلى فيه أم لا؟، وفى بعض شروح البخارى يحتمل أن يكون دخوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الكعبة وقع مرتين، صلى فى إحديهما ولم يصل فى الأخرى، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دخل الكعبة متفق عليه.

قال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، دخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، البيت هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، رضى الله تعالى عنهم، وأغلقوا عليهم الباب، فلما فتحوه كنت أول من ولج، فسألت بلالاً هل صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها؟ قال: نعم بين العمودين اليمانيين، فكان ابن عمر إذا دخل مشى قبل الوجه، ويجعل الباب قبل ظهره حتى يكون بينه وبين الجدار قريب من ثلاثة أذرع، فيصلى يتوخى المكان الذى صلى فيه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا بأس على أحد أن يصلى فى أى جهة شاء، وهذه الرواية مرجحة على رواية أسامة بن زيد أنه دعا فيه ولم يصل؛ لأن المثبت مقدم على النافى لزيادة علمه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قدم مكة بعد الهجرة ثلاث مرات:

الأولى: فى عمرة القضاء، ولم يدخل فيها الكعبة لما فيها من الأصنام والكفر باق بها.

والثانية: فى فتح مكة، وفيها دخل الكعبة، وأمر بإغلاق بابها فلبث فيها مليا، ثم فتح الباب. قال عبد الله بن عمر: فلقيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خارجًا، وبلال على إثره، فقلت له: هل صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: نعم. قلت: أين؟ قال: بين العمودين تلقاء وجهه، ونسيت أن أساله كم صلى؟.

والثالثة: فى حجة الوادع، واختلف فى أنه دخل الكعبة فيها أم لا، وإنما كره دخولها فى حجه لئلا يجعله الناس من المناسك اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد لا يتيسر لهم ذلك، وقد اختلفوا فى كونه من المناسك، والصحيح أنه ليس منها تمسكًا بهذا الحديث.

وقوله: **(لئلا تتعنت أمته)** بتائين مفتوحتين وعين مهملة مفتوحة ونون مشددة ومثناة فوقية تفعل من العنت، وهو المشقة والإثم، ووقع فى بعض النسخ تتعب من التعب كما قاله التلمسانى وأمته فاعل عليهما، وروى يعنت بضم التحتية وسكون العين وكسر

النون من أعنته بمعنى عنته، وأمته منصوب مفعول، وبالتحتية والتشديد أيضًا، ونصب أمته ففيه وجوه مروية.

(ورغبته) أى طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أن يجعل سبه ولعنه لهم)** أى لأمته أى لأحد منهم **(رحمة بهم)**، والسب والشتم بمعنى، وأصله من السبه وهى مخرج البعر من الدبر، فنقل لما ذكر، وسيأتى بيان هذا **(وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسمع بكاء الصبى)**، وهو فى صلاته، **(فيتجوز فى صلاته)** التجوز تفعل من الجواز، والمراد به هنا أنه يخففها ويسرع فيها، مستعار من تجوز عن ذنبه إذا لم يؤاخذه به كتجاوز، أو هو من الجواز فى السير، والصبى المراد به الطفل الرضيع، وهذا رواه ابن السنى فى حديث صحيح عن أنس، رضى الله تعالى عنه، كما قاله السيوطى، وروى الشيخان عن أنس أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»[1]، وفيه دليل على جواز دخول الصبى والنساء فى المسجد؛ لاحتمال أن يكون ذلك من بيوت مجاورة له، ولا دليل فيه أيضا على جواز تطويل الصلاة لأجل من يلحق الجماعة كما قيل، والمراد بالتخفيف ما لا يؤدى إلى عدم تعديل الأركان والإخلال بالواجبات كما لا يخفى.

(ومن شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم،) على أمته ورحمته لهم **(أن دعا ربه وعاهده)** هذا مفسر لما مر، ولو اقتصر على هذا كان أخصر وأظهر، والمراد بالمعاهدة إلزام ما لا يلزمه شرعا كالنذور كما قاله الراغب أى دعا بذلك، ونذر قصده ما ذكر **(فقال: أيما رجل سببته أو لعنته)** تفسير لما دعا به وعاهد الله عليه، واللعن أصل معناه الطرد والإبعاد ثم خص بالبعد من رحمة الله، **(فاجعل ذلك)** السب واللعن **(زكاة)** أى تطهيرًا له مما ارتكبه مما اقتضاه، **(وصلاة ورحمة وطهورا)** أى مطهرًا له من ذنوبه، **(وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة)** كما رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه.

وروى هذا الحديث من طرق أخر فيها: «أيما رجل من المسلمين» أو من المؤمنين، وروى أو جلدته، ومعلوم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب لله»[2]، فإذا رأى أحدًا من المؤمنين وقع منه ما يخالف أمر الله ربما حصلت له غيرة لأمر الله، فبادر بزجره وشتمه أو ضربه، ثم إنه رجا من الله أن يكون ذلك مكفرًا لما صدر منه، ورحمة عظيمة مقربة له من الله؛ لأن المؤمن إذا رأى غضب النبى، صلى الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (١١٢/٧).

تعالى عليه وسلم، حصل له خوف شديد يفتت قلبه، فتكون شدة خوفه جزاء عمله، وزجر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيادة فى حسناته تقربه من ربه، وهذا لا ينافى ما ورد فى حديث آخر: (**إنى لم أبعث لعانًا، ولكنى بعثت داعيًا ورحمة**) إما لأن المنفى هناك المبالغة والكثرة إن لم تقل المبالغة فى النفى، فإن قلنا بها فالمعنى أنه ليس هذا مقصودًا من بعثته، فلا ينافيه وقوع ما يخالفه للتأديب نادرًا، وأما حمل ما صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما قبل البعثة ينافيه قوله: «من المؤمنين أو المسلمين»، وسياق الحديث فى قوله: جلدته يأباه، أو أنه لما رجا من الله أن يكون ذلك رحمة لم يكن لعنًا حقيقيًا، بل رحمة فلا لعن منه لأحد من أمته أصلا، وبالجملة فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة، وأذيته نعمة لا نقمة بخلاف غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن دعاءهم نقمة عاجلة على أممهم، وفى المصابيح: «إن الله أجاركم أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا»، وسيأتى تتمة هذا فى القسم الثالث، فصار دعاؤه عليهم دعاء لهم على حد قولهم: قاتلهم الله، وتربت يداه، وفى هذا نهاية الشفقة.

وأول الحديث: (**اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإنى اتخذت عندك عهدًا لن تخلفه فأيما رجل إلى آخره**)، وهذا كما مر لا ينافى دعاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على بعض الكفرة والمنافقين.

(**و**) من عظيم شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما أشار إليه بقوله: و (**لما كذبه قومه أتاه جبريل، عليهما الصلاة والسلام، فقال له: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: مرنى بما شئت إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،: بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئا**).

هذا الحديث رواه الشيخان وأصحاب الكتب الستة، وكان ذلك لما مات أبو طالب، ونالت قريش منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لم تنله فى حياته، فخرج لثقيف، ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصرة منهم والمنعة، فعمد إلى نفر من رؤسائهم، فجلس إليهم كلمهم ودعاهم إلى الإسلام، فكذبوه وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به ويرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وهم يضحكون، وزيد، رضى الله تعالى عنه، يقيه بنفسه حتى انتهى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى حائط استظل بكرمه، وهو مكروب موجع، فإذا بقرب الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما كره ذلك لما يعلم من عداوتهما له، فرحماه ودعوا غلامًا لهما يقال له: عداس، وقالا له: خذ **قطفًا** من هذا العنب، وضعه فى طبق، واذهب به له ليأكله، فلما وضعه قال، صلى الله

تعالى عليه وسلم،: بسم الله، ثم أكل، فقال الغلام: إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصرانى من أهل نينوى. فقال من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال: ما يدريك يونس؟ قال: ذاك أخى من أنبياء الله. فأكب يقبل رأسه ورجليه، فلما رجع قالا له: ما لك قبلت رجليه؟ قال: ما فى الأرض خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن هذا من أشد ما لقيه، والقصة مفصلة فى السير، وقوله: وما ردوا عليك أى ما أجابوك به وما ردوا قولك وخالفوه إذ كذبوك، وقوله: فناداه ملك الجبال أى قال له: يا رسول الله: السلام عليك، وقوله: أطبق بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر الموحدة مخففة ومشددة وقاف أى أضمها وأجمعها حتى يهلكوا تحتها، وملك الجبال هو الموكل بها بأمر الله، والأخشبين تثنية أخشب بخاء وشين معجمتين وموحدة بزنة أفعل جبلان يضافان تارة لمكة، وتارة لمنى، فيقال: أخشبا مكة وأخشبا منى، وهما أبو قبيس، وقعيقعان بالتصغير ويسميان الجبجبان، وهما تحت العقبة التى بمنى فوق المسجد كما قاله البرهان الحلبى، وقعيقعان هو الجبل المشرف الأحمر، ولهم قعيقعان آخر بالبصرة، وسميا أخشبان لغلظ حجارتهما وخشونتهما، وأصلاب جمع صلب الظهر، والمراد بالإخراج منهما أن يخلق لهم نسل وذرية، وقد حقق الله رجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وعن ابن المنكدر)، وفى نسخة وروى ابن المنكدر هو محمد بن المنكدر بن عبد الله ابن الهدير بن عبد العزيز المدنى، توفى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين ومائة، وهم ثلاثة إخوة، وكان يدخل على عائشة، رضى الله تعالى عنها، وهو تابعى وقد تقدم قوله: **(إن جبريل، عليه الصلاة والسلام، قال للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم)** بإسقاط الصحابى، فهو مرسل قال البرهان: وإنما يكون مرسلاً إذا قلنا: إن الصحابى إذا قال قولاً لا مجال للاجتهاد فيه يكون مرفوعًا، كما ذكره الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه، فيكون ما قاله التابعى مرسلاً، وفى بعض الشروح: نعم هو مرسل إلا أن إرساله لا يمنع من قبوله إذ مرسل أصحاب القرون الثلاثة مقبول عندنا، وعند مالك، بل هو فوق المسند لبرهان قام عليه عنده، وعند الشافعى مرسل الصحابى مقبول لكنه دون المسند، وفى التنقيح الأصولى حكاية قبول مرسل الصحابى بالإجماع، وفيه نظر لمخالفة أبى إسحاق الإسفرائينى كما نقله العراقى، وقيل: إنه خلاف طرأ بعد انعقاد الإجماع فى العصر الأول، ومثله لا يضر وفيه نظر، ولنا فى إطلاق هذه المسألة بحث ذكرناه فى حواشى النخبة.

(إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك) المراد بإطاعة السماء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه إن أراد أن تخر صواعقها على من عصاه، فتهلكهم كان ذلك، والأرض إن أراد خسفها بهم وانطباقها عليهم كان ذلك من غير مهملة، ووحد ضمير تطيعك مع عوده على شيئين معطوفين بالواو؛ لجعلها كشىء واحد لتأويلها بالعالم أو الدنيا، وكان الظاهر تطيعاك، وفى بعض النسخ والجبال، وعلى هذا لا حاجة إلى التأويل؛ لأن الجمع يجوز عود ضمير المؤنث المفرد عليه، وفيه مراعاة النظير وحسن الترتيب أى بأن تطيعك فى كل ما تريد.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم)** رجاء أنهم يتوبون عن مخالفتى ويوفقهم للإيمان، فيتوبون ويقبل الله منهم ذلك، أو يكون منهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، وأصل معنى التوبة الرجوع فهى من العباد الرجوع عن المعاصى، ومن الله قبول ذلك، أو من الرجوع عن الغضب عليهم والعقوبة لهم، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ولا بين ما وقع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزواته من القتل والسبى كما توهم؛ لأنه عذاب مخصوص، ولأن التأخير لا ينافى ما وقع بعده كما لا يخفى، والأحسن أن جوابه معلوم من قوله الآتى: ما لم يكن إثما فتدبر.

(قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها: ما خير رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بين أمرين إلا اختار أيسرهما) تقدم هذا الحديث، وإنما أعاده هنا تأييدًا لما قبله، وأيسرهما أى أسهلهما، وأهونهما على الأمة شفقة ورحمة منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم، وبقية الحديث: «ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه» كما سيأتى، وكذا رواه الشيخان وتقدم الكلام عليه.

(وقال ابن مسعود، رضى الله عنه)، فى حديث رواه الشيخان (: **كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتخولنا بالموعظة)** بفتح المثناة التحتية وفتح التاء الفوقية والخاء المعجمة والواو المشددة المفتوحة واللام، والضمير للصحابة أى يتعهدنا يقال: فلان خائل مال، وهو الذى يصلحه ويقوم عليه، ومنه الخولى لراعى الغنم والمواشى، وقيل: الصواب يتحولنا بالحاء المهملة أى يطلب الحال التى ننشط فيها لاستماع الموعظة، فيعظ فيها ولا يكثر منها.

(مخافة السآمة علينا) أى لئلا نكل ونسأم، وقيل: إنه يتخوننا بنونين أى يتعهدنا كما يتعهد الضيوف بالخوان والمائدة، والرواية الصحيحة بالإعجام مع اللام والنون كما مر، وكان فعل ماض إذا أخبر عنه بالمضارع الدال على الاستمرار التجددى دل على التكرار

عرفًا، والموعظة مصدر ميمى بمعنى الوعظ وهو التذكير والتخويف من سوء العاقبة، ومخافة منصوب مفعول له، وهو مصدر بمعنى الخوف كما مر، والسآمة بالمد، وعلينا متعلق بمخافة وتعلقه بالسآمة بتضمين المشقة تكلف، وإن جاز، وقيل: إنه حال من السآمة وهو الأرجح، أو صفة لأنه فى معنى النكرة كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وفى إفادة التكرار كان كلام مفصل فى كتب الأصول.

(**وعن عائشة، رضى الله عنها، أنها ركبت بعيرًا وفيه صعوبة**) أى شدة بحيث لا ينقاد لراكبه إذا أوقفه وإذا سيره، (**فجعلت ترده**) أى تمشى به وترجع، وأصل التردد عدم البقاء على حالة، ومنه تردد الإنسان فى الأماكن لحاجة تعرض له، ومنه التردد فى الخواطر، وإنما فعلت ذلك لتروضه حتى ينقاد لها.

(**فقال**)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعائشة: «عليك بالرفق». أى استمسكى بالرفق فى أمورك، ولا تتعبى الدابة التى ركبت، ففيه دلالة على شفقته، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خلق الله حتى الحيوانات، وعليك بكسر الكاف اسم فعل يتعدى بنفسه وبالباء كما ذكره النحاة، والبعير بفتح أوله ويكسر وكذا كل فعل ثانيه حرف حلق، ويطلق على الجمل والناقة، وقيل: هو الجمل البازل وهو الموافق للاستعمال، وهذا الحديث أخرجه البيهقى فى سننه عن المقدام، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها كانت على جمل، فجعلت تضربه، فقال لها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لم يكن فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه»[١] وختم بهذا الحديث لما فيه من العموم، فهو كالفذلكة لهذا الفصل.

* * *

(فصل وأما خلقه ﷺ فى الوفاء)

هو ضد الغدر ونقض الذمة، (**وحسن العهد**) أى ما عاهد عليه والتزمه، وهو عطف تفسير لما قبله، (**وصلة الرحم**) هو الإحسان إلى الأقارب والأصهار، والرفق بهم، وعفو زلاتهم، ونصحهم والتودد إليهم، وضده قطع الرحم، وهذا إذا لم يكونوا كفارًا أعداء الله كأبى لهب وأبى جهل، والرحم أصله مقر الولد، ثم استعمل بمعنى القرابة بعيدة أو قريبة بواسطة وبدونها.

(**حدثنا القاضى أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل**) بن إبراهيم الإمام المحدث الطليطلى، ولد سنة ست وخمسين وأربعمائة، ومات بقرطبة فى ربيع الأول سنة ثلاث

---

(١) أخرجه أحمد (٥٨/٦، ٢٢٢)، والبيهقى (١٩٣/١٠).

وعشرين وخمسمائة (**بقراءتى عليه قال: حدثنا أبو بكر محمد بن محمد**) تقدم قال: (**حدثنا أبو إسحاق الحبال**) بفتح الحاء المهملة وتشديد الموحدة، وهو إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المهدى الثقة المشهور، وقد تقدم قال: (**حدثنا أبو محمد بن النحاس**) تقدم ترجمته قال: (**حدثنا ابن الأعرابى**) تقدم أيضًا قال: (**حدثنا أبو داود**) صاحب السنن المشهورة، وقد تقدم قال: (**حدثنا محمد بن يحيى**) بن عبد الله بن خالد بن فارس النيسابورى الإمام الحافظ الجليل القدر، توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين، أخرج له أصحاب السنن وغيرهم قال: (**حدثنا محمد بن سنان**) بكسر السين ونونين بينهما ألف العوقى بفتح العين المهملة والواو وتسكن وبالقاف نسبة للعوق بطن من عبد القيس غير مشهور قال: (**حدثنا إبراهيم بن طهمان**) بفتح الطاء المهملة وسكون الهاء، وهو الإمام أبو سعيد الخراسانى المشهور، روى عنه أصحاب الكتب الستة، توفى فى بضع وستين ومائة، وترجمته مبسوطة فى الميزان.

(**عن بديل**) بضم الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية ولام ابن ميسرة الفضل.

(**عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق**) العقيلى الإمام الثقة.

(**عن أبيه**) عبد الله بن شقيق الإمام المعروف، توفى فى زمن الحجاج.

(**عن عبد الله بن أبى الحمساء**) بحاء مهملة مفتوحة وميم ساكنة وسين مهملة ومدة العامرى الصحابى، وفى المقتفى أنه غير أبى الجدعاء، وسيأتى حديثه فى انتظاره، عليه الصلاة والسلام، إلى يوم ثالث، وشقيق ولد عبد الله أخرج له أبو داود فقط قاله المزى بعد أن بين طرقه عند أبى داود، وليس هو عند غيره، وذكر كلام أبى داود الذى نقله عن محمد بن يحيى شيخه، وذكر زيادة على ما فى نسخة عندى من السنن، والظاهر أنه من بعض النساخ، وليس هو من كلام أبى داود ما لفظه كذا، وهو من زوائده، ورواه عثمان بن جرزاد عن محمد بن سنان هكذا، وقال: قال عبد الرحمن بن مهدى: ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فى عبد الكريم، وإنما هو عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، عن أبيه، عن أبى الحمساء، ورواه أبو عون الزيادى عن إبراهيم بن طهمان، فلم يذكر عبد الكريم فى إسناده، وقال: عن بشر بن السرى، رواه عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، وقال البزار: أظن فيه غلطًا من الناقل؛ لأن شقيقًا والد عبد الله جاهلى لا أعلم له إسلامًا، إنما عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق عن أبيه قال: إذ لا نعلم أنه روى عبد الله بن أبى الحمساء إلا هذا الحديث، ووقع فى الشفاء نسختان إحداهما الخنساء بمعجمة ونون، والأخرى وعن أبى الحمساء بإسقاط عبد الله، والأولى تصحيف، والثانية خطأ؛

لأن أبا الحمساء لا إسلام له، ولا رواية، وإنما الرواية لولده عبد الله بن الحمساء، انتهى.

(قال: بايعت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ببيع) أى باع مبيعًا للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(قبل أن يبعث، وبقيت له)** أى لذلك المبيع **(بقية)** لم تسلم له، **(فوعدته أن آتية بها فى مكانه)** أى فى مكان وقع فيه البيع، **(فنسيت)** الوعد الذى جرى بيننا، **(ثم ذكرت بعد ثلاث)** أى ثلاثة أيام، ولم يقل ثلاثة لأن المعدود إذا حذف يجوز تذكيره مع المذكور، وتأنيثه مع المؤنث كما قالوه فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأتبعه ستًا من شوال، وإنما تلزم قاعدة العدد إذا ذكر المعدود.

(فجئت فإذا هو فى مكانه) أى مستقر، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مكانه لم يفارقه، **(فقال: يا فتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك)**، وفى هذا الحديث دليل على وفائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعهده ووعده، وهذا الحديث رواه أبو داود، وهو من أفراده، وأخرجه أيضا ابن منده فى المعرفة والخرائطى فى مكارم الأخلاق.

(وعن أنس رضى الله تعالى عنه كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أتى بهدية) مبنى للمجهول أى أتاه أحد بهدية **(قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة)** لم يسمها الرواة، لعدم تعلق غرض بتعيينها، **(فإنها كانت صديقة لخديجة رضى الله تعالى عنها)**، وفى رواية **(أنها كانت تحب خديجة)**، وهذا الحديث رواه البخارى فى الأدب المفرد.

(وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: ما غرت على أحد)، وفى نسخة: امرأة من نسائه صلى الله تعالى عليه وسلم **(ما غرت على خديجة)**، يقال: غار الرجل والمرأة إذا غضب من فعل يقتضى أمرًا لا يرضاه، وغيرتها كانت من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة محبتها له وإرادتها لصرف محبته لها دون غيرها، وهذا أمر طبيعى لا لوم فيه، وأما كون الغيرة من خديجة فلا وجه له بعد موتها.

(لما كنت أسمعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يذكرها) تعليل للغيرة، وما مصدرية أى لسماعى ذكرها، ولو شددت لما وجعلت حينية جاز ولكن النسخ متفقة على الأول، وعلى على أصلها، وقيل: إنها بمعنى الباء كما فى قوله: اركب على اسم الله، وقال فى الإكمال: مغاضبة عائشة رضى الله عنها لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الغيرة التى عفى عنها للنساء، حتى ذهب مالك إلى إسقاط الحد عن المرأة إذا قذفت زوجها غيرة منها، ولولا هذا لكان على عائشة، رضى الله تعالى عنها، فى مغاضبتها النبى، صلى الله تعالى عيه وسلم، أعظم الحرج، لأنه كبيرة عظيمة، وقد صرحوا بأنها معفوة عند الله وفى الشرع.

(وإن) بكسر الهمزة وسكون النون وهى مخففة من الثقيلة **(كان ليذبح الشاة)** ليس المراد أنه كان يذبحها بنفسه، **(فيهديها)** بضم الياء الأولى، والمراد أنه يهدى منها أو يهديها بتمامها، والظاهر الأول، لأنه فى الحديث: فيهدى ما يشبعها أو يشبعهن **(إلى خلائلها)** بالخاء المعجمة جمع خليلة بمعنى الصاحبة والصديقة.

(واستأذنت عليه) أى طلبت الإذن فى الدخول له **(أختها)** أى أخت خديجة، وهى هالة بنت خويلد بن أسد، وهى أم ابن العاصى بن الربيع الصحابية المشهورة، رضى الله تعالى عنها، **(فارتاح إليها)** أى حصلت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، راحة إذ دخلت عليه، وأظهر البشر والمسرة برؤياها، وهذا الحديث فى البخارى، وفى رواية: ارتاع بالعين بدل ارتاح بمعنى مال إليها وأعجبه مجيئها مجازًا.

(ودخلت عليه امرأة فهش لها) أى تبسم قليلا، وأظهر المسرة بدخولها كما يفعل الناس بأصدقائهم ومن يحبونهم، يقال: يهش ويبش به إذا فعل ذلك استئناسًا، ويقال: هو هش بش إذا كان طلق المحيا غير عبوس شامخ الأنف كما يفعله المتكبرون.

(وأحسن السؤال عنها) فيه مضاف مقدر بقرينة المقام، وأل فى السؤال للعهد أو بدل من المضاف أى أحسن إليها بسؤاله عن حالها، وما هى عليه كما تقول لمن يزورك: ما حالك؟ وما أنت عليه؟ تلطفا به واعتناء بشأنه كما هو عادة الناس لمن يحبونه، ووقع فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها: كيف حالكم؟ كيف أنتم؟ فقالت: بخير، وهو مفسر لما هنا، **(فلما خرجت)** من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، وذهبت من مجاسه.

(قال) بيانًا لسبب معاملته معها وهى أمراة أجنبية **(إنها كانت تأتينا أيام خديجة)** أى أنها كانت فى حياة زوجته خديجة تدخل منزله صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنها من معارفها وأصدقائها، **(وإن حسن العهد)** أى رعاية العهود القديمة ورعاية من يحبك أو يحب من يحبك **(من الإيمان)** أى من شعب الإيمان ومقتضياته؛ لأن من كمال الإيمان مودة عباد الله ومحبتهم، كما أنه من تعظيم السيد إكرام عبيده، ومناسبة هذا لما عقد له الفصل ظاهرة.

(ووصفه بعضهم) أى وصف بعض الصحابة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فقال: كان يصل ذوى رحمه)** أى من صفته التى كانت منه دائمة، وكان تدل على التكرار والدوام كثيرة، وإن لم تكن موضوعة لذلك نحو كان حاتم يقرى الضيف، وكان الله غفورًا رحيما، كما فصل فى الأصول، أى يحسن إليهم ويوادهم، ولما كان هذا

يوهم الاختصاص بهم احترس عنه فقال: **(من غير أن يؤثرهم)** أى يخصهم ويقدمهم **(على من هو أفضل منهم)** من سائر الناس، وهذا أيضا من حسن العهد.

(وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء) الآل بمعنى الأهل والأتباع، وفلان كناية عن الأعلام التى للعقلاء، والمراد هنا كما مر أبو العاصى ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والكناية من الراوى لا من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبو العاص هو أبو الحكم بن أبى العاص وكان منافقًا فى أول أمره، ثم حسن إسلامه وهو عم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، وما ذكر كذا هو فى نسخة البرهان الحلبى.

قال ابن قرقول: وفى الحديث المشهور: «إن آل أبى ليسوا بأوليائى»(١) بفتح همزة أبى، قال: وبعد قوله أبى بياض فى الأصول كأنهم تركوا من الاسم بقية، وعند ابن السكن إن آل أبى فلان بالكناية عمن ذكر، وفى بعض الروايات إسقاط آل.

والأولياء جمع ولى، وهو القريب ومن يتولى أمره، أى لا أتولاهم ولا أحسبهم من أوليائى لما علمت منهم، والمراد به القدح كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] أى لا ولى لهم ولا ناصر .

(غير أن لهم رحما) أى قرابة **(سأبلها ببلالها)** لأن أبا العاص أحد بنى أمية وهم قريبون منافقون، وولد أمية العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وهم الأعياص، وحرب وأبو حرب، وسفيان وأبو سفيان واسمه عنبسة، وعمرو، وأبو عمرو، وأبو سفيان هذا هو صخر بن حرب بن أمية، وهو غير أبى معاوية رضى الله تعالى عنهما، وقوله: سأبلها أى سأصل رحمها بصلتها اللائقة بها، والبلال بكسر الباء الموحدة مصدر كالقتال، أو جمع بلل كجمل وجمال وهو الأفصح والأصح رواية، وروى بفتح الباء أيضًا، والمعنى واحد وهو الرطوبة والنداوة، وكل ما يبل الحلق من المائعات كالماء واللبن، فاستعير للصلة والإحسان كما استعير اليبس للقطيعة والشح.

وفى الحديث: «بلوا أرحامكم ولو بالسلام»؛ لأن الرطوبة والنداوة تجمع الأشياء، واليبوسة تفرقها، وأيضًا إن بل الأرض يجعلها منبتة، فاستعيرت لما ذكر لتأليفها للقلوب وتنمية المودة كما قال(٢):

---

(١) أخرجه البخارى (٧/٨)، وأحمد (٢٠٣/٤، ٢٠٤).

(٢) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى الأشباه والنظائر (١٣٤/٨)، الخصائص (٢٩٠/١، ٢٨٠/٢)، الدرر (١٥٥/٦)، ديوان المعانى (٢٢٥/٢)، رصف المبانى (ص٤١٤).

كيف أصبحت كيف أمسيت مما ينبت الود فى قلوب الرجال

ففيه استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية.

(وقد صلى صلى الله تعالى عليه وسلم) أى دخل فى الصلاة **(بأمامة)** بضم الهمزة وميمين علم **(ابنة ابنته زينب)** أكبر بناته صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة، وتزوجها أبو العاص بن الربيع لا ابن ربيعة كما فى البخارى، فإنه غلط مشهور، وولد له منها أمامة، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحبها، وتزوجها على كرم الله وجهه بعد فاطمة، رضى الله تعالى عنها، ثم تزوجها بعده المغيرة بن نوفل، فماتت عنده.

قال البرهان الحلبى: ليس لزينب بنت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا لرقية ولا لأم كلثوم عقب، وإنما العقب لفاطمة، رضى الله تعالى عنها، ولذا سادت جميع بناته وأمها خديجة، وهى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم.

وقال السهيلى: فضلت على أخواتها؛ لأنها بضعة منه وزوجة خليفته وأم ريحانتيه، ولأنها أصيبت برزء لا يساويه رزء، وهو أبيها صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياتها، فصبرت واحتسبت، ومن ذريتها المهدى، وهذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه كغيره، وفيه كما يأتى أنه كان إذا سجد وضعها، وإذا قام رفعها المعبر به الحمل الآتى، وقد أشكل هذا على الفقهاء، لأن هذه أعمال كثيرة مبطلة للصلاة، فقيل: إنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل، إنه منسوخ، وقيل: إنه لا عمل له لأنها لمحبتها له كانت تتعلق به وتعلو عليه من غير عمل منه، وقوله: رفعها ووضعها يأباه، وقيل: إنه كان فى النافلة ضرورة، لأنه لم يكن ثمه من يكفيه أمرها، وقال بعضهم: إنه كله باطل لأنه وقع بعد الهجرة وتحريم الأعمال، وكان فى صلاة الصبح وهو يؤم الناس كما ورد التصريح به، فالصواب: أنه عمل قليل لا يبطل الصلاة وكانت مطهرة ليس معها ما يبطل الصلاة قيل: وإنما فعل ذلك صلى الله تعالى عليه وسلم إرغاما للعرب فى عدم محبتهم البنات.

(يحملها على عاتقه) أى كتفه، وعلى متعلق بيحمل، لا حال من أمامة، أو من ضميره كما يقال.

(فإذا سجد وضعها) على الأرض، **(وإذا قام حملها)** بيانا للجواز.

وقال الخطابى: إسناد وضعها وحملها مجاز، فإنها كانت تألفه فإذا سجد جلست على عاتقه، فلا يدفعها فتبقى محمولة حتى يركع، فيرسلها فإذا سجد فعلت كذلك، وتقدم ما فيه.

(وعن أبى قتادة) الصحابى الأنصارى فارس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختلف فى اسمه فقيل: الحارث بن ربعى بكسر الراء ابن عمرو، وقيل: النعمان، توفى بالمدينة سنة أربع وخمسين، وقيل: ثمان وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وروى له أحمد وأصحاب السنن.

(وقد وفد للنجاشى) وفد بمعنى قدم، ويخص بقدوم الرسول، وفد بسكون الفاء اسم جمع بمعنى الوافدين، والنجاشى بفتح النون وكسرها وتشديد الياء وتخفيفها، واسمه أصحمة، وقيل: صحمة بفتح الصاد وسكون الحاء المهملتين، وقيل: صمحة بتقديم الميم، وقيل: خاؤه معجمة، وقيل: اسمه مكحول بن صصه، وقيل: سليم، وقيل : حازم وهو اسم لكل من ملك الحبشة، وكان رضى الله تعالى عنه ممن أعان المسلمين لما هاجروا إليه، وكاتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأهدى له الهدايا، وزوجه بأم حبيبة رضى الله تعالى عنها، وكتب له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسلم على يد جعفر بن أبى طالب سنة ست، وكان بينه وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم محبة عظيمة، فلما توفى فى رجب سنة تسع نعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وصلى على جنازته، وبه استدل الشافعى رضى الله تعالى عنه على الصلاة على الغائب على ما تقدم، وقصته مشهورة، ولما توفى خلفه نجاشى آخر دعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للإسلام، فأبى ومات كافرا.

(فقام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه) تواضعًا منه وإرشادًا لغيره، **(فقال له)** أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم **(أصحابه: نكفيك)** أى نحن نخدمهم ونكفيك من تعاطى خدمتهم، فأبى صلى الله تعالى عليه وسلم و **(قال: إنهم كانوا لأصحابنا)** الذين هاجروا لأرضهم **(مكرمين، وإنى أحب أن أكافئهم)** أى أجازيهم على إكرامهم لأصحابنا بإكرامهم، ولا إكرام أعظم من تعاطيه صلى الله تعالى عليه وسلم أمورهم بنفسه، وهذا الحديث رواه البيهقى فى دلائله مسندًا.

(ولما جيء) مبنى للمفعول أى جاء الصحابة، رضى الله تعالى عنهم **(بأخته من الرضاعة)** بفتح الراء وكسرها بمعنى الرضاع **(الشيماء)** بفتح المعجمة وسكون المثناة التحتية والميم وهمزة ممدودة، ويقال لها: الشمَّاء بتشديد الميم من غير ياء كما قاله المحب الطبرى، ويحتمل أن تكون الشيماء أصلها شماء فأبدلت إحدى الميمين ياء، كما قيل فى أما أيما، فتكون صفة بمعنى ذات شمم، ثم نقل وجعل علما لها، وهى بنت حليمة السعدية التى أرضعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: أختها وزوج حليمة: هو الحارث بن عبد العزى، وحليمة أسلمت وعدت من الصحابة على ما يأتى، واسمها

جدامة بجيم مضمومة ودال مهملة، وقيل: حذافة بحاء مهملة ودال معجمة وفاء، وقيل: خذافة بمعجمتين، واختلف فى زوجها أبو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاعة، فلم يذكر أحد من أهل السير إسلامه، ولكن ذكره يونس بن بكير فى روايته، فقال: حدثنا ابن إسحاق عن أبيه عن بعض بنى سعد بن بكر أن الحارث بن عبد العزى أبو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاع قدم عليه بمكة بعد بعثته، فقالت له قريش: يا حارث ما يقول ابنك هذا؟ فقال: ما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث الخلق بعد الموت، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم من أطاعه، وقد شتت أمرنا وفرق جماعتنا، فأتاه فقال: يا بنى مالك ولقومك، يشكونك ويزعمون أنك تقول لهم: إن الناس يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنة أو نار، فقال: نعم، ولو كان ذلك اليوم يا أبت أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابنى بيدى فعرفنى ما قال، لم يرسلنى إن شاء الله حتى يدخلنى الجنة، انتهى.

(فى سبايا هوازن) السبايا جمع سبية بمعنى مسبية أي مأسورة، وهوازن اسم قبيلة من بنى سعد بن بكر سميت باسم الأب الأعلى كتميم، وهو هوازن بن نصر بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن غيلان بن نصر، والمراد بكونها فيهم أنها كانت مسبية معهم أيضًا.

(وتعرفت له) يقال: تعرف له إذا أعلمه باسمه وشأنه، فهى أعلمته صلى الله تعالى عليه وسلم أنها أخته رضاعا، فقال لها صلى الله تعالى عليه وسلم: ما علامة ذلك؟ فقالت: عضة كنت عضضتنيها فى ظهرى، فعرف ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه سلم وصدقها، جواب لما **(بسط لها رداءه)** أى فرشه لها لتجلس عليه إكرامًا لها.

(وقال لها) بعد ما جلست عنده **(إن أحببت أقمت عندى)** مفعول أحببت مقدر تقديره أحببت الإقامة عندى، وهذا يدل على أنها أسلمت كما تقدم **(مكرمة محبة)** بالنصب على الحالية فيهما، ومكرمة بضم أوله وسكون ثانيه وتخفيف رائه اسم مفعول من أكرمه إذا فعل به ما يحبه من إحسان قولاً وفعلاً، وكذا محبة فإنه مفعول من أحبه، ويقال: حبه وأحبه بمعنى، والأكثر الأفصح فى اسم المفعول أن يكون من الثلاثى، فيكثر فيه محبوب، ويقل محب لكنه هنا أحسن لاقترانه بمكرم، وعليه الاستعمال كقوله عنترة:

وإذا نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحب المكرم

وقولها جارية خدية مكرمة محبة، وجبروا ذلك فصاغوا اسم الفاعل من المزيد فقالوا: محب، ولم يقولوا: حاب.

(أو متعتك ورجعت إلى قومك، فاختارت قومها فمتعها) ورجعت لقومها وتفصيله ما قاله أصحاب السير أنه لما قدمت أخته الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، وعرفته صلى الله تعالى عليه وسلم بنفسها، فعرفها وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها فاختارت الرجوع لقومها وأرضها، وأن يمتعها بالإحسان إليها فأعطاها عبدًا وجارية، وقال ابن عبد البر، رحمه الله: إنها أسلمت فأعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعمًا وشاء، وهذا منه صلى الله تعالى عليه وسلم صلة لرحمه؛ لأن الرضاع له حكم النسب والقرابة، واللبن للأبوين.

(وقال أبو الطفيل) بضم الطاء المهملة وفتح الفاء منقول من مصغر الطفل جعل علمًا لعامر بن وائل بالثاء المثلثة الكنانى الصحابى، وهو آخر من مات من الصحابة، ووقع فى بعض النسخ ابن أبى الطفيل، وليس بصحيح كما قاله البرهان الحلبى.

(رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنا غلام) الغلام كما فى الكفاية المتحفظ عن بعض أهل اللغة الصبى إذا فطم إلى سبع سنين، ثم يصير يافعًا إلى عشر حجج، وقد يطلق الغلام على الشاب التام الرجولية، والمراد هنا الأول.

(إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه) أى قربت من مكانه الجالس فيه، وفى بعض النسخ تأخير قوله: وأنا غلام عن قوله: إذ أقبلت إلى آخره، وهذا الحديث رواه أبو داود فى سننه بسند حسن، فقال: حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنى جعفر بن عمارة قال: أخبرنا عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره قال: رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم لحمًا بالجعرانة، وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور إذ أقبلت امرأة وساقه، وقوله، إذ يحتمل أن تكون ظرفًا لرأيت أى رأيته وقت إقبال المرأة، ويحتمل أن تكون للمفاجأة بتقدير بينا أى رأيته يقسم لحمًا، وبينا هو كذلك إذ أقبلت امرأة إلى آخره، أو هى بمعنى قد، والوجه هو الأول، وفى هذا دليل على قبول رواية الصغير، وفيه كلام مفصل فى مصطلح الحديث. قالوا: وهذه المرأة هى حليمة أمه صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاع مجيئها له صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الاستيعاب كان يوم حنين، وقال الحافظ الدمياطى، رحمه الله: وزوجها لا نعرف له صحبة ولا إسلامًا، وما قاله ابن عبد البر من أنها أتته صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين وبسط لها رداءه، وروت عنه، وروى عنها عبد الله بن جعفر لم يصح، وابن جعفر لم يدركها، وإنما التى جاءته هى بنتها الشيماء، وأما حليمة فإنها جاءته صلى الله تعالى عليه سلم بمكة قبل النبوة فى زمن خديجة رضى الله تعالى عنها، فأعطاها أربعين شاة وجملا، ثم انصرفت لأهلها، وما هنا يقتضى مجيئها له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد النبوة

بالجعرانة بعد انقضاء حرب هوازن، ومجىء وفدهم، وليس كذلك، إنما هى ابنتها.

وجوز الذهبى، رحمه الله تعالى، أن تكون المرأة التى جاءته ثويبة مولاة أبى لهب الآتى ذكرها، ويرده أنها ماتت سنة سبع قبل هوازن، ولما فتح مكة سأل عنها ابنها مسروجا، فأخبره بموتها، وصحح بعضهم خلافه ذكره ابن الجوزى فى الوفاء.

وصنف الحافظ مغلطاى جزءًا فى إسلامها سماه النعمة الجسيمة فى إثبات إسلام حليمة، وأيده وارتضاه علماء عصره وممن أنكره أبو حيان.

(وعن عمرو بن السائب) عمرو بفتح العين وبالواو، وهو ابن واش المصرى، وقيل: إنه عمر بالضم وحذفها، قال الحلبى: والفتح غلط، وصوابه الضم كما ذكر ابن حبان، وقال: إنه من الثقات، وروى عن أسامة بن زيد، وروى عنه جماعة، وأخرج له أبو داود فقط كذا قاله التلمسانى فى حواشيه، وهو من أجلة التابعين، وهذا الحديث رواه أبو داود بلاغًا كما قاله السيوطى فى تخريجه.

(أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه سلم، كان جالسًا يومًا) قيل ظاهره: أن عمرًا شاهد هذه القضية وهو تابعى، والحديث من مرسل زيد كما فى سنن أبى داود قال: عن أحمد بن سعيد الهمدانى قال: حدثنا ابن وهب قال: حدثنى عمرو بن الحارث أن عمرو بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان جالسًا إلى آخره، فلو ذكره المصنف كما قاله أبو داود كان أولى.

(فأقبل أبوه من الرضاعة) وهو الحارث بن عبد العزى، وقد تقدم الكلام فيه وفى إسلامه وكون الزوج للمرضعة يسمى أبا، ويثبت بإرضاع زوجته معنى له حكم النسب كما أن المرضعة أمه، لأن الفحل محرم، وإن لم يكن له حكم النسب من كل وجه، وإليه ذهب الفقهاء كافة غير الظاهرية، والكلام عليه مفصل فى كتب الفروع.

(فوضع له) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(بعض ثوبه)** وفرشه له فى الأرض ليجلس عليه، **(فقعد عليه ثم أقبلت أمه)** وهى حليمة كما مر، **(فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأجلسه بين يديه)** يعنى أنه أجلس أباه عن يمينه، وفرش له جانبًا من ثوبه، وأجلس أمه حليمة عن يساره، وفرش تحتها جانبًا من ثوبه إكرامًا لهما، فلما قدم أخوه، وهو عبد الله بن الحارث بن عبد العزى لم يبق جانب من ثوبه يفرشه، فقام له صلى الله تعالى عليه وسلم لئلا يقصر فى توقيره عن أبويه، وفيه دليل على أنه يجوز القيام تعظيمًا لمن يستحق التعظيم خلافًا لمن قال: إنه مكروه مطلقًا، وللنبى ﷺ عدة مرضعات منها

حليمة هذه، وثويبة مولاة أبى لهب الآتية، وخولة بنت المنذر بن زيد بن لبيد، وأم أيمن، وثلاث نسوة من سليم تسمى كل وحدة منهن عاتكة، وهو أحد القولين فى قوله صلى الله تعالى عليه سلم أنا ابن العواتك، وقيل: إنهن جدات له ومعنى عاتكة متضمخة بالطيب.

(وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يبعث إلى ثويبة)** علم منقول من تصغير الثوب، وهى **(مولاة أبى لهب مرضعته)** أى جارية معتقة له، وأبو لهب كنيته واسمه عبد العزى، وكنى بذلك لتوقد لونه، وذكر بهذه الكنية فى القرآن للإشارة إلى أنه جهنمى، كما مر.

(بصلة) أى عطية يحسن بها لها، **(وكسوة)** بضم الكاف وكسرها أى ثياب تلبسها، **(فلما ماتت)** بمكة بعد هجرته، عليه الصلاة والسلام، **(سأل من بقى من قرابتها)** أى عمن بقى، فهو منصوب بنزع الخافض، أو تقديره: وقال من بقى، فهى إما موصولة أو استفهامية، والقرابة مصدر بمعنى قرب النسب، وسمع اسم جمع بمعنى الأقرباء كما ذكره ابن مالك وغيره خلافًا للحريرى إذ أنكره، وقال: لا يقال للأقرباء قرابة، وإنما يقال: ذو قرابة كما قال الشاعر[1]:

يبكى عليه غريب ليس يعرفه ... وذو قرابته فى الحى مسرور

(فقيل: لا أحد) أى لا أحد من قرابتها باق، وأحد مرفوع بفعل مقدر أى لم يبق، أو مرفوع اسم لا العاملة عمل ليس، أو مفتوح اسمها والخبر مقدر عليهما، وقوله: وكان إلى هنا سقط من بعض النسخ، وما ذكر من حسن الوفاء وصلة الرحم، وفيه من مكارم أخلاقه وحسن عهده صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى، وهذا الحديث رواه الواقدى وغيره، وأما إرضاع ثويبة له صلى الله تعالى عليه وسلم، فثابت فى الصحيحين، وهى أول من أرضعته مع ابنها مسروح المتقدم ذكره أيامًا قبل حليمة، وأرضعت قبله عمه حمزة وأبا سلمة، واختلف فى إسلامها، فأثبته بعضهم وعدها فى الصحابة، وأنكره أبو نعيم، وكان أبو لهب أعتقها لما بشرته بولادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ورئى فى المنام وهو يقول: خفف عنى العذاب بإعتاقى ثويبة لما بشرتنى به، وفى السير أنه أعتقها قبل ولادته بدهر طويل، وهو المروى فى غير السير، وفى المواهب ما يخالفه، والذى رآه فى المنام بشر حيبة بفتح الحاء المهملة أو بكسرها وياء مثناة تحتية وباء موحدة، وقيل: إنه بخاء معجمة، وقيل: بجيم وهو تصحيف أى بسوء حال، فهو الحوبة

---

(١) البيت من البسيط، وهو لعثير بن لبيد، أو لحريث بن جبلة كما فى لسان العرب (٢٩٣/٤)، تاج العروس (٣٤٩/١١).

وهى المسكنة والحاجة، قالوا: وانقلبت ياء لانكسار ما قبلها، أو على خلاف القياس، وتخفيف عذابه بسبب ما ذكر لا يعارض قوله تعالى فى أعمال الكفرة: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ لأنه بعد الحشر، أو لأنه لما لم ينجهم من النار فكأنه لم يفدهم أصلا، وتفصيله فى حواشينا على القاضى.

(**وفى حديث خديجة، رضى الله تعالى عنها**)، الذى رواه الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها بسند صحيح (**أنها قالت له:**) صلى الله تعالى عليه وسلم فى ابتداء أمره لما رأى جبريل، عليه الصلاة والسلام، فحصل له به رعب شديد (**أبشر**) أمر بفتح الهمزة، وهى همزة قطع يقال: أبشر وبشر بمعنى، ويجوز وصلها وفتح الشين من بشر يبشر كعلم يعلم، وهو أمر المقصود منه تعجيل المسرة بالبشرى التى بعده، وهو إنشاء أريد به الخبر أى أنى مبشرة لك، والبشرى الخبر السار الذى يظهر أثره فى البشرة.

(**فوالله لا يخزيك الله**)، وهذا الحديث تقدم شرحه فى فصل الجود والكرم، ومر أن فى يخزيك روايتين ضم الياء وإعجام الخاء من الخزى، وهو النكال والفضيحة، وبه روى لفظ المصنف هنا كما ذكره البرهان الحلبى، وإهمال الحاء من حزن وأحزن وهى دون الأولى، فلذا تركها المصنف رحمه الله تعالى، وروى لا يخزيك الله أبدا عن الزهرى بزيادة أبدا.

(**إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق**)، وقد مر ذلك مبينا.

* * *

(فصل وأماتواضعه ﷺ)

التواضع بضم الضاد المعجمة إظهار أنه وضيع، وهو أشرف الناس، فالصيغة للتكلف فى الأصل (**على علو منصبه**) قد قدمنا لك أن المنصب فى كلام العرب بمعنى الأصل والحسب كما فى قول أبى تمام:

ومنصب نماه ووالد سماه

وأن استعماله فى تولى الأعمال السلطانية كقول ابن الوردى[1]:

نصب المنصب أوهى جلدى وعنائى من مداراة السفل

مولد لم يسمع من العرب، ولذا عطف عليه قوله: (**ورفعة رتبته**) فهو كالتفسير له، والرتبة كالمنزلة رفعة القدر، (**فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أشد الناس تواضعا**)

---

(١) البيت من الرمل، وهو فى ديوان ابن الوردى (ص٤٣٨)، تاج العروس (٤/٢٨١).

منصوب على التمييز، (**وأقلهم كبرا**)، وفى نسخة وأعدمهم كبرا وفى نسخة بالجمع بينهما، وهو أفعل تفضيل من العدم، وهذا أنسب بمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن اللائق به عدم الكبر لا قلته، ووجه هذه البرهان الحلبى بأن القلة بمعنى النفى، وقال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿**فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: ٨٨]: إن التقليل يرد بمعنى النفى المحض كما فى قولهم: أقل رجل يقول ذلك، وقل رجل يقول ذلك، وقلما يقوم زيد، وقليل من الرجال يقول ذلك.

وقال الحافظ السخاوى فى كتابه جواهر الدرر فى مناقب شيخه ابن حجر: إن ابن حجر رحمه الله تعالى سئل عن هذه العبارة، وأن بعضهم شنع على المصنف فيها ومحاها من النسخ، فأجاب بأن الاعتراض باطل، لأنهم تكلموا على الحديث الذى رواه النسائى عن عبد الله بن أبى أوفى، قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكثر الذكر ويقل اللغو، فقالوا، يقل اللغو بمعنى لا يلغو أصلاً.

قال ابن الأثير فى النهاية: لأن قل يستعمل فى النفى كما فى الآية السابقة، فمعنى هذه النسخة أنه لا يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم كبر أصلاً كما فى الحديث الصحيح، وليس أفعل فيه للتفضيل، فإنه قد يخرج عنه كما فى قوله تعالى: ﴿**أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا**﴾ [الفرقان: ٢٤]، ومثله أفظ وأغلظ، فإنه بمعنى فظ غليظ أى كما مر، وقال المصنف فى شرح مسلم: يصح حمله على المفاضلة، والقدر الذى فيه منه إغلاظه على الكفرة والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿**جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة: ٧٣]؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يغلظ عليهم، ويغضب عند انتهاك حرمات الله انتهى.

فقوله: أقلهم كبرا بمعنى انتفاء الكبر عنه البتة، أو يحمل على شدته على الكفار والمنافقين كما فى الذى قبله، لأن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم ورأفته كانت بالمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿**بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله فى التوراة: ليس بفظ ولا غليظ أى بالمؤمنين، ونظيره: ﴿**أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩] بمعنى أذلة على المؤمنين عاطفين عليهم، أعزة على الكافرين متكبرين عليهم يعادونهم، فلا معنى لمحو النسخ وإتلافها انتهى.

واستدرك عليه عز الدين الحنبلى بأن تأويله الشدة والغلظ بكونها على الكفار والمنافقين فيه أن شدته وغلظه على نحو هؤلاء كانت أشد من عمر رضى الله تعالى عنه بلا شك، انتهى.

أقول: الجواب الحق هو الثانى، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متخلقًا بـأخلاق الله تعالى عز وجل، ومنها المتكبر، فاتصافه صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الصفة مـدح فى محلها ولذا قيل: التكبر على المتكبر صدقة، فالتكبر على الكفرة والمنـافقين أحيانًـا فـى محله ممدوح، وهو فى صفاته تعالى ذاتى لا ينازعه أحـد رداءه إلا قصمـه الله، والجـواب الأول تعسف، وليس من قبيل قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وأما تأويل التفضيل بالنفى، وخلع المفاضلة منـه، فمجـاز علـى مجـاز، وضغـث علـى إباله، وما اعتراض ابن الحنبلى فلا وجه له، ولبعض الشراح والمحشين هنـا كـلام ركيـك تركه خير منه.

(وحسبك) أى يكفيك فى إثبات ما ذكر **(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، خير بـين أن يكون نبيًا ملكًا)** بكسر اللام أى سلطانًا، وخير مبنى للمجهول أى خيره الله على لســان ملائكته فى الحديث المشهور، **(أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا)**، فخـيره الله بعـد تفضيله بالرسالة أن يكون شأنه كـالملوك فـى اتخـاذ الجنـود والحجـاب والخيـول والخـدم والقصور، فاختار مع الرسالة العامة مقام العبودية، والخدمة بنفسه فى مهنة أهله تواضعـا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وزهدًا فى الدنيـا، ولـذا وصفـه الله تعـالى بالعبوديـة فـى عظيم مقاماته كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وهذا من حديث صحيح رواه أحمد عن أبـى هريـرة، رضـى الله تعـالى عنـه، والبيـهقى، عـن ابـن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

(فقال له إسرافيل عند ذلك) أى حين اختار العبودية على الملك: **(فإن الله قد أعطاك)** هذه الفاء فصيحة عاطفة على مقدر أي أصبت وجزاك الله خيرًا ممن تركته **(بما تواضعت له)** الباء سببية، وما مصدرية أي بسبب تواضعك له **(أنـك سـيد ولـد آدم)** بفتـح همـزة أنك، وهى وما بعدها مفعول أعطى، والسيد من يفوق غيره فـى الشـرف، وهـو يطلـق على الله تعالى وعلى غيره فى أصح الأقوال المشهورة، وخصه بقوله: **(يوم القيامـة)** لأنـه لا أعلى من هذه السيادة حيث يسود صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه على الرسل وسائر البشر، وفيه نكتة لتبين اضمحلال كل ملك لفنائه حيث يقـول الله تعـالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لسائر مخلوقاته فتدبر.

(وأول من تنشق عنه الأرض) معطوف على سيد خـبر أن، وانشـقاق الأرض لتخـرج الموتى من قبورهم للبعث، فلا يتقدمـه صلـى الله تعـالى عليـه وسـلم أحـد حينـئذ، وأمـا حديث فإن الناس يصعقـون أى يغشـاهم غشـية كـالموت يـوم القيامـة، فـأصعق معـهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدرى أكـان ممـن صعـق، أو

كان ممن استثنى الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، فلا ينافيه لأن هذه الصعقة كما قاله التوربشتى صعقة فزع بعد البعث، ويؤيده قوله: يوم القيامة.

(أول شافع) يوم القيامة أو فى الجنة لرفع درجات الناس؛ لأن مقام الشفاعة متعدد، وفى قوله أول إشارة إلى أن غيره من الملائكة وغيرهم يشفعون بعد ذلك.

واعلم أن سفير الوحى بين الله ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل، عليه الصلاة والسلام، وعن الشعبى أن إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، كان يأتيه صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى فى أول بعثته، ويترائى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة والشىء، ثم وكل به جبريل، عليه الصلاة والسلام.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: أنزلت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم النبوة، وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن به جبريل، عليه الصلاة والسلام، فنزل القرآن عليه عشر سنين، وفى شرح البخارى لابن التين: ميكائيل بدل إسرافيل، ونقل البرهان عن ابن الملقن أن المشهور أن الذى ابتدأه بالوحى جبريل، عليه الصلاة والسلام، وأنكر الواقدى كون غير جبريل وكل به، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى، فى كتاب الحبائك: لم أقف على أن جبريل أفضل أو إسرافيل، ثم نقل أحاديث متعارضة فى ذلك، وفيه أيضًا أن إسرافيل نزل عليه ﷺ بآية ذكرها.

(حدثنا الفقيه أبو الوليد بن العواد الفقيه) بفتح العين المهملة وتشديد الواو وألف ودال مهملة، وهو هشام بن أحمد القرطبى وقد تقدمت ترجمته **(بقراءتى عليه فى منزله بقرطبة سنة سبع وخمسمائة)**، وفى هذه السنة توفى رحمه الله تعالى **(قال: حدثنا أبو على الحافظ)** الغسانى، وقد تقدم، والحافظ إذا أطلق يراد به حافظ الحديث بالرواية قال: **(حدثنا أبو عمر)** يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى الإمام الجليل صاحب التآليف المشهورة كما تقدم قال: **(حدثنا ابن عبد المؤمن)** أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن كما تقدم قال: **(حدثنا ابن داسة)** أبو بكر بن محمد بن بكر، وقد تقدم، وأن داسة بدال وسين مهملتين مفتوحتين بينهما ألف قال: **(حدثنا أبو داود)** صاحب السنن المتقدم قال: **(حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة)** عبد الله بن محمد بن أبى شيبة العبسى أحفظ أهل عصره، له ترجمة فى الميزان مفصلة، وأخرج له الأئمة الستة.

قال النووى: أبو بكر بن أبى شيبة منسوب إلى جده عبد الله بن محمد بن إبراهيم

ابن عثمان بن خواستى بخاء معجمة مضمومة، ثم واو مخففة، ثم ألف ثم سين مهملة ساكنة، ثم تاء مثناة من فوق مكسورة، وأبو شيبة هو إبراهيم وغلب على أولاد ابنه النسب إليه، وهم ثلاثة عبد الله هذا وهو مشهور بكنيته، وعثمان، وقاسم، فأما عبد الله وعثمان فإمامان حافظان من أحفظ أهل عصرهم، وهما شيخا البخارى ومسلم، وأما القاسم فليس كهما، بل ترك التحديث عنه أبو زرعة وأبو حاتم الراويان الحافظان، وأبوهم محمد ثقة، وجدهم إبراهيم ضعيف قال: **(حدثنا عبد الله بن نمير)** بالنون تصغير النمر الهمدانى أبو هشام بن هشام بن عروة الأعمش الحافظ، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة تسع وتسعين ومائة.

(عن مسعر) بكسر الميم وسكون السين وفتح العين المهملتين وراء مهملة، ومعناه موقد النار، ويقال: هو مسعر حرب للشجاع، وهو مسعر بن كدام أبو سلمة الهلالى الكوفى المسمى بالمصحف، لإتقانه وحفظه، وممن أخرج له الستة، وتوفى سنه خمس وخمسين ومائة، وله ألف حديث.

(عن أبى العنبس) بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وسين مهملة، وهو الحارث بن عبيد بن كعب العدوى الكوفى لم يخرج له غير أبى داود، وذكره فى الميزان، و لم يذكر فيه شيئًا.

(وعن أبى العدبس) بفتح العين والدال المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وسين مهملة، وهو تبيع بن سليمان الأسدى، ويقال: الأشعرى الكوفى، وتبيع بضم المثناة الفوقية ثم باء موحدة وعين مهملة بزنة المصغر كما فى الميزان، وتهذيب الذهبى والإكمال إلا أن أبا الخليل الحافظ كتب فى حواشيه أن هذا وهم منه، وإنما هو منيع بالميم بدل المثناة كما قاله البرهان الحلبى.

(عن أبى مرزوق) التجيبى، واسمه كنيته، وله ترجمة فى الميزان قال فيها: إن ابن حبان قال: إنه لا يحتج بما انفرد به.

(وعن أبى غالب) الراسبى، واسمه خرور، وقيل: سعيد بن خرور، وقيل: نافع، وروى عنه أصحاب السنن، واختلفوا فى ضعف روايته، ومنهم من وثقه.

(عن أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه)، الباهلى أو السهمى، وهو صدى بن عجلان ابن وهب، توفى سنة إحدى أو ست وثمانين، وأخرج له الستة، وهو من بقايا الصحابة بحمص، وهذا الحديث رواه أبو داود، وابن ماجه مسندًا.

(قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متوكئًا) بكاف مشددة

مكسورة وهمزة أى معتمدًا متحاملاً، وهو منصوب على الحال **(على عصا)**، وقال ابن عباس: التوكؤ على العصى من سنن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عصى منها قضيب ومخصرة قصيرة ومحجن، وكانت فى يده إذا خطب، وكانت عند الخلفاء، وقال فيها الصرصرى رحمه الله تعالى كما مر:

وعصاه لما مسها بيمينه   فضلت عصا صارت إلى ثعبان

(فقمنا له) تعظيمًا وإجلالاً.

(فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا) هذه الجملة بدل مما قبلها أو مستأنفة استئنافًا بيانيًا، والأعاجم جمع أعجم أو أعجمى أو عجم على خلاف القياس أو جمع أعجام جمع جمع، وهم من عدا العرب، وقد يختص بفارس، وقد اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد، هل هو مكروه أم لا؟ فقيل: مكروه استدلالا بهذا الحديث، وبحديث «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا وجبت له النار» ونحوه حتى ذهب بعضهم إلى حرمته، والأحسن ما قاله القاضى زكريا فى شرح الروض أنه مستحب لأهل العلم والصلاح وللحكام والعدول، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضررًا كجبابرة الملوك، ويستحب لمن قدم من سفر، ولذوى الأرحام تكريمًا وبرًا لهم، ويدل على ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم، للأنصار لما قدم عليهم سعد، رضى الله تعالى عنه: «قوموا لسيدكم» والنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر، وحمل حديث سعد على أنه كان مريضًا، وقدم مكة راكبًا، فأمرهم صلى الله تعالى عليه وسلم بالقيام ليعينوه فى النزول عن خلاف الظاهر كما مر، وقد فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان يقوم لفاطمة، رضى الله تعالى عنها، إذا جاءته، وإنما نهاهم لئلا يظنوه سنة ويتخذوه عادة.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم: **(إنما أنا عبد)** الحصر فيه إضافى أى لست بسلطان، ثم إنه أريد بالعبد معناه العرفى وهو الرقيق المملوك للناس، فهو استعارة فشبه نفسه تواضعا لله بالرقيق، لتعاطيه خدمة نفسه فى بيته، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويكنس بيته، ويلبس الغليظ.

فقوله: **(آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد)** بيان لوجه الشبه، وإن أراد عبد الله، وكل الناس عبيد الله المملوك وغيرهم سواء فى ذلك، فالمراد أنه متمحض لهذه العبودية لا يشوبها بشىء من أمور الدنيا، ولا تخلق بشىء من أخلاق أهلها فى لباسهم ومأكلهم ومشربهم وفراشهم، فإنه صلى الله عليه وسلم، كان يجلس على الأرض، ولا يأكل على خوان، ولا يغلق عليه بابا، ولا يتخذ حجابًا.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يركب الحمار)، وكثير من الأغنياء يأنف من ركوبه، وكان له حمار يسمى عفير، وأخرى يسمى يعفور، وهو مأخوذ من العفرة، وهى التراب لشبه لونه له، وليسا اسمين لحمار واحد كما توهم، فإن عفيرًا أهداه له المقوقس ويعفور أهداه له فروة بن عمرو، وقيل: بالعكس، ومات يعفور منصرفه من حجة الوداع، وقيل: ألقى نفسه فى بئر ابن التيهان يوم موته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه كان من جنس من الحمير لم يركبه إلا نبى، وإنه كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرسله للرجل، فيأتى بابه ويقرعه برأسه، فيعلم أنه يطلبه.

(ويردف خلفه) غيره، ويردف بضم المثناة التحتية بمعنى يجعله رديفًا له أى راكبًا خلفه على دابته التى ركبها، ويقال، ردف وأردف، أصله الركوب على الردف، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يجعل غيره قدامه أيضًا، ولم يذكر المصنف من أردفه إشارة لعمومه، فيشمل الذكر والأنثى والصغار والكبار، وقد ذكروا أن من أردفه صلى الله تعالى عليه وسلم، بلغ أربعين فى سفره وحضره، وهذا من تواضعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أسامة بن زيد، رضى الله عنه، مرجعه من عرفة، والصديق، رضى الله عنه، فى الهجرة، وعثمان رضى الله عنه، راجعًا من بدر، وعلى كرم الله وجه فى حجة الوداع، وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما، بين يديه، وسبطه مع غلامين من بنى هاشم، وأولاد عباس الثلاثة رضى الله عنهم، فى نزوله من المزدلفة، والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما، ومعاوية رضى الله تعالى عنه، ومعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، على عفير، وأبو ذر رضى الله تعالى عنه، على حمار، وزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه، وثابت بن الضحاك رضى الله تعالى عنه، والشريد بن سويد رضى الله تعالى عنه، وسلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه، وزيد بن سهل رضى الله تعالى عنه، وأبو طلحة الأنصارى رضى الله تعالى عنه، وسهيل بن بيضاء رضى الله تعالى عنه، وعلى ابن ابنته زينب رضى الله تعالى عنهما وعبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، وغلام مطلبى، وأسامة بن عمير رضى الله تعالى عنه، وصفية بنت حيى، رضى الله تعالى عنها، مقدمه من خيبر، وأبو الدرداء رضى الله تعالى عنه، وآمنة بنت أبى الصلت، وأبو إياس، وأبو هريرة، وقيس بن سعد، وخوات بن جبير، رضى الله تعالى عنهم، وجبريل عليه الصلاة والسلام، على البراق فى الإسراء ، وأم حبيبة الجهينية، رضى الله عنها، وزيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهما، وزاد ابن منده، رحمه الله، غير هؤلاء، ونظمهم أبو ذر بن موفق الدين فقال:

وأردافه جم غفير فمنهم   على وعثمان شريد وجبريل

وأولاد عباس ذوو الرشد والتقى ... أسامة والدوسى وهو نبيل
معاوية قيس بن سعد صفية ... وسبطاه ماذا عنهم سأقول
معاذ أبو الدردا سويد وعقبة ... وآمنة إن قام ثم دليل
كذلك خوات ظريف وسبطه ... على ووجه النقل فيه جميل
أسامة والصديق ثم ابن جعفر ... وزيد وعبد الله ثم سهيل
كذا بنت قيس خولة وابن أكوع ... وقدرهم فى العالمين جليل
كذلك زيد جابر ثم ثابت ... فعن حبهم والله لست أحول
ثلاثة غلمان وزد معهم أبا ... إياس وحسبىالله هو وكيل

(و) كان **(يعود المساكين، ويجالس الفقراء)** الفرق بين المسكين والفقير مشهور فى مبحث الزكاة إلا أن كلا منهما يطلق على الآخر من غير فرق فى العرف، والعيادة سنة للغنى والفقير، وإنما خصها هنا لأنه يعلم منه غيره بالطرق الأولى، والمسكين بكسر الميم وفتحها مأخوذ من السكون، ويكون بمعنى المتذلل الخاضع، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا)** وتقدم أنه لا يجوز أن يطلق على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فقير أو مسكين، وإن أطلقه على نفسه الشريفة.

(ويجيب دعوة العبد) إذا علم أنه يجوز له إطعام غيره لكونه مأذونًا ونحوه.

(ويجلس مع أصحابه مختلطًا بهم) فلا يختار مكانًا رفيعًا، ولا يتقدم عليهم. قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: حتى كان الغريب إذا أتى ناديه لا يعرفه حتى يسأل عنه، ثم إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل له مكانًا مخصوصًا حتى إذا أتاه الغريب عرفه وسأله، ففعله من طين تارة يجلس عليه، وتارة يجلس بجنبه **(حيثما انتهى به المجلس جلس)** حيثما تفيد العموم أى أى مكان وجده خاليا وقت مجيئه يجلس فيه صدرا أو غير صدر، وكل هذا لتواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم وإرشاد أمته.

(وفى حديث عمر عنه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه البخارى **(لا تطرونى)** مضارع أطراه إذا بالغ فى مدحه وتجاوز الحد فيه قال:

لا يلحق الواصف المطرى مدائحه ... وإن يكن محسنًا فى كل ما وصفا

أى لا تمدحونى. قال الجوهرى والزبيدى: أطريت الرجل مدحته، وقال ابن فارس فى المجمل: أطريته مدحته بأحسن ما فيه، وقال الهروى: الإطراء مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه، وبه فسر الحديث، وقد علمت أن الذى قاله الهروى هو معنى الحديث،

وهو مأخوذ من الطراوة، يقال: طراوة طراءة، ومدحه صلى الله تعالى عليه وسلم مطلوب من كل أحد، والمنهى إنما هو عما لا يليق به، ولذا قال: **(كما أطرت النصارى)** جمع نصرانى منسوب لناصرى أو نصرة أو نصورية على خلاف القياس، وتلك القرية كان فيها فى أول أمره **(ابن مريم)**، فإنهم قالوا فيه: إنه ابن الله وغيره مما هو مشهور، وهذا كقول البوصيرى رحمه الله تعالى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

وما أحسن قوله العارف بالله عمر بن الفارض تقعنا الله تعالى به:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

(إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) ولا تقولوا ما قاله أهل الكتاب ونحوه، فالحصر إضافى.

(وعن أنس) رضى الله تعالى عنه رواه مسلم **(أن امرأة)** من الصحابه تسمى أم زفر، وهى ماشطة خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، وتردد البرهان الحلبى رحمه الله تعالى فيها، هل هى هذه أو غيرها؟ وجزم به غيره.

(وكان فى عقلها شىء) من الجنون، ولم يصرح به إشارة لخفته، وأنها لم تستغرق فيه فإن لفظ شىء يشعر بالقلة.

(جاءته صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: إن لى إليك حاجة) أى لى حاجة أريد أن أنهيها إليك، وأعلمك بها.

(قال) لها **(اجلسى يا أم فلان)** الإبهام من الراوى، لأنه لم يحضره اسمها **(فى أى طرق المدينة شئت أجلس إليك)** مجزوم فى جواب الأمر، وإلى بمعنى عند عبر به للمشاكلة **(حتى أقضى حاجتك قال)** أى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه **(فجلست فجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إليها حتى فرغت من حاجتها)** التى أعلمته بها تواضعًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وملاطفة، وفيه استحباب الملاطفة بمثلها لا من كان فيه جنون مطبق، وكانت جارية سوداء تصرع أحيانًا، فشكت ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقالت: إنى أصرع وأنكشف فادع الله لى فقال: «إن شئت فاصبرى ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»[1]، فقالت: أصبر ولكن ادع الله أن لا أنكشف، فدعا لها.

---

(١) أخرجه البخارى (٨/١٥٠)، ومسلم فى البر والصلة برقم (٥٤)، وأحمد (٣٤٧/١)، والطبرانى (١٥٧/١١)، وابن حبان (٧٠٨).

وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول: ألا أريكم امرأة من أهل الجنة، فيشير إليها، وقيل: إن التى كانت تصرع سعيرة الأسدية.

(وقال أنس) رضى الله تعالى عنه فى حديث رواه بتمامه أبو داود والبيهقى **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يركب الحمار، ويجيب دعوة العبد)** كما تقدم بيانه.

(وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يوم بنى قريظة)** يوم واحد الأيام، واليوم هنا بمعنى الوقعة والغزوة شائع بحيث إذا أطلق إنما يفهم منه هذا، وبنو قريظة بصيغة التصغير والقاف والراء المهملة والظاء المشالة ثم هاء قوم من اليهود بقرب المدينة غزاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة الخندق كما فصل فى السير راكبًا **(على حمار)** وهو صاحب الرياسة والرسالة العظمى تواضعًا منه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن هو من أقل عبيده يركب الخيل فى مثله، ويجتنب الجنائب إظهارًا لشوكته وعظمته بذاته، لا لغرض الدنيا الذى لا يستقر، وما فى بعض الشروح هنا نقلاً عن بعض الحواشى فى ضبط يوم من أنه بفتح الياء التحتية والهمزة المضمومة المرسومة واوًا والميم المشددة بمعنى يقصد تحريف لا وجه له.

(مخطوم بحبل من ليف) اسم مفعول من الخطام بخاء معجمة وطاء مهملة، وهو ما يقاد به الدابة كالرسن، والليف بكسر اللام والفاء شىء يتخذ من النخل ويفتل حبالا.

(وعليه) أى على الحمار **(إكاف)** بكسر الهمزة وكاف وألف وفاء بزنة كتاب ويضم كغراب، ويقال: وكاف بالواو وهو رحل يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه، أو بعض أدواته وهو البردعة، وهذا من حديث رواه أبو داود والبيهقى كما مر.

(قال) أى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه **(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة)** إهالة بكسر الهمزة وتخفيف الهاء ولام، وهو كل مايؤتدم به من الدهن أو ما يذاب من الإلية أو الدسم الجامد، وسنخة بفتح السين المهملة وكسر النون وفتح الخاء المعجمة وهاء بمعنى متغيرة الرائحة، يقال: سنخ الدهن وزنخ إذا تغير.

(فيجيب) دعوة من دعاه، وهذا الحديث رواه الترمذى فى شمائله وابن ماجه فى سننه.

(قال) أنس أيضًا رضى الله تعالى عنه **(وحج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم)** بعد الهجرة فى حجة الوداع كما فى البخارى، ويدل عليه قوله الآتى: وقد فتحت عليه الأرض.

(على رحل رث) الرحل للجمل كالسرج للفرس، فيختص به ورث بفتح الراء المهملة وتشديد المثلثة بمعنى بال خلق، **(وعليه قطيفة)** أى كساء من صوف له خمل **(ما تساوى أربعة دراهم)** أى لو قومت لم يكن قيمتها أربعة دراهم، ويقال: هذا يساوى ويسوى كذا لقيمته، والحج من أعظم شعائره التواضع، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى، ومنع النفس من التلذذ والملابس، ولذا شرع الإحرام فيه، والتجرد فى الموقف ليذكر الموقف الحقيقى، والعرض على الله، وهذا من محاسن التشريع والإرشاد للإخلاص، ولذا قال ثمة: **(فقال: اللهم اجعله)** أى اجعل حجى هذا **(حجا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة)** بل خالصًا لوجهك الكريم، والرياء مشتق من الرؤية، وهو ما يفعل من عبادة ونحوها لأجل أن يراه الناس، فيمدحوا صاحبه به.

والسمعة بضم فسكون ما يفعل ليشيع ويسمع الناس به، وهما بمعنى بحسب لما صدق، وإن اختلف مفهوماهما، ومنهم من فرق بينهما، فإن عبد السلطان إذا عمل عملاً ليراه سيده وحده رياء لا سمعة، ومن أشاع أمرًا لم ير سمعة لا رياء فيه، وقال القرافى فى قواعده: الرياء موجب للإثم والبطلان عند كثير لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [البينة: ٥]، وهو أن يعمل لله مع قصد نفع من العباد، وهذا رياء الشرك، وأن يعمل للناس فقط ويسمى رياء الإخلاص، وهو لأغراض شتى، والتشريك كمن جاهد طاعة لله مع قصد الغنيمة، وهذا يضرب بنقص الثواب ولا يحرم بالإجماع، بخلاف من فعل ليقال: إنه شجاع، أو ليحظى عند الإمام، أو يكثر عطاؤه، وهو محرم ليس كقصد الغنيمة من العدو، ومن حج وشرك مع الحج المتجر لا يأثم، ولا يقدح ذلك فى صحة حجه، ولو كان جل قصده أو كله التجارة كمن صام ليصح بدنه ويحتمى، فهذا لا يقدح فى فعله، لأن الشارع أمر به فى حديث: **(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)** أى قاطع للشهوة، فأمر بالصوم لغرض آخر غير العبادة، ولو كان قادحًا لم يأمر به كمن توضأ للتبريد والتنظيف، فإنه فيه أغراضًا ليس فيها تعظيم غير الله بفعله، فإنه هو المضر انتهى.

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم معصوم من الرياء والسمعة، وإنما دعا بذلك تعليمًا لأمته، وتواضعًا كقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] لأن التقشف قد يدخله الرياء بإظهار الزهد.

(هذا) أى فعله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا، واختياره رث الثياب والمركب ليس عن عجز.

(وقد فتحت الأرض عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وفتح يتعدى بعلى لما جاء

كثيرًا بسهولة من الله، كأنه أفاضه عليه، وفتح الأرض إن أريد به بعضها كالحجاز فظاهر، وإن أريد جميعها، فعد تمكنه صلى الله تعالى عليه وسلم منها بمنزلة وقوعه مر، وفى الحديث عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة سندس»[١]، وفى رواية «بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدى»[٢]، وهو محمول على ظاهر ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أو هو كناية عن أن الله مكنه من ذلك، ولو أن الله تعالى أراه صرفه بالفعل فيها وقاد جميع أهلها له.

(وأهدى فى حجه ذلك مائة بدنة) أهدى بمعنى بعث الهدى بوزن الرمى مخفف الياء، وقد تشدد فتكسر داله وهو ما يرسل للبيت الحرام لينحر فيه، ويتصدق به من الإبل والبقر، وكذا البدنة تطلق على الجمل والناقة والبقرة، وأكثر ما تطلق على الإبل، وقد يسمى الإبل مطلقًا هديًا، وسميت بدنة لكبر بدنها.

وفى البخارى: لما حج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع أهدى مائة بدنة نحرها، وقسم لحمها وجلودها وجلالها، ونحر بيده منها جملة، ثم أمر عليا، كرم الله وجهه، بنحر باقيها، واختلف فيما نحره صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة أهو ثلاثون أم ستون؟

(ولما فتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش من المسلمين) وذلك فى شهر رمضان ثالث عشرة أو سادس عشرة أو ثامن عشرة، وصحح النووى، رحمه الله، أنه تاسع عشرة، واختلف فى الجيوش أيضا، فقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرة آلاف، وقيل: ثمانية.

(طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته) الرحل له مقدم ومؤخر مرتفع عن محل الراكب، وفيها لغات قادم وقادمة ومقدم ومقدمة بكسر الدال مخففة وفتحها مشددة، وكذا آخرة الرحل.

(تواضعًا لله تعالى)، ومن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم أن ركب الجمل دون الفرس، وعلى رأسه مغفر فوقه عمامة سوداء، وأردف خلفه أسامة رضى الله تعالى عنه كما مر.

(ومن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم قوله: لا تفضلونى على يونس بن متى) قال شيخ مشايخنا الجلال السيوطى: لم أقف عليه بهذا اللفظ، والذى فى البخارى عن ابن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

مسعود رضى الله تعالى عنه: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»[١]، وفى سنن أبى داود: ما ينبغى لنبى أن يقول: «أنا أفضل من يونس بن متى»[٢]، وفى الصحيحين «لعبد» بدل لنبى، وفى رواية: «لا أقول: إن أحدا أفضل» إلى آخره. إنه سبح الله فى الظلمات، وفى البخارى ونسبه لأبيه، ففيه إشارة إلى أن متى بفتح الميم وتشديد التاء مقصورًا اسم أبيه، وقيل: معناه أنه ذكر اسم أبيه بدل متى اسم أمه، وهذا هو المشهور، وأنه لم ينسب لأمه إلا يونس وعيسى، عليهما الصلاة السلام، واختلف فى المراد منه، فقيل، إنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله تواضعًا منه، وإن كان هو أفضل من جميع الرسل بالإتفاق، وكلام المصنف رحمه الله تعالى يميل لهذا، فإن الأفضل قد لا يطلب تفضيل أحد له، وقيل: إنه كان قبل أن يعلم بتفضيله والإذن فيه لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وخص صلى الله تعالى عليه وسلم بيونس، عليه الصلاة والسلام، لئلا يتوهم أحد تنقيصه إذا سمع قصته، وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وقصته مفسرة فى التفسير.

(و) قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لا تفضلوا بين الأنبياء)** لا ينافى هذه الآية، لأن المنهى عنه تفضيل يؤدى إلى التنقيص أو الخصومة والنزاع، أو التفضيل من سائر الوجوه، لأنه قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل، أو التفضيل فى نفس النبوة لا فى الخصائص وعموم الرسالة، وإلا فيجب علينا اعتقاد أفضليته صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله: « أنا سيد ولد آدم».

وقوله: «إن الله تعالى اختارنى على جميع العالمين من الأنبياء والمرسلين».

(ولا تخيرونى على موسى)، صلى الله عليه وسلم، أى لا تقولوا أنى خير منه وأفضل، وخصه لئلا يظن أحد نقصه لقوله تعالى: **(فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان)**، وسيأتى بيان ذلك.

أقول: الظاهر أن المعنى لا تفضلونى تفضيلا يؤدى للنزاع والمخاصمة، فإن هذا من بعض حديث فى الصحيحين أن رجلا من المسلمين استب مع يهودى، فقال اليهودى: والذى فضل موسى على العالمين فلطمه، فاشتكى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ذلك، وسيأتى الكلام على هذا.

(ونحن أحق بالشك من إبراهيم) إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

٢٦٠]، وحمله بعضهم على ظاهره، وأنه كان قبل البعثة فى سن الطفولية، ومن قال بعصمة الأنبياء مطلقًا قال: إنه نفى للشك لا إثبات له، وإنما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم على سبيل التواضع، أى نحن أحق بالشك منه لو شك، ولكنه لم يشك فكأنه قال: أنا لا أشك فكيف بإبراهيم، وقيل: إنما قاله جوابا لمن قال: شك إبراهيم، و لم يشك نبينا. ولا تنافى بين القولين، وسيشير إليه المصنف رحمه الله تعالى فى القسم الثالث.

وقيل: لا يصح، أن يكون المراد أنه أحق بالشك منه لقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إلى آخره، وتسميته شكا بالنظر للظاهر، لاقتضائه عدم الاطمئنان، وهو ينافى عدم التردد والشك، ولذا احتج لتأويله بأن الخليل، عليه الصلاة والسلام، قطع بالقدرة على إحياء الموتى بدليل قطعى، لكنه اشتاق لمشاهدة كيفية هذا الأمر العجيب الذى جزم بثبوته، فنفسه لا تطمئن حتى يشاهده، قال ابن أبى شريف رحمه الله تعالى: وهذا التأويل يشير إلى أن المطلوب بقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ سكون قلبه عن المنازعة إلى رؤية الكيفية المطلوبة التى تمناها، ليحصل له العلم البديهى بعد العلم النظرى، ولما كان هذا الشك ظاهريًا جائزًا على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما قاله كناية عن أمه جائز منه، إلا أنه أورده بهذه الصورة تأدبًا مع الله تعالى، وإن لم يكن أحق بذلك الشك منه، وكيف يتصور جوازه عليه، وعلى كرم الله وجهه يقول: لو كشف الغطا ما ازددت يقينًا، إلا أن فى هذا إشكالاً أورده ابن العماد، لاقتضائه تساوى علمه البديهى والنظرى، فيتجاوز المقام الخليلى.

وقد أجاب عنه فى كتابه كشف الأسرار فقال: قال العز بن عبد السلام: المراد ما ازددت يقينًا بالإيمان، وإن كان إذا رآها أبصر من التفاصيل والهيئات ما لم يحط به قبل ذلك علما، وكذلك إبراهيم لما رأى كيفية الإحياء لم يزدد يقينًا بالإيمان بقدرته تعالى على الإحياء، وإن وقف بمشاهدة كيفية الإحياء على ما لم يقف عليه من الإيمان، كمن رأى بناء عجيبًا وعرف صانعه علم قدرته وصنعه وتحققه، وإن لم يعرف كيفية بنائه وصنعة عمله، فإذا طلب مشاهدة عمله ورآه لم يزده علمه بقدرته وصنعته وهيئته بذلك، ولكن اطمأن قلبه لحصول ما طلبه من كيفية صنعه، وقال السبكى رحمه الله تعالى: سئل الغزالى رحمه الله تعالى عن هذا فقال: اليقين يتصور عليه الجحود، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، والطمأنينة لا يتصور عليها الجحود، وهو جواب حسن فى الفرق بين اليقين والجحود، انتهى، وفيه نظر.

وقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: هذه الآية أرجى آية فى القرآن معناه أن

سؤاله الإحياء فى الدنيا يدل على أنا نحيى وننعم فى الآخرة، أو أن الإيمان بالغيب إجمالاً كاف لنا.

(ولو لبثت ما لبث يوسف فى السجن لأجبت الداعى) (لبث فى السجن بضع سنين) أى لبث خمسًا ثم سبعًا بعد رؤيا الفتيين اللذين دخلا معه السجن، وقيل غير ذلك، وورد فى الحديث: «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك ما لبث فى السجن سبعًا بعد خمس» أى لو لم يستغن بغير الله تعالى ما طالت المدة، والمراد بإجابة الداعى إجابة رسول الملك الذى دعاه للخروج منه.

قال الكرمانى: وصفه بالصبر حيث لم يبادر إلى الخروج، وقال ذلك تواضعًا لا أنه كان فيه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف، والتواضع لا يصغر كبيرًا، بل يزيد قدره إجلالاً، وذلك منه صلى الله تعالى عليه وسلم إشارة إلى مقام التفويض، وتلقى كل ما يأتى من الله بالقبول، ورفض الوسائط، والمعنى لو كنت مكانه تلقيت دعوة الداعى مستعينًا بالله تعالى مفوضًا أمرى له، وقد كان يوسف، عليه الصلاة والسلام، عبر رؤيا الفتيين، ثم رؤيا الملك، فطلبه فلما جاءه الرسول ليخرجه من السجن لم يبادر للخروج، وطلب الكشف عن أمره حتى يعلم أنه مظلوم، وقال القرطبى: الوجه عندى فى ذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ لنفسه وجهًا آخر من الرأى، وهو أن يفعل أمرًا ليقتدى به فيه، وهو أن يخرج سريعًا، ثم يبرئ ساحته بالتبرئة من غير إلحاح وهو الحزم، ويوسف، عليه الصلاة والسلام، سلك مسلكًا آخر وهو الصبر، وقيل إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يلتفت لما التفت له من براءة الساحة اكتفاء بعلم الله واعتقاده، لأنه يبرئ ساحته من غير طلب منه لهذا المقام، ولكنه قال ما قال تواضعًا، وفى يوسف ست لغات بتثليث السين مع الهمزة وعدمه.

(وقال، للذى قال له: يا خير البرية، ذاك إبراهيم)، وهذا من تواضعه أيضا صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا فهو خير البرية من غير شك، وليس فيه إخبار بغير الواقع إذ المعنى لا أقول ذلك إطراء لنفسى، والبرية الخلق من برأ بمعنى خلق لكن همزته متروكة كما فى الذرية، والنبى والخابنة، وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه وغيره، وخص إبراهيم لأن الله أمره باتباع ملته فى قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١١٣]، وسيأتى الكلام على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله تعالى من غير تطويل واعتساف.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، والحسن وأبى سعيد وغيرهم فى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضهم يزيد على بعض) قدم عائشة، رضى الله تعالى عنها؛ لأنها

أدرى بحاله صلى الله تعالى عليه وسلم في بيته، ولذا عقبها بالحسن بن على، رضى الله تعالى عنهما؛ لأنه من أهل البيت أيضًا، وأبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه كان يخدمه صلى الله تعالى عليه وسلم، فلذا خص هؤلاء ورتبهم الأقرب فالأقرب.

(كان فى بيته فى مهنة أهله) خبر بعد خبر أو بدل مما قبله بدل اشتمال، والمهنة بكسر الميم وفتحها الخدمة مأخوذة من الامتهان، واختلف فى أيهما الأفصح والأكثر على أنه الفتح، والأشهر أنه الكسر لتوافق الخدمة لفظا ومعنى، وأنكر بعضهم الكسر، والأصح أنه لغة وأنه ثابت بالوجهين.

(يفلى ثوبه) بيان هو وما بعده لما قبله، لأن هذا مما ينبغى أن يفعله أهله، ويفلى بفتح المثناة التحتية وسكون الفاء يقال: فلاه يفليه كرماه يرميه إذا فتش ما فيه من قمل وغيره هذا أصله، وهو يقتضى أن يكون فى ثوبه صلى الله تعالى عليه وسلم قمل، وقد قالوا: إنه لا يكون تكريمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأنه يتولد من العفونة والعرق وجسده وعرقه طيب لا يكون فيه عفونة، والقول بأن فيه قملاً تنقيص لا ينبغى أن يقال، إلا أن بعضهم نقل أنه لم يكن الذباب يعلق عليه، وأن القمل لا يؤذى بدنه تعظيمًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، وتكريمًا كما سيأتى بيانه قبيل فصل قد آتيناك أكرمك الله، فقيل: المراد بنفى أذيته نفيه لأنه من لوازمه، وقيل: إنه كان فيه، ولكن لا يؤذيه، والأول مناف لحديث المتن ولما روى أن أم حرام كانت تفلى رأسه، واللفظ شاهد لخلافه، نعم نفى أذاه مستلزم لنفيه، لأن أذيته بتغذيه من البدن، فإذا امتنع غذاؤه لم يعش، وحينئذ لم يكن فى وجوده إلا قذارته، والاحتياج لفليه، ولذا قيل: المراد بفليه تفتيشه لخرق فيه، أو تعلق شيء به شوك ونحوه، وكل ذلك للتشريع وإظهار التواضع، واحتمال أن يكون القمل جاءه من غيره، لكثرة مجالسته الفقراء كما سيأتى لا يأباه فلى أم حرام لرأسه كما قيل على أنه يحتمل أنها كانت تفحص عن هذا، وإن لم تجده.

(ويحلب شاته ويرقع ثوبه) بفتح الياء وسكون الراء المهملة وفتح القاف المخففة ويجوز الضم والتشديد إلا أن الضبط بالأول مناسبة ما معه، ورقع الثوب أن يضع فيما انخرق منه رقعة من غيره، فيسده بها.

(ويخصف نعله) يخرزها به، وفى العمدة أنه تطبيق بعض جلود النعل على بعض، وهو فى قوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] استعارة من هذا، وأصل معنى الخصف الضم والجمع.

(ويقم البيت) أى يكنسه ويزيل قمامته من قم يقم بضم القاف إذا كنس، **(ويعقل**

البعير) أى يربطه من رجله بالعقال، ويعقل بوزن يضرب.

(ويعلف ناضحه) بنون وضاد معجمة وحاء مهملة، وهو البعير الذى يستقى عليه من النضح.

(ويخدم نفسه) أى يفعل ذلك كثيرًا لا دائمًا مع كثرة عبيده وخدمه، وتشوق الناس لخدمته صلى الله تعالى عليه وسلم، لكنه يحب فعل ذلك بنفسه تواضعًا وتشريعًا.

(ويأكل مع الخادم) الخادم متعاطى الخدمة ذكرًا كان أو أنثى حرًا أو عبدًا، وأكل الإنسان مع خادمه سنة. قال القاضى زكريا فى شرح الروض: إن السنة أن يجلس خادمه للأكل معه، ويلبسه من لباسه، فإن أبى فليناوله مما يأكله، ومن الغريب ما نقل عن الشافعى أنه واجب للأمر به فى الحديث، وفيه نظر.

(ويعجن معها) الضمير للخادم؛ لأنه يطلق على الأنثى كما مر، والعجين من عمل النساء **(ويحمل بضاعته)** بكسر الموحدة، وهى ما يشتريه **(من السوق)** وفيه دلالة على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل السوق قالوا: وهو عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وكذا كان دأب الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، ولا ينافيه: «أحب البقاع إلى الله تعالى المساجد، وأبغضها إليه الأسواق»[(١)]، لأن المراد بغض ما فيها أو النهى عن الجلوس فيها من غير حاجة.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، خادم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه البخارى تعليقًا، ووصله ابن ماجه: **(إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة)** بكسر همزة إن المخففة من الثقيلة كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهى مهملة أو اسمها ضمير شأن مقدر **(لتأخذ بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فتنطلق به حيث شاءت)** أى تمسك يده الشريفة، وتذهب به إلى أى محل تريده لأجل حاجتها **(حتى يقضى حاجتها)**، وليس فيه إفراط فى التواضع المذموم، لأن قضاء حاجة المسلمين أمر محمود.

(ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة) بكسر فسكون لخوفه من مهابته إذ كان لم يره قبلها، وأعاد هذا الحديث لما فيه من الزيادة، والرعدة أن يرجف ويضطرب، **(فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: هون عليك)** أمر من التهوين أى عد ما رأيته أمرًا هينا غير صعب تخشى منه أى لاتخف ولا تفزع، **(فإنى لست بملك)** من الملوك

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧١/٢٨٨).

الجبابرة الذين يخشى بوادرهم **(إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)**، وهو اللحم الذى يقطع ويجعل فى الشمس حتى ييبس، وكان عادة العرب أكله، وهكذا عادة فقرائهم، فكنى به عن عدم تكبره وتجبره وترفعه صلى الله تعالى عليه وسلم .

(وعن أبى هريرة) رضى الله تعالى عنه قال السيوطى: هذا الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف **(قال: دخلت السوق مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاشترى سراويل)** فى حواشى الشمنى ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، اشتراءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسراويل إلا أنهم قالوا: إنه لم يثبت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها، ولكنه اشتراها و لم يلبسها.

وقال ابن القيم فى الهدى: إنه لبسها، فقالوا: إنه سبق قلم، وقال السيوطى فى فتواه: قد رأيت الذى ذكره المصنف رحمه الله تعالى فى معجم الطبرانى الأوسط، ومسند أبى يعلى، وفيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها، ولفظه عن أبى هريرة أنه قال: دخلت يومًا السوق مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان فقال له: زن وأرجح[1]، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السراويل، فذهبت لأحمل عنه، فقال: صاحب الشىء أحق أن يحمله إلا أن يكون ضعيفًا، فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم. فقلت: يا رسول الله إنك لتلبس السراويل، قال: أجل فى السفر والحضر وبالليل والنهار، فإنى أمرت بالستر فلم أجد شيئًا أستر منه[2]. أخرجه من طريق ابن زياد الواسطى، وأخرجه أحمد وفى سنده ابن زياد، وهو وشيخه ضعيفان انتهى.

وأقول: انجبر ضعفه بمتابعته، ومنه يعلم أن تخطئة ابن القيم لا وجه لها، وكون الثمن أربعة دراهم هو المروى لا ما فى الإحياء من أنه بثلاثة، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم اشتراها و لم يلبسها بعيد جدًا، وقد لبسها عثمان رضى الله تعالى عنه، وهو محاصر أيضًا، والسراويل تذكر وتؤنث، ولم يعرف فيه الأصمعى إلا التأنيث، وجمعه سراويلات، وهى مصروفة فى النكرة عند سيبويه، فإن سمى بها رجل لم تصرف، وكذا إن صغرت بعد التسمية لأنها مؤنثة على أكثر من ثلاثة أحرف كعناق، فإن صغرت من غير علمية صرفت، وقال الجوهرى: من النحويين من لا يصرفه فى النكرة أيضًا؛ لأنه عده جمع سروالة وأنشد:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣٦، ٣٣٣٧)، والترمذى (١٣٠٥)، وابن ماجه (٢٢٢٠)، وأحمد (٣٥٢/٤)، والدارمى (٢٦٠/٢)، وابن حبان (١٤٤٠)، والحاكم (٣٠/٢، ١٩٢/٤).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١٢٢/٥).

عليـــــه مـــن اللـــؤم سروالـــة

وبقول ابن مقبل:

فتـــى فارسـى فـى سراويـل رامح

والعمل على الأول والثاني قوى انتهى، ومن ثـم رد قـول مـن قـال: إنـه ممنـوع مـن الصرف بالاتفاق، وقول المحدثين: إنه لم يصح أنه جمـع فـى الأصـل كحضـاجر للضبـع، فيعتبر فيه الجمعية الأصلية قال: ولذا اضطربوا فيه، فقيـل: إنـه أعجمـى معـرب سـروال حمل على موازنه فى العربية كمصابيح، وقيل: عربى جمع سروالة تقديرًا، وهـى لغـة فـى سراويل، ويقوى عجميته أنه لا نظير له فـى العربيـة، وعلـى هـذا اقتصر الجواليقـى فـى معرباته، إلا أنه قيل: إنه معرب شلوان بالمعجمة، والأشبه أنه معـرب سـراوين أى مـدلى الرأس، لأن سر معناه الرأس، واوين معناه مدلى.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم **(للوزان)** أى الذى يزن الدراهـم، وينقدهـا، وهـو الصيرفى: **(زن وأرجح)** أى زن لصاحب السراويل ثمنها، وزد عليه حتـى يـترجح المـيزان بزيادة الكفة التى فيها الدراهم، وبهذا استدل الإمام مالك على جواز هبة المجـهول وفيـه نظر، لأنـه منـه حسـن القضـاء، وكـلام أبـى حنيفـة رحمـه الله تعـالى فـى الهبـة المحضـة، والرجحان نزول كفة الميزان لزيادة ما فيها، **(وذكر القصة)** كما سمعتها آنفا.

(قال) أى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه راوى هذا الحديث: فقال الوزان: هذه كلمة ما سمعتها من أحد؛ فقال له أبو هريرة: كفى بك من الوهـن والجفـا فـى دينـك أنـك لا تعرف نبيك وطرح الميزان **(ووثب)** أى قـام بسرعـة **(إلى يـد النبـى صلـى الله تعـالى عليـه وسلم يقبلها)** أى قام ليقبل يده الشريفة لما رأى منـه، ولمعرفتـه أنـه رسـول الله صلـى الله تعالى عليه وسلم، **(فجذب)** أى نزع صلى الله تعالى عليه وسلم **(يده)** من يـده، **(وقـال: هذا)** أى تقبيل اليد أمر **(تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك إنما أنا رجل منكم)** معاشـر العرب، أو الناس، وهذا من تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لأنه علم أنه إنمـا قبـل يده لأمر دنيوى، وإلا فتقبيل يد الرجل لعلمه أو صلاحه أو شـرفه سـنة مسـتحبة، وقـد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يقبلون يده الشـريفة، ويـد الخلفـاء رضـى الله تعـالى عنهم، وقيل لبعض المشايخ: أتقبل يد المشايخ؟ فقال: إنهم رياحين الله فشموها بالتقبيل.

(ثم أخذ) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيـده الشـريفة **(السـراويل)** ليحملـها بنفسه، **(فذهبت لأحمله)** أى شرعت فى حملها عنه يقال: ذهب يفعل كـذا، وقـام يفعلـه إذا شرع فى الفعـل، ولذلـك عـدت مـن أفعـال المقاربـة، فليـس المـراد بالذهـاب معنـاه

المشهور، وضمير لأحمله للسروايل لأنه يجوز تذكيره وتأنيثه كما علم.

(فقال) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى هريرة: **(صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله)** بدل من شيئة أى أحق بحمله من غيره، وهذا من تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم، واقتدى به الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فكان الخلفاء منهم يحملون أمتعتهم فى السوق كما فصله الغزالى فى الإحياء .

* * *

(فصل وأما عدله ﷺ)

العدل مصدر معناه العدول عن الظلم والجور، ويكون بمعنى العادل فيستوى فيه الواحد المذكور وغيره، ويجمع على عدول، **(وأمانته)** فى كل شىء يحفظه قولاً كان أو فعلاً أو غير ذلك مما يجعل عنده، وكونه موثوقًا به فى أموال الناس وأحوالهم، **(وعفته)** فى نفسه بترك كل قبيح، وترك السؤال، والنزاهة عن كل شىء، **(وصدق لهجته)** اللهجة اللسان والكلام يقال لهج بكذا إذا ولع به ولايخفى تقارب معانى ما ذكر، ولذا جمعها فى فصل، فإن فى العدل عفة عن الظلم، وفى الصدق أمانة على ما سمع، وعفة عن الكذب، وهذا ظاهر لمن له بصيرة.

(فكان صلى الله تعالى عليه وسلم آمن الناس) آمن بمد الهمزة بمعنى أكثرهم وأشدهم أمانة.

(وأعدل الناس وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان) أى من ابتداء خلقته إلى نهايتها، وكان تامة بمعنى وجد **(اعترف له بذلك محادوه)** جمع محاد بتشديد الدال المهملة بمعنى المعادى، والمخالف له الذى فى حد وجانب عنه، ويكون بمعنى المحارب قال تعالى ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٦٣].

(وعداه) بكسر العين جمع عدو أو اسم جمع، وهو فى الصفات وقد تضم عينه، **(وكان يسمى قبل نبوته الأمين قال ابن إسحاق)** محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السير كما تقدم، وهذا حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والحاكم والطبرانى عن على، كرم الله وجهه.

(كان صلى الله تعالى عليه وسلم) فى ابتداء أمره قبل نبوته **(يسمى الأمين)** لأمانته وصدق قوله فى جميع أحواله **(بما جمع الله له من الأخلاق الصالحة)** أى بسبب ما جمعه الله له من الأخلاق الصالحة الذى ائتمنه الله إياها، أو الباء بمعنى مع أى مع ما جمعه الله له من الصالحات التى عرف بها عندهم.

(وقال تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] **أكثر المفسرين على أنه)** أى المطاع الأمين فى هذه الآية **(محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)**، وكثير منهم على أنه جبريل، عليه الصلاة والسلام، كما يشهد به سياق النظم، ولذا ارتضاه المحققون لكونه عليه الأكثر وفيه نظر.

(ولما اختلفت قريش وتحازبت) بالحاء المهملة والزاى المعجمة والباء الموحدة أى صارت أحزابًا وفرقًا لاختلاف آرائهم، ولو قيل: تحاربت بالراء المهملة لما فى السير أنهم تخالفوا حتى اعتدوا للقتال، ثم بدا لهم فتشاوروا صح، إلا أنه بعيد، والنسخ مضبوطة خطًا بخلافه. **(عند بناء الكعبة)** قال السهيلى: كان بناؤها خمس مرات:

الأولى: حين بناها شيث بن آدم.

والثانية: حين بناها إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، على القواعد الأولى.

والثالثة: حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام.

والرابعة: حين احترقت فى عهد ابن الزبير بنار طارت من أبى قبيس أو بشرر طار من مجمر امرأة أرادت أن تجمرها، فتعلق بأستارها وأحرقها، فتشاور من حضرها فى هدمها، فهابوه وقالوا: نصلح ما انهدم منها، فقال رضى الله تعالى عنه: لو احترق بيت أحدكم لم يرض له إلا بأكمل صلاح، ولا يكمل صلاحها إلا بهدمها، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر، فحركوا حجرًا منها فرأوا تحته نارًا أفزعتهم فأمرهم أن يقروا القواعد، وأن يبنوها من حيث انتهى الحفر، واستمرت على ذلك إلى أن قام عبد الملك بن مروان، فهدمها وبناها، فهذه المرة الخامسة، ولا منافاة بينه وبين ما فى التواريخ من أن الخامسة بناء الحجاج، لأنه كان بأمر عبد الملك، لأنه أميره، وكان أرسله لمحاربة ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما، وقيل غير ذلك، والكلام فيه مفصل فى تاريخ مكة.

(فيمن يضع الحجر) الأسود فى موضعه ويرفعه بيده؛ لما فى مباشرة ذلك من الشرف، والجار والمجرور متعلق باختلف.

(حكموا) بفتح الحاء وتشديد الكاف جواب لما أى ارتضوا بأن يكون الحاكم فى ذلك **(أول داخل عليهم؛ فإذا بالنبى ﷺ داخل)** إذا فجائية أى فاجأهم دخوله عليهم بغتة من غير طلب وميعاد منهم.

(وذلك قبل نبوته) صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن خمس وعشرين أو حين بلغ الحلم، ولا شك فى أن هذا كان قبل النبوة، والأول أصح.

(فقالوا : هذا محمد هذا الأمين قد رضينا به) حكمًا فى هذه القضية، فلما انتهى إليهم ذكروا له ذلك، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم: ائتوا بثوب وضعوا فيه الحجر، وارفعوه جملتكم من كل بيت رجل، فلما فعلوا وضعه صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة، ثم بنى عليه، فكان شرف الوضع له، وكان مع العباس رضى الله تعالى عنه ينقلان الحجارة، فقال له العباس: اجعل إزارك على رقبتك ليقيك ألم الحجارة، فلما فعل بدا منه ما لابد من ستره، فخر مغشيًا عليه وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: «إزارى»[1] فشد عليه إزاره، لأنه نودى: يا محمد غط عورتك، فلم تر له عورة، بعده ولا قبله، وروى أنه وقع له مثله وهو يلعب صغيرًا.

(وعن الربيع بن خثيم) رضى الله تعالى عنه بضم الخاء المعجمة وفتح المثلثة وسكون الياء المثناة التحتية والميم، وهو الربيع بن خثيم بن عابد بن عبد الله بن موهب أبو يزيد الثورى ينسب إلى ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وينسب إليه سفيان وغيره، والربيع يروى عن ابن مسعود وأبى أيوب، وروى عنه خلق كثير، وكان ثقة عابدًا، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة سبع وستين.

(كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجاهلية)، وفسر الجاهلية بقوله: **(قبل الإسلام)**؛ لأنها تطلق بهذا المعنى فى الأكثر، وهذا شاهد لعدله صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد قبل بعثته، وتطلق الجاهلية كما فى النهاية على صفاتهم، وإن كانت فى الإسلام كقوله فى الحديث: «إن فيك جاهلية»، وحقيقتها الأول، وهذا معنى مجازى اللهم إلا أن يراد بها المعنى اللغوى، وهو النسبة إلى الجهل مطلقًا فتكون حقيقة، وإلى هذا نظر ابن حجر فى شرح البخارى، ويتحاكم بضم المثناة مجهول أى يتحاكم إليه قريش أو العرب، وقول الربيع هذا رواه ابن مسعود، وله حكم الرفع، وتحاكمهم إليه صلى الله تعالى عليه وسلم يدل على عدله وإنصافه.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى لأمين فى السماء وأمين فى الأرض) يعنى أنه مشهور بذلك بين الملأ الأعلى وبين أهل الأرض، لأنه لم يتهم قط بكذب وجد فى أحكامه، وهذا الحديث رواه ابن أبى شيبة فى مسنده عن أبى رافع، وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه مؤكدًا بالقسم، وأعاد أمينًا لاختلاف الأمانتين.

(حدثنا) ابن سكرة **(أبو على الصدفى الحافظ بقراءتى عليه)**، وقد تقدمت ترجمته وحكمه قال: **(حدثنا أبو الفضل بن خيرون)** تقدم أنه أحمد بن الحسن بن أحمد بن

---

(١) أخرجه البخارى (٥١/٥)، وأحمد (٢٩٥/٣، ٣٨٠)، وعبد الرزاق (١١٠٣)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣١٤/١)، وفى السنن الكبرى (٢٢٧/٢).

خيرون الحافظ، وخيرون ممنوع من الصرف قال: **(حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة)** تقدمت ترجمته قال: **(حدثنا أبو على السنجى)** تقدم ضبطه وترجمته قال: **(حدثنا أبو محمد المروزى)** محمد بن أحمد بن محبوب راوى جامع الترمذى كما تقدم قال: **(حدثنا أبو عيسى الحافظ)** هو الإمام الترمذى كما تقدم قال: **(حدثنا أبو كريب)** بضم الكاف وفتح الراء المهملة وياء تصغير وباء موحدة، وهو الإمام الحافظ محمد بن العلاء الهمدانى، أخرج له الستة، ووثقه النسائى وغيره، توفى سنة ثمان وأربعين ومائتين قال: **(حدثنا معاوية بن هشام)** القصار الكوفى الثقة، وقال ابن معين: صالح، وليس بذلك، توفى سنة خمس وعشرين ومائة.

(عن سفيان) الثورى فيما يظهر إلا أن المزى والذهبى لم يقيداه **(عن أبى إسحاق)** عمرو بن عبد الله الهمدانى السبيعى أحد الأعلام.

(عن ناجية) بنون وجيم **(بن كعب)** العنزى أو الأسدى الثقة، وتوقف ابن حبان فى توثيقه، وله ترجمة فى الميزان، وقال الذهبى فى المغنى: ما أدرى لماذا توقف ابن حبان انتهى.

(عن على) بن أبى طالب، كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه الترمذى كما ذكره المصنف، وانفرد بإخراجه من طريقين: أحدهما ما ذكره المصنف، والثانية عن إسحاق بن منصور عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى إسحاق عن ناجية قال: وهذا أصح، وكذا رواه عبد العزيز بن أبى عثمان.

(إن أبا جهل) بن هشام لعنه الله فرعون هذه الأمة **(قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله)** فيما قاله، وهو سبب نزول هذه الآية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، الآية ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وروى أبو ميسرة أنه ﷺ مر بأبى جهل وأصحابه، فقالوا: والله يا محمد ما نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكنا نكذب بما جئت به، فنزلت هذه الآية، وقرئ يكذبونك، مخففا ومشددا، فقيل: معناهما واحد لأنه يقال: كذبته وأكذبته كجزيته وأجزيته، واختار أبو عبيدة قراءة التخفيف، وهى مروية عن على كرم الله تعالى وجهه، وقيل: معنى يكذبونك بالتشديد ينسبونك إلى الكذب، ويردون ما قلته، ومعناه بالتخفيف يجدونك كاذبا كأبخلته إذا وجدته بخيلاً، والمعنى على التشديد لا يكذبونك بحجه وبرهان، وقيل: فى كلام المصنف إشارة إلى دفع التناقض فى الآية، فإنه قال أولا: إنهم لايكذبونه ثم أخبر أنهم يجحدون ما جاء به من الآيات، وجاحد كلامه مكذب له، ويجحدون مضمن معنى يكذبون، ولذا عداه بالباء، وهو متعد بنفسه ويدل على

أنهم كذبوه قوله بعده ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فليس المراد بقوله: **(لا يكذبونك)** نفى تكذيبه مطلقًا، فإما أن يقال فى دفع توهم التناقض أن معنى لا يكذبونك بالتشديد لا يحكمون عليك بأن سجيتك الكذب؛ لأنك موصوف بالصدق عندهم فى جميع شئونك ما عدا قولك الذى جئت به من عند الله، وهو الآيات، فإنهم يجحدونه، وهذا مراد المصنف فى استشهاده بهذه الآية أو يقال: المراد أنهم لا يكذبونك فى الحقيقة ونفس الأمر، وفى نفوسهم إذا خلوا، ولكنهم يظهروا التكذيب حسدًا وبغيًا، أو أنهم لا يكذبونك إذا أمعنوا النظر وتدبروا، ولكنهم عموا عن نور الهداية انتهى، وفى الآية كلام فصلناه فى حواشى القاضى البيضاوى.

(وروى غيره) أى روى غير الترمذى، أو الصدفى فى الحديث زيادة الثقة مقبولة: **(لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب)** أى معروف بالكذب فى غير هذا، **(وقيل: إن الأخنس بن شريق)** بن ثعلبة الثقفى الصحابى، واسمه أبى، وهو بهمزة وخاء معجمة ونون وسين بزنة أفعل التفضيل، وشريق بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وقاف على وزن فعيل، وهو قديم الوفاة كذا قاله البرهان الحلبى، وقال التلمسانى: إنه حليف قريش قتل يوم بدر كافرًا يعنى به شريقًا لا الأخنس، وهذا الحديث رواه أبو إسحاق والبيهقى عن الزهرى، وأخرجه ابن جرير عن السدى **(لقى أبا جهل يوم بدر)**، وكان يوم الجمعة سنة اثنتين من الهجرة فى تاسع عشر رمضان.

(فقال له: يا أبا الحكم) بفتحتين، وهذه كنيته القديمة، ثم غلب عليه كنيته بأبى جهل **(ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا تخبرنى عن محمد)** جملة خبرية، والمراد أخبرنى عنه **(صادق أم كاذب؟)** يعنى أصادق، فحذفت الهمزة تخفيفًا، والاستفهام تحقيقى أو تقديرى.

(فقال أبو جهل : والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط) هذا يدل على أنهم لا يعتقدون كذبه.

(وسأل هرقل عنه) هرقل بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف، ويقال: بإسكان الراء بين كسرتين كما سيأتى، وهو علم غير منصرف. قال البرهان: هلك على كفره، وفى الاستيعاب أنه صحابى، قيل: وهو مأول **(أبا سفيان)** صخر بن حرب بن أمية القرشى الأموى، أسلم يوم الفتح، فكان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وكان رئيس قريش وأكثرهم مالا، وتوفى سنة أربع وثلاثين وسنه ثمان وثمانون فى المدينة، وقصة أبى سفيان مع هرقل مشهورة مروية فى الصحيحين مفصلة فى أول باب فى البخارى، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كاتبه فى سنة ست، فلقيه رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم بحمص، فلما قرأ الكتاب أمر مناديًا ألا إن قيصر قد أسلم، واتبع محمدًا وترك النصرانية فهاج جنده وتسلحوا فأمر مناديًا ثانيًا ألا إن قيصر راض بدينه، وهو راض عنكم، ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مغلوب على مملكتى، وكتب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مسلم وبعث له دنانير، فقال: كذب عدو الله؛ لأنه علم أنه ليس قوله عن صميم قلبه، ولو سلم فنداؤه بأنه راض بدينه ردة، فلذا قالوا: إن القول بإسلامه بناء على ظاهر قوله واه. كيف وقد قاتل المسلمين يوم مؤتة، وواعدهم أن يأتيهم فى العام المقبل؟، ونزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأجله إلى تبوك، فلم يجئ وأخذت منه البلاد، وهلك سنة عشرين بالقسطنطينية على نصرانيته.

وقوله (فقال) أى هرقل لأبى سفيان **(هل كنتم تتهمونه بالكذب؟)** أى هل وقع فى قلوبكم أنه صدر منه كذب فى أقواله؟ قال فى الأساس: وهمت الشىء أهمه وهما وتوهمته وقع فى خلدى، وشىء موهوم ومتوهم انتهى، وإنما سألهم عن توهم الكذب، ولم يقل: هل علمتم وتحققتم؛ لأنه يعلم من انتفاء التوهم انتفاء غيره بالطريق الأول **(قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا)** فقال هرقل: قد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله وإنما لم يقل: إنه يكذب لئلا يأثر الناس عليه الكذب، وهو عار عند العرب، أو يقول ما لا يقبل منه، ثم قال أبو سفيان: ألا أخبرك عنه خبرا كذب فيه؟ قال: ما هو؟ قال: إنه زعم أنه خرج فى ليلة من الحرام إلى مسجد إيلياء، ثم رجع فيها قبل الصباح، وكان عنده بطريق إيلياء فقال: صدق وإنى كنت لا أنام حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت أبوابه غير باب منها غلبنى، فاستعنت بمن حضرنى، فلم يمكنهم تحريكه، وقالوا إنه سقط عليه البناء، فلما أصبحت غدوت عليه، فإذا الحجر الذى فى زاويته منقوب فيه أثر ربط دابة، فقلت: ما جبس هذا الباب الليلة إلا على نبى قد صلى فى مسجدنا. فقال قيصر: يا معشر الروم ألم تعلموا أن بعد عيسى عليه الصلاة والسلام نبيًا بشركم به، وكنا نرجو أن يكون فينا، فجعله الله تعالى فى غيرنا، وهو رحمة الله يضعها حيث شاء، ولم يعتدوا بتصديقه هذا حتى يكون يومنا لتلبسه بما يخالفه قولاً وفعلاً.

قلت: وبهذا علم أن مربط البراق بالمسجد الأقصى صحيح، وسأل أبا سفيان عنه ﷺ أسئلة أخرى مذكورة فى أول البخارى.

(وقال النضر) بنون مفتوحة وضاد معجمة ساكنة وراء مهملة **(بن الحارث لقريش)**، فى حديث رواه ابن إسحاق والبيهقى عن ابن عباس، والنضر بن الحارث بن علقمة بن

كلدة بفتح الكاف ابن عبد مناف القرشى، وكان شديد الأذية للمسلمين، فظفر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببدر، فقتله كافرًا صبرًا كما يأتى، فرثته أخته قتيلة بأبيات مشهورة أولها[١]:

ياراكبا إن الأثيل مطية   من صح خامسة وأنت موفق

إلخ، وقيل: إنها مصنوعة، وقتيلة بالمثناة الفوقية مصغرة اختلف فى إسلامها وكونها صحابية.

(قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا) بفتحتين قال الجوهرى: حدث شاب فإن ذكرت السن قلت: حديث السن من الحدوث، لقرب عهده بالوجود، والغلام الذى لم يلتح.

(أرضاكم فيكم) أى أكثركم رضا وصبرًا وأفعالاً مرضية، **(وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة)** منصوب هو وما قبله على التمييز، وهذه شهادة العدو، فما بالك بغيره؟ **(حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب)** الصدغ ما بين لحظ العين والأذن، والشعر الذى فيه من أعلى العذار، وجانب الرأس كثيرًا ما يبدو الشيب فيه قبل غيره، فكنى بذلك من أنه تمت رجوليته، وكمل عقله صلى الله تعالى عليه وسلم بمجاوزته سن الشباب، وهذا أشد فى الإنكار عليهم.

(وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر) أى قلتم: إنه ساحر بدليل قوله: **(لا والله ما هو بساحر)**، وهذا منه غاية فى الإنصاف، ولكن غلب عليه الشقاء، فقتل صبرًا بالصفراء كافرًا فى منصرفه صلى الله تعالى عليه وسلم من بدر كما ذكره الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

وهذا الحديث رواه ابن إسحاق والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، والذى قال: إنه ساحر الوليد بن المغيرة، وسبب قول النضر المذكور أن أبا جهل لما أراد أن يرضخ رأس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحجر، فتمثل له جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة فحل، ففر هاربًا، وييبست يده على الحجر كما سيأتى، فلما سمع ذلك النضر قال: يا معشر قريش، والله قد نزل فيكم أمر ما أتيتم فيه بحيلة بعد، قد كان فيكم محمد إلى قوله ما هو بساحر، وقد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم، وقلتم: إنه كاهن والله ما هو بكاهن، وقد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون فما هو بخنقة ولا تخليط ولا وسوسة، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله قد نزل

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى تاج العروس (أثل).

بكم أمر عظيم، والنضر بن الحارث كان من شياطين قريش؟، وهو الذى جاء بقصة رستم وإسفنديار، وكان يجلس يحدث بها، ويقول: ما جاء به محمد ليس بأحسن مما جئت به إن هو إلا أساطير الأولين فنزل فيه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] فى آيات أخر.

(وفى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها)، وهذا من عفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وسكت عن زوجاته، لأن جواز مسهن معلوم، وإنما يحرم مس الأجنبية التى ليست بمحرم، فيعلم ذلك من الرقيق بالطريق الأولى، وقيل: إنه داخل فى ملك الرق لتملكه البضع، وقد سمى بذلك فى قول أسماء رضى الله تعالى عنها التزويج رق المرأة، فلينظر أين يضع رقها؟، ولا ينافى هذا ما مر من أن الأمة من إماء المدينة كنت تأخذ بيده صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا تدع يده من يدها حتى يقضى حاجتها؛ لأنه كان بحائل من كمه أو كمها، وكلام عائشة رضى الله تعالى عنها هذا ورد فى مبايعته صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء، فإن بعضهم توهم أنها كمبايعة الرجال باليد من غير حائل، فقالت رضى الله تعالى عنها: إنما كان يقول لمن هاجر من المؤمنات ما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢] إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبايعهن على ذلك، فمن أقر به قال: قد بايعتك كلامًا من غير مس لأيديهن، وما ورد فى المبايعة من إمساك أيديهن، فإن كان مدًا من غير مصافحة فبها، وإلا فهو بحائل؛ لأنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى بثوب وضعه على يده، وقال: لا أصافح النساء[1]، وروى أنهن كن يأخذن بيده من فوق ثوب، وفى المغازى عن أبان بن صالح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى المبايعة يغمس يده فى ماء فى إناء، وتغمس من بايعته يدها فيه، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم بايع النساء بواسطة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وكلام عائشة، رضى الله تعالى عنها، يقتضى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يبايعهن إلا كلاما، فلعله تعدد.

(وفى حديث على رضى الله تعالى عنه فى وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم: أصدق الناس لهجة) رواه الترمذى فى شمائله، وتقدم بيانه لعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الكذب، ولو سهوًا لمنافاته للإبلاغ ووجوب تصديقه فى كل ما يقول كما سيأتى.

(وقال فى الصحيح) أى فى الحديث الصحيح، أو فى صحيح البخارى، لأنه حيث

(١) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٩٨٣١).

أطلق الصحيح انصرف إليه، وهذا أولى **(ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل)** وتقدم ضبطه على الخطاب والتكلم، والكلام عليه إلا أن الذى فى البخارى فى باب الأدب ويلك بدل ويحك، وقد فرق بينهما يقال: ويل كلمة زجر وتوبيخ، وويح كلمة ترحم، وويس ترحم دون ترحمها، وهو معنى قول الأصمعى: إنها تصغيرها، وقيل: أصل ويل وى زيدت فيها اللام، وقد تقدم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله لمن قال له: ليست قسمتك بعدل، وأنه اختلف فى اسمه، وأنه عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى، أو حرقوص بن زهير الخارجى، أو ذو الثدية، وقد مر الكلام فيه مفصلاً فتذكره.

(قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: ما خير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه) أعاد المصنف هذا الحديث، وقد تقدم بعينه، لما فيه من عدالته صلى الله تعالى عليه وسلم وعفته، فلا وجه للاعتراض عليه، والأمران من أمور الدنيا، والمخير إن كان الناس فلا إشكال فيه، وإن كان الله تعالى وهو الظاهر، فالمراد بالإثم ما يؤدى إلى وقوع أمته فيه، لأن الله تعالى لا يخيره صلى الله تعالى عليه وسلم بين إثم وغيره كاختياره الرزق الكفاف على فتح الكنوز له ولأمته، فإن الدنيا تشغلهم عن العبادة، وتوقعهم فى المهالك، وقد تقدم تفصيله.

(قال أبو العباس المبرد)، وهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر إمام العربية، وترجمته مشهورة فى التواريخ، وما نقله المصنف هنا عنه إنما ذكره ليعلم بذلك جلالة قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومباينة حاله لحال أهل الدنيا، وما هم عليه من اللهو، فلا يرد عليه ما قيل: إنه لا فائدة فيه: **(قسم كسرى أيامه)** بكسر الكاف وقد تفتح، وهو كما تقدم اسم لكل من ملك الفرس معرب خسرو، إلا أنه لقب كسرى أنو شروان الذى ولد فى زمنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه أشهرهم وأعظمهم.

(فقال: يصلح يوم الريح للنوم)، والتغطى حتى يسلم من مس الريح الشديد المصدع، **(ويوم الغيم للصيد)** الذى كان يتقيد به الملوك لعدم أذية الشمس وحرها، ويقال له يوم فاختى وسبيل، **(ويوم المطر للشرب واللهو)**؛ لقلة المصالح فيه، والسلامة من البلل، والنظافة من الوحول، والمراد باللهو سماع الغناء ومنادمة الندماء، **(ويوم الشمس للحوائج)**، وروى يوم الصحو أى خلو الجو من والمطر والغيم، والمراد بالحوائج مصالح الناس، وهو جمع حاجة على خلاف القياس، أو جمع حائجة وأنكره بعض أهل اللغة، وقد رده الجواليقى بأنه ورد فى كلام الفصحاء كثيرًا، وفى الحديث: **(اطلبوا الحوائج**

عند حسان الوجوه) فلا وجه لإنكاره كما فصلناه فى شرح الدرة، وإنما اختير ذلك اليوم للحوائج، لعدم المانع فيه، وما اشتهر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ولدت فى زمن العادل كسرى»[١] قد قال الحافظ السخاوى والسمعانى: إنه لا أصل له، فهو موضوع، ولو صح لم يكن فى وصفه بالعادل بأس كما توهم، فإنه كان لا يجور على أحد من رعيته ولا يظلمهم فى حقوق الدنيا، فعدله بالنسبة لذلك لا ينافى كفره وظلمه لنفسه لجهله ومحبته للدنيا، وقيل: إنه وصف بذلك لشهرته به ادعاء منهم، لا أنه شهد له بالعدالة حقيقة، وذكر قصته توطئة لقوله: **(قال ابن خالويه)** بفتح اللام والواو وسكون المثناة التحتية، والمحدثون يضمون اللام مع سكون الواو وفتح الياء، وهو الحسين بن محمد بن خالويه النحوى الأديب الهمدانى، دخل بغداد ثم انتقل للشام، وصحب سيف الدولة لتأديب أولاده، وأخذ العربية عن أبى بكر بن الأنبارى والسيرافى، وتصدر للإفادة، وله تآليف جليلة وشعر حسن، ومات بحلب سنة سبعين وثلاثمائة.

(ما كان أعرفهم) أى الفرس الدال عليهم ذكر كسرى **(بسياسة دنياهم)** أى تدبير أمورها، لأن هذا معنى السياسة لغة قال[٢]:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

وقول ابن كمال فى رسالة التعريف إنه معرب خطأ كما تقدم **(يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)** يعنى أنهم عرفوا أمر شربهم وأكلهم وحركتهم، وتقيدوا بذلك، وغفلوا عن المعاد وما يليق به، وهذه مراده فيما اقتبسه كما قال الشاعر:

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن لكل مصيبة فى ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

ويقرب ما قاله المفسرون نقلا عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم يعلمون أمر معايشهم ودنياهم، متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يعرشون ويبنون.

(ولكن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، جزأ نهاره ثلاثة أجزاء) يعنى أنهم قسموا

---

(١) انظر: الدرر المنتثرة (١٧٠)، وتذكرة الموضوعات (٨٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لحرقة بنت النعمان فى الجنى الدانى (٣٧٦)، خزانة الأدب (٧/٥٩، ٦٠، ٦٨، ٧٠)، الدرر (٣١/١١٩)، شرح ديوان الحماسة (ص١٢٠٣)، شرح شواهد المغنى (ص٧٢٣)، لسان العرب (٩/٣٣٣).

أيامهم لما ذكر، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قسم أوقاته، وهو أكثر حزما لعدم ضياع جزء ووقت من عمره فيما لا يعنيه، وشتان بين القسمين والمقسمين، وفى نسخة لكن بدون واو.

(وجزءًا لله) أى لعبادة الله وتلقى وحيه.

(وجزءًا لأهله) أى لمصالح أهله وبيته.

(وجزءًا لنفسه) مخصوصًا بأكله وشربه ونحو ذلك من أموره الدنيوية.

وجزءًا فى المواضع الثلاثة يجوز نصبه ورفعه، وكذا روى **(ثم جزءًا جزءه بينه وبين الناس)** أى جعله قسمين قسمًا لخاصة نفسه، وقسم الخاص به قسم له فى نفسه، وقسم ينظر فيه أمور الناس وحوائجهم.

(فكان) صلى الله تعالى عليه وسلم **(يستعين بالخاصة)** من أصحابه، وهم خلفاؤه ووزراؤه رضى الله تعالى عنهم، ومن يقرب منهم **(على العامة)** من المسلمين، **(ويقول)** للخاصة **(أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى)** أى أخبرونى، وقولوا لى ما يطلبه العوام ممن لا يقدر أن يبلغنى حاجته، إما لعدم الجراءة على كلامه لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لعجزه عن الوصول إلىّ، ثم رغب فى ذلك بقوله: **(فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر)** وهو يوم البعث والحشر، وحيث يكون الناس كلهم فى فزع أى خوف من العذاب، وقيل: هو يوم النفخة أو يوم الانصراف إلى النار، وهذا من حديث هند بن أبى هالة، وآمنه بالمد بمعنى جعله فى أمن من أهوال القيامة.

(وعن الحسن) بن على، رضى الله تعالى عنهما، كما رواه أبو داود فى مراسيله **(كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يأخذ أحدًا بقرف أحد)** الأخذ مجاز عن العقوبة من أخذ السلطان إذا حبسه، وجازاه على ما صدر منه، والقرف بفتح القاف وسكون الراء المهملة والفاء التهمة، وإسناد الذنب لغيره، وقال البرهان الحلبى: يقال : قرفت الرجل أي عبته واتهمته فهو مقروف، وفى نسخة بقذف بذال معجمة بدل الراء وكتب عليها صح.

(لا يصدق أحدًا على أحد) أى لا يحكم بصدق مقالة صدرت من أحد فى حق أحد غيره بإسناده إليه أمرًا يقتضى عقوبة، أو حقًا من الحقوق بمجرد قوله من غير إثبات لمقاله، وهذا من عدله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن هذا ليس على عمومه، فإنه ربما كان المخبر ممن يعلم صدقه، ويعتمد على خبره، وينكشف بنور النبوة جلية الحال له.

(وذكر أبو جعفر الطبرى) هو الإمام محمد بن جرير الطبرى المشهور، وقد تقدمت

ترجمته، وهذا الحديث رواه البزار إلى قوله برسالته الآتى **(عن على)** كرم الله وجهه **(عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: ما هممت بشىء)**، وقد تقدم هذا الحديث، والكلام فيه، وإنما أعاده المصنف لغرض آخر، وهو بيان عفته صلى الله تعالى عليه وسلم عن اللهو، وأن الله عصمه عن ذلك من أول أمره، وقيل: إنما أعاده لزيادة فيه لم تذكر أولا، وهى قوله غير مرتين إلى آخره **(مما كان أهل الجاهلية يعملون به)** كما تقدم بيانه **(غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك)** استعار الحائل الحاجز بين شىء وشىء للمانع كما فى قوله تعالى : ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال أبو عبيد: أى يملك عليه قلبه، فيصرفه كيف يشاء، وذلك الثانى إشارة لما كان عليه أهل الجاهلية، والمعنى أنه عصمه صلى الله تعالى عليه وسلم عنه، **(ثم ما هممت بسوء)** أى صرف الله قلبى عن أن يهم بسوء أى بقبيح شرعًا كاللهو **(حتى أكرمنى الله برسالته)** أى حتى مَنَّ الله علىَّ بالبعثة، وجعلنى نبيًا رسولاً، ثم بين ما هم به فى المرتين، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(قلت لغلام كان يرعى معى)** يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرعى غنمًا لبعض قريش فى صغره، وهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرعون لغيرهم أيضًا، والغلام كان أجيرًا أيضًا يرعى معه، ويرافقة فى البادية، وفى هذا تحصيل كسب حلال، وتدريب لرعاية الخلق كما ورد: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] مع ما فيه من الأنس بالوحدة والخلوة، وفى الحديث: «ما من نبى إلا رعى الغنم»[2]. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط بمكة»[3]، وقيل: حكمته أن الغنم جاهلة صعبة السياسة، فكان ذلك ليأنس بسياسة الخلق، والقراريط جمع قيراط، وهو سدس درهم، وقيل: إنه اسم جبل بمكة، وأنكروه لأنه لم يسمع به ثمة، وفى الحديث: «ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا» الحديث، والقيراط فيه: قيل: إنه بهذا المعنى، وقيل: إنه نصاب بينهم، وقيل غير ذلك، وعندى أنه بمعنى مقدار الأرض المعروف بينهم فى الساحة، لأنه مخصوص بها، وأما غيره فلا اختصاص له بها، وفى هذا معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالغيب، وقوله: **(لو أبصرت لى غنمى)**، أى لو حرستها وحفظتها؛ لأن البصر والنظر يستعار لذلك، **(حتى أدخل مكة، فأسمر بها)** سمر يسمر كقتل يقتل، والسمر التحدث بالليل،

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦، ٣/١٩٦، ٤/٦، ٧)، وأحمد (٣/٥، ٥٤، ١١١، ١٢١)، والترمذى (١٧٠٥)، والبيهقى (٦/٢٨٧، ٧/ ٢٩١، ٨/١٦٠).

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١/٩١)، وابن سعد (١/١/٧٩).

(٣) أخرجه البخارى (٣/١١٦).

وأصل معناه: ضوء القمر من السمرة، وهى السواد القليل، فسمى به حديثهم ليلا لجلوسهم له فيه قال:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

(**كما يسمر الشباب**)، والشباب بفتح الشين مصدر شب، بمعنى صار شابا، واسم جمع له كالعقود، والشاب حديث السن كالفتى.

(**فخرجت**) من البادية التى فيها الغنم، (**لذلك حتى جئت أول دار من مكة**) غاية لمجيئه من المرعى، (**سمعت فيها عزفًا**) بعين مهملة وزاى معجمة وفاء بزنة ضرب، وهو ما يلهى به الإنسان، وفى مختصر العين: العزف اللعب بالمعازف، وهى الملاهى وواحدها عزف على خلاف القياس أو معزف، والمعزف الطنبور أو الدف، وقيل: كل لعب عزف.

(**بالدفوف**) جمع دف بضم أوله وفتحه وتشديد الفاء، وهو الذى يضرب به النساء، وهو معروف، ويسمى عند العامة دراجًا وطارا، وفيه شبه الجلاجل قال:

كأن فى الدف الذى يفصله زمار دف يتغنى جلجله

واختلف فيه فجوزه بعض الشافعية، وكرهه مالك.

(**والزمامير لعرس بعضهم، فجلست أنظر**) ما يلعبون به والذين يلعبون، (**فضرب على أذنى فنمت**) بكسر النون وأذن بضمتين وضم فسكون تخفيفًا، وضرب الله على أذنه أن يغشاه النوم، وأصله منع السمع؛ لأن من نام لا يسمع، وهو مستعار من ضرب الخيمة العظيمة المغطية لمن تحتها، فكأن آذانهم تحت غطاء محجوبة عن السمع قال الراغب: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] التحفتهم التحاف الخيمة لمن ضربت عليه، ومنه استعير ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١١]، وفيه لطف هنا؛ لأنه ذهب ليسمع ضرب الدف، فضرب على أذنه صيانة من الله له ﷺ، (**فما أيقظنى إلا مس الشمس**)، أى مس حرها، فكأنها مسته حتى حرقته وحبسته حتى نبهته، ففيه استعارة ولطف كما فى قول ابن المعتز:

والريح تجذب أطراف الغصون كما أفضى الشفيق إلى تنبيه وسنان

وكما قيل:

نمت تحت أذيال النسيم حتى ألقت علىَّ الشمس رداءها

(**فرجعت**) من المكان الذى ضرب فيه الدفوف، (**ولم أقض شيئًا**) من قضى وطره إذا كان ما يريده يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، جلس قبل تعاطيهم اللهو، فغلبه النوم حتى لم يسمع شيئًا من ذلك؛ لعصمة الله له صلى الله تعالى عليه وسلم، ومجرد همه

بذلك، وإرادته لا حرج فيه، والفاء شاهدة بعدم سماعه على أنه لم يكن حرم عليه شىء من ذلك، وكونه محرمًا فى شرع من قبلنا، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، متشرع به غير مسلم.

واعلم أن المعازف حرام فى ملتنا للنهى عنها فى الأحاديث المشهورة كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخمر والمعازف»، واختلف فى بعضها، فمنهم من جوز الدف فى العرس، ومنهم من جوز ضرب العود لتسلية الأحزان كالماوردى، وكان الأستاذ الشيخ محمد البكرى، رحمه الله تعالى ونفعنا به، يقول: عطروا مجلسنا بالعود الماوردى، لكنه قول ضعيف، وفى منظومة الدميرى، رحمه الله تعالى:

ونغمات العود فى الأحيان قالوا تزيل أثر الأحزان
فاجزم على التحريم أى جزم والحزم أن لا تتبع ابن حزم
فقد أبيحت عنده الأوتار والعود والطنبور والمزمار

(ثم عرانى)، أى طرأ علىّ وعرض لى وغشينى **(مرة أخرى)** فى وقت آخر **(مثل ذلك)** من الهم بالسماع والذهاب له، **(ثم لم أهم)** قال الشمنى: هو بضم الهاء وعليه اقتصر الجوهرى، رحمه الله تعالى **(بعد ذلك بسوء)** أى بما فيه إثم، فسماه سوءًا؛ لأنه يكرهه ويؤلمه.

* * *

(فصل وأما وقاره ﷺ)

أى سكوته وطمأنينته ورزانته يقال: وقر يقر وقرًا ووقارًا، وفسروه هنا بالحلم، وهو غير مناسب هنا كما لا يخفى، ويجىء الوقار بمعنى العظمة كما فى قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وأصله من الوقر وهو من الثقل، **(وصمته)** أى سكوته، وهو من الوقار، **(وتؤدته)** بضم التاء الفوقية وفتح الهمزة والدال المهملة وهى التأنى يقال: اتأد فى فعله إذا تأنى ولم يعجل، وتاؤه منقلبة عن واو **(وحسن هديه)** بوزن ضربه بمعنى سيرته وطريقته وسمته وسلوكه.

(فحدثنا أبو على الجيانى) بالجيم وتقدم ضبطه وترجمته **(الحافظ إجازة)** قال ابن فارس فى مجمله: وهى من جواز الماء الذى تسقاه الماشية. يقال منه: استجزت فلانًا فأجازنى إذا سقاك الماء لأرضك وماشيتك، قال القطامى: وقالوا: فلان قيم الماء فاستجز عبادة أن المستجيز على قتر أى على ناحية، وجزت الموضع سرت فيه، وأجزته حلقته وقطعته،

وأجزته بعدته، قال امرئ القيس:

ولما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى قفار عقنقل

وقوله: حتى يقال: أجيزوا آل صو، فإنما يمدحهم بأنهم مجيزون الحاج، انتهى.

قال ابن الصلاح: قلت: فللمجيز على هذا أن يقول: أجزت فلانًا مسموعاتى أو مروياتى، فيعديه بغير حرف جر من غير حاجة إلى ذكر الرواية، أو نحو ذلك، ويحتاج إلى ذلك من يجعل الإجازة بمعنى التسويغ والإذن والإباحة، وذلك هو المعروف، فيقول: أجزت لفلان رواية مسموعاتى مثلاً، ومن يقول منهم: أجزت له مسموعاتى، فعلى سبيل الحذف الذى لا يخفى نظيره، انتهى.

أقول: اعلم أن أصل الإجازة فى كلام العرب قديمًا كما ذكره أهل اللغة الإذن فى الانصراف، ولما كان من يأخذ عن شيخه ينصرف عنه أخذت منه كما يقتضيه الاستعمال، وكلام أهل اللغة قاطبة؛ لأنها من جاز المكان إذا تجاوزه ومر عليه، ثم عدى بالهمزة للمفعول الثانى، وقد يقتصر على أحد مفعوليه؛ لأنه من باب كسا، ومعنى أجازه أذن له الجواز والمرور، ثم استعمل فى مطلق الإذن، وشاع حتى صار حقيقة فيه، فمعنى إجازة الشيخ إذنه فى الرواية عنه، وهذه لفظة قديمة كما سمعته، وكذا الجائزة بمعنى العطية ليست محدثة كما قاله الحافظ ابن حجر، رحمه الله، إلا أنه يحتمل أنها من هذا؛ لأن المعطى كأنه يأذن لمن أعطاه فى الانصراف عنه، ولا تختص بالماء كما يوهمه كلام المجمل المتقدم، وهو الذى غزا ابن الصلاح، فقوله: مأخوذة من جواز الماء لا وجه له، بل من أجازه إذا جعله جائزًا، ثم نقل لمعنى أذن له، وكذا قوله: وقد تبين أنه يتجوز به عن معنى لفظ آخر، وبينهما مخالفة فى التعدية، فنجوز حمله على حقيقته وعلى مجازه، فلك حينئذ أن تعديه لمفعولين، ولك أن تعديه لواحد بحرف، وبدونه، فيعمل عمل أذن وأجاز من غير تكلف.

(وعارضت بكتابه)، أى قابلت نسختى بنسخته حال القراءة؛ لأنه يقال: عارضه إذا قابله، والكلام على هذا مبين فى مصطلح الحديث، فالمعنى أنه حدثه به قراءة منه، وهو مقابل له وفى يده كتابه.

(قال: حدثنا أبو العباس الدلائى) بكسر الدال المهملة مشددة وتخفيف اللام المفتوحة، ثم ألف ممدودة وياء مشددة إلى دلاء جمع دلو، وقال البرهان الحلبى: إن لامه مشددة، ووجد فى بعض النسخ مضموم الهمزة، والظاهر أنها مكسورة بعدها ياء نسبة، انتهى، والظاهر أنه مفتوح الدال وهو صانع الدلو، وهو أبو العباس أحمد بن أنس العذرى

المعروف بابن الدلاء من مدينة بالنسبة قال: **(أخبرنا أبو ذر الهروى)** تقدمت ترجمته، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد الهروى قال: **(أخبرنا أبو عبد الله الوراق)** أبو الحسن عبد الله محمد بن على الأنطاكى المعروف بابن الغيور الوراق قال: **(حدثنا اللؤلؤى)** أبو على محمد بن أحمد بن عمرو والمشهور برواية السنن عن أبى داود قال: **(حدثنا أبو داود)** سليمان بن أشعث صاحب السنن الإمام الحافظ المشهور قال: **(حدثنا عبد الرحمن ابن سلام)** بفتح السين المهملة وتشديد اللام، وهو جد عبد الرحمن نسب إليه، وأبوه محمد بن سلام البغدادى الثقة، روى عنه أبو داود والنسائى وقال: لا بأس به قال: **(حدثنا حجاج بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى الزناد)** هو الأعور المصيصى الحافظ الثقة، أخرج له أصحاب السنن الأربعة، قال ابن حزم: توفى سنة أربع وستين ومائة.

(عن عمر بن عبد العزيز بن وهيب)، ويقال: أهيب بالهمزة وهو بدل قياسى، وهو أنصارى مولى لزيد بن ثابت، وهو يروى عن خارجة، وأخرج له أبو داود فى المراسيل هذا الحديث، وقال الذهبى: لا يعرف من هذا كما فى الميزان **(سمعت خارجة بن زيد)** هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى المدنى التابعى، أحد فقهاء المدينة السبعة، وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وفى السابع أقوال: فقيل: هو سالم ابن عبد الله بن عمر، رضى الله تعالى عنهم، وقيل: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وقيل: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ثم إن الفقهاء بالمدينة، وإن كانوا كثيرًا، فإنما خص هؤلاء لإجماع الناس على رأيهم وانتهائهم لفتواهم؛ لمعرفتهم بالفضل والصلاح حتى كان لا يقضى فى أمر حتى يرفع إليهم، وكان الناس يتبركون بهم حتى قيل: إن أسماءهم إذا علقت على محموم برئ، وإذا وضعت فى البر لم يدخله سوس ولم يفسد، وقد نظمهم القائل فى قوله:

ألا كل من لا يقتدى بأئمة   فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم   سعيد أبو بكر سليمان خارجه

وهذا الحديث من مراسيل أبى داود.

(يقول: كان النبى ﷺ أوقر الناس فى مجلسه)، أى أعظمهم وقارا إذا برز للناس وجلس معهم، بخلاف ما إذا خلا مع أهله أو مع خاصته، فإنه ينبسط معهم ويلاطفهم يعنى أن هذا كان عادته ودأبه ﷺ، بحيث لا يصدر عنه خلافه، وكان وإن كانت بحسب الأصل فعلا ماضيًا لكنها قد تستعمل للاستمرار نحو ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وللتكرار نحو: **(كان حاتم يقرى الضيف)** لقرينة، وهو استعمال شائع،

ولكثرته عده بعض الأصوليين معنى لها، ولم يحققه أحد كابن جنى فى كتاب الخصائص، فإن أردته فانظره.

(لا يكاد يخرج شيء من أطرافه)، أى أطراف بدنه كرجليه، ولا يكاد يخرج فيه مبالغة، أى لا يخرج ولا يقرب من الخروج، ولذا عدل عن لا يخرج وهو أخصر، ويخرج بفتح أوله مضارع خرج يخرج كقتل يقتل، وشيء فاعله، أو بضمه مضارع أخرج وشيئًا مفعول إلا أن جل النسخ على الأول.

(وروى أبو سعيد الخدرى)، هو سعيد بن مالك بن سنان الخدرى، رضى الله تعالى عنه، وقد تقدم: **(كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا جلس فى المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم محتبيًا)**، وفى رواية بثوبه بدل بيديه، والاحتباء بالحاء المهملة أن يجمع ظهره وساقيه بيديه أو عمامته ونحوه، والحبوة بضم الحاء وكسرها، ويقال: حبية وحبية أيضًا، ويقال: الاحتباء حيطان العرب؛ لأنهم أهل برارى لا حيطان لهم يستندون إليها، فالاحتباء قائم مقامها، وليس هذا معارضًا لما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم «نهى عن الاحتباء فى ثوب واحد»(١)، إذ النهى فيه لم يرد عن الاحتباء، وإنما ورد عن كونه فى ثوب واحد؛ لأنه ربما تحرك فيزول الثوب وتنكشف عورته، وأما قوله:

وإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر

فاستعاره ونهى عن الاحتباء يوم الجمعة والخطيب يخطب؛ لأنه يؤدى إلى النوم، وهذا الحديث رواه أبو داود، والترمذى فى شمائله.

(وعن جابر بن سمرة، رضى الله عنه) رواه مسلم، وأبو داود **(أنه)** ﷺ **(تربع)**، أى جلس متربعًا، وهو أن يقعد الرجل على وركيه، ويمد ركبته اليمنى إلى جانب يمينه وقدمه اليمنى إلى جانب يساره، وركبته اليسرى إلى جانب يساره وقدمه اليسرى إلى جانب يمينه، وهذا فى خارج الصلاة كما فى الحديث: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صلى الفجر جلس متربعًا حتى تطلع الشمس»(٢)، وهو فى الصلاة كما صرح به الفقهاء، وأما خارجها فلا يكره، وقيل: إنه سنة، وقول بعض فقهائنا: إنها جلسة الجبابرة مع فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، لها فيه نظر.

(وربما جلس القرفصاء) بضم القاف والفاء ويجوز كسرهما ويمد ويقصر، وهو

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١١٣٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢/٧٠)، وأحمد (٦/٢٥٤)، وأبو داود (١٢٦٣)، والبيهقى (٣/٤٥).

جلوس على إليتيه كجلوس المحتبى بيديه من غير احتباء كما يدل عليه ما بعده، وقال الفراء: إذا ضممت مددت وإذا كسرت قصرت.

(وهو) أى جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم، القرفصاء ورد **(فى حديث قيلة)** بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام، وهى بنت مخرمة العنبرية كما فى المقتفى، وقال الشمنى: العدوية، وقيل: العنزية، وهو الصحيح، وفى حديثها أنها رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المسجد، وهو قاعد القرفصاء.

وفى رواية: فلما رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، المتخشع فى الجلسة أرعدت من الفرق، وليس هذا فى رواية الترمذى، ومسلم التى ذكرها المصنف، وفى كلامه إشارة إلى أنه زيادة عليها.

والمتخشع إن كان صفة فالرؤية بصرية، وإن كان مفعولاً ثانيًا فهى علمية، ورعدتها من مهابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا من تخشعه.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة) تدعوه للكلام، ولم يكن يسرد الحديث بعجلة ليفهم عنه، وهذا مروى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، **(يعرض عمن تكلم بغير جميل)** لا يرضاه فيعلم بإعراضه عنه أنه غير مرضى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا من وقاره أيضًا، وليس المراد به: أن يكون حرامًا كما قيل؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يقر على مثله.

(وكان ضحكه تبسما) بدون قهقهة لشدة وقاره صلى الله تعالى عليه وسلم، والضحك انبساط الوجه حتى يظهر منه السرور ويبدو الثنايا فقط، وأما ما ورد من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ضحك حتى بدت نواجذه فمحمول على المبالغة لزيادته فيه على ما عهد منه، أو هو نادر لا يعتد به.

(وكلامه فصلا) بفاء وصاد مهملة أى فاصل بين الحق والباطل، أو مفصل لتمهله فيه قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣، ١٤].

(لا فضول) مصدر أى لا زيادة فيه، وقيل: إنه فى الأصل جمع فضل بمعنى الزيادة، فخص بما ذكر، ولذا قيل فى النسبة له: فضولى وينسب للجمع.

(ولا تقصير) فيه حتى يخل بفهم السامع.

(وكان ضحك أصحابه عنده) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(التبسم توقيرًا له واقتداء به)**؛ لتخلقهم بأخلاقه وتأدبهم بآدابه.

(مجلسه مجلس حلم) بكسر الحاء وسكون اللام، وفى نسخة حكم بضمها مع

الكاف، **(وحياء)** منه ومن أصحابه، **(وخير)** لإحسانه ولطفه وتعليمه، **(وأمانة)** يأمن المتكلمون فيه على أسرارهم، فلا ينقل منه مالا يحبون إفشاءه، كما ورد فى الحديث: «المجالس بالأمانة».

(لا ترفع فيه)، أى فى مجلسه **(الأصوات)** لأدبهم وتوقيرهم له، وكان ذلك محرمًا عليهم لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وأما كونه وقع مثله بحضرته فى قصة الإفك فنادر لا يعتد به.

(ولا تؤبن فيه الحرم) بضم المثناة الفوقية وهمزة ساكنة وتبدل واو وتؤبن من أبنه يأبنه إذا عابه ورماه بقبيح، أصله الأبنة وجمعها أبن، وهى العقدة فى القسى تفسدها وتعاب بها، ووقع فى بعض الحواشى: تؤبر براء بدل النون، وفسره بما ذكر على أنه مأخوذ من المآبر التى واحدتها ميبرة، أو من أبرته العقرب إذا لدغته بإبرتها، وهى آخر عقد ذنبها، وهو تصحيف كأنه وجده فى بعض النسخ فاتبعه، والمذكور فى كتب اللغة كالنهاية والجوهرى وغيرهما هو الأول، وصرح ابن فارس فى المجمل بأن الحديث مروى هكذا، والحرم جمع حرمة، وهى كل ما يحرم هتكه، وأما استعماله بمعنى المرأة فعامية وإن كان لها وجه، وقيل: إنها صحيحة مراد به هنا النساء؛ لأنه ورد فى الحديث نهيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن شعر تؤبن فيه النساء، وفى حديث الإفك: **(أشيروا على فى أناس آبنوا أهلى)**، انتهى. يعنى أنه محفوظ من الرفث ولغو القول، فهو من وقاره أيضًا؛ لقوله: **(إذا تكلم أطرق جلساؤه)** أى طأطئوا رءوسهم توقيرًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، منصتين لكلامه **(كأنما على رءوسهم الطير)**، وصفهم بالسكون وعدم الخفة والطيش؛ لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شىء ساكن، ولك أن تقول: إنه شبههم بغصون مغروسة فى رياض مجلسه كما قال فى البردة:

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا ... من شدد الحزم لا من شدة الحزم

(وقلت فى المقصورة:)

كأنما الطير على رءوسهم ... من كل غصن فى ربا المجد نما

والطير جمع أو اسم جمع لطائر وهو معروف.

(وفى صفته ﷺ) فى مشيه، وهو خبر مقدم، وقوله: **(يخطو تكفأ)** مبتدأ؛ لأنه أريد به لفظه، فهو كقوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»[1]، أى قيل فى

---

(١) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء برقم (٤٤، ٤٥)، وأحمد (١٥٦/٥)، والطبرانى (٤٢١/١٩)، والعقيلى فى الضعفاء (٢٠٠/٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٣٤٩/٢)، وابن عدى (١٧١/١).

وصفه هذا، ويخطو مضارع خطا المعتل إذا مد رجله ومشى، والخطوة بالضم ما بين القدمين وبالفتح المرة، وتكفأ بفتح المثناة والكاف وفاء مضمومة مشددة بعدها همزة مصدر كتقدم تقدما، بمعنى مال إلى قدام، والأصل فيه الهمزة وبه روى، فإن اعتل كسرت الفاء وكان بالياء كتسمى تسميًا، وقال شمر: معناه مال يمينًا وشمالاً كمشى المختال، والصواب تفسيره بمال إلى جهة ممشاه كما يدل عليه قوله: كأنما ينحط من صبب أى من علو لا تمايل، فإنه غير مناسب.

وقد ورد فى حديث ابن أبى هالة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ذريع المشية إذا مشى مشى تقلعا، أى يرتفع عن الأرض بجملته، وروى قلعا بفتح القاف وكسر اللام وهو أدل على التثبت والشجاعة، وهكذا كان أولوا العزم عليهم الصلاة والسلام.

(ويمشى هونا) بفتح الهاء وسكون الواو أى برفق ولين من غير تمايل مع الترفق والتثبت، قال الله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال مجاهد: بالسكينة والوقار، **(كأنما ينحط من صبب)** بفتحتين أى ينزل من صبب، وهو الموضع المنحدر، وفى رواية: كأنما هو من صبوب بالضم والفتح، وهو ما يصب من ماء ونحوه، أى لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم، يستعجل، وأما قول أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كنا نجهد أنفسنا وهو غير مكترث، فإنما هو لسعة خطوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى لا يلحق مع تثبته وتمهله.

(وفى الحديث الآخر: إذا مشى مشى مجتمعا)، أى ينقل أعضاءه كلها دفعة واحدة من غير تحريك لرأسه الشريف وبدنه، فهو ﷺ فى مشيه قوى غير مسترخ **(يعرف فى مشيته)** بكسر الميم وفتحها، **(أنه غير غرض)** بفتح الغين المعجمة وكسر الراء المهملة والضاد المعجمة، أى غير قلق ولا ضجر ولا ملل، **(ولا وكل)** بفتحتين وهو البليد والجبان والعاجز الذى يكل أمره لغيره، وحكى شمر فيه كسر الكاف، كما قاله التلمسانى والدلجى، وهو أنسب هنا لموازنته لما قبله، وفسره بكسلان.

وقوله: **(أى غير ضجر ولا كسلان)** يعينه، فإن ظاهره أنه تفسير لما قبله على اللف والنشر المرتب، وضجر كحذر من الضجر وهو القلق، والكسلان من الكسل وهو الفتور وعدم النشاط من الغم، ويكون بمعنى سوء الخلق، ويكون غرض بمعنى سباق كقوله:

إنى ضجرت إلى تناصف وجهها   غرض المحب إلى الحبيب الغائب

وليس بمراد هنا.

(وقال عبد الله بن مسعود)، رضى الله تعالى عنه، رواه البخارى وأصحاب السنن: **(إن أحسن الهدى هدى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، والهدى بدال مهملة بوزن الرمى السمت والسيرة والطريقة، والحالة التى يكون عليها.

وهذا الحديث وإن كان موقوفًا على ابن مسعود، فله حكم المرفوع، وكذا سائر الأحاديث المتعلقة بالشمائل، فإن مثلها لا يقال من قبل الراوى، وقد روى مرفوعًا أيضًا، وكان ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أشبه الناس هديا بهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا عمر وابنه، رضى الله تعالى عنهما، فلذا كان الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، يتشبهون به فى هديهم.

وبقية الحديث: « وشر الأمور محدثاتها»، وهو حديث طويل، قال ابن قرقول: وروى بضم الهاء وفتح الدال ضد الضلال.

(وعن جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما)، أخرجه أبو داود والإمام أحمد فى الزهد: **(كان فى كلام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ترتيل أو ترسيل)** كذا فى النسخ بأو إشارة إلى أنه روى بكل منهما على حدة، وفى المصابيح بالواو لتقارب معناه، فالعطف تفسيرى، فلا منافاة بينهما كما قيل، أى يبين الكلام من غير عجلة وغموض حتى يسبق فهم السامع إليه، وقيل: الترتيل التبيين، والترسيل التؤدة، وللترتيل من قولهم: ثغر مرتل وهو المفلج كالأقحوان.

(قال ابن أبى هالة) المتقدم ترجمته: **(كان سكوته)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(على أربع)**، أى يقع على أربع خصال فيه **(على الحلم)**، أى يسكت تارة لحلمه على من تكلم عنده بما يقتضى المؤاخذة، **(والحذر)**، أى الاحتراس من كلام ربما أدى لأمر يخشى منه، **(والتقدير)**، أى يقدر صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه وسكوته ما يليق به وبغيره، **(والتفكر)** فى مصنوعات الله ونحو ذلك.

(قالت عائشة: رضى الله تعالى عنها،) كما رواه الشيخان عنها: **(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحدث حديثًا لو عده العاد أحصاه)**، أى لو أراد عده عده بسهولة، أو لو عده حصره بحيث لا يفوته منه شىء لقلته وتثبته وعدم سرعته فيه.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحب الطيب والرائحة الحسنة)، الطيب كل ما يتطيب به من بخور ومسك وزعفران ونحوه، والرائحة الحسنة تشمل رائحة غيره كالريحان وسائر الزهور العطرة، ولذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يرد هديتها،

(ويستعملهما كثيرًا) فى أكثر أوقاته لملاقاته الملك، فإنها تقوى الحواس، والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، تحبها وتكره الرائحة الخبيثة بعكس الشياطين.

(ويحض عليهما) بضمير التثنية للطيب والرائحة، وفى نسخة عليها، فالضمير لها لأنها المقصود من الطيب لا لأنها أعم كما قيل؛ لتغايرهما أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحث الناس ويحرضهم على استعمال ذلك لما لهم فيه من الفوائد، ولحضور الملائكة الحفظة والكتبة عندهم، ولملاقاتهم له بما يحبه، ومن مروءة الإنسان نظافته وطيب رائحته.

(ويقول: حبب إلىّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة)، وقد تقدم هذا الحديث، وأن لفظ ثلاث الموجودة فى التفاسير كالإحياء والكشاف غير ثابتة عن أكثر المحدثين، وما فى عطف جعلت، فإن محبة النساء من هدى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كداود وسليمان، وكان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من قوة الجماع ما ليس فى غيره، وقال: «فضلت على الناس بأربع: بالسماحة، والشجاعة، وقوة الجماع وشدة البطش»[1]، وكان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قوة أربعين رجلاً من رجال الجنة، وكل رجل منهم فيه قوة مائة رجل من أهل الدنيا، وهذا مع قلة أكله وشربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث أخرجه أصحاب الكتب الستة، وكان أكثر طيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذريرة، وهو طيب يجىء من الهند معروف مركب، وتقدم أنه إنما قال: «حُبِّبَ» بالبناء للمجهول؛ لأن تلك المحبة جعلها الله فيه طبيعة لا شهوانية، وعلى تسليم رواية ثلاث إما أن يكون اكتفى باثنين منها، وحذف الثالث لتذهب نفس السامع كل مذهب، والعرب تفعله كقوله:

كانت حنيفة أثلاثًا فثلثهم   من العبيد وثلث من مواليها

أو الثالث: الصلاة، وقرة عينه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها، وجعلها من الدنيا لوقوعها فيها، ويكون تغييره للعبارة إشارة لمغايرتها لما قبلها، وأنها ليست من جنسها، ووقع فى بعض النسخ هنا زيادة لفظ ثلاث بعد قوله: من دنياكم، ومر الكلام فيها، وأنها ليست ثابته وإن أثبتها الزمخشرى والغزالى فى الإحياء، وكذا المصنف، رحمه الله تعالى، تبعا لهم، وقد أفردنا هذا الحديث بتعليقة مستقلة، والحديث رواه أيضًا النسائى فى سننه فى رواية له بلفظ: «حبب إلىّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة»، ومن هذا الوجه أخرجه أحمد، وأبو يعلى فى مسنديهما، وأبو عوانة فى

---

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٨/٢٦٩)، والخطيب فى تاريخه (٨/٧٠)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/١٦٩).

مستخرجه على الصحيح، والطبرانى، والبيهقى، وآخرون، كالحاكم فى مستدركه بسند جيد بدون لفظ: «وجعلت»، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن عدى فى كامله، وقال العقيلى: إنه ضعيف.

(ومن مروءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب) المروءة من المرء وهو الإنسان، فهى بمعنى الإنسانية، ومعناها التلبس بما يليق بالرجال وترك ما يخل به، فارتكاب ما يكرهه الصاحب مخل بالمروءة، والنفخ فيما ذكر إما للتبريد أو إزاحة قذر على وجهه، وقد يخرج معه ريق المرء فيكره تناوله أو يكون النفس متغيرًا فيؤثر فيه ولو توهما، والغرض منه يحصل بالصبر وإماطة ما عليه بإراقة وخلال ونحوه، ولذا نهى عن التنفس فى الإناء حال الشرب، وأما ما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان يتنفس إذ شرب مرتين»[1] ونحوه، فليس معناه ذلك بل أنه يقطع الشرب وينحى الإناء ويتنفس خارجه، فإنه يستحب عدم العب والقطع فى الشرب، وقد ورد أن النفخ فى الطعام يذهب البركة منه، كما ورد: «أبردوا الطعام، فإن الحار لا بركة فيه» [2]، وفى لفظ: «غير ذى بركة»، وليس المراد بإبراده نفخه حتى يبرد، بل أكله باردًا بأن يصبر عليه حتى يبرد، فلا منافاة بينهما كما توهم، وقلة بركته لأنه يلتذ بمضغه وبلعه، أو أنه لشدة حرارته ينهضم سريعًا، فلا يشبع شبع غيره.

(و) من مروءته ﷺ **(الأمر بالأكل مما يلى)** كل أحد من الطعام لحديث عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله ﷺ أنه قال: «كنت غلامًا فى حجر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن أمه أم سلمة، رضى الله تعالى عنها، زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت يدى تطيش فى الصحفة، فقال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»[3]، أى لا من الوسط، ولا مما يلى غيرك، فهذا أمر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، وورد مثله فى أحاديث أخر، وقال أيضًا: تنزل البركة فى وسط الطعام، فكلوا من حافته أو من حاشيته، وهذا أمر ندب وذهب بعض الشافعية: إلى أنه للوجوب.

وقال الشيخ تاج الدين السبكى: من الفوائد الفقهية فى هذه المسألة التى لا تكاد تعرف؛ لأن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، نص فى الأم فى الجزء السادس عشر فى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٤/١)، والترمذى (٢٨٤/١)، والبيهقى (٢٨٤/٧).

(٢) أخرجه الحاكم (١١٨/٤).

(٣) أخرجه البخارى (٨٨/٧)، ومسلم فى الأشربة برقم (١٠٧)، وأحمد (٢٦/٤، ٢٧)، والدارمى (٩٤/٢)، وابن ماجه (٣٢٢٧، ٣٢٦٥)، والطبرانى (١٣/٩).

باب صفة النهى على أن أكل الإنسان مما يليه واجب، ولو لم يفعله أثم إن كان عالمًا بالنهى، انتهى.

ولعله إذا علم عدم رضاء صاحبه وجليسه بذلك، قيل: وهذا إذا لم يكن الأكل من ذلك بقصد التبرك بمس يده، وعليه حمل ما فى حديث الدباء أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، جعل يتتبعها، وهو أيضًا فى غير الفاكهة؛ فإن له الأكل والأخذ منها من أى جانب، قال بعض المدققين: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]، وفيه لطف خفى.

(والأمر بالسواك) أمر ندب، وشذ بعض الشافعية فأوجبه للصلاة، والسواك اسم للعود الذى يستاك به، وللفعل وهو الاستياك، والمراد الثانى، أو الأول بتقدير مضاف أى استعمال السواك، وعده من المروءة لما فيه من النظافة وطيب رائحة الفم.

(وإنقاء) بكسر الهمزة وسكون النون وقاف بعدها مدة من أنقاه إذا نظفه كنقاه، **(البراجم)** بباء موحده وراء مهملة وألف وجيم وميم جمع: برجم أو برجمة، بضم الباء والجيم، وهى مفاصل الأصابع التى بينها، والسلاميات من ظهر الكف التى ترتفع إذا قبض الإنسان كفه، فهى المفاصل الظاهرة، والبراجم الباطنة، وقيل: هى مفاصل الكف كلها، والأشاجع: جمع أشجع، وهى أصول الأصابع المتصلة بالكف، **(والرواجب)** براء مهملة وواو وألف وجيم وباء موحدة: جمع راجبة على القياس، وقيل: جمع رجبة، بضم فسكون على خلافه، وهى المفاصل التى تلى الأنامل وقيل: هى مفاصل أصول الأصابع، وقيل: قصب الأصابع، وقيل: السلاميات، وقيل: ما بين البراجم والسلاميات، وقيل: ظهور السلاميات، وقيل: مفاصل الأصابع، وواحد السلاميات سلامى بضم السين وفتح الميم المقصورة، وتفصيله فى كتاب خلق الإنسان، وجزم البرهان الحلبى بأن البراجم العقد المتشنجة فى ظهور الأصابع، وهى مفاصلها.

ونقل عن أبى عبيد: أن البراجم والرواجب جميعًا مفاصل الأصابع كلها، وهى اللائق بكلام المصنف، فينزل عليه لا على ما فى الصحاح من أن البراجم مفاصل الأصابع التى بين الأشاجع، والرواجب وهى رءوس السلاميات من ظهر الكف إذا قبض القابض كفه نشرت وارتفعت، والراجبة فى الأصابع واحدة الرواجب، وهى المفاصل التى تلى الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع التى تلى الكف، انتهى؛ لئلا تكون الفاصل التى تكون الكف خارجة إذ هى على مافيه غيرهما، وعند أبى عبيد داخلة فيهما مع أن الظاهر أنها تنقى كما تنقى التى بين الأنامل والتى بينهما كما قيل.

(واستعمال خصال الفطرة) الخمس فيما رواه الشيخان: «الختان، والاستحداد، أى حلق العانة بالحديد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

وزاد مسلم، رحمه الله تعالى: «المضمضة، وإعفاء اللحية، والاستنجاء»، وأبو داود: «الانتضاح»، وزاد غيره عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: «فرق الرأس» كما تقدم تفصيله المغنى عن إعادته.

والفطرة بكسر الفاء معناها: الخلقة، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، والمراد: السنة التى أمر بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر.

* * *

(فصل وأما زهده ﷺ فى الدنيا)

الزهد معناه: ترك الدنيا ولذتها رغبة فيما عند الله، وهو ثلاثة أقسام ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك فضول الحلال وهو زهد الخواص، وترك كل ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين، وأما من لم يرض وصف أولياء الله به فضلاً عن أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الدنيا لا تساوى عند المتخلقين بأخلاق الله جناح بعوضة، وما ينال أعظم ملوكها بعض منها، بل أقل قليل من باقيها، فعنده معنى الزهد ترك ما يرغب نفسه فيه، فمن لا رغبة له فى شىء منها لا يسمى زاهدًا، وغيره يعرفه بترك الدنيا مطلقًا أو بترك ما من شأنه أن يرغب فيه، وإلى هذا أشار الغزالى فى الإحياء، فمن وصفه بأعلى طبقات الزهد نظر إلى الأول، وجنح إلى أنه من مقامات الكاملين، فله منه الحظ الأوفر، ومن نفاه عنه ولا يرضى وصفه به نظر إلى الثانى.

وأما طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للدنيا الضرورية فى المعاش، فليس لرغبته فيها بل لدفع ضعف بدنه المانع عن أداء حق العبودية، فلا ينافى فى الزهد أيضًا، وإليه يشير صاحب البردة بقوله:

وأكدت زهده فيها ضرورته أن الضرورة لا تعدو على العصم

ومن شرط الزهد أيضًا القدرة، وقال ابن المبارك لما قيل له: يا زاهد: الزاهد عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها.

(فائدة) قال أبو يزيد البسطامى، قدس سره، بفتح الباء: قد مر علينا شاب من بلخ حاجًا فقال لى: ما علامة الزهد عندكم؟ فقلت له: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا شكرنا، فقال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، قلت: فما الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا

شكرنا وإذا وجدنا آثرنا.

(فقد تقدم من الأخبار) التى فى صفاته فى أول الباب **(فى أثناء)** أى فى خلاله وما بينه جمع ثنا مقصور كما قاله ابن هشام اللخمى فى شرح المقصورة، ومعناه ما أثنى ودخل بعضه فى بعض **(هذه السيرة)**، أى هذا الكتاب المتضمن لسيرته وطريقته ﷺ أو المراد سيرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ما يكفى)** طالب سيرته، ويغنى عن إعادته هنا، **(وحسبك من تقلله)** أى يكفيك فى معرفة تقلله، أى قنعه بالقليل **(منها)** أى من الدنيا لزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم فيها، واكتفائه فى ضرورياته بالأمر الزهيد القليل، وهذا لا ينافى زهده، **(وإعراضه عن زهرتها)** أصل معنى الزهرة النضارة والزينة مستعار من الزهر بفتحتين، وهو نور النبات، ويسكن الثانى أى تركه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يرغب فيه الناس من زخرف الحياة الدنيا، ومما قلته فى الرباعيات:

من حرصك بالغناء كم تشتغل والعمر مضى فما يفيد الأمل
ما زهرة هذه الحياة الدنيا للفرك بأغل المنا تحتمل

(وقد سيقت إليه)، أى ساق الله تعالى إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الدنيا مستعار من سوق البهيمة للتسخير والتمكن منها **(بحذافيرها)**، أى بجملتها وكليتها من جميع نواحيها، يقال: ملك كذا بحذافيره، أى جميعه بحيث لم يبق منه شىء جمع حذفور أو حذفار، وهو الناحية، وفى النهاية الحذافير الجوانب، وقيل: الأعالى فكنى به عما ذكر، وهو إشارة لما تقدم من أن زهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها ليس لعجزه كما تقدم.

(وترادفت عليه فتوحها) أى تتابعت وتوالت، فأتته الدنيا راغمة بما يسر الله له من الغنائم والأموال والأرزاق الواسعة الطيبة، بحيث لو أراد توسع فيها وأنفق واقتطف زهرتها، فلم يرضها واكتفى بأقل قليل منها، والجملتان حاليتان أو معترضتان بين المبتدأ وخبره أفادتا كمال زهده، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن من كان هذا حاله وزهده، فزهده أبلغ زهد وأتم عفاف، أى كافيك مما ذكر حال حصول ما ذكر **(إلى أن توفى)** بالبناء للمجهول، أى حضرت وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(ودرعه مرهونة عند يهودى)**، أى والحال هذه، والدرع معروفة تذكر وتؤنث، والأكثر تأنيثها، واليهودى كان يسمى أبا الشحم من ظفر من موالى الأنصار، وهذا الحديث صحيح رواه الشيخان عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وإنما عامله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يطلب من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم؛ لأنه لم يحضره إذ ذاك منهم من يقترض منه؛ ولأنه لو طلب، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم وأعلمهم بضرورته وهبوه ذلك، ولم يرضوا

باقتراضه منهم، فأخفى حاله مع ما فيه من بيان جواز معاملة الكفرة وأهل الذمة **(فى نفقة عياله)** فى للتعليل كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن امرأة دخلت النار فى هرة عذبتها»(١)، والعيال أهل البيت ومن تلزمه نفقته، والذى اقترضه ﷺ ثلاثون صاعًا، وروى عشرون صاعًا من الشعير.

(و) كان فى حال اقتراضه **(هو يدعو، ويقول)** كما رواه الشيخان: **(اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا)** القوت كل ما يتقوت به الإنسان من الطعام، أى اجعله بمقدار ما يسد الرمق من غير زيادة.

وقد استشكل هذا بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مات، وله حصون وأراضى، وعنده مما أفاء الله عليه أرض خيبر وفدك وغيرهما، فكيف مع ذلك يكون به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاقة تحوجه إلى رهن درعه على أصوع شعير؟.

وأجاب عنه ابن الصلاح فى فتاواه بأنها كانت معدة لنوائبه موقوفة، ولذا لم تورث عنه، وقال: «إنا لا نورث ما تركناه صدقة»(٢)، فلا يقدح فيه ما كان فى ملكه، وقد أعده لمصالح المسلمين وإخراجه ما يحصل منها فى ذلك، والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، فاختار، صلى الله تعالى عليه وسلم، الفقر، ولم يتصرف فيما عنده لنفسه وعياله، ولذا لا يجوز أن يقال فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه فقير كما مر.

وأقول: هنا دقيقة وهى أن رياضة النفس بالجوع تصفى الذهن، وتقوى الروح، وتجعل النفس قدسية ملكية، وقد كان أهل المال يتعبدون بذلك، ولما لم تكن فى الدين المحمدى لما فيها من الحرج فعل ذلك، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختاره لنفسه خاصة، وأبرزه بصورة الفقر؛ لئلا تقتدى به أمته فيه، ولمحبته لذلك طلبه من الله تعالى له ولأهله، فافهمه فإنه دقيق جدًا.

(حدثنا سفيان بن العاصى) هذا الحديث رواه مسلم، والبخارى، وسفيان هذا هو ابن سكرة؛ لأن المصنف سمع منه صحيح مسلم، وليس هو الغسانى؛ لأنه لم يسمع منه، وإنما روى عنه بالإجازة، **(والحسين بن محمد الحافظ)** بن عيسى قاضى سبتة شيخ المصنف أحد الأعلام، وقد أكثر المصنف، رحمه الله تعالى، الرواية عنه، توفى فى جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، **(والقاضى أبو عبد الله التميمى قالوا: حدثنا أحمد بن عمر)** قد تقدمت ترجمتها.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥/١، ٤٨، ١٦٢)، وابن سعد (٨٥/٢/٢)، والترمذى فى الشمائل (٢١٤).

(قال: حدثنا أبو العباس الرازى قال: حدثنا أبو أحمد الجلودى) بفتح الجيم نسبة لقرية بأفريقية، وقيل: بالشام، وقيل: إنه بضم الجيم وقد تقدم قال: **(حدثنا ابن سفيان، حدثنا أبو الحسين بن الحجاج)** مسلم صاحب الصحيح، وقد تقدم هو ومن قبله قال: **(حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة)** تقدم ترجمته قال: **(حدثنا أبو معاوية)** محمد بن خازم بمعجمتين الضرير الحافظ أحد الأئمة الأعلام إلا أنه كان مرجئيًا، روى له الستة، وتوفى سنة خمس أو أربع وتسعين ومائة، وترجمته مفصلة فى الميزان.

(عن الأعمش) أبو محمد سليمان بن مهران الكاهلى أحد الأعلام، روى عن أنس وابن أبى أوفى وغيرهما، وروى عنه شعبة ووكيع وكثيرون نحو ألف وثلاثمائة حديث، وعاش ثمانيا وثمانين سنة، ومات فى ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته فى الميزان.

(عن إبراهيم) بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعى الكوفى الفقيه الزاهد رأس عصره، رأى عائشة، رضى الله عنها، وأخرج له الستة، وتوفى سنة ست وتسعين.

(عن الأسود) بن يزيد النخعى العابد حج ثمانين مرة وصام حتى اخضر جلده، وكان يختم القرآن فى كل ليلتين، وتوفى سنة أربع أو خمس وسبعين، وهو ثقة أخرج له الستة.

(عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: ما شبع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثة أيام تباعا) أى متتابعة متوالية **(من خبز)** برًا كان أو شعيرًا، وفى نسخة من خبز بر **(حتى مضى لسبيله)** أى حتى توفى؛ لأن الموت طريق يسلكه كل أحد، وأول منزل منه القبر.

(وفى رواية أخرى) رواها البخارى **(من خبز شعير يومين متواليين، ولو شاء)** الدنيا وترفهها ونعيمها **(لأعطاه الله، عز وجل، مالا يخطر ببال)** البال القلب والعقل والفكر، وخطر يخطر بضم الطاء وكسرها خطورًا إذا ذكر وتصور أى يعطيه منها كل أمر نفيس لم يتصوره أحد من الناس، لجلالته وعظمته وكونه لم يعهد مثله حتى يعرف، **(وفى رواية أخرى)** رواها مسلم **(ما ترك)** أى ما خلف تركة **(رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، دينارًا ولا شاة ولا بعيرًا)**، وفى رواية: «ولا شيئًا»، ولذا قال عبد الله ابن أبى أوفى: ما أوصى رسول الله ﷺ عند موته؛ لأنه لا مال عنده يوصى به، وإنما أوصى بكتاب الله.

وادعاء الشيعة أنه أوصى، وأن عليًا، كرم الله وجهه، وصى لا أصل له، و لم يثبت.

(وفى رواية) فى الصحيحين **(ما شبع آل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خبز بر حتى لقى الله عز وجل)**، وفى البخارى: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال حتى قبض»[(١)]، وهو المراد بلقاء الله، وفيه روايات كثيرة متقاربة المعنى، وأنه ما جمع بين غداء وعشاء، وفى رواية من خبز وزيت، وفى رواية ما أكل أكلتين فى يوم.

قيل: وهذا مشكل بما ثبت أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدخر لأهله قوت سنة، وأنه ساق مائة بدنة، ووهب قطيعًا من غنم وألف بعير ونحوه كما مر، وأن أصحابه كأبى بكر وعثمان وطلحة كان لهم أموال كثيرة، رضى الله عنهم، وهم يبذلون له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أموالهم وأنفسهم.

وأجيب: بأن ذلك كان فى حالة دون حالة، وأن ذلك للإرشاد وكراهة الشبع، لا لضيق اليد.

وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها: من حدثكم أنا كنا نشبع من التمر، فقد كذبكم، فلما فتحت قريظة أصبنا شيئًا من التمر والودك.

وروى: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر»، والحق أن كثيرًا منهم كانوا فى ضيق قبل الهجرة وبعدها، وآساهم الأنصار بالمنائح، فلما فتحت بنو النضير وما بعدها ردوا ذلك عليهم.

أقول: هذا ينافيه ما مر من أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة، فكيف تكون العسرة زالت بعد الهجرة، فالحق الأحق بالاتباع ما قاله ابن الصلاح، رحمه الله تعالى، كما مر قريبًا، وما قاله هذا الشارح لا يسمن ولا يغنى من جوع.

(وفى حديث عمرو بن الحارث) الذى رواه البخارى: **(ما ترك)** أى ما خلف، ﷺ، تركة لأهله **(إلا سلاحه وبغلته وأرضا جعلها صدقة)** هذا بعض حديث أوله: ما ترك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند موته دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أمة، ولا شيئًا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضا جعلها صدقة، وتفصيله فى السير، فإنهم قالوا: كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسعة أسياف لكل منها اسم، ودروعه سبع، وقسيه ست، وثلاثة أتراس، وخمسة رماح، وقال مغلطاى: أربعة، ومغفران، وراية سوداء يقال لها: العقاب مربعة، وراية بيضاء أو صفراء، وكان مكتوبًا على راياته، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٤٤).

وفى الميزان أنها لم تكن إلا بيضاء، ولم يبين ما وجد منها عند موته، وأما بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهى الدلدل التى أهداها له المقوقس، وعاشت بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى ذهبت أسنانها، فكان يحش لها الشعير، ثم ماتت بالينبع، وقيل: إنها بقيت لخلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، وأن عليا، كرم الله وجهه، قاتل عليها.

وأما بغلته فضة فوهبها لأبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، والأرض المذكورة فدك والنضير، وأرض مخيريق، وهى مفصلة، ومعنى كونها صدقة أنه وقفها لمصالح المسلمين، والوقف يسمى صدقة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأخذ منها نفقته ونفقة عياله بقدر الحاجة، ويتصدق بباقيها، فكل ما عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان مرصدًا لا ملكًا، فلذا لم يورث عنه كسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وأما قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، فالمراد منه أنه يرث علمه وحكمته وشرفه كما صرحوا به، وضمير جعلها للأرض والجملة صفه أو مستأنفة استئنافًا بيانيا، أو الضمير للمذكورة.

(قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها)، فى حديث رواه الشيخان، **(ولقد مات رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد)**، هو كناية عن كل حيوان إنسانًا أو غيره، والكبد معروف وهو أحد الأعضاء الرئيسية، وخصه لأن منه يصل الغذاء إلى الجسد كله، وهذا مناف لقولها: «ما ترك درهمًا ولا دينارًا ولا شيئًا»[(١)]، ووفق بينهما بأن المنفى هنا ما كان مختصًا بها من بقية نفقتها، أو المراد بالشىء وإن كان عامًا ما كان من جنس المال والمتاع، أو هو لعدم الاعتداد بما ذكر لقلته، **(إلا شطر شعير)** الشطر النصف كالشطير، أو البعض مطلقًا، وفى النهاية أراد به نصف مكوك، أو نصف وسق، والمكوك المد، وقيل: الصاع.

(فى رف لى) بفتح الراء المهملة وتشديد الفاء شبه الطاق فى الحائط، ويطلق على خشبة عريضة ترفع عن الأرض تعد لوضع ما يراد حفظه، وهو الرفع أيضًا، والأول أقرب لأن الخشبة لا تحتمل وضع هذا المقدار عليها، وتتمة الحديث: «فأكلت منه طويلاً ثم كلته ففنى»، وفيه إشارة إلى أن الكيل كالعد يذهب البركة، وقد وردت، وله نظائر كما فى مسلم، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، أن رجلاً أتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال هو وامرأته ووصيفه يأكل منه

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٦٣)، والنسائى (٢٢٩/٦)، وابن ماجه (٢٦٩٥)، وابن أبى شيبة (٢٠٧/١١)، والدارقطنى (١٨٥/٤).

حتى كاله، فأتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبره، فقال: لو لم تكله لم ينفد. قيل: لما فيه من الحرص وعدم التوكل والتمسك بالأسباب المعتادة.

وأما ما ورد فى حديث المقدام: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه»(١)، فأجيب عنه بأنه عند التبايع لحق المشترى فتأمل.

(وقال) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: **(لى)** أى لعائشة، وفى شرح ابن أقبرس: وقال إلىَّ بدل اللام أى ادن واقربى إلىَّ، صلى الله تعالى عليه وسلم، دنوها منه ليسارها، وقال حكاية لحال ماضية: **(إنى عرض علىَّ)** بالبناء للمجهول، وفى رواية عرض علىَّ ربى، يقال: عرض له وعليه إذا أظهره له وأراه إياه، والمراد أعلمه بالوحى **(أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا)** البطحاء واد تجرى فيه السيول، أو بطن واد فيه رمل وحصى، أو مكان لا ينبت؛ لأنه مسيل وهو ما غلب عليه الإسمية، والمراد بجعله ذهبا أن يملأه به أو أن يقلب حصاه ورماله ذهبًا، وقلب الأعيان كإنشائها من العدم غير مستحيل لوقوعه، والله قادر على كل شىء.

(فقلت: لا يا رب) أى لا أريد جعل البطحاء ذهبا **(أجوع يومًا، وأشبع يومًا)** استئناف كأنه قيل له: فما تريد؟ قال: أريد الفاقة وأن أكون تارة جائعًا وتارة شبعان؛ لزومًا لمقام العبودية والافتقار إلى الله، ثم بين ما يكون عليه فقال: **(فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك)** فيه، والتضرع الدعاء بتذلل وانكسار من الضراعة، وهى الذلة والالتجاء، **(وأدعوك)** أى أطلب منك وفى الدعاء مناجاة والتجاء ومعاملة مع الله، وإن كان عالمًا بذلك.

(وأما اليوم الذى أشبع فيه، فأحمدك وأثنى عليك) لما أنعمت به علىَّ، ولا وجه لما قيل هنا من أنه تعليم لفقراء أمته، وإلا فلو جعلت له الدنيا ذهبًا لم يشغله ذلك عن الله طرفة عين إلى غير ذلك مما أطال فيه بغير طائل على عادته، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه، بلفظ: فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك.

(وفى حديث آخر) قال السيوطى: لم أجده هكذا، ولكن البيهقى، رحمه الله تعالى، أخرجه فى الزهد من طريق عطاء عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن النبى صلى

---

(١) أخرجه البخارى (٨٨/٣)، وأحمد (١٣١/٤، ٤١٤/٥)، وابن ماجه (٢٢٣١)، والطبرانى (١٢٣/٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٢١٧/٥).

الله تعالى عليه وسلم، قال يومًا: «ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق»[١]، فأتاه إسرافيل، عليه الصلاة والسلام، فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثنى إليك بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردًا وياقوتًا وذهبًا وفضة، فقلت . . . إلى آخره.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر فى تاريخه من حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لو شئت لسارت معى جبال الذهب»[٢].

ولأحمد فى الزهد عنها: «والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة»[٣].

وللطبرانى نحو منه من حديث أم سليم، رضى الله عنها، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «لو سألت الله أن يجعل تهامة كلها ذهبًا لفعل».

وأخرج أحمد حديث: («**الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له**») مختصرًا عن عائشة، رضى الله تعالى عنها.

قلت: فما ذكره المصنف، رحمه الله، رواية بالمعنى من عدة أحاديث (**أن جبريل نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: إن ربك يقرئك السلام**) أى يسلم عليك ويحييك تحية إكرام، قال فى الإكمال: أقرأته السلام، وهو يقرئك السلام بضم الياء من المزيد، فإذا قيل: يقرأ عليك السلام بعلى، فيفتح الياء لا غير، وقيل: هما لغتان، وهو مهموز لا معتل، ويجوز إبدال همزته واوًا وياء، ومعنى أقرأه حمله على أن يقرأ عليه سلامه، أى يبلغه إياه، فهو مجاز مرسل لمطلق التبليغ مأخوذ من القراءة، ومعنى قرأه عليه ذكره له.

(**ويقول لك: أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهبًا، وتكون معك حيث ما كنت**)، أى تسير معك وتتوجه أنى توجهت، (**فأطرق ساعة**) أى طأطأ رأسه يفكر فيما يجيبه به، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له**) الدنيا تقابل الآخرة؛ لأنها فعلى من الدنو وهو القرب، وتطلق على هذا العالم المشاهد، وكل ما فيه من المال وغيره، وعلى الأرض التى هى مقر العالمين، وبهذا الاعتبار تسمى دارًا، وقوله: دار من لا دار له، أى لأنها فانية لا يقيم فيها أحد، ولذا شبهت بالخان الذى ينزله المسافرون، وبالقنطرة بل بالسفينة كما قال:

---

(١) أخرجه الشجرى فى أماليه (٢/١٧٠).

(٢) أخرجه الخطيب فى تاريخه (١١/١٠٢)، وابن سعد فى الطبقات (١/٢/١٥٧).

(٣) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦/٣٢٨).

وإنا لفى الدنيـا كركـب سفينـة نظن وقوفًا والزمـان بنـا يسـرى

وقوله: مال إلى آخره، أى إنما يملكه المرء فيها سيسلب منه، فهو عارية أو وديعة، فصاحبه لا ملك له حقيقة فكل غنى فيها فقير، وليس هذا من قبيل فرط من لا فرط له، وذخر من لا ذخر له.

(قد يجمعها من لا عقل له) قد للتحقيق؛ لأن من جمع الدنيا كثيرًا، وهى لتقليل جمعه وحيازته لها فإنه يجمعها بعد بلوغه ورشده لموته، ثم يفقدها إلى ما لا نهاية له، أو لمتعلق الفعل، فإن متاع الدنيا بالنسبة لغيره قليل، وعلى هذا حمل قوله: **(قد يعلم ما أنتم عليه)**، وإنما هم عليه بالنسبة لبقية معلوماته أقل قليل، أو هى مستعارة تهكما للتكثير كقوله:

اترك القـرن مصفـرًا أناملـه

وإن كان فى البيت نزاع ليس هذا محله، وجعله لا عقل له؛ لتنزيل وجود عقله منزلة العدم؛ إذ لم يصرفه فيما يتعلق بالآخرة ويهديه إلى الاكتفاء من الدنيا بزاد المسافر الذى يبلغه منزله، فإن العاقل من كان كذلك، ولـذا قـال الفقـهاء: لـو أوصى لأعقـل النـاس صرف للزهاد، وقال الشاعر:

إن لله عبـادًا فطنًـا طلقـوا الدنيـا وخـافوا الفتنـا
نظـروا فيـها فلمـا علمـوا أنـها ليسـت لحـى وطنـا
جعلوهـا لجـة واتخـذوا صالـح الأعمـال فيهـا سفنـا

(فقال له جبريل عليه والصلاة والسلام: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت) المراد بالقول الثابت الحق؛ لأنه دائم لا يزول، أو المراد به حق مخصوص بمقالته، وهو إمـا دعـاء لـه أو إخبار بأن الله امتن عليه، فإنه بمحض فضل الله ولطفه، فإنه الذى ثبته على هذا.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها) فى حديث صحيح رواه الشيخان أنها **(قالت: إن كنا آل محمد)** المراد بآله أهل بيته، عليه الصلاة والسلام، وله معـان أخـر مشـهورة، وإن مخففة من الثقيلة **(لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا)**، أى ما نوقد نـارًا، فالسين للتـأكيد، أو المراد ما نطلب من أحد نارًا نوقدها، وهذا كناية عن أنه ليس لهم مـا يطبـخ **(إن هـو إلا التمر والماء)**، وإن نافية، وهو ضمير الطعام، والمأكول أى ما عندنا ما يؤكل ويتغذى بـه إلا التمر والماء، وروى: وإنمـا هـو الأسـودان التمـر والمـاء. قيـل: هـذا كـان فـى بعض الأحوال.

(وعن عبدالرحمن بن عوف) الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنـه، وهـذا الحديث رواه عنه الترمذى، والبزار وغيرهما بسند جيد: **(هلك رسول الله، صلـى الله تعـالى عليـه**

وسلم)، أى توفى، والهلاك بمعنى الموت مطلقًا مستعمل فى حق النبى ﷺ، وغيره، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وأما اختصاصه بميتة السوء كالقتل فعرف طار، ولذا كثر استعماله فى الأعداء، فيقال: هلك عدو الله، وقد ورد فى الحديث، والإهانة إنما تفهم من ذكر العدو ونحوه.

قلت: فلا يجوز لنا الآن إطلاقه على من كرمه الله والصحابة، ونقتصر فيه على ما ورد منه من غير نكير، كما ورد فى حق يوسف، عليه الصلاة والسلام، ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾ [غافر: ٣٤] إلخ، وكذا ورد فى حق غيره من الأنبياء، عليه الصلاة والسلام، فلا يختص بمن استحق العذاب إلا بقرينة.

(ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير)، وأول الحديث عن نوفل بن إياس الهذلى قال: كان عبد الرحمن بن عوف، رضى الله تعالى عنه، جليسًا لى، وكان نعم الجليس، وإنه انقلب بنا ذات يوم حتى إذا دخلنا بيته دخل فاغتسل، ثم خرج وأتانا بصحفة فيها خبز ولحم، فلما وضعت يدى بكى عبد الرحمن بن عوف، فقلت: يا أبا محمد ما يبكيك؟ قال: هلك رسول الله ﷺ، ولم يشبع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير، فلا أرانا أخرنا لما هو خير لنا، وقد تقدم أنه ورد فى معناه أحاديث كثيرة متقاربة المعنى، وتقدم ما فيه من الإشكال وجوابه، وإلى تقوية هذا أشار بقوله: **(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وأبى أمامة وابن عباس، رضى الله تعالى عنهم، نحوه)** أما حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، فما فى الصحيحين عنها أنها قالت: «ما شبع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خبز شعير يومين حتى قبض»(١).

وحديث أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه، فى الترمذى بهذا اللفظ أيضًا.

وحديث ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، عنه هو المذكور عقب هذا بقوله: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى آخره كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، وسياق كلامه يأباه، ولو كان مراده هذا اكتفى بذكره والأحسن أنه ما فى الصحيحين أيضًا، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن عمر، رضى الله تعالى عنه، حدثه أنه دخل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد اعتزل نساءه، فإذا هو مضطجع على حصير قد أثر بجنبه، فقلبت عينى فى خزانته، فإذا هى ليس فيها شىء غير قبضتين من شعير، وقبضة من تمر، فابتدرت عيناى، فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقال: مالى لا أبكى وأنت صفوة الله من خلقه، وهذه الأعاجم فى النمارق والأنهار وأنت هكذا؟ قال: يا

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٥٧).

ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟ فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: فاحمد الله عز وجل.

(قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاويا) حال من ضميره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يقل: طاوين لأن المقصود حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحال أهله يعلم من حاله لأنهم يتبعونه فى كل حال، وطاويا بمعنى جائعًا؛ لأن الطوى الجوع كما ذكره الجوهرى، والليالى منصوب على الظرفية، وقوله: **(لا يجدون عشاء)** بفتح العين والمد الطعام الذى يقابل الغداء، وخصه لقوله يبيت، والمراد به مطلق الطعام، وهذا الحديث أخرجه الترمذى، وابن ماجه.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه)، فى حديث رواه البخارى **(قال: ما أكل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خوان)** بكسر الخاء المعجمة وضمها فارسى معرب، ويقال: إخوان بزنة إكرام أيضًا، وهو والمائدة والميدة بمعنى، وإن فرق بينهما فى الأصل بأن الخوان ما يوضع عليه قبل وضعه، وبعده يسمى مائدة، والأكل عليه عادة المتكبرين حتى لا يحتاجوا للانحناء إذا أكلوا، وقيل: إنه عربى من التخون وهو النقص، ويجمع على أخونة وخون، وأما السفرة بالضم فالطعام المعد للسفر، وتكون بمعنى ما يوضع عليه الطعام من الأديم أيضًا.

(ولا فى سُكُرَّجة) قال الجواليقى: هى بضم السين المهملة وضم الكاف وفتح الراء المهملة المشددة وجيم وهاء وهى أعجمية معربة، وقيل: الصواب أسكرجة بهمزة مضمومة، وقد جاء فى الحديث الصحيح بدون همزة، ومعناه مقرب الخل، ولذا قيل معناها: قصعة صغيرة يوضع فيها الكوامخ والجوارشات فى جوانب المائدة، فيها ما يعين على الهضم، وقيل: قصعة مدهونة، وقيل: إنها مائدة صغيرة، وعلى كل فهى مما يصنعه العجم والمقلدون لهم من المتكبرين، والجيم والهاء علامة التصغير عندهم، وقيل فيها أيضًا: سكبرجة.

(ولا خبز له مرقق) بالبناء للمجهول، ومرقق بوزن معظم رقيق الخبز كالرقاق، وقيل: هو المنبسط الرقيق، وقيل: هو الحوارى والسميد بدال مهملة، وفى رواية مرققًا بالنصب تمييز أو مفعول ثان لخبز؛ لتضمنه معنى الجعل، والمراد أن خبزه ﷺ لم يجعل من بياض الدقيق؛ لأنهم لم يكن لهم مناخل.

(ولا رأى شاة سميطًا قط) سميط فعيل، بمعنى المفعول، أى لم يطبخ له، صلى الله تعالى

عليه وسلم، شاة بتمامها بعد سمطها، أى غليها فى الماء الحار حتى يذهب شعرها، ثم تشوى، وظاهر كلامهم أنها لم تسلخ، وأن ما ذكر فى الحملان الصغيرة.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها)، فى حديث رواه الشيخان: **(إنما كان فراشه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى ينام عليه أدما)** بفتح الهمزة والدال المهملة والميم اسم جمع لأديم، وهو الجلد المدبوغ اللين، وقيل: إنه مخصوص بالأسود **(حشوه ليف)**، والليف ما يكون من النخل وهو معروف.

(وعن حفصة، رضى الله تعالى عنها)، بنت عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، أم المؤمنين، وحديث حفصة رواه الترمذى فى الشمائل منقطعًا، وحديثها لا ينافى حديث عائشة المتقدم؛ لجواز كون أن كلا منهما ذكرت فراشه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذى كان عندها.

(قالت: كان فراش رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بيته مِسْحا) بكسر الميم وسكون السين المهملة وبعدها حاء مهملة، وهو ثوب مستعد للفراش شبه الكساء، ويقال له: حنبل، وقيل: هو ثوب أسود من شعر يلبسه الزهاد، وقيل: هو ثوب من الشعر والوبر والصوف يلبس ويجلس عليه، وجمعه مسوح وعلى كل حال فهو شىء غليظ يتنزه عن مثله أصحاب الترفه.

(نثنيه ثنيتين فينام عليه) الثنى بكسر فسكون، والمثنى ما ثنى بعضه على بعض، وعطف أى يجمع بعضه على بعض مرتين حتى يكون أثخن وأوطأ للنوم عليه، وتثنيته ثنتان، وجمعه أثناء، وروى ثنتين بمثناة فوقية مكان الياء المثناة التحتية، والمعنى واحد، والنسخة الأولى أصح وأشهر.

(فثنيناه له ليلة بأربع) طاقات ليكون ألين مهادًا من الثنيتين، **(فلما أصبح، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: ما فرشتم لى الليلة، فذكرنا ذلك له)**، وهو أنهم جعلوا فراشه أربع طاقات، **(فقال: ردوه بحاله)** الأولى وهو الثنيتان، **(فإن وطاءته)** بفتح الواو والطاء المهملة والمدة وتاء تأنيث مضاف لضمير الفراش، فوزنه فعالة، أو فعلة بفتح فسكون وهمزة غير ممدودة على وزن فعلة، أى لينه تحت جنبى لكثرة طاقاته وتضعيفها **(منعتنى الليلة صلاتى)** أى أن لينه لذ له، عليه السلام، النوم، فنام أكثر من معتاده؛ لأن فراشه ممهد لم يؤذه حتى ينبهه، فانقطع عن بعض القيام لتهجده ليلا لزيادة نومه.

(وكان ﷺ ينام أحيانًا على سرير مرمول)، ونومه الأول على فراش على الأرض، ومرمول براء مهملة وميمين بمعنى منسوج.

(بشريط) أو غيره، والشريط بشين معجمة وراء وطاء مهملتين بينهما ياء مثناة تحتية حبل مفتول من خوص النخل، أو سعفه مع حبال، وواحده شريطة **(حتى يؤثر)** حبال شريطه، **(فى جنبه)**؛ لكونه بغير فراش يحول بينه وبينه.

وهذا من حديث طويل رواه الشيخان والترمذى، وفيه: وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وفى معناه أحاديث آخر.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: لم يمتلئ جوف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شبعًا قط).

قال التلمسانى: فيه أربع لغات فتح الشين المعجمة وكسرها مع سكون الموحدة وفتحها.

وقال البرهان: هو بفتح الموحدة نقيض الجوع، وبسكونها ما يشبع، والظاهر هو الأول، وقيل عليه: إن كان ظهوره بحسب الرواية، فمسلم، وأما بحسب الدراية فالظاهر الثانى؛ لأنه اسم عين، وعلى الأول اسم معنى، والامتلاء منه مجازى كامتلأ غضبًا، وقيل عليه: إن المجاز أبلغ من الحقيقة فهو أولى رواية ودراية، فالبرهان مع البرهان، وفيه نظر، وهذا يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يشبع، ولكنه لا يمتلئ جوفه بتمامه منه، فإن المطلوب تقليل الطعام والاقتصار على ما يقوم به الأود، ثم ملأ ثلث بطنه فإن ثلثا للزاد، وثلثا للماء، وثلثا للنفس، فإن زاد فنصفها، وما زاد على ذلك حرص وبطنة غير ممدوحة، وقد يحرم إن وصله للضرر والتخمة قصدًا كما أن أول مراتبه واجب.

(ولم يبث شكوى إلى أحد) بفتح الياء التحتية وضم الباء الموحدة وتشديد المثلثة بمعنى يذكر ويظهر، ويقال: بث الخير وأبثه إذا نشره، ويقال أيضًا: نثه بالنون وبهما روى قول قيس[1]:

إذا جاوز الاثنين سر فإنه بنث وتكثير الحديث قمين

والشكوى مذمومة، فالذى يليق بمقام العارفين الصبر، وكتم ما بهم لا سيما والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسر بكل ما يأتيه من الله ولا يعده مؤلمًا، بل يتلذذ به، فكيف يتصور شكواه؟ وإلى هذا أشار بقوله: **(وكانت الفاقة)** وهى الحاجة والفقر **(أحب إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الغناء)** قيل: هذا يقتضى أن الفقر أفضل من الغناء، وقد اختلف فيه على قولين، ولكل منهما أدلة كقوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾

(١) البيت من الطويل، وهو لقيس بن الخطيم فى ديوانه (ص١٦٢)، وحماسة البحترى (ص١٤٧)، الدرر (٦/٣١٢)، سمط اللآلى (ص٧٩٦)، لسان العرب (٢/١٩٤).

[الضحى:٨]، حيث امتن عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالغنى، ولا دليل فيه لأنه امتن عليه بقضاء حاجته، والمفضول قد يكون فى المقام له منة تزيد على الفاضل، ولا فى قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، فإنه لم يذم الغناء، بل ما قد يترتب عليه، وكذا كون حساب الفقير أخف، والمختلف فيه هل الغنى الشاكر خير أم الفقير الصابر؟، فذهب إلى كل منهما قوم من العلماء؛ لحديث ذهب أهل الدثور بالأجور، وحديث: «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم من أيام القيامة»[١]، وهو خمسمائة عام إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى الجانبين، وقال الغزالى، رحمه الله تعالى: قد انكشف أن الفقر هو الأفضل لكافة الخلق إلا فى موضعين غنى يستوى فيه الوجود والعدم، ويستفاد به دعاء المساكين، وقضاء حوائجهم كغنى بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وفقر يكون من الضرورة حتى يكاد يكون كفرًا، فالأول خير محض، وهذا لا خير فيه بوجه من الوجوه، والممدوح غنى النفس لا غنى المال من حيث هو، والفضل كله فى الكفاف والاقتصار على مقدار الحاجة، ولذا طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، له ولآله.

(وإن كان ليظل جائعًا) إن مخففة من إن المكسورة الهمزة المثقلة النون، والجملة حالية، ويظل بفتح المثناة التحتية والظاء المشالة من أخوات كان، وأصل معنى ظل فعله نهارًا؛ لأنه زمان يبدو فيه الظل، ثم استعمل لدوام الفعل ليلاً ونهارًا، وهو المراد.

(يلتوى طول ليلته من الجوع) بتقديم اللام على التاء الفوقية وواو مخففة مكسورة، وفى نسخة يَتَلَّوى بياء مثناة مفتوحة وفوقية مفتوحة ولام كذلك وواو مشددة مفتوحة يليها ألف، ومعناه ينقلب على فراشه من ألم الجوع من لواه ليا إذا صرفه عن جانب لآخر قال تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]، وهذا لزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الدنيا وصبره على مشاقها؛ ليقمع شهوته ونفسه ويقهرها ويرشد أمته لذلك كما بينه بعد، وقوله: **(فلا يمنعه)** ذلك أو جوعه **(صيام يومه)** بالنصب بيمنع، أو بنزع الخافض، أى عن صيام يومه، يقال: منعت الرجل عن الشىء فامتنع.

وقوله: **(ولو شاء)**، صلى الله تعالى عليه وسلم، الغنى أو الشبع، وشاء كثيرًا ما يحذف مفعولها بعد لو؛ لدلالة جوابها عليه **(سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها)** ما بعد الكنوز يجوز جره عطفًا عليه، ونصبه عطفًا عن جميع، والكنوز جمع كنز وهو معروف، والثمار جمع ثمرة، وهى ما يحصل من الأشجار ونحوها، وقد يراد بكل ما يستفاد من غيره كما يقال: ثمرة العلم العمل، ويجوز إرادة هذا هنا، ورغد بفتحتين وقد

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٣، ٤١٢٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٧/٩٩).

يسكن ثانيه يقال فيه: رغيد وأرغد، والعيش بمعنى المعيشة، والمراد ما يتعيش بـه، وأصـل معنى الرغد الواسع، يقال: أرغد فلان إذا أصاب رغدًا، أى سعة وخصبًا وغيره.

(لقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به)، وفى نسخة: «لما أرى به»، أى مما أشـاهده بـه، أو مما أعلمه به، **(وأمسح بيدى على بطنه)** كأنه بمسحه تستريح بذلـك كمـا كـان يضع الحجر عليه؛ ليبرده ويشد صلبه وهذا للشفقة **(مما به من الجوع)**، أى من ألمه، ثم تبين أن ذلك شفقة بقولها: **(وأقول: نفسى لك الفداء)** تقدم أن الفداء بالكسر والفتح والقصر والمد، وهو ما يفدى به الأسير ونحوه، فيجعل عوضًا عنه، ويقال: أفديـه بنفسـى وبـأمى وبأبى ومالى، وقد يقال: بنفسى من غير ذكر للفداء، وتسـمى البـاء بـاء التفديـة، وهـذا جائز بل مستحب؛ لصدوره منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيقال لمن شرف كالحكـام والعلماء والصلحاء وأعزة الإخوان: قصدًا لتوقيره واستعطافه، ولو كان محظورًا كما قيل ما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونهى عنه من قاله له، وقد قال أبو بكـر، رضـى الله تعالى عنه: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، وقال، صلى الله تعالى عليه وسـلم، لسعد: ارم فـداك أبى وأمى، ومنعه قوم لحديث مالك بن فضالـة أن الزبـير، رضـى الله تعـالى عنـه، دخـل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو شـاك، فقـال: كيـف تجـدك؟ جعلنـى الله فـداك، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: ما زلت على أعرابيتك بعد.

قيل: ولا حجة فيه لما ادعـوه؛ لأن الحديـث الواحـد لا يقـاوم الأحـاديث الصحيحـة الكثيرة الواردة بخلافه، ولاحتمال أنه إنما نهاه عنه لوروده فى غير محله؛ لأنه لا ينبغـى أن يقال ذلك للمريض، بل يتوجع له ويقـال: لا بـأس عليـك وعافـاك الله وشـفاك ونحـوه، ولكل مقام مقال لا لأن القائل له كان أبواه مشـركين، ولا لأنـه مـن خصوصياتـه؛ لأن من قائليه من ليس كذلك، والأصل عدم الخصوصية.

(لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك) التبلغ مفعل من البلاغ، وهـو مقـدار الكفايـة يقـال: تزود من دنياك بالبلاغ مأخوذ من الزاد الذى يبلغ به المسافر منزلـه، وضمنـه هنـا معنـى اكتفيت أى لو اكتفيت منها بالكفاف من القوت من غير ضرورة ومخمصة، ولو للتمنى.

(فيقول)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعائشة، رضى الله تعالى عنـها: **(مـالى وللدنيـا)** قيل: ما نافية أى ليس لى ألفة ومحبة مع الدنيا حتى أرغب فيها، أو استفهامية أى أىّ ألفة ومحبة ورغبة لى فى الدنيا.

وهذا من إيثاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، الزهد، وإظهاره لغنى القلب ومحبة تركه لها، ثم بين أنـه مقـام عظيـم سبقه بـه الرسـل، عليـهم الصـلاة والسـلام، فجـرى علـى

طريقتهم، فقال: **(إخوانى من أولى العزم من الرسل)** تقدم أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، على خلاف فيهم، وفى وجه تسميتهم بذلك.

(صبروا على ما هو أشد من هذا) كالحبس والعرض على القتل، أو غير ذلك مما علم من التفاسير، **(فمضوا على حالهم)** أى استمروا عليه راضين بقضاء الله لهم إلى أن ماتوا.

(فقدموا على ربهم)، أى لاقوه وشهدوا ما انكشف لهم من أحوال الآخرة فى البرزخ، **(فأكرم مآبهم)** أى أكرمهم الله فى مرجعهم إليه يقال: آب يؤب إذا رجع، فهو اسم مكان أو مصدر ميمى، **(وأجزل ثوابهم)** أى كثر لهم العطاء والجزاء فى دار المقام.

(فأجدنى أستحيى) من الله عند لقائه **(إن ترفهت فى معيشتى)** أى إن تنعمت وتوسعت فى العيش، والترفه تفعل من الرفاهة والرفاهية، وهى كالرغد السعة، وقد كان الله خيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبيل موته بين الخلد فى الدنيا ولقائه، فاختار لقاءه كما قاله ابن العربى، وإن شرطية، ويجوز فتحها على المصدرية بتقدير لام قبلها أى لترفهى، ووقع فى نسخة فى معيشتهم أى فى جنس معيشتهم، والأصح الأولى.

(أن يقصر بى غدًا) يقصر مبنى للمجهول مع التشديد، أى أن يقع التقصير، أو القصر بالكسر حاله وعمله **(دونهم)**، أى فيكون مقامى دون مقامهم لتنزل مرتبتى عن مرتبتهم، والمعيشة مفعلة وجمعه معايش بلا همزة، وقد تهمز قليلاً كما بينه النحاة، وهى ما يتعيش به، وغدا بالمعجمة اليوم الذى بعد يومك، والمراد به الآخرة جعل الدنيا بمنزلة اليوم الحاضر، والآخرة بكونها بعدها بمنزلة غدا استعارة.

(وما من شىء هو أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى) بالمد مضاف لياء المتكلم جمع خليل، وهو قياس فى المضاعف، والمراد بالإخوان والأخلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، السابق ذكرهم، **(والرفيق الأعلى)**.

وعن عائشة، رضى الله عنها، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «لم يقبض نبى حتى يرى مقعده من الجنة ويخير بذلك»، فلما حضرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، الوفاة شخص بصره، وهو يقول: «اللهم اغفر لى وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى»(١)، كما فى البخارى، وفى النهاية: الرفيق الأعلى جماعة النبيين الذى يسكنون أعلى عليين، والمراد به الله عز وجل، والرفيق بمعنى الرءوف، وهو من أسماء الله كالأعلى، واللحوق بهم بمعنى كونهم معهم.

(قالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها: **(فما أقام بعد)** بالبناء على الضم، أى بعد

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٩٤).

مقالته هذه (**إلا شهرًا حتى توفى، صلى الله تعالى عليه وسلم**)، أى انتقل للآخرة واستوفى أيام عمره.

* * *

(فصل وأما خوفه ربه)

عز وجل، ولما كان الزهد ترك الدنيا باختياره وحبسه نفسه عن الشهوات، وذلك إنما يكون بعد تحقيق الخوف والرجاء عقب الزهد بالخوف من الله، وربه منصوب مفعول المصدر، واعلم أنهم اختلفوا فى خوف النبى، صلى الله تعالى عنه وسلم، من عقاب الله، فقال الإمام أبو الحسن الأشعرى فى كتاب الإيجاز: كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاف الله بلا خلاف، إلا أن خوفه كان لماذا؟ فقال أهل الحق: كان خوفه قبل أن آمنه الله من عقابه، وبعده كان من عتابه ولومه فى الدنيا كما قيل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أعرض عن ابن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١]، الآية، فأما بعد أن آمنه الله تعالى من عقابه، فلا يجوز أن يخاف عقابه مع علمه بأنه آمنه منه، فأخبره بأنه لا يخاف عقابه خلافًا للرافضة والقدرية، حيث زعموا أنه هو وسائر المكلفين ما داموا المكلفين فى الدنيا لابد أن يخافوا عقابه سواء آمنهم أم لا.

دليلنا: أن الخوف من شىء لا يجوز إلا مع تجويز نزوله به، وأما مع القطع بأنه لا يحصل أبدًا فمحال حصول الخوف منه عند عاقل، فلو قلنا: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يخاف عقاب الله مع تأمين الله له من ذلك لأدى إلى كونه شاكًا فى غيره، وأنه صدق أو كذب فى أخباره بأنه لا يتعلق به عقاب، ولما بطل هذا بالاتفاق علم أن الخوف لا يصح مع القطع بأنه لا يعاقب أصلاً، انتهى.

وسئل شيخ مشايخنا ابن حجر الهيتمى عن الأنبياء، والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، والعشرة المبشرة بالجنة، هل كانوا يخافون عقاب الله تعالى بعد إخبار الله لهم بأنهم لا يعذبون؟ فأجاب بأن نفى الخوف وإثبات الأمن لمن ذكر مطلقًا باطل، بل مصادم للنصوص من وجوه:

أحدها: أن حقيقة الخوف كما فى الإحياء ألم القلب لتوقع مكروه فى المستقبل، وهو أقسام منها خوف ضعف القوة عن الوفاء بحقوق الله على ما ينبغى، والخوف بهذا المعنى محقق فى جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ويلزمه عدم الأمن من مكر الله، ولا يأمنه أحد إلا إن كان المأمون منه الانسلاخ عن النبوة، والملكية، والإيمان فى العشرة على أنه قيل بوقوعه لبعضهم.

والرجاء والخوف متلازمان، واشتراط الرجاء والخوف بما هو مشكوك فيه لا تأييد فيه؛ لأنهم لا يخافون لأنهم على بينة ويقين من ربهم كما قيل، بل هو حجة عليه لما مر من معنى الخوف، فالكل على يقين من أصل الكمال، وقد تعتريهم استشعار قدرة الله واستغنائه عن خلقه، وأنه لا يسئل عما يفعل، ولا يجب عليه شيء وقد يشترط ما أخبرهم به بما انطوى عن علمهم، فيوجب الخوف حتى من سلب أصل الكمال.

الثانى: أن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، صرح بأن الملائكة داخلون فى قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، لما أخرج ابن أبى حاتم من أن الله تعالى قال لهم: ما هذا الخوف الذى بلغ منكم وقد أنزلتكم منزلة لم ينزلها غيركم؟، فقالوا ربنا لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون.

الثالث: ما فى الإحياء أن الأنبياء عليهم، الصلاة والسلام، يخافون المكر؛ لما روى أن النبى وجبريل، عليهما الصلاة والسلام، بكيا خوفا من أن يكون تأمينهم امتحانا ومكرا، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين، فلا شبهة فى ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ﴾ [الأحقاف: ٩].

فإن قلت: يرده ما روى عن الحسن أنه لما نزلت هذه الآية خاف، صلى الله تعالى عليه وسلم، زمانا، فلما نزل ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]، إلخ جد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى العبادة، وقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»[١]، وروى أنه قال فى الآية: إن ذلك فى الدنيا أما فى الآخرة فمعاذ الله، لأنه أخبر بأنه فى الجنة، فالمعنى: ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا، فأخبره بنصره وإظهار دينه.

قلت: المراد خوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أمور الدنيا واستئصال أمته، فآمنه الله منه، وأما الخوف من الله فلا يأمنه أحد.

الرابع: أنه ورد فى أدعيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرًا ما يدل عليه نحو: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[٢]، وقوله: «اللهم إنى أعوذ من عذاب النار، وفتنة المحيا والممات»[٣]، وليس هذا تشريعًا

---

(١) أخرجه البخارى (٦٣/٢، ١٦٩/٦، ١٢٤/٨)، ومسلم فى صفات المنافقين برقم (٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذى (٤١٢)، والنسائى (٢١٩/٣)، وابن ماجه (١٤١٩، ١٤٢٠)، وأحمد (٢٥١/٤، ٢٥٥، ١١٥/٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٣٣)، والترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٢٤٩/٣)، وابن ماجه (١١٧٩، ٣٨٤١)، وأحمد (٩٦/١، ٢٠١/٦)، وابن حبان (٥٤١)، وابن خزيمة (٦٥٥).

(٣) أخرجه البخارى (١٠٠/٨)، وأبو داود (١٥٤٨)، والترمذى (٣٤٩٥)، والنسائى (٢٦٢/٨)، وابن ماجه (٣٨٣٨)، وأحمد (٥٧/٦)، وعبد الرزاق (١٩٦٣١)، والحاكم (٥٤١/١).

لأمته أن يقولوه؛ لأنه لم يقل: قولوا، ولا قرينة على تقديره، انتهى.

وقد اختلف الفقهاء فى الأمن من مكر الله، واليأس من رحمته، فقالت الشافعية: إنهما من الكبائر، وقالت الحنفية: إنهما كفر لقوله تعالى: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وتمسك الشافعية لعدهما من الكبائر بما ورد فى حديث ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، وقال ابن أبى شريف: إن أريد باليأس إنكار سعة الرحمة الذنوب، وبالأمن أنه لا مكر، فهو كفر وفاقًا؛ لأنه رد للقرآن، وإن أريد استعظام الذنوب واستبعاد العفو استبعادًا يدخل فى حد اليأس، وغلبة الرجاء المدخل له فى حد الأمن، فهو كبيرة لا كفر، فإن ورد إطلاقه عليه فللتغليظ، أو إرادة كفران النعمة، انتهى.

وبهذا وفق بينهما ابن نجيم فى رسائله، وعلى ما مر عن الأشعرى يخص الأمن بغير من مر، وعلى غيره هو باق على عمومه.

هذا جملة ما قاله الفقهاء والأصوليون فى هذه المسألة، وهاهنا بحث فيما قالوه، وهو أن الأشعرى إمام أهل السنة، وقد جزم بأنهم عمومًا ذهبوا إلى أمنهم من العقاب كان دون العتاب، وقوله: أفلا أكون عبدًا شكورًا يؤيده، وما ذكر من الخوف والأدعية، فالظاهر الذى يقتضيه النظر الدقيق أن مكر الله ليس بمعنى عقابه، بل بمعنى يقدر عليهم أمرًا يقتضيه إذا صدر منهم؛ لأنه تعالى وإن كان له أن يعذب كل أحد، لكن عدله وحكمته يقتضى أن لا يقع ذلك منه، بل يجوز جوازًا عقليًا، ومن علم هذا، ونظر لعظمته واستغنائه عن جميع مخلوقاته خاف منه وخشى منه، وهذا مقام الكاملين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا الخوف لابد منه لكل أحد، وأما خوفه العقاب بدون هذا ما دام على حال العصمة والتقوى، فلا يجوز عليهم، فإنه يلزمه عدم الوثوق بخبره تعالى، وعلى هذا يحمل كلام الأشعرى، وهو مناف لما قاله ابن حجر، رحمه الله تعالى.

إذا عرفت هذا فقوله فى شرح جمع الجوامع: الأمن من مكر الله تعالى معناه الاسترسال فى المعاصى اتكالاً على العفو ليس بسديد، وليس محلاً للخلاف.

ثم أقول: الحق ما قاله الأشعرى، والذى ندين الله به أنا نعتقد أن العقاب لا يقع، وأن الأنبياء خصوصًا نبينا، عليهم الصلاة والسلام، بعد عصمته ومغفرة ما تقدم وما تأخر له لا يخشى أحد عليه العقاب، ولا يجوز تجويزه عليه، أما هو فلعظمة الله ومهابته

عنده، وعلمه بأنه غنى عن خلقه له أن يفعل بهم ما أراد، فيخافه خوفًا شديدًا، ويستعيذ من عقابه، وإن لم نجوزه نحن.

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، إيماء لذلك دقيق، وما قاله ابن حجر لا دليل له فيه، وكلام الغزالى لا حجة له فيه، والآية التى ذكرها مخصوصة بالدنيا، أو منسوخة كما فى الكشاف.

ولك أن تقول: إنه لشدة خوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الله قد يذهل عن تأمين الله له لا سيما مع ما مر، ونظيره ما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، فى أجوبة الأسئلة التكرورية فى قول يوسف، عليه الصلاة والسلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، وهو يعلم أن كل نبى لا يموت إلا مسلمًا: إنه دعى بذلك فى حال غلبة الخوف عليه حتى أذهلته عن علمه ساعة الدعاء، أو ذلك إظهارًا للعبودية والافتقار وشده الرغبة فى طلب سعادة الخاتمة، وتعليمها للأمة، انتهى، ثم رأيت ما قلناه صرح به ابن عربى فى سراج المريدين، فالحمد لله على الوفاق، وإنما أطلنا الكلام فى هذا المقام؛ لأنه من مزال الأقدام، فعليك بإعادة النظر.

فإن مورده لم يصف من الكدر، ولنا عودة إلى الكلام فيه آخر الكتاب، إن شاء الله تعالى.

(وطاعته له وشدة عبادته) قرنهما مع الخوف لتلازمهما معه، **(فعلى قدر علمه بربه)** قال القشيرى، رحمه الله تعالى: العلم والمعرفه عند العلماء بمعنى، وعند القوم معرفة الحق بأسمائه وصفاته، ومن عرفه صدق فى معاملاته، وتنقى من ردى أخلاقه وآفاته، ومن أمارات المعرفة حصول الهيبة وهى الخوف مع الإجلال، وإلى ذلك أشار المصنف، فإن من قدر الله حق قدره اشتد خوفه منه، وأطاعه وعبده على قدر طاقته، وإنما يعصى الله من جهل ربه ونفسه، فإن الإيمان محبة الله، ومن أحبه أطاعه، وتحت الرغوة اللبن الصريح.

(ولذلك قال فيما حدثناه)، وفى نسخة حدثنى **(أبو محمد بن عتاب قراءة منى عليه)** تقدم ترجمته قال: **(حدثنا أبو القاسم الطرابلسى)** حاتم بن محمد بن عبد الرحمن التميمى المعروف بابن الطرابلسى كما تقدم عن البرهان، فالنسبة إليه طرابلسى وأطرابلسى بزيادة همزة فى أوله، وهى مدينة بالشام وبالمغرب، والمشهور فيها ترابلس بالتاء الفوقية، وهو صحيح أيضًا؛ لأنه أعجمى عرب بإبدال التاء طاء، فلك حكاية أصله والنطق بمعربه قال: **(حدثنا أبو الحسن القابسى)** على بن محمد بن خالد المغافرى الإمام الفقيه الحافظ،

وقد تقدم قال: **(حدثنا أبو زيد المروزى)** تقدم أيضًا قال: **(حدثنا أبو عبد الله الفربرى)** تقدم ضبطه وترجمته قال: **(حدثنا محمد بن إسماعيل)** الإمام البخارى صاحب الصحيح، وقد تقدم قال: **(حدثنا يحيى بن بكير)** المخزومى الحافظ أبو زكريا المصرى، روى عنه البخارى وغيره، وهو ثقة وإن ضعفه بعضهم، توفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

(عن الليث) بن سعد بن عبد الرحمن بن حمزة عالم مصر وأصله من أصفهان، وكان نظيرًا للإمام مالك، وكان أسخى الناس فقيل: إنه كان دخله فى كل يوم ألف دينار، ولم تجب عليه زكاة، توفى يوم الجمعة منتصف رمضان سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل غير ذلك، وأدرك ناسًا من التابعين.

(عن عقيل) مصغر وهو عقيل بن خالد الحافظ، أخرج له الأئمة الستة وله ترجمة فى الميزان، توفى سنة إحدى وأربعين ومائة.

(عن ابن شهاب) تقدم أبو بكر بن محمد الإمام المشهور بالزهرى **(عن سعيد بن المسيب)** تقدم ضبطه والكلام عليه **(أن أبا هريرة، رضى الله تعالى عنه)**، تقدم أيضًا **(كان يقول: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لو تعلمون ما أعلم)** من عظمة الله وجلاله وكبريائه هذا هو المناسب للترجمة أو ما أعلم من أحوال الآخرة وأهوالها وما سيلقاه الإنسان، **(لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا)** يأتى بيانه، وفى الحديث طباقان أو ثلاثة بين قليل والبكاء والعلم، وبين الكثرة والضحك وعدم العلم، فتدبر.

وهذا الحديث رواه المصنف، رحمه الله، عن صحيح البخارى، وله فيه رواية أخرى عن الترمذى أشار إليها بقوله: **(زاد فى روايتنا عن أبى عيسى الترمذى رفعه)** بصيغة الماضى، أى زاد هذا الكلام، أو مصدر فهو مفعول زاد **(إلى أبى ذر، رضى الله تعالى عنه)**، يعنى أن رواية البخارى السابقة رواية أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وهذه رواية أبى ذر، رضى الله عنه، عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد خالف المصنف فى عبارته ما اصطلح عليه المحدثون، فإن المرفوع عندهم ما اتصل بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن يذكر صحابى قال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا، فيقال: رفعه إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا إلى الصحابى، وقيل: الجار والمجرور متعلق بحال مقدرة تقديره عازيا إلى أبى ذر، فلا مخالفة فيه لاصطلاحهم، وسيأتى تتمته.

(إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون) المراد بما الموصولة فيهما مغيبات، وأمور فى الملأ الأعلى أطلعه الله عليها، وغيره لا يراها كرؤية الملائكة والجنة والنار وعذاب القبر، والاطلاع على الموتى وأحوال البرزخ، وسماعه لأصوات المعذبين فى القبور،

ولأطيط السماء المشار إليه بقوله: (**أطت السماء**) أصل معنى الأطيط صوت الإبل إذا حنت، والقتب إذا ضغطه ثقل ما عليه، ونحو ذلك أى أن السماء لكثرة ما عليها من الملائكة إذا تحركوا يسمع لها صوت سمعه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (**وحق لها**) بالبناء للمجهول، أو هو مصدر مرفوع خبر مقدم لقوله: (**أن تئط**)، أى تصوت يسمع لها صرير لثقل ما عليها، وعلى الأول هو نائب الفاعل، وقد قيل: إن صريرها يسمع منه ألحان متناسبة مطربة منها أخذ ألحان الموسيقى، ولذا تطرب الأرواح لسماعه لتذكرها معاهد حماها، وقيل: إنه أنين من خشية الله، وقال التلمسانى: هذا إيذان بكثرة ما فى السماء من الملائكة وإن لم يكن ثمة أطيط، والمراد تقرير عظمة الله، ثم استأنف، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يبين سبب أطيطها، فقال: (**ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله**)، أى ليس فيها مكان خال منهم، ومن هنا علم أن الملائكة أكثر المخلوقات.

(**والله لو تعلمون ما أعلم**) من أحوال الدنيا والآخرة الدال على عظمة الله تعالى وقدرته، (**لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**)، أى لضحكتم ضحكًا قليلاً إذا سررتم برجاء عفو الله، ونظرتم ما أنعم الله به عليكم، وبكيتم للخوف منه حتى يشغلكم ذلك عن التنعم والتفكه بلذائذ الدنيا.

(**وما تلذذتم بالنساء على الفرش**) بضمتين جمع فراش، وكنى بذلك عن مضاجعة النساء ومجامعتهن، (**ولخرجتم إلى الصعدات**) بضم الصاد والعين وفتح الدال المهملات جمع مؤنث سالم لصعد بضمتين جمع صعيد كطريق وطرق لفظًا ومعنى، أى لخرجتم من دوركم للطريق وممر الناس، وقيل: جمع صعدة كظلمة وهى فناء الدار (**تجأرون إلى الله**) أى تضجون وتصيحون من الجؤار بضم الجيم وفتح الهمزة وألف وراء مهملة، وهو الصياح ورفع الصوت أى تستغيثون الله وتتركون أهلكم ومساكنكم.

(**لوددت أنى شجرة تعضد**) أى تقطع من أصلها يقال: عضدت الخشب والنبات إذا قطعته، واللام فى جواب قسم مقدر، وودت بزنة علمت بمعنى تمنيت، والعرب تقول: وددت وبودى إذا تمنيت، قال البحترى:

وبودى لو استطعت لحقت ... بصبر عن سيدى حين ملا

وهو مستعار من المودة المعروفة، قال الراغب: الود محبة الشيء وتمنى كونه موجودًا، ويستعمل فى كل واحد من المعنيين على أن التمنى يتضمن معنى الود؛ لأن التمنى يشتهى حصول ما يوده، انتهى، والمراد تمنيه أن يكون غير ذى روح، فلا يبعث

ولايسأل، وعضد الشجر موته وآخر العهد به.

(روى هذا الكلام) يعنى قوله: **(وددت أنى شجرة تعضد)**، فهو بدل من الكلام مبين له **(من قول أبى ذر نفسه)** لا من الحديث، وكلام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وهو) أى كونه منه قول أبى ذر **(أصح)**، وفى نسخة واضح بالضاد المعجمة، والصحيح أصح أى من كونه من الحديث مرفوعًا له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أليق بحاله وأنسب بكلامه بخلاف ما قبله، فإنه من الحديث بلا خلاف، وإلى هذا أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله سابقًا: زاد فى روايتنا عن أبى عيسى الترمذى رفعه إلى أبى ذر، وإذا كان من كلام أبى ذر، فهو مدرج فى الحديث إذ لم يميز لفظه، فاعتراض البرهان الحلبى عليه بأنه كان ينبغى له أن يقول: إنه مدرج لا وجه له، نعم فى عبارته السابقة كدر لا يخفى.

قيل: وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تمنى ما ذكر مشكل؛ لأنه مقطوع له بالزلفى آمن من كل سوء موقن بالدرجات العلى، وخوفه إنما هو خوف إجلال وهيبة كخوفنا من غضب الله وسوء الخاتمة، وقول بعض الصحابة المبشرين بالجنة: ليتنى طائر، وليتنى لم أخلق بشرًا، أو ليتنى كبشًا يذبح ويؤكل لحمه، ليس لعدم الوثوق بالوعد، بل لم يكن إلا خوفًا من مخالفة أمره، فإنهم يجلونه ويخافون من مخالفته، وإن لم يعاقبهم، وهذا كلام من لم يحقق المقام، وقد تقدم فى أول الفصل ما فيه كفاية.

(وفى حديث المغيرة، رضى الله عنه)، المتفق عليه فى رواية الشيخين، والمغيرة بضم أوله ويكسر إتباعًا أى ابن شعبة من الصحابة، وهو أحد دهاة العرب: **(صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)**، أى صلاة التطوع والتهجد؛ لأن الزيادة المذكورة فى بعض الروايات إنما تأتى فيها **(حتى انتفخت قدماه)** أى ورمت من طول القيام.

(وفى رواية أنه كان يصلى حتى ترم) بفتح المثناة الفوقية وكسر الراء المخففة المهملة وميم مخففة مضارع ورم إذا انتفخ؛ لانصباب المادة لقدميه من طول وقوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووقع فى بعض النسخ ترم بتشديد الميم، أى تصير رميمًا، وهى غير صحيحة رواية ودراية **(قدماه)** وفى رواية ساقاه، وروى تورمت وتزلعت بزاى معجمة وعين مهملة أى تشققت.

(فقيل له: أتكلف هذا؟) بهمزة استفهام وفتح التاء الفوقية، وأصله أتتكلف فحذفت إحدى التائين تخفيفًا أى تتحمل مشقته وكلفته، **(وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)** جملة حالية معترضة بين الاستفهام وجوابه، وسيأتى ما فى إضافة الذنب له، صلى

الله تعالى عليه وسلم، مع أنه معصوم عن الصغائر والكبائر على الأصح بأن المراد لو صدر منك، أو ما يعد من الذنوب بالنسبة لغيرك لتنزهك وعلو مقامك، وستسمع تفصيله في محله.

(قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا) لما أنعم الله على من جلائل النعم التي لا تحصى، ومن أجلها عصمته لي ومغفرته لذنبي قبل وقوعه، والاستفهام إنكاري والفاء سببية، أي أترك الصلاة لمغفرته، وهي سبب موجب للعبادة لا لتركها، وقوله: شكورًا؛ لأنها نعم جليلة تستوجب مزيد شكره، وقوله: عبدًا تلويح لغاية إكرامه له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتقريبه ونسبته لسيده، وكله يقتضي أجل الشكر وهو العبادة.

(ونحوه عن أبي سلمة)، رحمه الله تعالى، واسمه عبد الله أو إسماعيل، أو اسمه كنيته ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري التابعي، أحد الفقهاء السبعة المشهور بروايته عن أبي هريرة وغيره، وفي الصحابة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، مات في حياة النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يعرف له إلا حديث واحد وآخران غير مشهورين ولا الرواية عنهم مشهورة.

(وأبي هريرة، رضي الله تعالى عنه)، قال البرهان: هكذا في النسخ، قال المحشي: وأنا أخشى أن يكون هذا غلطًا، والصواب فيه أن يكون عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، فإنه وقع هكذا في الشمائل في باب عبادة رسول الله ﷺ بعد أن ذكر حديث المغيرة الذي ذكره المصنف هنا، فقال بعده: حدثنا الفضل بن موسى عن محمد ابن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه: كان يصلي إلخ، إلا أن يكون المصنف وقف على حديث آخر لأبي سلمة الصحابي، ولم نره.

قلت: ويحتمل أن يكون مراده عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، ولكنه عطف أحدهما على الآخر وهو بعيد أيضًا.

(وقالت عائشة، رضي الله عنها)، كما رواه الشيخان: **(كان عمل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديمة)** بكسر الدال وسكون الياء المنقلبة عن الواو؛ لأنه من الدوام، ومعناه الدائم، وأصل معناه المطر الدائم في سكون وهدوء، وفي الحديث: «أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دُوِم عليه، وإن قل»[1]؛ لأن ترك الشيء بعد فعله كالإعراض عنه بعد الإقبال، ولذا وقع الوعيد لمن حفظ القرآن ثم نسيه.

(وأيكم يطيق ما كان يطيق): أي أيكم يقتدر أن يعبد الله كما عبده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما وكيفا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(وقالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها: **(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم)** روى نقول بالنون والتاء الفوقية، وبرفع يقول ونصبه كما قرئ به فى قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى بعض الأزمنة يوالى الصوم حتى يتوهم أنه صائم الدهر، وتارة يكثر الفطر حتى يظن أنه لا يصوم نافلة، وقيل: المراد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصوم من أول الشهر ووسطه وآخره حتى يتوهم من صادف أيام صومه أنه دائم الصوم، ومن صادف إفطاره كذلك، وهو بعيد، وهذا لا ينافى كون عمله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديمة؛ لأنه بالنسبة لما كان راتبًا كصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهذا بالنسبة لغيره، ولك أن تقول: الأول فى صلاته وقيامه، وهذا فى صيامه، ويؤيده لفظ العمل لكن يأباه قوله: **(ونحوه عن ابن عباس وأم سلمة وأنس، رضى الله عنهم)**، واسم أم سلمة هند على الصحيح، وقيل: رملة، والأحاديث التى رواها هؤلاء بمعنى ما تقدم مع اختلاف فى بعض ألفاظها، وكلها صحيحة مروية فى الصحيحين وابن حبان، وقد ذكرها بعض الشراح هنا ولكن لا حاجة بنا لإيرادها هنا كما فى الشرح الجديد.

(قالت) عائشة، رضى الله عنها: **(كنت لا تشاء أن تراه)** ﷺ **(من الليل مصليا إلا رأيته مصليا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا، وقال عوف بن مالك)**: هو عبد الرحمن الأشجعى الصحابى الجليل القدر، رضى الله عنه، سكن الشام، وتوفى فى أيام عبد الملك سنة ثلاث وسبعين، وهذا الحديث رواه أبو داود، والنسائى:

(كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاك ثم توضأ ثم قام فصلى، فقمت معه)، أى أتهجد وأقتدى به، وفيه دليل على صحة الاقتداء فى صلاة النافلة من غير نزاع، وإليه ذهب الشافعى، رحمه الله، وبعض الحنفية.

(وبدأ الصلاة)، وفى نسخة فابتدأ بالفاء، أى شرع فى الصلاة، **(فاستفتح البقرة)**، أى شرع فى قراءتها، وفيه دليل على أنه يقال: البقرة، وسورة البقرة من غير كراهة كما ورد فى أحاديث لا تحصى، وأسماء السور توقيفية على الأصح خلافًا لمن قال: إنه يكره، وإنما يقال: السورة التى يذكر فيها البقرة، والسورة التى يذكر فيها التين وهكذا؛ لما روى الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعًا: «لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، ولكن قولوا: السورة التى يذكر فيها البقرة»[1] وهكذا، وهو

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٤١٨/٣)، وانظر: اللآلئ المصنوعة (١٢٤/١)، وتنزيه الشريعة (٢٩١/١)، والدر المنثور (١٨/١).

ضعيف، بل قال ابن الجوزى: إنه موضوع، والأحاديث المعارضة له صحيحة، فهى أرجح وعليه العمل، أو نقول: إن هذا كان فى أول الإسلام، ثم نسخ لأن المشركين كانوا يستهزءون بهم إذا قالوا: سورة العنكبوت ونحوها، فلما كفاه الله المستهزئين، وكف السيف أيديهم وألسنتهم قيل ذلك من غير حرج.

(فلا يمر)، صلى الله تعالى عليه وسلم **(بآية رحمة إلا وقف فسأل)** الله الرحمة، **(ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ)** بالله من العذاب، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى، ويؤخذ منه أنه ينبغى لمن قرأ القرآن أن يتدبره ويتفكر فى معانيه، وأن الدعاء بما يناسبه مستحب ومستجاب، فيدعو بما يناسبه، وإذا ذكر الإيمان بالله يستحب أن يقول: آمنت بالله ونحوه، ونحو هذا ما ورد أن من قرأ سورة تبارك فبلغ: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]، فليقل: الله رب العالمين، وإذا قرأ سورة التين، فبلغ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وإذا قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، وبلغ قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]، فليقل: بلى، وإذا قرأ والمرسلات، وبلغ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فليقل: آمنا بالله، وإذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، فليقل: سبحان ربى الأعلى، وإذا قرأ سورة الرحمن، فليقل عند كل ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، ولا شىء من نعمك ربنا نكذب، وكل ذلك ورد فى الأحاديث الصحيحة، وهذا نظير سجود التلاوة، إلا أن من الناس من فعل أمورًا زائدة على ما ورد كالدعاء بين الجلالتين فى سورة الأنعام، وقد قال البقاعى: إنه بدعة لم يرد فى أثر ولا حديث.

(ثم ركع فمكث) بضم الكاف، وهى لغة القرآن وتفتح فى لغة عنه، ومعناه انتظر وتوقف **(بقدر قيامه يقول: سبحان الله ذى الجبروت والملكوت والعظمة)** هذه الصيغة مر أنها صيغة مبالغة كالرهبوت والرحموت والرغبوت، وهى مصادر فى الأكثر، ووردت فى الأسماء أيضًا كجالوت، الجبروت مبالغة فى الجبر وهو القهر، والملكوت الملك العظيم، وعقبها بالعظمة؛ لأنهما كالدليل عليها، ولأنها أعم، ويكون، صلى الله تعالى عليه وسلم، كرر ذلك مرارًا كثيرة حتى يكون بمقدار قيامه كما لا يخفى.

(ثم سجد فقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران) أى السورة التى ذكر فيها قصة آل عمران، وقد تقدم جوازه وما فيه.

(ثم سورة سورة) أى ثم قرأ فى صلاته فى كل ركعة سورة بعد سورة، وهما منصوبان على الحالية كما قرره النحاة فى قولهم: قرأت النحو بابًا بابًا، وجعله التلمسانى منصوبًا مفعولاً لقرأ المقدرة فيه، وفيه نظر، والسورة مهموزة من السؤر وهو

بعض الماء الباقى فى الإناء وتبدل همزته واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها، وقيل: إن واوه أصلية على أنه من السور لإحاطتها بالآيات، أو من السوار أو من التسور لرفعتها، والسورة مقدار من القرآن مشتمل على آيات أقلها ثلاثة مسماة باسم، ولا يرد عليه آية الكرسى لذكر الآية (**يفعل مثل ذلك**) المذكور من القراءة والتسبيح.

(**وعن حذيفة**) بن اليمان الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه مسلم عنه (**مثله**) أى مثل الحديث السابق.

(**وقال**) حذيفة، رضى الله تعالى عنه: (**سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدتين نحوًا منه**) أصل معنى النحو القصد، ومنه علم النحو، ويقال: هذا نحو هذا أى مثله أو قريب منه.

فإن قلت: ذكر الفقهاء أن الجلوس بين السجدتين ركن قصير غير مقصود لذاته، بل للفصل بين السجدتين حتى قال بعض الشافعية: إن تطويله قصدًا مبطل للصلاة ومخل بالموالاة، وحديث حذيفة صحيح رواه مسلم كما مر وهو مناف لما ذكر.

قلت: قالوا: إنه إنما يضر إذا طول بسكون أو بذكر غير مشروع، فلو طول بغير ذلك كما فى صلاة التسبيح، فلا يضر، وقد يستحب كما ذهب إليه النووى تبعًا لإمام الحرمين استدلالاً بحديث حذيفة هذا، ولا يشترط أن يكون بمقدار أكمل التشهد.

(**وقال**) حذيفة، رضى الله تعالى عنه: (**حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة**) أى قرأ فى ركعة بسورة من هذه السور.

(**وعن عائشة، رضى الله عنها**)، فى حديث صحيح أخرجه أحمد، والنسائى، عن أبى ذر، والآية التى ذكرت فى قولها: (**قام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بآية من القرآن**)، أى رددها طول ليله ويكررها فى كل ركعة، وهى كما صرح به ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ [المائدة: ١١٨]، الآية فى سورة المائدة، وإنما أكثر تردادها للتدبر والتفكر فيها، فإن القرآن له بطون سبعة، ففى كل قراءة يظهر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لم يظهر قبل، والله تعالى تجلى لخلص عباده فى كلامه، ولكن لا تبصرون كما روى عن جعفر الصادق، رضى الله تعالى عنه، ففى كل قراءة يتجلى له الله فى مرآة كلامه، ومثل هذا لا تفى به العبارة، اللهم نور مشكاة قلوبنا حتى تطبع فيها صور الحقائق.

(**وعن عبد الله بن الشخير**) بكسر الشين والخاء المعجمتين المشددتين ومثناة تحتية ساكنة وراء مهملة، وهو ابن عوف بن كعب العامرى الصحابى البصرى المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام، وروى له أصحاب الكتب الستة، وهذا الحديث رواه أبو داود،

والترمذى، والنسائى:

(**أتيت رسول ﷺ، وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل**) جوف كل شىء باطنه، والمراد به ما تحت صدره وأضلاعه، والأزيز بهمزة مفتوحة وزائين معجمتين بينهما ياء مثناة تحتية ساكنة، وهو صوت الغليان إذا اشتد وهو المشيش، والمراد أنه ﷺ، لشدة خوفه وخشيته من الله يسمع حركة قلبه إذا رق صدره، وقيل: صوت الحنين مع البكاء، والمرجل بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح الجيم واللام القدر مطلقًا، وقيل: من نحاس.

(**قال ابن أبى هالة**) الصحابى المتقدم، رضى الله تعالى عنه: (**كان ﷺ متواصل الأحزان**)، أى حزينًا حزنا يتصل بعضه ببعض بحيث لا يفصل بينها فرح ومسرة، وهذا يقتضى الدوام، ولذا فسره بقوله: (**دائم الفكرة**)، أى تفكره دائمًا فى أمره وأمر أمته، ومن كان هكذا (**ليست له راحة**)؛ لاستغراق أوقاته فى الذى كلفه من أعباء الرسالة، وتبليغ الأحكام، وتدبير الحروب والوقائع، ومن نيط به أمور جميع الخلائق كيف يقضى من الهم، فإن الأمور بقدر الهمم، والظاهر أن هذا حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا لم يكن متكلمًا مع الناس فى مصاحبته لهم، وحكمه بينهم، وملاقاة من يقدم عليه من الوفود، وعرض الناس عليه أمورهم، وفى عشرة أهله، وإنما ذلك حال سكونه وهو بين الناس وفى خلوته بنفسه ومشيه وتعبده، أما فى غير ذلك فكان طلق المحيا متبسمًا متلقيا بالبشر ودوام كل شىء بحسب زمانه.

فاقسم لكل زمان ما يليق به ... فإن للزند حليا ليس للعنق

فسقط ما قيل: إنه وصف فى غير هذا الحديث بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائم البشر، وهذا مناقض له، وقد أورد عليه أيضًا أن الحزن فضلاً عن دوامه غير محمود، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠].

واستعاذ، صلى الله تعالى عليه وسلم، منه فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن» (١)، وتقدم الفرق بينهما بأن الهم لما يقع فى المستقبل والحزن لما مضى، وكلاهما مفتر للعزم مضعف للقلب غير معدود من مقامات العارفين؛ ولذا قال أهل

(١) أخرجه البخارى (٤/٢٣، ٧/٩٩، ٨/٩٧)، وأبو داود (١٥٤١)، والترمذى (٣٤٨٤، ٣٥٠٣)، والنسائى (٨/٢٥٧، ٢٥٨)، وأحمد (٣/١٥٩، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠)، والحاكم (١/٥٣٣).

الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه»، يدل على أنه مصيبة يؤجر المرء عليها، وسيأتى الكلام عليه، والحديث الذى ذكره المصنف رواه الطبرانى والقضاعى، وقال ابن القيم كما سيأتى: إنه لم يثبت، وفى سنده من لا يُعرف، ولا أعلم صحته، وفى التوراة: إذا أحب الله عبدًا جعل فى قلبه نائحة، وإذا أبغضه جعل فى قلبه مزمارًا.

فقال ابن القيم: أجمع أهل السلوك على أن الحزن ليس من مقامات السائرين إلى الله إلا أبو عثمان الخيرى، فإنه قال: الحزن فضيلة وزيادة كمال للمؤمن ما لم يكن على معصية؛ لأنه إن لم يوجب تخصيصًا أوجب تمحيصًا، فهو بلاء ومحنة كالمرض لا مقام كما قاله الجيلى، وحزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أودعه الله فيه من الرحمة ورقة القلب، فكان يحب هداية الأمة، فإذا رأى ما هم عليه من عنادهم وتخلفهم حزن لذلك، وخاف من أن ينسب إليه قصور فى دعوتهم، وبما قررناه ظهر أنه ليس فيما ذكر إشكال بوجه من الوجوه، ولا حاجة لتفسير دوام الفكرة بأنها فى ذات الله وصفاته حتى يرد عليه أنه منهى عنه، فيجاب بأن المنهى غير الكمل كما قيل.

(وقال، عليه الصلاة والسلام: إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة، وروى سبعين مرة) هذا حديث صحيح، وسيأتى الكلام عليه، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أستغفر الله، بمعنى أطلب منه المغفرة، أو أذكر هذا اللفظ بعينه، والسبعون عدد معلوم، وقد يراد به مجرد التكثير، وعلى هذا تكون الروايتان بمعنى، وطلب المغفرة وإن اقتضى الذنب، وهو ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر مطلقًا على الأصح، المراد به أنه مع كماله ﷺ يشهد فى نفسه قصورًا نزل منزلة الذنب، فاستغفر له أوعد اشتغاله بما أبيح له كالأكل، واشتغاله بأمور الناس ذنبًا لعوقه عن المشهود، أو هو تشريع لأمته، أو كان استغفاره ﷺ لذنوبهم، أو أنه لم يزل مترقيا فى المقامات، فكلما ترقى لمرتبة رأى ما دونها نقصًا فاستغفر منه، وستأتى تتمته.

(وعن على، كرم الله وجهه: سألت رسول الله ﷺ عن سنته) أى طريقته التى هو عليها، وهذا الحديث ذكره فى الإحياء، وقال الحافظ العراقى: إنه لا أصل له، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى: إنه موضوع وآثار الوضع لائحة عليه، وهو يشبه كلام الصوفية.

(فقال: المعرفة رأس مالى) رأس المال هو المال المعد للتجارة وما يكسب به هو الفائدة، والمراد بالمعرفة معرفة الله وصفاته الوقوف على غوامض الأمور مما لم يكن

يعلمه، وهى تختص بالعلم المسبوق بالعدم أو بالجزئيات، فلذا قيل: إن علـم الله لايسـمى معرفة، ولا يقال: الله عارف إلا أنها جاءت بمعنى العلم أيضا، والمراد هنا الأول لمقابلتها بالعلم، وهذا تشبيه بليغ كما قيل:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليـه مـن الإنفاق فى غير واجب

وقد تقدم.

(والعقل أصل دينى) مر أن العقل قوة غريزية فى الإنسان يسـتعد بـها لإدراك المعلـوم أى دينه وشرعه، أى ما تعبد به وتدين قبل البعثة، أو قبلها وبعدها، مبنى على ما أودعـه تعالى فيه من كمال عقله الذى هداه إلى النظر فى مصنوعات الله الدالـة علـى وحدانيتـه وعظمته، وأنه هو الحقيقى.

وفى الحديث أن عائشـــة، رضـى الله تعـالى عنـها، قـالت: يـا رسـول الله بم يتفـاضل الناس؟ قال: بالعقل فى الدنيا والآخرة. فقالت: أليس يجزون بأعمالهم؟ فقال: يـا عائشـة هل يعمل إلا من له عقل؟ فبقدر عقولهم يعملون، وبقدر عملهم يجزون.

وقد اتفقوا على أن ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى آخرها من العقل بالنسبة لعقله، ﷺ، كنسبة ذرة من الرمل إلى رمال الدنيا كلها.

(والحب أساسى) أى محبة الله بعد معرفته؛ لأن من لم يعرف لا يحب أى أسـاس ينبـى عليه أموره فى اتباع أوامر الله ونواهيه، كما أنه موجب لاتباع الناس لى كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، ولا يكمل إيمان أحـد حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وأهله وماله كما سيأتى بيانه، وجمع هذه الأمور فـى نسق واحد؛ لأن رأس المال والأساس والأصل من واد واحد وتغاير العبارة إنما هو لتلوين الخطاب.

(والشوق مركبى) أى شوقى إلى المطالب العالية وإلى لقاء الله تعالى هو الذى حركنى حتى وصلت لمرادى كما قيل:

وقـالوا إذ أتيـــت لهـــم ســـريعا مجـــدا فـــى ســـبيلى للتـــلاق
ركبت على البراق؟ فقلت: كـــلا ولكنـــى ركبـــت علـــى اشتيـــاق

والشوق أعلى من المحبة؛ لأنه ينشأ عنها، فإنه انجذاب النفس لشدة ميلها إلى لقاء مـن يشتاقه.

(وذكر الله أنيسى)، وفى نسخة أنسى يعنى أنه يـأنس فى خلوتـه وجلوتـه بذكـر الله؛ لأنه إذا أكثر من ذكره صار نصب عينه حتى كأنـه معـه، ومـن كـان الله معـه آنـس بـه

واستوحش مما عداه، ومن كان له ورد فى الصباح والمساء كان من الذاكرين الله، وانظر لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال سحنون: حقيقة الذكر أن ينسى ما سواه، ويستغرق الأوقات فيه:

لا لأنى أنساك أكثر ذكر ك ولكن بذاك يجرى لسانى

(والثقة) بكسر المثلثة مصدر كالسعة بمعنى الوثوق بما عند الله وما يطلب منه **(كنزى)** الكنز المال المكنوز أى المدفون، وفيه بلاغة ونكتة بديعة، لأن من له مال مدفون لا يراه، ولكنه أنفع مما يراه، فكذا ما ترجوه من الله قبل حصوله أنفع من الحاصل عند الثقة كما قيل:

وإنى لأرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الظن ما الله صانع

وعلامة الثقة بالله بذل الموجود وترك طلب المفقود.

(والحزن رفيقى) أى لا يفارقنى، وذكره مع الأنيس؛ لأن الرفيق أنيس، وهذا بمعنى ما تقدم من قوله: متواصل الأحزان وقد علمت ما فيه.

(والعلم سلاحى) أى علمى بالله وبما علمنى من لدنه وأوحاه إلىّ أدفع به من يجادلنى ويخاصمنى، وأدفع الشيطان ووسواسه كما يدفع العدو بالسلاح وآلات الحرب.

(والصبر) فى المكاره وتحمل المشاق، وعدم العجلة فى الأمور **(ردائى)** الرداء ما يكون فوق اللباس، وبه يتجمل ظاهر المرء، ولما كان الصبر فيه سكون وتجمل وعلم ووقار يشاهده الناس شبهه بالرداء؛ لتجمله به ودفعه ضرر البرد، فما قيل من أنه لو شبهه بالدرع واللحاف صح كما قيل:

تدرعت صبرى والتحفت صروفه وقلت لنفسى: الصبر أولى فاهلكى

ليس بشىء.

(والرضاء) بالقصر مصدر، وبالمد اسم كما فى الصحاح، والذى فى النسخ بالمد **(غنيمتى)** جعله غنيمة؛ لأنه يقهر به عدو نفسه اللوامة، ويأسرها، إذ الراضى بما قسم الله لا يتمنى ما لم يكن، فيحصل له غنى القلب والراحة كما قيل:

هل هى إلا مدة وتنقضى وما يغلب الأيام إلا من رضى

ولا شك أن الرضاء بما قدره الله واجب، وقوله فى الشرح الجديد: اختلف العلماء فى الرضاء هل هو واجب أو مستحب؟ فقيل هو مستحب؛ لأنه لم يرد الأمر به، وإنما ورد الثناء على المتصف به، وإلى هذا ذهب محققو العلماء مما لا ينبغى ذكره.

(والفقر فخرى)، وفى نسخة البرهان وغيره: والعجز بدل الفقر أى إظهار أنه عاجز ضعيف، وأن القدرة والقوة لله، وهو مقتضى مقام العبودية كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والعجز المذموم الذى استعاذ منه الرسول ﷺ فى قوله: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل» بمعنى آخر، وهو التثاقل عن العبادة والتوانى كما قيل:

إذا ما التوانى أنكح العجز بنته فساق إليها حين أصدقها مهرا

فراشا وطاء ثم قال لها: اتكى أقصارهما لا شك أن تلد الفقرا

قال ابن تيمية: «الفقر فخرى» ليس بحديث، ومن قال: ?إنه حديث فقد كذب، وقيل: الظاهر أن المراد بالعجز بفتح فسكون هو العجز عن طلب الدنيا، والتمكن فى الثروة والشوكة، أريد به لازمه وهو الفقر، ولا وجه له، فإنه ﷺ ليس بعاجز عما ذكر، وإنما تركه وأعرض عنه باختياره كما مر، والأوجه أن المراد به ما مر كما فى حديث «لا يدخل علىَّ إلا عجزة الناس» أى ضعفاؤهم، وفى آخر «أهل الجنة كل ضعيف متضعف»[1]، وفى حديث هرقل «ضعفاء الناس أتباع الرسل»، وفى حديث الإسراء «أمتك أضعف الأمم، وهم أكثر أهل الجنة».

قيل: فقوله: الفقر فخرى قد يقال إنه رواية بالمعنى، فليس بكذب وفيه نظر، ولذا قال الحافظ ابن حجر: إنه باطل موضوع، فإنه ورد مدح الفقر فى الحديث كحديث «تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر»[2]، وقد روى بسند لا بأس به، وإثبات الفخر له وقد نفاه فى قوله «لا فخر»؛ ليس من شأنه لأن المراد به الخصلة الحسنة التى من شأنها الافتخار بها، أو المراد فخرى لو كنت ذا فخر، كما قيل فى قراءة: **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)** برفع الجلالة أى إنما يخشاهم لو كان يخشى غيرهم، وإن كان المشهور أن المراد بالخشية لازمها، وهو التوقير والتعظيم، والفقر مع الصبر وصف محمود، فإن الغنى هو الله كما قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

(والزهد حرفتى) الحرفة بكسر الحاء وسكون الراء المهملتين والفاء هى الصناعة التى يرتزق منها الإنسان، والزهد ترك ما يرغب فيه من الدنيا، وقال الجنيد: الزهد خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التبع، وليس الزهد عدم الملك، فإن سليمان، عليه السلام، كان زاهدا مع أن الدنيا كلها فى قبضته، والتعبير بالحرفة ليس فى محله، فإنه

(١) أخرجه أحمد (٣٠٦/٤).

(٢) انظر: تذكرة الموضوعات (١٧٨)، وتنزيه الشريعة (١٣١/٢)، والإتحاف (٢٧٦/٩).

يوهم أنه جعلها مكسبا، وفيه شاهد للوضع، ومما قلته فى مشايخ زماننا:

قد قام فى سوق الرياء تاجرا وباع للسوقة إرشاده
حرفته الزهد ودكانه يبيع فيه الكذب سجاده

(واليقين قوتى) اليقين الاعتقاد الجازم، وهو قوت القلب من قام به لاطمئنانه وعدم خوفه من غير الله، وهذا شامل لحق اليقين وعين اليقين، والفرق بينهما مشهور فى التفسير وكتب الكلام.

(والصدق شفيعى) الصدق بمعنى مطابقة الخبر، والمراد به ما اصطلح عليه المشايخ من أنه استواء السر والعلانية والوفاء لله عز وجل بكل ما عهده إليه، ويصح إرادة المعنى الأول، والمراد بكونه شفيعه أنه سبب مصالحه عند الله، أو المراد تعليم أمته.

(والطاعة حَسَبِى) بفتحتين هو ما يعده المرء من مفاخر آبائه، أى طاعة الله فى السر والعلانية هى التى أفتخر به وأعده مأثرة لا ما يفتخر الناس به، أو هو بسكون السين أى الطاعة تكفينى.

(والجهاد) فى سبيل الله، أو مجاهدة النفس بمخالفتها (خلقى) أى طبعت على محبته، (وقرة) بضم القاف وتشديد الراء المهملة (عينى) الباصرة أى مسرتها وفرحها فى الصلاة لما أشاهد فيها من التجليات الإلهية، فإنها المعراج الأصغر، والقرة مأخوذة من القر وهو البرد؛ لأن دمعة السرور باردة، أو من القرار؛ لأن بلوغ الأمنية برؤية ما يسر تسكن به العين، فلا تستشرف لغيره، وقد تقدم ما فيه.

(وفى حديث آخر) لم يذكره المخرجون لأحاديث هذا الكتاب، (وثمرة فؤادى فى ذكره) الفؤاد القلب أو داخله، وهو محل العقل على الأشهر، فجعله كشجرة مثمرة وجعل ذكر الله المقصود منه.

(وغمِّى لأجل أمتى) لرأفتى عليهم فى الدنيا والآخرة.

(وشوقى إلى) لقاء (ربى) ومناجاته والتوجه إليه.

* * *

فصل

(اعلم وفقنا الله وإياك) تقدم الكلام عليه (أن صفات الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة السلام) هو من عطف الخاص على العام اعتناء لشأنهم وبيانا لشرفهم، وسيأتى تفصيله (من كمال الخلق وحسن الصورة) الخلق بفتح فسكون، والمراد خلق مادة جسمه وأعضائه، والصورة هيئة بدنه وتناسب أعضائه ومقاديرها ولون بشرته.

(وشرف النسب) أى شرف آبائه وأمهاته وأجداده وجداته إلى أن تنتهى إلى آدم، عليه الصلاة والسلام، فليس فيهم خسيس ولا وضيع.

(وحسن الخلق) بضمتين أو ضم فسكون، وقد تقدم بيانه.

(وجميع المحاسن فى هذه الصفة) كذا فى بعض النسخ، وفى غيرها وعليه الشراح: هى بالضمير بدل فى الجارة، قال القسطلانى: هذه الصفة خبر أن، ووقع بين اسم أن وخبرها ضمير الفصل لقصر الصفة على الموصوف كأن زيدًا هو المطلق أى لا غيره، وأتى بها على لفظ الإفراد لتغاير بين المبتدأ والخبر، فإن الاتحاد غير جائز، وعرفها بالألف واللام ليشعر بأن المراد استغراق ما ذكره من كل الصفات المذكورة انتهى.

وتبعه بعض الشراح، ولم يبينه غيرهم، وجميع المحاسن على هذا معطوف على اسم أن، فهو منصوب فالمعنى أن كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحسن الخلق صفات جامعة لجميع المحاسن، وهى صفة الرسل، عليهم السلام، وهى على الوجه الأتم الأكمل لا تجتمع فى غيرهم، ومن بيانية مبينة لصفات جميع الأنبياء والرسل، والصفة بمعنى الصفات المذكورة، ولا يخفى ما فيه من القلاقة والخفاء، وأن قوله هذه الصفة ركيك جدًا، ولو قيل: إن قوله من كمال الخلق إلخ خبر أن، ومن ابتدائية وجميع مرفوع مبتدأ، وفى هذه الصفة خبره، والمعنى جميع صفات الأنبياء، عليهم السلام، ناشئة من كمال الخلق إلى آخره، وجميع المحاسن مجموعة فيها كان أظهر وأحسن؛ **(لأنها صفات الكمال)** أى صفات بها يكمل البشر.

(والكمال والتمام البشرى) تقدم الفرق بين الكمال والتمام، **(والفضل الجميع)** مبتدأ وكان الأحسن أن يقول: والفضل جميعه **(لهم)** خبره أى ثابت للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام **(إذ رتبتهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات)** فيه إشارة إلى تفضيلهم على الملائكة كما سيأتى.

(ولكن فضل الله بعضهم على بعض) استدراك لدفع ما عسى يتوهم من تساويهم رتبة، ثم أشار على طريق اللف والنشر المشوش إلى الدليل على عدم تساويهم بقوله: قال الله تعالى: ﴿**تلك الرسل**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، المذكورون فى سورة البقرة، فالتعريف عهدى، أو جميع الرسل الذى يعلمهم، فهو استغراقى ﴿**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، بمواهب سنية ومراتب علية غير أصل النبوة والرسالة، ﴿**مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهو محمد أو إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، وأشار إلى فضلهم على من عداهم بقوله: **(وقال تعالى:** ﴿**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ**

عِلْمٍ﴾ [الدخان: ٣٢]، منا بأحوالهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وهذا من المصنف، رحمه الله تعالى، مبنى على أن الضمير للأنبياء مطلقا، والمراد بالعالمين جميع العالم لا على ما اختاروه من أنه لبنى إسرائيل، والعالمين عالمى زمانهم لكثرة الأنبياء فيهم.

(**وقال عليه الصلاة والسلام**) فى حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، (**إن أول زمرة**) أى طائفة وجماعة (**يدخلون الجنة على صورة القمر**) أى وجوههم مشرقة مضيئة، وليس المراد أنها مثله فى الاستدارة وغير ذلك، ولذا قال: (**ليلة البدر**)، وهى ليلة أربعة عشر، وهو أضوأ ما يكون فيها، وسمى بدرًا لامتلائه بالنور أو لمبادرته مغيب الشمس بالطلوع، وهو يسمى هلالاً فى أول الشهر، ثم يسمى بدرًا إذا تم:

إن الهلال إذا رأيت نموه ينبيك أن سيعود بدرًا كاملا

والقمر يطلق عليه دائما كما بينه أهل اللغة، وتمام الحديث «ثم الذين يلونهم كأشد كوكب درى فى السماء إضاءة»، (**ثم قال آخر الحديث**) «قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرىء منهم زوجتان من الحور العين يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم، يسبحون الله بكرة وعشيا، لايسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوة، ورشحهم المسك»، وفى أثر أن له من الحور العين اثنين وسبعين حورية سوى أزواجه من الدنيا، وأن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض.

(**على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم، عليه السلام، طوله ستون ذراعا فى السماء**)، والمراد بهذه الزمرة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وبالذين يلونهم الأولياء والعلماء والراسخون، وقيل: المراد بهم الأنبياء والأولياء، وبالذين يلونهم بقية المؤمنين الأتقياء، وقوله: آنيتهم الذهب والفضة إما على اللف والنشر، فآنية الفرقة الأولى من الذهب والثانية من الفضة، أوهما لهما بقرينة جعل أمشاطهم كلهم من الذهب، ويحتمل أن يكون اكتفاء أى من الذهب والفضة، ورجح بعضهم أن يكون هؤلاء كلهم من أمة محمد، ﷺ، لحديث الصحيحين: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بيض الوجوه تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»[1]، ويعلم منه حال الأنبياء بالطريق الأولى، أو هم مسكوت عنهم وعلمهم عند الله، وجعلهم على صورة آدم، عليه الصلاة والسلام؛ لأنه

(١) أخرجه البخارى (٧/١٨٩، ٨/١٤٠)، ومسلم فى الإيمان (٣٧١، ٣٧٢)، وأحمد (٢/٤٠٠)، وأبو عوانة (١/١٤٠).

كان أجمل الناس وأتمهم خلقا، والستون ذراعا إما بذراعه نفسه أو بذراع معهود عند المخاطبين، والأول أظهر، لكن روى ابن أبى الدنيا عن أنس يرفعه: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستون ذراعًا بذراع الملك، وعلى حُسْنِ يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، ﷺ، جرد مرد مكحلين»(١).

وورد أن عرضه سبعة أذرع، والحديث يدل على تبدل ألوانهم، فمن كان أسود أو أشقر صار أبيض بياضًا معتدلاً.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة يرفعه: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا فى عرض سبعة أذرع»(٢)، وقوله: فى السماء يحتمل إرادة الحقيقة منه، أى كابتداء خلقه وصورته إذا كان فى السماء، أو المراد جهة العلو أى طوله ذلك إذا كان منتصبًا قائمًا.

(فائدة) استنبط بعضهم من أثر: أن مقعد الحوراء فى الجنة ميل، أن كل آدمى يدخل الجنة يكون طوله اثنا عشر ألف ذراع بذراع الشرع الذى هو شبران؛ لأن مقعد الحوراء ميل، فيكون طولها ثلاثة أميال، ومقعد الواحد منا ثلث قامته تقريبًا، والغالب أن الذكر كالأنثى فى الخلقة، فيكون طول الرجل اثنا عشر ألف ذراع كما تقدم يقسم على الستين الواردة فى الحديث، فيكون كل ذراع من الستين ما يأتى ذراع شرعى تقريبًا.

(وفى حديث أبى هريرة) رضى الله عنه الذى رواه الشيخان أيضًا **(رأيت موسى)** عليه الصلاة والسلام، ليلة الإسراء عيانًا لامنامًا لأن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أحياء لاتبلى أجسادهم، **(فإذا رجل ضرب)** إذا فجائية أى فإذا هو رجل ضرب بفتح الضاد المعجمة وسكون الراء المهملة والموحدة، ورجل هنا بفتح فضم بمعناه المشهور وهو الذكر من بنى آدم، ومعنى ضرب بالفتح والسكون أن جسمه بين الهزال والسمن، وقال الخليل، رحمه الله تعالى: إنه القليل اللحم، ووقع فى رواية الأصيلى بسكون الراء وكسرها، والأصح الأول، وروى مضطرب، وهو الطويل غير الشديد الطول.

وفى مسلم عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه جسيم سبط، وحمل هذا على ما يوافق رواية مضطرب، لا على كثير اللحم كما وقع فى صفة الدجال، فهو من الأضداد **(رجل)** بفتح المهملة وكسر الجيم، وجاء فتحها فى لغة قليلة أى شعره متكسر قليلا، ليس بسبط لا تكسر فيه، ولا جعد متكسر كثيرًا.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٥٤٥)، وأحمد (٢/٢٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٤٣).

(أقنى) بقاف ونون من القنى بالفتح والقصر، وهو طول الأنف ودقة أرنبته يقال: رجل أقنى وامرأة قنواء، وقيل: القناء احديداب فى الأنف، فمعناه محدودب وليس بعيب فى الناس، وفى النهاية القناء فى الأنف طوله ودقة أرنبته مع حدب فى وسطه، وأما قول كعب، رضى الله تعالى عنه[1]:

قنواء فى حُرَّتَيْها للبصير بها   عتق مبين وفى خديه تسهيل

فمعنى آخر لا حاجة لنا به هنا.

(كأنه من رجال شنوءة) بفتح الشين المعجمة وضم النون وواو ساكنة وهمزة وقد تبدل الهمزة واوًا تدغم وهاء على وزن فعولة، وهى اسم قبيلة ويقا لها أزد شنوءة وأسد شنوءة، وهى باليمن مشهورة، وهى من الشناء وهو التباعد مما يدنس، يقال: رجل شنوء إذا كان طاهر النسب ذا مروءة، سميت بذلك لعلو نسبهم وحسن سيرتهم وأفعالهم، وهذا الحديث متفق عليه، وفى رواية البخارى كأنه من رجال الزط، وهم نوع من السودان أو الهنود طوال الأجسام مع نحافة، وهذا هو وجه الشبه أنه طويل غير جسيم.

(ورأيت عيسى) عليه الصلاة والسلام، يقظة فى الإسراء كما سيأتى **(فإذا هو رجل ربعة)** بفتح الراء المهملة وسكون الباء الموحدة وفتحها أى بين الطول والقصر معتدل القامة، **(كثير خيلان الوجه)** بكسر الخاء المعجمة وسكون المثناة التحتية جميع خال، وهو الشامة السوداء المعروفة، وما قيل من أن كثرة الخيلان مذمومة غير مسلم، واختلفت الرواية فى لونه فروى أنه آدم أى أسمر وروى **(أحمر كأنما خرج من ديماس)** بكسر الدال المهملة والمثناة التحتية وميم وألف وسين مهملة وهو الحمام والكن، وأصله السرب فى الأرض، والمراد صفاء لونه مع حمرة فيه، فرواية آدم بمعنى شديد الحمرة لا تنافى هذه.

(وفى حديث آخر) لم تعرف روايته **(مبطن)** بالتشديد والطاء المهملة أى ضامر البطن كما يفسره قوله: **(مثل السيف)** أى فى استوائه ودقته، وقد تعددت الرواية برؤيته ﷺ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقظة فى السماء والأرض؛ لأنهم أحياء، وصنف البيهقى فى هذا جزءًا مستقلاً.

(قال) ﷺ: «**وأنا أشبه ولد إبراهيم به**»، فحليته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولونه كلونه، فهو أكثر شبهًا به من سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والناس كلهم.

---

(١) البيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص١٣)، لسان العرب (١٣/٤٤٣)، تاج العروس (١٠/٥٨٢)، وبلا نسبة فى المخصص (١/٨٢).

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى حديث آخر فى صفة موسى)** عليه الصلاة والسلام، كما رواه البخارى فى صحيحه **(كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال)** ما موصولة والعائد محذوف أى الذى أنت رائيه، وآدم من الأدمة وهى سمرة اللون، قيل: وهى فى الإبل بمعنى البياض، وفى الظباء سمرة الظهر وبياض البطن، ومؤنثه أدماء، وأدم هنا بضم الهمزة وسكون الدال المهملة وبالميم جميع آدم كأسمر وسمر، وهى السمرة مطلقًا ?أو الشديدة، وقيل: إنها البياض والأول أصح، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أى عيب كالبرص، وإنما يكون هذا إذا كان أسمر وخالف لونها لونه، ويحتمل أنها تخالفه لشدة بياضها، كما قيل: إنها كانت ذات شعاع كشعاع الشمس.

(وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم) رواه أبو يعلى وابن جرير من طرق، وأخرجه سعيد بن منصور فى سننه عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، موقوفا: **(ما بعث الله تعالى من بعد لوط عليه الصلاة والسلام نبيا)**، وهو لوط بن هاران، وهو ابن أخى إبراهيم، وخص ما ذكر بما بعده لأنه من الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل قرية يقال لها: سدوم ليست من بلاده، وليست موطنًا لقومه، ومن بعده من الأنبياء لم ينبأ **(إلا فى ذروة من قومه، ويروى فى ثروة أى كثرة)**، والذروة بكسر الذال المعجمة وضمها وسكون الراء المهملة أعلى شىء، أى بين قوم له ذوى جدة وسعة وشرف، لاغرباء ولامن قوم ليسوا كذلك، وأشار بهذا الحديث إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كلهم شاركوا نبينا، ﷺ، فى علو النسب، وشرف القوم، والثروة بمعنى الكثرة مطلقًا، وقد يختص بالمال، وقيل: الذروة المكان المرتفع وهى مثلثة الذال.

(ومنعة) بفتح الحروف أى ميم ونون وعين مفتوحات جمع مانع كخدمة جمع خادم، ويجوز تسكين نونه، أو هو اسم مصدر فى الأصل كصدقة أى قوم يمنعونه ويحمونه، وقصة لوط عليه الصلاة والسلام، مفصلة فى كتب التفسير، وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] إشارة إلى ما ذكر من أنه لم يبعث فى قومه الذين ينصرونه ويحمونه.

فإن قلت: كيف يكونون فى منعة وثروة، وقد قال تعالى فى بعضهم: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقد عاداهم قومهم وقتل بعضهم؟ وما مناسبة ما ذكر لما عقد له الفصل من محاسن الخلق؟ والخلق من الصفات الذاتية.

قلت: قد توهم بعضهم ورود ما ذكر، وليس كذلك لأن ما ذكر من شرف القوم

والأصالة يدل على المحاسن الذاتية؛ لاستلزامه لها، وكونهم كثيرون لا ينافى عداوتهم، وأما المنعة فباعتبار من اتبعه منهم، ولذا ورد: «رحم الله أخى لوطًا لقد أوى إلى ركن شديد»[1]، وهو لا ينافى الآية لأن المراد الملائكة وما أمده الله تعالى به.

(وحكى الترمذى عن قتادة ورواه الدارقطنى من حديث قتادة عن أنس، رضى الله تعالى عنه) تقدم ترجمة الترمذى وقتادة، وأن الدارقطنى منسوب لدارقطن وهى محلة ببغداد كان يسكنها، وهو الحافظ الإمام الجليل المشهور إمام عصره فى الحديث والفقه والقراءات، وغيرها من العلوم الشرعية، والحديث المذكور فى الشمائل وغيرها مرسلاً.

(ما بعث الله نبيًا إلا)، وقد خلقه **(حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم)** من ابتداء وجوده وخلقته **(أحسنهم)** أى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، **(وجهًا وأحسنهم صوتًا)**؛ لأن حسن الصورة يدل على كمال الخَلق والخُلق إذ الظاهر عنوان الباطن كما قيل:

يدل على معروفه حسن وجهه   وما زال حسن الوجه أهدى الدلائل

وقال الآخر:

يدل على قبح الطوية ما ترى   بصاحبها من قبح بعض ملامحه

وحسن الصوت بكونه جهوريًا يسمع من بعيد مع لطفه فيه يدرك بالذوق، ولا يلزمه كونه على رسم الموسيقى، وهذا يدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أجمل من يوسف، وأحسن صوتًا من داود عليهما الصلاة والسلام، وكانت قراءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بيته ليلا تسمع عند الكعبة، وفيما بَعُد من منازل المدينة.

وما ورد فى حديث الطبرى فى يوسف: «فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن» المراد منه تفضيله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على من عداه، لاسيما إن قلنا: إن المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه كما ذهب إليه بعض الأصوليين، ويدل عليه ما ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعطى الحسن كله، وأعطى يوسف، عليه الصلاة والسلام، شطره أى نصفه. أى أن الحسن كله، جمع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تناسب أعضاء وصفاء لون وغيره مما يدرك ولا يوصف، ويوسف أعطى من جنس الحسن الكامل فيه نصفا، وجميع الخلق وزع بينهم، وما يعدل نصفه الآخر، فدل ذلك على أنه أحسن الناس كلهم كما صرح به فى الحديث الذى نحن فيه، وما قاله السخاوى فى كتاب الامتنان من أن جلال الدين المحلى، رحمه الله، سئل عن حديث «أعطى نبينا جميع الحسن، ويوسف شطره» فقيل: كيف يكون الشىء الواحد جميعه فى

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣٤٣).

شىء ونصفه فى آخر؟ فقال: لم يظهر لى جوابه، وكذا قال ابن حجر، وقد تأملت قوله فى البردة البوصيرية:

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

فبان لى منه جوابه، وهو أن حسن النبى ﷺ غير منقسم بينه وبين غيره بخلاف حسن سائر الناس، فإنه منقسم بينهم وبين يوسف، عليه الصلاة والسلام، انتهى وفيه نظر، وهذه مغالطة وزهرة لا تحتمل الفرك، ومنشؤه عدم الفرق بين تقسيم شىء بعينه، وتقسيم أفراد نوع من الأنواع فتدبر.

(وفى حديث هرقل) مر ضبطه والإضافة لأدنى ملابسة لذكره فى الحديث كما يقال: حديث الشفاعة، والأصل إضافته لرواية الصحابى أو التابعى، أو من خرجه كالبخارى ومسلم، وهذا الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس، رضى الله عنهما، وابن عباس نقله عن أبى سفيان حين أرسل إليه هرقل، وهو بالشام للتجارة فى ركب من قريش فى مدة محادة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكفار قريش، فأتوه بإيليا فدعاهم وحوله عظماء الروم، فسألهم عن أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان أول ما سأله عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقال: هو فينا ذو نسب إلى آخره، فقال له كما أشار إليه بقوله: **(وسألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب)** أى نسب عظيم، فالتنكير للتعظيم لشرف أصوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه ليس فى أمهاته سفاح ولا شىء من نكاح الجاهلية كما مر، وتقلبه فى الأصلاب الطاهرة من الأنبياء وقبيلته أشرف القبائل، وبيته أشرف بيوتهم، **(وكذلك الرسل)** عليهم الصلاة والسلام، **(تبعث فى أنساب قومها)** أى كل نبى له نسب عال فى قومه؛ لأن من اختاره الله لنبوته يختار له عنصرا مناسبًا، **(ولم يتخذ وليا من الذل)**، فشبه اتصاله باتصال الظرف بمظروفه.

(وقال تعالى فى أيوب) صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان ببلاد حوران وقبره مشهور عندهم بقرية قرب نوى، وعليه مسجد وقرية موقوفة على مصالحه، وعنده عين جارية فيها أثر قدم فى حجر يقال: إنه أثر قدمه، عليه الصلاة والسلام، والناس يشربون من عينه ويغتسلون منها بالتبرك، ويقولون: إنها المذكورة فى القرآن ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، كثير الرجوع لربه بمراجعة دعائه، وامتثال أوامره ونواهيه، واستشهد بهذه الآية على حسن خلق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن الصبر أمر عظيم وخلق كل كريم حليم، ولذا أثنى الله عليه بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ إلى آخره، ووصفه بالعبودية المناسبة للصبر، وقد صبر على ما ابتلاه الله به كما صبر يعقوب وغيره من الرسل، ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، صبر على قومه وما قاساه منهم، وقصة

أيوب عليه الصلاة والسلام، ونسبة مذكور فى التفسير، واختلف فى زمن نبوته، فقيل: كان قبل موسى، عليه الصلاة السلام، وأنه من بنى إسرائيل، ومدة بلائه ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين وامرأته اسمها ليا، وقيل: رحمة بنت يوسف.

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢- ١٥]، وقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ إلى ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، واستشهد المصنف، رحمه الله تعالى، بما ذكر على محاسن الأنبياء وأخلاقهم إذ تلقى يحيى، عليه الصلاة والسلام، الكتاب التوراة، أو غيرها بقوة فهم وعزيمة على العمل بما فيها، وقد آتاه الله الحكم صبيا، وهو يدل على سلامة فطرته وخلقته، وكان حنانًا فى طبعه الرحمة، وأنه كان تقيًا برًا بوالديه مطهرًا من النقائص، وأنه سلمه الله من يوم ولد إلى مماته.

(وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] **الآيتين)** استشهد بهاتين الآيتين على ما حواه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الصفات الجليلة، ومكارم الأخلاق، وأنه تعالى جعلهم صفوة خلقه، فآل إبراهيم إسحاق وإسماعيل وأولادهما، وآل عمران عيسى ومريم بنت عمران ذرية بعضها من بعض على سنن واحد.

(وقال فى نوح) عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يفعل شيئًا إلا قال: بسم الله والحمد لله.

(وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٥٤] **الآية)** استشهد بهذه الآية على ما لعيسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من النعوت السنية، والمحاسن الجلية التى وصفه الله تعالى بها من أنه وجيه أى شريف قدره فى الدارين، وأنه تكلم فى مهده، وقد تقدم ذكر من تكلم فى المهد غيره، والكهل الشاب، وقيل: من وخطه الشيب أو من جاوز الثلاثين إلى خمس وخمسين، وكونه رفع ابن ثلاث وثلاثين وإن جزم به القاضى فى تفسيره غير متفق عليه، فقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أقوالا أخر منها أنه بلغ المائة أوزاد عليها، وتقدم معنى كونه كلمة الله.

(وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ **)** إلى ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، وقيل: إنه نبىء وهو صبى وألهم حفظ التوراة والإنجيل، ووصف نفسه بالعبودية ردًا لما اعتقده فيه النصارى، وكان نطقه بما ذكر تبرئة لأمه.

(وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ

عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩])، وذلك لأنهم عابوه، عليه الصلاة والسلام، لشدة تستره حياء من الله بأن فى بدنه برصًا، أو به أدرة فبرأه الله من ذلك، وبين أنه كامل الخَلق والخُلق، ولذلك ساق المصنف الآية، وقال: **(قال النبى، صلى الله تعالى وسلم، كان موسى رجلاً حييا)** بحاء مهملة ويائين ثانيتهما مشددة بزنة صبى أى كثير الحياء **(ستيرًا)** بكسر السين المهملة وكسر التاء المثناة المشددة بزنة سكين أى شديد الستر لبدنه، وقد أشار لتفسيره بقوله: **(ما يرى من جسده شيء استحياء)**، وهذا يدل على عفته وحيائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو خُلق حميد.

وقال البرهان: إن ستيرًا بفتح السين وكسر التاء الفوقية المخففة فعيل بمعنى فاعل، والذى أحفظه أنه بكسر وبتشديد التاء الفوقية كسكيت وسكين، وكذا ضبط فى نسخ البخارى انتهى، ومن كان يستحى من كشف عورته وبدنه، فهو أشد حياء من كشف غيره.

(الحديث) بالنصب أى اقرأ الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة أو بذكره وتتمته أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كان يكثر الستر ويغتسل وحده قالوا: إنه إنما يفعل هذا لبرص أو أدرة به، فذهب مرة ليغتسل ووضع ثوبه على حجر، فلما أراد أن يلبسه فر الحجر، وجرى خلفه ويقول: ثوبى حجر ثوبى حجر ثوبى حجر حتى مر على بنى إسرائيل، فرأوه أكمل الناس وأصحهم بدنا، فبرئ مما سمعوه وآذوه به.

(وقال تعالى عنه) ضمنه معنى حكى، فعداه بعن أى عن موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] **الآية)** أى علمًا ونبوة، وفراره ﷺ لما قتل القبطى وذهب، فكلمه الله كما هو مشهور.

(وقال فى وصف جماعة منهم) أى من الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وقع هذا من نوح وصالح ولوط وشعيب، عليهم السلام، كما حكاه عنهم على وجه الرضا والتصديق، فلا يتوهم أنه مدح لأنفسهم، فليس مما نحن فيه.

(وقال) موسى لشعيب، عليهما الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقصته معه أنه لما فر من القبط إذ خافهم؛ لقتل رجل منهم، ومر بابنتى شعيب، عليه السلام، جالستان ينتظران فراغ الناس ليسقى غنما لهما، قال لهما: لم تأخرتما فقالتا: ﴿نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣]، فقال: أما عندكم بئر غير هذه؟ فقالتا: عندنا بئر مطبق عليها حجر لا نطيق رفعه، وكان لا يرفعه إلا عشرة من أشد الرجال، فقال: اذهبا فأريانيها فأرتاها، فرفعه وحده وسقى لهما، فقالتا

له: اذهب معنا ليجزيك أبانا على ما فعلت، فقال، أرشدانى للطريق وامشيا خلفى لأنى رجل من ذرية إبراهيم، عليه السلام، لا أحب أن أرى منكما ما لا يحل لى، فأخبرتا أباهما بقصته وقوته فى رفعه ذلك الحجر، وأمانته لامتناعه من النظر لهما، فاستأجره على ما قصه الله لرعى غنمه.

قال البيضاوى: الجملة معللة لما قبلهما وللمبالغة جعل خبر واسم إن معرفتين يعنى لم يقل: إن من استأجرته قوى أمين، بل أتى بجملة معرفة الطرفين لحصر الخبرية فيه فتدبر.

(وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥])، فوصفهم بالصبر، وهو من أحسن الأخلاق، والعزم على التصميم على نفاذ الأمر، والحزم فى الشدائد، وقد اختلف فى أولى العزم كما مر.

(وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾) إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام:٨٤، ٩٠]، وقد وقع فى هذه الآية بحث ذكره الطوفى فى تفسيره، وهو أنه استدل بهذه الآية على أن محمدًا، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل من جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لأن الله تعالى أمره بالاقتداء بهداهم جميعًا، ولاشك فى امتثاله واقتدائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا أتى بما أتوا به جميعًا مع ماخص به كان أفضل من كل فرد فرد بلا شبهة، ومن المجموع، ونقل عن العز بن عبد السلام أنه قال: إنه أفضل من كل واحد منهم، لامن المجموع، ولا دلالة فى الآية عليه، قال: ولما نقل عنه هذا قام عليه الناس ونسبوه فى هذه المقالة إلى ما وصل إلى تكفيره.

وأنا أقول: أنا برىء من نسبة مثله للعز، والقائل بهذا توهم أنه مثل ما لو قسم عشرة دنانير على خمسة رجال، وأعطى أربعة منهم دينارًا دينارًا، وأعطى ستة للخامس، فهو يزيد على كل واحد منهم لا على المجموع، فلا يلزم من زيادته على كل واحد من الجماعة زيادته على الجميع، فالآية لا دليل فيها لما ادعوه، وهذا إنما يتم لو لم يثبت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غير ما لجميعهم، وهو مقرر ظاهر، وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا المحل، والهاء فى اقتده هاء سكت تثبت وقفًا على القياس ووصلاً إجراء له مجرى الوقف، وحذفها حمزة وصلاً وكسرها هشام اختلاسًا وصلا، ووصلها ابن ذكوان بها تشبيهًا لها بهاء الضمير، وقيل: هذا لا يصح وإنما هى ضمير المصدر كقوله: هذا سراقة للقرآن يدرسه.

(**فوصفهم بأوصاف جمة**) أى كثيرة (**من الصلاح**) ليس المراد بالصلاح المعنى المشهور

فى قولهم: رجل صالح حتى يقال: إنه ليس بمدح للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن توهمه قال: المراد مدح الصفة لا الموصوف كما حقق فى شروح الكشاف، بل الصلاح صفة جامعة لكل خير، فهى أبلغ من غيرها كما فصله السبكى فى فتاويه.

(والهدى والاجتباء) وهو الاصطفاء والاختيار للرسالة، **(والحكم والنبوة)** أى الحكمة أو فصل الأمر على مقتضى الحق.

(وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ﴾ **)** عليم و﴿حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١])، وهو إسحاق، فوصفه بالعلم والحلم، وهما أمران عظيمان قال الأنطاكى: كذا فى النسخ، والذى فى القرآن ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ و﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، ولو قدم حليم وعطف عليه بان الأمر.

(وقال: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ **)** إلى قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧، ١٨]، والمراد بالفتنة الاختبار والامتحان يقال: فتنت الفضة إذا أدخلتها النار، فشبه أمرهم باتباعه بمعاملة المختبر، أو المراد أنه ابتلاهم كما ابتلى العرب بنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فوصفهم الله فى هذه الآية بصفات حميدة من الكرم والأمانة وغيرهما.

(وقال) حكاية عن الذبيح: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] على الذبح مسلمًا لله، ولذا سلمه الله وفداه.

(وقال فى إسماعيل) عليه الصلاة والسلام: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] **الآيتين)** صرح بإسماعيل مع أن المذكور قبله فى حقه إشارة للاختلاف فيه، فإنه قيل إنه إسحاق، وقيل: إنه إسماعيل بن حزقيل، وهو نبى بعثه الله لقومه فسلخوا رأسه، فخيره الله بين تعذيبهم وغيره، فاختار العفو والرضا بثوابه، والجمهور على أنه إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم، وهو رسول نبى، وصدق وعده لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح فوفى بوعده، وقدم الرسالة هنا على النبوة لأنها أشرف على قول.

(وقال فى موسى، عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ **[مريم: ٥١])** فى طاعته لايقصد بها إلا وجه الله والتقرب إليه.

(و) قال **(فى)** شأن **(سليمان:** ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]) أى مسبح أو رجاع إليه بالتوبة، وقيل: الأواب المطيع، وقيل: الرحيم أو كثير الصلاة.

(وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥])، وهو إسرائيل أبو أنبياء بنى إسرائيل ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إلى ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨] الأيدى جمع يد بمعنى

القوة، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة، فإنه يطلق على الحاسة الظاهرة وقوتها، وعلى القوة الباطنة المدركة، ولايقال للجارحة: بصيرة كما فى عمدة الحفاظ، ومعنى ﴿أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦] جعلناهم خالصين بسبب أنهم لا يذكرون إلا الدار الآخرة، وأطلق الدار إشارة إلى أن الدنيا ليست بدار مقر، بل ممر ومعبر، وعند هنا للقرب، والأخيار جميع خير أو خير المشدد بعد التخفيف.

(و) قال (**فى داود**: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]) تقدم تفسيره، (ثم قال) فى حقه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، أى قويناه لأن بنى إسرائيل لم تجتمع على ملك غيره، وكان يحرس محرابه ثلاثون ألف متسلح، أو قويناه بالعدل والتوفيق له، وفصل الخطاب أى الكلام الفاصل بين الحق والباطل، وقيل: هو أما بعد وهو أول من قالها، وقيل: هو البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه، وقيل غير ذلك.

(**وقال عن يوسف**) عليه الصلاة والسلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] قيل: الأرض هنا أرض مصر، وفى الآية دليل على جواز طلب الحكم لمن وثق بنفسه وتوليه من الكافر، وقيل: إن فرعون يوسف أسلم، وقصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، أشهر من أن تذكر.

(و) قال (**فى موسى** ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩])، وهذه قصته مع الخضر عليهما الصلاة والسلام المشهورة.

(**وقال عن شعيب**) عليه الصلاة والسلام، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] **وقال**) عنه أيضا: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨] شعيب من نسل إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، أرسل إلى مدين والأيكة، وهما أمتان، وقيل: أمة واحدة، فوصفه الله بالصلاح والإصلاح، وأنه لا يأمر إلا بما فعله، وهو خطيب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقال: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] فلوط ابن أخى إبراهيم كما تقدم، والحكمة والحكم بمعنى هنا.

(**وقال**) فى حقهم، عليهم السلام، عمومًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] **الآية**) أى شأنهم المبادرة إلى فعل أنواع الخير، وسؤال الله تعالى فى الرغبة والرهبة.

(وقال سفيان) الثورى أو ابن عيينة فى تفسير هذه الآية: **(هو الحزن الدائم)**، قيل: ضمير هو راجع إلى الخشوع فى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، وفى الشرح الجديد يريد أن ما ذكر فى الآية من الخيرات هو الحزن الدائم الذى ينشأ عن خيرات من سلك طريقها، فقد وصل إلى مقامه، ولا يخفى بعده، والظاهر هو الأول.

(فى آى) جمع آية **(كثيرة ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم)**، وهذا ابتداء كلام لا تعلق له بكلام سفيان، رحمه الله تعالى، أى ما ذكر من الآيات مندرج فى آيات كثيرة دالة على كمالهم، وليس ما ذكر محيطًا بما فيه، بل هو بعض منه **(وجاء من ذلك)** أى من وصف كمالهم، عليهم الصلاة والسلام، فى غير القرآن **(فى الأحاديث)** الصحيحة **(كثير كقوله ﷺ: إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبى ابن نبى ابن نبى)** هذا الحديث فى البخارى بدون إنما وقوله نبى ابن نبى إلى آخره، والكرم ليس بمعنى السخاء، فإنه استعمال طارٍ، وإنما هو معنى جامع للخير والشرف ومكارم الأخلاق، قيل: وإنما خص يوسف، عليه الصلاة والسلام، بما ذكر؛ لما جمع الله له مع علو النسب جعله رابع أربعة من الأنبياء من الحسن المفرط والعفة والملك أو العلم والحكمة إلى غير ذلك مما لم يجتمع لغيره من الأنبياء، وفيه التكرار المعدود من المحسنات البديعية كقول إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ [مريم: ٤٢] الآية. كرر يا أبت مبالغة فى استعطاف أبيه، والاطراد كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، والسجع وهو من المحسنات أحيانا، وأما إنكاره لمن خاطبه، وقوله: أسجع كسجع الكهان؟ لأنه ليس فى محله، وهو مقام الحكمة، وقيل عليه: إن ما ذكر ليس من قبيل التكرير؛ لأن كريمًا ليس معناه واحد فى الحديث، وأن ما ذكر ليس من قبيل السجع، وليس بشىء؛ لأن الكريم مفهومه متحد، وإن اختلف ما صدق عليه، والسجع ما اتحدت قافيته.

(وفى حديث أنس) رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البخارى **(وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)**، فهو من خصائص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومر أن الخصائص تنقسم إلى أقسام.

فمنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون سائر الناس الأنبياء وغيرهم.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون أمته كالجمع بين زوجات فوق الأربع، وإن جاز لغيره فى الشرائع السابقة.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون الأمم كلها وإن كان لغيره من

الأنبياء كما نحن فيه؛ ولذا كان وضوءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينقض بالنوم كما صرح به الشافعية.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون الأمم السابقة وأنبيائهم كالتيمم.

فإن قلت: كيف هذا، وقد نام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن صلاة الصبح حتى طلعت عليه الشمس، ولا يصح أن يكون هذا تشريعا لأمته، لأنه لا يفعل ما يمتنع شرعًا للتشريع، وإن لزمه ذلك من غير قصد له.

قلت: أجيب عنه بأجوبة.

أحدها: وهو الأصح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان له حالان حال لا ينام فيها قلبه، وهى الغالب عليه، وحال نادرة فيها ينام قلبه.

الثانى: أنه يغيب عنه فى نومه ما يحس بالبصر لا ما يدرك بالقلب كالحدث والألم ونحوهما، ورجح بعضهم هذا.

الثالث: أن قلبه لا يستغرق حتى يتعطل إحساسه، وقد يستغرق لاشتغاله بوحى كما كان يشاهد منه إذا نزل عليه الوحى فى اليقظة.

وقيل: إن المراد أنه لا يستغرق قلبه حتى لا يدرك الحدث. قال ابن دقيق العبد: وهو بعيد.

قال ابن حجر: ومن الأجوبة الضعيفة أن قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقظان، وعلم بخروج الوقت، ولكن فعله تشريعا لما مر، وفى هذا إشارة إلى يقظة قلبه، وأنه لا يفعل، وهذا من جملة الكمال فناسب الترجمة مناسبة تامة.

(وروى) رواه الطبرانى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، **(أن سليمان عليه الصلاة والسلام، كان مع ما أعطى من الملك لايرفع بصره إلى السماء تخشعًا وتواضعا لله)**، وذلك لتعظيم ملكوت الله وملائكته استصغارًا لنفسه، لا لأن فى جهة وحيز كما توهم، وكذا كان أبوه داود، عليه الصلاة والسلام، كما ذكره الغزالى فى الإحياء حياء من الله تعالى أى حياء من ملائكة الله تعالى، لقصور عمله من أعمالهم أى لا يفترون عنها طرفة عين، ولا ينافى هذا قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨]؛ لأنه مقام آخر، **(وكان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ويأكل خبز شعير)** جمع لذيذة، وهو ما يشتهى ويميل له الطبع من المأكولات، **(وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين)** أى أعلاهم ورئيسهم، **(وابن محجة الزاهدين)** أصل المحجة الطريق

المسلوك، فاستعير لمجمعهم ومقصدهم أو مقتداهم الذين يأنسون بسنته ومسلكه، وفى نسخة حجة، وزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينافى ملكه وقدرته، بل حقيقة الزهد إنما تتم بذلك.

(**وكانت العجوز**) خصها لحقارتها (**تعترضه**) أى تجىء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقف مقابلته، (**وهو**) راكب (**على الريح فى جنوده**) وعزة سلطانه، (**فيأمر الريح فتقف فينظر فى حاجتها ويمضى**) لمقصده.

(**وقيل ليوسف، عليه الصلاة والسلام: مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: إنى أخاف أن أشبع فأنسى الجائع**) المراد بخزائن الأرض المخزون من الأموال والأرزاق.

(**وروى أبو هريرة، رضى الله عنه، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم**) كما رواه البخارى عنه: (**خفف على داود القرآن**) هو مصدر بمعنى القراءة كالنفران، والمراد قراءة كتابه وهو الزبور، أو المقروء، وقيل: إن إطلاقه هنا مع أنه علم لما أنزل على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويطلق على المعنى القائم بذاته تعالى اشتراكا ومجازًا على طريق الاستعارة والمجاز المرسل، والمراد بتخفيفه سرعة قراءته فى زمن يسير.

(**فكان يأمر بدوابه فتسرج**)، وروى بدابته، والمراد الجنس المختص به، (**فيقرأ القرآن قبل أن تسرج**) قالوا: هذا من بسط الزمان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من البركة فى الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير.

قال النووى: وبلغنا أن من الناس من قرأ أربع ختمات بالليل، وأربع ختمات بالنهار.

(**ولا يأكل إلا من عمل يده**) مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ملك خزائن الأرض بيده، وكان آدم، عليه الصلاة والسلام، حراثًا، ونوح، صلى الله تعالى عليه وسلم، نجارًا، وإدريس عليه الصلاة والسلام، خياطًا، وموسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، راعيا، وفيه دليل على فضل الكسب الحلال، وأنه لا ينافى توكل الخواص، ثم بين عمله بقوله: (**قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾** [سبأ: ١٠])، فكان إذا مسه بيده لان كالشمع والعجين من غير نار وضرب ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١]، أى دروعًا طويلة تامة من السبغ، وهو السعة، (**وقدر فى السرد**) سرده نسجه أى عمله، وأصل معناه التتابع، ومنه سرد الكلام، ومعنى تقديره: جعل ثقوب طرفى الحلق على قدر المسامير، وكون المسامير غير رقيقة فتغلق ولا غليظة فتكسر الحلق، وقيل: إن دروعه، عليه الصلاة والسلام، كانت بلا مسامير لالتئامها للينها، وأن فى قوله: أن اعمل تفسيرية أو مصدرية بتقدير الجار، قيل: كان سبب تكسبه أنه اختفى، ودار يسأل الناس

عن سيرته فيهم، فلقى ملكًا فى صورة رجل، فسأله عن نفسه، فقال له: نعم الرجل لو كان لا يأكل من بيت المال، وأصول المكاسب الزراعة والتجارة والصناعة، وأفضلها التجارة، وقيل: الزراعة لأنها أقرب إلى التوكل، وقيل: صنعة اليد، وفوق ذلك الجهاد، ومن فضيلة الجهاد والكسب الاشتغال عن البطالة.

(**وكان**) داود، عليه الصلاة والسلام، (**سأل ربه أن يرزقه عملاً بيده يغنيه عن بيت مال الله**)، وسببه ما مر،ومن هنا يعلم أن السلطان ينبغى أن يكون له ما يكتسبه؛ لئلا يأكل من بيت المال، فإن لم يكن له صنعة لا يأكل من بيت المال إلا بقدر الحاجة، والإسراف منه حرام عليه، فالويل كل الويل لسلاطين زماننا الذين يظنون أن بيت المال ليس لأحد فيه حق غيرهم.

(**وقال، عليه الصلاة والسلام**) فى حديث صحيح رواه الشيخان إلى قوله: (**يفطر يوما**) الآتى من نقله (**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود**)، وبين ذلك بقوله: (**كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**)، وقيامه فى وقت يتجلى الله فيه، ويقول: هل من سائل فأعطيه، وليس المراد بقوله: ينام سدسه، أنه ينام إلى طلوع الشمس، بل إلى قبيل الفجر، فيستقبل الصبحة بنشاط لاستراحته، وهكذا ينبغى للمجتهد، ولم يتعرض أحد لصلاة الأمم السالفة، ولا لصلاته ﷺ قبل الإسراء، وبيان كيفيتها إلا أن السيوطى، رحمه الله تعالى، نقل فى الخصائص الكبرى أنها كانت بغير ركوع، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

(و) كان (**يصوم يومًا ويفطر يومًا**)، وفى هذا إشارة إلى أن صوم الدهر دون هذا، وقد ورد النهى عنه مع أن هذا أشق منه؛ لأن من اعتاد هذا صار طبيعة له لا تضره، وهذا آخر الحديث.

وقوله: (**وكان**) أى داود، عليه الصلاة والسلام، (**يلبس الصوف ويفترش الشعر**) أى ما أنسج منه؛ لأنه خشن يمنعه لذة النوم والاستغراق فيه المانع له عن ورده، وهذا شعار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والصلحاء.

(**ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد**) الملح إدام بخلاف الرماد، فكأنه كان يأتدم به على خلاف المعتاد، أو يضعه فى إدامه لئلا يلتذ به.

(**ويمزج شرابه بالدموع**)؛ لكثرة بكائه وعدم خلوه منه، (**ولم ير ضاحكًا بعد الخطيئة**)، وهى تزوجه بامرأة أوريا بعد ما سأله أن ينزل له عنها، ففعل وتزوجها، **فجاءه ملكان**

فى صورة رجلين يدعيان نعاجا على ما قصه الله تعالى، وليست هذه خطيئة، ولكن علو مقامه وزهده يقتضى خلاف ذلك؛ فلذا عوتب عليه، وكان يبكى، وقد ذكر الله مدحه وعصمته مما لا مزيد عليه.

(ولا شاخصًا) رافعًا وفاتحًا **(بصره نحو السماء)** أى جهة العلو **(حياء من ربه)** سبحانه وتعالى، كعادة من أذنب، فإنه يطأطىء بصره، **(ولم يزل باكيًا حياته)** منصوب على الظرفية أى مدة حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(كلها)** تأكيد لما قبله، **(وقيل: بكى حتى نبت العشب من دموعه)** لكثرتها، وهذا رواه ابن أبى حاتم عن أنس، رضى الله تعالى عنه، مرفوعًا، وعن مجاهد وغيره موقوفًا.

(وحتى اتخذت الدموع لخده أخدودًا) هو فى الأصل الشق المستطيل فى الأرض استعير لتأثير الدموع فى مجراها أثرًا يعلم، وبين الخد والأخدود تجنيس اشتقاقى.

(وقيل: كان يخرج) من منزله **(متنكرًا)** أى مستخفيًا من معرفة الناس، **(ليتعرف سيرته)** جملة مستأنفة لبيان سبب تنكره، **(فيسمع الثناء عليه فيزداد تواضعًا لله)**؛ لما منحه من السيرة الحسنة والذكر الحسن، لا كمن يزداد بمدح الناس له غرورًا.

(وقيل لعيسى، عليه الصلاة والسلام) كما خرجه أحمد بن حنبل وابن أبى شيبة عن ثابت: **(لو اتخذت حمارًا)** لتركبه؛ لتستريح من المشى **(قال: أنا أكرم على الله من أن يشغلنى بحمار)** هذا من زهده وستر حاله أيضًا إذ لم يقل: أنا أتواضع بالمشى، وشغله يشغله كسأله يسأله وأشغله لغة ردية.

(وكان يلبس الشعر) أى ما نسج منه زيادة فى تقشفه، وإنما كره مالك لبس الصوف لمن يتخذه شعارًا له إظهارًا لزهده، فإن إخفاءه أفضل لما فيه من الرياء، **(ويأكل الشجر)** أى أوراقه، أو المراد به مطلق النبات تجوزًا، **(ولم يكن له بيت)** يملكه أو يختص به **(أينما أدركه النوم)** أى وقته **(نام)** أى ينام فى أى مكان يجن عليه الليل فيه.

(وكان أحب الأسماء إليه)، وفى نسخة الأسامى أى الألفاظ التى ينادى بها **(أن يقال له: يا مسكين)** رغبة فى التواضع لعظمة الله عز وجل، وقيل عليه: نحن مأمورون بتعظيم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومحبتهم وتعظيمهم تعظيم لله.

فلو قال أحد لنبى من الأنبياء: يا مسكين كان تحقيرًا له، وتحقيرهم كفر ومعصية، فلا ينبغى لنبى من الأنبياء أن يرضى به، وقد أمرنا بتعظيم نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن لاننا ديه باسمه، بل لا نجهر له بالقول، ولا نرفع أصواتنا عنده توقيرًا له، وحرمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ميتًا كحرمته حيًا كما سيأتى بيانه، وهذا مما اشترك فيه سائر

الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فكان يجب على أمة عيسى، عليه الصلاة والسلام، أن يوقروه، ويجب على عيسى أن لا يرضى بعدم توقيره.

فإن قيل: إنه فرار من العجب. وقيل: مثله لا يطرق عليه عجب ولا يخشاه.

وأجيب: بحمل هذا على أنه صدر ممن لم يؤمن به، فكانوا يقصدون بذلك تنفير الناس عن الإيمان به واتباعه، كما وقع من المشركين فى حق نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان عيسى، عليه الصلاة والسلام، إذا بلغه ذلك عنهم أحبه، وأما المؤمنون به فيجب عليهم تعظيمه، أو ذلك ممن آمن به إذا سألهم سائل عنه أهو ذو مال أم فقير؟ فيقولون: هو مسكين كما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول فى دعائه: (**اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين**)، وكما قال أبو العتاهية:

إذا أردت شريف القوم كلهم فانظر إلى ملك فى زى مسكين

والكلام على الفقير والمسكين أشهر من أن يذكر.

أقول: لاوجه للسؤال ولا للجواب، أما الأول فلأن عيسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلب على أمته الرهبانية وإظهار المسكنة، فيكون فى شرعهم يجوز مناداته وخطابه بمثله من مؤمنيهم وخواص حواريهم، وإن لم يجز مثله فى شرعنا، ولا ما يقرب منه.

وأما الثانى فلأن جعله من كفارهم أو مؤمنيهم فى غيبته لا يصح، لأن إظهار محبته واجب، وقوله: يقال: وحرف النداء مناد على خلافه، وصريح فى عكسه لمن له أدنى فهم، وقد روى: «مامن كلمة كانت تقال لعيسى، عليه الصلاة والسلام، أحب إليه» إلى آخره.

(**وقيل: إن موسى، عليه الصلاة والسلام، لما ورد ماء مدين**) هذا الحديث رواه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، موقوفًا، وتقدم أن وروده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لماء مدين كان لما فر من قبط مصر، فلقى ابنتى شعيب على ذلك الماء، وبينه وبين مصر ثمانى مراحل أو أكثر فى قصته السالفة المذكورة فى القرآن، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، حافيًا من غير زاد، وبه جوع شديد حتى كانت ترى أمعاؤه، و(**كانت ترى خضرة البقل**) الذى كان يأكله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ لم يجد غيره، والبقل ما ليس بشجر من النبات التى لا تبقى أرومته وأصوله بعد أخذه، وهو معروف.

(**فى بطنه من الهزال**) بضم الهاء وزاى معجمة، وهو ضعف مذهب اللحم.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم) كما رواه الحاكم عن أبى سعيد الخدرى، وصححه **(ولقد كان الأنبياء قبلى يبتلى)** بالبناء للمفعول ونائبه **(أحدهم بالفقر والقمل، وكان ذلك)** الابتلاء **(أحب إليهم من العطاء إليكم)**، لتيقنهم بما أعد الله لهم فى مقابلته، وهو أن نعيم الدنيا عندهم، ولفظ الحديث ليس كما ذكره المصنف، رحمه الله، وهو ما قال أبو سعيد الخدرى، رضى الله تعالى عنه، قلت: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء. قلت: ثم من؟ قال: العلماء قلت: ثم من؟ قال: الصالحون كان أحدهم يبتلى بالقمل حتى يقتله، ويبتلى بالفقر حتى لا يجد إلا العباء يلبسها، ولأحدهم أشد فرحًا بالبلاء من أحدنا بالعطاء[1]، وهو صحيح على شرط مسلم، والمراد ما يعطى من السعة فى الدنيا.

قيل: وهو يدل على أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يتسلط عليهم القمل ويعرض لهم؛ لأنه من الأعراض البشرية، إلا أن ابن الملقن، رحمه الله تعالى، نقل عن ابن سبع أن القمل لم يكن يؤذيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تكريمًا له.

ونقل ابن عبد البر، رحمه الله تعالى فى التمهيد أن نعيم بن حماد ذكر عن ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن رضى الله تعالى عنه، أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقتل القمل فى الصلاة، والظاهر أن جسده الشريف لايتولد منه القمل، لاعتدال مزاجه الشريف، وإنما كان يوجد فى ثيابه من الفقراء المجالسين له، وكذا سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولو قيل: إن ضمير يبتلى فى حديث الحاكم للصالحين كان أقرب انتهى، وهذا ينافيه ما نقله عن التمهيد وقد تقدم، وفيما قاله دليل على صبر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وعلو همتهم فى النظر للآخرة.

(وقال عيسى، عليه السلام، لخنزير لقيه) المراد به الحيوان المعروف، وتجويز أن يراد به الكافر أو العدو أو الجاهل، وإن كان صحيحًا غير مناسب هنا **(اذهب بسلام)** أى اذهب مصحوبًا بالسلامة.

(فقيل له فى) شأن **(ذلك)** القول الذى قاله، فإنه لاينبغى **(فقال: أكره أن أعود لسانى النطق بسوء)** عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وترغيبًا فى العمل به.

(وقال مجاهد) كما رواه أحمد وابن أبى حاتم **(كان طعام يحيى، عليه الصلاة والسلام، العشب)**، وهو النبت الذى يخرج بغير زرع وعينه مضمومة، **(وكان يبكى من خشية الله**

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والبيهقى (٣/٣٧٢).

عز وجل)، والخشية خوف مع تعظيم **(حتى اتخذ الدمع مجرى فى خده)** أى صار محل جريانه منخفضًا متميزًا عن غيره؛ لتأثيره بدوام جريانه فيه، **(وكان يأكل مع الوحش)** أى كان يحيى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأكل العشب فى القفار الخالية التى يسكنها الوحش، أو يألفهم فيها ويكون معهم؛ **(لئلا يخالط الناس)** أى يعاشرهم ويختلط بهم، فيشغلونه عن العبادة وذكر الله، وما ذكر رواه أحمد فى الزهد عن الخولانى.

(وحكى الطبرى عن وهب أن موسى، عليه الصلاة والسلام، كان يستظل بعريش) هو كل ما يستظل به خيمة كان أو خشبًا أو نباتًا مثلا.

(ويأكل فى نقرة من حجر) بوزن حفرة، فلا يأكل فى آنية ويضع طعامه فى الأرض، **(ويكرع فيها)** أى يضع ما يشربه فى نقرة يكب عليها ويشرب منها بفيه **(إذا أراد أن يشرب)**، وأصل معنى الكرع شرب الدابة بفمها من ماء فى الأرض، وضمير فيها راجع للنقرة المذكورة أو لغيرها من جنسها، كما تقول: أعطيته درهمًا ونصفه، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر: ١١].

(كما تكرع الدابة) أى تشرب بفمها بلا آنية، معنى كرع دخل النهر وصوب رأسه ليشرب؛ **(تواضعًا لله بما أكرمه من كلامه)** إذ كلمه بلا واسطة كما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] **(وأخبارهم)** أى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، **(فى هذا كله)** من النعوت التى تقدمت فى هذا الفصل المعقود لها **(مسطورة)** فى كتب الحديث والتفسير المعول عليها.

(وصفاتهم فى الكمال وحسن الأخلاق) كما تقدم من الصبر والقناعة والتواضع، **(وحسن الصورة والشمائل)** جمع شمأل وهى الخلق والسجية، وينبغى أن يراد بالأخلاق القوى الطبيعية، وبالشمائل ما ينشأ عنها من الآثار **(معروفة مشهورة)**، وعبر فى الأولى بأنها مسطورة، وفى هذه بأنها مشهورة تفننًا فى العبارة، ولأن الأولى أخبار يحتاج لنقلها من الكتب المعتبرة، وهذه كمالات لائقة بهم تدرك بالعقل، ولكونها مدونة مشهورة غير محتاجة للإعادة، ولكن ذكر منها ما ذكر ليعلم قدرهم وفضلهم.

(فلا نطول بها) مع أنها معلومة، ثم لما كان فى بعض الكتب أمورًا متعلقة بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، غير لائقة بهم حذر منها، فقال: **(لا تلتفت)** أى لا تعتبر ولا تعتقد، وأصل الالتفات لى العنق أو انعطاف بالجانب، لتنظر ما تريد معرفته فتجوز به عما ذكر، ومنه الالتفات البديعى **(إلى ما تجده)** وتقف عليه **(فى كتب بعض جهلة المؤرخين)** جمع مؤرخ بالهمزة، وقد تبدل واوًا، وهو المصنف فى التاريخ وهو فن

معروف، وهو لفظ عربى أصله من الأرخ مستعار للحادث من ولد البقرة، أو هو معرب ماه روز وهو بعيد جدًا، وأول ما حدث فى زمن عمر، رضى الله تعالى عنه.

(و) فى كتب بعض **(المفسرين مما يخالف ذلك)** أمثال **(هذا)** المذكور.

* * *

(فصل) [حديث جامع لوصفه ﷺ]

(قد آتيناك أكرمك الله) جملة اعتراضية، والخطاب لمن سأله تصنيف هذا الكتاب كما مر، أو لكل من يقف على كتابه، وليس فيه تجريد لمخاطب من نفسه كما قيل، ومفعول آتينا مقدر أى مما عرفته وسمعته، أو مما فيه مقنع بقرينة ما سيأتى **(من ذكر الأخلاق الحميدة)** أى المحمودة الممدوحة، وهو بيان لمقدر أو لما الآتية بناء على جواز تقدمه، **(والفضائل المجيدة)** أى الكريمة الشريفة، **(وخصال الكمال العديدة)** أى الكثيرة المعدودة، وقد تقدم أنه قد يفيد الكثرة؛ لأن القليل لا يحتاج للعد، وقد يراد به القلة والمراد الأول.

(وأريناك) أى أعلمناك وأوضحنا لك **(صحتها له ﷺ)** أى كونها صحيحة فى حقه لائقة به.

(وجلينا) بجيم ولام مفتوحتين ومثناة تحتية ساكنة أى أوضحنا وبينا، وفى نسخة جلبنا بباء موحدة أى روينا ونقلنا، وفى بعض النسخ حكينا بالكاف بدل اللام والمعنى واحد **(من الآثار)** جمع أثر وهو ما يبقى من علامات الشىء الدال عليه، ويطلق على الحديث، وقد يختص بالموقوف وكلام الصحابة، رضى الله عنهم، ويراد به مطلق الخبر الشامل للحديث المرفوع أو الموقوف وكلام الأكابر وهو المراد هنا **(ما فيه مقنع)** بفتح الميم والنون وبينهما قاف ساكنة مصدر ميمى بمعنى القناعة، أو هو صفة مشبهة بمعنى ما به القناعة والرضى، وفى القاموس يقال: شاهد مقنع وقنعان أى مرضى ويكتفى بشهادته، وقد قال ابن الحاجب: إن مفعلا يكون صفة نحو مركب بمعنى مركوب، إلا أنه نادر، وعلى هذا فما ذكره هو المقنع نفسه، فعدل عنه للمبالغة، وهو تجريد كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، والتجريد يكون بمن وفى والباء، وما قيل من أن المراد به الدليل، وهذه الآيات والأخبار تتضمن الدليل تضمن اللفظ للمعنى، تكلف مذهب لرونق الكلام.

(والأمر أوسع) جملة حالية أى شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومقامه أعظم مما ذكرناه وأكثر، فإن محاسنه لا تطيق العبارات حصرها:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

(فمجال هذا الباب) بفتح الميم والجيم من جال يجول إذا طاف ودار أى محل تجول فيه الأفكار حول نعوته وصفاته، وهذا الباب عبارة عن خصاله ومحاسنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم)** أى ما يقال فى أمره وشأنه الذى يحق له **(ممتد)** أى واسع، فكنى عن كثرتها وعظمتها بسعة محلها كما يقال المجلس والمقام العالى عبارة عمن هو فيه، ثم بين سعته بقوله: **(ينقطع دون نفاده الأدلاء)** جمع دليل، وهو من يتقدم الركب ليهديهم إلى الطريق، وانقطاع سالك الطريق أن يعجز ويقف دون بلوغ غايتها، ففيه استعارة تمثيلية، شبه صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بطريق ممتد طويل، وشبه العلماء الذين يريدون معرفتها بركب سلكوا طريقًا، وشبه من يستفيدون منه بها بهديهم فى الطريق، وعجزه عن الوقوف على كنهها ممن انقطع ووقف فيها لا يهتدى لسبيله، والأدلاء جمع دليل كما علمت لا بمعنى الحجة، بل بمعنى هادى السابلة كأنبياء جمع نبى، وأصله أدللاء، وقيل: إنه جمع أدلة بمعنى دليل، فهو جمع الجمع، وليس المعنى أن محاسنه وكمالاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لو أريد غايتها بالأدلة كالآيات والأحاديث وأقوال الصحابة لم يكن إلا أن يراد بين المقصود منه، ونفاد بالفاء والدال المهملة بمعنى الذهاب والفناء قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، ولاوجه لتفسيره بفراغه.

(وبحر علم خصائصه) من إضافة المشبه به بالمشبه كلجين الماء، وقد تعكس لكنه قليل **(لا تكدره الدلاء)** جمع دلو، وهو ما يؤخذ به الماء من الأديم، وعدم تكديره عبارة عن عدم بلوغ آخره؛ لأنه إذا بلغه حرك طينه فيتكدر ماؤه، وهو ترشيح للتشبيه، فإن الترشيح لا يختص بالاستعارة من الكدرة خلاف الصفو، وفيه إشارة لصحته وكثرته.

(لكنا أتينا فيه بالمعروف) المشهور الذى يعرفه الناس **(مما أكثره فى الصحيح)** أى الكتب الصحيحة كالكتب الستة، وأشار بقوله: أكثره إلى أن فيه أحاديث غير صحيحة اعتمد على شهرتها، وذكر أن بعض المصنفين لها أوردها لما فيها من الفضائل كما أشار إليه بقوله: **(والمشهور من المصنفات)** التى لم يلتزم فيها الصحيح.

(واقتصرنا فى ذلك) الذى أتينا به وأريناه أى اكتفينا **(بقل من كل)**، وفى نسخة من أكثر، والأصح ما ذكرناه، والقل بضم القاف وتشديد اللام بمعنى القليل، أو بمعنى القلة كالذل بمعنى الذلة أى ذكرنا أمرًا قليلاً منه لا كثيرًا، أو دون الجميع لأنه لا يمكن الإحاطة به.

(وغيض من فيض) الغيض بفتح الغين المعجمة وسكون المثناة التحتية والضاد المعجمة من غاض الماء إذا نقص، والمراد أنه قليل، والفيض بفاء ومثناة تحتية وضاد معجمة من

فاض الماء إذا تدفق وانسكب، والمراد أنه كثير وفيه طباق وافتنان.

(ورأينا) هو من الرأى لا من الرواية أى خطر له خاطر **(أن نختم هذه الفصول)** أى نجعل خاتمة هذه الفصول التى سبق ذكرها فى هذا الباب **(بذكر حديث الحسن)** رضى الله تعالى عنه ابن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، الذى رواه الترمذى فى شمائله، وأخرجه ابن سعد والبيهقى والطبرانى، ورواه المصنف، رحمه الله تعالى، عن مشايخه.

(عن أبى هالة) وهو هند بن أبى هالة الصحابى، رضى الله تعالى عنه، ربيب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه ابن خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وقد تقدم الكلام عليه وترجمته **(لجمعه)** الضمير للحديث، وهو علة لذكره وجعله مسك الختام **(من شمائله وأوصافه)** عطف تفسير **(كثيرًا)** مفعول جمعه المصدر المضاف لفاعله، **(وإدماجه)** أى اشتماله من أدمج الشىء إذا لفه وستره، وقيل: المراد لإحكامه وإتقانه وأنه أولى **(جملة كافية من سيره وفضائله)** مفعول الإدماج لما فيه من معنى الإدخال. قال الجوهرى: دمج دموجًا إذا دخل واستحكم، **(ونصله بتنبيه لطيف على غريبه ومشكله)** أى نبين فى التنبيه ما فى الحديث من غريب اللغة، وما يشكل من تركيبه.

(حدثنا القاضى أبو على الحسين بن محمد الحافظ بقراءتى عليه سنة ثمان وخمسمائة)، هو الإمام الحافظ أبو على بن سكرة الذى تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا الإمام أبو القاسم) التكنية بهذه الكنية جائز، وما ورد فى حديث «تسموا باسمى ولاتكنوا بكنيتى»[1] محمول على حياته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو على الجمع بينهما على ما يأتى، لما فى ذلك من الخلاف **(عبد الله بن طاهر)** بطاء مهملة تقدمت ترجمته **(التميمى)** منسوب لبنى تميم قبيلة مشهورة **(قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابورى)** الأديب هو العارف بعلوم الأدب الاثنى عشر المشهورة، **(والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمدى)** منسوب للمحمدية قرية من قرى تونس، وتسمى بهذا الاسم قرى أخر بنواحى مصر وبغداد واليمامة، **(والقاضى أبو على الحسن بن على بن جعفر الوخشى)** بواو مفتوحة وخاء وشين معجمتين نسبة لوخش قرية من أعمال بلخ، وقيل: بحاء مهملة والصحيح الأول، وعليه اقتصر البرهان، وهو الحافظ الرحلة الحسن بن على بن محمد بن

(١) أخرجه البخارى (١/٣٨، ٣/٨٦، ٤/١٠٣)، ومسلم فى الآداب (١/٥، ٧)، وأبو داود (٤٩٦٥)، وابن ماجه (٣٧٣٥)، وأحمد (٢/٣٩٥)، والدارمى (٢/٢٩٤)، والبيهقى (٩/٣٠٨)، وعبد الرزاق (١٩٨٦٦).

جعفر البلخى يروى عن جماعة، وحدث عنه الخطيب وهو من أقرانه، وسمع منه الحسن ابن على البلخى سنن أبى داود، وهو ثقة، ترجمته معروفة إلا أنه اتهم بالقدر، توفى خامس ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ببلخ، وعمره ست وثمانون سنة.

(قال: حدثنا أبو القاسم على بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعى) بضم الخاء المعجمة نسبة لخزاعة قبيلة معروفة قال: **(أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشى)** نسبة لشاش بلدة معروفة بما وراء النهر، وهو الحافظ الثقة أبو سعيد الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل صاحب المسند محدث ما وراء النهر سمع من الترمذى وغيره، توفى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة قال: **(أنبأنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الحافظ)** الإمام الترمذى صاحب السنن، وسورة بفتح السين المهملة وسكون الواو وراء مهملة كما تقدم.

(قال: حدثنا سفيان بن وكيع) بن الجراح أبو محمد، روى عنه أصحاب السنن وله ترجمة فى الميزان، توفى سنة سبع وأربعين ومائتين.

(قال: حدثنا جميع) بزنة مصغر جمع ضد المفرد **(ابن عمر بن عبد الرحمن العجلى)** الكوفى، وعجل اسم قبيلة بكسر العين المهملة وسكون الجيم **(إملاء من كتابه)** الذى بيده أو بيد غيره، وهو أحد طرق الرواية المقبولة من الثقة المصحح لكتابه، وما روى من منع الرواية من كتابه الصحيح خلافه كما فصلاه.

(قال: حدثنا رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة زوج خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، يكنى أبا عبد الله) هذا الرجل هو عبد الله بن أبى هالة الذى كان تزوج خديجة قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وهذا الرجل أخرج عنه الترمذى فى شمائله **(عن ابن لأبى هالة)** قال الذهبى وتبعه البرهان: إن هذا الرجل لا يعرف اسمه، فهذا الحديث منقطع؛ لأن فيه راويًا مجهولاً، وهالة علم منقول من هالة القمر وهى دارته.

(عن الحسن بن على بن أبى طالب قال: سألت خالى هند بن أبى هالة)؛ لأنه أخو فاطمة الزهراء، رضى الله تعالى عنها، لأمها **(قال القاضى أبو على)** بن سكرة المتقدم، فروى هذا الحديث من طريقين، **(وقرأت على الشيخ أبى طاهر أحمد بن أحمد بن خذاداذا الكرجى الباقلانى)** وخذاداذا بضم الخاء المعجمة وفتح الذال المعجمة وألف ودال مهملة وألف ثم ذال معجمة وألف مقصورة كذا ضبطه البرهان، وهو معرب حداداد بدالات مهملة، ومعناه بالفارسية عطية الله، والكرجى بفتح الكاف والراء المهملة، ثم جيم منسوب للكرج اسم بلدة لأبى دلف العجلى، واسم بلدة بالدينور وبضم فسكون اسم

مملكة معروفة، والباقلانى بتشديد اللام قال الجوهرى: الباقلاء إذا شددت لامها قصرت وإن خفت مددت.

(قال) أبو على: **(وأجاز لنا الشيخ الأجلُّ أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون)** هو الحافظ المتقدم ترجمته **(قالا: أخبرنا أبو على الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن ابن محمد بن شاذان)** بشين معجمة وألف ونون معرب، ومعناه بالفارسية السرور **(ابن حرب)** كضد السلم **(ابن مهران)** بكسر الميم **(الفارسى)** منسوب لفارس ديار العجم **(قراءة عليه فأقر به)** هو شرط لقبول الرواية عمن قرئ عليه، فيقال له: أخبركم بهذا فلان عن فلان، فيقول: نعم أخبرنى به، فلذا قيده المصنف، رحمه الله تعالى، بهذا.

(قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله ابن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب المعروف بابن أخى طاهر العلوى) هذا الرجل ترجمه الذهبى فى الميزان ونسبه كما هنا، وروى حديث: «على وذريته يختمون الأوصياء إلى يوم القيامة»، وهذا الحديث يدل على كذبه ورفضه، وهو متهم بالكذب، ولولا هذا لازدحم الناس عليه؛ لأنه معمر توفى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

(قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب قال: حدثنى على بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين) على هذا هو جعفر بن محمد الصادق، روى عن أبيه وأخيه موسى، وروى عنه الترمذى دون أصحاب السنن إلا أنهم لم يوثقوه، وانفرد بالرواية عنه الترمذى.

(عن أخيه موسى بن جعفر) هو موسى بن جعفر بن محمد الكاظم، وهو إمام ثقة **(عن جعفر بن محمد)** هو الصادق وقد تقدم **(عن أبيه محمد)** هو محمد **(بن على)** أبو جعفر الباقر **(عن على بن الحسين)** هو زين العابدين الإمام المشهور **(قال: قال الحسن بن على)**، رضى الله تعالى عنهما، **(واللفظ لهذا السند)** يعنى اللفظ المذكور مخصوص بالطريق الثانى، والسند بالنون بمعنى الإسناد، وليس السيد بمثناة تحتية، لأنه لم يذكر أنه رواه عن على بن الحسين زين العابدين، وكذا لم يذكر أنه رواه أحد مع الحسن هو ابن على كما فى المقتفى، وهذا إسناد شريف لأن رواته كلهم من أهل البيت، ومثله حديث صفة الصلاة حتى نقل التلمسانى، رحمه الله تعالى، أنه إذا قرئ على مصاب أفاق، ورجال سنده كلهم معرفون.

(سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) الحلية بمعنى ما يتحلى به الإنسان أى مما يرى من وجهه الشريف وبدنه، وهى بكسر الحاء

المهملة وسكون اللام، **(وكان وصافًا)** أى كان فصيحًا له خبرة بوصف الناس لحذقه، أو كان معروفًا بذكر صفات النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأنا أرجو)** جملة حالية أى راجيًا **(أن يصف لى منها)** أى من حلية النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(شيئًا)** أى مقدارًا منها؛ لأن جميعها لا تحصى، أو بعضها لا تفى العبارة به **(أتعلق به)** أى أحفظه وأتمسك به تبركًا.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فخمًا مفخمًا) بفتح الفاء وسكون الخاء المعجمة، والمفخم بوزن المكرم، والفخم بمعنى العظيم، وأصل الفخامة العظمة فى الأجسام، ثم شاعت فى المقدار والشرف، فإن كان المراد الأول وهو الظاهر، فالمعنى أن أعضاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تامة الخلقة واسعة سعة غير مفرطة كما تقدم فى الباب الثانى أنه كان واسع الصدر، وعينه نجلاء أى واسعة الشق، ووجهه الشريف ممتلىء باللحم، وأن قامته الشريفة غير قصيرة، والمراد بكونه مفخمًا أنه كذلك فى العيون الناظرة إليه، ويحتمل أن يراد بكونه فخمًا هذا المعنى، وأن يراد بكونه مفخمًا أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مهابة فى العيون والصدور مع الجلال.

(يتلألأ وجهه) أى يضىء ويشرق، وهو مأخوذ من اللؤلؤ لصفائه ولمعانة **(تلألؤ القمر ليلة البدر)** أى فيه نور كنور القمر فى ليلة البدر، وقد تقدم الكلام فيه وتفسيره **(أطول من المربوع)**، وهو الذى بين الطول والقصر كالربعة، وقال التلمسانى: المراد به هنا القصير الذى تحت الربعة؛ لئلا يناقض ما ورد من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه ربعة، وأصل المربوع الحبل المفتول على أربع طاقات، فاستعير لما ذكر انتهى.

أقول: لا حاجة لما ذكر لصرفه عن ظاهره؛ لأن المراد أنه يزيد على الربعة زيادة يسيرة لا تخرجه عن كونه ربعة، فهذا أمر تحقيقى، وربعة أمر تقريبى، فلا منافاة بينهما؛ ولذا قال: **(وأقصر من المشذب)** بضم الميم وفتح الشين والذال المعجمتين المشددة والباء الموحدة، وهو المفرط فى الطول كالبائن، وهو مستعار من النخلة المشذبة، وهى التى قطع بعض جريدها، والتشذيب قطع كالتقليم.

(عظيم الهامة) بالهاء وتخفيف الميم، وهى الرأس، وليس المراد أنها مفرطة فى الكبر، بل كبيرة كبرًا نسبيًا لأن صغرها وإفراط كبرها غير ممدوح لدلالته على قلة العقل، وقيل: الهامة وسط الرأس، وقيل: مخه، ولها معان أخر غير مناسبة هنا.

(رجل الشعر) بكسر الجيم على وزن حذر، والشعر معروف ويجوز فتح عينه وسكونها كما مر، والمراد أن فيه تجعدًا قليلاً، وهو من صفاته الممدوحة فيه، ويقال

لضده قطط وهو الشديد الجعودة، والسبط المسترسل.

(إن انفرقت عقيقته فرق) انفرق أى صار شعر رأسه فرقتين، والعقيقة الشعر الذى على رأس المولود الذى يخرج عليه حين يولد من عق إذا قطع؛ لأنه يحلق فى اليوم السابع، فسمى به شعر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على طريق المجاز المرسل لاستعمال المقيد فى المطلق، وليس استعارة تحقيقية كما قيل، ومعنى فرق أبقاه منفرقًا على حاله إذا انفرق بنفسه، يقال: فرقه فانفرق والفرق والمفرق البياض الواقع بين شعر الرأس، وفى رواية عقيصته بالصاد المهملة بدل عقيقته.

(وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه)، وفى رواية أذنيه بالتثنية وهما بمعنى كما يقال: نظرت بعينى إذا نظر بعينيه، وهكذا فى كل عضو كان كذلك كما هو مقرر فى العربية، وشحم الأذن ما لان منهما حيث يعلق القرط، وتقدم فى هذا الحديث: «ما رأيت من ذى لمة فى حلة حمراء أحسن من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم»، وأن اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن، فإذا وفر شعره صار لمة أى ما يلم بالمنكبين، واللمة دون الجمة، والوفرة دون اللمة والجمة أكثر من الوفرة وهى ما سقطت على المنكبين، فالوفرة أبلغ منها اللمة، والجمة أبلغ منهما، وفيه كلام تقدم، والفرق سنة بخلاف السدل من قدام أو خلف، ومعنى قوله: وإلا: وإن لم يفرق، فعلم منه إذا فرق جاوز الشحمة ووصل المنكب، وأحواله مختلفة فى الطول، ولذا قيل له لمة وجمة.

(إذا هو وفره)، وفى بعض النسخ وفر بدون ضمير، والمعروف رواية الأول كما قال المزى، وفاؤه مخففة ومشددة أى كثرة، وقد نقل بعد الحلق وغيره كما عرفته، وهذا أولى من حمل اختلاف الروايات على التقريب.

(أزهر اللون) سيأتى معنى الأزهر، وأن معناه أبيض مشرب بحمرة، وقد ورد أنه ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، وبهذا علم ما روى أنه كان أسمر، ولعله رآه عقيب سفر ونحوه، أو لم يحققه لأنه لمهابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يحدق النظر فى وجهه، وفى رواية أنه كان أبيض شديد الوضح، والمراد بالوضح البياض وقد يطلق على البرص، ولذا سمى جزيمة الأبرص الوضاح، ويؤيده أنه ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان عنقه كوز فضة ويأتى كأن ساقه جمارة، وكشف ظهره فكأنه سبيكة فضة، وقيل: إن سمرته حمرته، ولذا قيل فى الجمع بين الروايات: إنه كان يميل إلى السمرة أو البياض لونه، وهذا عرض له بعد ذلك لكثرة أسفاره.

(واسع الجبين) فى القاموس الجبينان حرفا الجبهة وجانباها عند الصدغين وبعد

الحاجبين، والجبهة وسطه أو هو جميع ما بين الصدغين، فتدخل فيه الجبهة إلى قصاص الشعر.

(أزج الحواجب) أزج أفعل كأحمر، والزجج تقوس فى الحواجب مع طول فى طرفه وامتداد بدقة فى طرفيه، وأراد بالحواجب الحاجبين، وجمع لأن أقل الجمع اثنان أو لإطلاقه على أجزائه، وهما العظمان فوق العينين بلحمهما وشعرهما، ويطلق على الشعر، وسمى به لأنه يحجب الشمس وغيرها عن العين **(سوابغ)** بالسين والصاد جمع سابغ؛ لأنه لما لا يعقل، وقيل: جمع سابغة وفيه أى طوال كاملة **(من غير قرن)** بفتحتين أى من غير اقتران واتصال؛ لأنه غير ممدوح عند العرب، وما وقع فى حديث أم معبد من وصف حاجبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقرن، فيحتمل أنه كان بينهما شعر دقيق جدًا إذا سافر، وعلاه غبار السفر ظن قرنا، وما قيل: إنه بطريق الرأى أو أنه لاختلاف الرؤية قربا وبعدًا، أو أنه حدث له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ذلك بعيد جدًا، بل لا وجه له **(بينهما)** أى بين الحاجبين، وهذا يدل على أن الجمع فى الحواجب بمعنى المثنى هنا.

(عرق يدره الغضب) بضم الياء مضارع الإدرار، من أدر الضرع والسحاب إذا كثر دره، وهو لبنه وماؤه فحلب، والمراد أنه يظهر لغليان الدم بالغضب بعد ما كان خفيا، لا أنه يحدث بعد أن لم يكن، وهذا لا ينافى ما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حليم لا يغضب؛ لأنه باعتبار أكثر أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه لا يغضب لنفسه، ولا لأجل أمر دنيوى، ولكنه قد يشتد غضبه لله إذا انتهكت حرمه، وفى ضربه للأعداء كما قال الصرصرى، رحمه الله:

بجبينه عرق يدر إذا سطا غضبًا على الأقران يوم طعان

والغضب تهييج الحرارة الغريزية، فيغلى الدم منها، ولذا يحمر الوجه وتنفتح العروق.

(أقنى العرنين) القناء فى الأنف طوله ودقة أرنبته أى ظرفه مع ارتفاع يسير فى وسطه، والعرنين بكسر العين الأنف أو ما صلب منه أو ما تحت مجمع الحاجبين، وهو أول حيث يكون الشمم، والجمع عرانين ويكنى به الأشراف لشموخ أنفهم وارتفاعه على أقرانه قال[1]:

إن العرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

(له نور يعلوه) الضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجوزوا أن يعود للعرنين؛ لأنه

(١) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة فى أساس البلاغة (ص٨٣).

وإن كان وجهه كله له نور لكنه أول ما يتعلق به، ولذا سمى أنفًا أيضًا.

(**يحسبه من لم يتأمله أشم**) الشمم فى الأنف ارتفاع وسط قصبته مع استواء أعلاه وإشراف أرنبته قليلا، يعنى أن وسطه فيه استواء مع أعلاه وأسفله، ولكنه لتلألئه قد يظن أن فيه ارتفاعًا، أو أن فيه قليلاً جدًا لايعد شممًا، والشمم قد يعبر به عن عزة النفس وعدم التنزل للأمور، وهو ما يمدح به كما قال كعب، رضى الله عنه[1]:

شم العرانين أبطال لبؤسهم   من نسج داود فى الهيجا سرابيل

والتأمل إعادة النظر وتكراره ليثبت فيه ويقف على كنهه، وهو فى الأصل تفعل من الأمل والرجاء؛ لأن الإنسان لا يعيد النظر غالبًا إلا لما فيه أمل، فأطلق على لازمه وشاع حتى صار حقيقة فيه، وقيل: الشمم طول الأنف مع سيلانه ودقته، والأول أصح وأشهر.

(**كث اللحية**) بفتح الكاف وتشديد المثلثة، والكث كون اللحية كثيرة الشعر من غير طول ولا دقة شعر، وما اشتهر من قوله: «من سعادة المرء خفة لحيته»[2]، لم يثبت أنه حديث مع أنه قيل: إنما خفة لحييه مثنى لحى، وأن معناه كثرة تحريكهما بذكر الله، أو المراد عدم طولها.

(**أدعج**) أى سواد عينيه شديد مع بياضها، ويقال: رجل أدعج أى أسود، وليس بمراد، وسيأتى فيه كلام.

(**سهل الخدين**) أى غيرمرتفع الوجنة، وكثير اللحم فيهما، فإنه غير محمود، وقيل: المراد أنه طلق منبسط.

(**ضليع الفم**) بضاد مفتوحة معجمة أى طويل انشقاق الفم واسعه، وهو مما يتمدح به ويعاب ضده؛ لدلالته على الفصاحة، وليس المراد به عظم الأسنان وتراصها كما قاله التلمسانى، وشعراء المولدين يمدحون صغر الفم، وهو خطأ منهم أو لمعنى آخر لا يلتفت إليه كما مر.

(**أشنب**) بنون بين شين معجمة وباء موحدة أى ذو شنب، وهو كما فى النهاية بياض وبريق وصفاء وتحديد فى الأسنان، وقيل هو رونقها وماؤها، وقيل: برد وعذوبة

---

(١) البيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص٢٣)، لسان العرب (٣٩٥/٢)، تاج العروس (سربل).

(٢) تقدم تخريجه.

فيها، وقيل: نقط بيض وتحزيز فيها، وسئل رؤبة عن قول ذى الرمة[(١)]:

لميــاء فــى شفتيهــا حــوة لعس وفــى اللثــاث وفــى أنيابها شنب

فأخذ حبة رمان وقال: هذا هو الشنب أى أنه صفاؤه وماء فيها كـهذا، ومـن أمثـال المولدين «فاتك الشنب» لمن أرد التشبه بمن لا يشبهه. قال ابن الوكيل، رحمه الله تعالى:

يابارقــا بأعالــى الرقمتيـن بــدا لقــد حكيت ولكن فاتك الشنب

(مفلج الأسنان) تقدم أن الفلج عدم تلاصق الأسنان، وهو أنقى للفـم وأطيـب، وفـى حديث على، كرم الله تعالى وجهه، أفلج الثنايـا، وهـو المـراد بالأسـنان، أو المـراد الثنايـا والرباعيات؛ لأن تباعد الأسنان كلها معيب، وقد تقدم كلام فيه، ومفلج مضمـوم الميـم مشدد اللام، ويشبه به تقارب الدار مع عدم التلاقى كقوله:

مالـى بــه مع قـرب دارى ملتقى فهــل رأيــت ثغــره المفلجــا

(دقيق المسربة) بميم مفتوحة وسين مهملة ساكنة وراء مهملة مضمومة وبـاء موحـدة مفتوحة تليها هاء، وهو شعر كالخيط سائل من الصدر إلى السرة، ووصفــه بالدقـة لأنـه غير عريض ولا متكاثف طويل.

(كأن عنقه جيد دمية) الجيد العنق إلا أن السـهيلى قـال: إن العنـق يستعمل فـى غـير المدح، والجيد يستعمل فى مقام بخلافه، وإن قوله تعـالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:٥]، تهكم لجعل الحبل عقدًا لها، وما هنا على أصل اللغة لا على نهج الاستعمال، فلا اعتراض عليه، والدمية بضم الدال المهملة وسكون الميم وتخفيف المثناة التحتية، وهـى الصورة من رخام أو عاج، والمراد شدة بياضه وطولـه، ويؤيـده مـا روى مـن أن عنقـه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كإبريق فضة، ويشير إليه هنا قولـه: **(فـى صفـاء الفضـة)** أى بياضها الخالص، وهذا يؤيد مامر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسـلم، ليـس بـأسمر وإنمـا شبه بالدمية لأن صانعها يبالغ فى تحسينها، ولهذا ضرب بها المثل.

(معتـدل الخلـق) بفتـح فسكون أى متوسـط الخلقـة بـين الطـول والقصـر، والسـمن والهزال، والضخامة والصغر، فهو متناسب الأعضاء مستقيم فى أحسن تقويم.

(بادنا) أى ضخم البدن غير دقيق الأعضاء صغيرهــا، وأردفـه بقولـه: **(متماسـكا)** أى كأن أعضاءه تمسك بعضها بعضا لشدة ارتباطه به ومناسبته لـه، وهـو منصـوب صفـة بادنا، وروى بالرفع خبر مبتدأ مقدر.

(١) البيت من البسيط، وهو لذى الرمة فى ديوانه (ص٣٢)، الخصائص (٣/٢٩١)، الـدرر (٦/٥٦)، لسان العرب (١/٥٠٧)، المقاصد النحوية (٤/٢٠٣)، همع الهوامع (٢/١٢٦).

(سواء البطن والصدر) أى متساويهما لم يرتفع أحدهما على الآخر.

(مشيح الصدر) بضم الميم وكسر الشين المعجمة ومثناة تحتية ساكنة وحاء مهملة بمعنى عريض متسع مع مساواته لبطنه من غير تقاعس وانخفاض فيه، وروى بفتح الميم وكسر السين المهملة وهو بمعناه.

(بعيد ما بين المنكبين) تثنية منكب بفتح الميم وكسر الكاف ونون بينهما وآخره باء موحدة، وهو ما بين الكتف والعنق، والمراد ببعدهما سعتهما، وهو أقوى للبدن والبطش، وعبر عنه تارة بالبعد وتارة بالعظم، والكل واحد، وما موصولة.

(ضخم الكراديس) جمع كردوس، وهو رأس العظم أو ملتقى كل عظمين كالمرفقين، وضخم بمعنى كبير، وكل عظم كثير اللحم كردوس.

(أنور المتجرد) اسم مفعول يعنى ما خفى من البدن من التجرد وهو الكشف ورفع الثياب، وأنور بمعنى نير مشرق أو أفعل تفضيل؛ لأن ما تحت الثياب من البدن لعدم ملاقاته الهواء والشمس أبيض من الأطراف المكشوفة، وورد فى وصفه ﷺ أنه أجرد، وهو ضد الأشعر، فإن الشعر كان على أماكن مخصوصة من بدنه كالمسربة والساعدين والساقين.

وقال الشريف الغرناطى، فى شرح البردة: قال بعض الصحابة: رأيت ساق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غرز الركاب كأنه جمارة يعنى فى بياض اللون والطراوة.

فإن قلت: الوارد فى صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه أزهر اللون أى مشرب بحمرة وبياض الجمار خالص.

قلت: يمكن الجمع بأن ما تحت الثياب مما لم يباشره الشمس خالص البياض بخلاف غيره انتهى.

(موصول ما بين اللبة) بفتح اللام وتشديد الباء الموحدة وهى النحر، وقيل: الصدر، وقيل: موضع القلادة وما موصولة لا زائدة **(والسرة)**، وهى موضع ما يقطع من المولود والمقطوع سر **(بشعر)** متعلق بموصول **(يجرى كالخط)**، وهو المسربة السالفة، وجريانه امتداده كماء جار، والخط الطريقة المستطيلة المستقيمة، وفى الاصطلاح: ما وصل بين نقطتين متقابلتين، فكأنه جعل اللبة وهى النقرة التى فوق الصدر نقطة، والسرة نقطة أخرى، والشعر الرقيق بينهما خطا.

(عارى الثديين) تثنية ثدى بفتح المثلثة وكسرها تذكر وتؤنث، وروى الثندوتين بثاء مثلثة ونون وهما بمعنى، قال الجوهرى: الثدى يكون للرجل والمرأة ووافقه الصاغانى،

وفى درة الغواص الثدى خاص بالمرأة والذى للرجل ثندوة، وهى غير مهموزة كترقوة على فعلوة، وهو مغرز الثدى أو رأسه، فإن ضممت همزته وهو فعلوة ففيه تفصيل بيناه فى شرح الدرة، وعلى ما قاله الحريرى تبعا لبعض أهل العصر صوب بعضهم رواية الثندوتين، وزعم أن غيره خطأ لعدم ثبوته فى اللغة، وما قيل من أنه صحيح على الاستعارة غير صحيح، ومعنى عاريهما أنه لا شعر عليهما، وقيل: لا لحم عليهما، لما سيأتى من أنه أشعر إلى آخره، وفيه نظر لأنه لم يذكر فيه أنه على ثدييه شعر كما ستسمعه قريبا **(ما سوى ذلك)** أى ماسوى الشعر الذى بين السرة واللبة، وهو بدل من الثديين، وفيه نظر وروى ما سوى ذين وهو أظهر.

(أشعر) أى كثير الشعر فى **(الذراعين)** بكسر الذال المعجمة ما بين المرفق وطرف الأصابع **(والمنكبين)** تقدم بيانهما **(وأعالى الصدر طويل الزندين)** تثنية زند، وهو طرف الذراع المتصل بالكف، وطرفاه الكوع وهو رأس الذراع مما يلى الإبهام، والكرسوع وهو رأسه مما يلى الخنصر، وهما العظمان اللذان فى ظاهر الساعد، والمراد عظم الذراع فسماه باسم بعضه، ولذا وصفه بالطول.

(رحب الراحة) أى واسع الكف، والكف والراحة بمعنى، والراحة من الروح وهو الاتساع.

(شثن) بفتح الشين المعجمة وسكون الثاء المثلثة والنون، وهو الضخم الممتلىء لحما، ويؤيده أنه ورد فى رواية أنه ضخم **(الكفين والقدمين)**، وما فى النهاية فى تفسيره من أنهما يميلان إلى الغلظ والقصر غير مناسب؛ لقوله رحب الراحة، وقيل: هو الذى فى أنامله غلظ بلا قصر، وذلك محمود فى الرجال دون النساء لأنه أشد للقبض والبطش، وقال ابن بطال: كانت كفه ﷺ ممتلئة لحما وهى مع ضخامتها لينة، وفى حديث أنس، رضى الله عنه: مامسست حريرا ألين من كفه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقول الأصمعى: الشثن غلظ مع خشونة لم يوافق عليه، ولا حاجة لتأويله بأنه لأمر عارض فى أسفاره وجهاده واستعمال يديه فى مهنة بيته؛ فإنه مناف لعده من الحلية وهى الصفات الخلقية، فإن الذى ارتضاه أهل اللغة أنه الضخم، ولا ينافيه قوله: **(سائل الأطراف)**، وبسط الكفين أو سبط الكفين كما قيل؛ لأن المراد بالأطراف الأصابع والكف والقدم مغرسهما، فليست داخلة فى معناهما، ومعنى سائل باللام طويل، فكأنه شبهها بعين سالت من بركة لطولها وصفائها وبياضها ولينها؛ لأن راحته، صلى الله تعالى عليه وسلم، تنبع منها الخيرات والمياه، كما قلت فى قصيدتى الهمزية:

نبع الماء من أصابع كفه بأياد ما غاض فيها الماء
لا تقسها على أصابع نيل كم لكسر من جبرهن وفاء

(أو قال: سائن الأطراف) شك من الراوى فى قول ابن أبى هالة أنه قال ما تقدم، أو قال: سائن بنون مبدلة من اللام كما يأتى قالوا: جبريل وجبرين، وإسماعيل وإسماعين.

(وسائر الأطراف) بالراء المهملة مكان اللام، ومعناه باقى أو جميع، وليس الثانى خطأ كما قاله الحريرى وتبعه فى الشرح الجديد كما فصلناه فى شرح الدرة، وعلى هذا الأخير هو مجرور معطوف على القدمين أى ضخم أطرافه كلها، وليس شكه لتقارب الحروف الثلاثة فى الخط والمخرج كما قيل، وقد ضبب فى النسخ على قوله: سائن بالنون، والصواب إثبات الألفاظ الثلاثة لما سيأتى فى تفسيرها كما قاله فى المقتفى، وجاء هذا فى بعض الروايات من غير شك.

(سبط العصب) سبط بسكون الباء الموحدة وكسرها بمعنى ممتد ليس به تعقد وثيق كما فى النهاية، والعصب وقع فى أصل البرهان بعين وصاد مهملتين كما ضبطه ابن الأنبارى، والذى اتفق عليه ابن الأثير والهروى أنه القصب بالقاف لا بالعين، والمراد بالقصب ساعداه وساقاه، وفى الغرسين كل عظم عريض لوح، وكل أجوف فيه قصبة، وجمعها قصب ويشهد له أن العرب تتمدح به كما قال[1]:

فجاءت به سبط العظام كأنما عمامته بين الرجال لواء

لأنه يدل على قوة البدن والشجاعة، والعصب بالعين ما يمتد فى البدن لربط الأعضاء وتحريكها كما بين فى علم التشريح، وهو إطناب المفاصل، وقيل: المراد به ههنا عظام الساقين والساعدين مجازًا؛ لما بينهما من المجاورة، فتتحد الروايتان وهو بعيد جدًا.

(خمصان الأخمصين) خمصان بضم الخاء المعجمة وفتحها وسكون الميم لا بفتحها كما توهمه عبارة القاموس، وتبعه بعضهم هنا، وبهما ضبط لفظ الشفاء ومعناه الضامر البطن، وهو هنا بمعنى المتجافى عن الأرض أى المرتفع، والأخمصين مثنى أخمص بوزن أحمر، وهو ما دخل من باطن القدم ولم يصب الأرض؛ لعدم مساواته العقب ومقدم القدم، وسمى به لضموره ودخوله، ولما كان أخمص القدم قد يطلق على ما يلى الأرض منها مطلقا أتى بقوله خمصان مضافا إليه، ليبين أنه على ظاهره، وهو المحل المرتفع، وليس

---

(١) البيت من الطويل، وهو لبعض بنى العنبر فى خزانة الأدب (٩/٤٨٨)، ولرجل من بنى الجناب فى المقاصد النحوية (٣/٢٢١)، وبلا نسبة فى أمالى المرتضى (١/٥٧١)، شرح الأشمونى (١/٢٤٣).

المراد به المبالغة فى ارتفاعه كما فسره بعضهم هنا بالشديد التجافى لهذا، فجعله كليل أليل، وقد قال ابن الأعرابى: إذا كان خميص الأخمص بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو أسفله فهو أحسن، فإن استوى أو ارتفع جدًا فهو مذموم، فمعنى خمصان الأخمصين أنه مرتفع باعتدال، وقال البرهان: وسيأتى ما ينافى هذا يعنى قوله مسيح القدمين، قال البارزى فى كتاب توثيق عرى الإيمان: خمصان الأخمصين متجافى أخمص القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم.

وقوله: **(مسيح القدمين ينبو عنهما الماء)** قال المصنف، رحمه الله، فيما يأتى: أى أملسهما، ولذا قال: ينبو عنهما الماء، وفى حديث أبى هريرة خلافه، ففيه إذا وطىء بقدميه وطىء بكليهما ليس له أخمص، وهذا يوافق معنى قوله مسيح القدمين، وقد قالوا: سمى عيسى ابن مريم ﷺ مسيحا لأنه لم يكن له أخمص، وقيل: معنى مسيح القدمين لا لحم عليهما، وهو مخالف لقوله: شثن القدمين انتهى، وأقره صاحب المقتفى، وفى الشرح الجديد فى النهاية: معنى مسيح القدمين أنهما ملساوان لينان ليس فيهما التواء وانشقاق، فإذا أصابهما الماء سال ومر سريعا من جانب الكعب القبلى، وقال ابن الحنجلى فى شرح قصيدة الصرصرى النونية: ليس المسيح باطن القدمين الذى هو محل الخمصان، بل ظاهرهما لملامسة، فلا تعارض بين العبارتين.

أقول: هذا كله خلط منهما، وليت شعرى ما يقول فى حديث أبى هريرة الذى نقله البارزى، فالإشكال الذى ذكره البرهان غير مندفع، اللهم إلا أن يقال: إن الخمصة فيه قليلة جدًا، ومعنى ينبو: يرتفع، والمراد به مفارقة الماء وانصبابه مجازًا، وأنشدوا هنا لبعضهم:

يارب بالقدم التى أوطأتها ... من قاب قوسين المحل الأعظما
وبحرمة القدم التى جعلت لها ... كتف المؤيد بالرسالة سلما
ثبت على متن الصراط تكرما ... قدمى وكن لى منقذًا ومسلما
واجعلهما ذخرى فمن كانا له ... ذخرا فليس يخاف قط جهنما

والقدم الأولى قدمه، ﷺ، والثانية قدم على، رضى الله عنه، لما قال له، ﷺ، يوم الفتح: اصعد لكسر أصنام الكعبة، فصعد على كتفه، ﷺ، فى حديث رواه صاحب الصفوة، ومسيح بفتح الميم وكسر السين المهملة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة وحاء مهملة، وفى بعض النسخ مشيح بضم الميم وشين معجمة، ولم يفسرها وكأنها تحريف من النساخ، أو معناها خفيف المشى.

(إذا زال زال تقلعا)، وروى إذا مشى تقلع أى رفع رجليه رفعًا قويًا ليتثبت فى مشيه، فكأنه يقلع رجليه من الأرض، فيقارب خطاه من غير اختيال وإسراع كما ورد من قوله الآتى: كأنما ينحط من صبب، وروى: إذا زال قلعا بفتح القاف وسكون اللام وكسرها وروى بالضم أيضًا.

(يخطو تكفأ) أى إذا مد خطاه يميل إلى قدامه كمن يتكفى، وتكفؤا إن همز ضمت فاؤه كالمصادر الصحيحة مثل تقدما؛ لأن الهمزة حرف صحيح، فإن أبدلت ياء كسر ما قبلها فقيل تكفيا كتسمى تسميا ونحوه من المصادر المعتلة الآخر.

(ويمشى هونًا) بفتح الهاء أى إذا مشى مشى برفق ولين ووقار كما يأتى، لأنه ممدوح قال تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

(ذريع المشية) بفتح الذال المعجمة وكسر الميم، والذريع الواسع الخطو أى ما بين قدميه واسع، فمع عدم سرعته يساوى مشيه المشى السريع أو يفوقه، **(كأنما ينحط من صبب)** أى ينحدر من مكان عال، والمنحدر من عال يكون له سرعة مع سهولة، وإنما قال: كأنما لأنه ليس منحدرًا على الحقيقة، وإنما هو كالمنحدر فى السرعة والسهولة.

(وإذا التفت التفت جميعا) أى إذا أراد أن يدور لما خلفه، أو فى جانبه لا يلوى عنقه، بل يصرف جميع بدنه فيقبل جميعا ويدبر جميعا من غير مسارقة نظر؛ فإنه خفة وطيش.

(خافض الطرف) مصدر بمعنى تحريك الجفن، ثم صار بمعنى الخفض ضد الرفع، والطرف العين، وفسر هذا بقوله: **(نظره فى الأرض أطول من نظره فى السماء)** يعنى أن نظره لجانب السفل أكثر من نظره فى جانب العلو؛ لخشوعه وحيائه ووقاره، وليس هذا مخصوصا بالصلاة والدعاء، فإنه مكروه فيهما، ولا ينافى هذا قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ لأن هذا باعتبار الأغلب كما يشعر به لفظ قد.

(جل نظره الملاحظة) جل بضم الجيم بمعنى المعظم والأكثر، والملاحظة النظر باللحظ، وهو طرف العين مما يلى الصدغ، ومما يلى الأنف موق وماق أى ينظر بطرف عينه تأدبًا وحياء.

(يسوق أصحابه) أى يمشى خلفهم وفى ساقتهم، ولايدع أحدًا يمشى خلفه كما هو عادة المتكبرين، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: خلو ظهرى للملائكة، وفى **قوه**: يسوق إشارة إلى أنه هو المحرك لهم، فما قيل من أنه لا يتقدم الصغار الكبار إلا إذا ساروا ليلا، أو خاضوا سيلا، ليس على وفق السنة.

(ويبدأ من لقيه بالسلام)؛ لأنه من السنة أن يسلم الأكبر على الأصغر، والسلام دعاء

وتحية، وهو تحية أهل الجنة كما ورد فى السنة، فهو دعاء بالسلامة، واسم من أسمائه تعالى، وجوز إرادته هنا بمعنى أن الله معك ومطلع عليك، وابتداؤه سنة لا واجب بالإجماع، وفيه قول به ضعيف لا يعتد به، ورده فرض كفاية لا على كل أحد بعينه؛ لأن السلام معناه الأمان، فإذا سلم أحد ولم يجب توهم الشر، فيجب دفعه كما قاله الحليمى، وهذا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تواضع ولطف مناسب لما نحن فيه من حسن الخلق.

قال الحسن، رضى الله عنه، الراوى لهذا الحديث: **(قلت)** لخالى هند بن أبى هالة، رضى الله تعالى عنه، **(صف لى منطقه)** مصدر ميمى أى نطقه وكلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنطق هو اللفظ الدال على معنى، وأما قول سليمان، عليه الصلاة والسلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وقول الشاعر:

لقد نطق اليوم الحمام لنطربا

فلتنزيله منزلته لفهم سليمان، عليه الصلاة والسلام، منه معنى، ولادعاء الشعراء شوقه وطربه كما قاله الهروى.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متواصل الأحزان) هذا مشتمل على الجواب وزيادة، فالجواب قوله الآتى، ولا يتكلم فى غير حاجة، فكأنه قال: كأن كلامه موجز قليل، وقيل: معناه أن كلامه لم يكن بفرح وبطر، بل بحزن وأسف.

وقال ابن قيم الجوزية: قول ابن أبى هالة متواصل إلى آخره لم يثبت عنه، وفى سنده مجهول، كيف وقد صانه الله عن الحزن وأسبابه؟ ونهاه عنه بقوله: **(لاتحزن)**، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلا خوف عليه ولا حزن فى الدنيا والآخرة، فمن أين يأتيه الحزن، وقد ورد وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه «كان دائم البشر ضحوك السن»(١)، وقد استعاذ من الهم والحزن، ومر أن الهم لما سيأتى والحزن على ما مضى.

وقال ابن تيمية فى حديث ابن أبى هالة: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان كثير الصمت دائم الفكر متواصل الأحزان ليس المراد بالحزن الألم على فوت مطلوب، أو حضور مكروه، فإنه لم يكن من حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما المراد به التيقظ لما يستقبل من الأمور، وهو مشترك بين العين والقلب انتهى.

قيل: وهو لم ينه عن ذلك لأنه ليس باختياره، وإنما نهى عن تعاطى أسبابه كما قيل:

---

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (١٨٧)، وابن سعد (١/٢/١٣٠)، والبغوى فى شرح السنة (١٣/٢٧٤).

ومن سره أن لايرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

انتهى. وقال ابن قيم الجوزية فى شرح منازل السائلين: ليس الحزن من منازل السالكين، وقد ورد النهى عنه، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقد استعاذ منه، ﷺ، وحزن المؤمن يسر الشيطان؛ لأنه يفتر العزم، ولذا قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤] الآية، وهو من المصائب، وأما خبر: «إن الله يحب كل قلب حزين»، فلم يثبت.

أقول: هذا تطويل بغير طائل، وإنكار ورود الحديث مردود؛ لأنه ثابت كما قاله الحافظ ابن تيمية وغيره، وأما كونه ليس من المقامات فمع كونه غير مسلم كما مر، فلا يضر، والمراد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان على هيئة الحزين حال سكوته؛ لكثرة أفكاره فى أمور أمته وأحوالهم كما يدل على قوله: **(دائم الفكرة ليس له راحة)**، وكيف لا وقد قاسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التبليغ ما لا يوصف. وأما وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالبشر والتبسم، فهو فى حال آخر، وهو مخاطبته للناس والنظر فى أمورهم.

(ولا يتكلم فى غير حاجة) له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لأمته كما قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

(طويل السكوت) عما لا يجدى نفعًا؛ لكثرة أفكاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودوام أذكاره.

(يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه) جمع شدق بفتح أوله وكسره وسكون داله المهملة، وهو جوانب الفم، وذلك لسعة فمه الدالة على فصاحته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وهو مما تتمدح به العرب كما يأتى، وأما قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أبغضكم إلى الله المتشدقون»، فمعناه من يتكلف كثرة الكلام بلا احتياط فيه، فسقط ما قيل: إنه من صفة الفم ولا مدخل له فى الجوانب.

(ويتكلم بجوامع الكلم)، وهى الكلمات الموجزة المشتملة على الحكم النافعة السائرة مسير الأمثال جمع جامعة، وتطلق على القرآن. **(فصلا)** بفتح الفاء وسكون الصاد المهملة أى كلامًا فاصلاً للخصومة، وفارقًا بين الحق والباطل، **(لا فضول فيه)** أى لا زيادة فيه على أداء المراد، وهو اسم مفرد، وقيل: إنه جمع فضل خص بما ذكر، ونقل لمعنى آخر، ولذا نسب إليه فقيل: فضولى كما فى المغرب. **(ولا تقصير)** فيما يريده بتقليل مخل بالفهم.

(دمثا) بفتح الدال المهملة وكسر الميم وبالثاء المثلثة من الدماثة، وهى سهولة الخلق مستعار من الأرض الدمثة، وهى ذات الزمل المتلبد أى لين الخلق لطيف المعاملة، **(ليس بالجافى)** أى ليس غليظ الطبع، وهو أصل معنى الجفاء، أو لم يكن يجفو أصحابه، **(ولا المهين)** روى بضم الميم وفتحها، فالأول من الإهانة والميم زائدة أى لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، يهين أحدًا من الناس، والثانى من المهانة وهى الحقارة والميم أصلية أى لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيرًا متذللاً لأحد من الناس؛ لشرف نفسه وعزتها، وهذا وصف لذاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل أن يكون وصفًا لمنطقه.

(يعظم النعمة وإن دقت)، أى يعد كل ما أنعم الله به عليه عظيمًا، وإن لم يكن كذلك، ومعنى دقت: صغرت وقلت.

(لا يذم شيئًا) أى شيئًا يستحق الذم **(لم يكن يذم ذواقًا)** بفتح الذال المعجمة وفتح الواو المخففة وألف وقاف فعال مصدر صار بمعنى ما يذاق من مأكول ومشروب، فما قدم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من طعامه ونحوه إن أعجبه أكل منه، وإلا كف يده، ولا يقول فيه شيئًا فلا يذمه، **(ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه)** من قام إذا ثبت أى لا يثبت له أحد، أو من قام بمعنى دام أى لا يدوم أحد على تحمل غضبه، ويقام بضم المثناة التحتية مبنى للمجهول، وفيه دلالة على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يغضب لله أحيانًا، وقد ورد ما يدل على ذلك **(إذا تُعُرِّضَ للحق بشىء)** بضم التاء الفوقية والعين وكسر الراء المهملة المشددة والضاد المعجمة أى إذا اعترض أحد للحق بما يبطله، أو يقتضى خلافه، وبشىء بالباء الجارة واللام، وعامله إما يقام أو تعرض **(حتى ينتصر له)** أى للحق، فيؤيده ويبطل خلافه.

(ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها) أى إذا آذاه أحد من الأعراب وغيرهم بما يتعلق بنفسه كالأعرابى الذى أمسكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بردائه ولببه، والذى قال: إن هذه قسمة غير عادلة، ونحو ذلك ككلام بعض المنافقين كأبى ابن سلول رأس المنافقين، وما كان يصدر منه.

(إذا أشار أشار بكفه كلها) أى إذا أشار لشىء خارج الصلاة أشار برفع يده، وأما فى الصلاة إذا أشار للتوحيد أشار بإصبعه السبابة والمسبحة ليفرق بين الإشارتين، وله صلى الله تعالى عليه وسلم، إشارات أخر نبه عليها بقوله: **(وإذا تعجب قلبها)** أى قلب كفه، وجعل باطنها نحو السماء وظاهرها للأرض، وتأنيث الكف لأنها مؤنث سماعى، وهو إشارة لانقلاب الحال عما يعتاد من غير إظهار للتعجب، واستغراب لأمر، وهذا مما يدل على سكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم خفته، وهو أمر ممدوح.

(وإذا تحدث أفصل بها) فى شرح الدلجى بهمزة وفاء وصاد مهملة ولام، والضمير للكف أى وجه كفه من فصل علينا إذا خرج من طريق، أو ظهر من حجاب قاصدًا بها أى بكفه و لم يبينه غيره، ووقع فى بعض النسخ اتصل بها أى بمثناة فوقية بدل الفاء، وفى حاشية التلمسانى: وللحديث يتصل بها أى لا زال يحركها، وذلك أثبت لأنه قول وفعل، انتهى، وهذا يدل على أن اتصل بها رواية، ففى العبارة ثلاثة وجوه: أفصل، واتصل، ويتصل، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فصل حديثه بإشارته بيده لجهة من يخاطبه كعادة من يهتم بكلامه فى أمر مهم.

أقول: هذا كلام مع غموضه غير محرر مع ما فيه، أما ما ذكره الدلجى من أنه أفصل بهمزة وفاء فتحريف؛ لأنه لم يسمع فى هذه المادة مزيد بزنة أكرم، فالصواب فصل أو اتصل، ومعناه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فصل كلامه بإشارته أو وصل إحدى يديه بالأخرى، ثم رأيته فى كتاب النعمة فى الصلاة والسلام على شفيع الأمة، ذكر هذا الحديث، وأنه اتصل افتعال من الوصول وهو الصحيح، وذكر أنه ﷺ كانت له إشارات مختلفة، فيشير بالمسبحة للتوحيد، ويجمع كفه لغيره فرقًا بينهما، وأنه كان إذا حدث وصل حديثه بالإشارة بيده توكيدًا له، والظاهر أن الفاء الآتية فى قوله: **(فضرب)** تفصيلية كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: ٤٥]، إلى آخره، و لم يبينوا معناه، والظاهر أن المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يشير بجميع كفه إذا كان مع أصحابه على وجه متعارف كالإشارة للذهاب والجلوس ونحوه، فإذا تحدث وضع إبهامه على راحته وقت حديثه؛ لتثبيت حديثه، أو انتهائه فاعرفه.

وقوله: **(بإبهامه اليمنى راحته اليسرى)** كذا فى أكثر الروايات، وفى بعضها: فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، والإبهام معرف يذكر ويؤنث، وجمعه أباهيم وأباهم، قالوا: وهذا عادتهم إذا تحدثوا.

(وإذا غضب أعرض) عمن غضب عليه من غير لوم له؛ لشدة حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(وأشاح)** بشين معجمة وحاء مهملة بينهما ألف قيل: معناه صرف وجهه، فهو تأكيد لما قبله، معناه قبض وجهه وزواه من غير لوم وعقاب، وهذا من حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يقال: كيف أدرج هذا فى صفات المدح؟ فأجاب بأن الغرض بيان صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسائل؛ لأن المقام يأباه وسيأتى من المصنف تفسيره بما يقارب هذا، وقيل: إن فى النهاية أن المشيح الحذر، أو الجاد فى الأمر، أو المقبل عليك المانع لما وراء ظهره، وفى حديث سطيح: أقبل على جمل مشيح أى جاد مسرع، فيجوز أن يريد أحد هذه المعانى أى حذر من موجب غضبه، أو حذر فى الأمر

ليشعر بإعراضه عن موجب غضبه، أو أقبل عليه ليمنع من وراءه من ضرر المغضوب عليه، ولا يخفى أنه تكلف مخالف لما اختاره المصنف مما هو أظهر هنا.

(وإذا فرح) لرؤية ما يسره أو سماعه **(غض طرفه)** أى أرخاه وأطرق تباعدًا من الأشر والمرح.

(جل ضحكه التبسم) أى أكثره، وقد تقدم بيانه، وقد يضحك صلى الله تعالى عليه وسلم، أحيانًا حتى تبدو نواجذه، والتبسم مبادى الضحك.

(ويفتر) بفتح التاء وسكون الفاء وفتح التاء الفوقية وتشديد الراء المهملة من قولهم: أفتر ضاحكًا إذا أبدى أسنانه قال:

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن إقاح وعن طلع وعن حبب

وهو من فررت الدابة إذا كشفت فمها لتعرف سنها من سنها، وذلك هو الفرار بالضم **(عن مثل حب الغمام)** متعلق بيفتر، والغمام السحاب واحده غمامة كسحابة، وحبه هو البرد المعروف لا قطر المطر كما توهم، فإنه مع عدم مناسبته لا يسمى حبا؛ لأن الحب الجامد دون السائل، وتشبيه أسنانه صلى الله تعالى عليه وسلم، به لصفائه ولمعانه ورطوبته دون جريه حتى يقال: إنه لنوع منه، وهو مشهور فى كلامهم كما مر.

(قال الحسن) بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهما: **(فكتمتها)** أى أخفيت صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم، التى سمعتها من ابن أبى هالة **(الحسين)** مفعول ثان لكتم، وفى نسخة عن الحسين بن على **(زمانًا)** مدة من الزمان، **(ثم حدثته)** بما سمعته من صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، **(فوجدته قد سبقنى إليه)** أى إلى الحديث المعلوم من قوله: حدثته أى حفظه قبلى إلا أنه رواه عن أبيه على، رضى الله تعالى عنهما، **(فسأل أباه عن مدخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومخرجه ومجلسه)**، وفى نسخة: وملبسه بدل مجلسه، فإن كانت الثلاثة مصادر ميمية فظاهر، وإلا بأن كان اسم الزمان أو مكان، فالمراد سألته عن حاله فى مخرجه ومدخله، والمراد خروجه صلى الله تعالى عليه وسلم، للناس ودخول بيته وجلوسه عندهم كما سيأتى، وقيل: المراد بمجلسه بكسر اللام هيئة جلوسه، وأن ما ذكر استقراء لجميع أحواله.

يعنى الحسن أنه سمع هذه الصفات من ابن أبى هالة خاله، ولم يخبره أخاه بما سمعه منه، والحسين لم يسمعها من خاله، فلما حدثه بها وجد عنده علمًا منها من طريق، وهى روايته لها عن أمير المؤمنين أبيه مع زيادة، وإنما كتم ذلك عنه مع النهى عن كتمان العلم عن أهله؛ لأنه لم يسأله ولم ينحصر علمه فيها، ولو كان كذلك دخل فى حديث:

«من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار»[(١)]، أو أنه كتم عنه كلام أبى هالة الوصاف البليغ دون معناه لعلم أهل البيت بذلك، فإن الثبت والحديث لهم، **(وشكله)** بفتح أوله أى هيئته فى ذلك الحال وبكسره بمعنى الهدى والسمت قاله التلمسانى، **(فلم يدع من ذلك شيئًا)** أى لم يترك شيئًا من أحواله إلا بينه له.

(قال الحسين: سألت أبى، رضى الله تعالى عنه، عن دخول رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم، فقال: كان دخوله لنفسه)، أى دخوله منزله ليجتمع بأهله لمصالحه، وقضاء مآربه، وقيلولته **(مأذونًا له فى ذلك)**، من الله إذنًا عامًا بحيث يدخل أى بيت من بيوته فى أى وقت من غير استئذان من زوجاته، رضى الله تعالى عنهن؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يجب عليه القسم، وقيل: المراد دخوله بيوت أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، وهو بعيد لقوله: **(فكان إذا أوى)** الأصح قصره ويجوز مده **(إلى منزله جزأ دخوله)** أى قسم زمن دخوله لبيته **(ثلاثة أجزاء جزءًا لله)** أى لعبادته والتفكر فى ملكوته، **(وجزءًا لأهله)** يدبر فيه أمورهم ويصلحها ويتلطف بهم، **(وجزءًا لنفسه)** من مأكل ومشرب وراحة وغيره مما يليق به لقوله: **(ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس)**، أى قسم الزمن الذى جعله لنفسه، فجعل قسمًا منه مخصوصًا بذاته وأحواله فى نفسه، وجزءًا آخر للناس، وسائر الأمة، وهو فى منزله ولا يلاقيه فيه إلا أهله، أو خواص أصحابه الذى يؤذن لهم فى الدخول عليه، وغيرهم لا يصل إليه ثمة، فلذا قال: **(فيرد ذلك على العامة بالخاصة)** يرد بمعنى يوصل ويعطى كأنه لما كان لهم حق فى الجملة أخذ منهم، ثم رد إليهم، وقيل: معناه يستعين؛ لأنه ورد أنه ﷺ كان يستعين بالخاصة على العامة، وهو بيان لمحصل المعنى، وذلك إشارة لما فهم من السياق، وهو جزء الناس والعامة من عدا الخاصة التى عرفتها، فكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعته منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا لم يكن مما ينبغى كتمه عنهم، والباء فى بالخاصة للسببية، وكونها للبدل كقوله:

فكيف لى بهم قومًا إذا ركبوا

بعيد لأنه ليس المراد أنه يجعل وقت العامة بعد الخاصة وبدلا منه، وعلى على ظاهرها، وقيل: بمعنى إلى، وروى بدل يرد يبذل بالمعجمة والمهملة مع ضم الياء المثناة التحتية وفتحها فيهما.

(ولا يدخر عنهم شيئًا) أى عن المذكورين من العامة والخاصة، وقيل: عن الداخلين

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٥، ٩٦)، والحاكم (١/١٠٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/٩١)، وابن عدى فى الكامل (٤/١٤١٠).

عليه ﷺ، والمال واحد، ويدخر بدال مهملة مشددة وأصلـه يذتخر بـذال معجمـة وتـاء افتعال من الذخر قلبت تاؤه وذاله دالاً وفعل به ما علم من كتب الصرف، وكـذا أمثالـه من ادكر، ويجوز يذخر بذال معجمة مشددة وخاء.

(**فكان من سيرته فى جزء الأمة**)، وهو الجـزء الـذى جعلـه للنـاس، وأفـرزه ممـا كـان لنفسه أى كان دأبه ﷺ، وعادته فى هذا الجزء (**إيثار أهل الفضل بإذنه**) الإيثار تقديم ما يؤثره على غيره، والمراد بإذنه أن يأذن لهم فى الدخول فى خلوته فى بيته كما مـر، ومـا قيل من أن المراد بأهل الفضل أغنياء الصحابة، رضـى الله تعـالى عنـهم، والفضـل زيـادة مـالهم علـى حاجتـهم، والمعنـى أنـه صلـى الله تعالىعليـه وسـلم، يـأذن لهـم أن يؤثـروا بصدقاتهم أقرباءهم، كما وقع لأبى طلحة، رضى الله تعـالى عنـه، فـى بـير حـاء تكلـف أوقعه فيه قوله: (**وقسمته على قـدر فضلـهم فـى الديـن**)، فتوهـم أن المـراد تقسـيم المـال والعطاء، وليس كذلك، وإنما معناه قسمة جزئه فـى حديثـه معـهم واشتغاله بـأحوالهم، وقوله: فى الدين لأن أكرمهم عند الله أتقاهم، فتفاوتهم عنده بذلك لا بالنسـب والمـال، وفى بعض النسخ: وقسمه بدون تاء، ثم بين سبب تفاوتـهم بقولـه: (**منـهم ذو الحاجـة**) الواحدة، (**ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج**) الثلاثة فأكثر.

(**فيتشـاغل بـهم**) أى بقضـاء حوائجـهم وإرشـادهم لـما يصلـح معاشـهم ومعـادهم، (**ويشغلهم**) بفتح الياء المثناة التحتية مضارع شغل، وأما أشـغل فلغـة رديـة كمـا مـر أى يجعلهم ﷺ مشغولين بما أمرهم به (**فيما أصلحهم**)، وفـى نسـخة يصلحـهم أى مـا فيـه صلاحهم، (**والأمة**) بالنصب أى وأصلح الأمة لتبليغه لهم ما يليق بهم بعد معرفتـه، عليـه السلام، بحالهم (**من مسألته عنهم**)، وهو بيان لما أى سؤاله عن أحوالهم، وروى مسألتهم أى الخاصة ذوى الفضل، (**وإخبارهم**) أى إخبار ذوى الفضل (**بالذى ينبغى لهم**) أى يليق ويناسب حال المسئول عنهم من الأمة، وهو مطاوع بغى بمعنى طلب.

قال الراغب: إذا قيل ينبغى أن يكون كذا فهو على وجهين:

أحدهما: ما يكون مسخرًا للفعل نحو: النار ينبغى أن تحرق.

الثانى: الاستئهال نحـو: فـلان ينبغـى أن يعطـى لكرمـه قـال الله تعـالى: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ [يس: ٦٩].

(**ويقول**) صلى الله تعالى عليه وسـلم، لمـن حضـر عنـده: (**ليبلـغ الشـاهد**) أمـر وهـو للوجوب فى الأمور الشرعية، وهو بتخفيـف الـلام بقرينـة ذكـر الاتبـاع بعـده، ويجـوز تشديدها والأول أصح هنا، والشاهد الحاضر عنده لمقابلته بقوله: (**الغائب**)، وهو مـن لم

يكن حاضرًا أو موجودًا، فهو من كبار الصحابة، والغائب من صغارهم، أو هم الصحابة والتابعون، قيل: ويحتمل أن يراد العالم والجاهل، وأهل الحضر والبادية، والسامع ومن لم يسمع، والمسلم والكافر، وهذه احتمالات عقلية، أو هى تأويلات وتعميم لمفهومه فتأمل.

(وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى) أى حاجته، وروى إبلاغ حاجته، وهو تعميم بعد تخصيص للترغيب والحث، وبيان لسبب الأمر، **(فإنه)** أى الأمر والشأن **(من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها)** قيل: يريد أن من أبلغ سلطانًا حاجة جوزى بهذا الجزاء العظيم، فكيف بمن بلغ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وإلا فهو أجل من أن يكون ملكًا أو سلطانًا، وقد قال كما تقدم: لست بملك.

قلت: فيه نظر، وقد يقال: المراد بالسلطان هنا الإمام الأعظم خليفة الله، وقد أطلق الفقهاء ذلك عليه كما بيناه فى حكمه بالسلطنة والفتيا والقضاء المذكور فى القواعد للسبكى كما سيأتى، وهذا الحديث مستقل رواه الأصبهانى، وفى بعض ألفاظه اختلاف.

(ثبت الله قدميه يوم القيامة) على الصراط يوم تزل الأقدام كما ورد مصرحًا به فى رواية لابن أبى الدنيا؛ وذلك لأنه مشى بقدميه، وسعى لحاجة أخيه، فهو جزاء من جنس العمل، وهو كناية عن نجاته من أهوال الموقف.

(ولا يذكر عنده) أى لا يذكر فى مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إلا ذلك)** الإشارة لجميع ما تقدم من ذكره مصالحهم، وسؤاله عن الأمة، والأمر بالتبليغ والحث عليه والترغيب فيه.

(ولا يقبل من أحد) بالبناء للفاعل والمفعول **(غيره)** أى لا يرضى كلامًا غير ما يكون من هذا القبيل.

(وقال) أى على، رضى الله تعالى عنه، فى رواية **(فى حديث سفيان بن وكيع)** بن الجراح أبو محمد الكوفى، وهو إمام حافظ روى عنه الترمذى والدارقطنى وغيرهما، توفى سنة سبع وأربعين ومائتين ووالده إمام جليل حافظ، رحمه الله تعالى، **(يدخلون)** أى أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، **(رُوَّادا)** بضم الراء المهملة وتشديد الواو وألف ودال مهملة جمع رائد، وأصله من يتقدم القوم المسافرين ليختار لهم منزلاً فيه الماء والكلأ، فاستعير هنا للطالبين المحتاجين لحاجتهم وما يرشدهم، وقيل: يتحينون وقت الوصول إليه، وقال التلمسانى: إن روادا بكسر الراء تخفيف الواو مصدر رود يرود، ويروى لواذًا

بلام، وذال معجمة أى ملتجئين لائذين به، **(ولا يتعرقون)** من مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(إلا عن ذواق)** بفتح الذال المعجمة والواو المخففة وألف وقاف فعال من الذوق بمعنى المذوق، وهو المأكول فاستعير للعلم الذى يتعلمونه، ويحتمل أن يريد حقيقته؛ لأنه صلى الله تعالىعليه وسلم، كان عادته أن يطعم شيئًا لمن يدخل بيته، وعلى هذا جرت عادة السلف الصالحين، وحقيقة الذوق كما قاله الراغب: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله، وفيه تفصيل ذكرناه فى كتابنا طراز المجالس، أى لا يتفرقون إلا عن علم وأدب هو غذاء لأرواحهم وسبب لبقائهم.

(ويخرجون) من عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، **(أدلة يعنى فقهاء)** عالمين بأمور الدين، أى هداة مرشدين للناس، ويهتدى بهم غيرهم، فأدلة جمع دليل بمعنى هادى، أو بمعناه المشهور كما يقال: فلان حجة الإسلام، والصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كلهم مجتهدون خلافًا لبعض الحنفية كما فى تحرير ابن الهمام.

(قلت) قائله الحسين لأبيه، رضى الله تعالى عنهما: **(فأخبرنى عن مخرجه)** أى عن حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد خروجه من منزله: **(كيف كان يصنع فيه؟)** بعد خروجه من منزله.

(قال: كان رسول الله، صلىالله تعالى عليه وسلم)، من وضع الظاهر موضع الضمير؛ للاهتمام والتلذذ والتبرك بذكره **(يخزن لسانه)** بالخاء وضم الزاى المعجمتين والنون أى يصونه، ومنه الخزانة؛ لأنه لا يحب كثرة الكلام قال(1):

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان

ولما فيه من المنع عداه بمن فقال: **(إلا مما يعنيهم)**، وفى نسخة إلا فيما، ويعنى بفتح المثناة التحتية أى يهمهم وينفعهم من جواهر كلمه وزواجر حكمه، **(ويؤلفهم ولا يفرقهم)** أى يجعلهم مؤتلفين به غير متفرقين عنه؛ لمداراتهم ولطفه بهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أو يجعل الله بينهم ألفة لحثهم على التحاب والمؤاخاة بينهم.

(يكرم كريم كل قوم) كما قال: أكرموا عزيز كل قوم؛ لمعرفته ﷺ بمقادير الناس، **(ويوليه عليهم)**، أى يجعله حاكمًا عليهم، فلا يولى أحدًا من أصحابه غيرهم، ولا غيرهم عليهم، ولا يولى صغارهم عليهم رعاية لأهلية ذوى الولايات، وتجنبًا لإعلاء الأسافل

---

(١) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص٩٠)، جمهرة اللغة (ص٥٩٦)، أساس البلاغة (خزن).

ترغيبًا فى الإسلام.

(ويحذر الناس ويحترس منهم) لأن من الحزم سوء الظن، وعدم الوثوق بكل أحد، وقال عمر، رضى الله تعالى عنه: احتجزوا بسوء الظن، وهو من بديع حكمه، وليس المراد بالناس جميعهم، بل عوامهم بخلاف خواصهم، والاحتراز والاحتراس والحذر متقاربة، وقيل: الاحتراس التحفظ، والاحتراز التعوذ، والحذر الخوف **(من غير أن يطوى)** أى يخفى ويمنع استعارة من طى الثياب **(عن أحد بشره)** أى طلاقة وجهه وانبساطه معه تأنيسًا له، وتأليفًا لقلبه، وإذهابًا لخوف مهابته، **(وخلقه)** أى حسن خلقه، ولم يذكر الحسن إشارة إلى أنه مجبول على الحسن فيه، **(ويتفقد أصحابه)** أى يسأل عمن لم يحضر عنده وفقد من مجلسه، وقد يذهب، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمنزله إذا طالت غيبته وتطلبه.

(ويسأل الناس عما فى الناس) من أحوالهم وأمورهم ليعلم أمرهم، فيتدارك ما ينبغى تداركه، وينصح من يلزم نصحه، وليس هذا من التجسس أو الغيبة المنهى عنه، بل من سؤال الطبيب ليشفى المريض، فإذا أخبروه بحال حسن حمد الله على ذلك.

(يحسن الحسن ويصوبه)، أى يبين حسنه وكونه صوابًا، ويمدح فاعله ترغيبًا له فيه، **(ويقبح القبيح ويوهنه)** بضم أولهما وتشديد ثانيهما والنون أو بالياء التحتية من الوهى بمعنى الوهن، وهو الضعف أى يقول: هو فعل قبيح وضعيف ساقط تنفيرًا وتحذيرًا ونصحًا نافعًا، والمراد الحسن والقبيح عادة أو شرعًا، وفيه صنعة الطباق.

(معتدل الأمر) أى أموره، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلها معتدلة، فلا يبالغ فى تحسين وتقبيح غيره.

(غير مختلف) أى على سنن واحد فى جميع أوقاته.

(لا يغفل) عن شىء من أحوال الناس **(مخافة أن يغفلوا)** عما يصلحهم، وهو بضم الفاء فيهما، **(أو يملوا)** أى يحصل لهم فتور وكسل عن صالح أمرهم إذا لم ينبههم عليه، ولو أرجع هذا لقوله معتدل الأمر لم يبعد، ويجمع هذا قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

(لكل حال) من أحوال الناس **(عنده عتاد)** بعين مهملة مفتوحة ومثناة فوقية ودال مهملة، وهو كالعتيد العدة والحاضر المعد لإصلاحه وتداركه إذا وقع، فهو متخلق بقوله: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقيل: أصل العتاد عداد لأنه من العدة، فأبدلت داله تاء هربًا من التكرار.

(ولا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره) فإذا رآه عمله، وإذا رأى منكرًا أزاله من غير تأخير.

(الذين يلونه من الناس) أى يقربون منه فى مجلسه ونحوه **(خيارهم)** أى أفضلهم وأشرفهم، **(وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة)** أعم هنا بمعنى أكثر نصيحة، أو أكثر منصوحًا بأن ينصح فى كل أمر كل أحد بإرشاده لما هو خير له، ولذا قال عليه السلام: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين»[1]، فنصيحة الله إخلاصه فى اعتقاده له بما يليق به من توحيده وعبادته مخلصًا لوجهه، ولكتابه فهم معانيه والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الإيمان به واجتناب نواهيه وامتثال أوامره، ولأئمة المسلمين طاعتهم وعدم الخروج عليهم، ونصيحته العامة إرشادهم لمصالحهم، والنصح إرادة الخير لمن ينصحه بإخلاص، وهى كلمة جامعة يقال: نصحته ونصحت له.

(وأعظمهم عنده منزلة) أى رتبة وشرفًا **(أحسنهم مواساة)** لكل أحد؛ لأن حذف المتعلق يفيد العموم، والمواساة إعطاء من يريد ما يريد وبذله له، يقال: آساه وواساه بواو مبدلة من الهمزة إذا جعله أسوة له، **(وموازرة)** أى إعانة لمن التجأ إليه يقال: آزره ووازره إذا أعانه وقواه وساعده من الأزر، وهو الظهر لأن قوة البدن به، أو من الوزر هو الملجأ، ومنه الوزير، وفى الحديث: «ما أحد عندى أعظم يدًا من أبى بكر واسانى بنفسه وماله»، وهذا يدل على أنه أفضل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

قال الحسين، رضى الله تعالى عنه: **(فسألته)** يعنى عليا والده، رضى الله عنهما، **(عن مجلسه)** أى عن حاله فى مجلسه خارج بيته مع الناس ومعاملته لهم فيه، ولذا أردفه بقوله: **(ما كان يصنع فيه؟ فقال: كان لا يقوم)** من مجلسه **(إلا على ذكر)** لله يجعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان إذا قام منه قال: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، فيجعل ذلك علامة لانصرافه عن العامة، والذكر بالذال المعجمة إذا أطلق أريد به ذكر الله تعالى، وإن كان عامًا.

وقال التلمسانى، رحمه الله تعالى: وقد تهمل ذاله قليلاً، فقيل: إنها لثغة، وقيل: لغة ولا دليل لقائله فى نحو: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]، فإنه مغالطة.

(ولا يوطن) بضم المثناة التحتية وسكون الواو وكسر الطاء مشددة ومخففة وفتحها مشددة كما فى بعض الشروح، وفى بعضها أنه بالكسر من أوطنه ووطنه إذا اتخذه وطنًا

---

(١) تقدم تخريجه.

(الأماكن) جمع أمكن أو أمكنة جمع مكان، فهو جمع الجمع، ففى ميمه خلاف هل هى أصلية أو زائدة.

(وينهى عن إيطانها) أى اتخاذها وطنًا، والمراد ملازمة محل بخصوصه فى غير بيته مما ليس بملك كالمسجد وغيره من الأماكن المباحة؛ لأن لكل أحد حقًا فيه، والنهى الوارد عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما هو فى حق المسجد بأن يتخذ مصلى معينًا منه، ولذا نص الفقهاء على كراهة إرسال السجادة للجامع وفرشها فيه، وفى الحديث: «نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يوطن الرجل المكان بالمسجد»[1]، قيل: وهو عام مخصوص بما لم يتضمن مصلحة كمن ألف مكانًا للإفتاء والتدريس، فله إيطانه وإقامة غيره منه إذا كان من لا يعرفه يأتى لاستفتائه، فيعرفه فى مكانه، وقوله: إيطانها يؤيد أن يوطن مخفف ولا يعينه كما قيل؛ لأنه يجوز أن يذكر فعل من باب، ويذكر له مصدر أو اسم فاعل واسم مكان وغيره من باب آخر نحو تبتل إليه تبتيلا وقوله[2]:

وداع دعا يا من يجيب إلى النَّدَى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

ويجوز فى نحو أجراه مجراه ضم الميم وفتحها، وقد تكون المغايرة أبلغ وأكثر معنى وهذا مما ينبغى التنبيه له.

(وإذا انتهى) مشيه قاصدًا **(إلى القوم)** الذين يريد الجلوس معهم **(جلس حيث ينتهى به المجلس)**، أى فى أى مكان خال منه من غير تصدر على أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم، وينتهى من النهاية لأنه نهاية محل الجالسين فيه، **(ويأمر)** أصحابه **(بذلك)** تشريعًا وتأديبًا، فعلم أن تحرى الصدر مكروه شرعًا؛ لما فيه من الكبر والترفع على أصحابه لاسيما إذا لم تطب أنفسهم بذلك فيتأذون به، فإنه قد يحرم كما يفعله علماء السوء فى زماننا.

(ويعطى كل) أحد من **(جلسائه نصيبه)** أى ما يستحقه من ملاطفته ومجاوبة سؤاله، وبشره صلى الله تعالى عليه وسلم، له **(حتى لا يحسب)** أى يظن **(جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه)** أى يظن أنه أكرم الناس وأجلهم عنده؛ لما يرى من لطفه به، فهو كقولهم: ليس فى البلد أعلم منه كما مر تحقيقه، فهو غاية لذلك الإعطاء.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/٩١).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكعب بن سعد الغنوى فى الأصمعيات (ص٩٦)، لسان العرب (٢٨٣/١)، التنبيه والإيضاح (٥٥/١)، جمهرة أشعار العرب (ص٧٠٥)، تاج العروس (٢٠٦/٢).

(من جالسه أو قاومه فى حاجة) أى من حادثة أو قام مع قيامه لعرض حاجته، أو لغير ذلك، فهى مفاعلة من الجلوس والقيام **(صابره)** أى صبر عليه أو صبر مقدار صبره، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو، كل ذلك لاشتمالهم وتطييب قلوبهم، فلا يمل حتى يملوا **(حتى يكون هو المنصرف عنه)**، والحصر بتعريف الطرفين فى محزه هنا.

(من سأله حاجة لم يرده إلا بها) أى رده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مقضى الحاجة غير خائب، **(أو بميسور من القول)** أى أو رده بقول لين سهل لا غلظة فيه كوعده، وقد تقدم بيانه.

(قد وسع الناس) بالنصب مفعول وسع **(بسطه وخلقه)** بإضافته لضميره، ورفعه على الفاعلية أى عمهم بسطه أى بسط يده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسماحته أى بشره وطلاقة وجهه، وإبداء سروره وحسن خلقه، فشبهه بمكان متسع رحب، وأثبت له السعة والبسط بهذا المعنى مسموع، وليس لغة مولدة كما يتوهم كما ذكره المصنف، رحمه الله، فى المشارق، وتقدم فى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «فاطمة منى يبسطنى ما يبسطها»[1]، **(فصار لهم أبا)** أى بمنزلة الأب فى البر والصلة وقصد الخير، وفيه دليل على أنه يجوز أن يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أبو المؤمنين، كما يقال لزوجاته، رضى الله عنهن: أمهات المؤمنين، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ لأن نفى الحقيقة لا ينافى المجاز كما سيأتى.

(وصاروا عنده فى الحق متقاربين)، أى يقرب بعضهم من بعض إذا كانوا على الحق، أو فى أداء حقوقهم أى فى أصل الحق، فلا ينافيه قوله: **(متفاضلين فيه بالتقوى)** أى بحسب مراتبهم فى تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: **(أنزلوا الناس منازلهم)**، وسيأتى فى الرواية الأخرى، وصاروا فى الحق سواء، فلا ينافيه هذه الرواية، ولا أن بينهم تفاوتًا تامًا، وفى الحديث: لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإن تساووا هلكوا، وصاروا كأسنان المشط ليس فيهم فضلاء، أو تنافسوا فى الفضائل فأنكروا فضل بعضهم على بعض.

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه ... كمثل اعتراف الفضل فى كل فاضل

(وفى الرواية الأخرى صاروا عنده فى الحق سواء) كما بيناه.

(مجلسه مجلس حلم وحياء)، أى يظهر فيه حلمه عليهم، وحلمهم على غيرهم بحيث

---

(١) تقدم تخريجه.

لا يستفزهم الغضب، وهم مظهرون للحياء لا يرفعون رءوسهم وأصواتهم، ولا يرتكبون ما لا ينبغى قولاً وفعلاً.

قيل: ولو قدم هذا وأدرجه فى جواب السؤال عن مجلسه كان أحسن.

قلت: ما بالعهد من قدم.

(وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات) احترامًا له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولوقارهم وأدبهم، **(ولا تؤبن فيه الحرم)** كالكبر جمع حرمة، وهى مالا يحل، والمراد النساء لحرمة النظر لهن ونحوه، أى لاتذكرن بسوء من ابنته، فابنته إذا ذكرته بما يكره مأخوذ من الابنة والابن، وهى عقد فى القسى تعاب بها أى لا تذكر فيه النساء؛ لأنه رفث من القول، أو لا يذكر فيه ما يحرم كالغيبة وسيأتى تفسيره.

(ولا تنثى فلتاته) بتاء مثناة فوقية مضمومة ونون ومثلثة مقصورة من النثاء، وهو ذكر القبيح ضد الثناء بتقديم المثلثة، وهذا هو الموافق لما سيأتى، وروى ولا يثنى بتقديم المثلثة على النون أى لا تعاد، والفلتات بفتحات جمع فلتة بفتح فسكون ويجوز تسكين لام فلتات، ويجوز ضم فاء فلتة كما قاله التلمسانى، وهى الزلة أى القبيح الذى يقع بغتة، والمراد أنه لا فلتة فيه حتى يذكر فى مجلس آخر فيعاد ذكرها، فنفى الشىء بذكر لازمه؛ لأنها لو وقعت ذكرت كقوله:

ولا ترى الضب بها ينجحر

(وهذه الكلمة) أى قوله: لا تنثى فلتاته **(من غير الروايتين)** رواية الحسن عن خاله، ورواية الحسين عن أبيه، ويجوز أن يراد ظاهره أى: الفلتة إذا وقعت لا تذكر بل تستر.

(يتعاطفون بالتقوى) أى يعطف بعضهم على بعض، ويشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله، لا رياء ولا سمعة ولا خوفًا واتقاء شر، فالباء سببية كقوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

(متواضعين)، أى يتواضع بعضهم لبعض لا يتكبر أحد على أحد، فيخدمه ويخفض جناحه له.

(يوقرون فيه) أى فى المجلس **(الكبير)** سنًا، **(ويرحمون الصغير)** شفقة عليه ورأفة، وهو مفتوح الصاد ويكسر فى لغة ردية، **(ويرفدون)** بفتح المثناة التحتية وضمها أى يعينون ويواسون، يقال: رفده يرفده بالكسر وأرفده بمعنى **(ذا الحاجة)** أى كل من كانت له حاجة ومسألة لهم، أوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أعانوه بقضائها، أو إبلاغها أو الشفاعة، ويجوز أن يراد به الفقير المحتاج، **(ويرحمون الغريب)**، أى يشفقون عليه

ويعطفون تأنيسًا له، وإزالة لوحشة غربته.

قال الحسين: (**فسألته عن سيرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى جلسائه فقال: كان صلى الله تعالى عليه وسلم، دائم البشر**) أى طلاقة الوجه وبشاشته، وإظهار السرور فى مجالسه العامة، وهذا لا ينافى ما مر من قوله: دائم الأحزان كما مر فتذكره.

(**سهل الخلق**) أى خلقه وسجيته السهولة وعدم الشدة فى أقواله وأفعاله، وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بالملة السمحة السهلة.

(**لين الجانب**) بتشديد الياء وسكونها أى لا غلظة فيه، ولا جفاء، متذللاً متواضعًا.

(**ليس بفظ**) أى سيء الخلق، (**ولا غليظ**) أى شديد متوعد لأحد ممسك عنه لطفه ورفده، (**ولا صخاب**) بالصاد والسين، أى لا يرفع صوته جدًا فى خصومة ونحوها، (**ولا فحاش**) أى لا يتكلم بقبيح كالشتم، (**ولا عياب**) أى ذاكرًا لعيوب الناس ونقائصهم، (**ولا مداح**) أى لا يكثر المدح لغيره ويطريه بمبالغة قوة ما فيه، وإن كان يذكر الحسن والقبيح بما فيه كما مر، وذكر هذه بصيغة المبالغة إشارة إلى أنه قد يصدر قليلها أحيانًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمقتضى الحال، ومثله لا يعاب، والمدح إنما يذم إذا كان زيادة عن حده؛ لأنه كذب ومداهنة، وأما مدح من يستحق المدح بما فيه إذا لم يلزمه محذور، فأمر حسن.

ألا ترى إلى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: («**لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح**»)، وقوله لعمر، رضى الله عنه: («**لو لم أبعث لبعثت أنت يا عمر**»)، فأى مدح يزيد على هذا، لكنه صدق ناشئ عن بصيرة، ولا يورثهم ذلك إعجابًا ولا فتورًا، وما من شيء إلا وهو ممدوح من وجه مذموم من آخر.

(**يتغافل عما لا يشتهى**) أى يتغافل عن ما ليس بمنكر شرعًا، لكنه غير مستحسن عادة أو طبعًا إذ لو كان منكرًا شرعًا نهى عنه ولم يقر عليه، وهذا من مكارم الأخلاق كما قال أبو نواس:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

(**ولا يؤيس منه**) قال فى المقتفى: يؤيس، بضم أوله وسكون الواو وهمزة مكسورة وهى ترسم ياء، ويجوز فتحها على أنه مبنى للفاعل أو المفعول، وهو من اليأس ضد الرجاء، يعنى إذا سئل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما لا يليق تغافل عنه، ولم يرد السائل حتى ييأس، أو يبين له أنه سأل ما لا يليق فيخجل سائله.

(**وقد ترك نفسه من ثلاث**) أى نزهها عنه ومنعها، وقيل: فيه قلب أى ترك ثلاثا من

نفسه: **(الرياء، والإكثار، وما لايعينه)** بفتح المثناة التحتية أى يهمه، وهى بدل من ثلاث مبينة لها، والرياء إظهار ما فيه من الصفات الحميدة، والأفعال الجميلة للناس حتى يحمد بها ويشيع، وهو الشرك الأصغر، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، منزه عنه بلا شبهة.

فإن قلت: كونه غير ثابت له أمر ظاهر الانتفاء عنه، فما الحاجة لذكره؟.

قلت: كأنه ذكر هذه الجملة الحالية لبيان وجه تغافله عما لا يحبه من غير أن يقنط راجيه يعنى أنه لم يقل: أنا لا أحب هذا، فلذا لم أجبك عنه حتى يتوهم أنه سيفعله؛ لما فيه من الرياء، ولذا قال: **(وترك الناس من ثلاث)** أى أبعدهم عنها أو ترك ذكر الناس ونحوه من أجل ثلاث تضمنها قوله: **(كان لا يذم أحدًا)** من الناس يستحق الذم كالمنافقين لعنهم الله، **(ولا يعيره)** بعين مهملة يقال: عيره كذا أو بكذا أى ذكر ما فيه بما هو عار عليه وعيب فيه قد سلف منه، فالفرق بينه وبين ما قبله أنه أخص منه، وليس عينه حتى لا تكون أمور الناس المتروكة أربعة كما ذكره التلمسانى، رحمه الله تعالى، **(ولا يطلب عورته)** أى لا يتجسس عن معايب الناس ويبحث عنها، كما كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعل مع المؤلفة قلوبهم، وأصل العورة الخلل وما يجب ستره كما فى حديث أبى داود: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن مع تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته»، وهذا كما قيل فى المثل: «كل من عير ابتلى»، وهذا إذا لم يلزم إظهاره شرعًا كالمتجاهر بفسقه ونفاقه.

وقوله: **(ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه)** صفة أخرى مرتبطة بما قبلها، وليست من الثلاث، وهذا كنصيحة الأمة وإرشادهم وتعليم الخير والتبليغ.

(إذا تكلم أطرق جلساؤه) أى خفضوا رءوسهم تأدبًا وإنصاتًا **(كأنما على رءوسهم الطير)** أى بسكون ووقار من غير طيش وخفة؛ لأن الطير لا تقع إلا على ساكن، وهذا مثل مشهور.

(وإذا سكت تكلموا)، فلا يقطعون حديثه بحديثهم تأدبًا معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوجهًا لفهم مقاله لحرصهم على حفظه مراعاة لعظيم قدره.

(لا يتنازعون عنده الحديث) أى إذا كانوا فى مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يديرون الحديث بينهم، فيحدث بعضهم بعضًا كما هو جار بين الناس إذا اجتمعوا فى ناد، وهذا بيان لقوله: تكلموا، أو أن المراد يتكلمون ومع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بسؤالهم له ونحوه من مهماتهم، لا أنهم يديرون الحديث بينهم وهذا هو معنى

تنازع الحديث فى كلامهم، ومن فسره بالتخاصم لاغتراره بظاهر التنازع لم يصب، لعدم مناسبته لمقام، ولا يخفى أنه لا معنى لقولك: تخاصموا الحديث إلا بتأويل، أى تخاصموا فى الحديث، وهو ركيك. قال امرؤ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

قال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب: تنازعنا الحديث أى تداولناه، فحدثتنى مرة وحدثتها أخرى، وهاهنا بحث، وهو أن سيبويه قال فى كتابه: لا تقول تفاعلت إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعدًا، ولا يجوز أن يتعدى لمفعول بنصبه، وفى تفاعلنا تلفظ بالعين الذى فى فاعلته كتضاربنا وتقاتلنا، وقد يجىء تفاعلت على غير هذا كتقاضيته، انتهى، فلم يجز تفاعل لمفعول إلا إذا كان لواحد؛ لأن تفاعل قد تضمن الفاعل والمفعول الذى كان فى فاعل، ألا تراك تقول: ضاربنى زيد فتأتى بفاعل ومفعول؛ فإذا قلت: تضاربنا لا يتعدى لاشتماله على فاعل ومفعول ليس لنا غيره، وليس تنازعنا كذلك؛ لأن نازع يتعدى لمفعولين تقول: نازعته الحديث، فإذا قلت: تنازعنا لم يكن بد من ذكر المفعول الثانى؛ لأن تنازع لم يتضمنه، كذا قاله ابن السيد فى المقتضب شرح أدب الكاتب.

أقول: فى كلام سيبويه حينئذ قصور؛ لأنه كان عليه أن يقول: إن باب تفاعل بمعناه الأصلى ينقص عن فاعل مفعولاً، فإن كان متعديًا لواحد كان لازمًا، وإن كان متعديًا لاثنين تعدى كما ذكره بعض النحاة، فإطلاقه لا ينبغى، وقد نقل ابن السيد هذا فى محل آخر عن الكوفيين، فقال: قال ثعلب: يقال: فلان متعهد ضيعته، ولا يقال: متعاهدها.

قال ابن درستويه: فإنما أنكرها؛ لأنها على وزن يتفاعل، وهو عند أصحابه لا يكون إلا من اثنين، ولا يكون عندهم متعديًا لمفعول مثل تقاتلا وتعاملا، وهو غلط؛ لأن تفاعل قد يكون لواحد، ويكون متعديًا كقول امرئ القيس[1]:

تجاوزت حراسًا وأهوال معشر على حراص لو يسرون مقتلى

وجاء تفاعل متعديًا لاثنين كقوله: فلما تنازعنا الحديث إلخ، قال الخليل: التعاهد والتعهد الاحتفاظ بالشىء وإحداث العهد به، وقوله سيبويه السابق يشبه قول الكوفيين، انتهى، والتنازع هنا كالتجاذب بديع كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن قرأ خلفه: مالى أنازع القرآن؟.

---

(١) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص١٢)، جمهرة اللغة (ص٧٣٦)، خزانة الأدب (١١/٢٣٨)، شرح شواهد المغنى (٢/٦٥١)، لسان العرب (٤/٤٠٢).

(من تكلم عنده) أى فى مجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم، من الصحابة أو غيرهم **(أنصتوا له حتى يفرغ)** من حديثه، وفى بعض النسخ **(من كلامه)**، وأنصت يكون لازمًا بمعنى سكت، ومتعديًا يقال: أنصته إذا أسكته.

(حديثهم حديث أولهم) مبتدأ وخبر أو حديثهم فاعل يتفرغ فجمع الضمير، وهو من رعايته للمعنى، وحديث أولهم بدل منه أى لا يقطع كلام من تقدم بكلام آخر، ولا يخاصم، فهذا فى معنى لا يتنازعون، وهو مرتبط بما قبله، فإن كان مبتدأ بدليل رواية من كلامه، فهو تشبيه أى حديث كل واحد منهم إنما هو حديث من قبله، يعنى أنه لا حديث له معه يقطعه كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «زكاة الجنين زكاة أمه»، وقد خفى هذا على بعض الشراح فعلقوه بأنصتوا.

(يضحك) صلى الله تعالى عليه وسلم، **(مما يضحكون منه)** أى الصحابة، رضى الله عنهم، **(ويعجب مما يعجبون)**، وفى نسخة، يتعجب مما يتعجبون؛ لأنه من حسن الصحبة أن يسرك ما يسره، ويرضيك ما يرضيه، وهم على نهج واحد، وطبائعهم سليمة، فلا يضحكون ويعجبون من غير مقتض، فلا يقال: إنه يلزم من ضحك أحد وتعجبه فعل غيره مثله؛ لأنه أمر طبيعى، وهذا فى أحيان قليلة، فلا ينافى قوله السابق: «كأنما على رءوسهم الطير».

(ويصبر للغريب على الجفوة) أى الغلظة وتكلمه بما يؤلم **(فى المنطق)** أى فى تكلمه مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كتحليف الأعرابى له ﷺ، وقوله: آلله أرسلك بهذا، وإنما قيد بالغريب؛ لأنه معذور لأنه لا يعرف أحواله، وهذا من مكارمه ومعاملة كل أحد بما يليق به حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم.

(ويقول) ﷺ، لأصحابه: **(«إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فارفدوه»)**، بوصل الهمزة وقطعها من رفده وأرفده إذا أعانه أو أعطاه؛ لأن الرفد العطية والإرفاد الإعانة، وكل منهما قابل هنا.

(ولا يطلب الثناء) بمعنى يقبله كما ورد فى رواية، فهو مجاز مرسل أو استعارة، والثناء الذكر الحسن الجميل والمدح **(إلا من مكافئ)** بالهمزة اختلف فى تفسيره أى ممن أثنى جزاء على نعمه وإحسانه تقدم له منه، وقد صرح به فى بعض الروايات بقوله: عن يد، ولا يرد عليه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة عامة، ما من أحد إلا وله عنده يد، فالصواب تفسيره بمسلم أى غير متجاوز فى المدح مطر؛ لأن القرينة قائمة على أن المراد نعمة حادثة خاصة.

(ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه) أى يخففه يقال: تجوز فى الصلاة إذا أسرع وخفف، **(فيقطعه بانتهاء)** أى إتمام لحديثه وبه ينقطع الكلام، **(أو قيام)** من المجلس؛ لأنه انقطع كلامه فمضى لشأنه **(هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع)** السابق ذكره.

(وزاد الآخر) أى صاحب الرواية الأخرى **(قلت)** القائل أحد السبطين، رضى الله تعالى عنهما، كما مر: **(كيف كان سكوته، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر)** لما كان الحلم والحذر من جميع الناس معلومًا، وقد تقدم لم يفسره، وقال: **(فأما تقديره)** أى بم ينظر مقداره إذا صدر منه، أو من غيره ممن يقتدى به، **(ففى تسوية النظر)** فى الأمور وما يترتب عليها من المنافع الدنيوية والأخروية، **(والاستمتاع)** أى استمتاع الناس به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو بأمورهم فيما بينهم، ومعنى الاستمتاع الانتفاع، وقوله: **(بين الناس)** متعلق بالتسوية، وهى جعلهم متساوين، وليس المراد تساويهم حقيقة، بل أن يكون لكل أحد مقدار يليق به، **(وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى)** أى فى أمور الدنيا الفانية والآخرة الباقية المخلدة.

فإن قلت: كيف يعلم هذا وهو أمر مضمر فى نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يطلع عليه إلا الله؟.

قلت: هذا بطريق الاستدلال العقلى، والفراسة الصادقة الشاهد لها ما يظهر من آثاره ويتعلق به إذا تكلم، فإن الظاهر عنوان الباطن.

(وجمع) بالبناء للمفعول أى جمع الله **(له)**، وكذا ما سيأتى بعده **(الحلم)** باللام أى جمع له سائر جزئيات الحلم المختص كل حليم ببعض منه، وفى بعض النسخ الحكم بالكاف، وله وجه **(فى الصبر)** أى مع الصبر على أمور الناس والأمة، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مع حلمه صابرًا لا يضجر ولا يقلق كما أشار إليه بقوله: **(فكان لا يغضبه شىء)** مما يتعلق به فى نفسه، وإن كان قد يغضب لله، **(ويستفزه)** بكسر الفاء وتشديد الزاى المعجمة أى يستخفه بحيث يبدو منه خفة وقلق لأمور الدنيا والأعداء.

(وجمع له فى الحذر) أى فى حال حذره واحتراسه من الناس، أو مع ذلك **(أربع)** نائب الفاعل **(أخذه بالحسن)**، وفى بعض النسخ ترك قوله أربع، وهو مرفوع نائب الفاعل أو منصوب مفعول لأجله أى تمسكه بكل أمر مستحسن مشروع؛ **(ليقتدى به)** ويتبعه الناس، **(وتركه القبيح)** شرعًا وخلاف الأولى؛ **(لينتهى عنه)** علة للترك أى لينتهى الناس عنه، **(واجتهاد الرأى)** أى اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يراه رأيا **(بما**

أصلح أمته) أى فيما يصلحهم أو بسببه، **(والقيام لهم)** أى الأمة بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة، فى المعاش والمعاد، ومعنى القيام التعهد والالتزام والاجتهاد، وبذل ما فى وسعه وطاقته من إصلاحهم، أو هو بمعناه المصلح بناء على جواز اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه اختلاف مذكور فى كتب الأصول.

قال الآبى فى شرح مسلم نقلاً عن المصنف: لا خلاف أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجتهد فى أمور الدنيا، ويرجع إلى رأى غيره فى ذلك كما فعل تلقيح النخل، واختلف فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، هل له أن يجتهد فى الشرعيات؟ وهل هو معصوم فى اجتهاده أم لا؟ والصواب: أنه له ذلك، وأنه معصوم، وتفصيله فى أصول الفقه، فلا حاجة للتطويل به.

* * *

(فصل فى تفسير غريب هذا الحديث ومشكله)

المراد بالغريب ما لم يكن استعماله مشهورًا بين العرب بحيث يخفى على غير العرب العرباء إلا أن لا يكون جاريًا على قوانين اللغة كما قيل، والمشكل ما لم يكن واضح الدلالة بحيث يحتاج للتأويل.

(المشذب) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الذال المعجمتين المفتوحة والباء الموحدة **(أى البائن)** أى الظاهر احترازًا عما فوق الرابعة بقليل **(الطول فى نحافة)** هى قلة اللحم، وضدها الضخامة، وقيل: الطويل مطلقًا.

(وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: «ليس بالطول الممغط») بضم الميم الأولى وفتح الثانية وتشديدها وكسر الغين المعجمة وطاء مهملة، وأصله منمغط فأبدلت النون ميمًا وأدغمت بمعنى الطويل من انمغط النهار إذا امتد، ويقال بالعين المهملة بمعناه كما فى النهاية، وقال التلمسانى: بالمعجمة والمهملة الميم الثانية مشددة أو مخففة، وهو الطول فى نحافة أو الطول الذى ليس بفائق، فليس يذم.

(والشعر الرجل) بفتح الراء المهملة وكسر الجيم من الترجيل، وهو تسريح الشعر وتمشيطه، والمرجل الذى سرح بمشط، والرجل الذى بحاله خلقة كما فى الإكمال وإليه أشار بقوله: **(الذى كأنه مشط)** بالتخفيف والتشديد، **(فتكسر قليلاً)** التكسر التثنى كأنه كسر.

(ليس بسبط) بفتح الباء وكسرها، وهو المرسل الذى فيه تثن كما قاله ابن عبد البر.

(ولا جعد) بفتح فسكون أى كثير الشعر كشعر الزنج، وقال المازرى: شعر رجَلَ

ورجِل ورجْل بفتح وكسر وسكون وبكسر الراء ثلاث لغات بين السبوطة والجعودة، وقيل: الذى كأنه مشط.

(والعقيقة)، وهى كما تقدم فى الأصل الشعر الذى يولد به الطفل؛ لأنه يعق أى يقطع سريعًا، ومنه العقيقة للطعام الذى يصنع عنده، والشاة التى تذبح له **(شعر الرأس)** وأصله كما علمت شعر المولود، ثم أطلق على غيره.

(أراد) أى ابن أبى هالة فى وصفه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله: **(إن انفرقت)** أنها انفرقت **(من ذات نفسها)**، وذات مقحمة تأكيدًا لنفسها إن وقع تفرقها من غير صنع **(فرقها)** بالتخفيف أى تركها متفرقة غير ملتفة، **(وإلا تركها معقوصة)** أى إن لم تتفرق بنفسها والتفت واجتمعت تركها على حالها، والعقص ضفر الشعر على الرأس وليه، وقيل: هو لى الخصلة من الشعر، ثم عقصها، ثم إرسالها، وعقص شعره عقده فى قفاه.

(ويروى عقيصته) بدل عقيقته، وهى الشعر المعقوص أى المضفور من العقص، وهى اللى وإدخال أطراف الشعر فى أصوله كما فى المقتفى، والمشهور عقيقته؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن يعقص شعره، وقيل: إن هذا كان فى صدر الإسلام؛ لأنه كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به بشىء، وكانوا يسدلون شعورهم والمشركون يفرقون، فسدل ﷺ ناصيته، ثم فرق بعد، وقال النووى: المختار جوازهما، والفرق أفضل.

(وأزهر اللون نيره، وقيل: أزهر: حسن. ومنه زهرة الحياة الدنيا، أى زينتها) من أزهر السراج إذا نوره، ومما قلته كما تقدم:

من حرصك بالغناء كم تشتغل والعمر مضى فما يفيد الأمل
ما زهرة هذه الحياة الدنيا للفرك بأنمل المنا تحتمل

(وهذا كما قال فى الحديث الآخر: «ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم»، والأمهق هو الناصع) أى الخالص **(البياض)**، والمهق شدة البياض من غير مخالطة حمرة، وقيل: ما يقرب بياضه من الزرقة، ويقال: أهمق بتقديم الهاء أيضًا وهو من القلب.

(والآدم الأسمر اللون، ومثله فى الحديث الآخر: أبيض مشرب) بالتشديد على زنة اسم المفعول المزيد، ويقال: مشرب بالتخفيف والتشديد للتكثير والمبالغة، والإشراب خلط لون بلون، فكأنه شرب، وأكثر ما يقال فى الحمرة **(أى فيه حمرة، والحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر الشعر، والأقنى: السائل الأنف المرتفع وسطه، والأشم:**

الطويل قصبة الأنف، والقَرَن)، بفتحتين: (**اتصال شعر الحاجبين، وضده البلج**) كما تقدم ما فيه، ولا حاجة لقول التلمسانى: البلج صباحة الوجه، فلا ينافى ما فى حديث أم معبد من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقرن الذى أشار إليه بقوله: (**ووقع فى حديث أم معبد وصفه بالقرن**)، ورواية مثله عن أبى عبيدة، فإن المشهور خلافه، ويؤيده أن العرب تكرهه، (**والأدعج: الشديد سواد الحدقة**) فى الصحاح الدعج شدة سواد العين مع سعتها، وكذا فى غيره.

(و) هو لا ينافى قوله: (**وفى الحديث الآخر أشكل العين، وأسجر العين**) بسين مهملة وجيم، (**وهو الذى فى بياضها حمرة**) أى اللون الذى فى بياض العين، وحمرة بدل منه بناء على جواز إبدال النكرة من المعرفة، أو الذى صفة لمقدر، وحمرة خبر آخر، وهو ممدوح لأنه فى البياض لا فى الحدقة، وقيل: الأشكل طويل شق العين كما فى المصابيح إلا أنه غلط فيه كما مر فى الفصل الثانى، ومنهم من قال: الدعج لغة زرقة فى بياض مستدلاً بقول:

يا رب إن العيون السود قد فتكت فينا وصالت بأسياف من الدعج

إذ السيوف زرق أى مخلوقة من الدعج، كقولهم: أنت مما تفعل و ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، على قول، وقيل: لا حجة فيه لاحتمال أنه من الدعج بضمتين على أنه تجريد، وهو جمع أدعج وتشبيهها بالسيوف فى فتكها، لا فى لونها؛ فإنها يقال لها: البيض كما يقال للرماح، والزرق إنما هى السهام، قال امرؤ القيس:

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(**والضليع: الواسع، والشنب: رونق الأسنان وماؤها، وقيل: رقتها وتحزيز فيها، كما يوجد فى أسنان الشباب، والفلج: فرق بين الثنايا**) إلى آخره كما تقدم ما فيه، وماؤها صفاؤها كما يقال: ماء الجمال، والماء يستعار لمعان فصلها الثعالبى فى المضاف والمنسوب، وقيل: المراد بالماء ريق الفم، والمراد بتحزيزها بزائين معجمتين كون أطرافها دقيقة كالشرافات لها.

(**ودقيق المسربة: خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة، بادن: ذو لحم متماسك**) أى لا سمين فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن كذلك، وهو ممدوح، فهو (**معتدل الخلق**) فى المقتفى هو إشارة لدفع احتمال السمين، وكذا قوله: (**يمسك بعضه بعضًا، مثل قوله فى الحديث الآخر: لم يكن بالمطهم**) أى فاحش السمن منتفخ الوجه، (**ولا بالمكلثم أى ليس بمسترخى اللحم، والمكلثم القصير الذقن، وسواء البطن والصدر أى مستويهما،**

ومشيح الصدر) بضم الميم والشين المعجمة كما مر (**إن صحت هذه اللفظة)** فى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، (**فيكون من الإقبال)** فى صدره، (**وهو أحد معانى أشاح، أى أنه كان بادى الصدر و)** المراد به أنه (**لم يكن فى صدره قعس)** بفتحتين وعين وسين مهملتين بعد قاف، (**وهو تطامن فيه)** أى فى الصدر قيل: إن هذا مخالف لقول الجوهرى: القعس خروج الصدر ودخول الظهر ضد الحدب؛ لأن التطامن الانخفاض كقول ابن مالك، رحمه الله تعالى، فى نظم الكفاية:

والميل من أرنبة الأنف خنس   وعرض أنف مع تطامن فطس

وفى الروض الأنف: الحدب انحناء فى الظهر، وقد يكون مستعملاً فى معنى المخالفة إذا قرن بالقعس كقوله:

فإن حدبوا فاقعس وإن هم تقاعسوا   لينتزعوا ما خلف ظهرك فاحدب

قلت: وكذا فسره الشراح، والظاهر أن مراده عدم الارتفاع بقرينة أنه ورد أنه مستوى البطن والصدر، وقد صرح به المصنف فى قوله: (**وبه يتضح قوله قبل: سواء البطن والصدر، أى ليس بمتقاعس الصدر ولا مفاض البطن)**، والعجب منه بعد هذا كيف يعترض عليه؟ وكيف يصح تفسيره بغير ما ذكر؟ ومفاض بضم الميم وفتح الفاء وآخره ضاد معجمة ضخم البطن، وقيل: مسترخى اللحم، وقيل: عظيم البطن أو عظيمها مسترخى اللحم.

(**ولعل هذه اللفظة مسيح بالسين وفتح الميم بمعنى عريض، كما وقع فى الرواية الأخرى، وحكاه ابن دريد، والكراديس رءوس العظام، وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: جليل المشاش والكتد)** جليل بفتح الجيم بمعنى عظيم.

(**والمشاش)** بضم الميم وشينين معجمتين واحده مشاشة، وهى رءوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين، وفى الصحاح (**رءوس المناكب)**: أى العظام اللينة التى يمكن مضغها، ويقال: تمشمشها.

(**والكتد)** بفتح الكاف وكسر المثناة الفوقية ويجوز فتحها فسره المصنف بأنه (**مجتمع الكتفين، وشثن الكفين والقدمين: لحيمهما، والزندان: عظما الذراعين، وسائل الأطراف: أى طويل الأصابع)**، وسائل مر الكلام عليه مفصلاً.

(**وذكر ابن الأنبارى)** محمد بن قاسم بشار اللغوى نسبة للأنبار بفتح الهمزة: قرية قريبة من الفرات، ولهم أنبارى آخر منها راو للحديث، وهو محمد بن سليمان، والأنبار معربة معناها مخزن القمح (**أنه روى: سائل الأطراف، أو قال: سائن بالنون، وهما بمعنى**

واحد تبدل اللام من النون إن صحت الرواية بها، وأما على الرواية الأخرى: وسائر الأطراف، فإشارة إلى فخامة جوارحه)، عليه الصلاة والسلام، (كما وقعت مفصلة فى الحديث، ورحب الراحة أى واسعها، وقيل: كناية عن سعة العطاء والجود و) قوله: (خمصان الأخمصين) تقدم ضبطه وما فيه، وفسره هنا بقوله: (أى متجافى أخمص القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم) هو بفتح السين والكثير سكونها، وضابطه أنه إن استعمل فى متفرق الأجزاء كالناس والدواب، فبالسكون وقد تفتح، أو فى متصلها كالدار والرأس فبالفتح وقد تسكن، وقال الجوهرى وغيره: والأول ظرف، والثانى اسم، ومن هنا يعلم أنهم لا يريدون بالاسم فى أمثال هذا الكلام اسم المصدر بخصوصه إذ الوسط بالمعنى الثانى ليس اسم مصدر قطعًا ثم قضيته أنه ليس ظرفًا إذ لا يقال: جلسنا وسط الدار، بل فى وسطها أى ما توسط منها.

(ومسيح القدمين أى أملسهما، ولذلك قال: ينبو عنهما الماء، وفى حديث أبى هريرة)، رضى الله تعالى عنه، (خلاف هذا، قال فيه: إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ليس له أخمص، وهذا يوافق معنى قوله: مسيح القدمين، وبه قالوا: سمى المسيح عيسى ابن مريم أى لم يكن له أخمص، وقيل: مسيح لا لحم عليهما، وهذا أيضًا يخالف قوله: شثن القدمين) إذا فسر بلحيمهما، وأما إذا فسر بميلهما إلى غلظ وقصر، أو بغلظ الأصابع فلا، وزعم أبو عبيدة أن شثنهما بمعنى غلظهما مع قصرهما، قال فى المطالع: وقد جاء ضد هذا، وهو سائل الأطراف يشير إلى رد زعمه، قال: وليس الشثن بعيب فى الرجال بخلاف النساء ردًا لمن زعم أنه معيب.

(والتقلع: رفع الرجل بقوة، والتكفؤ: الميل إلى سنن المشى وقصده، والهون: الرفق والوقار، والذريع: الواسع الخطو، أى أن مشيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرفع فيه رجليه بسرعة، ويمد خطوه، خلاف مشية المختال، ويقصد سمته، وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة، كما قال: فكأنما ينحط من صبب، وقوله)، فى صفته عليه الصلاة والسلام: (يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، أى لسعة فمه، والعرب تتمادح بهذا، وتذم بصغر الفم، وأشاح: مال وانقبض، وحب الغمام: البرد، وقوله: فيرد ذلك بالخاصة على العامة أى جعل من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه، فيوصل عنه للعامة، وقيل: يجعل منه للخاصة، ثم يبدلها فى جزء آخر بالعامة و) قوله: (يدخلون روادًا أى محتاجين إليه، وطالبين لما عنده، و) قوله: (ينصرفون إلا عن ذواق) مر ضبطه (قيل: عن علم يتعلمونه) منه، عليه الصلاة والسلام، (ويشبه أن يكون على ظاهره، أى فى الغالب والأكثر، والعتاد: العدة والشىء الحاضر المعد، والموازرة: المعاونة، وقوله: لا يوطن الأماكن أى لا يتخذ للصلاة

موضعًا معلومًا، وقد ورد نهيه) ﷺ **(عن هذا مفسرًا في غير هذا الحديث، وصابره: أي حبس نفسه)** الشريفة **(على ما يريد صاحبه، و)** قوله: **(لا تؤبن فيه الحرم)** مر ضبطه وفسره هنا بقوله: **(أي لا يذكرن فيه بسوء، و)** قوله: **(لا تنثى فلتاته)** تقدم ضبطه وفسره هنا بقوله: **(أي لا يتحدث بها، أي لم يكن فيه فلتة وإن كانت من أحد سترت، و)** قوله: **(يرفدون)** ذا الحاجة **(يعينون، والسخاب: الكثير الصياح، وقوله: ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، قيل: مقتصد في ثنائه ومدحه، وقيل: إلا من مسلم، وقيل: إلا من مكافئ على يد سبقت من النبي ﷺ له)** أي نعم، واليد تطلق على الجارحة، وعلى النعم؛ لأنهم بمنزلة العلة الفاعلية لها لصدورها عنها إلا أنه خولف بينهما في الجمع، فقيل في الجارحة: أيد وفي النعمة أيادي، ويدي بضم المثناة التحتية وكسر الدال المهملة وتشديد الياء كقوله:

فإن له عندي يديا وأنعما

والأصح أنها في الجمع سواء كما أثبته أهل اللغة بشواهده، فلا حاجة للإطالة بذكره.

(ويستفزه: يستخفه، وفي حديث آخر في وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم: منهوس) بسين مهملة ومعجمة **(العقب، أي قليل لحمها)** أي قليل لحم العقب، وقيل: بالمعجمة معناه ناتئ العقبين معروقهما، قاله ابن قرقول برمته، وأول هذين التفسيرين يوافق كلام المصنف، والمراد: جنس العقب لا عقب واحد كما تقدم مثله، وثانيهما يخالفه؛ لأنه اعتبر فيه النتوء مع قلة اللحم؛ لأنه معنى المعروق قليل اللحم كما في الصحاح.

(وأهدب) بدال مهملة **(الأشفار)** بشين معجمة وفاء وراء مهملة، وهي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر المسمى بالهدب، واحدها شفر بضم فسكون كهدب، ويكون مطلق الطرف: **(أي طويل شعرها)** انتهى التفسير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

تم بحمد الله الجزء الثاني من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي رحمه الله في شرح الشفاء للقاضي عياض

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

«الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار»

* * *

المحتويات